الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء العاشر

دار
إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

(المتوفى ٦٧١ هـ — ١٢٧٣ م)

الجزء التاسع عشر

عطیہ

برائے دار العلوم محمدیہ سیالکوٹ

از

برادرم محمد حنیف صاحب وزیر آبادی ضلع گوجرانوالہ

حال مقیم قصر مقام العین ابوظبی

اعاد طبعه

دار إحياء التراث العربي

بيروت - لبنان

١٩٦٧

Marfat.com

بيـــان

تم بعون الله تعالى تحقيق ومراجعة هذا الجزء (التاسع عشر) من تفسير القُرْطُبيّ ، على الأصول الآتية :

(١)	نسخة	رقم	٩٥	تفسير ،	المرموز	إليها	بحرف	ا
(٢)	»	»	١	حليم تفسير	»	»	»	ح
(٣)	»	»	٢٨٥	المكتبة الأزهرية ،	المرموز	إليها	بحرف	ز
(٤)	»	»	١٣	تفسير ،	المرموز	إليها	بحرف	س
(٥)	»	»	٣١٨	»	»	»	»	ط
(٦)	»	»	٦٤	»	»	»	»	ل
(٧)	»	»	٢٨٤	»	»	»	»	هـ
(٨)	»	»	٣٠٧	»	»	»	»	ى

وقد وُصفت هذه النسخ جميعها فى مقدّمة الجزء الثالث « الطبعة الثانية »

وبالله التوفيق .

مصطفى السقا
الأستاذ بجامعة القاهرة

Marfat.com

فهرس الجزء التاسع عشر

سورة الجن

صفحة

تفسير قوله تعالى : « قُل أُوحى إلىّ أنه ٱستمع نفر من الجنّ ... » الآيات . فيه مسائل : أوجه القراءات فى «أُوحى » . هل رأى النبى صلى الله عليه وسلم الجن فى ليلتهم أو لم يرهم ؟ الأحاديث الواردة فى قصة استماعهم للقرآن . حديث النهى عن الاستنجاء بالعظم والبعْر . اختلاف أهل العلم فى أصل الجن . الكلام على أن الجن يأكلون ، خلافا للأطباء والفلاسفة . الجن يتصوّرون لنا فى صور الحيّات لحديث « الموطأ » . مشركو مكة لم يدركوا ما أدركته الجن بتدبُّرها للقرآن . اختلاف القرّاء فى فتح همزة «أنّ» وكسرها فى السورة . معنى « جَدُّ ربنا » والقراءات فيها ١

تفسير قوله تعالى : « وأنه كان يقول سَفيهنا على الله شطَطًا ... » الآيات . معنى الشطط وأصله . تعوّذ العرب بالجنّ فى الجاهلية ٩

تفسير قوله تعالى : «وأنا لَمَسنا السماء فوجدناها مائت حَرَسًا شديدا ... » الآيات . الكلام على حراسة السماء من الشياطين . اختلاف السلف فى أن الحراسة كانت قبل البعثة أو بعدها ١١

تفسير قوله تعالى : « وأنّا منا الصالحون ومنا دون ذلك ... » الآيات . الكلام على أن الجن منهم المؤمن والكافر . لم يبعث الله قطُّ رسولا من الجن ، ولا من أهل البادية ، ولا من النساء ١٤

تفسير قوله تعالى : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غَدَقا ... » الآية ، من قول عُمَر : أينما كان المال كانت الفتنة . معنى الصَّعَد فى اللغة ... ١٧

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « وأن المساجد لله ... » الآية . فيه مسائل : بيان المراد بالمساجد . إضافة المساجد لله تشريف . يجوز إضافة المساجد لغير الله تعريفا . يجوز اتخاذ المساجد لغير الصلاة مما يمس مصالح المسلمين . لا تُتَّخذ المساجد هُزُوا ومَتجـرا ومجلسا . آداب دخول المساجد ٢٠

تفسير قوله تعالى : « وأنه لما قام عبد الله يدعوه ... » الآيات . « عبد الله » هنا محمد صلى الله عليه وسلم . قوله : «لِبَدا » فيه أربع لغات وقراءات . سبب نزول قوله تعالى : « قل إنما أدعو ربى » ٢٣

تفسير قوله تعالى : « قل إنى لن يجيرنى من الله أحد .. » الآيات ٢٥

تفسير قوله تعالى : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ... » الآيات . فيه مسألتان : معنى الغيب . المراد بالرسول فى قوله : «إلا من ارتضى من رسول» جبريل أو الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . لا يعلم الغيب أحد سوى الله ومن ارتضاه من الرسل . ليس المنجم ومن ضاهاه ممن ارتضاه ، بل هو كافر بالله ، مفتر عليه . ردّ بعض العلماء على المنجمين . ردّ الإمام على رضى الله عنه على أحد المنجمين أيضا لما أراد لقاء الخوارج ٢٧

سورة المزمل

تفسير قوله تعالى : « يأيها المزمل . قم الليل إلا قليلا ... » الآيات . فيه مسائل : أصل « المزمل » والقراءات فيه . « يأيها المزمل » خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم . أقوال العلماء فى معنى «المزمل» وحديث السيدة عائشة رضى الله عنها . ليس المزمل من أسماء النبى صلى الله عليه وسلم . فى خطابه بهذا الاسم فائدتان: الملاطفة ، والتنبيه لكل راقد ليله . حركة الميم فى « قم » الكسر أو الضم ، وحكى الفتح . الكلام على حدّ الليل . اختلاف العلماء فى فرضية قيام الليل . هل كان أمر القيام خاصا به صلى الله عليه وسلم أو له وللأنبياء قبله ، أو له

Marfat.com

صفحة

ولأمته . الأحاديث الواردة فى فضل قيام الليل . آختلاف العلماء فى الناسخ للأمر بالقيام . الكلام على معنى ترتيل القرآن وفضل قارئه ٣١

تفسير قوله تعالى : « إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا » . الأقوال فى معنى ثقل القرآن ٣٨

تفسير قوله تعالى : « إن ناشئة الليل هى أشد وطأ ... » الآيتين . فيه مسائل : معنى « ناشئة الليل » . ليس فى القرآن ما ليس فى لغة العرب . فى هذه الآية دليل على فضل صلاة الليل على صلاة النهار . آختلاف العلماء فى وقت ناشئة الليل . صلاة الليل أثقل على المصلى . رد آبن الأنبارى على من قال : من قرأ بحرف يوافق معنى حرف من القرآن فهو مصيب . القراءات فى « سَبْحاً » وبيان معناها ٣٩

تفسير قوله تعالى : « وآذكر آسم ربك ... » الآية . فيه مسائل : بيان الأقوال فى المراد بذكر الله فى الآية . الكلام على معنى التبتل ، والتبتل المأمور به والمنهى عنه ٤٣

تفسير قوله تعالى : « رب المشرق والمغرب ... » الآيات . الكلام على نسخ قوله تعالى : « وآصبر على ما يقولون » بآية القتال . قوله : « وذرنى والمكذبين » : نزلت فى صناديد قريش ٤٥

تفسير قوله تعالى : « إن لدينا أنكالا وجحيما ... » الآيات . بيان معنى الأنكال . بركة الطعام فى كيله لحديث النبى صلى الله عليه وسلم ٤٦

تفسير قوله تعالى : « إنا أرسلنا إليكم رسولا ... » الآيات . الكلام على تعليق « يوما » فى قوله تعالى : « فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا » والفزع فى ذلك اليوم ٤٨

تفسير قوله تعالى : « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ... » الآية . فيه مسائل : هذه الآية ناسخة لفرضية قيام الليل . الكلام على المراد بقراءة ما تيسر من القرآن . المشهور أن نسخ قيام الليل كان فى حق الأمة ، وبقيت

Marfat.com

صفحة

الفرضية فى حق النبي صلى الله عليه وسلم . بيان علة تخفيف قيام الليل . كسب المال بمنزلة الجهاد . صلاة الليل نُسخت بإيجاب الصلوات الخمس . آختلاف العلماء فى قدر ما يلزم أن يقرأ به فى الصلاة . بيان معنى القرض الحسن فى قوله تعالى : « وأقرضوا الله قرضا حسنا » ٥١

سورة المدثّر

تفسير قوله تعالى : « يأيها المدثر . قم فأنذر ... » الآيات . فيه مسائل : بيان الأقوال فى سبب تدثر النبي صلى الله عليه وسلم . فى الخطاب بالمدثر ملاطفة من الكريم إلى الحبيب . قوله تعالى : « وربك فكبر » يقتضى بعمومه تكبير الصلاة ، ومراد فيه أيضا تكبير التنزيه .

فى قوله تعالى : « وثيابك فطهر » ثمانيــة أقوال ٥٩

تفسير قوله تعالى : « والرُّجْز فاهجر » الآية . بيان القراءات فى « والرجز » ومعناها ٦٦

تفسير قوله تعالى : « ولا تمنن تستكثر » الآية . فيه مسائل : فى الآية أحد عشر تأويلا . ترجيح أحد الأقوال . القــراءات فى « ولا تمنُن » ٦٧

تفسير قوله تعالى : « ولربك فاصــبر ... » الآية . تفسير قوله تعــالى : « فإذا نقر فى الناقور ... » الآيات . معنى النقر فى كلام العرب . إعراب « يومئذ » ... ٦٩

تفسير قوله تعــالى : « ذرنى ومن خلقت وحيــدا ... » الآيات . « ذرنى » كلمة وعيد . المفسرون على أن الوحيد هو الوليد بن المغيرة . الأقوال فى سبب تسميته بالوحيد . الكلام على مال الوليد وأولاده . «صَعودا» : جبل من نار أو صخــرة فى جهنم ٧٠

تفسير قوله تعالى : « إنه فكّر وقدّر ... » الآيات . وصف الوليد للقرآن بأنه ليس من قول البشر . تعيير قــريش له بأنه صبأ . تفكيره فى وصف النبي صلى الله عليه وسلم بالساحر ، والقرآن بالسحر ٧٤

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « سأصليه سقر ... » الآيات... ... ... ٧٧

تفسير قوله تعالى : « عليها تسعة عشر... » الايتين . الكلام على عدد خزنة جهنم وتعذيبهم لأهلها . القراءات فى « تسعة عشر » ٧٨

تفسير قوله تعالى : « كلا والقمر ... » الآيات . الكلام على « كلّا » وهل يجوز الوقف عليها أو لا . يجوز قراءة « أدبر » بألف و « دبر » بغير ألف، « أسفر » و « سفر » كذلك . « إحدى » بُني ابتداء للتأنيث . «رهينة» : اسم بمعنى الرهن وليس مؤنثا . اختلاف العلماء فى تعيين أصحاب اليمين . بيان صحة الشفاعة للمذنبين من أهل التوحيد ٨٣

تفسير قوله تعالى : « فما لهم عن التذكرة معرضين ... » الآيات . المعرضون هم أهل مكة . بيان المراد بالإعراض عن القرآن . اختلاف المفسرين فى تفسير القسورة . طلب جماعة من كفار قريش صحفا من الله برسالة محمد ٨٨

تفسير قوله تعالى : «كلا إنه تذكرة ... » الآيات ٩٠

سورة القيامة

تفسير قوله تعالى : « لا أقسم بيوم القيامة ... » الآيات . الكلام على « لا » فى الآية . اختلاف المفسرين فى المراد بالنفس اللوامة . بيان سبب نزول قوله تعالى : « أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامة » . الكلام على المراد بتسوية البنان ٩١

تفسير قوله تعالى : « فإذا برق البصر ... » الآيات . بيان القراءات فى « برق » ومعناها . الكلام على جمع الشمس والقمر يوم القيامة . أوجه القراءات فى «المفر» . معنى الوزر فى اللغة . بيان الأعمال التى تنفع الإنسان بعد موته... ٩٥

تفسير قوله تعالى : « بل الإنسان على نفسه بصيرة ... » الآيتين . بيان المراد بالبصيرة ومعنى الهاء فيها . الآية فيها دليل على قبول إقرار المرء على نفسه . حكم

Marfat.com

صفحة

إقرار المرء على الغير بوارث أودين . لا يصح الإقرار إلا من مكلَّف غير محجور عليه . الاعتذار بعد الإقرار لا يقبل . حكم إقرار المملوك... ... ... ٩٩

تفسير قوله تعالى : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ... » الآيات ١٠٥

تفسير قوله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة... » الآيات . الكلام على رؤية البارى جل وعلا يوم القيامة... ... ... ١٠٧

تفسير قوله تعالى : « كلا إذا بلغت التراقىَ ... » الآيات ١١١

تفسير قوله تعالى : « فلا صدَّق ولا صلَّى ... » الآيات . بيان أن الآية نزلت فى أبى جهل . « أَوْلَى لك فأولى » تهديد ووعيد ١١٣

تفسير قوله تعالى : « أيحسَب الإنسان أن يترك سُدًى ... » الآيات ١١٦

سورة الإنسان

تفسير قوله تعالى : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر ...» الآيات . الكلام على معنى « هل » فى الآية . بيان الأطوار التى مرت على خلق آدم عليه السلام . أطوار خلق الإنسان . سؤال حَبْر من اليهود للنبى صلى الله عليه وسلم عن ماء الرجل وماء المرأة ١١٨

تفسير قوله تعالى : « إنا أعتدنا للكافرين سلاسلا ... » الآية . الكلام على معنى « سلاسلا » وإعرابها ١٢٣

تفسير قوله تعالى : « إن الأبرار يشربون من كأس ... » الآيتين . الكلام على عيون الجنة ١٢٤

تفسير قوله تعالى : «يوفون بالنذْر ...» الآيات . بيان معنى النذر وما يندرج فيه . الأقوال فى المراد بالمسكين واليتيم والأسير . الكلام على من نزلت فيهم الآية . الرد على من قال إنها نزلت فى علىّ وفاطمة رضى الله عنهما ١٢٧

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا ... » الآيات ... ١٣٥

تفسير قوله تعالى : « ويطاف عليهم بآنية من فضة » ١٤٠

تفسير قوله تعالى : « ويطوف عليهم ولدان مخلدون ... » الآيات . الكلام على نعيم أهل الجنة . بيان إعراب « إستبرق » ، وأنه معرّب . حديث النبي صلى الله عليه وسلم فى شأن الرجل الحبشى ١٤٣

تفسير قوله تعالى : « إنا نحن نزلنا عليك القرآن ... » الآيات . الأقوال فى سبب نزول قوله تعالى : « ولا تطع منهم آثما أو كفورا » ، ومعنى « أو » فى الآية ١٤٨

تفسير قوله تعالى : « إن هذه تذكرة ... » الآيات ١٥٢

ســـــورة المرسلات

تفسير قوله تعالى : « والمرسلات عرفا ... » الآيات . أقوال المفسرين فى المراد بالمرسلات . الكلام على الهمزة فى « أقتت » ١٥٤

تفسير قوله تعالى : « ألم نهلك الأولين ... » الآيات ١٥٩

تفسير قوله تعالى : « ألم نجعل الأرض كفاتا ... » الآيات . فيه مسئلتان : فى الآية دليل على وجوب دفن الميت . النبّاش تقطع يده ١٦٠

تفسير قوله تعالى : « انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ... » الآيات . الأمر للكفار يوم القيامة . الكلام على الظل ذى الشعب الثلاث . جواز ادّخار الحطب والفحم والقوت ١٦٢

تفسير قوله تعالى : «هذا يوم لا ينطقون ... » الآيات . قراءة يوم بالنصب والرفع ١٦٦

تفسير قوله تعالى : « هذا يوم الفصل ... » الآيات . تفسير قوله تعالى : « إن المتقين فى ظلال وعيون ... » الآيات . الظلال للمؤمنين فى مكان الظل ذى الشعب للكفار ١٦٧

تفسير قوله تعالى : « وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ... » الآيات . الآية نزلت فى ثقيف أو يقال ذلك فى الآخرة . هذه الآية حجة على أن الركوع ركن فى الصلاة ١٦٨

Marfat.com

ســـورة عـــم

صــفحة

تفسير قوله تعـالى : « عم يتسـاءلون ... » الآيات . الكلام على أصـل « عمّ » والاستفهام بها ومعناها . بيان المراد بالنبأ العظيم فى الآية ١٦٩

تفسير قوله تعـالى : « ألم نجعل الأرض مهـادا... » الآيات ١٧١

تفسير قوله تعـالى : « إن يوم الفصل كان ميقاتا ... » الآيات . حديث النبي صلى الله عليه وسلم فى حشر الناس على صور مختلفة ١٧٥

تفسير قوله تعـالى : « إن جهـنم كانت مِرصادا ... » الآيات . الكلام على معنى الرَّصَد ، وأن على النار رَصَدا . بيان معنى الأحقاب ومدة الحُقُب . الأقوال فى أن الاية تدل على الخلود أو لا تدل عليه ١٧٦

تفسير قوله تعـالى : « إن للمتقين مفازا ... » الايات ١٨٢

تفسير قوله تعالى : « رب السموات والأرض ... » الآيات . اختلاف المفسرين فى المراد بالروح فى الآية. بيان المراد بالكافر فى قوله تعالى : « و يقول الكافر ياليتنى كنت ترابا » ١٨٥

ســـورة النـازعات

تفسير قوله تعـالى : « والنازعات غرْقا ... » الآيات . أقوال المفسرين فى معنى النازعات . بيان معنى تدبير الملائكة للأمر فى قوله : « فالمدبرات أمرا » . الكلام على الحافرة والساهرة فى الآية ١٩٠

تفسير قوله تعـالى : « هل أتاك حديث موسى ... » الآيات . حديث موسى تسلية للنبي صلى الله عليـه وسلم : فى « طُوَى » ثلاث قراءات ٢٠٠

تفسير قوله تعـالى : « أ أنتم أشـد خلقا أم السماء بناها ... » الآيات . معنى الآية التقريع . بيان معنى سَمْـك السماء ودحو الأرض ٢٠٣

Marfat.com

صفحة
تفسير قوله تعالى : « فإذا جاءت الطامة الكبرى ... » الآيات... ... ... ٢٠٦
تفسير قوله تعالى : « فأما من طغى ... » الآيات . بيان سبب نزولها . إيثار الدنيا على الآخرة سبب فى الهلاك ٢٠٧
تفسير قوله تعالى : « يسألونك عن الساعة ... » الآيات . بيان سبب نزولها . تقوم الساعة بغضب الله تعالى على عباده ٢٠٩

ســورة عبس

تفسير قوله تعالى : « عبس وتولى . أن جاءه الأعمى ... » الآيات . فيه مسائل : ماروواه أهل التفسير فى سبب النزول . الآية عتاب من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم . المؤمن الفقير خير من الغنى . ما فعله ابن أم مكتوم كان فيه نوع جفاء . الآية لها نظائر من القرآن فى عتاب النبي صلى الله عليه وسلم ٢١١
تفسير قوله تعالى : « أما من استغنى . فأنت له تصدّى ... » الآيات ٢١٤
تفسير قوله تعالى : « كلا إنها تذكرة ... » الآيات ٢١٥
تفسير قوله تعالى : « قتل الإنسان ما أكفره ... » الآيات . سبب نزول الآية . دعاء النبي صلى الله عليه وسلم على عُتبة بن أبى لهب وتمزيق الأسد له ٢١٧
تفسير قوله تعالى : « فلينظر الإنسان إلى طعامه ... » الآيات . مايصير إليه طعام الإنسان مثل للدنيا . الأقوال فى معنى الأبّ ٢٢٠
تفسير قوله تعالى : « فاذا جاءت الصاخة ... » الآيات . الصاخة النفخة الثانية . الكلام على فِرار الإنسان من أهله فى المحشر ٢٢٣

ســورة التكوير

تفسير قوله تعالى : « إذا الشمس كوّرت ... » الآيات . الكلام على أصل التكوير ومعناه . بيان ما يحدث يوم القيامة من خراب الدنيا . سبب وأد العرب فى الجاهلية للبنات والكلام عليه ٢٢٧

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « فلا أقسم بالخُنَّس . الجوار الكنس ... » الآيات .
« الخنس » الكواكب أو بقر الوحش . لله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته .
الكلام على معنى « عسعس » ٢٣٦

تفسير قوله تعالى : « ولقد رآه بالأفق المبين ... » الآيات . أقوال العلماء فى رؤية
النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام فى صورته ٢٤١

ســورة الانفطار

تفسير قوله تعالى : « إذا السماء انفطرتْ ... » الآيات . من أشراط الساعة أن
تخرج الأرض ذهبها وفضتها ٢٤٤

تفسير قوله تعالى : « يأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم ... » الآيات . الأقوال
فى المراد بالإنسان هنا وسبب غروره ٢٤٥

تفسير قوله تعالى : « وإن عليكم لحافظين ... » الآيات . فيه مسائل : الآثار
الواردة فى إكرام الكرام الكاتبين . اختلاف العلماء فى الكفار هل عليهم حفظة
أم لا ؟ كيف تعلم الملائكة أن العبد قد هم بحسنة أو سيئة ٢٤٧

تفسير قوله تعالى : « إن الأبرار لفى نعيم ... » الآيات ٢٤٩

ســورة المطففين

تفسير قوله تعالى : « ويلٌ للمطففين ... » الآيات . فيه مسائل : بيان سبب
النزول . لكل شيء وفاء وتطفيف . أقوال أهل اللغة فى مأخذ المطفف .
هل يجوز الوقف على « كالوا » و « وزنوا » أولا ؟ الأحاديث الواردة فى شدة
عذاب المطففين ٢٥٠

تفسير قوله تعالى : « ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ... » الآيات ٢٥٤

تفسير قوله تعالى : « كلا إن كتاب الفجار لفى سجين ... » الآيات . الكلام على
معنى « سجين » وموضعه . الأحاديث الواردة فى خبث أرواح الكفار ورد أعمالهم ٢٥٦

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ... » الآيات . بيان معنى الرين . فى قوله تعالى : « إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » دليل رؤية الله عز وجل يوم القيامة ٢٥٩

تفسير قوله تعالى : « كلا إن كتاب الأبرار لفى عليين... » الآيات . الكلام على أن روح المؤمن إذا قبضت تلقتها الملائكة بالبشرى . « عليون » اسم موضوع على صفة الجمع، ولا واحد له ٢٦٢

تفسير قوله تعالى : « إن الأبرار لفى نعيم ... » الآيات . بيان معنى « رحيق » فى الآية و « مختوم » ٢٦٤

تفسير قوله تعالى : « إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ... » الآيات . بيان سبب النزول . إن بين الجنة والنار كوى ينظر منها المؤمن إلى عدوه فى النار ٢٦٧

سورة الانشقاق

تفسير قوله تعالى : « إذا السماء انشقت ... » الآيات . انشقاق السماء من أشراط الساعة . أقوال العلماء فى جواب « إذا » فى الآية . الجمهور على أن قوله : « إذا السماء انشقت » خبر، وليس بقسم ٢٦٩

تفسير قوله تعالى : « يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا ... » الآيات . الأقوال فى المراد بالإنسان ومعنى الكدح فى كلام العرب . من نوقش الحساب عذب ٢٧١

تفسير قوله تعالى : « وأما من أوتى كتابه وراء ظهره ... » الآيات . الآية نزلت فى الأسود بن عبد الأسد، ثم هى عامة . «يحور» كلمة بالحبشية، ومعناها يرجع ٢٧٢

تفسير قوله تعالى : «فلا أقسم بالشفق ...» الآيات . «لا» : صلة . اختلاف العلماء فى « الشفق »، وهل هو الحمرة أو البياض ؟ معنى الوسق فى اللغة وفى الآية .

Marfat.com

صفحة

بيان معنى « لتركبن طبقا عن طبق » . تغير أحوال الإنسان دليل على حدوث العالم وإثبات الصانع . هل قوله تعالى : « وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون » من عزائم السجود أولا ؟ ٢٧٤

تفسير قوله تعالى : « بل الذين كفروا يكذبون ... » الآيات . بيان سبب النزول . « إلا الذين آمنوا » استثناء منقطع أو هو بمعنى الواو ٢٨١

سورة البروج

تفسير قوله تعالى : « والسماء ذات البروج ... » الآيات . الأقوال فى معنى « البروج » . اختلاف أهل التأويل فى معنى « وشاهد ومشهود » . يشهد المال على صاحبه والأرض بما عمل عليها ٢٨٣

تفسير قوله تعالى : « قتل أصحاب الأخدود ... » الآيات . الكلام على الذين خددوا الأخاديد وقعدوا عليها . قصة الغلام الذى صبر على أذى قومه ولم يرجع عن دينه . فى الآية تأنيس للمؤمنين . هل الآية منسوخة أولا ؟ ٢٨٦

تفسير قوله تعالى : « وما نقموا منهم ... » الآيات ٢٩٤

تفسير قوله تعالى : « إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ... » الآيات ٢٩٥

تفسير قوله تعالى : « هل أتاك حديث الجنود ... » الآيات . فى الآية تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم . خص فرعون وثمود لشهرتهما فى بلاد العرب ٢٩٧

تفسير قوله تعالى . « والله من ورائهم محيط ... » الآيات . القرآن به بيان ما بالناس حاجة إليه من أحكام الدين والدنيا . الكلام على اللوح المحفوظ ٢٩٨

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الجن

مكّيّة فى قول الجميع . وهى ثمان وعشرون آية

قوله تعالى : قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ أى قل يا محمد لأمتك : أوحى الله إلىّ على لسان جبريل ﴿ أَنَّهُ اسْتَمَعَ ﴾ إلىّ ﴿ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ وما كان عليه السلام عالمًا به قبل أن أوحى إليه. هكذا قال ابن عباس وغيره على ما يأتى. وقرأ ابن أبى عَبْلة «أُحِىَ»[1] على الأصل؛ يقال : أَوحَى إليه ووَحَى، فقلبت الواو همزة؛ ومنه قوله تعالى : « وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ » وهو من القلب المطلق جوازه فى كل واو مضمومة . وقد أطلقه المازنىّ فى المكسورة أيضا كإشاح[2] و إسادة و « إِعَاءِ أَخِيهِ » ونحوه .

الثانيـــة — واختُلف هل رآهم النبىّ صلى الله عليه وسلم أم لا؟ فظاهر القرآن يدل على أنه لم يرهم؛ لقوله تعالى: «اسْتَمَعَ» ، وقوله تعالى: «وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ» . وفى صحيح مسلم والترمذى عن ابن عباس قال[3]: ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) فى الأصول (وحى) ، والصواب ما أثبتناه ، وهو موافق لما جاء فى (تاج العروس : وحى) قال : وقرأ جؤية الأسدى : (قل أحى الىّ) ، ولم ينسب القراءة لابن أبى عبلة . (٢) لفظ « إشاح » ساقط من الأصل المطبوع . (٣) اللفظ لمسلم، وأما الترمذى ففى لفظه زيادة .

Marfat.com

على الجنّ وما رآهم ، انطلق رسول الله صلى الله عليه وسـلم فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سُوق عُكَاظ ، وقد حيـل بين الشياطين و بين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشُهُب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم ، فقالوا : ما لكم ؟ قالوا : حِيل بيننا و بين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشُّهب ! قالوا : ما ذاك إلا من شيء حدث ، فآضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فآنظروا ما هذا الذى حال بيننا و بين خبر السماء ؟ فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها ، فمرّ النفر الذين أخذوا نحو تِهامة وهو بنخلة(١) عامدين إلى سُـوق عُكَاظ ، وهو يصلّى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن آستمعوا له وقالوا : هذا الذى حال بيننا و بين خبر السماء . فرجعوا إلى قومهـم فقالوا : يا قومنا « إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا(٢) . يَهْـدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا » فأنزل الله عز وجل على نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم : « قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ آسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ » . رواه الترمذى عن آبن عباس قال : قول الجنّ لقومهم « لَمَّـا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْـهِ لِبَدًا » قال : لمـا رأوه يصلّى وأصحابه يصلّون بصلاته فيسجدون بسجوده(٣) قال : تعجّبوا من طواعية أصحابه له ، قالوا لقومهم : « لَمَّـا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا » قال : هذا حديث حسن صحيح ؛ ففى هذا الحديث دليل على أنه عليه السلام لم يرَ الجنّ ولكنهم حضروه ، وسمعوا قراءته . وفيه دليل على أن الجنّ كانوا مع الشياطين حين تجسسوا الخبر بسبب الشياطين لمـا رُمُوا بالشّهب . وكان المرميّـون بالشّهب من الجنّ أيضا . وقيل لهم شياطين كما قال : « شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ » فإن الشيطان كل متمرّد وخارج عن طاعة الله . وفى الترمذى عن آبن عباس قال : كان الجنّ يصعدون إلى السماء يستمعون إلى الوحْى فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها(٤) تسعًا ، فأما الكلمة فتكون حقًّا ، وأما مازادوا فيها ، فيكون باطلًا . فلما بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مُنِعوا مقاعدهم ، فذكروا ذلك لإبليس ولم تكن النجوم يُرمى بها قبل ذلك ، فقال لهم إبليس : ما هذا الأمر(٥) إلا من(٦) أمر قد حدث فى الأرض !

(١) كذا فى ا ، ح ، ط وهو الصواب . (٢) فى ح : « إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى قرآنا عجبا » ... الخ . (٣) فى ح : « ويسجدون معه ... » . (٤) كلمة « فيها » ساقطة من الأصل المطبوع . (٥) كلمة « الأمر » ساقطة من الأصل المطبوع . (٦) فى ط « من » فى موضع « من » .

Marfat.com

فبعث جنوده فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمًا يصلّي بين جبلين — أراه قال بمكة — فأتوه فأخبروه فقال: هذا الحَدَث[1] الذى حدث فى الأرض. قال: هذا حديث حسن صحيح. فدلّ هذا الحديث على أن الجنّ رُموا كما رُميت الشياطين . وفى رواية السُّدى : أنهم لما رُموا أتوا إبليس فأخبروه بما كان من أمرهم فقال : ايتونى من كل أرض بقبضة من تراب أشمّها فأتوه فشمّ فقال : صاحبكم بمكة . فبعث نفرًا من الجنّ ، قيل : كانوا سبعة ، وقيل : تسعة منهم زَوْبعة . وروى عاصم عن زِرّ قال : قدم رهط زوبعة وأصحابه على النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال الثُّمالى : بلغنى أنهم من بنى الشَّيْصَبان ، وهم أكثر الجنّ عددًا ، وأقواهم شوكة ، وهم عامة جنود إبليس . وروى أيضا عاصم عن زرّ : أنهم كانوا سبعة نفر؛ ثلاثة من أهل حَرّان وأربعة من أهل نَصيبين . وحكى جُويبر عن الضحاك : أنهم كانوا تسعة من أهل نَصيبين (قرية باليمن غير التى بالعراق)[2] . وقيل : إن الجنّ الذين أتوا مكة جنّ نِصيبين ، والذين أتوه بنخلة جنّ نِيْنَوَى . وقد مضى بيان هذا فى سورة «الأحقاف»[3] . قال عِكرمة : والسورة التى كان يقرؤها رسول الله صلى الله عليه وسلم «اقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ» وقد مضى فى سورة «الأحقاف» التعريف بٱسم النفر من الجنّ ، فلا معنى لإعادة ذلك .

وقيل : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم رأى الجنّ ليلة الجنّ وهو أثبت ؛ روى عامر الشّعبي قال : سألت علقمة هل كان ٱبن مسعود شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ ؟ فقال علقمة : أنا سألت ٱبن مسعود فقلت : هل شهد أحد منكم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ ؟ قال : لا ، ولكنّا كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ففقدناه ، فالتمسناه فى الأودية والشِّعاب ، فقلنا ٱستُطير[4] أو ٱغتيل ، قال : فبتنا بشرّ ليلة بات بها قوم ، فلما أصبح إذا هو يجىء من قبل حِرَاء ، فقلنا : يا رسول الله ! فقدناك وطلبناك فلم نجدك ، فبتنا بشرّ ليلة بات بها قوم ؛ فقال : "أتانى داعى الجنّ فذهبت معه

(١) كلمة « الحدث » ساقطة من الأصل المطبوع . (٢) لم نجد نصيبين التى ذكرها المؤلف فى معجم ما استعجم للبكرى ولا فى معجم البلدان لياقوت ، ولا فيما نقله صاحب تاج العروس عن ياقوت .
(٣) راجع جـ ١٦ ص ٢١١ (٤) فى التاج : استطير فلان : ذعر .

Marfat.com

فقرأت عليهم القــرآن " فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ، وسألوه الزاد وكانوا من جنّ الجزيرة، فقال: "لكم كلُّ عَظْم ذُكر آسم الله عليه يقع فى أيديكم أوْفَرَ ما يكون لحماً، وكلُّ بَعْرة عَلَفٌ لدوابكم — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلا تستنجُوا بهما، فإنهما طعام إخوانكم الجنّ" قال آبن العربى: وآبن مسعود أعرف من آبن عباس؛ لأنه شاهده وآبن عباس سمعه وليس الخبر كالمعاينة. وقد قيل: إن الجنّ أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم دفعتين: إحداهما بمكة وهى التى ذكرها آبن مسعود، والثانية بنخلة وهى التى ذكرها آبن عباس . قال البيهقى: الذى حكاه عبد الله بن عباس إنما هو فى أوّل ما سمعت الجنّ قراءة النبىّ صلى الله عليه وسلم وعلمت بحاله، وفى ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم كما حكاه، ثم أتاه داعى الجنّ مرة أخرى فذهب معه وقرأ عليهم القرآن كما حكاه عبد الله بن مسعود. قال البيهقى: والأحاديث الصحاح تدل على أن آبن مسعود لم يكن مع النبىّ صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ ، وإنما سار معه حين انطلق به وبغيره يريه آثار الجنّ وآثار نيرانهم . قال : وقد رُوى من غير وجه أنه كان معه ليلتئذ، وقد مضى هذا المعنى فى سورة «الأحقاف» والحمد لله. روى عن آبن مسعود أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " أمرت أن أتلو القرآن على الجنّ فمن يذهب معى؟" فسكتوا، ثم قال الثانية، ثم قال الثالثة، ثم قال عبد الله بن مسعود: أنا أذهب معك يا رسول الله، فانطلق حتى جاء الحَجُــون عند شِــعْب أبى دُبٍّ[1] فخطّ علىّ خطًّا فقال : " لا تجاوزه " ثم مضى إلى الحَجُــون فانحدر عليه أمثالُ الحَجَــل يحدرون[2] الحجارة بأقدامهم، يمشون يقرعون فى دُفوفهم كما تقرع النِّسوة فى دُفوفها، حتى غَشَوه فلا أراه، فقمت فأومَى إلىّ بيده أن أجلس، فتلا القرآن فلم يزل صوته يرتفع ، ولصقوا بالأرض حتى ما أراهم ، فلما آنفتل إلىّ قال : " أردتَ أن تأتينى"؟ قلت: نعم يارسول الله. قال: "ما كان ذلك لك، هؤلاء الجنّ أتوا يستمعون القرآن، ثم ولّوا إلى قومهم منذرين فسألونى الزاد فزوّدتهم العظم والبعر فلا يَستطيبنّ أحدكم بعظم ولا بعر"

(١) شعب أبى دب يقال فيه مدفن آمنة بنت وهب أم النبى صلى الله عليه وسلم .

(٢) يحدرون الحجارة، بضم الدال وكسرها : يحطونها من علو إلى سفل .

Marfat.com

قال عكرمة : وكانوا آثنى عشر ألفا من جزيرة الموصل . وفى رواية : آنطلق بى عليه السلام حتى إذا جئنا المسجد الذى عند حائط عوف خطّ لى خطًّا ، فأتاه نفر منهم فقال أصحابنا كأنهم رجال الزّط (١) وكأن وجوههم المكاكىّ (٢) ، فقالوا : ما أنت؟ قال : "أنا نبىّ الله" قالوا : فمن يشهد لك على ذلك ؟ قال : " هذه الشجرة " فقال : " ياشجرة " فجاءت تجر عروقها ، لها قعاقع حتى آنتصبت بين يديه ، فقال : " على ماذا تشهدين " قالت : أشهد أنك رسول الله . فرجعت كما جاءت تجر بعروقها الحجارة ، لها قعاقع حتى عادت كما كانت . ثم روى أنه عليه السلام لما فرغ وضع رأسه على حِجر آبن مسعود فرقد ثم آستيقظ فقال : " هل من وضوء " قال : لا ، إلا أن معى إداوة فيها نبيذ . فقال : " هل هو إلا تمر وماء " فتوضأ منه .

الثالثة — قد مضى الكلام فى الماء فى سورة « الحجر » (٣) وما يستنجى به فى سورة « براءة » (٤) فلا معنى للإعادة .

الرابعة — وآختلف أهل العلم، فى أصل الجنّ؛ فروى إسمعيل عن الحسن البصرىّ : أن الجنّ ولد إبليس ، والإنس ولد آدم ، ومن هؤلاء وهؤلاء مؤمنون وكافرون ، وهم شركاء فى الثواب والعقاب . فمن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمنًا فهو ولىّ الله ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافرًا فهو شيطان . وروى الضحاك عن آبن عباس : أن الجنّ هم ولد الجان وليسوا بشياطين ، وهم يؤمنون ؛ ومنهم المؤمن ومنهم الكافر ، والشياطين هم ولد إبليس لا يموتون إلا مع إبليس . وآختلفوا فى دخول مؤمنى الجن الجنة ، على حسب الاختلاف فى أصلهم . فمن زعم أنهم من الجان لا من ذرّية إبليس قال : يدخلون الجنة بإيمانهم . ومن قال : إنهم من ذرّية إبليس فلهم فيه قولان : أحدهما — وهو قول الحسن يدخلونها . الثانى — وهو رواية مجاهد

(١) الزط : جنس من الهنود، لونهم ضارب إلى السواد .

(٢) المكاكى : جمع مكوك وهو طاس يشرب فيه أعلاه ضيق ووسطه واسع ، ومكيال معروف لأهل العراق بهذه الصفة أيضا . ولعله من باب قول العرب : ضرب مكوك رأسه ، على التشبيه .

(٣) راجع جـ ١٠ ص ١٥ فما .

(٤) راجع جـ ٨ ص ٢٥٩ فما .

Marfat.com

لا يدخلونها و إن صُرفوا عن النار . حكاه الماوردىّ[(١)] . وقد مضى فى سورة « الرحمن » عند قوله تعالى : « لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ » بيان أنهم يدخلونها .

الخامسة ــ قال البيهقى فى روايته : وسألوه الزاد وكانوا من جنّ الجزيرة فقال: "لكم كلّ عظم" دليل على أنهم يأكلون و يَطْعَمون . وقد أنكر جماعة من كفرة الأطباء والفلاسفة الجنّ، وقالوا : إنهم بسائط، ولا يصح طعامهم؛ اجتراءً على الله وافتراءً، والقرآن والسنة تردّ عليهم، وليس فى المخلوقات بسيط مركب مزدوج، إنما الواحد الواحدُ[(٢)] سبحانه، وغيره مركب وليس بواحد كيفما تصرف حاله . وليس يمتنع أن يراهم النبىّ صلى الله عليه وسلم فى صورهم كما يرى الملائكة . وأكثر ما يتصوّرون لنا فى صور الحيات؛ ففى الموطأ : أن رجلا حديث عهد بعُرس استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنصاف النهار أن يرجع إلى أهله ... الحديث، وفيه : فإذا حيّة عظيمة منطوية على الفراش، فأهوى إليها بالرمح فانتظمها . وذكر الحديث. وفى الصحيح أنه عليه السلام قال : "إن لهذه البيوت عوامر، فإذا رأيتم منها شيئا فحرّجوا عليها ثلاثا، فإن ذهب و إلا فاقتلوه فإنه كافر". وقال: "اذهبوا فادفنوا صاحبكم"[(٣)] وقد مضى هذا المعنى فى سورة «البقرة»[(٤)] و بيان التحريج عليهنّ . وقد ذهب قوم إلى أن ذلك مخصوص بالمدينة؛ لقوله فى الصحيح : "إن بالمدينة جنًّا قد أسلموا". وهذا لفظ مختص بها فيختص بحكمها . قلنا : هذا يدل على أن غيرها من البيوت مثلها؛ لأنه لم يُعَلَّل[(٥)] بحرمة المدينة، فيكون ذلك الحكم مخصوصا بها، و إنما علّل بالإسلام، وذلك عام فى غيرها، ألا ترى قوله فى الحديث مخبرا عن الجنّ الذى لقى : « وكانوا من جنّ الجزيرة »؛ وهذا بيّن يعضُده قوله : "ونهى عن عوامر البيوت"، وهذا عام . وقد مضى فى سورة «البقرة» القول فى هذا فلا معنى للإعادة.

(١) راجع جـ ١٧ ص ١٨١ .

(٢) الواحد الواحد : كذا فى بعض الأصول، وفى بعضها بلا تكرار . وفى الشوكانى : «إنما الواحد الله سبحانه».

(٣) هذا ينبغى أن يكون قبل الحديث السابق له، كما فى ابن العربى .

(٤) راجع جـ ١ ص ٣١٥

(٥) فى هامش ح : « لا لأنه » .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ أى فى فصاحة كلامه . وقيل : عجبا فى بلاغة مواعظه . وقيل : عجبًا فى عظم بركته . وقيل: قرآنا عزيزًا لا يوجد مثله . وقيل : يعنون عظيمًا . ﴿ يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ ﴾ أى إلى مراشد الأمور . وقيل : إلى معرفة الله تعالى ؛ و « يَهْدِى » فى موضع الصفة أى هاديًا . ﴿ فَآمَنَّا بِهِ ﴾ أى فاهتدينا به وصدّقنا أنه من عند الله ﴿ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ أى لا نرجع إلى إبليس ولا نطيعه؛ لأنه الذى كان بعثهم ليأتوه بالخبر، ثم رُمِى الجنّ بالشُّهب . وقيل لا نتخذ مع الله إلهًا آخر؛ لأنه المتفرّد بالربوبية . وفى هذا تعجيب المؤمنين بذهاب مشركى قريش عما أدركته الجنّ بتدبرها القرآن . وقوله تعالى : « اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ » أى استمعوا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فعلموا أن ما يقرؤه كلام الله . ولم يذكر المستمع إليه لدلالة الحال عليه . والنفر الرهط؛ قال الخليل : ما بين ثلاثة إلى عشرة . وقرأ عيسى الثقفى « يَهْدِى إِلَى الرَّشَدِ » بفتح الراء والشين .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ كان علقمة ويحيى والأعمش وحمزة والكسائى وابن عامر وخلف وحفص والسلمى ينصبون « أنّ » فى جميع السورة فى اثنى عشر موضعًا، وهو(1): « أَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا »، « وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ »، « وَأَنَّا ظَنَنَّا »، « وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ »، « وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا »، « وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ »، « وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ »، « وَأَنَّا لَا نَدْرِى »، « وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ »، « وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ »، « وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى »، « وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ » عطفًا على قوله : « أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ »، « وأَنَّهُ اسْتَمَعَ » لا يجوز فيه إلا الفتح؛ لأنها فى موضع اسم فاعل « أُوحِىَ » فما بعده معطوف عليه . وقيل: هو محمول على الهاء فى « آمَنَّا بِهِ »، أى وبـ« أَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا » وجاز ذلك وهو مضمر مجرور لكثرة حرف الجار مع « أنّ » . وقيل : المعنى أى وصدّقنا أنه جدّ ربنا . وقرأ الباقون كلّها بالكسر وهو الصواب، واختاره أبو عبيدة وأبو حاتم عطفًا على قوله : « فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا » لأنه كله(2) من كلام الجن . وأما أبو جعفر

(1) كلمة (وهو) موجودة فى الأصول ح، و، ط، ص وليست موجودة فى الأصل ا . والضمير راجع إلى النصب .
(2) كلمة « كله » ساقطة من ح .

Marfat.com

وشيبة فإنهما فتحا ثلاثة مواضع؛ وهى قوله تعالى : « وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا » ، « وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ » ، « وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ » ، قالا : لأنه من الوحى، وكسرا ما بقى؛ لأنه من كلام الجنّ. وأما قوله تعالى : « وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ » فكلهم فتحوا إلا نافعًا وشيبة وزرّ بن حُبيش وأبا بكر والمفضّل عن عاصم، فإنهم كسروا لا غير. ولا خلاف فى فتح همزة « أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ » ، « وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا » « وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ » ، « وأَنْ قَدْ أَبْلَغُوا » . وكذلك لا خلاف فى كسر ما بعد القول؛ نحو قوله تعالى : « فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا » و « قَالَ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي »(١) و « قُلْ إِنْ أَدْرِى » و « قُلْ إِنِّى لَا أَمْلِكُ » وكذلك لا خلاف فى كسر ما كان بعد فاء الجزاء؛ نحو قوله تعالى : « فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ » و « فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ » لأنه موضع ابتداء .

قوله تعالى : « وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا »(٢) الجدّ فى اللغة : العظمة والجلال؛ ومنه قول أنس : كان الرجل إذا حفظ البقرة وآل عِمران جَدّ فى عيوننا؛ أى عَظُم وجلّ . فمعنى : « جدُّ رَبِّنَا » أى عظمته وجلاله؛ قاله عكرمة ومجاهد وقتادة . وعن مجاهد أيضا : ذِكره . وقال أنس بن مالك والحسن وعكرمة أيضا : غناه . ومنه قيل للحظ جَدٌّ، ورجل مجدود أى محظوظ؛ وفى الحديث : "ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدّ" قال أبو عبيدة والخليل : أى ذا الغنى، منك الغنى، إنما تنفعه الطاعة . وقال ابن عباس : قدرته . الضحاك : فعله . وقال القُرظىّ والضحاك أيضا : آلاؤه ونعمه على خلقه . وقال أبو عبيدة والأخفش : ملكه وسلطانه . وقال السدىّ : أمره . وقال سعيد بن جُبير : « وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا » أى تعالى ربنا . وقيل : إنهم عَنَوا بذلك الجدّ الذى هو أب الأب، ويكون هذا من قول الجنّ . وقال محمد بن على بن الحسين وابنه جعفر الصادق والربيع : ليس لله تعالى جَدّ، وإنما قالته الجنّ للجهالة، فلم يؤاخذوا به . وقال القشيرىّ : ويجوز إطلاق لفظ الجدّ فى حق الله تعالى؛ إذ لو لم يجز لما ذكر فى القرآن، غير أنه لفظ مُوهِم، فتجنُّبه أولى . وقراءة عِكرمة «جِدّ» بكسر الجيم : على ضد الهزل. وكذلك

(١) كذا فى الأصل على قراءة نافع . وقراءة حفص « قل » .

(٢) كذا فى ا ، ح ، ط . وفى الطبعة الأولى : « جد ربنا » .

Marfat.com

قرأ أبو حيوة ومحمد بن السَّمَيْقع . ويروى عن ابن السَّمَيقع أيضا وأبى الأشهب «جدًا رَبُّنَا» ، وهو الجدوى والمنفعة. وقرأ عكرمة أيضا « جِدًّا » بالتنوين « رَبُّنَا » بالرفع على أنه مرفوع، بـ«تعالى»، و « جِدًّا » منصوب على التمييز . وعن عكرمة أيضا « جَدٌّ » بالتنوين والرفع « رَبُّنَا » بالرفع على تقدير : تعالى جَدٌّ جَدُّ ربِّنا، فالجد الثانى بدل من الأول وحذف وأقيم المضاف إليه مقامه . ومعنى الآية : وأنه تعالى جلال ربّنا أن يتخذ صاحبة وولداً للاستئناس بهما والحاجة إليهما، والربّ يتعالى عن الأنداد والنظراء .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطًا ﴾ الهاء فى « أَنَّهُ » للأمر أو الحديث ، وفى « كَانَ » اسمها ، وما بعدها الخبر . ويجوز أن تكون « كَانَ » زائدة . والسفيه هنا إبليس فى قول مجاهد وابن جريج وقتادة . ورواه أبو بُرْدة بن أبى موسى[1] عن أبيه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : المشركون من الجنّ : قال قتادة : عصاه سفيه الجنّ كما عصاه سفيه الإنس . والشطط والاشتطاط : الغلوّ فى الكفر . وقال أبو مالك : هو الجور . الكلبيّ : هو الكذب . وأصله البعد فيعبّر به عن الجور لبعده عن العدل، وعن الكذب لبعده عن الصدق ؛ قال الشاعر :

بأيّة حالٍ حكّموا فيك فاشتطُّوا * وما ذاكَ إلا حيثُ يَمَّمَكَ[2] الوَخْطُ

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا ﴾ أى حسبنا ﴿ أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنْسُ والجِنُّ عَلَى اللهِ كَذِبًا ﴾، فلذلك صدقناهم فى أن لله صاحبة وولدًا، حتى سمعنا القرآن وتبيّنا به الحقّ . وقرأ يعقوب

(١) فى ا ، ح : « أبى بردة عن أبى موسى » . تحريف .
(٢) يممك : قصدك . والوخط : الطعن بالرمح ، ومن معانيه أيضا : الشيب .

Marfat.com

والجحدري وابن أبي إسحق « أَنْ لَنْ تَقَوَّلَ »[1] . وقيل : انقطع الإخبار عن الجنّ ها هنا فقال الله تعـالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ ﴾ فمن فتح وجعله من قول الجنّ ردّها إلى قوله : « أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ » ، ومن كسر جعلها مبتدأ من قول الله تعالى . والمراد به ما كانوا يفعلونه من قول الرجل إذا نزل بوادٍ : أعوذ بسيّد هذا الوادي من شرّ سفهاء قومه ؛ فيبيت في جواره حتى يصبح ؛ قاله الحسن وابن زيد وغيرهما . قال مقاتل : كان أوّل من تعـوذ بالجنّ قوم من أهل اليمن ، ثم من بني حنيفة ، ثم فشـا ذلك في العرب ، فلمـا جاء الإسـلام عاذوا بالله وتركوهـم . وقال كَرْدَم بن أبي السائب : خرجت مع أبي إلى المدينـة أوّلَ ما ذُكِرَ النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فآوانا المبيت إلى راعي غنم ، فلما انتصف الليل جاء الذئب فحمل حَمَلًا من الغنم ، فقال الراعي : ياعامر الوادي ، [أنا][2] جارك . فنادى منادٍ يا سِرْحان أرسله ، فأتى الحَمَل يَشْتد[3] . وأنزل الله تعالى على رسوله بمكة : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أي زاد الجنُّ الإنس « رهقا » أي خطيئة وإثماً ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة . والرَّهَق : الإثم في كلام العرب وغِشيان المحارم ؛ ورجلٌ رَهِقٌ إذا كان كذلك ؛ ومنه قوله تعالى : « وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ » وقال الأعشى :

لا شيء ينفعني مِن دونِ رؤيتِهـا * هل يَشْتفِي وامِقٌ[4] مالم يُصِب رَهَقَا

يعني إثمًا . وأضيفت الزيادة إلى الجنّ إذ كانوا سبباً لها . وقال مجاهد أيضًا : « فَزَادُوهُمْ » أي إن الإنس زادوا الجنّ طغياناً بهذا التعوّذ ، حتى قالت الجنّ : سُدنا الإنس والجنّ . وقال قتادة أيضا وأبو العالية والربيع وابن زيد : ازداد الإنس بهذا فَرَقًا وخوفًا من الجنّ . وقال سعيد ابن جُبير : كفرًا . ولا خفاء أن الاستعاذة بالجنّ دون الاستعاذة بالله كفر وشرك . وقيل : لا يطلق لفظ الرجال على الجنّ ؛ فالمعنى : وأنه كان رجال من الإنس يعوذون من شر الجنّ

(١) قال الألوسي : « تقول » : أصله تتقوّل بتاءين فحذفت إحداهما ، فكذبا مصدر مؤكد ، لأن الكذب هو التقوّل

(٢) الزيادة من الدر المنثور للسيوطي . (٣) يشتد : يعدو . (٤) في أ ، ح وفتح القدير للشوكاني : « عاشق » .

Marfat.com

برجال من الإنس، وكان الرجل من الإنس يقول مثلا : أعوذ بحذيفة بن بدر من جنّ هذا الوادى . قال القشيرى : وفى هذا تحكّم إذ لا يبعد إطلاق لفظ الرجال على الجنّ .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴾ هذا من قول الله تعالى للإنس؛ أى وأن الجنّ ظنوا أن لن يبعث الله الخلق كما ظننتم . الكلبي : المعنى : ظنت الجنّ كما ظنت الإنس أن لن يبعث الله رسولا إلى خلقه (١) يقيم به الحجة عليهم . وكل هذا توكيد للحجة على قريش؛ أى إذا آمن هؤلاء الجنّ بمحمد، فأنتم أحقّ بذلك .

قوله تعالى : وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ ﴾ هذا من قول الجنّ؛ أى طلبنا خبرها كما جرت عادتنا ﴿ فَوَجَدْنَاهَا ﴾ قد ﴿ مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا ﴾ أى حفظة، يعنى الملائكة . والحرس : جمع حارس ﴿ وَشُهُبًا ﴾ جمع شهاب، وهو انقضاض الكواكب المحرقة لهم عن استراق السمع . وقد مضى القول فيه فى سورة « الحجر »(٢) « والصافات »(٣) . و « وجد » يجوز أن يقدر متعديا الى مفعولين، فالأول الهاء والألف، و « مُلِئَتْ » فى موضع المفعول الثانى . ويجوز أن يتعدى الى مفعول واحد ويكون « مُلِئَتْ » فى موضع الحال على إضمار قد . و « حَرَسًا » نصب على المفعول الثانى بـ « مُلِئَتْ » . و « شَدِيدًا » من نعت الحرس، أى ملئت ملائكة شدادا .

---

(١) جملة : « إلى خلقه » ساقطة من ح ، و .
(٢) راجع جـ ١٠ ص ١٠
(٣) راجع جـ ١٥ ص ٦٦

Marfat.com

ووحد الشّديد على لفظ الحرس ؛ وهو كما يقال : السّلَف الصالح بمعنى الصالحين ، وجمع السّلَف أسلاف (١) وجمع الحرس أحراس ؛ قال (٢) :

« تجاوزتُ أحراسًا وأهوالَ مَعْشَرِ »

ويجوز أن يكون « حَرَسًا » مصدرًا على معنى حُرِست حراسةً شديدة .

قوله تعالى : ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ . «مِنْهَا» أى من السماء، و«مَقَاعِدَ»: مواضع يُقْعد فى مثلها لاستماع الأخبار من السماء؛ يعنى أن مَرَدة الجنّ كانوا يفعلون ذلك ليستمعوا من الملائكة أخبار السماء حتى يلقوها إلى الكهنة على ما تقدّم بيانه ، فحرسها الله تعالى حين بعث رسوله بالشّهب المحرقة ، فقالت الجنّ حينئذ : « فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا » يعنى بالشهاب : الكوكب المحرِق؛ وقد تقدّم بيان ذلك . ويقال : لم يكن انقضاض الكواكب إلا بعد مبعث النبى صلى الله عليه وسلم وهو آية من آياته . واختلف السّلَف هل كانت الشياطين تُقذَف قبل المبعث، أوكان ذلك أمرًا حدث لمبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم ؟ فقال الكلبي وقال (٣) قوم : لم تكن تحرس السماء فى الفترة بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما وسلامه : خمسمائة عام ، وإنما كان من أجل بعثة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها ، وحُرست بالملائكة والشهب .

قلت : ورواه عطية العوفى عن ابن عباس ؛ ذكره البيهقى . وقال عبد الله بن عمر : لما كان اليوم الذى نُبِّئ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مُنعت الشياطين ورمُوا بالشّهب . وقال عبد الملك بن سابور : لم تكن السماء تُحرس فى الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، فلما بُعث محمد صلى الله عليه وسلم حُرست السماء ، ورُميت الشياطين بالشّهب،

---

(١) كذا فى أ ، ط ، و ، ح : فى موضع أو .

(٢) هو امرؤ القيس . ويروى : * تجاوزت أحراسا إليها ومعشرا *
وتمام البيت وهو من معلقته : * على حراصا لو يشرون مقتلى *

(٣) الفعل (قال) زائد فى ط . والصواب إسقاطه ، كما فى أ ، ح ، و .

Marfat.com

ومُنعت عن الدنو من السماء . وقال نافع بن جُبير : كانت الشياطين فى الفترة تَسمع فلا تُرمَى ، فلما بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رُميت بالشُّهب . ونحوه عن أبيّ بن كعب قال : لم يُرَم بنجم منذ رُفع عيسى ، حتى نُبِّئ رسول الله صلى الله عليه وسلم فرُمِيَ بها . وقيل : كان ذلك قبل المبعث، وإنما زادت بمبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إنذارًا بحاله ؛ وهو معنى قوله تعالى : « مُلِئَتْ » أى زيد فى حَرَسها ؛ وقال أَوْس بن حَجَر وهو جاهليّ :

فانقَضّ كالدُّرِّىّ يَتْبَعُـه * نَقْـعٌ يَثُـورُ تخالُه طُنُبا

وهذا قول الأكثرين . وقد أنكر الجاحظ هذا البيت وقال : كل شعر رُوِى فيه فهو مصنوع ، وأن الرمى لم يكن قبل المبعث . والقول بالرمى أصح ؛ لقوله تعالى ، « فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا » . وهذا إخبار عن الجنّ، أنه زِيد(١) فى حرس السماء حتى آمتلأت منها ومنهم ؛ ولما رُوى عن آبن عباس قال : بينما النبيّ صلى الله عليه وسلم جالس فى نفر من أصحابه إذ رُمِي بنجم، فقال: "ما كنتم تقولون فى مثل هذا فى الجاهلية"؟ قالوا: كنا نقول يموت عظيم أو يولد عظيم . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " إنها لا تُرْمَى لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربّنا سبحانه وتعالى إذا قضى أمرًا فى السماء سبّح حملة العرش ثم سبّح أهل كل سماء، حتى ينتهى التسبيح إلى هذه السماء ويستخبرُ أهلُ السماء حملةَ العرش ماذا قال ربكم فيخبرونهم ويخبر أهل كل سماء حتى ينتهى الخبر إلى هذه، فتتخطَّف الجنّ فيُرْمُون فما جاءوا به فهو حقّ ولكنهم يزيدون فيه". وهذا يدل على أن الرجم كان قبل المبعث. ورَوَى الزهرىّ نحوه عن علىّ بن الحسين عن علىّ بن أبى طالب عن آبن عباس . وفى آخره قيل للزهرىّ : أكان يُرمَى فى الجاهلية؟ قال : نعم . قلت : أفرأيت قوله سبحانه : « وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا » قال : غُلِّظت وشُدِّد أمرها حين بُعث النبيّ صلى الله عليه وسلم . ونحوه قال القتبيّ . قال آبن قتيبة : كان ولكن آشتدّت الحراسة بعد المبعث ؛ وكانوا من قبلُ يسترقون ويُرْمَون فى بعض الأحوال ، فلما بُعث محمد صلى الله عليه وسلم مُنعت من ذلك أصلًا. وقد تقدم بيان هذا فى سورة « والصافات »(٢)

(١) فى ط : « وقد زيد » . وفى أ ، ح : « لقد زيد » .　　(٢) راجع جـ ١٥ ص ٦٥ .

Marfat.com

عند قوله : « وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ. دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ » قال الحافظ: فلو قال قائل: كيف تتعرض الجن لإحراق نفسها بسبب آستماع خبر، بعد أن صار ذلك معلوماً لهم؟ فالجواب: أن الله تعالى ينسيهم ذلك حتى تعظم المحنة، كما ينسى إبليس فى كل وقت أنه لا يسلم، وأن الله تعالى قال له: « وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ » ولولا هذا لما تحقق التكليف . والرَّصَد: قيل من الملائكة؛ أى ورصدًا من الملائكة . والرَّصَدُ : الحافظ للشيء والجمع أرصاد، وفى غير هذا الموضع يجوز أن يكون جمعًا كالحرس، والواحد: راصد . وقيل: الرصد هو الشهاب، أى شهاباً قد أرصد له، ليرجم به؛ فهو فَعَلٌ بمعنى مفعول كالخَبَط والنَّفَض .

قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى هذا الحرس الذى حرست بهم السماء ﴿ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ أى خيرا. قال آبن زيد. قال إبليس لا ندرى: هل أراد الله بهذا المنع أن يُنزل على أهل الأرض عذاباً أو يُرسل إليهم رسولًا . وقيل: هو من قول الجن فيما بينهم قبل أن يسمعوا قراءة النبيّ صلى الله عليه وسلم. أى لا ندرى أَشَرٌّ أُرِيدَ بمن فى الأرض بإرسال محمد إليهم، فإنهم يكذبونه و يهلكون بتكذيبه كما هلك من كذّب من الأمم، أم أراد أن يؤمنوا فيهتدوا؛ فالشرّ والرشد على هذا الكفر والإيمان؛ وعلى هذا كان عندهم علم بمبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم، ولما سمعوا قراءته علموا أنهم مُنعوا من السماء حراسة للوحى. وقيل: لا ؛ بل هذا قول قالوه لقومهم بعد أن آنصرفوا إليهم منذرين ؛ أى لما آمنوا أشفقوا ألّا يؤمن كثير من أهل الأرض فقالوا : إنا لا ندرى أيكفر أهل الأرض بما آمنا به أم[1] يؤمنون ؟

قوله تعالى : وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾

(١) كذا فى ط، وهو الصواب . وفى سائر الأصول : أو .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ هذا من قول الجنّ ، أى قال بعضهم لبعض لما دَعوا أصحابهم إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، وإنا كنا قبل آستماع القرآن منّا الصالحون ومنّا الكافرون . وقيل : « وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ » أى ومن دون الصالحين فى الصلاح ، وهو أشبه من حمله على الإيمان والشرك . ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴾ أى فِرقًا شتّى ؛ قاله السُّدّىّ . الضحاك : أديانًا مختلفة . قتادة : أهواءً متباينة ؛ ومنه قول الشاعر :

القَابِضُ الباسِطُ الهَادِى بِطاعتِهِ　＊　فى فِتْنَةِ الناسِ إذْ أَهْوَاؤُهُمْ قِدَدُ

والمعنى : أى لم يكن كل الجنّ كفاراً بل كانوا مختلفين : منهم كفّار، ومنهم مؤمنون صلحاء، ومنهم مؤمنون غير صلحاء. وقال المسيّب : كنا مسلمين ويهود ونصارى ومجوس . وقال السّدّى فى قوله تعالى: «طَرَائِقَ قِدَدًا» قال: فى الجنّ مثلكم قَدَرية، ومُرجئة، وخوارج، ورافضة، وشيعة، وسُنّية. وقال قوم : أى وإنا بعد آستماع القرآن مختلفون: منّا المؤمنون ومنّا الكافرون . أى ومنّا الصالحون، ومنّا مؤمنون لم يتناهوا فى الصلاح . والأول أحسن؛ لأنه كان فى الجنّ من آمن بموسى وعيسى، وقد أخبر الله عنهم أنهم قالوا : «إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ » وهذا يدلّ على إيمان قوم منهم بالتوراة، وكان هذا مبالغة منهم فى دعاء من دعوهم إلى الإيمان . وأيضًا لا فائدة فى قولهم : نحن الآن منقسمون إلى مؤمن وإلى كافر . والطرائق: جمع الطريقة وهى مذهب الرجل، أى كنا فرقًا مختلفة . ويقال: القوم طرائق أى على مذاهب شتّى . والقِدد : نحوٌ من الطرائق وهو توكيد لها، واحدها: قِدّة . يقال: لكل طريق قِدّة ، وأصلها من قَدّ السيور، وهو قطعها ؛ قال لبيد يرثى أخاه أرْبَد[١] :

لم تَبْلُغ العينُ كلَّ نَهْمَتِها　＊　ليلةَ تُمْسِى الجيادُ كالقِدَدِ[٢]

---

(١) فى ز : « مربد » . وفى سائر الأصول : « زيدا » وهو تحريف . والتصويب عن شرح القاموس .

(٢) يقول لبيد : لم تبلغ العين من البكاء على أربد كل ما تريد فى هذه الليلة التى فيها الخيل كالقدد من شدة السير والإتعاب .

Marfat.com

وقال آخر[1]:

ولقد قلتُ وزيدٌ حاسِرٌ * يومَ ولّتْ خيلُ عمرٍو قِدَدا

والقِدّ بالكسر: سير يُقَدّ من جلد غير مدبوغ؛ ويقال: ماله قِدّ ولا قِحْف؛ فالقِدّ: إناء من جلد، والقِحف: من خشب.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ﴾ الظنّ هنا بمعنى العلم واليقين، وهو خلاف الظنّ في قوله تعالى: «وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ»، «وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا» أي علمنا بالاستدلال والتفكر في آيات الله: أنّا في قبضته وسلطانه، لن نفوته بهرب ولا غيره. و﴿هَرَبًا﴾ مصدر في موضع الحال أي هاربين.

قوله تعالى: وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ ۖ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ﴾ يعني القرآن ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ وبالله، وصدّقنا محمدًا صلى الله عليه وسلم على رسالته. وكان صلى الله عليه وسلم مبعوثًا إلى الإنس والجنّ. قال الحسن: بعث الله محمدًا صلى الله عليه وسلم إلى الإنس والجنّ، ولم يبعث الله تعالى قطّ رسولًا من الجنّ، ولا من أهل البادية، ولا من النساء؛ وذلك قوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحَىٰ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ» وقد تقدم هذا المعنى[2]. وفي الصحيح: "وبُعثت إلى الأحمر والأسود" أي الإنس والجنّ. ﴿فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ قال ابن عباس: لا يخاف

(١) هو لبيد صاحب البيت الذي قبله، كما في فتح القدير، للشوكاني.

(٢) راجع جـ ٩ ص ٢٧٤

أن يُنْقَص من حسناته ولا أن يزاد فى سيئاته ؛ لأن البخس النقصان ، والرَّهَق : العدوان وغشيان المحارم ؛ قال الأعشى :

لا شيْءَ ينفعُنِي مِن دُونِ رُؤْيتِها * هل يَشْتفِي وَامِقٌ مالَمْ يُصِبْ رَهَقًا

الوامق : المحبّ ؛ وقد وَمِقَه يَمِقه بالكسر أى أحبّه ، فهو وامق . وهذا قول حكاه الله تعالى عن الجنّ ؛ لقوّة إيمانهم وصحة إسلامهم . وقراءة العامة « فَلَا يَخَافُ » رفعًا على تقدير فإنه لا يخاف . وقرأ الأعمش ويحيى و إبراهيم (١) « فَلَا يَخَفْ » جزمًا على جواب الشرط و إلغاء الفاء .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ﴾ أى وأنّا بعد آستماع القرآن مختلفون ، فمنّا من أسلم ومنّا من كفر . والقاسط : الجائر ، لأنه عادل عن الحقّ ، والمُقْسِط : العادل ؛ لأنه عادل إلى الحق ؛ [يقال :] قسط : أى جار ، وأقسط : إذا عدل ؛ قال الشاعر :

قومٌ هُمُ قتلوا آبنَ هِنـدٍ عَنْوَةً * عَمْـرًا وهم قَسَطُوا عـلى النُّعْمانِ

﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴾ أى قصدوا طريق الحق وتوخَّوه ومنه تحرّى القِبلة ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ ﴾ أى الجائرون عن طريق الحقّ والإيمان ﴿ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ أى وَقودًا . وقوله : « فَكَانُوا » أى فى علم الله تعالى .

قوله تعالى : وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ لَوِ ٱسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ هذا من قول الله تعالى . أى لو آمن هؤلاء الكفار لوسّعنا عليهم فى الدنيا و بسطنا لهم فى الرزق . وهذا محمول على الوحى ؛ أى أوحى إلىّ أن لو آستقاموا . ذكر آبن بحر : كل ما فى هـذه السورة من « إن » المكسورة المثقلة فهى حكاية لقول الجن الذين آستمعوا القرآن ، فرجعوا إلى قومهم منذرين ، وكل ما فيها من

(١) فى ا ، ح : « ويحيى عن إبراهيم » .

Marfat.com

أن المفتوحة المخففة فهي وحي إلى رسـول الله صلى الله عليه وسلم . وقال ٱبن الأنبـاري : ومن كسر الحروف وفتح « وَأَنْ لَوِ ٱسْتَقَامُوا » أضمر يمينًا تامًّا، تأويلها: والله أن لو ٱستقاموا على الطريقة؛ كما يقال في الكلام : والله أَنْ قمتَ لقمتُ، ووالله لو قمتَ قمتُ؛ قال الشاعر:

أَمَا واللهِ أَنْ لو كُنتَ حُرًّا * وما بِالحُـرِّ أنتَ ولا العتيقِ

ومن فتح ماقبل المخففة نسقها — أعني الخفيفة — على « أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ »، « وَأَنْ لَوِ ٱسْتَقَامُوا » أو على « آمَنَّا بِهِ » وبأن لو ٱستقاموا (١). ويجوز لمن كسر الحروف كلها إلى «أن» المخففة، أن يعطف المخففة على « أُوحِيَ إِلَيَّ » أو على « آمَنَّا بِهِ »، ويستغني عن إضمار اليمين. وقراءة العامة بكسر الواو من « لو» لالتقاء الساكنين. وقرأ ٱبن وثّاب والأعمش بضم الواو. و﴿مَاءً غَدَقًا﴾ أي واسعًا كثيرًا، وكانوا قد حُبِس عنهم المطر سبع سنين؛ يقال: غَدِقَتِ العينُ تَغدَق، فهي غَدِقة، إذا كثر ماؤها . وقيـل : المراد الخلق كلُّهم أي « لَوِ ٱسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ » طريقة الحق والإيمـان والهدى وكانوا مؤمنين مطيعين « لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا » أي كثيرًا ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي لنختبرهم كيف شكرهم فيه على تلك النعم . وقال عمر في هذه الآية : أينمـا كان المـاء كان المـال، وأينمـا كان المـال كانت الفتنة . فمعنى «لَأَسْقَيْنَاهُمْ» لوسَّعنا عليهم في الدنيا؛ وضَرَب المـاء الغَدَق الكثير لذلك مثلًا ؛ لأن الخـير والرزق كله بالمطر يكون، فأقيم مقامه؛ كقوله تعـالى : « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُـوا وَٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِـمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » وقوله تعالى: « وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ » أي بالمطر . والله أعلم . وقال سـعيد بن المسيِّب وعطاء بن أبي رَبَاح والضحاك وقتادة ومقاتل وعطية وعُبيد بن عمير والحسن : كان والله أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين، ففتحت عليهم كنوز كسرى وقيصر والمقوقس والنجاشيّ ففُتنوا بها ، فوثبوا على إمامهم فقتـلوه . يعني عثمـان بن عفّان . وقال الكلبيّ وغيره : « وَأَنْ

(١) وفي حاشية الجمل نقلا عن القرطبي «قال ٱبن الأنباري : ومن قرأ بالكسر فيما تقدم وفتح «وأن لو ٱستقاموا» : أضمر قسما تقـديره : والله « أن لو ٱستقاموا على الطريقـة » أو عطفه على « أنه ٱستمع » أو على « آمنـا به » . وعلى هذا يكون جميع ماتقدم معترضا بين المعطوف والمعطوف عليه » .

Marfat.com

لو ٱستقاموا على الطّريقة » التى هم عليها من الكفر فكانوا كلهم كفارا لوسّعنا أرزاقهم مكرًا بهم وٱستدراجًا لهم ، حتى يفتتنوا بها، فنعذبهم بها فى الدنيا والآخرة . وهذا قول قاله الربيع ٱبن أنس وزيد بن أسلم وٱبنه والكلبيّ والثّمالى ويَمان بن رباب وٱبن كيسان وأبو مِجلز؛ وٱستدلّوا بقوله تعالى : « فلمّا نسوا ما ذُكِّروا به فتحنا عليهم أبوابَ كلِّ شيء » الآية . وقوله تعالى : « ولولا أن يكونَ النّاسُ أمةً واحدةً لجعلنا لِمَن يكفُرُ بالرّحمٰنِ لبيوتِهم سُقُفًا مِن فضّة » الآية ؛ والأول أشبه ؛ لأن الطريقة معرّفة بالألف واللام، فالأوجب أن تكون طريقته طريقة الهدى ؛ ولأن الاستقامة لا تكون إلا مع الهدى . وفى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخُدرىّ رضى الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أخوف ما أخاف عليكم ما يُخرج الله لكم من زَهرة الدنيا" قالوا: وما زهرة الدنيا؟ قال: "بركات الأرض . ." وذكر الحديث. وقال عليه السلام: "فوالله ما الفقرَ أخشى عليكم، وإنما أخشى عليكم أن تُبسط عليكم الدنيا [كما بُسطت على مَن قبلكم](١) فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم".

قوله تعالى : ﴿ ومَن يُعرِض عن ذِكرِ ربِّه ﴾ يعنى القرآن؛ قاله ٱبن زيد . وفى إعراضه عنه وجهان : أحدهما عن القبول، إن قيل إنها فى أهل الكفر . الثانى عن العمل، إن قيل إنها فى المؤمنين . وقيل : « ومَن يُعرِض عن ذِكرِ ربِّه » أى لم يشكر نعمه ﴿ يَسلُكْهُ عذابًا صَعَدًا ﴾ قرأ الكوفيون وعيّاش عن أبى عمرو « يَسلُكْه » بالياء وٱختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لذكر ٱسم الله أوّلا فقال : « ومَن يُعرِض عن ذِكرِ ربِّه » . الباقون « نَسلُكْه » بالنون . وروى عن مسلم بن جُندب ضم النون وكسر اللام . وكذلك قرأ طلحة والأعرج وهما لغتان، سلكه وأسلكه بمعنًى؛ أى ندخله . « عذابًا صَعَدًا » أى شاقًّا شديدا . قال ٱبن عباس: هو جبل فى جهنم . [الخدرىّ(٢):] كلما جعلوا أيديهم عليه ذابت . وعن ٱبن عباس : أن المعنى مشقة من العذاب . وذلك معلوم فى اللغة أن الصَّعَد : المشقة، تقول: تصعّدنى الأمر: إذا شقّ عليك ؛ ومنه قول عمر : ما تصعّدنى شيء ما تصعّدتنى خُطبة النكاح ، أى ما شقّ علىّ .

---

(١) الزيادة من صحيح الترمذى .　　(٢) زيادة من ا ، ح ، ل .

Marfat.com

وعذاب صَعَدٌ أى شـديد . والصَّعَد : مصدر صَـعِد ؛ يقـال : صعِدَ صَعَدًا وصُعودًا ، فوصف به العذاب ؛ لأنه يتصعد المعذَّب أى يعلوه ويغلبه فلا يطيقه . وقال أبو عبيدة : الصَّعَد مصدر، أى عذابًا ذا صَعَد، والمشى فى الصَّعود يشقّ . والصَّعود : العقبة الكئود . وقال عكرمة : هو صخـرة ملساء فى جهنم يُكلَّف صـعودها ؛ فإذا آنتهى إلى أعلاها حُدِر إلى جهنم . وقال الكلبى : يكلّف الوليد بن المغيرة أن يصعد جبـلًا فى النار من صخرة ملساء ، يُجذب من أمامه بسلاسل، ويُضرب من خلفه بمقامع حتى يبلغ أعلاها ، ولا يبلغ فى أربعين سـنة . فإذا بلغ أعلاها أُحْدِر إلى أسـفلها ، ثم يكلّف أيضًا صعودَها ، فذلك دأبه أبدًا ، وهو قوله تعـالى : « سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا » .

قوله تعـالى : وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾

فيــه ست مسـائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ ﴾ « أَنَّ » بالفتح، قيل : هو مردود إلى قوله تعـالى : « قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ » أى قل أوحى إلى أن المساجد لله . وقال الخليل : أى ولأن المساجد لله . والمراد البيوت التى تبنيها أهل الملل للعبادة . وقال سعيد بن جبير : قالت الجنّ كيف لنا أن نأتى المساجد ونشهد معك الصلاة ونحن ناءون عنك ؟ فنزلت : « وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ » أى بُنيت لذكر الله وطاعته . وقال الحسن : أراد بهـا كل البقاع؛ لأن الأرض كلها مسجد للنبى صلى الله عليه وسلم، يقول : " أينمـا كنتم فصلّوا " " فأينمـا صليتم فهو مسجد " وفى الصحيح : " وجعلت لىَ الأرض مسجدًا وطَهورًا " . وقال سعيد بن المسيّب وطَلْق آبن حبيب : أراد بالمساجد الأعضاء التى يسجد عليها العبد، وهى القدمان والركبتانْ واليدان والوجه ؛ يقول: هذه الأعضاء أنعم الله بها عليك، فلا تسجد لغيره بها، فتجحد نعمة الله. قال عطاء: مساجدك : أعضاؤك التى أمرت أن تسجد عليها لا تذللها لغير خالقها . وفى الصحيح عن آبن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " أمرت أن أسجد على سبعة أعظُم : الجبهة ــ وأشار بيده إلى أنفه ــ واليدين والركبتين وأطراف القدمين " . وقال العباس قال النبى

Marfat.com

صلى الله عليه وسلم : " إذا سجد العبد سجد معه سبعة آراب[١] " . وقيل : المساجد هي الصلوات؛ أي لأن السجود لله . قاله الحسن أيضا . فإن جعلت المساجد المواضع فواحدها مسجِد بكسر الجيم، ويقال بالفتح؛ حكاه الفراء . وإن جعلتها الأعضاء فواحدها مَسجَد بفتح الجيم . وقيل : هو جمع مَسجَد وهو السجود، يقال : سجدت سجوداً ومَسجَدا، كما تقول : ضربت في الأرض ضَرْباً ومَضرَباً بالفتح : إذا سرت في ابتغاء الرزق . وقال ابن عباس : المساجد هنا مكة التي هي القبلة وسمّيت مكة المساجد؛ لأن كل أحد يسجد إليها . والقول الأول أظهر هذه الأقوال إن شاء الله، وهو مروى عن ابن عباس رحمه الله .

الثانيـــة — قوله تعالى : « لِلهِ » إضافة تشريف وتكريم، ثم خصّ بالذكر منها البيت العتيق فقال : « وَطَهِّرْ بَيْتِيَ » . وقال عليه السلام : "لا تُعمَل المَطِيّ إلا إلى ثلاثة مساجد" الحديث خرجه الأئمة . وقد مضى الكلام[٢] فيه . وقال عليه السلام : " صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ". قال ابن العربي : وقد روى من طريق لا بأس بها أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، فإن صلاة فيه خير من مائة صلاة في مسجدي هذا[٣] " ولو صح هذا لكان نصّا .

قلت : هو صحيح بنقل العدل عن العدل حَسْب ما بيناه في سورة « إبراهيم[٤] » .

الثالثـــة — المساجد وإن كانت لله ملكاً وتشريفاً فإنها قد تنسب إلى غيره تعريفاً؛ فيقال : مسجد فلان . وفي صحيح الحديث أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سابَق بين الخيل التي أُضمرت من الحفياء[٥] وأَمدُها ثَنيّة الوَداع، وسابق بين الخيل التي لم تضمَّر من الثنيّة إلى مسجد

---

(١) آراب : أعضاء واحدها « إرب » بالكسر ثم السكون .

(٢) راجع جـ ١٠ ص ٢١١ والرواية المشهورة في الصحاح "لاتشد الرحال" كما مر للقرطبي .

(٣) كلمة هذا ساقطة من الأصل المطبوع .　　(٤) راجع جـ ٩ ص ٣٧١

(٥) في معجم البلدان لياقوت : الحفياء : بالفتح ثم السكون و ياء وألف ممدودة : موضع قرب المدينة أجرى منه رسول الله صلى الله عليه وسلم الخيل في السباق . وقال سفيان بين الحفياء إلى الثنية ، خمسة أميال .

Marfat.com

ن زُريق . وتكون هـذه الإضافة بحـكم المحلية كأنهـا فى قبلتهم ، وقد تكون بتحبيسهم ؛ ولا خلاف بين الأمة فى تحبيس المساجد والقناطر والمقابر و إن آختلفوا فى تحبيس غير ذلك .

الرابعـــة — مع أن المساجد لله لا يذكر فيها إلا الله فإنه تجوز القسمة فيها للأموال . ويجوز وضع الصدقات فيها على رسم الاشتراك بين المساكين وكل من جاء أكل . ويجوز حبس الغريم فيها ، وربط الأسير والنوم فيها ، وسكنى المريض فيها ، وفتح الباب للجار[(١)] إليها ، و إنشاد الشعر فيها إذا عرِى عن الباطل . وقد مضى هذا كله مبينا فى ســورة « براءة[(٢)] » . و « النور[(٣)] » وغيرهما .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ هذا توبيخ للشركين فى دعائهم مع الله غيره فى المسجد الحرام . وقال مجاهـد : كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبِيَعهم أشركوا بالله ، فأمر الله نبيّه والمؤمنين أن يخلصوا لله الدعوة إذا دخلوا المساجد كلها . يقـول : فلا تشركوا فيها صنمـا وغيره[(٤)] مما يعبد . وقيـل : المعنى أفردوا المساجد لذكر الله ، ولا تتخذوها هزوا ومَتْجَرًا ومجلسا ، ولا طرقا ، ولا تجعلوا لغير الله فيها نصيبا . وفى الصحيح : " من نَشَد ضالّة فى المسجد فقولوا لا ردّها الله عليك فإن المساجد لم تُبْنَ لهـذا " وقد مضى فى سورة « النور » ما فيه كفاية من أحكام المساجد والحمد لله .

السادســـة — روَى الضحاك عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم : كان إذا دخل المسجد قدّم رجله اليمنى . وقال : « وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا » اللهم أنا عبدك وزائرك وعلى كل مَزور حق وأنت خير مَزور فأسألك برحمتك أن تفك رقبتى من النار" فإذا خرج من المسجد قدّم رجله اليسرى ؛ وقال : " اللهم صُبّ على الخير صبا ولا تنزع عنى صالح ما أعطيتنى أبدا ولا تجعل معيشتى كَدًّا ، وآجعل لى فى الأرض جَدًّا[(٥)] " أى غِنًى .

---

(١) كذا فى ابن العربى . وفى ط : للسار إليها .
(٢) راجع جـ ٨ ص ١٠٤
(٣) راجع ١٢ ص ٢٦٥
(٤) كذا فى الأصول كلها . يريد : ولا غيره .
(٥) الجد ، بالفتح : الحظ والغنى ، كما فى اللسان .

Marfat.com

قوله تعالى : وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ يجوز الفتح ؛ أى أوحى الله إليه أنه . ويجوز الكسر على الاستئناف . و « عبد الله » هنا محمد صلى الله عليه وسلم حين كان يصلى ببطن نخلة[1] ويقرأ القرآن ، حسب ما تقدم أول السورة . ﴿ يَدْعُوهُ ﴾ أى يعبده . وقال ابن جريج : « يَدْعُوهُ » أى قام إليهم داعياً إلى الله تعالى . ﴿ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ قال الزبير بن العوام : هم الجن حين استمعوا القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم . أى كاد يركب بعضهم بعضاً ازدحاماً ويسقطون، حرصاً على سماع القرآن . وقيل : كادوا يركبونه حرصاً ؛ قاله الضحاك . ابن عباس : رغبة فى سماع الذكر . وروى بُرْد عن مكحول : أن الجن بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الليلة وكانوا سبعين ألفاً ، وفرغوا من بيعته عند انشقاق الفجر . وعن ابن عباس أيضاً : إن هذا من قول الجن لما رجعوا إلى قومهم أخبروهم بما رأوا من طاعة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وائتمامهم به فى الركوع والسجود . وقيل : المعنى كاد المشركون يركبون بعضهم بعضاً، حرداً على النبي صلى الله عليه وسلم . وقال الحسن وقتادة وابن زيد : يعنى « لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ » محمد بالدعوة تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه، وأبى الله إلا أن ينصره ويتم نوره . واختار الطبرى أن يكون المعنى : كادت العرب يجتمعون على النبي صلى الله عليه وسلم، ويتظاهرون على إطفاء النور الذى جاء به . وقال مجاهد : قوله « لِبَدًا » جماعات وهو من تلبد الشىء على الشىء أى تجمع ؛ ومنه اللبد الذى يفرش لتراكم صوفه[2] ، وكل شىء ألصقته إلصاقاً شديداً

(١) فى تاج العروس : (نخلة) : موضع بين مكة والطائف . و يقال له : (بطن نخلة) .

(٢) فى أ ، ح : « صفوفه » . وفى ط « صفه » .

Marfat.com

فقد لبّدته، وجمع اللِّبدة لِبَد مثل قِربة وقِرب . ويقال للشَّعر الذى على ظهر الأسد لِبدة وجمعها لِبد ؛ قال زهير :

لَدى أَسَدٍ شاكِي السِّلاحِ مُقَذَّفٍ * لـه لِبَـدٌ أَظْفـارُه لم تقَـلَّمِ

ويقال للجراد الكثير : لِبد . وفيه أربع لغات وقراءات ؛ فتح الباء وكسر اللام ، وهى قراءة العامة . وضم اللام وفتح الباء، وهى قراءة مجاهد وابن مُحَيْصن وهشام عن أهل الشام، واحدتها لُبْدة . وبضم اللام والباء ، وهى قراءة أبى حَيْوة ومحمد بن السَّمَيْقَع وأبى الأشهب العُقَيلى والجَحْدرى واحدها لَبْد مثل سَقْف وسُقُف ورَهْن ورُهُن . وبضم اللام وشدّ الباء وفتحها ، وهى قراءة الحسن وأبى العالية والأعرج والجَحْدرى أيضًا[1] واحدها لابِد؛ مثل راكِع ورُكَّع، وساجِد وسُجَّد . وقيل : اللُّبَد بضم اللام وفتح الباء الشىء الدائم ؛ ومنه قيل لنَسر لقمان لُبَد لدوامه وبقائه ؛ قال النابغة :

* أَخْنَى عليها الذى أَخْنَى على لُبَدِ[2] *

القشيرى: وقرئ «لُبُدا» بضم اللام والباء، وهو جمع لَبِيد، وهو الجُوَلْق[3] الصغير. وفى الصحاح: [وقوله تعالى] « أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا » أى جمًّا[4] . ويقال أيضا : الناس لُبَد أى مجتمعون، واللُّبَد أيضا الذى لا يسافر ولا يبرح [منزله[5]] . قال الشاعر[6] :

مِن امرِئٍ ذِى سَماحٍ لا تَزالُ لَهُ * بَزْلاءُ يَعْيَـا بِهـا الجَثَّامَةُ اللُّبَـدُ

ويروى : اللَّبِد . قال أبو عُبيد : وهو أشبه .

[والبزلاء: الرأى الجيّد. وفلان نهاض ببزلاء: إذا كان ممن يقوم بالأمور العظام؛ قال الشاعر:

إنِّى إذا شَغَلَتْ قـومًا فُرُوجُهُم * رَحْبُ المَسَالِكِ نَهَّاضٌ بِبَزْلاءِ][7]

---

(١) كلمة « أيضا » ساقطة من ا ، ز ، ح ، ط .
(٢) هذا عجز البيت ، وسيأتى بتمامه .
(٣) فى الأصول : (الجولق) ، تحريف .
(٤) فى ا ، ح ، ل : « جمعا » .
(٥) الزيادة من اللسان مادة « لبد » .
(٦) هو الراعى : والبزلاء أيضا الحاجة التى أحكم أمرها ، والجثامة الذى لا يبرح من محله وبلدته . وصدره كما فى اللسان والتاج :
* من أمر ذى بدوات لا تزال له *
(٧) ما بين المربعين ساقط من ا ، ح ، و ، ط .

Marfat.com

ولُبَد: آخر نسور لقمان، وهو ينصرف؛ لأنه ليس بمعدول . وتزعم العرب أن لقمان هو الذى بعثتــه عاد فى وفدها إلى الحرم يستسق لهـا ، فلما أهلكوا خُيِّر لقمان بين بقاء ســبع بَعرَات[(1)] سُمْر، مِن أَظْبٍ عُفْر، فى جبل وَعْر، لا يمسها القَطْر؛ أو بقاء سبعة أنسر كلما هلك نَسر خلف بعده نَسر، فآختار النُّسور، وكان آخر نُسوره يسمى لُبَدا، وقد ذكرته الشعراء؛ قال النابغة:

أَضْحَت خَلاءً وأَمسى أَهْلُها آحْتَمَلوا * أَخْنَى عليهـا الذى أَخْنَى على لُبَـدِ

وَاللَّبِيد: الجُوَالق الصغير؛ يقال: ألبدت القِربة جعلتها فى لَبِيد . ولبيد: آسم شاعر من بنى عامر .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّى ﴾ أى قال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّى » ﴿ وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾ وكذا قرأ أكثر القرّاء «قَالَ» على الخبر . وقرأ حمزة وعاصم «قُلْ» على الأمر . وسبب نزولها أن كفار قريش قالوا له : إنك جئت بأمر عظيم وقد عاديت الناس كلهم فآرجع عن هذا فنحن نجيرك؛ فنزلت .

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ إِنِّى لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ أى لا أقدر أن أدفع عنكم ضرا ولا أسـوق لكم خيرًا . وقيل : « لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا » أى كفراً « وَلَا رَشَدًا » أى هدًى ، أى إنمـا علىّ التبليغ . وقيل: الضرّ : العذاب ، والرَّشد النعيم . وهو الأوّل بعينه . وقيل : الضر الموت ، والرشد الحياة .

قوله تعـالى : قُـلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَـٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَـٰلَـٰتِهِۦ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَـدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَـلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُـلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَـرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾

(1) قال شارح القاموس : هو بالعين المهملة ؛ و يوجد فى بعض نسخ الصحاح « بقرات » بالقاف . والذى فى نسخ القاموس هو الأشبه ، إذ لا تتولد البقر من الظباء .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ ﴾ أى لا يدفع عذابه عنى أحد إن استحفظته ؛ وهذا لأنهم قالوا آترك ما تدعو إليه ونحن نجيرك . وروى أبو الجوزاء عن ابن مسعود قال : انطلقت مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ حتى أتى الحَجُون فخط علىّ خطًّا، ثم تقدم إليهم فازدحموا عليه، فقال سيّدهم يقال له وَرْدان : أنا أَزْجُلُهم(١) عنك ؛ فقال : " إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ " ذكره الماوردىّ . قال : ويحتمل معنيين أحدهما لن يجيرنى مع إجارة الله لى أحد. الثانى لن يجيرنى مما قدره الله تعالى علىّ أحد . ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ أى ملتجأ ألجأ إليه ؛ قاله قتادة . وعنه : نصيرًا ومولًى . السّدىّ : حِرزًا . الكلبى : مَدْخلًا فى الأرض مثل السَّرَب . وقيل : وليًّا ولا مولًى . وقيل : مذهبًا ولا مسلكًا. حكاه ابن شجرة ، والمعنى واحد ؛ ومنه قول الشاعر :

يالهْفَ نفسى ولهْفِى غيرُ مجديةٍ * عَنّى وما مِن قضاءِ اللهِ مُلْتَحَدُ

﴿ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ﴾ فإن فيه الأمان والنجاة؛ قاله الحسن. وقال قتادة : « إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ » فذلك الذى أملكه بتوفيق الله، فأما الكفر والإيمان فلا أملكهما. فعلى هذا يكون مردودًا إلى قوله تعالى : «قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا» أى لا أملك لكم إلا أن أبلغكم . وقيل : هو استثناء منقطع من قوله : « لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا » أى إلا أن أبلغكم أى لكن أبلغكم ما أرسلت به ؛ قاله الفراء. وقال الزجاج : هو منصوب على البدل من قوله : « مُلْتَحَدًا » أى « وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا » إلا أن أبلغ ما يأتينى من الله ورسالاته ؛ أى ومن رسالاته التى أمرنى بتبليغها . أو إلا أن أبلغ عن الله وأعمل برسالته ، فآخذ نفسى بما آمر به غيرى . وقيل هو مصدر، و « لا » بمعنى لم ، و « إن » للشرط . والمعنى لن أجد من دونه ملتحدًا : أى إن لم أبلغ رسالات ربى بلاغا .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فى التوحيد والعبادة . ﴿ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ كسرت إن؛ لأن ما بعد فاء الجزاء موضع ابتداء وقد تقدم . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ نصب على

(١) أزجلهم : أى أدفعهم . وفى ز، ط ، ل : أزحلهم بالحاء ؛ أى أنحيهم .

Marfat.com

الحال ، وجمع « خَالِدِينَ » لأن المعنى لكل من فعل ذلك، فوحد أوّلًا للفظ « مَن » ثم جمع للمعنى . وقوله ﴿ أَبَدًا ﴾ دليل على أن العصيان هنا هو الشرك . وقيل : هو المعاصي غير الشرك، و يكون معنى «خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا» إلا أن أعفو أو تلحقهم شفاعة ، ولا محالة إذا خرجوا من الدنيا على الإيمان يلحقهم العفو . وقد مضى هذا المعنى مبيّنا في سورة « النساء »[1] وغيرها .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ ﴾ « حَتَّى » هنا مبتدأ، أي « حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ ﴾ من عذاب الآخرة ، أو ما يوعدون من عذاب الدنيا ، وهو القتل ببدر ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ ﴾ حينئذ ﴿ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا ﴾ أهم أم المؤمنون . ﴿ وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴾ معطوف .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ ﴾ يعني قيام الساعة . وقيل : عذاب الدنيا؛ أي لا أدري. فـ«إن» بمعنى «ما» أو «لا» ؛ أي لا يعرف وقت نزول العذاب ووقت قيام الساعة إلا الله ؛ فهو غيب لا أعلم منه إلا ما يعرفنيه الله . و « ما » في قوله : « مَا يُوعَدُونَ » : يجوز [أن يكون مع الفعل مصدرا، ويجوز[2]] أن تكون بمعنى الذي و يقدّر حرف العائد . ﴿ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴾ أي غاية وأجلًا. وقرأ العامة بإسكان الياء من ربي . وقرأ الحرميان وأبو عمرو بالفتح .

قوله تعالى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ۝٢٧ ﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ ﴾ « عَالِمُ » رفعًا نعتًا لقوله « رَبِّي » . وقيل : أي هو « عَالِمُ الْغَيْبِ » والغيب ما غاب عن العباد . وقد تقدّم بيانه في أول سورة « البقرة»[3] ﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ فإنه يظهره على ما يشاء من غيبه ؛

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٢٣ .   (٢) ما بين المربعين ساقط من الأصل المطبوع ، ط .

(٣) راجع جـ ١ ص ١٦٣ .

Marfat.com

لأن الرسل مؤيدون بالمعجزات، ومنها الإخبار عن بعض الغائبات؛ وفى التنزيل: «وَأُنَبِّئُكُمْ[(١)] بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ». وقال ٱبن جبير: «إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَى مِن رَّسُولٍ» هو جبريل عليه السلام. وفيه بعدٌ، والأولى أن يكون المعنى: أى لا يظهر على غيبه إلا من ٱرتضى أى ٱصطفى للنبوّة، فإنه يطلعه على ما يشاء من غيبه[(٢)]: ليكون ذلك دالًّا على نبوّته.

الثانيـة — قال العلماء رحمة الله عليهم: لمـا تمدّح سبحانه بعلم الغيب وٱستأثر به دون خلقه، كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحدٌ سواه، ثم ٱستثنى مَن ٱرتضاه من الرسل، فأودعهم ماشـاء من غيبه بطريق الوحى إليهم، وجعله معجزةً لهم ودلالةً صادقةً على نبوّتهم. وليس المنجّم ومن ضاهاه ممن يضرب بالحصى وينظر فى الكتب ويزجر بالطير ممن ٱرتضاه من رسول فيطلعه على ما يشاء من غيبه، بل هو كافر بالله مفترٍ عليه بحدسه وتخمينه وكذبه. قال بعض العلماء: وليت شعرى ما يقول المنجم فى سفينة ركب فيها ألف إنسان على ٱختلاف أحوالهم، وتباين رتبهم، فيهم الملك والسُّوقة، والعالم والجاهل، والغنىّ والفقير، والكبير والصغير، مع ٱختلاف طوالعهم، وتباين مواليدهم، ودرجات نجومهم؛ فعمهم حكم الغرق فى ساعة واحدة؟ فإن قال المنجم قبحه الله: إنمـا أغرقهم الطالع الذى ركبوا فيه، فيكون على مقتضى ذلك أن هذا الطالع أبطل أحكام تلك الطوالع كلها على ٱختلافها عند ولادة كل واحد منهم، وما يقتضيه طالعه المخصوص به، فلا فائدة أبدًا فى عمل المواليد، ولا دلالة فيها على شقىّ ولا سعيد، ولم يبق إلا معاندة القرآن العظيم. وفيه ٱستحلال دمه على هذا التنجيم، ولقد أحسن الشاعر حيث قال:

حَـكَمَ المنجّمُ أن طالعَ مولِدِى * يقضِى علىّ بميتـةِ الغَـرِقِ
قُلْ لِلْمُنَجِّمِ صَبْحَةَ الطُّوفانِ هَلْ * وُلِدَ الجَمِيـعُ بكَوْكَبِ الغَـرَقِ

وقيل لأمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه لمـا أراد لقاء الخوارج: أتلقاهم والقمر فى العقرب؟ فقال رضى الله عنه: فأين قمرهم؟ وكان ذلك فى آخر الشهر. فٱنظر إلى هذه

(١) راجع جـ ٤ ص ٩٥. (٢) فى ح: «من غيبه بطريق الوحى إليهم ليكون ...».

Marfat.com

الكلمة التى أجاب بها ، وما فيها من المبالغة فى الرد على من يقول بالتنجيم ، والإفحام لكل جاهل يحقق أحكام النجوم . وقال له مسافر بن عوف: يا أمير المؤمنين ! لا تسر فى هذه الساعة وسِرْ فى ثلاث ساعات يمضين من النهار . فقال له على رضى الله عنه : ولم ؟ قال : إنك إن سرت فى هذه الساعة أصابك وأصاب أصحابك بلاء وضر شديد ، وإن سرت فى الساعة التى أمرتك بها ظفرت وظهرت وأصبت ما طلبت . فقال علىّ رضى الله عنه : ما كان لمحمد صلى الله عليه وسلم مُنَجِّم، ولا لنا من بعده[1] — فى كلام طويل يَحتجّ فيه بآيات من التنزيل — فمن صدّقك فى هذا القول لم آمن عليه أن يكون كمن اتخذ من دون الله نِدًّا أو ضِدًّا، اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك . ثم قال للمتكلم : نكذبك ونخالفك ونسير فى الساعة التى تنهانا عنها. ثم أقبل على الناس فقال: يأيها الناس إياكم وتعلم النجوم إلّا ما تهتدون به فى ظلمات البر والبحر، وإنما المنجم كالساحر ، والساحر كالكافر، والكافر فى النار، والله لئن بلغنى أنك تنظر فى النجوم وتعمل بها لأخلدنك فى الحبس ما بقيتَ وبقيتُ ، ولأحرمنك العطاء ما كان لى سلطان . ثم سافر فى الساعة التى نهاه عنها، وأتى القوم فقتلهم وهى وقعة النَّهْرَوان الثابتة فى الصحيح لمسلم . ثم قال : لو سرنا فى الساعة التى أمرنا بها وظفرنا وظهرنا لقال قائل سار فى الساعة التى أمر بها المنجم ، ما كان لمحمد صلى الله عليه وسلم منجم ولا لنا من بعده ، فتح الله علينا بلاد كسرى وقيصر وسائر البُلْدان — ثم قال : يأيها الناس ! توكلوا على الله وثقوا به ؛ فإنه يكفى ممن سواه. ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ يعنى ملائكة يحفظونه عن أن يقرب منه شيطان ؛ فيحفظ الوحى من استراق الشياطين والإلقاء إلى الكهنة. قال الضحاك: مابعث الله نبيا إلا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين عن أن يتشبهوا بصورة المَلَك، فإذا جاءه شيطان فى صورة المَلَك قالوا: هذا شيطان فاحذره. وإن جاءه المَلَك قالوا : هذا رسول ربك . وقال ابن عباس وابن زيد: « رَصَدًا » أى حَفَظة يحفظون النبىّ صلى الله عليه وسلم من أمامه وورائه من الجن والشياطين . قال قتادة وسعيد بن المسيّب : هم أربعة من الملائكة حفظة . وقال الفراء : المراد جبريل ؛ كان

(١) جملة : « من بعده » ساقطة من ا ، ح .

Marfat.com

إذا نزل بالرسالة نزلت معه ملائكة يحفظونه من أن تستمع الجنّ الوحى، فيلقوه إلى كهنتهم، فيسبقوا الرسول . وقال السدى : « رَصَدًا » أى حفظة يحفظون الوحى ، فما جاء من عند الله قالوا : إنه من عند الله ، وما ألقاه الشيطان قالوا : إنه من الشيطان (١) . و « رَصَدًا » نصب على المفعول . وفى الصحاح : والرَّصَد القوم يرصُدون كالحرس ، يستوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث وربما قالوا أرصادًا . والراصد للشىء الراقب له ؛ يقال : رَصَده يرصُده رَصْدًا و رَصَدًا . والتَّرصد الترقب والمَرْصَد موضع الرصد (٢) .

قوله تعالى : لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ قال قتادة ومقاتل : أى ليعلم محمد أن الرسل قبله قد أبلغوا الرسالة كما بلّغ هو الرسالة . وفيه حذف يتعلق به اللام ؛ أى أخبرناه بحفظنا الوحى ليعلم أن الرسل قبله كانوا على مثل حالته من التبليغ بالحقّ والصدق . وقيل : ليعلم محمد أن قد أبلغ جبريل ومن معه إليه رسالة ربه ؛ قاله ٱبن جبير . قال : ولم ينزل الوحى إلا ومعه أربعة حفظة من الملائكة عليهم السلام . وقيل : ليعلم الرسل أن الملائكة بلّغوا رسالات ربهم . وقيل : ليعلم الرسول أىّ رسول كان أن الرسل سواه بلّغوا . وقيل : أى ليعلم إبليس أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم سليمة من تخليطه وٱستراق أصحابه . وقال ٱبن قتيبة : أى ليعلم الجنّ أن الرسل قد بلّغوا ما نزل عليهم ولم يكونوا هم المبلّغين بٱستراق السمع عليهم . وقال مجاهد : ليعلم من كذّب الرسل أن المرسلين قد بلّغوا رسالات ربهم . وقراءة الجماعة « لِيَعْلَمَ » بفتح الياء وتأويله ما ذكرناه . وقرأ ٱبن عباس ومجاهد وحُميد ويعقوب بضم الياء أى ليُعْلِم الناس أنّ الرسل قد أبلغوا . وقال الزجاج : أى ليعلم الله أن رسله قد أبلغوا رسالاته بفتح الياء ؛ كقوله تعالى : « وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ »

(١) هذا الكلام ينافى قوله صلى الله عليه وسلم : "إن الله قد عصمنى من الإنس والجن" (الحديث ج٦ ص ٢٤٤) وأن الشياطين لا يمكن أن ينالوا منه عليه السلام ، فكيف يلقون إليه حتى لا يفرق بين ما يلقونه وبين الوحى إلى أن تبينه له الملائكة .

(٢) ف ، ح : « موضع الرقب » .

Marfat.com

المعنى : ليعلم الله ذلك علم مشاهدة كما علمه غيبا . ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ أى أحاط علمه بما عندهم ، أى بما عند الرسل وما عند الملائكة . وقال ابن جبير: المعنى: ليعلم الرسل أن ربهم قد أحاط علمه بما لديهم، فيبلّغوا رسالاته . ﴿ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ أى أحاط بعدد كل شيء وعرفه وعلمه فلم يخف عليه منه شيء . و « عَدَدًا » نصب على الحال، أى أحصى كل شيء فى حال العدد، وإن شئت على المصدر، أى أحصى وعدّ كل شيء عددًا ، فيكون مصدر الفعل المحذوف . فهو سبحانه المحصى المحيط العالم الحافظ لكل شيء . وقد بينا جميعه فى الكتاب الأسنى ، فى شرح أسماء الله الحسنى . والحمد لله وحده .(1)

سورة المُزَّمِّل

وهى سبع وعشرون آية . مَكِّيَّةٌ كلها فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر .

وقال ابن عباس وقتادة : إلا آيتين منها « وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ » والتى تليها ؛ ذكره الماوردى . وقال الثعلبى : قوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى » إلى آخر السورة ؛ فإنه نزل بالمدينة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ قال الأخفش سعيد : « المُزَّمِّل » أصله المتزمل؛ فأدغمت التاء فى الزاى وكذلك « المدثر » . وقرأ أُبَىّ بن كعب على الأصل « المُتَزَمِّل »

(1) فى ط : « تمت السورة بحمد الله وعونه .

Marfat.com

و « المتدثر » . وسعيد : « المُزَّمِّل »(١) . وفى أصل « المزّمّل » قولان : أحدهما أنه المتحمل؛ يقال : زَمَل الشيءَ إذا حمله ، ومنه الزَّاملة ؛ لأنها تحمل القُماش(٢) . الثانى أن المزّمّل هو المتلفِّف؛ يقال : تزمل وتدثّر بثوبه إذا تغطى . وزمّل غيره إذا غطّاه، وكل شيء لُفِّف فقد زمل ودثر؛ قال آمرؤ القيس :

* كبيرُ أناسٍ فى بِجادٍ مُزَمَّلِ(٣) *

الثانية — قوله تعالى : « يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّل » هذا خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم، وفيه ثلاثة أقوال : الأول قول عكرمة « يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّل » بالنبوّة والملتزم للرسالة . وعنه أيضا : يأيها الذى زُمِّلَ هذا الأمر أى حُمِّله ثم فتر، وكان يقرأ « يَأَيُّهَا الْمُزَمَّل » بتخفيف الزاى وفتح الميم وتشديدها على حذف المفعول، وكذلك « المُدَثَّر » والمعنى المزمّل نفسه والمدثّر نفسه، أو الذى زمّله غيره . الثانى « يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّل » بالقرآن، قاله آبن عباس . الثالث المزمل بثيابه، قاله قتادة وغيره . قال النخعى : كان متزملا بقطيفة . عائشة : بمِرط طوله أربعة عشر ذراعاً، نصفه علىّ وأنا نائمة ، ونصفه على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو يصلّى، والله ما كان خزًّا ولا قزًّا ولا مِرعِزاء(٤) ولا إبريسما ولا صُوفا ، كان سَداه شَعرًا ، ولُحمته وَبَرًا ، ذكره الثعلبيّ .

قلت : وهذا القول من عائشة يدلّ على أن السورة مَدنيّة؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يَبْن بها إلّا فى المدينة . وما ذُكر من أنها مكية لا يصحّ . والله أعلم . وقال الضحاك : تزمل بثيابه لمنامه . وقيل : بلغه من المشركين سوء قول فيه، فآشتد عليه فتزمل فى ثيابه وتدثر، فنزلت : « يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّل » و « يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّر » . وقيل : كان هذا فى آبتداء ما أوحى إليه، فإنه لما سمع قول الملك ونظر إليه أخذته الرعدة فأتى أهله فقال : "زملونى دثرونى" روى معناه عن آبن عباس . وقالت الحكماء : إنما خاطبه بالمزمل والمدثر فى أول الأمر؛ لأنه لم يكن بعد آدّثر شيئا من تبليغ الرسالة . قال آبن العربى : وآختلف فى تأويل « يَأَيُّهَا

(١) لعل هذا ما أراده بعض المفسرين بقولهم : قرأ بعض السلف « المزمل » بفتح الزاى وتخفيفها وفتح الميم وشدها .
(٢) القماش : أرد أمتاع البيت، ويقال له : سقط المتاع . (٣) صدر البيت :
* كأن أبانا فى أفانين ودقه *
(٤) المرعزاء (بكسر الميم والعين) : الزغب الذى تحت شعر العنز .

Marfat.com

المُزَّمِّل » فنهم من حمله على حقيقته ، قيل له : يامن تلفّف فى ثيابه أو فى قطيفته قم ؛ قاله إبراهيم وقتادة . ومنهم من حمله على المجاز، كأنه قيل له : يا من تزمل بالنبوّة؛ قاله عكرمة ، وإنما يسوغ هـذا التفسير لو كانت الميم مفتوحة مشدّدة بصيغة المفعول الذى لم يسم فاعله ، وأما وهو بلفظ الفاعل فهو باطل .

قلت : وقد بينـا أنها على حذف المفعول : وقد قرئ بها، فهى صحيحة المعنى . قال : وأما من قال إنه زمّل القرآن فهو صحيح فى المجاز، لكنه قد قدّمنا أنه لا يحتاج إليه .

الثالثــة — قال السُّهَيلي : ليس المزمّل بآسم من أسمـاء النبيّ صلى الله عليه وسـلم ، ولم يعرف به كما ذهب إليه بعض الناس وعدُّوه فى أسمائه عليه السلام، وإنما المزمّل آسم مشتق من حالته التى كان عليها حين الخطاب، وكذلك المدثّر. وفى خطابه بهذا الآسم فائدتان: إحداهما الملاطفة؛ فإنّ العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك المعاتبة سموه، بآسم مشتق من حالته التى هو عليها ؛ كقول النبيّ صلى الله عليه وسـلم لعلى حين غاضب فاطمة رضى الله عنهما ، فأتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب فقال، له : " قم يا أبا تراب " إشعاراً له أنه غير عاتب عليه، وملاطفةً له . وكذلك قوله عليه السلام لحذيفة: " قم يانومان " وكان نائماً ملاطفةً له ، وإشـعاراً لترك العتب والتأنيب (١) . فقول الله تعـالى لمحمد صـلى الله عليه وسـلم : « يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمْ » فيه تأنيس وملاطفةٌ؛ ليستشعر أنه غير عاتب عليه . والفائدة الثانية — التنبيه لكل متزمل راقد ليـله ليتنبه إلى قيام الليـل وذكر الله تعـالى فيه ؛ لأن الآسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كل من عمل ذلك العمل وآتصف بتلك الصفة .

الرابعــة — قوله تعـالى : ﴿ قُمِ اللَّيْلَ ﴾ قراءة العامة بكسر الميم لآلتقاء الساكنين . وقرأ أبو السَّمّال بضم الميم إتباعاً لضمة القاف . وحكى الفتح لخفتـه . قال عثمان بن جنّى : الغرض بهـذه الحركة التبليغ بها هرباً من آلتقاء الساكنين ، فبأى حركة تحرّكت فقـد وقع الغرض . وهو من الأفعال القاصرة غير المتعدّية إلى مفعول، فأما ظرف الزمان والمكان فسائغ

(١) فى ا ، ح ، ل : « والتأنيس » .

Marfat.com

فيه، إلا أن ظرف المكان لا يتعدّى إليه إلا بواسطة؛ لا تقول: قمت الدار حتى تقول قمت وسط الدار وخارج الدار. وقد قيل: إن «قم» هنا معناه صَلِّ؛ عبّر به عنه وآستعير له حتى صار عرفًا بكثرة الآستعمال.

الخامســة — «اللَّيْــلَ» حدّ الليل: من غروب الشمس إلى طلوع الفجر. وقد تقدّم بيانه في سورة «البقرة»[1] وآختلف: هل كان قيامه فرضًا وحتمًا، أو كان ندبًا وحضًّا؟ والدلائل تقوى أن قيامه كان حتمًا وفرضًا؛ وذلك أن الندب والحضّ لا يقع على بعض الليل دون بعض؛ لأن قيامه ليس مخصوصًا به وقتًا دون وقت. وأيضًا فقد جاء التوقيت بذلك عن عائشة وغيرها على ما يأتي. وآختلف أيضا: هل كان فرضًا على النبيّ صلى الله عليه وسلم وحده، أو عليه وعلى من كان قبله من الأنبياء، أو عليه وعلى أمتــه؟ ثلاثة أقوال: الأوّل قول سعيد بن جبير لتوجه الخطاب إليه خاصة. الثاني قول آبن عباس، قال: كان قيام الليل فريضة على النبيّ صلى الله عليه وسلم وعلى الأنبياء قبله. الثالث قول عائشــة وآبن عباس أيضا وهو الصحيح؛ كما في صحيح مسلم عن زرارة بن أوْفَى أن سعد بن هشام بن عامر أراد أن يغزو في سبيل الله ... الحديث، وفيه: فقلت لعائشة: أنبئيني عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت: ألست تقرأ «يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ» قلت: بلى! قالت فإن الله عز وجل آفترض قيام الليل في أوّل هذه السورة، فقام صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولًا، وأمسك الله عز وجل خاتمتها آثني عشر شهرًا في السماء، حتى أنزل الله عز وجل في آخر هــذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوّعا بعد فريضة. وذكر الحديث. وذكر وكيع ويَعْلَى قالا: حدّثنا مِسْعر عن سِماك الحنفي قال: سمعت آبن عباس يقول لما أنزل أوّل «يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ» كانوا يقومون نحــوًا من قيامهم في شهر رمضان حتى نزل آخرها، وكان بين أوّلها وآخرها نحو من ســنة. وقال سعيد بن جبير: مكث النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه عشر سنين يقومون الليل، فنزل بعد عشر سنين: «إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ» فخفّف الله عنهم.

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩٢

Marfat.com

السادسة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ٱستثناء من الليل ، أى صلّ الليل كله إلا يسيرًا منه ؛ لأن قيام جميعه على الدوام غير ممكن ، فٱستثنى منه القليل لراحة الجسد . والقليل من الشيء ما دون النصف ؛ فحكى عن وهب بن منبّه أنه قال : القليل مادون المعشار والسدس . وقال الكلبي ومقاتل : الثلث . ثم قال تعالى : ﴿ نِصْفَهُ أَوِ ٱنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴾ فكان ذلك تخفيفًا إذ لم يكن زمان القيام محدودًا، فقام الناس حتى ورمت أقدامهم، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى : « عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ » . وقال الأخفش : « نِصْفَهُ » أى أو نصفه؛ يقال : أعطه درهما درهمين ثلاثة : يريد : أو درهمين أو ثلاثة . وقال الزجاج : « نِصفَه » بدل من الليل و « إِلَّا قَلِيلًا » ٱستثناء من النصف . والضمير فى « منه » و « عليه » للنصف . المعنى : قم نصف الليل أو ٱنقص من النصف قليلًا إلى الثلث أو زد عليه قليلا إلى الثلثين ؛ فكأنه قال : قم ثلثى الليل أو نصفه أو ثلثه . وقيل : إن « نِصْفَهُ » بدل من قوله « قَلِيلًا » وكان مخيرًا بين ثلاث : بين قيام النصف بتمامه، و بين الناقص منه، و بين قيام الزائد عليه ؛ كأن تقدير الكلام : قم الليل إلا نصفه، أو أقل من نصفه، أو أكثر من نصفه . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ينزل الله عز وجل إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يمضى ثلث الليل الأوّل، فيقول أنا الملِك أنا الملِك من ذا الذى يدعونى فأستجيب له من ذا الذى يسألنى فأعطيه من ذا الذى يستغفرنى فأغفر له ، فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر " . ونحوه عن أبى هريرة وأبى سعيد جميعًا وهو يدل على ترغيب قيام ثلثى الليل . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة : قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا مضى شطر الليل — أو ثلثاه — ينزل الله " ... الحديث . رواه من طريقين عن أبى هريرة هكذا على الشك . وقد جاء فى كتاب النسائى عن أبى هريرة وأبى سعيد رضى الله عنهما قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله عز وجل يمهل حتى يمضى شَطْر الليل الأوّل، ثم يأمر مناديًا يقول: هل من داع يُستجاب له ؟ هل من مستغفر يُغفر له ؟ هل من سائل يُعطَى؟ " ؟ صححه أبو محمد عبد الحق ؛ فبين هذا الحديث مع صحته معنى النزول، وأن ذلك يكون عند نصف الليل . وخرّج ٱبن ماجه من حديث ٱبن شهاب ، عن أبى سَلَمة وأبى عبد الله الأغر، عن أبى هريرة :

Marfat.com

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ينزل ربنا تبارك وتعالى حين يبقى ثلث الليل الآخر كل ليلة فيقول من يسألني فأعطيَه ؟ من يدعوني فأستجيبَ له ؟ من يستغفرني فأغفرَ له ؟ حتى يطلع الفجر". فكانوا يستحبون صلاة آخر الليل على أوّله . قال علماؤنا : وبهذا الترتيب آنتظم الحديث والقرآن ، فإنهما يبصران من مشكاة واحدة . وفي الموطأ وغيره من حديث آبن عباس : بتُّ عند خالتي ميمونة حتى إذا آنتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل ، آستيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام إلى شَنّ معلق فتوضأ وضوءًا خفيفًا . وذكر الحديث .

السابعة — آختلف العلماء في الناسخ للأمر بقيام الليل ؛ فعن آبن عباس وعائشة أن الناسخ للأمر بقيام الليل قوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ » إلى آخر السورة . وقيل قوله تعالى : « عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ » . وعن آبن عباس أيضا : هو منسوخ بقوله تعالى : « عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى » . وعن عائشة أيضا والشافعيّ ومقاتل وآبن كيسان : هو منسوخ بالصلوات الخمس . وقيل الناسخ لذلك قوله تعالى : « فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ » . قال أبو عبد الرحمن السُّلَمي : لما نزلت « يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ » قاموا حتى ورِمت أقدامهم وسُوقهم ، ثم نزل قوله تعالى : « فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ » . قال بعض العلماء : وهو فرض نُسخ به فرض ؛ كان على النبيّ صلى الله عليه وسلم خاصة لفضله ؛ كما قال تعالى : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ » .

قلت : القول الأوّل يعم جميع هذه الأقوال ، وقد قال تعالى : « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » فدخل فيها قول من قال إن الناسخ الصلوات الخمس . وقد ذهب الحسن وآبن سيرين إلى أن صلاة الليل فريضة على كل مسلم ولو على قدر حلْب شاة . وعن الحسن أيضا أنه قال في هذه الآية : الحمد لله تطوّع بعد الفريضة . وهو الصحيح إن شاء الله تعالى ؛ لما جاء في قيامه من الترغيب والفضل في القرآن والسنة . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كنت أجعل للنبيّ صلى الله عليه وسلم حصيرًا يصلّي عليه من الليل ، فتسامع الناس به ، فلما رأى جماعتهم كره ذلك ، وخشي أن يُكتب عليهم قيام الليل ، فدخل البيت كالمغضَب ، فجعلوا

Marfat.com

يتنحنحون ويتفلون فخرج إليهم فقال : " أيها الناس اكلفوا[1] من الأعمال ما تطيقون ، فإن الله لا يمل من الثواب ، حتى تملوا من العمل ، وإن خير العمل أدومه وإن قل ". فنزلت : « يٰأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ » فكتب عليهم ، فأنزل بمنزلة الفريضة ، حتى إن كان أحدهم ليربط الحبل فيتعلق به ، فمكثوا ثمانية أشهر ، فرحمهم الله وأنزل : « إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ » فردهم الله إلى الفريضة ، ووضع عنهم قيام الليل إلا ما تطوعوا به .

قلت : حديث عائشة هذا ذكره الثعلبي ، ومعناه ثابت فى الصحيح إلى قوله : " وإن قل " وباقيه يدل على أن قوله تعالى : « يٰأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ » نزل بالمدينة وأنهم مكثوا ثمانية أشهر يقومون . وقد تقدم عنها فى صحيح مسلم : حولا . وحكى الماوردي عنها قولا ثالثا وهو ستة عشر شهرا ، لم يذكر غيره عنها . وذكر عن ابن عباس أنه كان بين أول المزمل وآخرها سنة ؛ قال : فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كان فرضا عليه . وفى نسخه عنه قولان : أحدهما : أنه كان فرضه عليه إلى أن قبضه الله تعالى . الثانى : أنه نسخ عنه كما نسخ عن أمته . وفى مدة فرضه إلى أن نسخ قولان : أحدهما : المدة المفروضة على أمته فى القولين الماضيين ، يريد قول ابن عباس حولا ، وقول عائشة ستة عشر شهرا . الثانى : أنها عشر سنين إلى أن خفف عنه بالنسخ زيادة فى التكليف ، ليميزه بفعل الرسالة ؛ قاله ابن جبير .

قلت : هذا خلاف ما ذكره الثعلبي عن سعيد بن جبير حسب ما تقدم فتأمله . وسيأتى لهذه المسألة زيادة بيان فى آخر السورة إن شاء الله تعالى .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ أى لا تعجل[2] بقراءة القرآن بل اقرأه فى مهل وبيان مع تدبر المعانى . وقال الضحاك : اقرأه حرفا حرفا . وقال مجاهد : أحب الناس فى القراءة إلى الله أعقلهم عنه . والترتيل التنضيد والتنسيق وحسن النظام ؛ ومنه ثغر رتل ورتل ، بكسر العين وفتحها : إذا كان حسن التنضيد . وتقدم بيانه فى مقدمة الكتاب[3] . وروى الحسن أن النبي صلى الله عليه وسلم مر برجل يقرأ آية ويبكى ، فقال : " ألم تسمعوا

(١) اكلفوا : تحملوا : النهاية لابن الأثير .　　(٢) جملة : « لا تعجل » ساقطة من ح .
(٣) راجع جـ ١ ص ١٧ .

Marfat.com

إلى قول الله عز وجل « وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا » هذا الترتيل". وسمع عَلْقَمةُ رجلًا يقرأ قراءة حسنة فقال : لقد رتّل القرآن، فداه أبي وأمّي، وقال أبو بكر بن طاهر : تدبّر في لطائف خطابه، وطالب نفسك بالقيام بأحكامه، وقلبَك بفهم معانيه، وسرّك بالإقبال عليه . وروى عبد الله بن عمرو قال : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "يؤتى بقارئ القرآن يوم القيامة، فيوقف في أوّل درج الجنة و يقال له آقرأ وآرتقِ ورتّل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلك عنـد آخر آية تقرؤها" خرجه أبو داود وقد تقدّم في أوّل الكتاب[1] . وروى أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يمـدّ صوته بالقراءة مدّا .

قوله تعـالى : إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ هو متصل بما فُرض من قيام الليل، أي سنلقي عليك بافتراض صلاة الليل قولًا ثقيلًا يثقل حمله ؛ لأن الليل للنام، فمن أمر بقيام أكثره لم يتهيأ له ذلك إلا بحَمْل شديد على النفس ومجاهدة للشيطان، فهو أمر يثقل على العبد . وقيل : إنا سنوحى إليك القرآن، وهو قول ثقيل يثقل العمل بشرائعه . قال قتادة : ثقيل والله فرائضه وحدوده . مجاهد : حلاله وحرامه . الحسن : العمل به . أبو العالية : ثقيلًا بالوعد والوعيد والحلال والحرام . محمد بن كعب : ثقيلًا على المنافقين . وقيل : على الكفار؛ لمـا فيه من الاحتجاج عليهم، والبيان لضلالتهم وسبّ آلهتهم، والكشف عما حرّفه أهل الكتاب . السُّدّيّ : ثقيل بمعنى كريم؛ مأخوذ من قولهم: فلان ثقيل عليّ، أي يكرم عليّ . الفرّاء : « ثقيلًا » رزينـًا ليس بالخفيف السَّفْساف لأنه كلام ربنا . وقال الحسين بن الفضل : ثقيلًا لا يحمله إلا قلب مؤيد بالتوفيق، ونفس مزينة بالتوحيد . وقال آبن زيد : هو والله ثقيل مبارك ، كما ثقل في الدنيا يثقل في الميزان يوم القيامة . وقيـل « ثقيلًا » أي ثابتـًا كثبوت الثقيل في محله ؛ ويكون معناه أنه ثابت الإعجاز، لا يزول إعجازه أبدًا . وقيـل : هو القرآن نفسه؛ كما جاء في الخبر : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا أُوحِيَ إليه وهو على ناقته وضعت جِرانها

(١) راجع جـ ١ ص ٨ .

Marfat.com

— يعنى صدرها — على الأرض، فما تستطيع أن تتحرك حتى يُسَرَّى عنه[1]. وفى الموطأ وغيره أنه عليه السلام سئل: كيف يأتيك الوحى؟ فقال: "أحيانًا يأتينى مثل صَلْصَلة الجرس، وهو أشدّه علىّ، فَيُفصِم عنّى وقد وعيت ما قال، وأحيانًا يتمثل لى المَلَك رجلًا فيكلمنى فأعى ما يقول". قالت عائشة رضى الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد، فيُفصِم عنه وإن جبينه ليتفصّد عرقًا. قال ابن العربىّ: وهـذا أولى؛ لأنه الحقيقة، وقد جاء « وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ». وقال عليه السلام: "بُعثت بالحنيفية السَّمْحة". وقيل: القول فى هذه السورة: هو قول لا إله إلا الله؛ إذ فى الخبر: خفيفة على اللسان ثقيلة فى الميزان، ذكره القشيرىّ.

قوله تعالى: إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ ﴾ قال العلماء: ناشئة الليل أى أوقاته وساعاته، لأن أوقاته تنشأ أوّلًا فأولًا؛ يقال: نشأ الشىء ينشأ: إذا ابتدأ وأقبل شيئًا بعد شىء، فهو ناشئ وأنشأه الله فنشأ، ومنه نشأت السحابة إذا بدأت وأنشأها الله؛ فناشئة: فاعلة من نشأت تنشأ فهى ناشئة، ومنه قوله تعالى: « أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ » والمراد إن ساعات الليل الناشئة، فاكتفى بالوصف عن الاسم، فالتأنيث للفظ ساعة، لأن كل ساعة تحدث. وقيل: الناشئة مصدر بمعنى [قيام الليل][2] كالخاطئة والكاذبة؛ أى إن نشأة الليل هى أشد وطئًا. وقيل: إن ناشئة الليل قيام الليل. قال ابن مسعود: الحَبَشة يقولون: نشأ أى قام. فلعله أراد أن الكلمة عربيّة[3]، ولكنها شائعة فى كلام الحبشة، غالبة عليهم، وإلا فليس فى القرآن ما ليس فى لغة العرب. وقد تقدّم بيان هذا فى مقدّمة الكتاب مستوفًى.

(١) أى الوحى.	(٢) زيادة تقتضيها العبارة؛ وهى كذلك فى كتب التفسير.
(٣) فى ا، ح، ل: « غريبة » راجع جـ ١ ص ٦٨ فما بعدها.

Marfat.com

الثانيـة — بيّن تعالى فى هذه الآية فضل صلاة الليل على صلاة النهار، وأن الاستكثار من صلاة الليل بالقراءة فيها ما أمكن ، أعظم للأجر ، وأجلب للثواب .

واختلف العلماء فى المراد بناشئة الليل؛ فقال ابن عُمر وأنس بن مالك : هو ما بين المغرب والعشاء ، تمسكًا بأن لفظ نشأ يعطى الابتداء، فكان بالأولية أحق ؛ ومنه قول الشاعر :

ولولا أنْ يُقالَ صَبا نُصَيبٌ * لَقلتُ بِنفسِيَ النَّشَأ الصِّغارُ

وكان علىّ بن الحسين يصلّى بين المغرب والعشاء ويقول : هذا ناشئة الليل . وقال عطاء وعِكرمة : إنه بدء الليل . وقال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : هى الليل كله ؛ لأنه ينشأ بعد النهار، وهو الذى اختاره مالك بن أنس . قال ابن العربىّ : وهو الذى يعطيه اللفظ وتقتضيه اللغة . وقالت عائشة وابن عباس أيضا ومجاهد : إنما الناشئة القيام بالليل بعد النوم . ومن قام أول الليل قبل النوم فما قام ناشئة . فقال يَمان وابن كَيْسان : هو القيام من آخر الليل . وقال ابن عباس : كانت صلاتهم أول الليل . وذلك أن الإنسان إذا نام لايدرى متى يستيقظ . وفى الصحاح : وناشئة الليل أول ساعاته . وقال القُتَبىّ : إنه ساعات الليـل ؛ لأنها تنشأ ساعة بعد ساعة . وعن الحسن ومجاهد : هى ما بعـد العشاء الآخرة إلى الصبح . وعن الحسن أيضا : ما كان بعد العشاء فهو ناشئة . ويقال : ما ينشأ فى الليل من الطاعات ؛ حكاه الجوهرىّ .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا ﴾ قرأ أبو العالية وأبو عمرو وابن أبى إسحاق ومجاهد وحُميد وابن محيصن وابن عامر والمغـيرة وأبو حَيْوة « وِطَاء » بكسر الواو وفتح الطاء والمدّ، واختاره أبو عبيد . الباقون « وَطْئًا » بفتح الواو وسكون الطاء مقصورة، واختاره أبو حاتم؛ من قولك : اشتدت على القوم وطأة سلطانهم . أى ثقل عليهم ما حمّلهم من المُؤَن، ومنه قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : " اللهم اشدد وطأتك على مُضَر " فالمعنى أنها أثقل على المصلّى من ساعات النهار . وذلك أن الليـل وقت منام وتودّع وإجمام ، فمن شغله بالعبادة فقد تحمل المشقة العظيمة . ومن مدّ فهو مصدر واطأت وِطاء ومواطأة أى وافقته . ابن زيد واطأته على الأمر مواطأة : إذا وافقته من الوِفاق، وفلان يواطئ اسمه اسمى، وتواطـُوا عليه أى توافقوا ؛ فالمعنى أشد موافقة بين القلب والبصر والسمع واللسان ؛ لانقطاع الأصوات

Marfat.com

والحركات ؛ قاله مجاهد وآبن أبى مُلَيكة وغيرهما . وقال آبن عباس بمعناه ، أى يواطئ السمع القلب ؛ قال الله تعالى : « لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ » أى ليوافقوا . وقيل : المعنى أشد مِهاداً للتصرف فى التفكر والتدبر. والوِطاء خلاف الغطاء. وقيل : « أَشَدُّ وَطْئًا » بسكون الطاء وفتح الواو أى أشد ثباتاً من النهار؛ فإن الليل يخلو فيه الإنسان بما يعمله، فيكون ذلك أثبت للعمل وأتقى(١) لما يلهى ويشغل القلب . والوطء الثبات ، تقول : وطئت الأرض بقدمى . وقال الأخفش: أشد قيامًا . الفراء : أثبت قراءة وقيامًا. وعنه: « أَشَدُّ وَطْئًا » أى أثبت للعمل وأدوم لمن أراد الآستكثار من العبادة ، والليل وقت فراغ عن آشتغال المعاش ، فعبادته تدوم ولا تنقطع . وقال الكلبى: « أَشَدُّ وَطْئًا » أى أشد نشاطًا للمصلّى؛ لأنه فى زمان راحته. وقال عبادة : « أَشَدُّ وَطَاءً » أى نشاطا للمصلّى وأخفّ ، وأثبت للقراءة .

الرابعــة — قوله تعالى: ﴿ وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ أى القراءة بالليل أقوم منها بالنهار؛ أى أشد آستقامة وآستمرارًا على الصواب ؛ لأن الأصوات هادئة، والدنيا ساكنة، فلا يضطرب على المصلّى ما يقرؤه . قال قتادة ومجاهد : أى أصوب للقراءة وأثبت للقول؛ لأنه زمان التفهم. وقال أبو على: « أَقْوَمُ قِيلًا » أى أشد آستقامة لفراغ البال بالليل . وقيل : أى أعجل إجابة للدعاء. حكاه آبن شجرة . وقال عِكرمة: عبادة الليل أتم نشاطًا، وأتم إخلاصًا، وأكثر بركة . وعن زيد آبن أسلم : أجدر أن يتفقّه فى القرآن . وعن الأعمش قال : قرأ أنس بن مالك « إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَصْوَبُ قِيلًا » فقيل له : « وَأَقْوَمُ قِيلًا » فقال: أقوم وأصوب وأهيأ: سواء . قال أبو بكر الأنبارى: وقد ترامى ببعض هؤلاء الزائغين إلى أن قال: من قرأ بحرف يوافق معنى حرف من القرآن فهو مصيب، إذا لم يخالف معنًى ولم يأت بغير ما أراد الله وقصد له ، وآحتجوا بقول أنس هذا . وهو قول لا يُعرَّج عليه ولا يلتفت إلى قائله ؛ لأنه لو قرأ بألفاظ تخالف ألفاظ القــرآن إذا قاربت معانيها وآشتملت على عامتها ، لجاز أن يقرأ فى موضع « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » : الشكر للبارى ملك المخلوقين، ويتسع الأمر فى هذا حتى يبطل لفظ جميع القرآن ، ويكون التالى له مفتريًا على الله عز وجل، كاذبا على رسوله صلى

(١) فى ا : « وأتى » .

Marfat.com

الله عليه وسلم، ولا حجة لهم فى قول ابن مسعود: نزل القرآن على سبعة أحرف، إنما هو كقول أحدكم: هلم وتعال وأقبل؛ لأن هذا الحديث يوجب أن القراءات المأثورة المنقولة بالأسانيد الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم إذا اختلفت ألفاظها، واتفقت معانيها، كان ذلك فيها بمنزلة الخلاف فى هلم، وتعال، وأقبل، فأما مالم يقرأ به النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتابعوهم رضى الله عنهم، فإنه من أورد حرفا منه فى القرآن بهت ومال وخرج من مذهب الصواب.

قال أبو بكر: والحديث الذى جعلوه قاعدتهم فى هذه الضلالة حديث لا يصح عن أحد من أهل العلم؛ لأنه مبنى على رواية الأعمش عن أنس، فهو مقطوع ليس بمتصل فيؤخذ به، من قبل أن الأعمش رأى أنسا ولم يسمع منه.

الخامسة — قوله تعالى:[1] ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ قراءة العامة بالحاء غير معجمة؛ أى تصرفا فى حوائجك، وإقبالا وإدبارا وذهابا ومجيئا. والسبح: الجرى والدوران، ومنه السابح فى الماء؛ لتقلبه بيديه ورجليه. وفرس سابح: شديد الجرى؛ قال امرؤ القيس:

مِسَحٍّ إذا ما السَّابِحاتُ على الوَنَى * أَثَرْنَ الغُبارَ بِالكَدِيدِ المُرَكَّلِ[2]

وقيل: السبح الفراغ؛ أى إن لك فراغا للحاجات بالنهار. وقيل: «إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا» أى نوما، والتسبح التمدد؛ ذكره الخليل. وعن ابن عباس وعطاء: «سَبْحًا طَوِيلًا» يعنى فراغا طويلا لنومك وراحتك، فاجعل ناشئة الليل لعبادتك. وقال الزجاج: إن فاتك فى الليل شيء فلك فى النهار فراغ الاستدراك.

وقرأ يحيى بن يعمر وأبو وائل «سَبْخا» بالخاء المعجمة. قال المهدوى: ومعناه النوم؛ روى ذلك عن القارئين بهذه القراءة. وقيل: معناه الخفة والسعة والاستراحة؛ ومنه قول

---

(١) جملة: «قوله تعالى» ساقطة من ح. (٢) مسح: معناه يصب الجرى صبا. وهذه الكلمة وردت محرفة فى ط، وهى ساقطة من سائر الأصول. والتصويب من الديوان واللسان. والونى: الفتور والكلال. والكديد: الموضع الغليظ. والمركل: الذى يركل بالأرجل. ومعنى البيت: إن الخيل السريعة إذا فترت فأثارت الغبار بأرجلها من التعب جرى هذا الفرس جريا سهلا كما يسح السحاب المطر.

Marfat.com

النبيّ صلى الله عليه وسلم لعائشة وقد دعت على سارق ردائها : " لا تُسبِّخى [عنه][1] بدعائك عليه " . أى لا تخفِّفى عنه إثمه ؛ قال الشاعر :

فَسَبِّخْ عليك الهَمَّ واعلم بأنّه * إذا قدّر الرحمنُ شيئًا فكائِنُ

الأصمعىّ : يقال سَبَّخ اللهُ عنك الحُمَّى أى خفّفها . وسَبَخ الحَرُّ[2]: فتر وخفّ . والتَّسبيخ النوم الشديد . والتَّسبيخ أيضا توسيع القطن والكَتّان والصوف وتنفيشها ؛ يقال للمرأة : سبخى قطنك . والسَّبيخُ من القطن ما يسبَّخ بعد النَّدْف ، أى يُلَفّ لتغزله المرأة ، والقطعة منه سَبِيخة، وكذلك من الصوف والوبر . ويقال لقطع القطن سبائخ ؛ قال الأخطل يصف القُنّاص والكلاب :

فأرسلوهنّ يُذْرِينَ التّرابَ كما * يُذْرِى سَبائخَ قُطْنٍ نَدْفُ أوْتارِ

وقال ثعلب : السَّبْخ بالخاء التردّد والاضطراب، والسَّبْخ أيضا السكون ؛ ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم : " الحُمّى من فيح جهنم، فسبِّخوها بالماء " أى سكّنوها . وقال أبو عمرو : السَّبْخ : النوم والفراغ .

قلت : فعلى هذا يكون من الأضداد، وتكون بمعنى السبح ، بالحاء غير المعجمة .

قوله تعالى : وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ ﴾ أى آدعه بأسمائه الحسنى ، ليحصل لك مع الصلاة محمود العاقبة . وقيل : أى آقصد بعملك وجه ربك . وقال سهل : آقرأ باسم الله الرحمن الرحيم فى آبتداء صلاتك توصلك بركة قراءتها إلى ربك ، وتقطعك عما سواه[3] . وقيل: آذكر آسم ربك فى وعده ووعيده، لتوفّر على طاعته وتعدل عن معصيته . وقال الكلبىّ: صلّ لربك أى بالنهار .

(١) زيادة من نهاية ابن الأثير. (٢) فى ا ، ح ، ل ، و : «الجن» بالجيم والنون، وهو تحريف .
(٣) فى ا ، ح ، ز ، ط ، « تهواه » .

Marfat.com

قلت : وهذا حسن فإنه لما ذكر الليل ذكر النهار؛ إذ هو قسيمه؛ وقد قال الله تعالى : « وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ »(١) على ماتقدّم .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ التبتل : الآنقطاع إلى عبادة الله عز وجل؛ أى آنقطع بعبادتك إليه، ولا تشرك به غيره . يقال : بتلت الشيء أى قطعته ، ومنه قولهم . طلقها بَتَّةً بَتلةً، وهذه صدقة بتة بتلة؛ أى بائنة منقطعة عن صاحبها؛ أى قُطِع ملكه عنها بالكلية ؛ ومنه مريم البتول لآنقطاعها إلى الله تعالى ، ويقال للراهب متبتّل؛ لآنقطاعه عن الناس، وآنفراده بالعبادة . قال :

تُضِيءُ الظَّلامَ بالعِشَـاءِ كأَنَّهَـا * مَنَـارةُ مُمْسَى راهِبٍ مُتَبَتِّـلِ(٢)

وفى الحديث النهى عن التبتـل، وهو الآنقطاع عن الناس والجماعات . وقيـل : إن أصله عند العرب التفرد ؛ قاله آبن عرفة . والأول أقوى لما ذكرنا . ويقـال : كيف قال : تَبْتِيلا ، ولم يقل تَبَتُّـلًا ؟ قيل له : لأن معنى تَبَتَّـل بَتَّل نفسه ، فجيء به على معناه مراعاة لحقّ الفواصل .

الثالثــة ــ قد مضى فى « المـائدة »(٣) فى تفسير قوله تعـالى : « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ » كراهة لمن تبتّـل وآنقطع وسلك سبيل الرهبانية بمـا فيه كفاية . قال آبن العربيّ : وأما اليوم وقـد مَرِجت عهـودُ الناس ، وخفّت أماناتهم ، وآستولى الحـرام على الحُطام(٤) ، فالعـزلة خير من الخُلطة ، والعُزْبة أفضـل من التأهّل ، ولكن معنى الآية : آنقطِعْ عن الأوثان والأصنام وعن عبادة غير الله ، وكذلك قال مجاهد : معناه : أخلص له العبادة، ولم يرد التبتّل، فصار التبتل مأموراً به فى القرآن، منهيّاً عنه فى السنة، ومتعلق الأمر غير متعلق النهى، فلا يتناقضان، وإنما بعث ليبيّن للناس ما نزل إليهم؛ فالتبتّل المـأمور به : الآنقطاع إلى الله بإخلاص العبادة؛ كما قال تعـالى : « وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٦٥ .

(٢) البيت من معلقة آمرئ القيس ، ومعناه : إذا آبتسمت بالليل رأيت لثناياها بريقا وضوءا ، وإذا برزت فى الظلام آستنار وجهها حتى يغلب ظلمة الليل . وممسى راهب : أى إمساؤه .

(٣) راجع جـ ٦ ص ٢٦١ .

(٤) حطام الدنيا : كل مافيها من مال يفنى ولا يبقى .

Marfat.com

الله مخلصين له الدين (١) » والتبتل المنهي عنه : هو سلوك مسلك النصارى فى ترك النكاح والترهب فى الصوامع ، لكن عند فساد الزمان يكون خيرُ مال المسلم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر ، يفر بدينه من الفتن .

قوله تعالى : رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ قرأ أهل الحرمين وابن مُحيصن ومجاهد وأبو عمرو وابن أبى إسحاق وحفص « رَبُّ » بالرفع على الابتداء والخبر ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ . وقيل : على إضمار « هو » . الباقون « رَبِّ » بالخفض على نعت الربّ تعالى فى قوله تعالى : « وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ » « رَبِّ الْمَشْرِقِ » ، ومن علم أنه ربّ المشارق والمغارب انقطع بعمله وأمله إليه . ﴿ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ أى قائماً بأمورك . وقيل : كفيلاً بما وعدك .

قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ أى من الأذى والسبّ والاستهزاء ، ولا تجزع من قولهم ، ولا تمتنع من دعائهم . ﴿ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ أى لا تتعرض لهم ، ولا تشتغل بمكافأتهم ، فإن فى ذلك ترك الدعاء إلى الله . وكان هذا قبل الأمر بالقتال ، ثم أمر بعدُ بقتالهم وقتلهم ، فنسخت آية القتال ما كان قبلها من الترك ؛ قاله قتادة وغيره . وقال أبو الدرداء : إنا لَنَكْشِرُ فى وجوه [أقوام] (٢) ونضحك إليهم وإن قلوبنا لتقليهم أو لتلعنهم .

قوله تعالى : ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ ﴾ أى ارض بى لعقابهم . نزلت فى صناديد قريش ورؤساء مكة من المستهزئين . وقال مقاتل : نزلت فى المطعمين (٣) يوم بدر وهم عشرة . وقد تقدّم ذكرهم فى « الأنفال » (٤) . وقال يحيى بن سلام : إنهم بنو المغيرة . وقال سعيد بن جُبير أخبرت أنهم اثنا عشر رجلا . ﴿ أُولِي النَّعْمَةِ ﴾ أى أولى الغنى والترفه واللذة فى الدنيا

(١) راجع جـ ٢٠ ص ١٤٤ .
(٢) الزيادة من نهاية ابن الأثير .
(٣) فى ا ، ح ، ل : « المطعين » .
(٤) راجع جـ ٨ ص ٥٢ .

Marfat.com

﴿ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾ يعنى إلى مدة آجالهم . قالت عائشة رضى الله عنها : لما نزلت هذه الآية لم يكن إلا يسيرًا حتى وقعت وقعة بدر . وقيل : « وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا » يعنى إلى مدة الدنيا .

قوله تعالى : إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ﴾ الأنكال : القيود . عن الحسن ومجاهد وغيرهما. واحدها نِكْل، وهو ما منع[1] الإنسان من الحركة . وقيل سمّى نِكلا، لأنه يُنَكَّل به. قال الشعبي: أترون أن الله تعالى جعل الأنكال فى أرجل أهل النار خشية أن يهربوا ؟ لا والله ! ولكنهم إذا أرادوا أن يرتفعوا آستفلت بهم . وقال الكلبي : الأنكال : الأغلال ، والأوّل أعرف فى اللغة ؛ ومنه قول الخنساء :

دَعاكَ فقطّعْتَ أَنْكالَهُ * وقَدْ كُنَّ[2] قَبْلَكَ لا تُقْطَعُ

وقيل : إنه أنواع العذاب الشديد ؛ قاله مقاتل . وقد جاء أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله يحبّ النَّكَل على النَّكَل " بالتحريك، قاله الجوهرىّ . قيل : وما النَّكَل؟ قال: " الرجل القوىّ المجرَّب، على الفرس القوىّ المجرَّب " ذكره الماوردىّ . قال : ومن ذلك سمى القيد نِكْلا لقوته، وكذلك الغُلّ، وكل عذاب قوى فآشتد. والجحيم النار المؤجّجة . ﴿ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ ﴾ أى غير سائغ، يأخذ بالحلق، لا هو نازل ولا هو خارج، وهو الغِسلين والزَّقوم والضَّريع ؛ قاله آبن عباس. وعنه أيضا : أنه شوك يدخل الحلق، فلا ينزل ولا يخرج . وقال الزجاج : أى طعامهم الضَّريع ؛ كما قال : « لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ » وهو شوك كالعَوْسج . وقال مجاهد: هو الزَّقوم، كما قال : « إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ » . والمعنى واحد. وقال حُمْران بن أَعْيَن : قرأ النبىّ صلى الله عليه وسلم " إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا . وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ "

(١) فى أ ، ح ، و : « وهو منع » . (٢) فى ديوان الخنساء : ظلّ .

Marfat.com

فصعق . وقال خُلَيد بن حسان : أمسى الحسن عندنا صائمًا ، فأتيته بطعام فعرضتْ له هذه الآية «إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا . وَطَعَامًا» فقال : ٱرفع طعامك . فلما كانت الثانية أتيته بطعام فعرضت له هذه الآية ، فقال : ٱرفعوه . ومثله في الثالثة ؛ فٱنطلق ٱبنه إلى ثابت البُنانى ويزيدَ الضَّبيّ ويحيى البكّاء فحدّثهم ، فجاءوه فلم يزالوا به حتى شرب شربة من سَوِيق . والغُصّة : الشَّجا ، وهو ما يَنْشَب في الحلق من عَظْم أو غيره ، وجمعها غُصَص . والغَصَص بالفتح مصدر قولك : غَصِصْتَ يا رجل تَغَصّ ، فأنت غاصّ بالطعام وغصّان ، وأغصصته أنا ، والمنزل غاصّ بالقوم أي ممتلئ بهم .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ أي تتحرك وتضطرب بمن عليها . وٱنتصب «يوم» على الظرف أي ينكل بهم ويعذّبون «يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ» . وقيل : بنزع الخافض ؛ يعني هذه العقوبة في يوم ترجف الأرض والجبال . وقيل : العامل «ذَرْنِي» أي وذرني والمكذبين يوم ترجُف الأرض والجبال . ﴿ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ﴾ أي وتكون . والكثيب الرمل المجتمع ـ قال حسان :

عَرَفْتُ دِيار زَيْنَبَ بالكَثِيبِ • كَخَطِّ الوَحْيِ في الوَرَقِ القَشِيبِ (١)

والمَهِيل : الذي يمرّ تحت الأرجل . قال الضحاك والكلبيّ : المهيل : هو الذي إذا وطئته بالقدم زلّ من تحتها ، وإذا أخذت أسفله ٱنهال . وقال ٱبن عباس : «مَهِيلًا» أي رملًا سائلًا متناثرًا . وأصله مَهْيول وهو مَفْعول من قولك : هِلْتُ عليه التراب أَهِيله هيلًا : إذا صببته . يقال : مَهِيل ومَهْيول ، ومَكِيل ومَكْيول ، ومَدِين ومَدْيون ، ومَعِين ومَعْيون ؛ قال الشاعر : (٢)

قد كان قَوْمُك يَحْسَبونَك سَيِّدًا • وإخَالُ أَنَّكَ سَيِّدٌ مَعْيُونُ

وفي حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم أنهم شكوا إليه الجُدُوبة ؛ فقال : "أتَكِيلون أم تَهِيلون" قالوا : نَهِيل . قال "كِيلوا طعامكم يُبَارَكْ لكم فيه" . وأَهَلْتُ الدقيق لغة في هِلْتُ فهو

(١) ويروى «في الرق» ، والوحي هنا : الكتابة . والقشيب : الجديد . شبه حسان رضى الله عنه آثار الديار بالسطور . (٢) هو عباس بن مرداس . وقد ورد في ا ، ه ، و : «والحال أنك» الخ .

Marfat.com

مُهال ومَهِيل . وإنما حذفت الواو، لأن الياء تثقل فيها الضمة، فحذفت فسكنت هي والواو فحذفت الواو لالتقاء الساكنين .

قوله تعالى : إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا ﴾ يريد النبيّ صلى الله عليه وسلم أرسله إلى قريش ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾ وهو موسى ﴿ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ ﴾ أى كذب به ولم يؤمن . قال مقاتل : ذكر موسى وفرعون ؛ لأن أهل مكة ازدروا محمدا صلى الله عليه وسلم واستخفوا به ؛ لأنه ولد فيهم، كما أن فرعون ازدرى موسى ؛ لأنه ربّاه ونشأ فيما بينهم ؛ كما قال تعالى : « أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا » . قال المهدويّ : ودخلت الألف واللام فى الرسول لتقدّم ذكره، ولذلك اختير فى أوّل الكتب سلام عليكم، وفى آخرها السلام عليكم. ﴿وَبِيلًا﴾ أى ثقيلا شديدا . وضَرْبٌ وبيل وعذاب وبيل : أى شديد؛ قاله ابن عباس ومجاهد . ومنه مطر وابل أى شديد؛ قاله الأخفش . وقال الزجاج : أى ثقيلا غليظا . ومنه قيل للطر وابل . وقيل : مُهلكا [والمعنى عاقبناه عقوبة غليظة](1) قال :

أَكَلْتِ بَنِيكِ أَكْلَ الضَّبِّ حتى * وجَدْتِ مَرَارةَ الكَلَإِ الوَبِيلِ

واستوبل فلان كذا : أى لم يحمد عاقبته. وماء وبيل : أى وخيم غير مرىء، وكلأ مستوبل وطعام وبيل ومُستوبَلٌ : إذا لم يُمْرِئْ ولم يُسْتَمْرأ ؛ قال زهير :

(١) الزيادة من حاشية الجمل نقلا من القرطبي، ونص بأنها عبارته .

Marfat.com

فَقَضَوْا مَنَايَا بَيْنَهُمْ ثم أَصْـدَرُوا * إِلَى كَلأٍ مُسْتَوْبَلٍ مُتَــوَخِّمِ

وقالت الخنساء :

لَقَـدْ أَكَلَتْ بَجِيلَةُ يومَ لاقَتْ * فَوَارِسَ مَالكٍ أَكْلًا وَبِيـلَا

والوبيل أيضًا : العصا الضخمة ، قال :

لَوْ أَصْبَحَ فى يُمْنَى يَدَىَّ زِمامُها(١) * وفِي كَفِّيَ الأُخْرَى وَبِيلٌ تُحاذِرُهْ

وكذلك المَوْبِل بكسر البـاء ، والمَوْبِلة أيضًا : الحُزْمة من الحطب ، وكذلك الوَبِيل، قال طَرَفة :

* عَقِيـلَةُ شَيْخٍ كالوَبيلِ يَلَنْدَدِ(٢) *

قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ هو توبيخ وتقريع ، أى كيف تتقونَ العـذاب إن كفرتم . وفيه تقـديم وتأخير ، أى كيف تتقون يوماً يجعل الولدان شيباً إن كفرتم . وكذا قراءة عبد الله وعطية . قال الحسن : أى بأى صلاة تتقون العـذاب ؟ بأى صـوم تتقون العـذاب ؟ وفيـه إضمار ، أى كيف تتقون عذاب يوم . وقال قتادة : واللهِ ما يتقى من كفر بالله ذلك اليوم بشيء . و « يَوْماً » مفعول بـ« تَتَّقُونَ » على هذه القراءة وليس بظرف ، و إن قدر الكفر بمعنى الجحود كان اليوم مفعول « كَفَرْتُمْ » . وقال بعض المفسرين: وقف التمام على قوله : « كَفَرْتُمْ » والابتداء « يَوْمًا » يذهب إلى أن اليوم مفعول « يجعــل » والفعل لله عز وجل ، وكأنه قال : يجعل الله الولدان شيبًا فى يوم . قال ابن الأنبارى : وهذا لا يصلح؛ لأن اليوم هو الذى يفعل هذا من شدّة هوله . المهدوىّ : والضمير فى « يجعل » يجوز أن يكون لله عز وجل، و يجوز أن يكون لليوم ، و إذا كان لليوم صلح أن يكون صفة له ،ولا يصلح ذلك إذا كان الضمير لله عز وجل إلا مع تقدير حذف؛ كأنه قال : يوماً يجعل الله الولدان فيــه شيبًا . ابن الأنبارىّ : ومنهــم من نصب اليــوم

(١) فى ا ، ح ، و : « رقامها » .　　(٢) يلندد : شديد الخصومة . وصدر البيت :

* فمرت كهاة ذات خيف جلالة *

Marfat.com

بـ « كفرتم » وهذا قبيح ؛ لأن اليوم إذا عُلّق بـ « كفرتم » احتاج إلى صفة ؛ أى كفرتم بيوم . فإن احتج محتج بأن الصفة قد تحذف وينصب ما بعدها ، احتججنا عليه بقراءة عبد الله « فَكَيْفَ تَتَّقُونَ يَوْمًا » .

قلت : هذه القراءة ليست متواترة ، وإنما جاءت على وجه التفسير . وإذا كان الكفر بمعنى الجحود فـ « يومًا » مفعول صريح من غير صفة ولاحذفها ؛ أى فكيف تتقون الله وتخشونه إن جحدتم يوم القيامة والجزاء. وقرأ أبو السمّال قَعْنَب « فكيف تتقون » بكسر النون على الإضافة . و «الْوِلْدَانَ» الصبيان. وقال السُّدى : هم أولاد الزنا. وقيل : أولاد المشركين. والعموم أصح؛ أى يشيب فيه الصغير من غير كبر. وذلك حين يقال: "يا آدم قم فابعث بعث النار". على ما تقدّم فى أوّل سورة «الحج»(١) . قال القُشيرى : ثم إن أهل الجنة يغيّر الله أحوالهم وأوصافهم على ما يريد . وقيل : هذا ضربُ مَثَل لشدّة ذلك اليوم وهو مجاز ؛ لأن يوم القيامة لا يكون فيه وِلدان ، ولكن معناه أن هيبة ذلك اليوم بحال لو كان فيه هناك صبى لشابَ رأسه من الهيبة. ويقال: هذا وقت الفزع، وقبل أن يُنْفَخ فى الصور نفخة الصعق؛ فالله أعلم . الزمخشرى : وقد مرّ بى فى بعض الكتب أن رجلًا أمسى فاحم الشعر كحنك الغراب ، فأصبح وهو أبيض الرأس واللحية كالثَّغامة(٢)، فقال : أُرِيت القيامة والجنة والنار فى المنام، ورأيت الناس يقادون فى السلاسل إلى النار، فمن هول ذلك أصبحت كما ترون . ويجوز أن يوصف اليوم بالطول ، وأن الأطفال يبلغون فيه أوان الشيخوخة والشيب .

قوله تعالى : ﴿ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ أى متشققة لشدّته . ومعنى « بِهِ » أى فيه ؛ أى فى ذلك اليوم لهوله . هذا أحسن ما قيل فيه . ويقال : مُثْقَلة به إثقالًا يؤدّى إلى انفطارها لعظمته عليها وخشيتها من وقوعه ؛ كقوله تعالى : « ثَقُلَتْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » . وقيل : « بِهِ » أى له ، أى لذلك اليوم؛ يقال : فعلت كذا بحرمتك ولحرمتك، والباء واللام

(١) راجع جـ ١١ ص ٣ (٢) فى نسخ الأصل : « كالنعامة » بالنون والعين . والثغامة (بالثاء المفتوحة والعين) : شجرة تبيض كأنها الثلج .

Marfat.com

وفى : متقاربة فى مثل هذا الموضع ؛ قال الله تعالى : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ » أى فى يوم القيامة . وقيل : « بِهِ » أى بالأمر أى السماء مُنفطر بما يجعل الولدان شيبًا . وقيل : منفطر بالله، أى بأمره . وقال أبو عمرو بن العلاء : لم يقل منفطرة ؛ لأن مجازها[1] السقف ؛ تقول : هذا سماء البيت ؛ قال الشاعر :

فَلَوْ رَفَعَ السَّمَاءُ إِلَيْهِ قومًا * لَحِقْنا بالسَّماءِ وبالسَّحابِ

وفى التنزيل : « وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا » . وقال الفراء : السماء يذكر ويؤنث . وقال أبو على : هو من باب الجراد المنتشر، والشجر الأخضر، و « أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ » . وقال أبو على أيضا : أى السماء ذات انفطار، كقولهم : امرأة مرضع، أى ذات إرضاع، فجرى على طريق النسب . ﴿ كَانَ وَعْدُهُ ﴾ أى بالقيامة والحساب والجزاء ﴿ مَفْعُولًا ﴾ كائنا لا شك فيه ولا خُلف . وقال مقاتل : كان وعده بأن يظهر دينه على الدين كلّه .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ﴾ يريد هذه السورة أو الآيات عِظة . وقيل : آيات القرآن، إذ هو كالسورة الواحدة . ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ ﴾ أى من أراد أن يؤمن ويتخذ بذلك إلى ربه ﴿ سَبِيلًا ﴾ أى طريقا إلى رضاه ورحمته فليرغب، فقد أمكن له ؛ لأنه أظهر له الحجج والدلائل . ثم قيل : نسخت بآية السيف ، وكذلك قوله تعالى : « فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ » قال الثعلبى : والأشبه أنه غير منسوخ .

قوله تعالى : إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ

(١) مجازها : معناها .

Marfat.com

مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

فيه ثلاث عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ ﴾ هذه الآية تفسير لقوله تعالى : « قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا . نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ » كما تقدّم، وهى الناسخة لفرضية قيام الليل كما تقدّم. « تَقُومُ » معناه تصلّى و ﴿ أَدْنَىٰ ﴾ أى أقلّ . وقرأ ابن السَّمَيْقَع وأبو حَيْوة وهشام عن أهل الشام ﴿ ثُلْثَى ﴾ بإسكان اللام . ﴿ وَنِصْفِهِ وَثُلُثِهِ ﴾ بالخفض قراءة العامة عطفا على « ثُلُثَى »؛ المعنى : تقوم أدنى من ثلثى الليل ومن نصفه وثلثه . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ كقوله تعالى : « عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ » فكيف يقومون نصفه أو ثلثه وهم لا يحصونه . وقرأ ابن كثير والكوفيون « وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ » بالنصب عطفًا على « أَدْنَى » التقدير : تقوم أدنى من ثلثى الليل وتقوم نصفَه وثلثَه . قال الفراء : وهو أشبه بالصواب؛ لأنه قال أقلّ من الثلثين ، ثم ذكر نفس القِلّة لا أقلّ من القلّة . القُشَيْرى : وعلى هذه القراءة يحتمل أنهم كانوا يصيبون الثلث والنصف؛ لخفة القيام عليهم بذلك القدر، وكانوا يزيدون، وفى الزيادة إصابة المقصود، فأما الثلثان فكان يثقل عليهم قيامه فلا يصيبونه ، وينقصون منه . ويحتمل أنهم أُمِروا بقيام نصف الليل ، ورُخِّص لهم فى الزيادة والنقصان، فكانوا ينتهون فى الزيادة إلى قريب من الثلثين ، وفى النصف إلى الثلث . ويحتمل أنهم قدّر لهم النصف وأنقص إلى الثلث، والزيادة إلى الثلثين، وكان فيهم من يفى بذلك، وفيهم من يترك ذلك إلى أن نُسخ عنهم. وقال قوم : إنما افترض الله عليهم الربع ، وكانوا ينقصون من الربع . وهذا القول تحكّم .

Marfat.com

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ أى يعلم مقادير الليل والنهار على حقائقها، وأنتم تعلمون بالتحرى والاجتهاد الذى يقع فيه الخطأ . ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ ﴾ أى لن تطيقوا معرفة حقائق ذلك والقيامَ به . وقيل : أى لن تطيقوا قيام الليل . والأول أصح ؛ فإن قيام الليل ما فُرض كله قطّ . قال مقاتل[1] وغيره : لما نزلت « قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا . نِصْفَهُ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ » شقّ ذلك عليهم، وكان الرجل لا يدرى متى نصف الليل من ثلثه، فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخطئ، فانتفخت أقدامهم، وآنتُقِعت الوانهم، فرحمهم الله وخفّف عنهم ؛ فقال تعالى : « عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ » و « أن » مخفّفة من الثقيلة ؛ أى علم أنكم لن تحصوه ؛ لأنكم إن زدتم ثقل عليكم ، وآحتجتم إلى تكليف ما ليس فرضًا ، وإن نقصتم شقّ ذلك عليكم .

الثالثـــة ــ قوله تعالى: ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ أى فعاد عليكم بالعفو، وهذا يدل على أنه كان فيهم فى ترك بعض ما أمر به . وقيل : أى فتاب عليكم من فرض القيام إذ عجزتم . وأصل التوبة الرجوع كما تقدّم ؛ فالمعنى رجع لكم من تثقيل إلى تخفيف ، ومن عُسْر إلى يُسْر . وإنما أمروا بحفظ الأوقات على طريق التحرى، فخفّف عنهم ذلك التحرى . وقيل : معنى «وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ» يخلقهما مقدّرين، كقوله تعالى : «وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا» . آبن العربى: تقدير الخلقة لا يتعلّق به حكم، وإنما يربط الله به ما يشاء من وظائف التكليف .

الرابعـــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ فيه قولان : أحدهما أن المراد نفس القراءة؛ أى فآقرءوا فيما تصلّونه بالليل ما خفّ عليكم . قال السّدى : مائة آية . الحسن : من قرأ مائة آية فى ليلة لم يحاجّه القرآن . وقال كعب : من قرأ فى ليلة مائة آية كُتب من القانتين . وقال سعيد : خمسون آية .

قلت : قول كعب أصح، لقوله عليه السلام : " من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية كتب من المُقَنْطِرِين[2] " خرجه أبو داود

(١) فى ز : « قال النقاش » .　　(٢) أى أعطى من الأجر قنطارا .

Marfat.com

الطيالسي في مسنده من حديث عبد الله بن عمرو . وقد ذكرناه في مقدّمة الكتاب[١] والحمد لله .
القول الثاني : ﴿ فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ أي فصلّوا ما تيسّر عليكم ، والصلاة تسمى قرآنا ؛ كقوله تعالى : « وَقُرْآنَ الْفَجْرِ » أي صلاة الفجر . آبن العربي : وهو الأصح ؛ لأنه عن الصلاة أخبر ، وإليها يرجع القول .

قلت : الأوّل أصح حملًا للخطاب على ظاهر اللفظ ، والقول الثاني مجاز ؛ فإنه من تسمية الشيء ببعض ماهو من أعماله .

الخامســـة — قال بعض العلماء : قوله تعالى : « فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ » نسخ قيام الليــل ونصفه ، والنقصان من النصف والزيادة عليـه . ثم آحتمل قول الله عز وجل : « فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْــهُ » معنيين أحدهما أن يكون فرضًا ثانيًا ؛ لأنه أزيل به فرضٌ غيره . والآخر أن يكون فرضًــا منسوخًا أزيل بغــيره كما أزيل به غيره ؛ وذلك لقوله تعــالى : « وَمِنَ اللَّيْــلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا » فآحتمل قوله تعالى : « وَمِنَ اللَّيْــلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ » أي يتهجد بغــير الذي فُرض عليه ممــا تيسّر منه . قال الشافعيّ : فكان الواجب طلب الآستدلال بالسُّنة على أحد المعنيين ، فوجدنا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تدل على أن لا واجب من الصلاة إلا الخمس .

السادســـة — قال القُشيريّ أبو نصر : والمشهور أن نسخ قيــام الليل كان في حقّ الأمة ، وبقيت الفريضة في حــقّ النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : نسخ التقدير بمقدار ، وبقي أصل الوجوب ؛ كقوله تعالى : « فَمَــا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ » فالهدى لا بدّ منه ، كذلك لم يكن بُدٌّ من صلاة الليل ، ولكن فُوّض قدره إلى آختيار المصلّي ، وعلى هذا فقد قال قوم : فَرْض قيام الليل بالقليل باقٍ ؛ وهو مذهب الحسن . وقال قوم : نسخ بالكلية ، فلا تجب صلاة الليل أصلًا ؛ وهو مذهب الشافعي . ولعل الفريضة التي بقيت في حقّ النبيّ صلى الله عليه وسلم هي هذا ، وهو قيامه ، ومقداره مفوّض إلى خيرته . وإذا ثبت أن القيام ليس فرضًا

(١) راجع جـ ١ ص ٩

Marfat.com

فقوله تعـالى : « فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ » معناه اقرءوا إن تيسّر عليكم ذلك ، وصلّوا إن شئتم . وصار قوم إلى أن النسخ بالكلية تقرر في حقّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أيضًا ، فما كانت صلاة الليل واجبة عليه . وقوله : « نَافِلَةً لَكَ » محمول على حقيقة النفل . ومن قال : نسخ المقدار وبقى أصل وجوب قيام الليل ثم نسخ ، فهذا النسخ الثانى وقع ببيان مواقيت الصلاة ؛ كقوله تعالى : « أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ » ، وقوله : « فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ » ، ما فى الخبر من أن الزيادة على الصلوات الخمس تطوع . وقيـل : وقع النسخ بقوله تعـالى : « وَمِنَ اللَّيْـلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ » والخطاب للنبيّ صـلى الله عليه وسلم وللأمة ، كما أنّ فرضية الصلاة وإن خوطب بهـا النبيّ صلى الله عليه وسلم فى قوله تعـالى : « يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ . قُمِ اللَّيْـلَ » كانت عامة له ولغيره . وقد قيل : إن فريضة الله امتدت إلى مابعد الهجرة ، ونسخت بالمدينة ؛ لقوله تعالى : « عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ، وإنمـا فرض القتـال بالمدينة ؛ فعلى هـذا بيان المواقيت جرى بمكة ، فقيام الليـل نسخ بقوله تعـالى : « وَمِنَ اللَّيْـلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ » . وقال ابن عباس : لمـا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم نَسَخ قولُ الله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ » وجوبَ صلاة الليل .

السابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى ﴾ الآية ؛ بيّن سبحانه علة تخفيف قيام الليل ، فإن الخلق منهم المريض ، ويشقّ عليهم قيام الليل ، ويشقّ عليهم أن تفوتهم الصلاة ، والمسافر فى التجارات قد لا يطيق قيام الليل ، والمجاهد كذلك ، فخفف الله عن الكل لأجل هؤلاء . و « أَنْ » فى « أَنْ سَيَكُونُ » مخففة من الثقيلة ؛ أى علم أنه سيكون .

الثامنـــة — سوّى الله تعالى فى هذه الآية بين درجة المجاهدين والمكتسبين المـال الحلال للنفقة على نفسه وعياله ، والإحسان والإفضال ، فكان هذا دليلًا على أن كسب المـال بمنزلة الجهاد ؛ لأنه جمعه مع الجهاد فى سبيل الله . وروى إبراهيم عن علقمة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من جالب يجلب طعامًا من بلد إلى بلد فيبيعه بسعر يومه إلا كانت

رزق حلال تلاش کرنے کی فضیلت

Marfat.com

منزلته عند الله منزلة الشهداء " ثم قرأ رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم « وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » وقال آبن مسعود : أيمـا رجل جلب شيئًا إلى مدينة من مدائن المسلمين صابرًا محتسبًا، فباعه بسعر يومه كان له عند الله منزلة الشهداء . وقرأ « وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ » الآية . وقال آبن عمر : ما خلق الله موتة أموتها بعد الموت فى سبيل الله أحبّ إلىّ من الموت بين شعبتى رَحْلِي، آبتغى من فضل الله ضاربًا فى الأرض . وقال طاوس: الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله . وعن بعض السلف أنه كان بواسط ، بجهـز سفينة حنطة إلى البصرة ، وكتب إلى وكيله : بِـع الطعام يوم تدخل البصرة ، ولا تؤخره إلى غدٍ ؛ فوافق سـعةً فى السعر ؛ فقال التجار للوكيل : إن أخرته جمعة ربحت فيـه أضعافه ، فأخره جمعـة فربح فيه أمثاله ، فكتب إلى صاحبه بذلك ، فكتب إليه صاحب الطعام : يا هـذا! إنا كنا قنعنا بربح يسير مع سلامة ديننـا، وقد جنيت علينا جناية، فإذا أتاك كتابى هذا نخذ المـال وتصدّق به على فقراء البصرة ، وليتنى أنجو من الآحتكار كفافًا لا علىّ ولا لى . ويروى أن غلامًا من أهل مكة كان ملازمًا للسجد ، فافتقده آبن عمر ، فمشى إلى بيته ، فقالت أمه : هو على طعام له يبيعه ؛ فلقيه فقال له : يابنىّ ! مالك وللطعام ؟ فهـلّا إبلًا ، فهلّا بقرًا ، فهلّا غنمًا ! إن صاحب الطعام يحب المَحْل ، وصاحب المـاشية يحب الغيث .

التاســعة — قوله تعالى : « فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ » أى صلّوا ما أمكن ؛ فأوجب الله من صلاة الليل ما تيسر، ثم نسخ ذلك بإيجاب الصلوات الخمس على ما تقدّم. قال آبن العربى وقد قال قوم: إن فرض قيام الليل سُنّ فى ركعتين من هذه الآية؛ قاله البخارىّ وغيره، وعقد بابًا ذكر فيه حديث " يَعقِد الشيطانُ على قافية[1] رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عُقَد، يضرب على كل عُقدة مكانها: عليك ليل طويل فارقد. فإن آستيقظ فذكر الله آنحلت عُقدة، فإن توضأ آنحلت عُقدة، فإن صلى آنحلت عُقده كلها، فأصبح نشيطًا طيّب النفس، وإلا أصبح خبيث

(١) قافية الرأس مؤخره، وقيل : وسطه ؛ أراد تثقيله فى النوم وإطالته .

Marfat.com

النفس كسلان ‏" وذكر حديث سَمُرة بن جُنْدَب عن النبي صلى الله عليه وسلم فى الرؤيا قال : ‏" أما الذى يُثْلَغ (١) رأسُه بالحجر فإنه يأخذ القرآن فيرفُضه (٢) ، وينام عن الصلاة المكتوبة ‏". وحديث عبد الله بن مسعود قال : ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم رجل ينام الليل كلّه فقال : ‏" ذلك رجل بال الشيطان فى أذنيه ‏" فقال ابن العربى : فهذه أحاديث مقتضية حمل مطلق الصلاة على المكتوبة ، فيحمل المطلق على المقيد لاحتماله له ، وتسقط الدعوى ممّن عيّنه لقيام الليل . وفى الصحيح واللفظُ للبخارى : قال عبد الله بن عمرو: وقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ‏" يا عبد الله لا تكن مثل فلان ، كان يقوم الليل فترك قيام الليل ‏" ولو كان فرضًا ما أقره النبي صلى الله عليه وسلم عليه ، ولا أخبر بمثل هذا الخبر عنه ، بل كان يذمه غاية الذمّ ، وفى الصحيح عن عبد الله بن عمر قال : كان الرجل فى حياة النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأى رؤيا قصّها على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكنت غلامًا شابًا عَزَبًا ، وكنت أنام فى المسجد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأيت فى النوم كأن مَلَكين أخذانى فذهبا بى إلى النار ، فإذا هى مطويّة كطىّ البئر ، وإذا لها قرنان ، وإذا فيها ناس قد عرفتهم ، فجعلت أقول : أعوذ بالله من النار . قال : ولقينا مَلَك آخر ، فقال لى : لم تُرَعْ (٣) . فقصصتها على حفصة ، فقصتها حفصة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ‏" نعم الرجل عبد الله لو كان يصلّى من الليل ‏" ، فكان بعدُ لاينام من الليل إلا قليلا ، فلوكان تَرْك القيام معصية لما قال له المَلَك : لم تُرَعْ . والله أعلم .

العاشرة — إذا ثبت أن قيام الليل ليس بفرض ، وأن قوله : « فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ » ، « فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ » محمول على ظاهره من القراءة فى الصلاة ، فاختلف العلماء فى قدر ما يلزمه أن يقرأ به فى الصلاة ، فقال مالك والشافعى : فاتحة الكتاب لا يجزىء العدول عنها ، ولا الاقتصار على بعضها ، وقدّره أبو حنيفة بآية واحدة ، من أىّ القرآن كانت . وعنه ثلاث

(١) الثلغ : وهو ضربك لشىء الرطب بالشىء اليابس حتى ينشدخ . (٢) يرفضه : يتركه .
(٣) لم ترع : لا روع ولا خوف عليك بعد ذلك .

Marfat.com

آيات ؛ لأنها أقلّ سـورة . ذكر القول الأول المـاوردي، والثاني ابن العربي . والصحيح ماذهب إليه مالك والشافعي، على ما بيّناه في سورة «الفاتحة» (١) أول الكتاب والحمد لله . وقيل : إن المراد به قراءة القرآن في غير الصلاة ؛ قال المـاوردي : فعلى هذا يكون مطلق هذا الأمر محمولًا على الوجوب ، أو على الاستحباب دون الوجوب . وهذا قول الأكثرين ؛ لأنه لو وجب عليه أن يقرأ لوجب عليه أن يحفظه . الثاني أنه محمـول على الوجوب ؛ ليقف بقراءته على إعجازه ، وما فيه من دلائل التوحيد و بعث الرسل ، ولا يلزمه إذا قرأه وعرف إعجازه ودلائل التوحيد منه أن يحفظه ؛ لأن حِفظ القـرآن من القُرَب المستحبة دون الواجبة . وفي قدر ماتضمنه هذا الأمر من القراءة خمسة اقوال : أحدها جميع القرآن ؛ لأن الله تعالى يسره على عباده ؛ قاله الضحاك . الثاني ثلث القرآن ؛ حكاه جويبر . الثالث مائتا آية ؛ قاله السدي . الرابع مائة آية ؛ قاله ابن عباس . الخامس ثلاث آيات كأقصر سورة ؛ قاله أبو خالد الكناني .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ يعني المفروضة وهي الخمس لوقتها . ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ الواجبة في أموالكم ؛ قاله عكرمة وقتـادة . وقال الحارث العكلي : صدقة الفطر لأن زكاة الأموال وجبت بعد ذلك . وقيل : صدقة التطوّع . وقيـل : كل أفعال الخير . وقال ابن عباس : طاعة الله والإخلاص له .

الثانيـة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ القرض الحسن ماقصد به وجه الله تعالى خالصًا من المـال الطيّب . وقد مضى في سورة « الحديد » (٢) بيانه . وقال زيد ابن أسلم : القرض الحسن النفقة على الأهل . وقال عمر بن الخطاب : هو النفقة في سبيل الله .

الثالثـة عشرة — قوله تعـالى (٣) : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ «البقرة» (٤) . وروي عن عمر بن الخطاب أنه اتخذ حَيْسًا — يعني تمرًا بلبن — فجاءه مسكين فأخذه ودفعه إليه . فقال بعضهم : ما يدري هذا المسكين ماهذا ؟ فقال عمر : لكن رب المسكين يدري

(١) راجع جـ ١ ص ١٢٣ . (٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٥٢

(٣) جملة : « قوله تعالى » ساقطة من ا ، ح ، ط . (٤) راجع ٢ ص ٧٣ ؟

Marfat.com

ماهو . وكأنه تأوّل « وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا » أى مما تركتم وخلفتم ، ومن الشح والتقصير. ﴿ وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ قال أبو هريرة : الجنة، ويحتمل أن يكون أعظم أجرا، لإعطائه بالحسنة عشرا . ونصب «خيرا وأعظم» على المفعول الثانى لـ«تجدوه» و « هو » : فصل عند البصريين ، وعماد فى قول الكوفيين، لامحل له من الإعراب . و «أجرا» تمييز . ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ﴾ أى سلوه المغفرة لذنوبكم ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ لما كان قبل التوبة ﴿ رَحِيمٌ ﴾ لكم بعدها ؛ قاله سعيد بن جبير . ختمت السورة (١) .

ســـورة المـــدّثر

مكيّة فى قول الجميع . وهى ستّ وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾

فيه ست مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ أى يا ذا الذى قد تدثّر بثيابه ، أى تغشّى بها ونام، وأصله المتدثر فأدغمت التاء فى الدال لتجانسهما . وقرأ أُبَىّ « المُتَدَثِّر » على الأصل. وقال مقاتل : معظم هذه السورة فى الوليد بن المغيرة . وفى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُحدِّث ـــ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحدّث عن فترة الوحى ـــ قال فى حديثه : " فبينا أنا أمشى سمعت صوتا من السماء فرفعت رأسى، فإذا المَلَك الذى جاءنى بحراء جالسا على كرسى بين السماء والأرض " .

(١) فى ل : « ختمت السورة والحمد لله » .

Marfat.com

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فجُئثتُ(١) منه فَرَقًا ، فرجعت فقلت زملونى زملونى ، فدثرونى ، فأنزل الله تعالى " ﴿ يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ " فى رواية — قبل أن تفرض الصلاة — وهى الأوثان قال : " ثم تتابع الوحى ". خرجه الترمذى أيضا وقال : حديث حسن صحيح . قال مسلم : وحدّثنا زهير بن حرب ، قال : حدثنا الوليد بن مسلم ، قال : حدثنا الأوزاعى قال : سمعت يحيى يقول : سألت أبا سلمة : أىّ القرآن أنزل قبلُ ؟ قال : « يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » فقلت : أو « آقرأ » . فقال : سألت جابر بن عبد الله أى القرآن أنزل قبلُ ؟ قال : « يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » فقلت : أو « آقرأ » فقال جابر : أحدثكم ما حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : " جاورت بحراء شهرًا ، فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت بطن الوادى ، فنوديت فنظرت أمامى وخلفى وعن يمينى وعن شمالى فلم أرا أحدًا ، ثم نوديت فنظرت فلم أر أحدًا ، ثم نوديت فرفعت رأسى فإذا هو على العرش فى الهواء — يعنى جبريل صلى الله عليه وسلم — فأخذتنى رَجْفَةٌ شديدةٌ ، فأتيت خديجة فقلت دثّرونى ، فدثّرونى فصبُّوا علىّ ماء ، فأنزل الله عز وجل : « يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ » خرجه البخارىّ وقال فيه : " فأتيت خديجة فقلت دثّرونى وصُبُّوا علىّ ماءً باردًا ، فدثّرونى وصبُّوا علىّ ماءً باردًا فنزلت : « يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ . وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ » ". آبن العربىّ : وقد قال بعض المفسرين إنه جرى على النبىّ صلى الله عليه وسلم من عُقْبة [بن ربيعة](٢) أمر ، فرجع إلى منزله مغمومًا ، فقلق وآضطجع ، فنزلت : « يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » وهذا باطل . وقال القشيرىّ أبو نصر : وقيل بلغه قولُ كفار مكة أنت ساحر ، فوجد من ذلك غمًّا وحُمَّ ، فتدثّر بثيابه ، فقال الله تعالى : « قُمْ فَأَنْذِرْ » أى لا تفكر فى قولهم ، و بلغهم الرسالة . وقيل : آجتمع أبو لهب وأبو سفيان والوليد بن المغيرة والنضر بن الحرث وأميّة بن خلف والعاص بن وائل ومُطعِم بن عدىّ وقالوا : قد آجتمعت وفود العرب فى أيام الحج ، وهم يتساءلون عن أمر محمد ، وقد آختلفتم فى الإخبار عنه ؛ فمن قائل يقول مجنون ،

---

(١) جئثت أى ذعرت وخفت . (٢) الزيادة من آبن العربى .

Marfat.com

وآخر يقول كاهن ، وآخر يقول شاعر، و تعلم العرب أن هذا كله لايجتمع فى رجل واحد ، فسمّوا محمدا باسم واحد يجتمعون عليه، وتسميه العرب به، فقام منهم رجل فقال : شاعر؛ فقال الوليد : سمعت كلام ابن الأبرص، وأمية بن أبى الصّلت ، وما يشـبه كلامُ محمدٍ كلامَ واحد منهما؛ فقالوا : كاهن . فقال : الكاهن يَصدُق ويكذِب وما كَذَب محمد قطّ ؛ فقـام آخر فقال : مجنون ؛ فقال الوليد : المجنون يَخنُق الناس وما خَنَق محمد قطّ . وانصرف الوليد الى بيته، فقالوا : صبأ الوليد بن المغيرة؛ فدخل عليه أبو جهل وقال: مالك يا أبا عبد شمس! هذه قريش تجمع لك شيئًا يعطونكه ، زعموا أنك قد احتجت وصبأت. فقال الوليد : مالى الى ذلك حاجة، ولكنى فكرت فى محمد، فقلت : ما يكون من الساحر؟ فقيل: يفرق بين الأب وابنه ، وبين الأخ وأخيه، وبين المرأة وزوجها، فقلتُ: إنه ساحر. شاع هـذا فى الناس وصاحوا يقولون : إن محمدا ساحر. ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته محزونًا فتدثر بقطيفة ، ونزلت : « يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » . وقال عِكرمة : معنى « يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » أى المدّثر بالنبوّة وأثقالها . ابن العربى : وهذا مجاز بعيد؛ لأنه لم يكن تنبأ بعد . وعلى أنها أول القرآن لم يكن تمكن منها بعد أن كانت ثانى ما نزل .

الثانيــة — قوله تعالى : « يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » : ملاطفة فى الخطاب من الكريم إلى الحبيب إذ ناداه بحاله ، وعبّر عنه بصفته، ولم يقل يا محمد و يا فلان ، ليستشعر اللين والملاطفة من ربه كما تقدم فى سورة « المزمل » . ومثله قول النبيّ صلى الله عليه وسلم لعليّ إذ نام فى المسجد: " قم أبا تراب " وكان خرج مغاضبًا لفاطمة رضى الله عنها فسقط رداؤه وأصابه ترابه؛ خرجه مسلم . ومثله قوله عليه الصلاة والسلام لحذيفة ليلة الخندق : " قم يانَوْمان " وقد تقدم .

الثالثــة — قوله تعـالى : ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ أى خوف أهـل مكة وحذّرهم العـذاب إن لم يُسلموا . وقيل : الإنذار هنا إعلامهم بنبوّته؛ لأنه مقدمة الرسالة . وقيـل : هو دعاؤه إلى التوحيد؛ لأنه المقصود بها . وقال الفراء : قم فصلّ وأمر بالصلاة .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ أى سيدك ومالكك ومصلح أمرك فعظّم، وصِفْه بأنه أكبر من أن يكون له صاحبة أو ولد . وفى حديث أنهم قالوا : بِمَ تَفتتح الصلاة؟

Marfat.com

فنزلت : « وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ » أى وصفه بأنه أكبر . قال ابن العربى : وهذا القول وإن كان يقتضى بعمومه تكبير الصلاة، فإنه مراد به التكبير(١) والتقديس والتنزيه، لخلع الأنداد والأصنام دونه، ولا تتخذ وليا غيره، ولا تعبد سواه، ولا ترى لغيره فعلا إلا له، ولا نعمة إلا منه. وقد روى أن أبا سفيان قال يوم أحد : أعلُ هُبَل ؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " قولوا الله أعلى وأجل " وقد صار هذا اللفظ بعرف الشرع فى تكبير العبادات كلها أذانا وصلاة وذكرا بقوله : « الله أكبر » وحمل عليه لفظ النبى صلى الله عليه وسلم الوارد على الإطلاق فى موارد ؛ منها قوله : " تحريمها التكبير ، وتحليلها التسليم " والشرع يقتضى بعرفه ما يقتضى بعمومه ، ومن موارده أوقات الإهلال بالذبائح لله تخليصا له من الشرك، وإعلانا(٢) باسمه فى النسك ، وإفرادا لما شرع منه لأمره بالسفك .

قلت : قد تقدم فى أول سورة « البقرة(٣) » أن هذا اللفظ « الله أكبر » هو المتعبد به فى الصلاة، المنقول عن النبى صلى الله عليه وسلم . وفى التفسير : أنه لما نزل قوله تعالى: « وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ » قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " الله أكبر " فكبرت خديجة، وعلمت أنه الوحى من الله تعالى ؛ ذكره القشيرى .

الخامسة — الفاء فى قوله تعالى: « وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ » دخلت على معنى جواب الجزاء كما دخلت فى « فَأَنْذِرْ » أى قم فأنذر وقم فكبر ربك ؛ قاله الزجاج . وقال ابن جنى : هو كقولك زيدا فاضرب ؛ أى زيدا اضرب ، فالفاء زائدة .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ فيه ثمانية أقوال : أحدها أن المراد بالثياب العمل . الثانى القلب . الثالث النفس . الرابع الجسم . الخامس الأهل . السادس الخلق . السابع الدين . الثامن الثياب الملبوسات على الظاهر . فمن ذهب إلى القول الأول

(١) كذا فى أحكام القرآن ، تفسير ابن العربى المطبوع بالقاهرة سنة ١٣٣١ هـ . وفيما نقله المؤلف عن ابن العربى هنا ، تصرف فى اللفظ بزيادة ونقص ، فليراجع (ج ٢ / ٢٨٧) .

(٢) كذا فى أحكام القرآن وفى ح ، ز ، و : « إعلاما » بالميم .

(٣) راجع جـ ١ ص ١٧٥ .

Marfat.com

قال: تأويل الآية وعملك فأصلح؛ قاله مجاهد وآبن زيد. وروى منصور عن أبي رَزِين قال: يقول وعملك فأصلح؛ قال: وإذا كان الرجل خبيث العمل قالوا إن فلاناً خبيث الثياب، وإذا كان حسن العمل قالوا إن فلاناً طاهر الثياب؛ ونحوه عن السُّدّيّ. ومنه قول الشاعر:

لاهُمَّ إنّ عامرَ بن جَهْمِ * أَوْذَمَ حجًّا في ثِيابٍ دُسْمِ (١)

ومنه ما رُوِي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يُحشَر المرءُ (٢) في ثوبيه اللذين مات عليهما" يعني عمله الصالح والطالح؛ ذكره الماورديّ. ومن ذهب إلى القول الثاني قال: إن تأويل الآية وقلبك فطهِّر؛ قاله آبن عباس وسعيد بن جُبير؛ دليله قول آمرئ القيس:

* فَسُلِّي ثيابي من ثيابك تَنْسُلِ (٣) *

أي قلبي من قلبك. قال الماوردي: ولهم في تأويل الآية وجهان: أحدهما — معناه وقلبك فطهِّر من الإثم والمعاصي؛ قاله آبن عباس وقتادة. الثاني — وقلبك فطهر من الغدر؛ أي لا تغدر فتكون دنس الثياب. وهذا مرويّ عن آبن عباس، وآستشهد بقول غيلان بن سلمة الثقفيّ:

فإني بحمد الله لا ثوبَ فاجرٍ * لبستُ ولا مِن غَدْرَةٍ أتقنَّعُ

ومن ذهب إلى القول الثالث قال: تأويل الآية ونفسك فطهر؛ أي من الذنوب. والعرب تكني عن النفس بالثياب؛ قاله آبن عباس. ومنه قول عنترة:

فَشَكَكْتُ بالرُّمْحِ الطَّوِيلِ ثيابَهُ * ليس الكريمُ على القنا بمُحَرَّمِ

وقال آمرؤ القيس:

* فَسُلِّي ثيابي من ثيابِك تَنْسُلِ *

---

(١) ثياب دسم: متلطخة بالذنوب. وفي ، ح ، ز: «أردم» بالدال المهملة، وهو تحريف. ومعنى البيت: أنه حج وهو متدنس بالذنوب. وأوذم الحج: أوجبه.

(٢) في ا ، ح: «المؤمن».

(٣) صدر البيت:

* وإن كنت قد ساءتك مني خليقة *

وقال[1] :

ثيابُ بَنِى عوفٍ طَهارَى نقيّـةٌ * وأَوْجُهُهُمْ بِيضُ المَسَافِرِ غُرّانُ

أى أنفس بنى عوف . ومن ذهب إلى القـول الرابع قال : تأويل الآية وجسمك فطهر ؛ أى عن المعاصى الظاهرة . وممـا جاء عن العرب فى الكناية عن الجسم بالثياب قول ليلى ، وذكرت إبلًا :

رموها بأَثْيابٍ خِفافٍ فلا تَرَى * لهـا شَـبَهًا إلّا النَّعـامَ المُنَفَّرَا

أى ركبوها فرموها بأنفسهم . ومن ذهب إلى القـول الخامس قال : تأويل الآية وأهلك فطهرهم من الخطايا بالوعظ والتأديب ؛ والعـرب تسمى الأهل ثوبًا ولباسًا وإزارًا ؛ قال الله تعالى : « هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ » . المـاوردى : ولهم فى تأويل الآية وجهان : أحدهمـا ـــ معناه ونساءك فطهر ، باختيار المؤمنات العفائف . الثـانى ـــ الاستمتاع بهن فى القبـل دون الدبر ، فى الطهر لا فى الحيض . حكاه ابن بحـر . ومن ذهب إلى القـول السـادس قال : تأويل الآية وخلقـك فحسِّن . قاله الحسن والقُرَظى ؛ لأن خلق الإنسان مشتمل على أحواله اشتمال ثيابه على نفسه . وقال الشاعر :

ويَحْيَى لا يُلامُ بِسُـوءِ خُلْقٍ * ويَحْيَى طَاهِرُ الأثوابِ حُرُّ

أى حسن الأخلاق . ومن ذهب إلى القـول السابع قال : تأويل الآية ودينـك فطهر . وفى الصحيحين عنه عليه السلام قال : "ورأيت الناس وعليهم ثياب ، منها مايبلغ الثدى ، ومنها ما دون ذلك ، ورأيت عمر بن الخطاب وعليه إزار يجره " . قالوا : يارسول الله فـا أوّلت ذلك ؟ قال : الدِّين . وروى ابن وهب عن مالك أنه قال : ما يعجبنى أن أقرأ القرآن إلا فى الصلاة والمساجد لا فى الطريق ، قال الله تعـالى : « وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ » يريد مالك أنه كنى عن الثياب بالدين . وقد روى عبد الله بن نافع عن أبى بكر بن عبـد العزيز بن عبد الله

(١) نسب المؤلف هـذا البيت فيا سيأتى لابن أبى كبشة مرة ولامرئ القيس مرة أخرى ، وفى « اللسان » و « شرح القاموس » أنه لامرئ القيس ولم نعثر عليه فى ديوانه ، وقـد نسبه ابن العربى لابن أبى كبشة . والشطر الأخير فى ا ، ز ، ح ، ط : * وأوجههم عنـد المشاهد غران *

Marfat.com

ٱبن عمر بن الخطاب عن مالك بن أنس فى قوله تعالى : « وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ » أى لا تلبسها على غَدْرة ؛ ومنه قول أبى كَبْشة (١) :

ثِيابُ بنى عَوْفٍ طَهارَى نَقِيَّةٌ * وَأَوْجُهُهُمْ بِيضُ المَسَافِرِ غُرَّانُ

يعنى بطهارة ثيابهم : سلامتهم من الدناءات ، ويعنى بغرة وجوههم تنزيهم عن المحرمات ، أو جمالهم فى الخلقة أو كليهما ؛ قاله ٱبن العربى . وقال سفيان بن عيينة : لا تلبس ثيابك على كذب ولا جور ولا غدر ولا إثم ؛ قاله عكرمة . ومنه قول الشاعر :

* أَوْدَمَ بِجُّا فى ثيابِ دُسْمِ *

أى قد دنّسها بالمعاصى . وقال النابغة :

رِقَاقُ النِّعالِ طَيِّبٌ حُجُزاتُهُمْ * يُحَيَّوْنَ بالرَّيْحَانِ يومَ السَّبَاسِبِ (٢)

ومن ذهب إلى القول الثامن قال : إن المراد بها الثياب الملبوسات ، فلهم فى تأويله أربعة أوجه : أحدها — معناه وثيابك فأنق ؛ ومنه قول ٱمرئ القيس :

* ثيابُ بنى عَوْفٍ طَهارَى نَقِيَّةٌ *

الثانى — وثيابك فشمّر وقصّر ، فإن تقصير الثياب أبعد من النجاسة ، فإذا ٱنجرّت على الأرض لم يُؤْمَن أن يصيبها ما ينجسها ؛ قاله الزجاج وطاوس . الثالث — « وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ » من النجاسة بالماء ؛ قاله محمد بن سيرين وٱبن زيد والفقهاء . الرابع — لا تلبس ثيابك إلا من كسب حلال لتكون مطهرة من الحرام . وعن ٱبن عباس : لا تكن ثيابك التى تلبس من مكسب غير طاهر . ٱبن العربى وذكر بعض ما ذكرناه : ليس بممتنع أن تحمل الآية على عموم المراد فيها بالحقيقة والمجاز ، وإذا حملناها على الثياب المعلومة الطاهرة فهى تتناول معنيين : أحدهما — تقصير الأذيال ؛ لأنها إذا أرسلت تدنست ، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لغلام من الأنصار وقد رأى ذيله مسترخيًا : ٱرفع إزارك فإنه أتقى وأنقى وأبقى .

(١) انظر الحاشية رقم ٣ ص ٦٢ من هذا الجزء .

(٢) البيت من قصيدة مدح بها عمرو بن الحارث الغسانى . وأراد برقاق النعال أنهم ملوك لا يخصفون نعالهم ، وبطيب حجزاتهم عفتهم . والسباسب يوم « الشعانين » وهو يوم عيد عند النصارى وكان الممدوح نصرانيا .

Marfat.com

وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إِزْرَةُ المؤمنِ[(١)] إلى أنصاف ساقيه ، لا جُناح عليه فيما بينه وبين الكعبين ، وما كان أسفل من ذلك ففي النار" فقد جعل النبيّ صلى الله عليه وسلم الغاية في لباس الإزار الكعب وتوعّد ماتحته بالنار ، فما بال رجال يرسلون أذيالهم ، ويطيلون ثيابهم ، ثم يتكلفون رفعها بأيديهم ، وهـذه حالة الكِبْر ، وقائدة العُجْب ، [وأشـدّ مافي الأمر أنهم يَعصُون ويَجسون ويُلحِقون أنفسهم[(٢)]] بمن لم يجعل الله معه غيره ولا ألحق به سـواه . قال النبيّ صلى الله عليه وسـلم : "لا ينظر الله إلى من جرّ ثوبه خيلاء" ولفظ الصحيح : "من جرّ إزاره خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة" . قال أبو بكر : يا رسول الله ! إن أحد شِقّي إزاري يسترخي إلا أن أتعاهد ذلك منه ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لست ممن يصنعه خيلاء" فعمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنهي ، وٱستثنى الصديق ، فأراد الأدنياء إلحاق أنفسهم بالرفعاء[(٣)] ، وليس ذلك لهم . والمعنى الثاني — غسلها من النجاسة وهو ظاهر منها ، صحيح فيها . المهدويّ : وبه ٱستدل بعض العلمـاء على وجوب طهارة الثوب ؛ قال ٱبن سيرين وٱبن زيد : لاتصلّ إلا في ثوب طاهر . وٱحتج بها الشافعيّ على وجوب طهارة الثوب . وليست عند مالك وأهل المدينة بفرض ، وكذلك طهارة البدن ، ويدل على ذلك الإجمـاع على جواز الصـلاة بالاستجمار من غير غسل . وقد مضى هـذا القول في سـورة « براءة »[(٤)] مستوفًى .

قوله تعـالى : وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ قال مجاهد وعكرمة : يعني الأوثان ، دليله قوله تعالى : « فَٱجْتَنِبُـوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ » قاله ٱبن عباس وٱبن زيد . وعن ٱبن عباس أيضا : والمأثم فٱهجر ، أي فٱترك . وكذا روى مُغيرة عن إبراهيم النَّخَعيّ قال : الرُّجز الإثم . وقال قتادة : الرجز : إساف ونائلة ، صنمان كانا عند البيت . وقيل : الرجز العذاب ، على تقدير حذف

---

(١) الإزرة بالكسر : الحالة وهيئة الائتزار . (٢) الزيادة من ٱبن العربي (ج ٢ /٢٨٨) طبع السعادة بالقاهرة . (٣) في ٱبن العربي : بالأقصياء . (٤) راجع جـ ٨ ص ٢٦٣ .

Marfat.com

المضاف؛ المعنى : وعَمَل الرجز فاهجر، أو العمل المؤدّى إلى العذاب. وأصل الرجز العذاب، قال الله تعالى : « لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ » وقال تعالى : « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ » فسمّيت الأوثان رِجزًا، لأنها تؤدّى إلى العذاب. وقراءة العامة « الرِّجْزَ » بكسر الراء. وقرأ الحسن وعكرمة ومجاهد وابن محيصن وحفص عن عاصم « والرُّجْزَ » بضم الراء وهما لغتان مثل الذِّكر والذُّكر. وقال أبو العالية والربيع والكسائىّ: الرُّجز بالضم : الصنم، وبالكسر: النجاسة والمعصية. وقال الكسائىّ أيضا : بالضم : الوثن، و بالكسر: العذاب. وقال السّدىّ : الرَّجز بنصب الراء[1] : الوعيد .

قوله تعالى : وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ فيه أحد عشر تأويلا[2]؛ الأوّل — لا تمنن على ربك بما تتحمله من أثقال النبوّة، كالذى يستكثر ما يتحمله بسبب الغير. الثانى — لا تعط عطية تلتمس بها أفضل منها؛ قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة. قال الضحاك : هذا حرمه الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه مأمور بأشرف الآداب وأجل الأخلاق ، وأباحه لأمته؛ وقاله مجاهد. الثالث — عن مجاهد أيضا : لا تَضْعُف[3] أن تستكثر من الخير؛ من قولك حبل منين إذا كان ضعيفًا، ودليله قراءة ابن مسعود « وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرِ مِنَ الخَيْرِ » . الرابع — عن مجاهد أيضا والربيع: لا تعظم عملك فى عينك أن تستكثر من الخير، فإنه مما أنعم الله عليك. قال ابن كيسان : لا تستكثر عملك فتراه من نفسك، إنما عملك مِنّة من الله عليك؛ إذ جعل الله لك سبيلًا إلى عبادته. الخامس — قال الحسن : لا تمنن على الله بعملك فتستكثره. السادس — لا تمنن بالنبوّة والقرآن على الناس فتأخذ منهم أجرًا تستكثر به . السابع — قال القرظىّ : لا تعط مالك مصانعة. الثامن — قال زيد بن أسلم : إذا

(١) قوله « بنصب الراء ... » كذا فى نسخ الأصل، ولم نظفر به فى المراجع التى بأيدينا .

(٢) ا ، ح : « فيه عشر تأويلات » .

(٣) عبارة ابن العربى فى أحكام القرآن (٢ / ٢٨٨) : ولا تضعف عن الخير أن تستكثر منه .

Marfat.com

أعطيت عطية فأعطها لربك . التاسع — لا تقل دعوت فلم يستجب لى . العاشر — لا تعمل طاعة وتطلب ثوابها ، ولكن آصبر حتى يكون الله هو الذى يثيبك عليها . الحادى عشر — لا تفعل الخير لترائى به الناس .

الثانيــة — هذه الأقوال وإن كانت مرادة فأظهرها قول آبن عباس : لا تعط لتأخذ أكثر ممـا أعطيت من المـال؛ يقال : مننت فلانًا كذا أى أعطيته . ويقال للعطية المِنّة؛ فكأنه أمر بأن تكون عطاياه لله ، لا لآرتقاب ثواب من الخلق عليها ؛ لأنه عليـه السلام ما كان يجمـع الدنيا ؛ ولهـذا قال : " مالى ممـا أفاء الله عليـكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم ". وكان ما يفضل من نفقة عياله مصروفًا إلى مصالح المسلمين؛ ولهذا لم يورث؛ لأنه كان لا يملك لنفسه الآدّخار والاقتناء، وقد عصمه الله تعالى عن الرغبة فى شىء من الدنيا ؛ ولذلك(١) حرمت عليـه الصدقة وأبيحت له الهـدية ، فكان يقبلها ويثيب عليهـا . وقال : " لو دعيت إلى كُرَاع(٢) لأجبت ولو أهدى إلى ذراع لقبلت " آبن العـربى : وكان يقبلها سُنّةً ولا يستكثرها شِرعة ، وإذا كان لا يعطى عطية يستكثر بها فالأغنياء أولى بالآجتناب ؛ لأنها باب من أبواب المذلّة ، وكذلك قول من قال : إن معناها لا تعطى عطية تنتظر ثوابها ، فإن الآنتظار تعلق بالأطماع ، وذلك فى حيزه بحكم الآمتناع ، وقد قال الله تعـالى له : « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى » وذلك جائز لسائر الخلق؛ لأنه من متاع الدنيا، وطلب الكسب والتكاثر بها . وأما من قال أراد به العمل أى لا تمنن بعملك على الله فتستكثره فهـو صحيح ؛ فإن آبن آدم لو أطاع الله عمره من غير فتور لمـا بلغ لنعم الله بعض الشكر .

الثالثــة — قوله تعالى : « وَلَا تَمْنُنْ » قراءة العامة بإظهار التضعيف . وقرأ أبو السَّمّال العدوىّ وأشهب العُقيلىّ والحسن « وَلَا تَمُنَّ » مدغمة مفتوحة . « تَسْتَكْثِرُ » : قراءة العامة

(١) فى ، ا ح ، ز ، ط : « ولهذا » . (٢) الكراع بوزن غراب : وهو مستدق الساق من الرجل وهو من البقر والغنم بمنزلة الوظيف من الفرس والبعير .

Marfat.com

بالرفع وهو فى معنى الحال ، تقول : جاء زيد يركض أى راكضًا ؛ أى لا تعط شيئا مقدّرًا أن تأخذ بدله ما هو أكثر منه . وقرأ الحسن بالجزم على جواب النهى وهو رديء ؛ لأنه ليس بجواب . ويجوز أن يكون بدلًا من « تَمْنُنْ » كأنه قال : لا تستكثر . وأنكره أبو حاتم وقال : لأن المنّ ليس بالاستكثار فيبدل منه . ويحتمل أن يكون سكن تخفيفًا كَعَضْد . أو أن يعتبر حال الوقف . وقرأ الأعمش ويحيى « تَسْتَكْثِرَ » بالنصب ، توهّم لام كى ، كأنه قال : ولا تمنن لتستكثر . وقيل : هو بإضمار « أن » كقوله[1] :

« أَلَا أَيُّهَذَا الزَّاجِرِى أَحْضُرُ الوَغَى »

ويؤيده قراءة ابن مسعود « وَلَا تَمْنُنْ أَنْ تَسْتَكْثِرَ » . قال الكسائى : فإذا حذف « أن » رفع ، وكان المعنى واحدًا . وقد يكون المنّ بمعنى التعداد على المنعم عليه بالنعم ، فيرجع إلى القول [الثانى][2] ، ويعضده قوله تعالى : « لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى » وقد يكون مرادًا فى هذه الآية . والله أعلم .

قوله تعالى : وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ أى ولسيدك ومالكك فاصبر على أداء فرائضه وعبادته . وقال مجاهد : على ما أوذيت[3] . وقال ابن زيد : حُمِّلت أمرًا عظيمًا؛ محاربةَ العرب والعجم، فاصبر عليه لله . وقيل : فاصبر تحت موارد القضاء لأجل الله تعالى . وقيل : فاصبر على البلوى؛ لأنه يمتحن أولياءه وأصفياءه . وقيل : على أوامره ونواهيه . وقيل : على فراق الأهل والأوطان .

قوله تعالى : فَإِذَا نُقِرَ فِى النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾

---

(١) البيت لطرفة بن العبد من معلقته ، وتمامه : * وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى *

(٢) زيادة يقتضيها المعنى . (٣) فى ا ، ح ، ل : « ما أديت » .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴾ إذا نفخ فى الصور. والناقور: فاعول من النقر، كأنه الذى من شأنه أن ينقر فيـه للتصويت ، والنقر فى كلام العرب : الصوت؛ ومنه قول آمرئ القيس .

أُخَفِّضُــه بالنَّقْــرِ لمَّـا عَـلَوْتُهُ * وَيَرْفَـعُ طَـرْفًا غيرَ خَافٍ غَضِيضِ

وهم يقولون : نَقَـر بآسم الرجل إذ دعاه مختصًّا له بدعائه . وقال مجـاهد وغيره : هو كهيئة البوق، و يعنى به النفخة الثانية . وقيل : الأولى؛ لأنهـا أوّل الشدّة الهائلة العامة . وقد مضى الكلام فى هذا مستوفًى فى «النمل»(١) و «الأنعام»(٢) وفى كتاب « التذكرة »، والحمد لله. وعن أبى حبّـان قال : أَمَّنـا زُرارة بن أوفى فلما بلغ « فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّـاقُورِ » خرّ ميتًا . ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ أى فذلك اليوم يوم شديد ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أى على من كفر بالله و بأنبيائه صلى الله عليهم ﴿ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ أى غير سهل ولا هيّن ؛ وذلك أن عُقَدهم لا تنحل إلا إلى عُقدة أشدّ منها ، بخلاف المؤمنين الموحدين المذنبين فإنها تنحل إلى ما هو أخف منها حتى يدخلوا الجنة برحمة الله تعالى . و « يَوْمَئِذٍ » نصب على تقدير فذلك يوم عسير يومئذ. وقيل : جرّ بتقدير حرف جر، مجازه : فذلك فى يومئذ . وقيل : يجوز أن يكون رفعًا إلا أنه بنى على الفتح لإضافته إلى غير متمكن .

قوله تعـالى : ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَـٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ « ذَرْنِي » أى دعنى ؛ وهى كلمة وعيـد وتهديد . « وَمَنْ خَلَقْتُ » أى دعنى والذى خلقتهُ وحيدًا، فـ « وحيدًا » على هذا حال من ضمير المفعول المحذوف، أى خلقته وحده، لا مال له ولا ولد، ثم أعطيتهُ بعد ذلك ما أعطيته .

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٣٩ . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٠ .

Marfat.com

والمفسرون على أنه الوليد بن المغيرة المخزومى، وإن كان الناس خلقوا مثل خلقه. وإنما خُصّ بالذكر لاختصاصه بكفر النعمة وإيذاء الرسول عليه السلام، وكان يسمّى الوحيد فى قومه. قال ابن عباس: كان الوليد يقول: أنا الوحيد بن الوحيد، ليس لى فى العرب نظير، ولا لأبى المغيرة نظير، وكان يسمى الوحيد؛ فقال الله تعالى: «ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ» بزعمه «وَحِيدًا» لا أن الله تعالى صدّقه بأنه وحيد. وقال قوم: إن قوله تعالى: «وَحِيدًا» يرجع إلى الربّ تعالى على معنيين: أحدهما: ذرنى وحدى معه فأنا أجزيك فى الانتقام منه عن كل منتقم. والثانى: أنى انفردت[1] بخلقه ولم يشركنى فيه أحد، فأنا أهلكه ولا أحتاج إلى ناصر فى إهلاكه؛ ف«وحيدًا» على هذا حال من ضمير الفاعل، وهو التاء فى «خَلَقْتُ» والأوّل قول مجاهد، أى خلقته وحيدًا فى بطن أمه لا مال له ولا ولد، فأنعمت عليه فكفر؛ فقوله: «وحيدًا» على هذا يرجع إلى الوليد، أى لم يكن له[2] شىء فملكته. وقيل: أراد بذلك ليدله على أنه يبعث وحيداً كما خُلق وحيدًا. وقيل: الوحيد الذى لا يُعرف[3] أبوه، وكان الوليد معروفا بأنه دَعِىّ؛ كما ذكرنا فى قوله تعالى: «عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ» وهو فى صفة الوليد أيضا.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا﴾ أى خوّلته وأعطيته مالًا ممدودًا، وهو ما كان للوليد بين مكة والطائف من الإبل والحُجُور[4] والنَّعَم والجنان والعبيد والجوارى، كذا كان ابن عباس يقول. وقال مجاهد: غلّة ألف دينار؛ قاله سعيد بن جبير وابن عباس أيضا. وقال قتادة: ستة آلاف دينار. وقال سفيان الثورى وقتادة: أربعة آلاف دينار. الثورى أيضا: ألف ألف دينار. مقاتل: كان له بستان لا ينقطع خيره شتاءً ولا صيفًا. وقال عمر رضى الله عنه: «وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا» غلة شهر بشهر. النعمان بن سالم: أرضًا يزرع فيها. القشيرى: والأظهر أنه إشارة إلى ما لا ينقطع رزقه، بل يتوالى كالزرع والضرع والتجارة.

---

(١) فى ا، ح، و: «أفردت».
(٢) كلمة «له» ساقطة من ا، ح، ل.
(٣) فى ز، ط، ل: «لا يغنين».
(٤) جمع حجرة، وهى الأنثى من الخيل.

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴾ أى حضوراً لا يغيبون عنه فى تصرف . قال مجاهد وقتادة : كانوا عشرة . وقيل : آثنا عشر؛ قاله السّدىّ والضحاك . قال الضحاك : سبعة ولدوا بمكة وخمسةٌ ولدوا بالطائف . وقال سعيد بن جبير: كانوا ثلاثة عشر ولدًا . مقاتل: كانوا سبعة كلهم رجال،أسلم منهم ثلاثة : خالد وهشام والوليد بن الوليد . قال: فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية فى نقصان من ماله وولده حتى هلك . وقيل: شهودًا ، أى إذا ذُكر ذكروا معه؛ قاله آبن عباس . وقيل : شهودًا، أى قد صاروا مثله فى شهود ما كان يشهده، والقيام بما كان يباشره . والأوّل قول السدىّ، أى حاضرين مكة لا يظعنون عنه فى تجارة ولا يغيبون .

قوله تعالى : ﴿ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴾ أى بسطت له فى العيش بسطا ، حتى أقام ببلدته مطمئنًا مترفهًا يُرجع إلى رأيه . والتمهيد عند العرب: التوطئة والتهيئة؛ ومنه مَهْدُ الصبىّ . وقال آبن عباس : « وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا » أى وسّعت له ما بين اليمن والشام؛ وقاله مجاهد . وعن مجاهد أيضًا فى « وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا » أنه المال بعضه فوق بعض كما يمهد الفراش .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ أى ثم إن الوليد يطمع بعد هذا كله أن أزيده فى المال والولد . ﴿ كَلَّا ﴾ أى ليس يكون ذلك مع كفره بالنعم . وقال الحسن وغيره: أى ثم يطمع أن أدخله الجنة ، وكان الوليد يقول : إن كان محمد صادقاً فما خُلقت الجنة إلا لى ؛ فقال الله تعالى ردًّا عليه وتكذيبًا له : « كَلَّا » أى لستُ أزيده، فلم يزل يرى النقصان فى ماله وولده حتى هلك . و «ثُمَّ» فى قوله تعالى : « ثُمَّ يَطْمَعُ» ليست بثم التى للنّسق ولكنها تعجيب ؛ وهى كقوله تعالى : « وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ » وذلك كما تقول : أعطيتك ثم أنت تجفونى ؛ كالمتعجّب من ذلك . وقيل يطمع أن أترك ذلك فى عقبه؛ وذلك أنه كان يقول : إن محمدا مبتور؛ أى أبتر وينقطع ذكره بموته . وكان يظنّ أن ما رزق لا ينقطع بموته . وقيل : أى ثم يطمع أن أنصره على كفره . و « كَلَّا » قطعٌ للرجاء عما كان يطمع فيه من الزيادة؛ فيكون متصلًا بالكلام الأول . وقيل : « كَلَّا » بمعنى حقًا ويكون آبتداء. ﴿ إِنَّهُ ﴾ يعنى الوليد ﴿ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴾ أى معاندا للنبىّ صلى الله

Marfat.com

عليه وسلم وما جاء به ؛ يقـال : عاند فهو عنِيد مثـل جالِس فهو جلِيس ؛ قاله مجاهد . وعَنَدَ يَعْنِد بالكسر أى خالف وردّ الحقّ وهو يعرفه فهو عنِيد وعانِد . والعانِد : البعير الذى يجـور عن الطريق و يعدل عن القصد والجمع عُنَّد مثل راكِـع ورُكّـع ؛ وأنشد أبو عبيدة قول الحارثيّ :

إذا رَكِبتُ فاْجعَلانِي وَسَـطًا(١) * إنّى كَـبِيرٌ لا أُطيقُ العُنّـدَا

وقال أبو صالح : « عَنِيدًا » معناه مباعدًا ؛ قال الشاعر :

أرَانَا عـلى حالٍ تُفَـرِّقُ بَيْنَنَا * نَوًى غَرْبَةٌ(٢) إنَّ الفِرَاقَ عَنُود

قتادة : جاحدًا . مقاتل : معرضًا . آبن عباس : جحودًا . وقيل : إنه المجاهر بعدوانه . وعن مجاهـد أيضا قال : مجانبًا للحق معاندًا له معرضًا عنه . والمعنى كله متقارب . والعرب تقول : عَنَد الرجل إذا عَتا وجاوز قدره . والعَنُود من الإبل : الذى لا يخالط الإبل، إنما هو فى ناحية . ورجل عَنُود إذا كان يحـلّ وحده لا يخالط الناس . والعنيد من التجبر . وعرق عاند : إذا لم يَرقأ دمه ، كل هذا قياس واحد وقد مضى فى سورة « إبراهيم »(٣) . وجمع العنيد عُنُد، مثل رغِيف ورغُف .

قوله تعـالى : ﴿ سَأُرْهِقُهُ ﴾ أى سأكلفه . وكان آبن عباس يقول : سألجئه؛ والإرهاق فى كلام العرب : أن يُحَمل الإنسان على الشيء . ﴿ صَعُودًا ﴾ " الصَّعُودُ : جبل من نار يتصعّد فيه سَبْعِين خَرِيفًا ثم يَهْوِى كَذَلِكَ فيه أبدا " رواه أبو سعيد الخدرىّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، خرجه الترمذيّ وقال فيه حديث غريب . وروى عطية عن أبى سعيد قال : صخرة فى جهنم إذا وضعوا عليها أيديهم ذابت فإذا رفعوها عادت ، قال : فيبلغ أعلاها فى أربعين سنة يُجذب من أمامه بسلاسل و يضرب من خلفه بمقامع ، حتى إذا بلغ أعلاها رمى به إلى أسفلها ، فذلك دأبه أبدًا . وقد مضى هذا المعنى فى سورة « قُـلْ أُوحِىَ »(٤) . وفى التفسير : أنه صخرة ملساء

---

(١) رواية لسان العرب : * إذا رحلت فاجعلونى وسطا *

(٢) نوى غربة : بعيدة . (٣) راجع جـ ٩ ص ٣٤٩ . (٤) راجع ص ٢٨ من هذا الجزء .

Marfat.com

يكلّف صعودها فإذا صار فى أعلاها حُدِر فى جهنم، فيقوم يهوِى ألف عام من قبل أن يبلغ قرار جهنم، يحترق فى كل يوم سبعين مرّة ثم يعاد خلقًا جديدًا . وقال آبن عباس: المعنى سأكلفه مشقّة من العذاب لا راحة له فيه . ونحوه عن الحسن وقتادة . وقيـل : إنه تصاعد نفسه للنزع وإن لم يتعقبه موت، ليُعذّب من داخل جسده كما يعذّب من خارجه .

قوله تعـالى : إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ يعنى الوليد فكر فى شأن النبيّ صلى الله عليه وسلم والقرآن و « قَـدَّرَ » أى هيأ الكلام فى نفســه، والعرب تقول : قدّرت الشيء إذا هيأته، وذلك أنه لمـا نزل: « حمٓ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » إلى قوله : « إِلَيْهِ الْمَصِيرُ» سمعه الوليد يقرؤها فقال : والله لقد سمعت منه كلامًا ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطُلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسـفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يُعْلَى عليه، وما يقول هذا بشر. فقالت قريش : صَبَا الوليدُ لتَصبونّ قريش كلها . وكان يقال للوليد ريحانة قريش؛ فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه . فمضى إليه حزينًا ؟ فقال له : مالى أراك حزينًا . فقال له: ومالى لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك بها على كبر سنك ويزعمون أنك زينت كلام محمد، وتدخل على آبن أبى كبشة وآبن أبى قحافة لتنال من فضل طعامهما؛ فغضب الوليد وتكبر، وقال : أنا أحتاج إلى كسر محمد وصاحبه، فأنتم تعرفون قدر مالى، واللّات والعُزّى مابى حاجة إلى ذلك، وإنما أنتم تزعمون أن محمدًا مجنون، فهل رأيتموه قطّ يخنُـق ؟ قالوا : لا والله . قال : وتزعمـون أنه شاعر، فهـل رأيتمـوه نطق بشـعر قطّ ؟ قالوا : لا والله . قال : فتزعمون أنه كذّاب فهل جرّبتم عليه كذبًا قط ؟ قالوا: لا والله .

Marfat.com

قال : فتزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه تكهّن قط ، ولقد رأينا للكهنة أسجاعاً وتخالجاً[١] فهل رأيتموه كذلك ؟ قالوا : لا والله . وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يُسَمَّى الصادق الأمين من كثرة صدقه . فقالت قريش للوليد : فما هو ؟ ففكّر فى نفسه ، ثم نظر ، ثم عبس ، فقال : ماهو إلا ساحر ! أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟ ! فذلك قوله تعالى : «إِنَّهُ فَكَّرَ» أى فى أمر محمد والقرآن «وَقَدَّرَ» فى نفسه ماذا يمكنه أن يقول فيهما . ﴿ فَقُتِلَ ﴾ أى لُعن . وكان بعض أهل التأويل يقول : معناها فقهر وغُلب ، وكل مُذَلَّل مُقَتَّل ؛ قال الشاعر[٢] :

وَمَا ذَرَفَتْ عيناكِ إلّا لِتَقْدَحِى * بِسَهْمَيْكِ فى أَعْشارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ

وقال الزهرىّ : عُذِّب ؛ وهو من باب الدعاء . ﴿ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ قال ناس : «كَيْفَ» تعجيب ؛ كما يقال للرجل تتعجب من صنيعه : كيف فعلت هذا ؟ وذلك كقوله : «انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ» . ﴿ ثُمَّ قُتِلَ ﴾ أى لُعن لعناً بعد لعن . وقيل : فقتل بضرب من العقوبة ، ثم قتل بضرب آخر من العقوبة ﴿ كَيْفَ قدر ﴾ أى على أى حال قدر . ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ بأى شى يرد الحق و يدفعه . ﴿ ثُمَّ عَبَسَ ﴾ أى قَطَّب بين عينيه فى وجوه المؤمنين ؛ وذلك أنه لما حمل قريشا على ما حملهم عليه من القول فى محمد صلى الله عليه وسلم بأنه ساحر ، مرّ على جماعة من المسلمين ، فدعوه إلى الإسلام ، فعبس فى وجوههم .. قيل : عَبَس وبَسَر على النبيّ صلى الله عليه وسلم حين دعاه . والعَبْس مخففا[٣] مصدر عَبَس يَعْبِس عَبْساً وعُبُوسا : إذا قطّب . والعَبَس ما يتعلق بأذناب الإبل من أبعارها وأبوالها ؛ قال أبو النَّجْم :

كأنّ فى أذنابهنّ الشُّوَّلِ * من عَبَسِ الصَّيفِ قُرونَ الأُيَّلِ

﴿ وَبَسَرَ ﴾ أى كَلَح وجهه وتغيّر لونه ؛ قاله قتادة والسُّدىّ ؛ ومنه قول بشر بن أبى خازم :

صَبَحْنَا تَمِيماً غَداةَ الجِفَارِ[٤] * بِشَهْبَاءَ مَلْمُومَةٍ بَاسِرَه

(١) تخلج المجنون فى مشيه : تجاذب يمينا وشمالا .   (٢) هو امرؤ القيس .
(٣) كلمة : «مخففا» ساقطة من الأصل المطبوع .   (٤) الجفار : موضع . وقيل هو ماء لبنى تميم .

Marfat.com

وقال آخر[1] :

وقـد رابني منهـا صدودٌ رأيتُـهُ * وإعراضُها عَنْ حاجتي وبُسُورُها

وقيل : إن ظهور العُبوس في الوجه بعـد المحاورة ، وظهور البُسور في الوجه قبل المحاورة .

وقال قوم : «بَسَرَ» : وَقَفَ لا يتقدم ولا يتأخر. قالوا : وكذلك يقول أهل اليمن إذا وقف المركب، فلم يجئ ولم يذهب : قد بسر المركب، وأَبْسَر أى وقف وقد أبسرنا . والعرب تقول : وجه باسر بيِّن البسور : إذا تغير واسود . ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ ﴾ أى ولّى وأعرض ذاهبًا إلى أهـله . ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ أى تعظم عن أن يؤمن . وقيل : أدبر عن الإيمـان واستكبر حين دُعى إليه . ﴿ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَا ﴾ أى ماهذا الذى أتى به محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ أى يأثره عن غيره . والسِّحر : الخديعة . وقد تقدم بيانه فى سورة «البقرة»[2] . وقال قوم : السحر : إظهار الباطل فى صورة الحق . والأثرة : مصدر قولك : أثرتُ الحديثَ آثره إذا ذكرته عن غيرك ؛ ومنه قيل : حديث مأثور : أى ينقله خلف عن سلف ؛ قال امرؤ القيس :

ولو عن نَثَـا غيرِهِ جاءنى * وجُرْحُ اللِّسـانِ كجُـرحِ اليدِ

لَقُلْتُ من القول مـا لا يَزا * لُ يُؤثَر عنّى يَـدَ المُسْنَـدِ[3]

يريد : آخر الدهر . وقال الأعشى :

إنّ الذى فيـه تماريتُمـا[4] * بُيِّنَ لِلسَّـامِعِ والآثِرِ

ويروى : بَيَّن . ﴿ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾ أى ما هذا إلا كلام المخلوقين، يُختدع به القلوب كما تختدع بالسحر. قال السدى : يعنون أنه من قول سيارٍ[5] عبد لبنى الحضرمى، كان يجالس النبى

---

(١) هو توبة بن الحمير. وزاد بعض النسخ بعد هذا البيت ما يأتى كحاشية : قوله «بشهباء» : أراد بكتيبة شهباء؛ ومنه قول عنترة :

وكتيبـة لبستـها بكتيبـة * شهباء باسلة يخاف رداها

ويقال : كتيبـة ململة وملمومة أيضا أى مجتمعة مضمـوم بعضها إلى بعض . وصخرة ملمومة وململة أى مستديرة صلبة، قاله الجوهرى . (٢) راجع ٢ ص ٤٣ (٣) يقول : لو أتانى هذا النبأ عن حديث غيره لقلت قولا يشيع فى الناس ويؤثر عنى آخر الدهر . والنثا : ما يحدث به من خير وشر . والمسند : الدهر .

(٤) الذى فى ديوان الأعشى طبع أوربا : «تداريتما» . (٥) فى ز : «من قول أبى اليسر سيار» .

Marfat.com

صلى الله عليه وسلم، فنسبوه إلى أنه تعلم منه ذلك. وقيل: أراد أنه تلقنه من أهل بابل. وقيل: عن مُسيلمة. وقيل: عن عديّ الحضرميّ الكاهن. وقيل: إنما تلقنه ممن آدعى النبوة قبله، فنسج على منوالهم. قال أبو سعيد الضرير: إن هذا إلا أمر سحر يؤثر؛ أي يورث.

قوله تعالى: سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩)

قوله تعالى: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ أى سأدخله سقر كى يصْلى حرّها. وإنما سُمّيت سقر من سَقَرَتْه الشمس: إذا أذابته ولوّحته، وأحرقت جلدة وجهه. ولاينصرف للتعريف والتأنيث. قال آبن عباس: هى الطبق السادس من جهنم. وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «سأل موسى ربه فقال: أى ربّ، أىّ عبادك أفقر؟ قال صاحب سَقَر» ذكره الثعلبيّ. ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴾؟ هذه مبالغة فى وصفها؛ أى وما أعلمك أى شىء هى؟ وهى كلمة تعظيم، ثم فسّر حالها فقال: ﴿ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴾ أى لا تترك لهم عظماً ولا لحماً ولا دماً إلا أحرقته. وكرر اللفظ تأكيداً. وقيل: لا تبقى منهم شيئاً، ثم يعادون خلقاً جديداً، فلا تذر أن تعاود إحراقهم هكذا أبداً. وقال مجاهد: لاتبقى مَنْ فيها حيًّا ولاتذره ميتاً، تحرقهم كلما جُدّدوا. وقال السّدىّ: لاتبقى لهم لحمًا ولا تذر لهم عظمًا ﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ أى مُغَيّرة، من لاحه إذا غيّره. وقراءة العامة «لَوَّاحَةٌ» بالرفع نعت لـ «سقر» فى قوله تعالى: «وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ». وقرأ عطية العوفىّ ونصر بن عاصم وعيسى بن عمر «لَوَّاحَةً» بالنصب على الاختصاص، للتهويل. وقال أبو رَزِين: تلفح وجوههم لَفْحة تدعها أشدّ سواداً من الليل؛ وقاله مجاهد. والعرب تقول: لاحه البَرْد والحرّ والسُّقم والحُزْن: إذا غيّره؛ ومنه قول الشاعر:

تقولُ مالَاحَكَ يامُسافِرُ ٭ يَابْنةَ عَمّى لاحَنِي الهَوَاجِرُ[2]

---

(١) كلمة: «أمر» ساقطة من الأصل المطبوع.

(٢) الهواجر: جمع هاجرة، وهى شدة الحر عند منتصف النهار.

Marfat.com

وقال آخر :

وتعجب هندٌ أن رأتني شاحبًا * تقول لشيءٍ لوَّحته السمائم (١)

وقال رُؤبة بن العجّاج :

لوَّح منه بعد بُدْنٍ وسَنَق * تلويحك الضامر يُطوَى للسَّبق (٢)

وقيل : إن اللوح شدة العطش؛ يقال : لاحة العطش ولوَّحه أى غيّره . والمعنى أنها معطِّشة للبشر أى لأهلها ؛ قاله الأخفش ، وأنشد :

سقتني على لَوْحٍ من الماء شَرْبَةً * سقاها بها اللهُ الرِّهامَ الغواديا

يعنى باللَّوح شدّة العطش ، والتاح أى عَطِش . والرِّهام جمع رهمة بالكسر وهى المطرة الضعيفة وأرهمت السحابة أتت بالرِّهام . وقال ابن عباس : «لَوَّاحَةٌ» أى تلوح للبشر من مسيرة خمسمائة عام . الحسن وابن كيسان : تلوح لهم جهنم حتى يروها عِيانًا . نظيره : « وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ» وفى البَشَر وجهان : أحدهما — أنه الإنس من أهل النار ؛ قاله الأخفش والأكثرون . الثانى — أنه جمع بَشرة ، وهى جلدة الإنسان الظاهرة ؛ قاله مجاهد وقتادة . وجمع البَشَر أبشار ، وهذا على التفسير الأول ، وأما على تفسير ابن عباس فلا يستقيم فيه إلا الناس لا الجلود ؛ لأنه من لاح الشيءُ يلوح : إذا لمع .

قوله تعالى : عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ

(١) السمائم : جمع سموم وهى الريح الحارة .
(٢) لوحه السفر غيره وأضمره . والبدن : السمن واكتناز اللحم . والسنق : الشبع حتى يكون كالتخمة . الضامر : الفرس . يطوى : يجوع لأجل السباق .

Marfat.com

وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ أى على سَقَر تسعة عشر من الملائكة يَلْقون فيها أهلها . ثم قيل : على جملة النار تسعة عشر من الملائكة هم خَزَنتها ؛ مالكٌ وثمانية عشر ملَكاً . ويحتمل أن تكون التسعة عشر نقيباً ، ويحتمل أن يكون تسعة عشر ملَكاً بأعيانهم . وعلى هذا أكثر المفسرين . الثعلبيّ : ولا يُنكر هذا ، فإذا كان مَلَك واحد يقبض أرواح جميع الخلائق كان أحرى أن يكون تسعة عشر على عذاب بعض الخلائق . وقال آبن جريج : نعت النبيّ صلى الله عليه وسلم خَزَنة جهنم فقال : " فكأنّ أعينهم البرْق ، وكأن أفواههم الصياصى ، يجرّون أشعارهم ، لأحدهم من القوة مثل قوة الثقلين ، يسوق أحدهم الأمّة وعلى رقبته جبل ، فيرميهم فى النار ، ويرمى فوقهم الجبل " .

قلت : وذكر آبن المبارك قال : حدّثنا حماد بن سلمة ، عن الأزرق بن قيس ، عن رجل من بنى تميم قال : كنا عند أبى العوام ، فقرأ هذه الآية « وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَر . لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ . لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ . عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ » فقال ما تسعةَ عشَر ؟ تسعة عشر ألف مَلَك ، أو تسعة عشر مَلَكا ؟ قال : قلت : لا بل تسعةَ عشَر مَلَكا . فقال : وأنّى تعلم ذلك ؟ فقلت : لقول الله عز وجل : « وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا » قال : صدقت هم تسعة عشر مَلَكا ، بيد كل مَلَك منهم مِرْزَبَّة (١) لها شُعْبتان ، فيضرب الضربة فيهوى بها فى النار سبعين ألفًا . وعن عمرو بن دينار : كل واحد منهم يدفع بالدَّفعة الواحدة فى جهنم أكثر من ربيعة ومُضَر . خرّج الترمذيّ عن جابر بن عبد الله قال : قال ناس من اليهود لأناس من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم : هل يعلم نبيكم عدد خَزَنة جهنم ؟ قالوا : لا ندرى حتى نسأل نبينا . فجاء رجل

(١) المرزبة : عصية من حديد ، والمطرقة الكبيرة التى للحداد .

Marfat.com

إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد غُلب أصحابك اليوم، فقال : " وماذا غُلبوا[(١)] " ؟ قال : سألهم يهود : هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم ؟ قال : "فماذا قالوا" ؟ قال : قالوا لاندرى حتى نسأل نبيّنا . قال : " أفغُلب قوم سئلوا عما لا يعلمون، فقالوا لا نعلم حتى نسأل نبينا ؟ لكنهم قد سألوا نبيهم فقالوا أرنا الله جَهْرة ، عليّ بأعداء الله ! إنى سائلهم عن تُربة الجنة وهى الدَّرْمَك ". فلما جاءوا قالوا : يا أبا القاسم كم عدد خَزَنة جهـنم ؟ قال : " هكذا وهكذا " فى مرة عشرة وفى مرة تسعة ، قالوا : نعم . قال لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما تُربة الجنـة " قال : فسكتوا هنيهة ثم قالوا : أخبزة يا أبا القاسم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الخبز من الدَّرْمَك " . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب ، إنما نعرفه من هذا الوجه من حديث مجالد عن الشّعْبي عن جابر . وذكر آبن وهب قال : حدثنا عبد الرحمن بن زيد ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خزنة جهنم : " ما بين مَنكِبَيْ أحدهم كما بينَ المشرق والمغرب " . وقال آبن عباس : ما بين مَنكِبي الواحد منهم مَسيرة سـنة ، وقوة الواحد منهم أن يضرب بالمِقْمَع فيدفع بتلك الضربة سبعين ألف إنسان فى قعر جهنم .

قلت : والصحيح إن شاء الله أن هؤلاء التسعة عَشَر، هم الرؤساء والنقباء، وأما جملتهم فالعبارة تعجز عنها، كما قال الله تعالى : « وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ » وقد ثبت فى الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف مَلَك يجرّونها " . وقال آبن عباس وقتادة والضحاك : لمـا نزل : « عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ » قال أبو جهل لقريش : ثكلتكم أمهاتكم ! أسْمعُ آبن أبى كبشة يخبركم أن خَزَنة جهنم تسعة عشر، وأنتم الدَّهْم — أى العدد — والشجعان، فيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم ! قال السّدّيّ : فقال أبو الأسود[(٢)] بن كَلَدة الجُمَحيّ : لا يهولنكم التسعة عشر، أنا أدفع بمنكبي الأيمن عشرة من الملائكة ، وبمنكبي الأيسر التسعة ، ثم تمرون

(١) كذا فى ا ، ح ، ط ، و . وفى نسخة : وبم ؟
(٢) كذا فى نسخ الأصل : « الأسود » . والذى فى حاشية الجمل ص ٤٥٧ جـ ٤ : « أبو الأشـد » .

Marfat.com

الى الجنة؛ يقولها مستهزئًا . فى رواية : أن الحرث بن كَلَدة قال أنا أكفيكم سبعة عشر، واكفونى أنتم اثنين . وقيل : إن أبا جهل قال أفيعجز كل مائة منكم أن يبطشوا بواحد منهم ، ثم تخرجون من النار ؟ فنزل قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ﴾ أى لم نجعلهم رجالًا فتتعاطون مغالبتهم . وقيل : جعلهم ملائكة لأنهم خلاف جنس المعذَّبين من الجنّ والإنس، فلا يأخذهم ما يأخذ المجانس من الرأفة والرقّة، ولا يستروحون إليهم، ولأنهم أقوم خلق الله بحق الله وبالغضب له ، فتؤمن هوادتهم ؛ ولأنهم أشدّ خلق الله بأسًا وأقواهم بطشًا . ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً ﴾ أى بليّة . وروى عن ابن عباس من غير وجه قال : ضلالة للذين كفروا، يريد أبا جهل وذويه . وقيل : إلا عذابًا، كما قال تعالى : « يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ . ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ » . أى جعلنا ذلك سبب كفرهم وسبب العذاب .

وفى « تِسْعَةَ عَشَرَ » سبع قراءات[1] : قراءة العامة « تِسْعَةَ عَشَرَ » . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وطلحة بن سليمان « تِسْعَةَ عْشَرَ » بإسكان العين . وعن ابن عباس « تِسْعَةُ عَشَرَ » بضم الهاء. وعن أنس بن مالك « تِسْعَةُ وَعَشَرْ » وعنه أيضا « تِسْعَةُ وَعَشْرُ » . وعنه أيضا « تِسْعَةَ أَعْشُرْ » ذكرها المهدوىّ وقال : من قرأ « تِسْعَةَ عْشَرَ » أسكن العين لتوالى الحركات . ومن قرأ « تِسْعَةُ وَعَشْرْ » جاء به على الأصل قبل التركيب ، وعطف عشرًا على تسعة ، وحذف التنوين لكثرة الاستعمال ، وأسكن الراء من عشر على نية السكوت عليها . ومن قرأ « تِسْعَةُ عَشَرْ » فكأنه من التداخل، كأنه أراد العطف وترك التركيب، فرفع هاء التأنيث، ثم راجع البناء وأسكن . وأما « تِسْعَةُ أَعْشُرْ » : فغير معروف، وقد أنكرها أبو حاتم . وكذلك « تِسْعَةُ وَعَشْر » لأنها محمولة على « تِسْعَة أَعْشُر » والواو بدل من الهمزة، وليس لذلك وجه عند النحويين . الزمخشرىّ : وقرئ « تِسْعَةُ أَعْشُر » جمع عَشِير ، مثل يَمين وأَيْمُن .

(١) ورد فى الأصول ست قراءات فقط ولعل السابعة قراءة سليمان بن قتة « تسعة أعشر » بضم التاء وهمزة مفتوحة وسكون العين وضم الشين وجر الراء . وتعقب السمين هذه القراءات فقال : « فى هذه الكلمة قراءات شاذة وتوجيهات تشاكلها » .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ أى ليوقن الذين أعطوا التوراة والإنجيل أن عِدة خَزَنة جهنم موافقة لما عندهم ؛ قاله ابن عباس وقتادة والضحاك ومجاهد وغيرهم . ثم يحتمل أنه يريد الذين آمنوا منهم كعبد الله بن سلام . ويحتمل أنه يريد الكل . ﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾ بذلك ؛ لأنهم كلما صدّقوا بما فى كتاب الله آمنوا ، ثم ازدادوا إيمانا لتصديقهم بعدد خَزَنة جهنم . ﴿ وَلَا يَرْتَابَ ﴾ أى ولا يشك ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ أى أعطوا الكتاب ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ أى المصدّقون من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فى أن عِدة خزنة جهنم تسعة عشر . ﴿ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أى فى صدورهم شك ونفاق من منافقى أهل المدينة ، الذين يَنجُمون فى مستقبل الزمان بعد الهجرة ، ولم يكن بمكة نفاق وإنما نَجم بالمدينة . وقيل : المعنى ؛ أى وليقول المنافقون الذين يَنجُمون فى مستقبل الزمان بعد الهجرة . ﴿ وَالْكَافِرُونَ ﴾ أى اليهود والنصارى ﴿ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾ يعنى بعدد خزنة جهنم . وقال الحسين بن الفضل : السورة مكية ولم يكن بمكة نفاق ؛ فالمرض فى هذه الآية الخلاف و « الْكَافِرُونَ » أى مشركو العرب . وعلى القول الأوّل أكثر المفسرين . ويجوز أن يراد بالمرض : الشك والارتياب ؛ لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكين ، وبعضهم قاطعين بالكذب ، وقوله تعالى إخبارا عنهم : « مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ » أى ما أراد « بِهَذَا » العدد الذى ذكره حديثا ، أى ما هذا من الحديث . قال الليث : المَثَل الحديث ؛ ومنه : « مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ » أى حديثها والخبر عنها ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أى كإضلال الله أبا جهل وأصحابه المنكرين لخزنة جهنم ﴿ يُضِلُّ اللَّهُ ﴾ أى يخزى ويعمى ﴿ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي ﴾ أى ويرشد ﴿ مَنْ يَشَاءُ ﴾ كإرشاد أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : « كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ » عن الجنة « مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي » إليها « مَنْ يَشَاءُ » . ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ أى وما يدرى عدد ملائكة ربك الذين خلقهم لتعذيب أهل النار « إِلَّا هُوَ » أى إلا الله جلّ ثناؤه . وهذا جواب لأبى جهل حين قال : أمَا لمحمد من الجنود إلا تسعة عشر ! وعن ابن عباس : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يقسم غنائم حُنين ، فأتاه جبريل فجلس عنده ، فأتى مَلَك فقال : إن ربك يأمرك

Marfat.com

بكذا وكذا، فخشى النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يكون شيطاناً، فقال : "يا جبريل أتعرفه" ؟ فقال : هو مَلَك وما كل ملائكة ربّك أعرف . وقال الأوزاعيّ : قال موسى : « ياربّ من فى السماء؟ قال ملائكتى . قال كم عِدّتهم يا ربّ؟ قال: اثنى عشر[1] سِبْطاً . قال : كم عدّة كل سبط؟ قال : عدد التراب » . ذكرهما الثعلبيّ . وفى الترمذيّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أطّت[2] السماءُ وحُقّ لها أن تَئِط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا ومَلَك واضع جبهته لله ساجداً ".

قوله تعالى : ﴿ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ يعنى الدلائل والحجج والقرآن . وقيل : « وَمَا هِىَ » أى وما هذه النار التى هى سقر « إِلَّا ذِكْرَى » أى عظة « لِلْبَشَرِ » أى للخلق . وقيل : نار الدنيا تذكرة لنار الآخرة . قاله الزجاج . وقيل : أى ما هذه العِدّة « إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ » أى ليتذكروا ويعلموا كمالَ قدرة الله تعالى، وأنه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار ؛ فالكناية على هذا فى قوله تعالى : « وَمَا هِىَ » ترجع إلى الجنود؛ لأنه أقرب مذكور .

قوله تعالى : كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾

(١) كذا فى الأصول . والصواب : اثنا عشر .

(٢) الأطيط : صوت الأقتاب (إكاف البعير) . وأطيط الإبل : أصواتها وحنينها . أى أن كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلها حتى أطّت . وهذا مثل وإيذان بكثرة الملائكة ، وإن لم يكن ثم أطيط . (النهاية) .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴾ قال الفراء : « كَلَّا » صلة للقسم ، التقدير أى والقمر. وقيل : المعنى حقًا والقمر؛ فلا يوقف على هذين التقديرين على « كَلَّا» وأجاز الطّبرى الوقف عليها ، وجعلها ردًّا للذين زعموا أنهم يقاومون خَزَنة جهنم؛ أى ليس الأمر كما يقول من زعم أنه يقاوم خزنة النار. ثم أقسم على ذلك جلّ وعزّ بالقمر وبما بعده، فقال: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ﴾ أى وَلَّى وكذلك « دَبَرَ » . وقرأ نافع وحمزة وحفص « إِذْ أَدْبَرَ » الباقون «إذا» بألف و«دَبَرَ» بغير ألف وهما لغتان بمعنًى؛ يقال: دَبَرَ وأدبر، وكذلك قَبِل الليل وأقبل . وقد قالوا : أمس الدابر والمدبر؛ قال صخر بن عمرو بن الشَّريد السُّلَمى :

وَلَقَــدْ قَتَلْنَاكُمْ ثُنَــاءَ وَمَوْحَدًا * وَتَرَكْتُ مُرَّةَ مِثْلَ أَمْسِ الدَّابِرِ

ويروى المدبِر . وهذا قول الفراء والأخفش . وقال بعض أهل اللغة: دَبَرَ الليل: إذا مضى، وأدبر: أخذ فى الإدبار . وقال مجاهد : سألت ٱبن عباس عن قوله تعالى : « وَاللَّيْلِ إِذَا دَبَرَ » فسكت حتى إذا دَبَرَ قال : يا مجاهد ، هذا حين دَبَرَ الليلُ . وقرأ محمد بن السَّمَيْقَع « واللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ » بالفين ، وكذلك فى مصحف عبد الله وأُبَىّ بالفين. وقال قُطرب من قرأ « دَبَرَ » فيعنى أقبل، من قول العرب دَبَرَ فلان : إذا جاء من خلفى . قال أبو عمرو: وهى لغة قريش. وقال ٱبن عباس فى رواية عنه : الصواب : « أَدْبَرَ »، إنما يَدْبَرُ ظهرَ البعير . وٱختار أبو عُبيد: «إِذَا أَدْبَرَ»قال: لأنها أكثر موافقة للحروف التى تليه؛ ألا تراه يقول: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾، فكيف يكون أحدهما «إذ» والآخر «إذا» ، وليس فى القرآن قَسَم تعقبه « إذ » وإنما يتعقبه «إذا» . ومعنى « أَسْفَرَ » : ضاء . وقراءة العامة « أَسْفَرَ » بالألف . وقرأ ٱبن السَّمَيْقَع : « سَفَرَ » . وهما لغتان . يقال : سَفَر وجهُ فلان وأسفر: إذا أضاء. وفى الحديث: "أسفِروا بالفجر، فإنه أعظم للأجر" أى صلّوا صلاة الصبح مُسْفِرين، ويقال: طَوِّلوها إلى الإسفار، والإسفار: الإنارة. وأسفر وجهه حسنًا أى أشرق ، وسفرت المرأة كشفت عن وجهها فهى سافر . ويجوز أن يكون [من] سَفَر الظلامَ أى كنسه، كما يُسفَر البيت؛ أى يُكنَس؛ ومنه السَّفير: لما سقط من ورق الشجر وتحاتّ؛ يقال: إنما سمى سفيرا لأن الريح تَسفِره أى تكنُسه. والمِسْفَرة: المِكْنَسة.

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴾ جواب القسم ؛ أى إن هذه النار « لَإِحْدَى الْكُبَرِ » أى لإحدى الدواهى . وفى تفسير مقاتل « الْكُبَرِ » : اسم من أسماء النار . وروى عن ابن عباس « إِنَّهَا » أى إن تكذيبهم بمحمد صلى الله عليه وسلم « لَإِحْدَى الْكُبَرِ » أى لكبيرة من الكبائر . وقيل : أى إن قيام الساعة لإحدى الكُبَر . والكُبَر : هى العظائم من العقوبات ؛ قال الراجز :

يا بن المُعَلَّى نزلتْ إحدى الكُبَرْ * داهيـةُ الدهْرِ وصَمَّاءُ الغِيَرْ

وواحدة « الكُبَر » ، كُبرى مثل الصُّغْرى والصُّغَر ، والعُظْمى والعُظَم . وقرأ العامة « لَإِحْدَى » وهو اسم بنى ابتداء للتأنيث ، وليس مبنياً على المذكر ؛ نحو عُقْبَى وأخرى ، وألفه ألف قطع ، لا تذهب فى الوصل . وروى جرير بن حازم عن ابن كثير « إِنَّهَا لَحْدَى الْكُبَرِ » بحذف الهمزة . ﴿ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴾ يريد النار ؛ أى إن هذه النار الموصوفة « نَذِيراً لِلْبَشَرِ » فهو نصب على الحال من المضمر فى « إِنَّهَا » قاله الزجاج . وذُكِّر ؛ لأن معناه معنى العذاب ، أو أراد ذات إنذار على معنى النَّسب ؛ كقولهم : امرأة طالق وطاهر . وقال الخليل : النذير : مصدر كالنكير ، ولذلك يوصف به المؤنث . وقال الحسن : والله ما أنذر الخلائق بشىء أدهى منها . وقيل : المراد بالنذير محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أى قم نذيرًا للبشر ، أى خَوِّفْهم . ف « نَذِيرًا » حال من « قُمْ » فى أول السورة حين قال : « قُمْ فَأَنْذِرْ » قال أبو على الفارسى وابن زيد ، وروى عن ابن عباس وأنكره الفراء . ابن الأنبارى : وقال بعض المفسرين معناه « يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ نَذِيراً لِلْبَشَرِ » . وهذا قبيح ؛ لأن الكلام قد طال فيما بينهما . وقيل : هو من صفة الله تعالى . روى أبو معاوية الضرير : حدثنا إسمعيل بن سميع عن أبى رزين « نَذِيراً لِلْبَشَرِ » قال : يقول الله عز وجل : أنا لكم منها نذير فاتقوها . و « نَذِيراً » على هذا نصب على الحال ؛ أى « وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً » منذرًا بذلك البشر . وقيل : هو حال من « هو » فى قوله تعالى : « وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ » . وقيل : هو فى موضع المصدر ، كأنه قال : إنذارا للبشر . قال الفراء : يجوز أن يكون النذير بمعنى الإنذار ، أى أنذر إنذارًا ؛ فهو كقوله تعالى : « فَكَيْفَ كَانَ نَذِيرِ » أى إنذارى ؛ فعلى هذا يكون راجعًا إلى

Marfat.com

أول السورة ؛ أى « قُمْ فَأَنذِرْ » أى إنذارًا . وقيـل : هو منصوب بإضمار فعـل . وقرأ آبن أبى عَبْلة « نَذِيرٌ » بالرفع، على إضمار هو . وقيل : أى إن القرآن نذير للبشر، لما تضمنه من الوعد والوعيد .

قوله تعالى : ﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ اللام متعلقة بـ « نذيرًا »، أى نذيرًا لمن شاء منكم أن يتقدّم إلى الخير والطاعة، أو يتأخر إلى الشر والمعصية؛ نظيره : « وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ » أى فى الخير « وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ » عنه . قال الحسن : هذا وعيد وتهديد و إن خرج مخرج الخبر ؛ كقوله تعالى : « فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ » . وقال بعض أهل التأويل : معناه لمن شاء الله أن يتقدّم أو يتأخر؛ فالمشيئة متصلة بالله جل ثناؤه، والتقديم الإيمان، والتأخير الكفر. وكان آبن عباس يقول : هذا تهديد و إعلام أن من تقدم إلى الطاعة والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم جوزِىَ بثواب لا ينقطع ، ومن تأخر عن الطاعة وكذب محمدا صلى الله عليـه وسلم عوقب عقـابًا لا ينقطع . وقال السّدىّ : « لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ » إلى النار المتقدم ذكرها، « أَوْ يَتَأَخَّرَ » عنها إلى الجنة .

قوله تعـالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ أى مرتهنة بكسبها، مأخوذة بعملها، إما خلّصها و إما أو بقها . وليست « رَهِينَةٌ » تأنيث رهين فى قوله تعـالى : « كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ » لتأنيث النفس ؛ لأنه لو قُصدت الصفة لقيـل رهين ؛ لأن فعيلا بمعنى مفعول يستوى فيه المذكر والمؤنث . و إنمـا هو اسم بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم؛ كأنه قيل : كل نفس بمـا كسبت رهين ؛ ومنه بيت الحماسة :

أَبَعْدَ الذى بالنَّعْفِ نَعْفِ كُوَيْكَبٍ * رَهِينَـةُ رَمْسٍ ذِى تُرَابٍ وجَنْـدَلِ (1)

كأنه قال رَهْن رمس . والمعنى : كل نفس رهن بكسبها عند الله غير مفكوك ﴿ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴾ فإنهم لا يُرتهنون بذنوبهم . وآختلف فى تعيينهم ؛ فقال آبن عبـاس : الملائكة .

---

(1) النعف من الأرض : المكان المرتفع فى آعتراض . والبيت من قول عبد الرحمن بن زيد العذرى وقـد قتل أخوه وعرضت عليه الدية ، فأبى أن يأخذها ، وأخذ بثاره .

Marfat.com

على بن أبى طالب : أولاد المسلمين لم يكتسبوا فيُرتهنوا بكسبهم . الضحاك : الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، ونحوه عن آبن جريج ؛ قال : كل نفس بعملها محاسبة « إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ » وهم أهل الجنة، فإنهم لا يحاسبون. وكذا قال مقاتل أيضا : هم أصحاب الجنة الذين كانوا عن يمين آدم يوم الميثاق حين قال الله لهم : هؤلاء فى الجنة ولا أبالى . وقال الحسن وآبن كَيْسان : هم المسلمون المخلصون ليسوا بمرتهنين ؛ لأنهم أدّوا ما كان عليهم . وعن أبى ظبيان عن آبن عباس قال: هم المسلمون . وقيل : إلا أصحاب الحق وأهل الإيمان. وقيل : هم الذين يُعطَون كتبهم بأيمانهم . وقال أبو جعفر الباقر : نحن وشيعتنا أصحاب اليمين ، وكل من أبغضنا أهلَ البيت فهـم المرتهنون . وقال الحكم : هم الذين آختارهم الله لخدمته، فلم يدخلوا فى الرهن ، لأنهـم خدام الله وصفوته وكسبهم لم يضرهم . وقال القاسم : كل نفس مأخوذة بكسبها من خير أو شر، إلا من آعتمد على الفضل والرحمة، دون الكسب والخدمة، فكل من آعتمد على الكسب فهـو مرهون ، وكل من آعتمد على الفضل فهـو غير مأخوذ به .

﴿ فِي جَنَّـاتٍ ﴾ أى فى بساتين ﴿ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أى يسألون ﴿ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أى المشركين ﴿ مَا سَلَكَكُمْ ﴾ أى أدخلكم ﴿ فِي سَقَرَ ﴾ كما تقول : سلكت الخيط فى كذا أى أدخلته فيه . قال الكلبى : فيسأل الرجل من أهل الجنة الرجل من أهل النار باسمه، فيقول له : يافلان . وفى قراءة عبد الله بن الزبير « يا فلانُ ما سَلَكَكَ فِي سَقَرَ » ؟ وعنه قال : قرأ عمر بن الخطاب « يا فلانُ ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ » وهى قراءة على التفسير، لا أنها قرآن كما زعم من طعن فى القرآن ؛ قاله أبو بكر بن الأنبارى . وقيل : إن المؤمنين يسألون الملائكة عن أقربائهم، فتسأل الملائكة المشركين فيقولون لهم : « مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ » . قال الفراء : فى هذا ما يقوى أن أصحاب الْيَمِينِ الولدان، لأنهم لا يعرفون الذنوب . ﴿ قَالُوا ﴾ يعنى أهل النار ﴿ لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾ أى المؤمنين الذين يصلون . ﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴾ أى لم نك نتصدق . ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴾ أى كنا نخالط أهل الباطل فى باطلهم . وقال آبن زيد : نخوض مع الخائضين فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم، وهو قولهم — لعنهم الله — كاهن، مجنون، شاعر، ساحر.

Marfat.com

وقال السّدىّ : أى وكنا نكذّب مع المكذّبين . وقال قتادة : كلما غوى غاوٍ غوينا معه . وقيل معناه : وكنا أتباعا ولم نكن متبوعين . ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ أى لم نك نصدّق بيوم القيامة ، يوم الجزاء والحكم . قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ أى جاءنا ونزل بنا الموت ؛ ومنه قوله تعالى : « وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ »(١) .

قوله تعالى : ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ هذا دليل على صحة الشفاعة للذنبين ؛ وذلك أن قومًا من أهل التوحيد عذّبوا بذنوبهم ، ثم شُفِع فيهم ، فرحمهم الله بتوحيدهم والشفاعة ، فأخرجوا من النار ، وليس للكفار شفيع يشفع فيهم . وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : يشفع نبيكم صلى الله عليه وسلم رابع أربعة : جبريل ، ثم إبراهيم ، ثم موسى أو عيسى(٢) ، ثم نبيكم صلى الله عليه وسلم ، ثم الملائكة ، ثم النبيون ، ثم الصديقون ، ثم الشهداء ، ويبقى قوم فى جهنم ، فيقال لهم : « مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ، قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ » إلى قوله : « فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ » قال عبد الله بن مسعود : فهؤلاء هم الذين يبقون فى جهنم ؛ وقد ذكرنا إسناده فى كتاب « التذكرة » .

قوله تعالى : ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى : ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ أى فما لأهل مكة قد أعرضوا وولّوا عما جئتم به . وفى تفسير مقاتل : الإعراض عن القرآن من وجهين : أحدهما الجحود والإنكار ، والوجه الآخر ترك العمل بما فيه . و « مُعْرِضِينَ » نصب على الحال من الهاء والميم فى « لَهُمْ » وفى اللام معنى الفعل ؛ فانتصاب الحال على معنى الفعل . ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ أى كأن هؤلاء الكفار فى فرارهم من محمد صلى الله عليه وسلم ﴿حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ قال ابن عباس : أراد الحمر الوحشية .

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٦٤ .   (٢) فى ح ، ل : « وعيسى » .

Marfat.com

وقرأ نافع وٱبن عامر بفتح الفاء، أى مُنَفَّرة مذعورة؛ وٱختاره أبو عبيد وأبو حاتم . الباقون بالكسر، أى نافرة . يقال : نَفَرت وٱسْتَنفرت بمعنًى ؛ مثل عَجِبت وٱسْتَعجبت ، وسَخِرت وٱسْتَسخرت ، وأنشد الفراء :

أَمْسِكْ حِمَارَك إنّه مُسْتَنْفِرٌ * فى إِثْرِ أَحْمِـرَةٍ عَمَدْنَ لِغُرَّبِ (١)

قوله تعالى : (٢) ﴿ فَرَّتْ ﴾ أى نفرت وهربت ﴿ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ أى من رُماة يرمونها . وقال بعض أهل اللغة : إن القسورة الرامى، وجمعه القَسْورة . وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك وٱبن كَيْسان : القَسْورة : هم الرماة والصيادون، ورواه عطاء عن ٱبن عباس وأبو [ظَبيان] (٣) عن أبى موسى الأشعرى . وقيل : إنه الأسد ؛ قاله أبو هريرة وٱبن عباس أيضا . ٱبن عرفة : من القَسْر بمعنى القَهْر أى؛ إنه يقهر السباع ، والحمر الوحشية تهرب من السباع . وروى أبو جمرة عن ٱبن عباس قال : ما أعلم القسورةَ الأسَد فى لغة أحد من العرب، ولكنها عُصَب الرجال ؛ قال : فالقسورة جمع الرجال، وأنشد :

يا بنتُ كُونِى خَيْرَةً لِخَيِّرَه * أخوالُها الجنّ وأهلُ القَسْوَرَه

وعنه : رِكْزُ الناس أى حسّهم وأصواتهم . وعنه أيضا : « فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ » أى من حِبال الصيادين . وعنه أيضًا : القسورة بلسان العرب : الأسد، و بلسان الحبشة : الرماة، و بلسان فارس : شير، و بلسان النَّبَط : أريا . وقال ٱبن الأعرابى : القسورة : أوّلُ الليل ؛ أى فرت من ظلمة الليل . وقاله عِكرمة أيضا . وقيل : هو أوّل سواد الليل، ولا يقال لآخر سواد الليل قَسْورة . وقال زيد بن أسلم : من رجال أقوياء ، وكل شديد عند العرب فهو قسورة وقَسْور . وقال لبيد بن ربيعة :

إذا ما هَتَفْنا هَتفةً فى نَدِيِّنا * أتانا الرجالُ العائدون القَسَاوِر

---

(١) غرب (كسكر) : ٱسم موضع وجبل دون الشام فى بلاد بنى كلاب .

(٢) جملة « قوله تعالى » ، وكلمة « هربت » ساقطتان من ا ، ح .

(٣) فى الأصول : « أبو حيان » وهو تحريف . والتصحيح من تفسير الثعلبى « والتهذيب » .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً ﴾ أى يعطى كتباً مفتوحة ، وذلك أن أبا جهل وجماعة من قريش قالوا : يامحمد ! آيتنا بكتب من رب العالمين مكتوب فيها : إنى قد أرسلتُ إليكم محمدًا ، صلى الله عليه وسلم . نظيره : « وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ » . وقال ابن عباس : كانوا يقولون إن كان محمد صادقًا فليصبح عند كل رجل منا صحيفة فيها براءته وأمنه من النار . قال مطر الوراق : أرادوا أن يُعطَوا بغير عمل . وقال الكلبي : قال المشركون : بلغنا أن الرجل من بنى إسرائيل كان يصبح عند رأسه مكتوبًا ذنبه وكفارته ، فأتنا بمثل ذلك . وقال مجاهد : أرادوا أن ينزل على كل واحد منهم كتاب فيه من الله عز وجل : إلى فلان بن فلان . وقيل : المعنى أن يذكر بذكر جميل ، فجعلت الصحف موضع الذكر مجازًا . وقالوا : إذا كانت ذنوب الإنسان تكتب عليه فما بالنا لا نرى ذلك ؟ ﴿ كَلَّا ﴾ أى ليس يكون ذلك . وقيل : حقًّا . والأول أجود؛ لأنه رد لقولهم . ﴿ بَل لَا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ أى لا أعطيهم مايتمنون لأنهم لايخافون الآخرة، اغترارًا بالدنيا . وقرأ سعيد بن جبير « صُحْفًا مُنْشَرَةً » بسكون الحاء والنون، فأما تسكين الحاء فتخفيف ، وأما النون فشاذ . إنما يقال : نشرت الثوب وشبهه ولا يقال أنشرت . ويجوز أن يكون شبه الصحيفة بالميت كأنها ميتة بطيها ، فإذا نشرت حييت، فجاء على أنشر الله الميت كما شبه إحياء الميت بنشر الثوب، فقيل فيه نشر الله الميت، فهى لغة فيه .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴾ أى حقًّا إن القرآن عظة . ﴿ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ أى اتعظ به . ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ ﴾ أى وما يتعظون ﴿ إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللَّهُ ﴾ أى ليس يقدرون على الاتعاظ والتذكر إلا بمشيئة الله ذلك لهم . وقراءة العامة « يَذْكُرُونَ » بالياء واختاره أبو عبيد؛ لقوله تعالى : « كَلَّا بَل لَا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ » . وقرأ نافع و يعقوب بالتاء، واختاره أبو حاتم، لأنه أعم ، واتفقوا على تخفيفها . ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ فى الترمذى وسنن ابن ماجه عن

Marfat.com

أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال في هذه الآية: « هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ » قال: " قال الله تبارك وتعالى أنا أهل أن أتقى فمن آتقاني فلم يجعل معي إلهًا فأنا أهلٌ أن أغفر له" لفظ الترمذي، وقال فيه: حديث حسن غريب. وفي بعض التفسير: هو أهل المغفرة لمن تاب إليه من الذنوب الكبار، وأهل المغفرة أيضا للذنوب الصغار، باجتناب الذنوب الكبار. وقال محمد بن نصر: أنا أهلٌ أن يتقيني عبدي، فإن لم يفعل كنت أهلا أن أغفر له [وأرحمه، وأنا الغفور الرحيم[1]].

سورة القيامة

مكيّة، وهي تسع وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾

قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ قيل: إن « لا » صلة، وجاز وقوعها في أول السورة؛ لأن القرآن متصل بعضه ببعض، فهو في حكم كلام واحد؛ ولهذا قد يذكر الشيء في سورة ويجيء جوابه في سورة أخرى؛ كقوله تعالى: « وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ[2] » وجوابه في سورة أخرى: « مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ[3] » ومعنى الكلام: أقسم بيوم القيامة؛ قاله ابن عباس وابن جبير وأبو عبيدة؛ ومثله قول الشاعر:

تذكّرتُ ليلَى فاعترتني صَبابةٌ ... فكاد صميمُ القلبِ لا يتقطّعُ

(١) ما بين المربعين زيادة من ط. (٢) سورة الحجر ج ١٠ ص ٤. (٣) سورة القلم ج ١٨ ص ٢٥٣.

Marfat.com

وحكى أبو الليث السَّمرقندىّ : أجمع المفسرون أن معنى « لَآ أُقْسِمُ » : أقسم . وآختلفوا فى تفسير « لا » قال بعضهم : « لا » زيادة فى الكلام للزينة ، ويجرى فى كلام العرب زيادة « لا » كما قال فى آية أخرى : « قَالَ مَا مَنَعَكَ أَنْ لَا تَسْجُدَ » يعنى أن تسجد، وقال بعضهم : « لا » : ردٌّ لكلامهم حيث أنكروا البعث، فقال : ليس الأمر كما زعمتم .

قلت : وهـذا قول الفرّاء، قال الفـرّاء : وكثير من النحو يين يقولون « لا » صلة، ولا يجوز أن يُبدأ بجحد ثم يُجعل صلة ؛ لأن هـذا لو كان كذلك لم يعرف خبر فيه جحد من خبر لا جحد فيه، ولكن القرآن جاء بالرد على الذين أنكروا البعث والجنة والنار، فجاء الإقسام بالرّد عليهم [فى كثير من الكلام المبتدأ منه وغير المبتدإ][1] وذلك كقولهم لا والله لا أفعل ف« لا» ردٌّ لكلام قد مضى، وذلك كقولك : لا والله إن القيامة لحقّ، كأنك أكذبت قوماً أنكروه .

وأنشد غير الفرّاء لآمرئ القيس :

فلا وأبيـكِ آبنـــةَ العـامرِىِّ * لا يَدَّعِى القـــومُ أَنِّى أَفِـرّْ

وقال غُوَيّة بن سـلمى :

ألا نادتْ أمامةُ بآحـتمالِ * لِتحـزُنَنِى فـلا بِـكِ ما أبالِى

وفائدتها توكيد القسم فى الرّد . قال الفرّاء : وكان من لا يعرف هذه الجهة يقرأ « لَأُقسِمُ » بغير ألف ؛ كأنها لام تأكيد دخلت على أقسم، وهو صواب؛ لأن العرب تقول : لأقسم بالله وهى قراءة الحسن وآبن كثير والزهرىّ وآبن هُرمز (بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) أى بيوم يقوم الناس فيه لربّهم، ولله عز وجل أن يقسم بما شاء . (وَلَآ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) لا خلاف فى هذا بين القراء، وهو أنه أقسم سبحانه بيوم القيامة تعظيماً لشأنه [ولم يقسم بالنفس][2] . وعلى قراءة آبن كثير أقسم بالأولى ولم يقسم بالثانيـة . وقيـل : « وَلَآ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ » ردّ آخر وآبتداء قسم بالنفس اللوامة . قال الثعلبىّ : والصحيح أنه أقسم بهما جميعاً . ومعنى : « بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ » أى بنفس المؤمن الذى لا تراه إلا يلوم نفسه ، يقول : ما أردتُ بكذا ؟ فلا تراه

(١) الزيادة من تفسير الفراء . (٢) الزيادة من تفسير آبن عطية وغيره .

Marfat.com

إلا وهو يعاتب نفسه ؛ قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم . قال الحسن : هي والله نفس المؤمن ، ما يُرَى المؤمن إلا يلوم نفسه : ما أردتُ بكلامي ؟ ما أردتُ بأكلي ؟ ما أردتَ بحديث نفسي ؟ والفاجر لا يحاسب نفسه . وقال مجاهد : هي التي تلوم على مافات وتندم ، فتلوم نفسها على الشر لِمَ فعلته ، وعلى الخير لِمَ لا تستكثر منه . وقيل : إنها ذات اللوم . وقيل : إنها تلوم نفسها بما تلوم عليه غيرها ؛ فعلى هذه الوجوه تكون اللوّامة بمعنى اللائمة ، وهو صفة مدح ؛ وعلى هذا يجيء القسم بها سائغًا حسنًا . وفي بعض التفسير : إنه آدم عليه السلام لم يزل لائمًا لنفسه على معصيته التي أُخرج بها من الجنة . وقيل : اللوّامة بمعنى المَلُومة المذمومة — عن ابن عباس أيضا — فهي صفة ذم وهو قول من نفى أن يكون قسمًا ؛ إذ ليس للعاصي خَطَر يُقْسَم به ، فهي كثيرة اللوم . وقال مقاتل : هي نفس الكافر يلوم نفسه ، و يتحسّر في الآخرة على ما فرّط في جنب الله . وقال الفراء : ليس من نفس محسنة أو مسيئة إلا وهي تلوم نفسها ؛ فالمحسن يلوم نفسه أن لو كان ازداد إحسانًا ، والمسيء يلوم نفسه ألا يكون ارعوى عن إساءته .

قوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ فنعيدها خلقًا جديدًا بعد أن صارت رُفاتًا . قال الزجاج : أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوّامة : ليجمعن العظام للبعث ، فهذا جواب القسم . وقال النحاس : جواب القسم محذوف أي لتبعثنّ ؛ ودلّ عليه قوله تعالى : « أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ » للإحياء والبعث . والإنسان هنا الكافر المكذّب للبعث . الآية نزلت في عديّ بن ربيعة قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : حدّثني عن يوم القيامة متى تكون ، وكيف أمرها وحالها ؟ فأخبره النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك ؛ فقال : لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد ولم أومن به ، أو يجمع الله العظام ؟ ! ولهذا كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " اللهمّ اكفني جارَيِ السَّوء عديّ بن ربيعة ، والأخنس بن شَرِيق ". وقيل : نزلت في عدوّ الله أبي جهل حين أنكر البعث بعد الموت . وذكر العظام والمراد نفسه كلها ؛ لأن العظام قالَب الخلق . ﴿ بَلَىٰ ﴾ وقف حسن ثم تبتدئ ﴿ قَادِرِينَ ﴾ . قال سيبويه : على معنى نجمعها قادرين ، فـ« قادرين » حال من الفاعل المضمر في الفعل المحذوف على ما ذكرناه

من التقدير . وقيل : المعنى بلى نقدر قادرين . قال الفراء : « قَادِرِينَ » نصب على الخروج من « نَجْمَع » أى نقدر ونقوى « قَادِرِينَ » على أكثر من ذلك . وقال أيضا : يصلح نصبه على التكرير أى « بَلَى » فليحسبنا قادرين . وقيل : المضمر (كنا) أى كنا قادرين فى الابتداء، وقد اعترف به المشركون . وقرأ ابن أبى عبلة وابن السَّمَيْقَع « بَلَى قَادِرُونَ » بتأويل نحن قادرون . ﴿ عَلَى أَنْ نُسَوِّىَ بَنَانَهُ ﴾ البنان عند العرب: الأصابع، واحدها بنانة؛ قال النابغة :

بِمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كأنَّ بَنَانَهُ * عَنَمٌ يكادُ من اللَّطَافةِ يُعْقَدُ[1]

وقال عنترة :

وأنَّ الموتَ طَوْعَ يدى إذا ما * وَصَلْتَ بَنَانَهَا بِالهِنْدُوانِى

فنبه بالبنان على بقية الأعضاء. وأيضا فإنها أصغر العظام، فخصها بالذكر لذلك. قال القتبى والزجاج: وزعموا أن الله لا يبعث الموتى ولا يقدر على جمع العظام؛ فقال الله تعالى: بلى قادرين على أن نعيد السُّلامَيَات على صغرها، ونؤلف بينها حتى تستوى ، ومن قدر على هذا فهو على جمع الكبار أقدر . وقال ابن عباس وعامة المفسرين : المعنى « عَلَى أَنْ نُسَوِّىَ بَنَانَهُ » أى نجعل أصابع يديه ورجليه شيئا واحدا كخف البعير، أو كحافر الحمار، أو كظلف الخنزير، ولا يمكنه أن يعمل به شيئا ، ولكنا فرقنا أصابعه حتى يأخذ بها ما شاء . وكان الحسن يقول: جعل لك أصابع فأنت تبسطهن، وتقبضهن بهن، ولو شاء الله لجمعهن فلم تتق الأرض إلا بكفيك . وقيل : أى نقدر أن نعيد الإنسان فى هيئة البهائم، فكيف فى صورته التى كان عليها ؛ وهو كقوله تعالى : « وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ . عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ » .

قلت : والتأويل الأول أشبه بمساق الآية . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ قال ابن عباس : يعنى الكافر يكذب بما أمامه من البعث والحساب . وقاله عبد الرحمن بن زيد؛ ودليله : ﴿ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴾

(١) رواية الشطر الأخير كما فى اللسان : * عنم على أغصانه لم يعقد *
والعنم : شجر لين الأغصان لطيفها، يشبه به البنان .

Marfat.com

أى يسأل متى يكون ! على وجه الإنكار والتكذيب . فهو لا يقنع بما هو فيه من التكذيب، ولكن يأثم لما بين يديه. ومما يدل على أن الفجور التكذيب ماذكره القُتَبي وغيره: أن أعرابيًّا قصد عمر بن الخطاب رضى الله عنه وشكا إليه نَقَب إبله(١) ودَبَرها ، وسأله أن يحمله على غيرها فلم يحمله ؛ فقال الأعرابي :

أقسمَ باللهِ أبو حفصٍ عُمَرْ * ما مَسَّها مِن نَقَبٍ ولا دَبَرْ
* فاغفر له اللهمّ إنْ كان فَجَرْ *

يعنى إن كان كذّبنى فيما ذكرت . وعن ابن عباس أيضا : يعجّل المعصية ويسوّف التوبة . وفى بعض الحديث قال : يقول سوف أتوب ولا يتوب ؛ فهو قد أخلف فكذب . وهذا قول مجاهد والحسن وعكرمة والسّدى وسعيد بن جبير، يقول: سوف أتوب، سوف أتوب، حتى يأتيه الموت على أشرّ أحواله . وقال الضحاك : هو الأمل يقول سوف أعيش وأصيب من الدنيا ولا يذكر الموت . وقيل : أى يعزم على المعصية أبدًا وإن كان لا يعيش إلا مدة قليلة . فالهاء على هذه الأقوال للإنسان . وقيل : الهاء ليوم القيامة . والمعنى بل يريد الإنسان ليكفر بالحق بين يدى يوم القيامة. والفجور أصله الميل عن الحق. « يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ » أى متى يوم القيامة .

قوله تعالى : فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى :﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴾ قرأ نافع وأبان عن عاصم «بَرَق» بفتح الراء، معناه: لمع بصره من شدّة شخوصه، فتراه لا يَطرِف . قال مجاهد وغيره: هذا عند الموت. وقال الحسن:

(١) النقب : قرحة تخرج فى الجنب . والجرب والدَّبر : قرحة الدابة والبعير .

Marfat.com

هذا يوم القيامة . وقال فيه معنى الجواب عما سأل عنه الإنسان كأنه يوم القيامة « إِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ . وَخَسَفَ الْقَمَرُ » . والباقون بالكسر « بَرِقَ » ومعناه : تحيّر فلم يطرف ؛ قاله أبو عمرو والزجاج وغيرهما . قال ذو الرمة :

ولو أنّ لُقْمانَ الحكيمَ تَعَرّضتْ * لِعينيه مَيٌّ سافراً كاد يَبْرَقُ

الفرّاء والخليل : « بَرِقَ » بالكسر : فَزِع وبُهِت وتحيّر(١) . والعرب تقول للإنسان المتحيّر المبهوت : قد بَرِق فهو بَرِقٌ ؛ وأنشد الفرّاء :

فنفسَكَ فَانْعَ ولا تَنْعَنِي * وداوِ الكُلُومَ ولا تَبْرَقِ(٢)

أي لا تَفزَع من كثرة الكُلوم التي بك . وقيل : بَرَق يَبرُق بالفتح : شقّ عينيه وفتحهما . قاله أبو عبيدة ؛ وأنشد قول الكلابيّ :

لما أتاني ابنُ عُمَيرٍ راغباً * أعطيتُه عِيساً صِهاباً فَبَرَقْ(٣)

أي فتح عينيه . وقيل : إن كسر الراء وفتحها لغتان بمعنى .

قوله تعالى : ﴿ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴾ أي ذهب ضوءه . والخسوف في الدنيا إلى انجلاء، بخلاف الآخرة، فإنه لا يعود ضوءه . ويحتمل أن يكون بمعنى غاب ؛ ومنه قوله تعالى : « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ » وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى والأعرج : « وَخُسِفَ الْقَمَرُ » بضم الخاء وكسر السين يدل عليه « وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ » . وقال أبو حاتم محمد بن إدريس : إذا ذهب بعضه فهو الكسوف، وإذا ذهب كله فهو الخسوف . ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ أي جمع بينهما في ذهاب ضوئهما، فلا ضوء للشمس كما لا ضوء للقمر بعد خسوفه ؛ قاله الفراء والزجاج . قال الفراء : ولم يقل جمعت ؛ لأن المعنى جمع بينهما . وقال أبو عبيدة : هو على تغليب المذكر . وقال الكسائيّ : هو محمول على المعنى، كأنه قال الضوءان . المبرد : التأنيث

---

(١) كلمة « تحير » ساقطة من الأصل المطبوع . (٢) قائله : طرفة .

(٣) في غير القرطبي : لما أتاني ابن صبيح . والعيس الصهاب هي الإبل التي خالط بياضها حمرة، وهي تعد عند العرب من أشرفها .

Marfat.com

غير حقيق . وقال ابن عباس وابن مسعود : جمع بينهما أى قرن بينهما فى طلوعهما من المغرب أسودين مُكوَّرين مظلمين مُقرَنَين كأنهما ثوران عَقيران . وقد مضى الحديث بهذا المعنى فى آخر سورة « الأنعام »(1) . وفى قراءة عبد الله « وَجُمِعَ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ » وقال عطاء ابن يسار : يجمع بينهما يوم القيامة ثم يقذفان فى البحر، فيكونان نار الله الكبرى . وقال على وابن عباس : يجعلان فى [نور](2) الحجب . وقد يجمعان فى نار جهنم ؛ لأنهما قد عبدا من دون الله ولا تكون النار عذاباً لهما لأنهما جماد ، وإنما يفعل ذلك بهما زيادة فى تبكيت الكافرين وحسرتهم . وفى مسند أبى داود الطيالسىّ ، عن يزيد الرقاشىّ ، عن أنس بن مالك يرفعه إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الشمس والقمر ثوران عَقيران فى النار " وقيل : هذا الجمع أنهما يجتمعان ولا يفترقان ، ويقربان من الناس ، فيلحقهم العرق لشدّة الحر ؛ فكأن المعنى يجمع حرهما عليهم . وقيل : يجمع الشمس والقمر ، فلا يكون ثَمّ تعاقب ليل ولا نهار .

قوله تعالى : ﴿ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾ ؟ أى يقول ابن آدم ، ويقال : أبو جهل ؛ أى أين المهرب ؟ قال الشاعر :

أين المفرُّ والكِباشُ تَنتطِحْ ＊ وأىُّ كَبْشٍ حاد عنها يَفْتَضِحْ

الماوردىّ : ويحتمل وجهين : أحدهما « أَيْنَ الْمَفَرُّ » من الله استحياء منه . الثانى « أَيْنَ الْمَفَرُّ » من جهنم حذرًا منها . ويحتمل هذا القول من الإنسان وجهين : أحدهما — أن يكون من الكافر خاصة فى عَرْضة القيامة دون المؤمن ؛ لثقة المؤمن ببشرى ربه . الثانى — أن يكون من قول المؤمن والكافر عند قيام الساعة لهول ما شاهدوا منها . وقراءة العامة « الْمَفَرُّ » بفتح الفاء واختاره أبو عبيدة وأبو حاتم ؛ لأنه مصدر . وقرأ ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة بكسر الفاء مع فتح الميم ؛ قال الكسائى : هما لغتان مثل مَدَبّ ومَدِبّ ، ومَصَحّ ومَصِحّ . وعن الزهرىّ بكسر الميم وفتح الفاء . المهدوىّ : من فتح الميم والفاء من « المفر » فهو مصدر

(1) راجع جـ ٧ ص ١٤٦ .　　(2) الزيادة من كتب التفسير .

Marfat.com

بمعنى الفرار، ومن فتح الميم وكسر الفاء فهو الموضع الذى يفرّ إليه . ومن كسر الميم وفتح الفاء فهو الإنسان الجيّد الفرار ؛ فالمعنى أين الإنسان الجيّد الفرار ولن ينجو مع ذلك .

قلت : ومنه قول آمرئ القيس :

* مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معًا (١) *

يريد أنه حسن الكرّ والفرّ جيّده . ﴿ كَلَّا ﴾ أى لا مفرّ فـ « كَلَّا » ردٌّ وهو من قول الله تعالى، ثم فسر هذا الردّ فقال : ﴿ لَا وَزَرَ ﴾ أى لا ملجأ من النار. وكان آبن مسعود يقول : لا حِصن. وكان الحسن يقول : لا جبل . وآبن عباس يقول : لا ملجأ . وآبن جُبير: لا محيص ولا منعة . المعنى فى ذلك كله واحد . والوَزَر فى اللغـة : ما يلجأ إليـه من حِصن أو جبل أو غيرهما ؛ قال الشاعر :

لَعَمْرِىَ ما لِلفتى مِن وَزَرْ * مِنَ الموتِ يُدْرِكُه والـكِبَرْ

قال السـدىّ : كانوا فى الدنيـا إذا فـزِعوا تحصّنوا فى الجبال ، فقـال الله لهم : لَا وَزَرَ يعصمكم يومئذ منّى ؛ قال طرفة :

ولَقَـدْ تَعْـلَمُ بَكْرٌ أَنَّنـا * فاضِلُو الرَّأْيِ وفي الرَّوْعِ وَزَرْ

أى ملجأ للخائف . ويروى : وَقَرْ . ﴿ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ أى المنتهى؛ قاله قتادة . نظيره : « وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى » . وقال آبن مسعود : إلى ربك المصير والمرجع . قيل: أى المستقرّ فى الآخرة حيث يقرّه الله تعالى؛ إذ هو الحاكم بينهم . وقيل : إن « كَلَّا » من قول الإنسان لنفسه إذا علم أنه ليس له مفرّ قال لنفسه : « كَلَّا لَا وَزَرَ. إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ » .

قوله تعـالى : ﴿ يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ ﴾ أى يخبر آبن آدم برًّا كان أو فاجرًا ﴿ بِمَـا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾: أى بما أسلف من عمل سيّئ أو صالح ، أو أخّر من سنّة سيّئة أو صالحة يُعْمَل بها بعده؛ قاله آبن عباس وآبن مسعود . وروى منصور عن مجاهـد قال : ينبأ بأوّل عمـله وآخره . وقاله النخعىّ . وقال آبن عباس أيضا : أى بما قدّم من المعصية، وأخّر من الطاعة . وهو قول قتادة.

---

(١) تمـام البيت : * كجلمود صخر حطه السيل من عل *

Marfat.com

وقال ابن زيد : « بِمَا قَدَّمَ » من أمواله لنفسه « وَأَخَّرَ » : خلّف للورثة . وقال الضحاك : ينبأ بما قدّم من فرض، وأخّر من فرض . قال القشيري : وهذا الإنباء يكون في القيامة عند وزن الأعمال . ويجوز أن يكون عند الموت .

قلت : والأول أظهر ؛ لما خرجه ابن ماجه في سننه من حديث الزهري، حدثني أبو عبد الله الأغر عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن مما يَلْحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته عِلماً علّمه ونَشَره، وولداً صالحاً تركه ، أو مصحفاً ورّثه أو مسجداً بناه، أو بيتاً لابن السبيل بناه، أو نهراً أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته " وخرجه أبو نعيم الحافظ بمعناه من حديث قتادة عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سبع يجرى أجرهنّ للعبد بعد موته وهو في قبره : من علّم علماً أو أجرى نهراً أو حفر بئراً أو غرس نخلاً أو بنى مسجداً أو ورّث مصحفاً أو ترك ولداً يستغفر له بعد موته " فقوله : " بعد موته وهو في قبره " نصّ على أن ذلك لا يكون عند الموت ، وإنما يخبر بجميع ذلك عند وزن عمله ، وإن كان يبشّر بذلك في قبره . ودل على هذا أيضا قوله الحق : « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ »[1] وقوله تعالى : « وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ »[2] وهذا لا يكون إلا في الآخرة بعد وزن الأعمال . والله أعلم .

وفي الصحيح : " من سنّ في الإسلام سنّةً حسنةً كان له أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن يُنْقَص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئةً كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء " .

قوله تعالى : ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ قال الأخفش : جعله هو البصيرة ، كما تقول للرجل أنت حجة على نفسك. وقال ابن عباس : « بَصِيرَةٌ » أي شاهد، وهو شهود جوارحه

(١) راجع جـ ١٣ ص ٣٣٠ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٩٦ .

Marfat.com

عليه : يداه بما بطش بهما ، ورجلاه بما مشى عليهما ، وعيناه بما أبصر بهما . والبصيرة : الشاهد . وأنشد الفرّاء :

كأنّ على ذى العقلِ عَيْنًا بصيرةً * بِمَقْعَـدِه أو مَنْظَـرٍ هو ناظِرُهُ
يُحاذِرُ حتى يَحسبَ الناسَ كلَّهمْ * من الخوفِ لا تَخْفَى عليهم سَرائِرُهُ

ودليل هـذا التأويل من التنزيل قوله تعـالى : « يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَـا كَانُوا يَعْمَلُونَ »(١) . وجاء تأنيث البصيرة لأن المراد بالإنسان هاهنا الجوارح، لأنها شاهدة على نفس الإنسان ؛ فكأنه قال : بل الجوارح على نفس الإنسان بصيرة ؛ قال معناه القتبيّ وغيره . وناس يقولون : هذه الهاء فى قوله : « بَصِيرَةٌ » هى التى يسمّيها أهل الإعراب هاء المبالغة ، كالهاء فى قولهم : داهية وعلّامة وراوية . وهو قول أبى عُبيد . وقيل المراد بالبصيرة الكاتبان اللذان يكتبان ما يكون منـه من خير أو شرّ ؛ يدلّ عليه قوله تعالى : « وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ » فيمن جعل المعاذير السُّتور . وهو قول السّدىّ والضحاك . وقال بعض أهل التفسير: المعنى بل على الإنسان من نفسه بصيرة ؛ أى شاهد فحـذف حرف الجر . ويجوز أن يكون « بصيرة » نعتًا لاسم مؤنث فيكون تقديره : بل الإنسان على نفسه عين بصيرة ؛ وأنشد الفراء:

* كأنّ على ذى العقلِ عينًا بصيرةً *

وقال الحسن فى قوله تعـالى : « بَلِ الْإِنسَـانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ » يعنى بصير بعيوب غيره ، جاهل بعيوب نفسه . ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ أى ولو أرخى سُتوره . والسِّتر بلغة أهل اليمن : مِعذار ؛ قاله الضحاك . وقال الشاعر :

ولكنها ضَنَّتْ بِمَنْزِلِ سـاعةٍ * علينا وأَطَّتْ فوقَهـا بالمَعَـاذِرِ

قال الزجاج : المعاذر : السُّتور ، والواحد مِعـذار ؛ أى وإن أرخى سـتره ؛ يريد أن يخفى عمله ، فنفسه شاهدة عليه . وقيل : أى ولو اعتذر فقال لم أفعل شيئًا ، لكان عليه من نفسه من يشهد عليه من جوارحه ؛ فهو وإن اعتـذر وجادل عن نفسه ، فعليه شاهد يكذّب

(١) راجع جـ ١٢ ص ٢١٠ .

Marfat.com

عذره ؛ قاله مجاهد وقتادة وسعيد بن جُبير وعبد الرحمن بن زيد وأبو العالية وعطاء والفراء والسّدي أيضا ومقاتل . قال مقاتل : أي لو أدلى بعذر أو حجة لم ينفعه ذلك . نظيره قوله تعالى : « يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ » وقوله : « وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » فالمعاذير على هذا : مأخوذ من العذر ؛ قال الشاعر :

وإيّاكَ والأمرَ الذى إنْ تَوسّعتْ * مَوارِدُهُ ضاقتْ عليكَ المصادِرُ
فما حَسَنٌ أن يَعْذِرَ المرءُ نفسَهُ * وليس له مِن سائرِ الناسِ عاذر

وٱعتذر رجل إلى إبراهيم النَّخَعيّ فقال له : قد عذرتك غير مُعتذِر ، إن المعاذير يشوبها الكذب . وقال ٱبن عباس : « وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ » أي لو تجرد من ثيابه . حكاه الماوردي .

قلت : والأظهر أنه الإدلاء بالحجة والاعتذار من الذنب ؛ ومنه قول النابغة :

ها إنّ ذِى عِذْرةٌ إلّا تكنْ نفعتْ * فإنّ صاحِبَها مُشارِكُ النَّكَدِ

والدليل على هذا قوله تعالى في الكفار : « وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ »(١) ، وقوله تعالى في المنافقين : « يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ »(٢) . وفي الصحيح أنه يقول : " يارَبِّ آمنتُ بك وبكتابك وبرسولك، وصليت وصمتُ وتصدّقتُ، ويُثني بخير ما ٱستطاع " الحديث . وقد تقدم في « حم السجدة »(٣) وغيرها . والمعاذير والمعاذر : جمع مَعْذِرة ؛ ويقال : عَذَرته فيما صنع أعذِره عُذْرًا وعُذُرًا ، والاسم المَعْذِرة والعُذْرى ؛ قال الشاعر(٤) :

* أنّي حُدِدْتُ ولا عُذْرَى لِمَحْدُودِ *

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٠١ (٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٨٩ .

(٣) راجع جـ ١٥ ص ٣٥٤ ففيه معنى ما أشار إليه القرطبي وأما الحديث فقد أورده في سورة الأنعام جـ ٦ ص ٤٠٢

(٤) قائله الجموح الظفري . وقيل : هو راشد بن عبد ربه . وعذرى مقصور . وفي اللسان : صواب إنشاده ؛ لولا حددت . على إرادة أن تقديره : لولا أن حددت لأن لولا التي معناها امتناع الشيء لوجود غيره هي مخصوصة بالأسماء. وقد تقع بعدها الأفعال على تقدير أن .

Marfat.com

وكذلك العِذْرة وهى مثل الرِّكْبَة والجِلْسَة ؛ قال النابغة :

ها إنّ تاعِذْرَةٌ إلا تكُنْ نفعتْ * فإنّ صاحِبَها قَـدْ تاه فى البَـلَدِ (١)

وتضمّنت هذه الآية خمس مسائل :

الأولى ـــ قال القاضى أبو بكر بن العربى قوله تعالى : « بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ » : فيها دليل على قبول إقرار المرء على نفسه ؛ لأنها بشهادة منه عليها ؛ قال الله سبحانه وتعالى : « يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ولا خلاف فيه ؛ لأنه إخبار على وجه تنتفى التهمة عنه ؛ لأن العاقل لا يكذب على نفسه ، وهى المسألة :

الثانيــة ـــ وقد قال سبحانه فى كتابه الكريم : « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٢) » ثم قال تعالى : « وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا (٣) » وهو فى الآثار كثير ؛ قال النبى صلى الله عليه وسلم : " اغْدُ يا أُنَيْس على امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها " . فأما إقرار الغير على الغير بوارث أودين فقال مالك : الأمر المجتمع عليه عندنا فى الرجل يهلك وله بنون ، فيقول أحدهم : إن أبى قد أقرّ أن فلانًا ابنه ، أن ذلك النسب لا يثبت بشهادة إنسان واحد ، ولا يجوز إقرار الذى أقرّ إلا على نفسه فى حصته من مال أبيه ، يعطى الذى شهد له قدر الدين (٤) الذى يصيبه من المال الذى فى يده . قال مالك : وتفسير ذلك أن يهلك الرجل و يترك ابنين و يترك ستمائة دينار ، ثم يشهد أحدهما بأن أباه الهالك أقر أن فلانًا ابنه ، فيكون على الذى شهد للذى استحق مائة دينار ، وذلك نصف ميراث المستلحَق لو لحق ، و إن أقرّ له الآخر أخذ المائة الأخرى فاستكمل حقه وثبت نسبه . وهو أيضا بمنزلة المرأة تقر بالدين على أبيها أو على زوجها

(١) تقدّم البيت برواية : ها إن ذى ـــ مشارك الكد . وهما روايتان . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٢٤ .

(٣) راجع جـ ٨ ص ٢٤٠ . (٤) كلمة « الدين » ساقطة من ز ، ط ، ل ، المتطوع .

Marfat.com

وينكر ذلك الورثة ، فعليها أن تدفع إلى الذى أقرت له قدر الذى يصيبها من ذلك الدين لو ثبت على الورثة كلهم ، إن كانت امرأة فورثت الثُّمن دفعت إلى الغريم ثمن دينه ، وإن كانت ابنة ورثت النصف دفعت إلى الغريم نصف دينه ، على حساب هذا يدفع إليه من أقر له من النساء .

الثالثة — لا يصح الإقرار إلا من مكلَّف ، لكن بشرط ألا يكون محجورًا عليه ؛ لأن الحجر يسقط قوله إن كان لحقّ نفسه ، فإن كان لحقّ غيره كالمريض كان منه ساقط ، ومنه جائز . وبيانه فى مسائل الفقه . وللعبد حالتان فى الإقرار : إحداهما فى ابتدائه ، ولا خلاف فيه على الوجه المتقدم . والثانية فى انتهائه ، وذلك مثل إبهام الإقرار ، وله صور كثيرة وأمهاتها ستّ : الصورة الأولى — أن يقول له عندى شىء ، قال الشافعى : لو فسّره بتمرة أو كِسرة قُبل منه . والذى تقتضيه أصولنا أنه لا يقبل إلا فيما له قَدر ، فإذا فسره به قُبل منه وحلف عليه . الصورة الثانية — أن يفسِّر هذا بخمر أو خنزير أو ما لا يكون مالًا فى الشريعة : لم يُقبل باتفاق ولو ساعده عليه المقرّ له . الصورة الثالثة — أن يفسّره بمختلَف فيه مثل جلد الميتة أو سِرْقين أو كلب ، [فإن الحاكم يحكم عليه فى ذلك بما يراه من ردّ و إمضاء][(1)] فإن ردّه لم يحكم عليه حاكم آخر غيره بشىء ، لأن الحكم قد نفذ بإبطاله . وقال بعض أصحاب الشافعى : يلزم الخمر والخنزير ، وهو قول باطل . وقال أبو حنيفة : إذا قال له علىّ شىءٌ لم يقبل تفسيره إلا بمَكيل أو موزون ، لأنه لا يثبت فى الذمة بنفسه إلا هما . وهذا ضعيف ؛ فإن غيرهما يثبت فى الذمة إذا وجب ذلك إجماعًا . الصورة الرابعة — إذا قال له : عندى مالٌ قُبل تفسيره بما لا يكون مالًا فى العادة كالدرهم والدرهمين ، ما لم يجئ من قرينة الحال ما يحكم عليه بأكثر منه . الصورة الخامسة — أن يقول له : عندى مال كثير أو عظيم ؛ فقال الشافعىّ : يُقبل فى الحبّة . وقال أبو حنيفة : لا يُقبل إلا فى نصاب الزكاة . وقال علماؤنا فى ذلك أقوالًا مختلفة ، منها نصاب السرقة والزكاة والديّة وأقله عندى نصاب السّرقة ،

(1) ما بين المربعين ساقط من الأصل المطبوع .

Marfat.com

لأنه لا يُبان عضوُ المسلم إلا في مال عظيم . وبه قال أكثر الحنفية . ومن يعجب فيتعجّب لقول الليث بن سعد : إنه لا يُقبل في أقل من آثنين وسبعين درهما . فقيل له : ومن أين تقول ذلك ؟ قال : لأن الله تعالى قال : « لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ »[(١)] وغزواته وسراياه كانت آثنتين وسبعين . وهذا لا يصح ؛ لأنه أخرج حُنَينا منها، وكان حقه أن يقول يقبل في أحد وسبعين ، وقد قال الله تعالى : « آذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا »، وقال: « لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ »، وقال: « وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا » . الصورة السادسة — إذا قال له : عندى عشرة أو مائة أو ألف ، فإنه يُفسّرها بمـا شاء ويُقْبل منه ، فإن قال ألف درهم أو مائة وعبد أو مائة وخمسون درهمًا فإنه يُفسِّر المبهم ويُقبل منه . وبه قال الشافعيّ . وقال أبو حنيفة : إن عطف على العدد المبهم مكيلا أو موزونا كان تفسيرًا ؛ كقوله : مائة وخمسون درهمًا ؛ لأن الدرهم تفسير للخمسين ، والخمسين تفسير للمـائة . وقال آبن خيران الإصطخرى من أصحاب الشافعيّ : الدرهم لا يكون تفسيرًا في المـائة والخمسين إلا للخمسين خاصة ويُفسِّر هو المـائة بمـا شاء .

المسألة الرابعـة — قوله تعالى : « وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ » ومعناه لو آعتذر بعد الإقرار لم يُقبل منه . وقد آختلف العلماء فيمن رجع بعد ما أقرّ في الحدود التي هي خالص حقّ الله ؛ فقال أكثرهم منهم الشافعيّ وأبو حنيفة : يقبل رجوعه بعد الإقرار . وقال به مالك في أحد قوليه ، وقال في القول الآخر : لا يُقبل إلا أن يذكر لرجوعه وجهًا صحيحًا . والصحيح جواز الرجوع مطلقًا ؛ لمـا روى الأئمة منهم البخارى ومسلم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم رد المقرّ بالزنى مرارًا أربعا كل مرّة يُعرِض عنه ، ولمـا شهد على نفسه أربع مرات دعاه النبيّ صلى الله عليه وسلم وقال : " أبكَ جنون " قال : لا . قال : " أُحْصِنتَ " قال : نعم . وفي حديث البخاريّ : " لعـلّكَ قَبلت أو غمزت أو نظرتَ " . وفي النّسائيّ وأبي داود : حتى قال له في الخامسة " أجامعتَها "[(٢)] قال : نعم . قال : " حتى غاب ذلك منك في ذلك منها " قال : نعم . قال : " كما يغيب المِرود في المُكْحُلَة والرِّشاء في البئر " . قال : نعم. ثم قال : " هل تدرى ما الزنى " قال : نعم ، أتيت منها حرامًا مثل ما يأتي الرجل من أهله حلالًا . قال : " فما تريد منى "؟

(١) جملة « ويوم حنين » ساقطة من ز ، ط والمطبوع . (٢) اللفظ في رواية لأبي داود .

Marfat.com

قال : أريد أن تطهرني . قال : فأمر به فرُجم . قال الترمذي وأبو داود : فلما وجد مسّ الحجارة فرّ يشتد(١)، فضربه رجل بلَحْي جمل، وضربه الناس حتى مات . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " هلّا تركتموه " وقال أبو داود والنسائي : ليتثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما لترك حدّ فلا . وهذا كله طريق للرجوع وتصريح بقبوله . وفي قوله عليه السلام : " لعلك قبّلت أو غمزت " إشارة إلى قول مالك : إنه يقبل رجوعه إذا ذكر وجهًا .

الخامسة — وهذا في الحر المالك لأمر نفسه؛ فأما العبد فإن إقراره لا يخلو من أحد قسمين : إما أن يقر على بدنه، أو على ما في يده وذمته؛ فإن أقر على ما في بدنه فيما فيه عقوبة من القتل فما دونه نفذ ذلك عليه . وقال محمد بن الحسن : لا يقبل ذلك منه؛ لأن بدنه مستغرق لحق السيد، وفي إقراره إتلاف حقوق السيد في بدنه؛ ودليلنا قوله صلى الله عليه وسلم : "من أصاب من هذه القاذورات شيئًا فليستتر بستر الله، فإن من يُبْد لنا صفحته نُقِم عليه الحدّ". المعنى : أن محل العقوبة أصل الخلقة، وهي [الدمية](٢) في الآدمية، ولا حق للسيد فيها، وإنما حقه في الوصف والتبع، وهي المالية الطارئة عليه؛ ألا ترى أنه لو أقر بمال لم يقبل، حتى قال أبو حنيفة : إنه لو قال سرقت هذه السلعة أنه لم تقطع يده ويأخذها المقر له . وقال علماؤنا : السلعة للسيد ويُتبَع العبدُ بقيمتها إذا عتق؛ لأن مال العبد للسيد إجماعًا، فلا يُقبل قوله فيه ولا إقراره عليه، لا سيما وأبو حنيفة يقول : إن العبد لا ملك له . ولا يصح أن يملك ولا يملك، ونحن وإن قلنا إنه يصح تملكه، ولكن جميع ما في يده لسيده بإجماع على القولين . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٢١﴾

(١) يشتد : يعدو .
(٢) التصحيح من ابن العربي . وفي الأصول « الذمة » .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ لَا تُحَـرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ فى الترمذى : عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه القرآن يحرك به لسانه ، يريد أن يحفظه ، فأنزل الله تبارك وتعالى : « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ » قال : فكان يحرك به شفتيه . وحرك سفيان شفتيه . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . ولفظ مسلم عن ابن جُبير عن ابن عباس قال: كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدّة، كان يحرك شفتيه، فقال لى ابن عباس: أنا أحركهما كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحركهما ؛ فقال سعيد: أنا أحركهما كما كان ابن عباس يحركهما ، فحرك شفتيه ؛ فأنزل الله عز وجل : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ به . إِنَّ عَلَيْنَـا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ قال جمعه فى صدرك ثم تقرؤه ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِـعْ قُرْآنَهُ ﴾ قال فاستمع له وأنصت . ثم إن علينا أن نقرأه ؛ قال : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا أتاه جبريل عليهما السلام استمع ، و إذا انطلق جبريل عليه السلام قرأه النبيّ صلى الله عليه وسلم كما أقرأه ؛ خرجه البخارى أيضا . ونظير هذه الآية قوله تعالى : « وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ » وقد تقدّم (1) . وقال عامر الشّعْبى : إنما كان يعجل بذكره إذا نزل عليه من حُبّه له ، وحلاوته فى لسانه ، فنُهى عن ذلك حتى يجتمع ؛ لأن بعضـه مرتبط ببعض . وقيـل : كان عليه السـلام إذا نزل عليـه الوحى حرك لسانه مع الوحى مخافة أن ينساه ، فنزلت « وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُـرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُـهُ » ونزل : « سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى » ونزل : « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ » قاله ابن عباس . « وقرآنه » أى وقراءته عليك . والقراءة والقرآن فى قول الفراء مصدران . وقال قتادة : « فَاتَّبِـعْ قُرْآنَهُ » أى فاتبع شرائعه وأحكامه . وقـوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَـا بَيَانَهُ ﴾ أى تفسير ما فيه من الحدود والحلال والحرام ؛ قاله قتادة . وقيل : ثم إن علينا بيان ما فيه من الوعد والوعيد وتحقيقهما . وقيـل : أى إن علينا أن نبيّنه بلسانك . قوله تعـالى : ﴿ كَلَّا ﴾ قال ابن عباس : أى إن

---

(1) راجع جـ ١١ ص ٢٥٠ .

Marfat.com

أبا جهل لا يؤمن بتفسير القرآن وبيانه. وقيل: أي «كلا» لا يصلّون ولا يزكّون يريد كفار مكة. ﴿بَلْ تُحِبُّونَ﴾ أي بل تحبون يا كفار أهل مكة ﴿الْعَاجِلَةَ﴾ أي الدار الدنيا والحياة فيها ﴿وَتَذَرُونَ﴾ أي تدعون ﴿الْآخِرَةَ﴾ والعمل لها. وفي بعض التفسير قال: الآخرة الجنة. وقرأ أهل المدينة والكوفيون «بَلْ تُحِبُّونَ» «وَتَذَرُونَ» بالتاء فيهما على الخطاب واختاره أبو عبيد؛ قال: ولولا الكراهة لخلاف هؤلاء القراء لقرأتها بالياء؛ لذكر الإنسان قبل ذلك. الباقون بالياء على الخبر، وهو اختيار أبي حاتم، فمن قرأ بالياء فردا على قوله تعالى: «يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ» وهو بمعنى الناس. ومن قرأ بالتاء فعلى أنه واجههم بالتقريع؛ لأن ذلك أبلغ في المقصود؛ نظيره: «إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا»[1].

قوله تعالى: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ الأول من النَّضرة التي هي الحسن والنِّعمة. والثاني من النظر أي وجوه المؤمنين مشرقة حسنة ناعمة؛ يقال: نَضَرهم الله يَنضُرهم نَضرة ونَضارة وهو الإشراق والعيش والغنى؛ ومنه الحديث "نَضَّر[2] الله آمرأ سمع مقالتي فوعاها". «إِلَىٰ رَبِّهَا» إلى خالقها ومالكها «نَاظِرَةٌ» أي تنظر إلى ربها؛ على هذا جمهور العلماء. وفي الباب حديث صُهَيب خرجه مسلم وقد مضى في «يونس» عند قوله تعالى: «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ»[3]. وكان آبن عمر يقول: أكرم أهل الجنة على الله من ينظر إلى وجهه غُدوة وعَشية؛ ثم تلا هذه الآية: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ». وروى يزيد النحوي عن عِكرمة قال: تنظر إلى ربها نظرا. وكان الحسن يقول: نضرت وجوههم ونظروا إلى ربهم.

(١) راجع ص ١٤٨ من هذا الجزء.
(٢) يروى الحديث بالتخفيف والتشديد من النضارة وهي في الأصل حسن الوجه والبريق.
(٣) راجع جـ ٨ ص ٣٣٠

وقيل : إن النظر هنا انتظار ما لهم عند الله من الثواب . وروى عن ابن عمر ومجاهد . وقال عكرمة : تنتظر أمر ربها . حكاه الماوردي عن ابن عمر وعكرمة أيضا . وليس معروفا إلا عن مجاهد وحده . واحتجوا بقوله تعالى: «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ» وهذا القول ضعيف جدا، خارج عن مقتضى ظاهر الآية والأخبار. وفي الترمذي عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية" ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ» قال هذا حديث غريب . وقد روى عن ابن عمر ولم يرفعه . وفي صحيح مسلم عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم جل وعز إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن" . وروى جرير بن عبد الله قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جلوسا، فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال : "إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا". ثم قرأ «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ» متفق عليه . وخرجه أيضا أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح. وخرج أبو داود عن أبي رزين العقيلي قال : قلت يارسول الله أكلنا يرى ربه ؟ قال ابن معاذ : مخليا به يوم القيامة ؟ قال : "نعم يا أبا رزين" قال : وما آية ذلك في خلقه ؟ قال "يا أبا رزين أليس كلكم يرى القمر" قال (١) ابن معاذ : ليلة البدر مخليا به . قلنا : بلى . قال : "فالله أعظم" [قال ابن معاذ قال] : "فإنما هو خلق من خلق الله — يعني القمر — فالله أجل وأعظم" . وفي كتاب النسائي عن صهيب قال : "فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر، ولا أقر لأعينهم" وفي التفسير لأبي إسحاق الثعلبي عن الزبير عن جابر قال :

---

(١) الزيادة من مسند أبي داود .

Marfat.com

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يتجلّى ربّنا عزّ وجلّ حتى ينظروا إلى وجهه ، فيخرّون له سُجَّدًا ، فيقول ارفعوا رءوسكم فليس هذا بيوم عِبادة " قال الثّعلبي : وقول مجاهد إنها بمعنى تنتظر الثواب من ربّها ولا يراه شيء من خلقه ، فتأويل مدخول ؛ لأن العرب إذا أرادت بالنظر الانتظار قالوا نظرته ؛ كما قال تعالى : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ » ، « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ » ، و « مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً » وإذا أرادت به التفكر والتدبر قالوا : نظرت فيه ، فأما إذا كان النظر مقرونًا بذكر إلى ، وذكر الوجه فلا يكون إلا بمعنى الرؤية والعِيان .
وقال الأزهريّ : إن قول مجاهد تنتظر ثواب ربّها خطأ ؛ لأنه لا يقال نظر إلى كذا بمعنى الانتظار ، وإن قول القائل : نظرت إلى فلان ليس إلا رؤية عين ، كذلك تقوله العرب ؛ لأنهم يقولون نظرت إليه : إذا أرادوا نظر العين ، فإذا أرادوا الانتظار قالوا نظرته ؛ قال :

فإنّكما إنْ تَنْظُرانِيَ ساعةً * مِنَ الدَّهْرِ تَنْفَعْنِي لَدَى أُمِّ جُنْدُبِ

لما أراد الانتظار قال تنظراني ، ولم يقل تنظران إليّ ؛ وإذا أرادوا نظر العين قالوا : نظرت إليه ؛ قال :

نظرتُ إليها والنُّجومُ كأنّها * مَصابيحُ رُهْبانٍ تُشَبُّ لِقُفَّالِ[1]

وقال آخر :

نظرتُ إليها بالمُحَصَّبِ مِنْ مِنًى * ولي نَظَرٌ[2] لولا التَّحَرُّجُ عارِمُ

وقال آخر :

إنّي إليكَ لِما وَعَدْتَ لَناظِرٌ * نَظَرَ الفقيرِ إلى الغنيِّ المُوسِرِ

أي إني أنظر إليك بذلّ ؛ لأن نظر الذلّ والخضوع أرقّ لقلب المسئول ؛ فأما ما استدلوا به من قوله تعالى : « لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصارَ » فإنما ذلك

---

(١) تشب : توقد . والقفال جمع قافل وهو الراجع من السفر . البيت من قصيدة لأمرئ القيس .
(٢) في نسخ الأصل نظرة ، والصواب ما ذكرنا كما في ديوان قائله ، وهو عمر بن ربيعة .

Marfat.com

فى الدنيـا . وقد مضى القول فيـه فى موضعه مسـتوفى[1] . وقال عطية العـوفى : ينظرون إلى الله لا تحيط أبصارهم به من عظمته، ونظره يحيط بها؛ يدل عليه : « لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ » قال القشيرى أبو نصر : وقيل : «إِلَى» واحد الآلاء : أى نعمه منتظرة وهذا أيضا باطل؛ لأن واحد الآلاء يكتب بالألف لا بالياء، ثم الآلاء : نعمه الدفع[2]، وهم فى الجنة لا ينتظرون دفع نقمه عنهم، والمنتظر للشىء مُتنغِّص العيش، فلا يوصف أهل الجنة بذلك . وقيل : أضاف النظر إلى الوجه؛ وهو كقوله تعـالى : « تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ » والمـاء يجرى فى النهر لا النهر . ثم قد يذكر الوجه بمعنى العين؛ قال الله تعالى : « فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا » أى على عينيه . ثم لا يبعد قلب العادة غدًا، حتى يخلق الرؤية والنظر فى الوجه؛ وهو كقوله تعالى : « أَفَمَنْ يَمْشِى مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ »، فقيل : يارسول الله! كيف يمشون فى النار على وجوهم ؟ قال : " الذى أمشاهم على أقدامهم قادر أن يمشيهم على وجوهم " .
﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ أى وجوه الكفار يوم القيامة كالحة كاسفة عابسة . وفى الصحاح : وبَسَر الفحلُ الناقةَ وٱبتسرها : إذا ضربها من غير ضَبَعة[3] . وبَسَر الرجلُ وجهَه بسُورًا أى كلَح؛ يقال : عَبَس وبَسَر . وقال السّدى : «بَاسِرَةٌ» أى متغيرة والمعنى واحد . ﴿ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ أى توقن وتعلم، والفاقرة : الداهية والأمر العظيم؛ يقال: فقرته الفاقرة : أى كسرت فَقَار ظهره . قال معناه مجاهد وغيره . وقال قتـادة : الفاقرة الشر . السّدى : الهـلاك . ٱبن عباس وٱبن زيد : دخول النار . والمعنى متقارب . وأصلها الوسم على أنف البعير بحديدة أو نار حتى يخلص إلى العظم؛ قاله الأصمعى . يقال : فَقَرتُ أنفَ البعيرِ : إذا حززته بحديدة ثم جعلت على موضع الحزّ الجَرِير[4] وعليه وَتَرٌ مَلْوِىّ ، لتذلّله بذلك وتُروضه ؛ ومنه قولهم : قد عُمِل به الفاقرة . وقال النابغة :

أَبَى لِى قَـبْرٌ لا يَزالُ مُقَـابِلِى ✽ وضَرْبَةُ فَأْسٍ فوقَ رأْسِىَ فَاقِرَهْ

أى كاسرة .

(١) راجع جـ ٧ ص ٥٤
(٢) هكذا فى كل الأصول .
(٣) ضبعت الناقة : اشتهت الفحل .
(٤) الجرير : حبل من أدم يخطم به البعير .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ۝٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ۝٢٨ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ۝٣٠ ﴾

قوله تعالى: ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾ « كَلَّا » رَدْع وزَجْر، أى بعيد أن يؤمن الكافر بيوم القيامة ؛ ثم آستأنف فقال : « إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ » أى بلغت النفس أو الروح التراقى، فأخبر عما لم يجرله ذكر، لعلم المخاطب به ؛ كقوله تعالى : « حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ » ، وقوله تعالى : « فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ » وقد تقدّم.[(١)] وقيل: « كَلَّا » معناه حقا ؛ أى حقًّا أن المساق إلى الله « إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ » أى إذا آرتقت النفس إلى التراقى . وكان آبن عباس يقول : إذا بلغت نفس الكافر التراقى . والتراقى جمع تَرْقُوة وهى العظام المكتنفة لنُقْرة النَّحر، وهو مقدم الحلق من أعلى الصدر ، موضع الحَشْرجة ؛ قال دُرَيد بن الصِّمَّة :[(٢)]

وربَّ عَظيمةٍ دافعتَ عنهم ۝ وقد بلغتْ نفوسُهُم التَّراقى

وقد يكنى عن الإشفاء على الموت ببلوغ النفس التراقى ، والمقصود تذكيرهم شدّة الحال عند نزول الموت .

قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ آختُلف فيه ؛ فقيل : هو من الرقية ؛ عن آبن عباس وعكرمة وغيرهما . روى سِمَاك عن عِكرمة قال : مَن راقٍ يَرْقِى : أى يَشْفِى . وروى ميمون بن مِهران عن آبن عباس : أى هل من طبيب يَشْفيه ؛ وقاله أبو قلابة وقتادة ؛ وقال الشاعر :

هَلْ لِلفَتَى مِنْ بَنَاتِ الدَّهْرِ مِنْ وَاقِ ۝ أَمْ هَلْ لَهُ مِنْ حِمَامِ الْمَوْتِ مِنْ رَاقِ

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ١٩٥ وجـ ١٧ ص ٢٣٠ .

(٢) كذا فى الأصل . والبيت لابنه عمرة من قصيدة لها ترثى بها أباها كما فى شعراء النصرانية .

Marfat.com

وكان هـذا على وجه الاستبعاد واليأس ؛ أى من يقدر أن يَرْقِىَ من الموت . وعن ابن عباس أيضا وأبى الجوزاء أنه من رَقِىَ يَرْقَى: إذا صَعِد، والمعنى : من يَرقَى بروحه إلى السماء؟ أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟وقيل : إن مَلَك الموت يقول مَن راقٍ؟أى من يُرْقَى بهذه النفس ؛ وذلك أن نفس الكافر تكره الملائكة قربها ، فيقول ملَكَ الموت : يافلان اصعد بها . وأظهر عاصم وقوم النون فى قوله تعالى : « مَنْ رَاقٍ » واللام فى قوله : « بَلْ رَانَ » لئلا يشبه مَرّاق وهو بائع المَرَقة، وبَرّان فى تثنية البرّ. والصحيح ترك الإظهار، وكسرة القاف فى «مَنْ رَاق »، وفتحة النون فى « بَلْ رَانَ » تكفى فى زوالِ اللبس. وأمثل ممـا ذُكِر: قصد الوقف على « مَنْ » و « بَلْ »، فأظهرهما ؛ قاله القشيرى .

قوله تعالى : ﴿ وَظَنَّ ﴾ أى أيقن الإنسان ﴿ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴾ أى فراق الدنيا والأهل والمال والولد ، وذلك حين عاين الملائكة . وقال الشاعر :

فـِراقٌ ليس يُشبِهُـهُ فِـرَاقٌ * قـد انقطع الرجاءُ عن التَّلَاقِ

﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ أى فاتصلت الشدة بالشدة ؛ شدّة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة ؛ قاله ابن عباس والحسن وغيرهما . وقال الشعبي وغيره : المعنى التفت ساقا الإنسان عند الموت من شدّة الكرب . وقال قتادة : أما رأيته إذا أشرف على الموت يضرب إحدى رجليه على الأخرى . وقال سعيد بن المسيِّب والحسن أيضا : هما ساقا الإنسان إذا التفّتا فى الكفن . وقال زيد ابن أسلم : التفت ساق الكفن بساق الميت . وقال الحسن أيضا : ماتت رجلاه ويبست ساقاه فلم تحملاه، ولقد كان عليهما جوّالا . قال النحاس : القول الأوّل أحسنها . وروى علىّ ابن أبى طلحة عن ابن عباس : « وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ » قال : آخرَ يوم من الدنيا وأوّل يوم من الآخرة ، فتلتقى الشدّة بالشدّة إلا من رحمه الله ؛ أى شدّة كرب الموت بشدّة هول المطلع ؛ والدليل على هـذا قوله تعـالى : « إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِـذٍ الْمَسَاقُ » وقال . مجاهد : بلاء ببلاء . يقول : تتابعت عليه الشدائد . وقال الضحاك وابن زيد : اجتمع عليه أمران شديدان : الناس يُجهِّزون جسده، والملائكة يُجهِّزون رُوحه، والعرب لاتذكر الساق إلا فى المحن

Marfat.com

والشدائد العظام ؛ ومنه قولهم : قامت الدنيا على ساق ، وقامت الحرب على ساق . قال الشاعر :

• وقامتِ الحربُ بنا على ساقْ (١) •

وقد مضى هذا المعنى فى آخر سورة « نٓ وَالْقَلَمِ » (٢) . وقال قوم : الكافر تُعذَّب روحه عند خروج نفسه ، فهذه الساق الأولى ، ثم يكون بعدهما ساق البعث وشدائده : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أى إلى خالقك ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى يوم القيامة ﴿ الْمَسَاقُ ﴾ أى المرجع . وفى بعض التفاسير قال : يسوقه مَلَكه الذى كان يحفظ عليه السيئات . والمَسَاق : المصدر من ساق يسوق ، كالمقال من قال يقول .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴾ أى لم يصدّق أبو جهل ولم يصلّ . وقيل : يرجع هذا إلى الإنسان فى أوّل السورة ، وهو آسم جنس . والأوّل قول آبن عباس . أى لم يصدّق بالرسالة « وَلَا صَلَّىٰ » ودعا لربّه ، وصلّى على رسوله . وقال قتادة : فلا صدّق بكتاب الله ، ولا صلّى لله . وقيل : ولا صدّق بمال له ، ذخراً له عند الله ، ولا صلّى الصلوات التى أمره الله بها . وقيل : فلا آمن بقلبه ولا عمل ببدنه . قال الكسائى : « لَا » بمعنى لم ولكنه يقرن بغيره ؛ تقول العرب : لا عبدُ الله خارج ولا فلان ، ولا تقول : مررت برجل لا مُحسن حتى يقال ولا مُجمل ، وقوله تعالى : « فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ » ليس من هذا القبيل ؛ لأن معناه أفلا آقتحم ، أى فهلا آقتحم ، فحذف ألف الآستفهام . وقال الأخفش : « فَلَا صَدَّقَ » أى لم يصدّق ، كقوله : « فَلَا اقْتَحَمَ » أى لم يقتحم ، ولم يشترط أن يعقبه

---

(١) صدر البيت :

• صبرا أمام إنه شر باق •

(٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٤٨ .

Marfat.com

بشيء آخر ، والعرب تقول : لا ذهب ، أى لم يذهب ، فحرف النفى ينفى الماضى كما ينفى المستقبل ؛ ومنه قول زهير :

* فَلَا هُوَ أَبْدَاهَا وَلَمْ يَتَقَدَّمِ (١) *

قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أى كذب بالقرآن وتولى عن الإيمان ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴾ أى يتبختر ، آفتخارا بذلك ؛ قاله مجاهد وغيره . مجاهد : المراد به أبو جهل . وقيل : «يَتَمَطَّى» من المَطَا وهو الظَّهْر ، والمعنى يَلْوِى مَطَاه . وقيل : أصله يتمطط ، وهو التمدد من التكسّل والتثاقل ، فهو يتثاقل عن الداعى إلى الحق ؛ فأبدل من الطاء ياء كراهة التضعيف ، والتمطى يدل على قلة الاكتراث ، وهو التمدد ، كأنه يمدّ ظهره ويلويه من التبختر . والمَطِيطة الماء الخاثر فى أسفل الحوض ؛ لأنه يتمطى أى يتمدد ؛ وفى الخبر : "إذا مشت أمتى المُطَيْطاء (٢) وخدمتهم فارس والروم كان بأسهم بينهم" . والمُطَيْطاء : التبختر ومدّ اليدين فى المشى .

قوله تعالى : ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ . ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾ : تهديد بعد تهديد ، ووعيد بعد وعيد ، أى فهو وعيد أربعة لأربعة ؛ كما روى أنها نزلت فى أبى جهل الجاهلِ بربّه فقال : « فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ . وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ » أى لا صدّق رسول الله ، ولا وقف بين يدىّ فصلّى ، ولكن كذّب رسولى ، وتولّى عن التصلية بين يدىّ . فترك التصديق خَصْلة ، والتكذيب خَصْلة ، وترك الصلاة خَصْلة ، والتولى عن الله تعالى خَصْلة ؛ فجاء الوعيد أربعة مقابلة لترك الخصال الأربعة . والله أعلم . لا يقال : فإن قوله « ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ » خَصْلة خامسة ؛ فإنّا نقول : تلك كانت عادته قبل التكذيب والتولّى ، فأخبر عنها . وذلك بيِّنٌ فى قول قتادة على ما نذكره . وقيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من المسجد ذات يوم (٣) ، فاستقبله أبو جهل على باب المسجد ، مما يلى باب بنى مخزوم ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) صدر البيت : * وكان طوى كشحا على مستكنة *

(٢) المطيطاء يمدّ ويقصر ؛ قال ابن الأثير : وهى من المصغرات التى لم يستعمل لها مكبر .

(٣) فى ز ، ط ، ل : « ذات ليلة » .

Marfat.com

بيده ، فهزه مرة أو مرتين ثم قال : « أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى » فقال له أبو جهل : أتهددنى ؟ فوالله إنى لأعز أهل الوادى وأكرمه . ونزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال لأبى جهل . وهى كلمة وعيد . قال الشاعر :

فَأَوْلَى ثم أَوْلَى ثم أَوْلَى * وهَلْ لِلدَّرِّ يُحْلَبُ من مَرَدِّ

قال قتادة : أقبل أبو جهل بن هشام يتبختر ، فأخذ النبى صلى الله عليه وسلم بيده فقال : «أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ، ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى». فقال: ما تستطيع أنت ولا ربك لى شيئًا ، إنى لأعز من بين جبليها . فلما كان يوم بدر أشرف على المسلمين فقال : لا يُعْبَد الله بعد هذا اليوم أبدًا . فضرب الله عنقه ، وقتله شر قتلة . وقيل : معناه : الويل لك ؛ ومنه قول الخنساء :

هَمَمْتُ بنفسىَ كُلَّ الهُمُومِ * فَأَوْلَى لِنَفْسِىَ أَوْلَى لَهَا
سَأَحْمِلُ نفسى على آلَةٍ[(١)] * فإمَّا عليها وإمَّا لَهَا

الآلة : الحالة ، والآلة : السرير أيضًا الذى يحمل عليه الميت ؛ وعلى هذا التأويل قيل : هو من المقلوب ؛ كأنه قيل : أَوْيَل ، ثم أخر الحرف المعتل ، والمعنى : الويل لك حيًا ، والويل لك ميتًا ، والويل لك يوم البعث ، والويل لك يوم تدخل النار ؛ وهذا التكرير كما قال[(٢)] :

* لَكَ الوَيْلاتُ إنَّكَ مُرْجِلِى *

أى لك الويل ، ثم الويل ، ثم الويل ، وضعف هذا القول . وقيل : معناه الذم لك أولى من تركه ، إلا أنه كثير فى الكلام فحذف . وقيل : المعنى أنت أولى وأجدر بهذا العذاب . وقال أبو العباس أحمد بن يحيى : قال الأصمعى «أَوْلَى» فى كلام العرب معناه مُقَاربة الهلاك ، كأنه يقول : قد وَلِيتَ الهلاك ، قد دَانَيْتَ الهلاكَ ؛ وأصله من الوَلْى ، وهو القُرْب ؛

(١) فى ا « على أله » بفتح فشد ، وهى الحربة . وصوابه آلة أى حالة .

(٢) هو امرؤ القيس ، والبيت بتمه :

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة * فقالت لك الويلات إنك مرجلى

Marfat.com

قال الله تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِنَ الْكُفَّارِ » أى يقربون منكم ؛ وأنشد الأصمعى :

* وَأَوْلَى أن يكون له الـوَلاءُ *

أى قارب أن يكون له ؛ وأنشد أيضا :

* أَوْلَى لِمَنْ هاجَتْ لَهُ أَنْ يَكْمَدَا *

أى قد دنا صاحبها [من][1] الكمد . وكان أبو العباس ثعلب يستحسن قول الأصمعى ويقول : ليس أحد يفسّر كتفسير الأصمعى . النحاس : العرب تقول أَوْلَى لك : كِدتَ تَهلِك ثم أفلتَّ ، وكأن تقديره : أولى لك وأولى بك الهلكة . المهدوى قال : ولا تكون أَوْلَى (أَفْعَل منك) ، وتكون خبر مبتدإ محذوف ، كأنه قال : الوعيد أولى له من غيره ؛ لأن أبا زيد قد حكى[2] : أَوْلَاةُ الآن : إذا أَوْعَدوا . فدخول علامة التأنيث دليل على أنه ليس كذلك . و«لَكَ» خبر عن «أَوْلَى» . ولم ينصرف «أَوْلَى» لأنه صار علمًا للوعيد ، فصار كرجل اسمه أحمد . وقيل : التكرير فيه على معنى أَلزم لك على عملك السيّئ الأول ، ثم على الثانى ، والثالث ، والرابع ، كما تقدّم .

قوله تعالى : أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ ﴾ أى يظن ابن آدم ﴿ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ أى أن يُخلَّى مُهمَلًا ، فلا يُؤمَر ولا يُنهَى ؛ قاله ابن زيد ومجاهد ، ومنه إبل سُدًى : ترعى بلا راعٍ . وقيل : أيحسب أن يترك فى قبره كذلك أبدًا لا يُبعَث . وقال الشاعر :

فأُقسِمُ بالله جَهْدَ اليَمِيـ ـنِ ما تَرَكَ اللهُ شيئًا سُدَى

(١) من : ساقطة من الأصول . (٢) فى (اللسان : ولى) وأسند الحكاية إلى ابن جنى . قال : وحكى ابن جنى : أولاة الآن ، فأنث أولى . قال : وهذا يدل على أنه اسم لا فعل .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴾ أى من قطرة ماء تُمنَى فى الرَّحِم ، أى تُراق فيه؛ ولذلك سميت (مِنًى) لإراقة الدماء. وقد تقدّم[1] . والنطفة : الماء القليل؛ يقال : نطَف الماء : إذا قطر . أى ألم يك ماءً قليلًا فى صُلْب الرجل وترائب المرأة . وقرأ حفص « مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى » بالياء، وهى قراءة ٱبن محيصن ومجاهد و يعقوب وعيّاش عن أبى عمرو، وٱختاره أبو عبيد لأجل المنىّ . الباقون بالتاء لأجل النطفة ، وٱختاره أبو حاتم . ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً ﴾ أى دمًا بعد النطفة ، أى قد رتّبه تعالى بهذا كله على خِسّة قدره . ثم قال : ﴿ فَخَلَقَ ﴾ أى فقدّر ﴿ فَسَوَّى ﴾ أى فسوّاه تسويةً، وعدّله تعديلًا، بجعل الروح فيه ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ﴾ أى من الإنسان . وقيل : من المنىّ . ﴿ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ أى الرجل والمرأة . وقد ٱحتج بهذا من رأى إسقاط الخُنثى . وقد مضى فى سورة « الشورى »[2] أن هذه الآية وقرينتها إنما خرجتا مخرج الغالب . وقد مضى فى أوّل سورة « النساء »[3] أيضا القول فيه ، وذكرنا فى آية المواريث حكمه، فلا معنى لإعادته ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ ﴾ أى أليس الذى قدر على خلق هذه النَّسَمة[4] من قطرة من ماء ﴿بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ أى على أن يعيد هذه الأجسام كهيئتها للبعث بعد البِلَى . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قرأها قال : "سبحانك اللهم، بَلَى " وقال ٱبن عباس : من قرأ « سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » إماماً كان أو غيره فليقل : «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى» . ومن قرأ « لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ » إلى آخرها إماما كان أو غيره فليقل : «سبحانك اللهم، بلى»[5] ذكره الثعلبىّ من حديث أبى إسحاق السَّبِيعىّ عن سعيد ٱبن جبير عن ٱبن عباس . ختمت السورة والحمد لله[6] .

---

(١) راجع جـ ١٧ ص ١١٨ وص ٢١٦

(٢) راجع جـ ١٦ ص ٤٨

(٣) راجع جـ ٥ ص ٣

(٤) فى ح : « المضغة » .

(٥) فى ا ، ح : « سبحانك اللهم وبحمدك » .

(٦) فى ح : « والحمد لله على كل حال » .

Marfat.com

سـورة الإنسان

وهى إحدى وثلاثون آية

مَكِّيَّـةٌ فى قول آبن عباس ومقاتل والكلبي . وقال الجمهور : مدنية . وقيل : فيها مكى ، من قوله تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا »(١) إلى آخر السورة، وما تقدّمه مدنى .

وذكر آبن وهب قال : وحدّثنا آبن زيد قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقرأ « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ » وقد أنزلت عليه وعنده رجل أسودكان يسأل النبىّ صلى الله عليه وسلم، فقال له عمر بن الخطاب : لا تُثْقل على النبىّ صلى الله عليه وسلم، قال : "دَعْه يابن الخطاب" قال : فنزلت عليه هـذه السورة وهو عنده ، فلما قرأها عليه وبلغ صفة الجنان زَفر زَفْرة فخرجت نَفْسه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أَخْرَج نفس صاحبكم ـ أو أخيكم ـ الشَّوْقُ إلى الجنة" وروى عن آبن عمر بخلاف هذا اللفظ ، وسيأتى. وقال القُشيرىّ : إن هـذه السورة نزلت فى علىّ بن طالب رضى الله عنـه . والمقصود من السورة عام . وهكذا القول فى كل ما يقال إنه نزل بسبب كذا وكذا .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ «هَلْ» : بمعنى قد ؛ قاله الكسائى والفراء وأبو عبيدة . وقد حكى عن سيبويه « هـل » بمعنى قد .(٢)

---

(١) الآية ٢٣ . (٢) فى ح : « تقديره » .

Marfat.com

قال الفراء : هل تكون جحدًا ، وتكون خبرًا ، فهذا من الخبر ؛ لأنك تقول : هل أعطيتك ؟ تقرره بأنك أعطيته . والجحد أن تقول : هل يقدر أحد على مثل هذا ؟ وقيل : هي بمنزلة الاستفهام ، والمعنى : أتى . والإنسان هنا آدم عليه السلام ؛ قاله قتادة والثوري وعكرمة والسدي . وروى عن ابن عباس . « حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ » قال ابن عباس في رواية أبي صالح : أربعون سنة مرت به ، قبل أن ينفخ فيه الروح ، وهو ملقى بين مكة والطائف . وعن ابن عباس أيضا في رواية الضحاك أنه خلق من طين ، فأقام أربعين سنة ، ثم من حمإ مسنون أربعين سنة ، ثم من صلصال أربعين سنة ، فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة . وزاد ابن مسعود فقال : أقام وهو من تراب أربعين سنة ، فتم خلقه بعد مائة وستين سنة ؛ ثم نفخ فيه الروح . وقيل : الحين المذكور هاهنا : لا يُعرف مقداره ؛ عن ابن عباس أيضًا ، حكاه الماوردي . « لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا » قال الضحاك عن ابن عباس : لا في السماء ولا في الأرض . وقيل : أي كان جسدًا مصورًا ترابًا وطينًا ، لا يُذكر ولا يعرف ، ولا يُدرى ما اسمه ولا ما يراد به ، ثم نفخ فيه الروح ، فصار مذكورًا ؛ قاله الفراء وقطرب وثعلب . وقال يحيى بن سلام : لم يكن شيئا مذكورًا في الخلق وإن كان عند الله شيئا مذكورًا . وقيل : ليس هذا الذكر بمعنى الإخبار ، فإن إخبار الرب عن الكائنات قديم ، بل هذا الذكر بمعنى الخطر والشرف والقدر ؛ تقول : فلان مذكور أي له شرف وقدر . وقد قال تعالى : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ » أي قد أتى على الإنسان حين لم يكن له قدر عند الخليقة . ثم لما عرَّف الله الملائكة أنه جعل آدم خليفة ، وحمله الأمانة التي عجز عنها السموات والارض والجبال ، ظهر فضله على الكل ، فصار مذكورًا . قال القشيري : وعلى الجملة ما كان مذكورا للخلق ، وإن كان مذكورًا لله . وحكى محمد بن الجهم عن الفراء : « لَمْ يَكُنْ شَيْئًا » قال : كان شيئًا ولم يكن مذكورًا . وقال قوم : النفي يرجع إلى الشيء ؛ أي قد مضى مُدَد من الدهر وآدم لم يكن شيئًا يذكر في الخليقة ؛ لأنه آخر ما خلقه من أصناف الخليقة ، والمعدوم ليس بشيء حتى يأتي عليه حين . والمعنى : قد مضت عليه أزمنة وما كان آدم شيئًا ولا مخلوقًا ولا مذكورًا لأحد من الخليقة . وهذا معنى قول قتادة ومقاتل : قال قتادة : إنما خلق الإنسان حديثا ما نعلم من خليقة الله جل ثناؤه خليفة

Marfat.com

كانت بعد الإنسان . وقال مقاتل : فى الكلام تقديم وتأخير ، وتقديره : هل أتى حين من الدهر لم يكن الإنسان شيئًا مذكورًا ؛ لأنه خلقه بعد خلق الحيوان كله ، ولم يخلق بعده حيوانًا. وقد قيل : « الإنسان » فى قوله تعالى : « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ » عُنِيَ به الجنس من ذرّية آدم ، وأن الحين تسعة أشهر ، مدّة حمل الإنسان فى بطن أمه «لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا» : إذ كان علقة ومضغة ؛ لأنه فى هذه الحالة جماد لا خطر له . وقال أبو بكر رضى الله عنه لما قرأ هذه الآية : ليتها تمّت فلا نُبْتَلَى . أى ليت المدّة التى أتت على آدم لم تكن شيئًا مذكورًا تمّت على ذلك ، فلا يلد ولا يُبْتَلَى أولاده . وسمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلًا يقرأ «هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا » فقال ليتها تمّت .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ أى ابن آدم من غير خلاف ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ أى من ماء يقطُر وهو المنيّ ، وكل ماء قليل فى وعاء فهو نطفة ؛ كقول عبد الله بن رواحة يعاتب نفسه :

مالى أَراكِ تَكْرَهِينَ الجَنَّـهْ * هل أنتِ إلَّا نُطْفَةٌ فى شَنَّهْ (١)

وجمعها : نُطَف ونِطَاف . ﴿ أَمْشَاجٍ ﴾ : أخلاط . واحدها : مِشْج ومَشِيج ، مثل خِدْن وخَدِين ؛ قال : رؤبة :

يَطْرَحْنَ كُلَّ مُعْجَلٍ نَشَّاجِ * لَمْ يُكْسَ جِلْدًا فى دَمٍ أَمْشَاجِ

ويقال : مَشَجْتُ هذا بهذا أى خلطته ، فهو مَمْشوج ومَشِيج ؛ مثل مخلوط وخَلِيط . وقال المبرّد : واحد الأمشاج : مشيج ؛ يقال : مشج يمشج : إذا خلط ، وهو هنا اختلاط النطفة بالدم ؛ قال الشّمّاخ :

طَوَتْ أَحْشَاءُ مُرْتِجَةٍ لِوَقْتٍ * على مَشَجٍ سُلَالَتُهُ مَهِينُ

وقال الفراء : أمشاج : أخلاط ماء الرجل وماء المرأة ، والدم والعَلَقة . ويقال للشيء من هذا إذا خُلط : مَشِيج كقولك خَلِيط ، ومَمْشوج كقولك مخلوط . وروى عن ابن عباس رضى الله عنه

(١) الشنة : القربة .

Marfat.com

قال : الأمشاج : الحمرة فى البياض ، والبياض فى الحمرة . وهذا قول يختاره كثير من أهل اللغة ؛ قال الهذلى[(١)] :

كأنّ الرِّيشَ والفُوقَيْنِ مِنهُ * خِلافَ النَّصْلِ سِيطَ به مَشِيجُ

وعن ابن عباس أيضًا قال[(٢)] : يختلط ماء الرجل وهو أبيض غليظ بماء المرأة وهو أصفر رقيق فيخلق منهما الولد ، فما كان من عصب وعظم وقوة فهو من ماء الرجل ، وما كان من لحم ودم وشعر فهو من ماء المرأة . وقد روى هذا مرفوعًا ؛ ذكره البزار . وروى عن ابن مسعود : أمشاجها عروق المضغة . وعنه : ماء الرجل وماء المرأة وهما لونان . وقال مجاهد : نطفة الرجل بيضاء وحمراء ونطفة المرأة خضراء وصفراء . وقال ابن عباس : خلق من ألوان ؛ خلق من تراب ، ثم من ماء الفرج والرحم ، وهى نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظم ثم لحم . ونحوه قال قتادة : هى أطوار الخلق : طور وطور علقة وطور مضغة عظام ثم يكسو العظام لحمًا ؛ كما قال فى سورة «المؤمنون» «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ» الآية . وقال ابن السِّكِّيت : الأمشاج الأخلاط ؛ لأنها ممتزجة من أنواع تخلق الإنسان منها ذا طبائع مختلفة . وقال أهل المعانى : الأمشاج ما جمع وهو فى معنى الواحد ؛ لأنه نعت للنطفة ؛ كما يقال : بُرْمَةٌ أعشار وثوبٌ أخلاقٌ . وروى عن أبى أيوب الأنصارى : قال جاء حبر من اليهود إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أخبرنى عن ماء الرجل وماء المرأة ؟ فقال : "ماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة أصفر رقيق فإذا عَلَا ماء المرأة آنثت و إذا عَلَا ماءُ الرجل أذْكَرَتْ" فقال الحبر : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . وقد مضى هذا القول مستوفًى فى سورة « البقرة » .

(نَبْتَلِيهِ) أى نختبره . وقيل : نقدر فيه الابتلاء وهو الاختبار . وفيما يختبر به وجهان : أحدهما —

---

(١) هو عمرو بن الداخل الهذلى . وفى (اللسان : مشج) زهير بن حرام الهذلى . سيط به : أى خرج فنذ من الريش مختلط من الدم والماء .

(٢) وفى حاشية الجمل نقلا عن القرطبي ما يأتى : والمعنى : «من نطفة قد امتزج فيها الماءان وكل منهما مختلف الأجزاء متباين الأوصاف فى الرقة والثخن والقوام ، والخواص تجتمع من الأخلاط وهى العناصر الأربعة ، ماء الرجل غليظ أبيض ، وماء المرأة رقيق أصفر ، فأيهما علا كان الشبه له » .

Marfat.com

نختبره بالخير والشر؛ قاله الكلبي . الثاني — نختبر شكره في السّراء وصبره في الضّرّاء؛ قاله الحسن . وقيل : «نَبْتَلِيهِ» نُكلِّفه . وفيه أيضًا وجهان : أحدهما — بالعمل بعد الخلق؛ قاله مقاتل . الثاني — بالدِّين ليكون مأمورًا بالطاعة ومنهيًّا عن المعاصي . وروى عن ابن عباس : «نَبْتَلِيهِ» : نصرفه خلقًا بعد خلق ؛ لنبتليه بالخير والشر . وحكى محمد بن الجهم عن الفراء قال : المعنى والله أعلم ﴿ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ لنبتليه ، وهي مُقدَّمة معناها التأخير.

قلت : لأن الابتلاء لا يقع إلا بعد تمام الخِلقة . وقيل : «جَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا» : يعني جعلنا له سمعًا يسمع به الهدى ، وبصرًا يبصر به الهدى .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ أي بيّنا له وعرّفناه طريق الهدى والضلال ، والخير والشرّ ببعث الرسل ، فآمن أو كفر ؛ كقوله تعالى : « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » . وقال مجاهد : أي بيّنا له السبيل إلى الشقاء والسعادة . وقال الضحاك وأبو صالح والسّدّيّ : السبيل هنا خروجه من الرحم . وقيل : منافعه ومضارّه التي يهتدي إليها بطبعه وكمال عقله . ﴿ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ أي أيهما فعل فقد بيّنا له . قال الكوفيون : « إن » ها هنا تكون جزاء و « ما » زائدة أي بيّنا له الطريق إن شكر أو كفر . واختاره الفراء ولم يجزه البصريون ؛ إذ لا تدخل « إنْ » للجزاء على الأسماء إلا أن يضمر بعدها فعل . وقيل : أي هديناه الرشد ، أي بيّنا له سبيل التوحيد بنصب الأدلة عليه ؛ ثم إن خلقنا له الهداية اهتدى وآمن ، وإن خذلناه كفر . وهو كما تقول : قد نصحت لك ، إن شئت فاقبل ، وإن شئت فاترك ؛ أي فإن شئت ، فتحذف الفاء . وكذا « إِمَّا شَاكِرًا » والله أعلم . ويقال : هديته السبيل وللسبيل وإلى السبيل . وقد تقدّم في « الفاتحة »(١) وغيرها . وجمع بين الشاكر والكفور ، ولم يجمع بين الشكور والكفور مع اجتماعهما في معنى المبالغة ؛ نفيًا للمبالغة في الشكر وإثباتًا لها في الكفر ؛ لأن شكر الله تعالى لا يُؤدَّى ، فانتفت عنه المبالغة ، ولم تنتف عن الكفر المبالغة ، فقلّ شكره ، لكثرة النعم عليه وكثرة كفره(٢) وإن قلّ مع الإحسان إليه . حكاه الماوردي .

(١) راجع جـ ١ ص ١٤٧ وص ١٦٠ (٢) في ا ، ح ، و : « وكثرة كفره » .

Marfat.com

قوله تعالى : إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴾ بين حال الفريقين ، وأنه تعبّد العقلاء وكلّفهم ومكّنهم مما أمرهم ، فمن كفر فله العقاب ، ومن وحّد وشكر فله الثواب . والسلاسل : القيود في جهنم طول كل سلسلة سبعون ذراعا كما مضى في « الحاقة »[1] . وقرأ نافع والكسائي وأبو بكر عن عاصم وهشام عن ابن عامر « سَلَاسِلًا » منوّنا . الباقون بغير تنوين . ووقف قُنْبل وابن كثير وحمزة بغير ألف . الباقون بالألف . فأما « قوارير » الأول فنوّنه نافع وابن كثير والكسائي وأبو بكر عن عاصم ، ولم ينوّن الباقون . ووقف فيه يعقوب وحمزة بغير ألف . والباقون بالألف . وأما « قَوَارِيرَ » الثانية فنوّنه أيضا نافع والكسائي وأبو بكر ، ولم ينوّن الباقون . فمن نوّن قرأها بالألف ، ومن لم ينوّن أسقط منها الألف ، واختار أبو عُبيد التنوين في الثلاثة ، والوقف بالألف اتباعا لخط المصحف ، قال : رأيت في مصحف عثمان « سَلَاسِلًا » بالألف و « قَوَارِيرًا » الأول بالألف ، وكان الثاني مكتوبا بالألف فحُكّت فرأيت أثرها هناك بيّنا . فمن صرف فله أربع حجج : أحدها — أن الجموع أشبهت الآحاد فجمعت جمع الآحاد ، فجعلت في حكم الآحاد فصرفت . الثانية — أن الأخفش حكى عن العرب صرف جميع ما لا ينصرف إلا أفعل منك ، وكذا قال الكسائي والفراء ، هو على لغة من يُجرِ الأسماء كلها إلا قولهم هو أظرف منك فإنهم لا يُجرونه ، وأنشد ابن الأنباري في ذلك قول عمرو بن كلثوم :

كأنّ سُيوفَنَا فِينا وفيهم * مَخَارِيقٌ بِأَيْدِي لَاعِبِينَا

وقال لَبِيد :

وجَزُورِ أَيْسَارٍ دَعَوتُ لِحَتْفِها * بِمَغَالِقٍ مُتَشَابِهٍ أَجْسَامُهَا

وقال لَبِيد أيضا :

فَضْلًا وذو كَرَمٍ يُعِينُ على النَّدَى * سَمْحٌ كَسُوبُ رَغَائِبٍ غَنَّامُهَا

---

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٧٢

Marfat.com

نصرف مخاريق ومغالق ورغائب ، وسبيلها ألا تُصرَف . والحجة الثالثة — أن يقول نونت قوارير الأول لأنه رأس آية، ورءوس الآى جاءت بالنون، كقوله جلّ وعزّ: « مَذْكُوراً . سَمِيعًا بَصِيرًا » فنونا الأول ليوقف بين رءوس الآى ، ونونا الثانى على الجوار للأول . والحجة الرابعة — اتباع المصاحف، وذلك أنهما جميعًا فى مصاحف مكة والمدينة والكوفة بالألف . وقد احتج من لم يصرفهن بأن قال : إن كل جمع بعد الألف منه ثلاثة أحرف أو حرفان أو حرف مشدّد لم يُصرَف فى معرفة ولا نكرة ؛ فالذى بعد الألف منه ثلاثة أحرف قولك : قناديل ودنانير ومناديل ، والذى بعد الألف منه حرفان قول الله عز وجل : « لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ » لأن بعد الألف منه حرفين، وكذلك قوله : « وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً » والذى بعد الألف منه حرف مشدّد شوابّ ودوابّ . وقال خلف : سمعت يحيى بن آدم يحدّث عن ابن إدريس قال : فى المصاحف الأول الحرف الأول بالألف والثانى بغير ألف ؛ فهذا حجة لمذهب حمزة . وقال خلف : رأيت فى مصحف ينسب إلى قراءة ابن مسعود الأول بالألف والثانى بغير ألف . وأما أفعل منك فلا يقول أحد من العرب فى شعره ولا فى غيره هو أفعل منك منونًا ؛ لأن مِن تقوم مقام الإضافة فلا يجمع بين تنوين و إضافة فى حرف ؛ لأنهما دليلان من دلائل الأسماء ولا يجمع بين دليلين ؛ قاله الفراء وغيره .

قوله تعالى : ﴿ وَأَغْلَالًا ﴾ جمع غُلّ تُغلّ بها أيديهم إلى أعناقهم . وعن جُبَير بن نُفَير عن أبى الدرداء كان يقول : ارفعوا هذه الأيدى إلى الله جلّ ثناؤه قبل أن تُغلّ بالأغلال . قال الحسن : إن الأغلال لم تجعل فى أعناق أهل النار ؛ لأنهم أعجزوا الربّ سبحانه ولكن إذلالًا . ﴿ وَسَعِيرًا ﴾ تقدّم القول فيه .

قوله تعالى : إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ ﴾ الأبرار : أهل الصدق واحدهم بَرٌّ، وهو من امتثل أمر الله تعالى . وقيل : البَرّ الموحِّد والأبرار جمع بارّ مثل شاهد وأشهاد ، وقيل : هو جمع بَرّ مثل نَهْر وأنهار؛ وفي الصحاح : وجمع البر الأبرار، وجمع البار البَرَرة، وفلان يَبَرّ خالقه ويَتَبَرّره أي يُطيعه ، والأم بَرّةٌ بولدها . وروى ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنما سمّاهم الله جل ثناؤه الأبرار لأنهم بَرُّوا الآباء والأبناء ، كما أن لوالدك عليك حقّا كذلك لولدك عليك حقّا " . وقال الحسن : البَرّ الذي لا يؤذي الذَّرّ . وقال قتادة : الأبرار الذين يؤدّون حقّ الله ويوفون بالنَّذْر . وفي الحديث : " الأبرار الذين لا يؤذون أحداً " .

﴿ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ ﴾ أي من إناء فيه الشراب . قال ابن عباس : يريد الخمر . والكأس في اللغة الإناء فيه الشراب : وإذا لم يكن فيه شراب لم يسمّ كأسا . قال عمرو بن كلثوم :

صَبَنْتِ(١) الكأسَ عنّا أمَّ عمرو * وكان الكأسُ مجراها اليَمِينا

وقال الأصمعي : يقال صَبَنْتَ عنّا الهديةَ أو ما كان من معروف تَصبِنُ صَبْنا : بمعنى كَفَفْتَ؛ قاله الجوهري . ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا ﴾ أي شَوْبها(٢) وخلطها ؛ قال حسّان :

كأنّ سَبِيئةً(٣) من بيتِ رأسٍ * يكونُ مِزاجَها عسلٌ وماءُ

ومنه مِزاج البدن وهو ما يمازجه من الصفراء والسوداء والحرارة والبرودة . ﴿ كَافُوراً ﴾ قال ابن عباس : هو اسم عينِ ماء في الجنة ، يقال له عين الكافور . أي يمازجه ماء هذه العين التي تسمّى كافوراً . وقال سعيد عن قتادة : تُمزَج لهم بالكافور وتُختَم بالمسك . وقاله مجاهد . وقال عِكرمة : مِزاجها طعمها . وقيل : إنما الكافور في ريحها لا في طعمها . وقيل : أراد كالكافور في بياضه وطيب رائحته وبَرْده ؛ لأن الكافور لا يشرب ؛ كقوله تعالى : « حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا » أي كنار . وقال ابن كَيْسان : طُيِّب بالمسك والكافور والزنجبيل . وقال

---

(١) الرواية المشهورة في المعلقات : صددت الكأس .   (٢) في ا ، ح : « شرابها » .

(٣) السبيئة : الخمر . وسميت بذلك لأنها تسبأ أي تشترى لتشرب ؛ وفي : « كأن خبيئة » ، وهي المصونة المضنون بها لنفاستها . وبيت رأس : موضع بالأردن مشهور بالخمر .

Marfat.com

مقاتل : ليس بكافور الدنيا . ولكن سمى الله ماعنده بما عندكم حتى تهتدى لها القلوب . وقوله : «كَانَ مِزَاجُهَا» «كَانَ» زائدة أى من كأس مِزاجُها كافورٌ . ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ قال الفراء : إن الكافور آسم لعين ماء فى الجنة ؛ فـ«عَيْنًا» بدل من كافور على هذا . وقيل: بدل من كأس على الموضع . وقيل : هى حال من المضمر فى «مِزاجها» . وقيل : نصب على المدح ، كما يُذكَر الرجلُ فتقول : العاقلَ اللبيبَ ؛ أى ذكرتم العاقلَ اللبيبَ فهو نصب بإضمار أعنى . وقيل يشربون عينًا . وقال الزجاج : المعنى من عين . ويقال : كافور وقافور . والكافور أيضًا : وعاء طلع النخل وكذلك الكُفُرَّى ؛ قاله الأصمعى .

وأما قول الراعى :

تَكْسُو المَفَارِقَ واللَّبَّاتِ ذَا أَرَجٍ * مِنْ قُصْبِ مُعْتَلِفِ الكافورِ دَرَّاجِ

فإن الظبى الذى يكون منه المسك إنما يَرعى سُنْبُلَ الطِّيب فجعله كافورًا . ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ قال الفراء : يشرب بها ويشربها سواء فى المعنى ، وكأن يشرب بها يَرْوَى بها ويَنْقع ؛ وأنشد:

شَرِبْنَ بِمَاءِ البحرِ ثم تَرَفَّعتْ * مَتَى لُجَجٍ خُضْرٍ لَهُنَّ نَئِيجُ (١)

قال : ومثله فلان يتكلم بكلام حسن ، ويتكلم كلامًا حسنًا . وقيل : المعنى يشربها والباء زائدة . وقيل : الباء بدل «مِن» تقديره يشرب منها ؛ قاله القتبى . ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ فيقال : إن الرجل منهم يمشى فى بيوتاته ويصعد إلى قصوره ، وبيده قضيب يشير به إلى الماء فيجرى معه حيثما دار فى منازله على مستوى الأرض فى غير أخدود ، ويتبعه حيثما صعد إلى أعلى قصوره ؛ وذلك قوله تعالى : «عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا» أى يُشقِّقونها شقًّا كما يفجر الرجل النهر هاهنا وهاهنا إلى حيث يريد . وعن آبن أبى نجيح عن مجاهد «يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا» يقودونها حيث شاءوا ، وتتبعهم حيثما مالوا مالت معهم . وروى

---

(١) قائله أبو ذؤيب يصف السحابات ، والباء فى «بماء» بمعنى «من» و«متى» معناها «فى» فى لغة هذيل ونئيج : أى مر سريع مع صوت .

Marfat.com

أبو مقاتل عن أبي صالح عن سعد عن أبي سهل[1] عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أربع عيون في الجنة عينان تجريان من تحت العرش إحداهما التي ذكر الله « يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا » [والأخرى الزنجبيل][2] والأخريان نضّاختان من فوق العرش إحداهما التي ذكر الله [عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى][3] « سَلْسَبِيلًا » والأخرى التّسنيم " ذكره الترمذي الحكيم في « نوادر الأصول » . وقال : فالتسنيم للقربين خاصة شربا لهم ، والكافور للأبرار شربا لهم ؛ يمزج للأبرار من التسنيم شرابهم ، وأما الزنجبيل والسلسبيل فللأبرار منها مزاج هكذا ذكره في التنزيل وسكت عن ذكر ذلك لمن هي شرب ، فما كان للأبرار مزاج فهو للقربين صرف ، وما كان للأبرار صرف فهو لسائر أهل الجنة مزاج . والأبرار هم الصادقون ، والمقرّبون : هم الصديقون .

قوله تعالى : يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ ﴾ أي لا يُخلفون إذا نَذَروا . وقال مَعْمَر عن قتادة : بما فرض الله عليهم من الصلاة والزكاة والصوم والحج والعُمْرة وغيره من الواجبات . وقال مجاهد وعكرمة : يوفون إذا نذروا في حق الله جل ثناؤه . وقال الفرّاء والجرجاني : وفي الكلام إضمار؛ أي كانوا يوفون بالنذر في الدنيا . والعرب قد تزيد مرة « كان » وتحذف أخرى . والنذر : حقيقته ما أوجبه المكلّف على نفسه من شيء يفعله . وإن شئت قلت في حدّه : النذر: هو إيجاب المكلّف على نفسه من الطاعات ما لو لم يوجبه لم يلزمه . وقال الكلبي : « يُوفُونَ بِالنَّذْرِ » أي يتمون العهود والمعنى واحد ؛ وقد قال الله تعالى :

---

(١) هذا السند في الأصول : أبو مقاتل عن صالح بن سعيد عن أبي سهل الخ وصوبنا ه من التذكرة للقرطبي .

(٢) الزيادة من الدر المنثور . (٣) الزيادة من التذكرة والدر المنثور .

Marfat.com

«ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ» أى أعمال نسكهم التى ألزموها أنفسهم بإحرامهم بالحج. وهذا يقوّى قول قتادة . وأن النذر يندرج فيه ما ٱلتزمه المرء بإيمانه من ٱمتثال أمر الله ؛ قاله القُشيرى . وروى أشهب عن مالك أنه قال : « يُوفُونَ بِالنَّذْرِ » هو نذر العتق والصيام والصلاة . وروى عنه أبو بكر بن عبد العزيز قال مالك : « يُوفُونَ بِالنَّذْرِ » قال : النذر : هو اليمين .

قوله تعالى : ﴿ وَيَخَافُونَ ﴾ أى يحذرون ﴿ يَوْمًا ﴾ أى يوم القيامة . ﴿ كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ أى عاليًا داهيًا فاشيًا (١) وهو فى اللغة ممتدًا ؛ والعرب تقول : ٱستطار الصدع فى القارورة والزجاجة وٱستطال : إذا ٱمتد ؛ قال الأعشى :

وبَانَتْ وقد أَسْأَرَتْ (٢) فى الفُؤَا * دِ صَدْعًا على نَأْيِهَا مُسْتَطِيرًا

ويقال : ٱستطار الحريق : إذا ٱنتشر . وٱستطار الفجر إذا ٱنتشر الضوء .

وقال حسان :

وهَانَ على سَرَاة بنى لُؤَىٍّ * حرِيقٌ بالبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ (٣)

وكان قتادة يقول : ٱستطار والله شرُّ ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض . وقال مقاتل : كان شره فاشيًا فى السموات فٱنشقت ، وتناثرت الكواكب ، وفزعت الملائكة ، وفى الأرض نُسِفت الجبالُ وغارت المياهُ .

قوله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ قال ٱبن عباس ومجاهد : على قِلّته وحبّهم إياه وشهوتهم له . وقال الدارانى : على حبّ الله . وقال الفُضَيل بن عِياض : على حبّ إطعام الطعام . وكان الربيع بن خيثم إذا جاءه السائل قال : أطعموه سُكَّرًا فإن الربيع يحب السكر . ﴿ مِسْكِينًا ﴾ أى ذا مسكنة . وروى أبو صالح عن ٱبن عباس قال : هو الطوّاف يسألك مالَكَ ﴿ وَيَتِيمًا ﴾ أى من يتامى المسلمين . وروى منصور عن الحسن : أن

(١) فى ا ، ح ، ل ، و : « فاسيا » وهو تحريف . (٢) ويروى : أورثت .

(٣) سراة بنى لؤى أى خيارهم . والبويرة : موضع ببنى قريظة ؛ يشير إلى ما فعله المسلمون ببنى قريظة .

Marfat.com

يتيما كان يحضر طعام ٱبن عمر ، فدعا ذات يوم بطعامه ، وطلب اليتيم فلم يجده ، وجاءه بعد ما فرغ ٱبن عمر من طعامه فلم يجد الطعام ، فدعا له بسويق وعسل ؛ فقال : دونك هذا ، فوالله ما غُبِنتَ ؛ قال الحسن وٱبن عمر : والله ما غُبِن . ﴿ وَأَسِيراً ﴾ أى الذى يؤسر فيحبس . فروى أبو صالح عن ٱبن عباس قال : الأسير من أهل الشرك يكون فى أيديهم . وقاله قتادة . وروى ٱبن أبى نجيح عن مجاهد قال : الأسير هو المحبوس . وكذا قال سعيد ٱبن جُبير وعطاء : هو المسلم يُحبس بحق . وعن سعيد بن جبير مثل قول قتادة وٱبن عباس. قال قتادة : لقد أمر الله بالأسرى أن يحسن إليهم ، وأن أسراهم يومئذ لأهل الشرك ، وأخوك المسلم أحقُّ أن تطعمه . وقال عِكرمة : الأسير العبد . وقال أبو حمزة الثُّمَالى : الأسير المرأة ، يدل عليه قوله عليه السلام : " ٱستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عَوانٍ عندكم " أى أسيرات . وقال أبو سعيد الخُدرى : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً » فقال : " المسكين الفقير ، واليتيم الذى لا أب له ، والأسير المملوك والمسجون " ذكره الثعلبى . وقيل : نسخ إطعام المسكين آية الصدقات ، وإطعام الأسير [آية] السيف ؛ قاله سعيد بن جُبير . وقال غيره : بل هو ثابت الحكم ، وإطعام اليتيم والمسكين على التطوع ، وإطعام الأسير لحفظ نفسه إلا أن يتخير فيه الإمام . الماوردى : ويحتمل أن يريد بالأسير الناقص العقل ؛ لأنه فى أسر خَبْله وجنونه ، وأسر المشرك ٱنتقام يقف على رأى الإمام ؛ وهذا بِرٌّ وإحسان . وعن عطاء قال : الأسير من أهل القبلة وغيرهم .

قلت : وكأن هذا القول عام يجمع جميع الأقوال ، ويكون إطعام الأسير المشرك قربة إلى الله تعالى ، غير أنه من صدقة التطوع ، فأما المفروضة فلا . والله أعلم . ومضى القول فى المسكين واليتيم والأسير وٱشتقاق ذلك من اللغة فى « البقرة »[1] مستوفى والحمد لله .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٤ فما بعدها ، وص ٢١ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ ﴾ أى يقولون بألسنتهم للسكين واليتيم والأسير « إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ » فى الله جلّ ثناؤه فزعًا من عذابه وطمعًا فى ثوابه . ﴿ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً ﴾ أى مكافأة . ﴿ وَلَا شُكُورًا ﴾ أى ولا أن تثنوا علينا بذلك ؛ قال آبن عباس : كذلك كانت نياتهم فى الدنيا حين أطعموا . وعن سالم عن مجاهد قال : أما إنهم ما تكلّموا به ولكن علمه الله جلّ ثناؤه منهم فأثنى به عليهم ؛ ليرغب فى ذلك راغب . وقاله سعيد بن جُبير حكاه عنه القُشيرى . وقيل : إن هـذه الآية نزلت فى مُطْعِم بن ورقاء الأنصارى نذر نذرًا فوفّى به . وقيل : نزلت فيمن تكفّل بأسرى بدروهم سبعة من المهاجرين : أبو بكروعمر وعلىّ والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد وأبو عبيدة رضى الله عنهم ؛ ذكره المـاوردىّ . وقال مقاتل : نزلت فى رجل من الأنصـار أطعم فى يوم واحد مسكينًا ويتيمًا وأسـيرًا . وقال أبو حمـزة الثُّمـالى : بلغنى أن رجلًا قال يا رسول الله أطعمنى فإنى والله مجهود ؛ فقال : " والذى نفسى بيده ما عنـدى ما أطعمك ولكن آطلب " فأتى رجلًا من الأنصار وهو يتعشى مع آمرأته فسأله ، وأخبره بقول النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ فقالت المرأة : أطعمه وآسقه . ثم أتى النبىّ صلى الله عليه وسـلم يتيم فقال : يا رسول الله ! أطعمنى فإنى مجهود . فقال : " ما عندى ما أطعمك ولكن آطلب " فآستطعم ذلك الأنصارىّ فقالت المرأة : أطعمه وآسقه ، فأطعمه . ثم أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم أسير فقال : يا رسـول الله ! أطعمنى فإنى مجهود . فقال : " والله ما معى ما أطعمك ولكن آطلب " فجاء الأنصارىّ فطلب ، فقالت المـرأة : أطعمه وآسقه . فنزلت : « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا » ذكره الثعلبىّ . وقال أهل التفسير : نزلت فى علىّ وفاطمة رضى الله عنهما وجارية لهما آسمها فضة .

قلت : والصحيح أنها نزلت فى جميع الأبرار ، ومَن فعل فعلًا حسنًا ؛ فهى عامة . وقد ذكر النقاش والثعلبىّ والقشيرىّ وغير واحد من المفسّرين فى قصة علىّ وفاطمة وجاريتهما حديثًا لا يصح ولا يثبت ، رواه ليث عن مجاهد عن آبن عباس فى قوله عزّ وجلّ : « يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا . وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا » قال :

Marfat.com

مرض الحسن والحسين فعادهما رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعادهما عامة العرب، فقالوا: يا أبا الحسن — ورواه جابر الجُعْفيّ عن قَنْبَر مولى عليّ قال: مرض الحسن والحسين حتى عادهما أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا أبا الحسن — رجع الحديث إلى حديث ليث بن أبي سليم — لو نذرتَ عن ولديك شيئًا، وكل نذر ليس له وفاء فليس بشيء. فقال رضي الله عنه: إن بَرَأ ولداي صمت لله ثلاثة أيام شكرًا. وقالت جارية لهم نوبية: إن بَرَأ سيّداي صمت لله ثلاثة أيام شكرًا. وقالت فاطمة مثل ذلك. وفي حديث الجُعْفيّ فقال الحسن والحسين: علينا مثل ذلك فأُلْبِس الغلامان العافية، وليس عند آل محمد قليل ولا كثير، فانطلق عليّ إلى شمعون بن حاريا الخيبريّ، وكان يهوديا، فاستقرض منه ثلاثة أصوُع من شعير، فجاء به، فوضعه ناحية البيت، فقامت فاطمة إلى صاع فطحنته واختبزته، وصلّى عليٌّ مع النبيّ صلى الله عليه وسلم، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين يديه. وفي حديث الجُعْفيّ: فقامت الجارية إلى صاع من شعير فخبزت منه خمسة أقراص، لكل واحد منهم قرص، فلما مضى صيامهم الأول وضع بين أيديهم الخبز والملح الجريش، إذ أتاهم مسكين، فوقف بالباب وقال: السلام عليكم أهلَ بيت محمد — في حديث الجُعْفي — أنا مسكين من مساكين أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وأنا والله جائع؛ أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة. فسمعه عليّ رضي الله عنه، فأنشأ يقول[1]:

فاطمَ ذاتَ الفضلِ واليقينْ • يابنتَ خيرِ الناسِ أجمعينْ
أما تَرَيْنَ البائسَ المسكينْ • قد قام بالباب له حنينْ
يشكو إلى الله ويستكينْ • يشكو إلينا جائعٌ حزينْ
كل أمرئٍ بكسبه رهينْ • وفاعل الخيرات يستبينْ

(١) هذه الأبيات والتي بعدها كل النسخ مجمعة على تحريفها، ولقد أحسن أبو حيان إذ يقول فيها: وذكر النقاش في ذلك حكاية طويلة جدا، ظاهرة الاختلاق، وفيها أشعار للمسكين واليتيم والأسير يخاطبون بها بيت النبوة، وأشعار لفاطمة رضي الله عنها تخاطب كل واحد منهم، ظاهرها الاختلاق لسفساف ألفاظها وكسر أبياتها وسخافة معانيها. وسيأتي للمؤلف رحمه الله ما يضعف هذا الحديث ويزيفه.

Marfat.com

موعِدُنا جَنَّــةُ عِلِّيينْ * حرّمهـا الله على الضّـنِينْ
ولِلبخيــل موقِفٌ مهـينْ * تَهـوِى بِهِ النـار إلى سِجِّينْ
شرابه الحمـــيم والغِسْـلينْ * من يفعلِ الخـيرَ يقم سمـينْ
* ويَدْخُل الجنة أىّ حِينْ *

فأنشأت فاطمة رضى الله عنها تقول :

أمرُكَ عندى يابن عمّ طاعهْ * ما بِىَ من لُؤم ولا وَضَاعهْ
غَذَيتُ فى الخـبز له صناعهْ * أُطعِمه ولا أُبالى السّـاعهْ
أرجو إذا أشبعتُ ذا المجاعهْ * أنْ أَلحقَ الأخيارَ والجمَاعهْ
* وأدخلَ الجنةَ لى شَفاعهْ *

فأطعموه الطعام، ومكثوا يومهم وليلتهم لم يذوقوا شيئاً إلا المـاء القَرَاح، فلما أن كان فى اليوم الثانى قامت إلى صاع فطحنته وآختبزته، وصلّى علىٌّ مع النبىّ صلى الله عليه وسلم، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين أيديهم؛ فوقف بالباب يتيم فقال : السلام عليكم أهل بيت محمد، يتيم من أولاد المهاجرين آستشهد والدى يوم العَقَبة(١) . أطعمونى أطعمكم الله من موائد الجنة .
فسمعه علىّ فأنشأ يقول :

فاطِمَ بنتَ السّـيدِ الـكريمْ * بنتَ نـبىٍّ ليس بالزّنيـمْ
لقــد أتى الله بِذِى اليتـيمْ * من يرحم اليوم يكن رحِيمْ
ويدخل الجنــة أى سـليمْ * قد حرم الخـلدُ على اللئيمْ
ألّا يَجوزَ الصراطَ المستقيمْ * يزلّ فى النـار إلى الجحيمْ
* شرابُه الصــديدُ والحميمْ *

فأنشأت فاطمة رضى الله عنها تقول :

أطعمــه اليــوم ولا أبالِى * وأوثر اللهَ عــلى عيالى
أمسَــوْا جياعًا وَهُمُ أَشْبالى * أصـغرُهم يُقتَــلُ فى القِتـالِ

(١) كذا فى الأصل .

Marfat.com

بِكْرٌ بَلَا يُقتَلُ بَاغتيَالِ * يا وَيلُ للقَائِلِ مَعْ وَبَالِ
تَهوِى به النار إلى سِفالِ * وفى يديه الغُلّ والأغلال
* كبولة زادت على الأكبالِ *

فاطعموه الطعام ومكثوا يومين وليلتين لم يذوقوا شيئًا إلا الماء القَرَاح ؛ فلما كانت فى اليوم الثالث قامت إلى الصاع الباقى فطحنته واختبزته ، وصلّى علىٌّ مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين أيديهم ؛ إذ أتاهم أسير فوقف بالباب فقال : السلام عليكم أهل بيت محمد ، تأسروننا وتَشُدُّوننا ولا تُطعِموننا ! أطعمونى فإنى أسير محمد . فسمعه علىّ فأنشأ يقول :

فاطمُ يا بنتَ النبىِّ أحمدْ * بنت نبىٍّ سيِّدٍ مُسَوَّدْ
وسماه الله فهو محمدْ * قد زانه الله بحسنٍ أغيدْ
هذا أسيرٌ للنبىِّ المهتدْ * مُثقَّلٌ فى غُلّه مُقيَّدْ
يَشكو إلينا الجوعَ قد تمددْ * من يُطعِمِ اليومَ يجده فى غدْ
عند العلىِّ الواحدِ الموحَّدْ * مايزرعِ الزارعُ سوف يحصُدْ
* أعطيه لا لا تجعليه أقعدْ *

فأنشأت فاطمة رضى الله تعالى عنها تقول :

لم يَبقَ مِمّا جاء غيرُ صاعْ * قد ذهبت كَفّى مع الذِّراعْ
ابنَاىَ والله هُمَا جِيَاعْ * يارَبِّ لا تتركهما ضِياعْ
أبوهما للخير ذو اصطناعْ * يَصطنِعُ المعروفَ بابتداعْ
عَبْلُ الذِّراعين شديد الباعْ * وما على رأسِىَ مِن قِناعْ
* إلا قِناعًا نَسجُه أَنْسَاعْ[(١)] *

فأعطوه الطعام ومكثوا ثلاثة أيام ولياليها لم يذوقوا شيئًا إلا الماء القَرَاح ؛ فلما أن كان فى اليوم الرابع ، وقد قضى الله النذر أخذ بيده اليمنى الحسن ، وبيده اليسرى الحسين ، وأقبل نحو

(١) النسع — بالكسر — : سير يضفر على هيئة أعنة النعال ، تشد به الرحال .

رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع؛ فلما أبصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " يا أبا الحسن ما أشد ما يسوءنى ما أرى بكم انطلق بنا إلى ابنتى فاطمة " فانطلقوا إليها وهى فى محرابها، وقد لصق بطنها بظهرها، وغارت عيناها من شدة الجوع، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرف المجاعة فى وجهها بكى وقال: " واغوثاه يا الله، أهل بيت محمد يموتون جوعًا " فهبط جبريل عليه السلام وقال: السلام عليك، ربك يقرئك السلام يا محمد، خذه هنيئًا فى أهل بيتك. قال: " وما آخذ يا جبريل " فأقرأه « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ » إلى قوله: « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا » قال الترمذى الحكيم أبو عبد الله فى نوادر الأصول: فهذا حديث مُزَوَّق مُزَيَّف، قد تَطرَّف فيه صاحبه حتى تَشبَّه على المستمعين، فالجاهل بهذا الحديث يَعَضُّ شفتيه تلهفًا ألّا يكون بهذه الصفة، ولا يعلم أن صاحب هذا الفعل مذموم؛ وقد قال الله تعالى فى تنزيله: « وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ » وهو الفضل الذى يفضل عن نفسك وعيالك، وجرت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم متواترة بأن " خير الصدقة ما كان عن ظهر غنًى ". " وابدأ بنفسك ثم بمن تعول " وافترض الله على الأزواج نفقة أهاليهم وأولادهم. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يَقُوت " أفيحسب عاقل أن عليًّا جهل هذا الأمر حتى أجهد صبيانًا صغارًا من أبناء خمس أو ست على جوع ثلاثة أيام ولياليهن؟ حتى تَضوّروا من الجوع، وغارت العيون منهم؛ لخلاء أجوافهم، حتى أبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بهم من الجهد. هَبْ أنه آثر على نفسه هذا السائل، فهل كان يجوز له أن يحمل أهله على ذلك؟! وهَبْ أن أهله سمحت بذلك لعلىّ فهل جاز له أن يحمل أطفاله على جوع ثلاثة أيام بلياليهن؟! ما يُروج مثل هذا إلا على حمقى جهال؛ أبى الله لقلوب متنبهة أن تظن بعلىّ مثل هذا. وليت شعرى من حفظ هذه الأبيات كل ليلة عن علىّ وفاطمة، وإجابة كل واحد منهما صاحبه، حتى أداه إلى هؤلاء الرواة؟! فهذا وأشباهه من أحاديث أهل السجون فيما أرى. بلغنى أن قوما

Marfat.com

يُخلَّدون فى السجون فيبقون بلا حيلة ، فيكتبون أحاديث فى السَّمَر وأشباهه ، ومثل هذه الأحاديث مفتعلة ، فإذا صارت إلى الجهابذة رمَوا بها وزيَّفوها ، وما من شىء إلا له آفة ومكيدة ، وآفة الدِّين وكيدُه أكثر .

قوله تعالى : إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ « عَبُوسًا » من صفة اليوم ، أى يومًا تعبِس فيه الوجوه من هوله وشدته ، فالمعنى نخاف يومًا ذا عبوس . وقال ابن عباس يعبس الكافر يومئذ حتى يسيلَ منه عرَق كالقطران . وعن ابن عباس : العَبُوس : الضَّيِّق ، والقَمْطَرِير : الطويل ؛ قال الشاعر :

* شديدًا عبوسًا قَمْطَرِيرًا *

وقيل : القَمْطَرِير الشديد ؛ تقول العرب : يوم قَمْطَرِير وقُمَاطِر وعَصِيب بمعنًى ؛ وأنشد الفراء ؛

بَنِي عَمِّنَا هل تذكُرونَ بَلاءَنا * عليكُمْ إذا ما كان يومٌ قُمَاطِرُ

بضم القاف . واقْمَطَرَّ إذا اشتدّ . وقال الأخفش : القمطرير : أشدّ ما يكون من الأيام وأطوله فى البلاء ؛ قال الشاعر :

ففَرُّوا إذا ما الحرب ثار غُبارُها * ولَجّ بها اليومُ العَبُوسُ القُمَاطِرُ

وقال الكسائى : يقال اقْمَطَرّ اليومُ وازْمَهَرّ اقْمطرارًا وازمهرارا ، وهو القمطرير والزمهرير ، ويوم مُقْمَطِرّ إذا كان صعبًا شديدًا ؛ قال الهذلىّ[1] :

بَنُو الحرْبِ أُرْضِعنا لهم مُقْمَطِرَّةً * ومَنْ يُلْقَ مِنّا ذلكَ اليومَ يَهْرُبِ

(١) البيت لحذيفة بن أنس الهذلى ، والذى فى ديوان الهذليين :

بنو الحرب أرضعنا بها مقمطرة * ومن يلق منا يلق سيد مدرب

أرضعنا مبنى للمجهول . مقمطرة : من اقمطرت الناقة إذا لقحت . و يلق بنى للمجهول فى الفعلين . والسيد عند هذيل : الأسد . والمدرب : الضارى .

Marfat.com

وقال مجاهد : إنّ العبوس بالشفتين ، والقمطرير بالجبهة والحاجبين ؛ فجعلها من صفات الوجه المتغير من شدائد ذلك اليوم ؛ وأنشد ابن الأعرابي :

يَغْدُو على الصَّيْدِ يعودُ مُنْكَسِرْ * ويَقْمَطِرُّ ساعةً ويَكْفَهِرْ

وقال أبو عبيدة : يقال رجل قمطرير أي متقبض ما بين العينين . وقال الزجاج : يقال اقمطرّت الناقةُ : إذا رفعت ذَنَبها وجمعت قُطْرَيها، وزمّت بأنفها ؛ فاشتقه من القُطْر ، وجعل الميم مزيدة . قال أسد بن ناعصة :

واصطليتُ الحروبَ في كلّ يومٍ * باسِلِ الشَّرِّ قمطريرِ الصّباح

قوله تعالى : ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ ﴾ أي دفع عنهم ﴿ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ ﴾ أي بأسه وشدته وعذابه ﴿ وَلَقَّاهُمْ ﴾ أي أتاهم وأعطاهم حين لقوه أي رأوه ﴿ نَضْرَةً ﴾ أي حسنا ﴿ وَسُرُورًا ﴾ أي حبورا. قال الحسن ومجاهد : « نضرة » في وجوههم « وسرورا » في قلوبهم. وفي النضرة ثلاثة أوجه : أحدها أنها البياض والنقاء ؛ قاله الضحاك. الثاني الحسن والبهاء ؛ قاله ابن جبير. الثالث أنها أثر النعمة ؛ قاله ابن زيد .

قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا ﴾ على الفقر . وقال القرظي : على الصوم . وقال عطاء : على الجوع ثلاثة أيام وهي أيام النذر . وقيل : بصبرهم على طاعة الله ، وصبرهم على معصية الله ومحارمه. و « ما » : مصدرية ، وهذا على أن الآية نزلت في جميع الأبرار ومن فعل فعلا حسنا . وروى ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الصبر فقال : "الصبر أربعة : أولها الصبر عند الصدمة الأولى، والصبر على أداء الفرائض، والصبر على اجتناب محارم الله، والصبر على المصائب". ﴿ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ أي أدخلهم الجنة وألبسهم الحرير. أي يسمى

(١) في أ ، ح : « وردى » .

Marfat.com

بحرير الدنيا وكذلك الذى فى الآخرة [وفيه] ما شاء الله عزّ وجلّ من الفضل . وقد تقدم[1] : أن من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة ، وإنما ألبسه من ألبسه فى الجنة عوضًا عن حبسهم أنفسهم فى الدنيا عن الملابس التى حرم الله فيها .

قوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا ﴾ أى فى الجنة، ونصب « مُتَّكِئِينَ » على الحال من الهاء والميم فى « جَزَاهُمْ » والعامل فيها جزى ولا يعمل فيها « صَبَرُوا » ، لأن الصبر إنما كان فى الدنيا والاتكاء فى الآخرة . وقال الفرّاء : وإن شئت جعلت « مُتَّكِئِينَ » تابعًا ، كأنه قال جزاهم جنة « مُتَّكِئِينَ فِيهَا » . ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ السُّرُر فى الحِجَال وقد تقدم[2] . وجاءت عن العرب أسماء تحتوى على صفات : أحدها الأريكة لا تكون إلا فى حَجَلة على سرير ، ومنها السَّجْل ، وهو الدلو الممتلىء ماءً ، فإذا صَفِرت لم تُسَمَّ سَجْلًا ، وكذلك الذَّنُوب لا تُسَمَّى ذَنوبًا حتى تُملأ ، والكأس لا تسمى كأسًا حتى تُترَع من الخمر . وكذلك الطَّبَق الذى تُهدَى عليه الهدية مِهْدًى ، فإذا كان فارغًا قيل طَبَق أو خِوان ؛ قال ذو الرُّمَّة :

خُدُودٌ جَفَتْ فى السَّيْرِ حتَّى كأنَّمَا * يُبَاشِرْنَ بِالْمَعْزَاءِ مَسَّ الأرائِكِ[3]

أى الفرش على السرر . ﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا ﴾ أى لا يرون فى الجنة شدة حرٍّ كحرِّ الشمس ﴿ وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾ أى ولا بردًا مفرطًا ؛ قال الأعشى :

مُنَعَّمَةٌ طَفْلَةٌ كالْمَهَا * ةِ لَمْ تَرَ شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرَا[4]

وعن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اشتكت النارُ إلى ربِّها عزّ وجلّ قالت : يا ربّ أكَلَ بعضى بعضًا ، فجعل لها نَفَسين نَفَسًا فى الشتاء ونَفَسًا فى الصَّيف ، فشدّة ماتجدون من البرد من زمهريرها ، وشدّة ماتجدون من الحرّ فى الصيف

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٩ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٩٨ .

(٣) المعزاء : الأرض الصلبة . يقول : من شدة الحاجة إلى النوم يرون الأرض الصلبة ذات الحجارة مثل الفرش على الأرائك وهى السرر . ويروى : « خدودا » على أنه مفعول لفعل فى البيت قبله .

(٤) الذى فى ديوان الأعشى طبع أوربا . مبتلة الخلق مثل المهاة ... الخ .

Marfat.com

من سَمُومها". وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن هواء الجنة سَجْسَج: لاحَرٌّ ولا بردٌ" والسَّجْسَج : الظّل الممتد كما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس. وقال مُرّة الهَمْداني: الزمهرير البرد القاطع . وقال مقاتل بن حيان : هو شيء مثل رءوس الإبر ينزل من السماء في غاية البرد . وقال ابن مسعود : هو لون من العذاب، وهو البرد الشديد، حتى إن أهل النار إذا أُلقوا فيه سألوا الله أن يعذّبهم بالنار ألف سنة أهونَ عليهم من عذاب الزمهرير يومًا واحدًا . قال أبو النَّجْم :

* أو كُنتُ ريحًا كُنتُ زَمْهَريرَا *

وقال ثعلب : الزَّمْهرير : القمر بلغة طيِّء ؛ قال شاعرهم :

وليـلةٍ ظَلامُها قد اعتَـكَرْ * قَطَعْتُهَا والزَّمْهَـريرُ ما زَهَرْ

ويروى : ماظهر ؛ أي لم يطلع القمر . فالمعنى لا يرون فيهـا شمسًا كشمس الدنيا ولا قمـرًا كقمر الدنيا ، أي إنهم في ضياء مستديم، لا ليل فيه ولا نهار ؛ لأن ضوء النهار بالشمس، وضـوء الليل بالقمر . وقد مضى هذا المعنى مجودًا في سـورة « مريم » (١) عند قوله تعـالى : « وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا » . وقال ابن عباس : بينما أهل الجنة في الجنة إذ رأوا نورا ظنوه شمسًا قـد أشرقت بذلك النور الجنـة ، فيقولون : قال ربنا : « لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا » فمـا هذا النور؟ فيقول لهم رضوان : ليست هذه شمس ولا قمر، ولكن هذه فاطمة وعليّ ضحكا، فأشرقت الجنان من نور ضحكهما، وفيهما أنزل الله تعالى : « هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ » وأنشد :

أنا مَـوْلًى لِفَـتًى * أُنزِلَ فيـه هَـلْ أَتَى

ذاكَ عـليٌّ المُرتَضَى * وابن عَـمِّ المصطفَى

قوله تعالى : ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا ﴾ أي ظل الأشجار في الجنة قريبة من الأبرار، فهي مُظِلّة عليهم زيادة في نعيمهم وإن كان لا شمس ولا قمر ثَمّ؛ كما أن أمشاطهم الذهب والفضة،

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٢٧

Marfat.com

وإن كان لا وسخ ولا شعث ثَمّ . ويقال : إن ارتفاع الأشجار فى الجنة مقدار مائة عام ، فإذا اشتهى ولىّ الله ثمرتها دانت حتى يتناولها . وانتصبت « دَانِيَةً » على الحال عطفا على « مُتَّكِئِينَ » كما تقول : فى الدار عبد الله متكئا ومرسلةً عليه الحجال . وقيل : انتصبت نعتا للجنة ؛ أى وجزاهم جنةً دانيةً، فهى صفة لموصوف محذوف . وقيل : على موضع « لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا » ويرون دانيةً . وقيل : على المدح أى دنت دانيةً . قاله الفراء . « ظِلَالُهَا » الظلال مرفوعة بدانية، ولو قرئ برفع دانية على أن تكون الظلال مبتدأ ودانية الخبر لجاز، وتكون الجملة فى موضع الحال من الهاء والميم فى « وجزاهم » وقد قرئ بذلك . وفى قراءة عبد الله « وَدَانِيًا عَلَيْهِمْ » لتقدم الفعل . وفى حرف أُبَىّ « وَدَانٍ » رفع على الاستئناف (وَذُلِّلَتْ) أى سُخِّرت لهم (قُطُوفُهَا) أى ثمارها (تَذْلِيلًا) أى تسخيرا ، فيتناولها القائم والقاعد والمضطجع ، لا يرد أيديهم عنها بُعْدٌ ولا شوك؛ قاله قتادة . وقال مجاهد : إن قام أحد ارتفعت له ، وإن جلس تدلّت عليه ، وإن اضطجع دنت منه فأكل منها . وعنه أيضا : أرض الجنة من وَرِق ، وترابها الزعفران ، وطيبها مسك أذفر ، وأصول شجرها ذهب وورِق، وأفنانها اللؤلؤ والزبرجد والياقوت ، والثمر تحت ذلك كله؛ فمن أكل منها قائما لم تؤذه ، ومن أكل منها قاعدا لم تؤذه، ومن أكل منها مضطجعا لم تؤذه . وقال ابن عباس : إذا همّ أن يتناول من ثمارها تدلّت إليه حتى يتناول منها ما يريد، وتذليل القطوف تسهيل التناول . والقطوف : الثمار، الواحد قِطف بكسر القاف، سمّى به لأنه يُقطَف، كما سمّى الجَنَى لأنه يُجنى . « تذليلا » تأكيد لما وصف به من الذلّ؛ كقوله : « وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا » « وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا » . الماوردىّ : ويحتمل أن يكون تذليل قطوفها أن تبرز لهم من أكمامها، وتخلص لهم من نواها .

قلت : وفى هذا بعدٌ ؛ فقد روى ابن المبارك ، قال : أخبرنا سفيان عن حماد عن سعيد بن جُبَيْر عن ابن عباس قال : نخل الجنة : جذوعها زُمُرُّد أخضر، وكَرَبُها ذهب أحمر، وسَعَفها كُسْوة لأهل الجنة ، منها مُقَطَّعاتهم وحُلَلهم ، وثمرها أمثال القِلال والدِّلاء ، أشد

Marfat.com

بياضا من اللّبن ، وأحلى من العسل، وألين من الزُّبد ليس فيه عَجَم . قال أبو جعفر النحاس : ويقال المذلّل الذى قد ذلّله الماءُ أى أرواه . ويقال المذلّل الذى يُفيِّئُه أدنى ريح لنَعْمته ، ويقال المذلّل المُسوَّى ؛ لأن أهل الحجاز يقولون : ذَلِّلْ نخلك أى سَوِّه ، ويقال المُذَلَّل القريب المتناوَل ؛ من قولهم : حائط ذَليلٌ أى قصير . قال أبو جعفر[1] : وهذه الأقوال التى حكيناها ذكرها أهل العلم باللغة وقالوها فى قول امرئ القيس :

* وساقٍ كأنبوبِ السَّقِيِّ المُذَلَّلِ[2] *

قوله تعالى : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (١٥) قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا (١٨) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ أى يدور على هؤلاء الأبرار الخدم إذا أرادوا الشراب « بِآنِيَةٍ مِن فِضَّةٍ » قال ابن عباس : ليس فى الدنيا شىء مما فى الجنة إلا الأسماء؛ أى ما فى الجنة أشرف وأعلى وأنق. ثم لم تنف الأوانى الذهبية بل المعنى يسقون فى أوانى الفضة ، وقد يسقون فى أوانى الذهب . وقد قال تعالى : « يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ » . وقيل : نبّه بذكر الفضّة على الذهب؛ كقوله : «سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ » أى والبرد؛ فنبّه بذكر أحدهما على الثانى . والأكواب : الكِيزان العظام التى لا آذان لها ولا عُرَى، الواحد منها كوب؛ وقال عدِىّ :

مُتّكئًا تُقرَعُ[3] أبوابُه * يَسْعَى عليه العبدُ بالكُوبِ

وقد مضى فى « الزخرف »[4] . ﴿ كَانَتْ قَوَارِيرَ . قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ ﴾ أى فى صفاء القوارير وبياض الفضة ؛ فصفاؤها صفاء الزجاج وهى من فضة . وقيل : أرض الجنة

(١) كذا فى نسخ الأصل . والذى فى المطبوع : « أبو حنيفة » .
(٢) الأنبوب : البردى . والسقى : النخل المسقى . شبه ساق المرأة ببردى قد نبت تحت نخل ، فالنخل يظله من الشمس ، وذلك أحسن ما يكون منه . وصدر البيت : وكشح لطيف كالجديل مخصر .
(٣) يروى : تخفق . بدل تقرع . (٤) راجع جـ ١٦ ص ١١١ .

من فضة، والأوانى تتخذ من تربة الأرض التى هى منها . ذكره ابن عباس وقال : ليس فى الجنة شىء إلا قد أعطيتم فى الدنيا شبهه، إلا القوارير من فضة . وقال : لو أخذت فضة من فضة الدنيا فضربتها حتى تجعلها مثل جناح الذباب لم تر من ورائها الماء، ولكن قوارير الجنة مثل الفضة فى صفاء القوارير[1] . ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ قراءة العامة بفتح القاف والدال ؛ أى قدرها لهم السقاة الذين يطوفون بها عليهم . قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : أتوا بها على قدر ريهم، بغير زيادة ولا نقصان . الكلبى : وذلك ألذ وأشهى؛ والمعنى: قدرتها الملائكة التى تطوف عليهم . وعن ابن عباس أيضا : قدروها على ملء الكف لا تزيد ولا تنقص، حتى لا تؤذيهم بثقل أو بإفراط صغر . وقيل: إن الشارين قدروا لها مقادير فى أنفسهم، على ما اشتهوا وقدروا . وقرأ عبيد بن عمير والشعبى وابن سيرين « قُدِّروها » بضم القاف وكسر الدال ؛ أى جعلت لهم على قدر إرادتهم . وذكر هذه القراءة المهدوى عن على وابن عباس رضى الله عنهما ؛ وقال : ومن قرأ « قُدِّرُوهَا » فهو راجع إلى معنى القراءة الأخرى، وكأن الأصل قدروا عليها فحذف الجر ؛ والمعنى قُدِّرت عليهم؛ وأنشد سيبويه[2] :

آلَيْتَ حَبَّ العِرَاقِ الدَّهْرَ آكُلُهُ * والحَبُّ يأكُلُه فى القَرْيةِ السُّوسُ

وذهب إلى أن المعنى على حب العراق . وقيل : هذا التقدير هو أن الأقداح تطير فتغترف بمقدار شهوة الشارب ؛ وذلك قوله تعالى : « قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا » أى لا يفضل عن الرى ولا ينقص منه، فقد أُلهمت الأقداحُ معرفةَ مقدار رِى المشتهى حتى تغترف بذلك المقدار. ذكر هذا القول الترمذى الحكيم فى « نوادر الأصول » .

قوله تعالى : ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا ﴾ وهى الخمر فى الإناء . ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴾ « كَانَ » صلة؛ أى مزاجها زنجبيل، أو كان فى حكم الله زنجبيلا . وكانت العرب تستلذ من

(١) أى فى بياضها .

(٢) قائله المتلمس . ويروى : أطعمه . والرواية الصحيحة فى « آليت » بالفتح لأنه يخاطب عمرو بن هند الملك، وكان قد أقسم ألا يطعم المتلمس حب العراق . فقال له المتلمس مستهزئا آليت على حب العراق لا أطعمه، وقد وجدت منه بالشام ما يغنى عما عندك، فهو هناك كثير، بحيث يأكله السوس . وأراد بالقرية الشام .

Marfat.com

الشراب ما يُمزج بالزنجبيل لِطيب رائحته ؛ لأنه يَحْذُو اللسان ، ويهضم المأكول، فرغبوا في نعيم الآخرة بما اعتقدوه نهاية النَّعمة والطيب. وقال المسيَّب بن عَلَس يصف ثَغر المرأة:

وكَأَنَّ طَعْمَ الزنجبيلِ بِهِ * إذ ذُقْتَهُ وسُلافَةَ الخَمْرِ

ويروى: الكَرْم[(1)]. وقال آخر:

كَأَنَّ جَنِيًّا مِنَ الزَّنْجَبِيـ * ـلِ بَاتَ بِفِيهَا وأَرْيًا مَشُورًا

ونحوه قول الأعشى:

كَأَنَّ القَرَنْفُلَ والزَّنْجَبِيـ * ـلَ بَاتَا بِفِيهَا وأَرْيًا مَشُورًا

وقال مجاهد: الزنجبيل اسم للعين التي منها مزاج شراب الأبرار. وكذا قال قتادة: والزنجبيل اسم العين التي يشرب بها المقربون صِرفًا وتمزج لسائر أهل الجنة. وقيل: هي عين في الجنة يوجد فيها طعم الزنجبيل. وقيل: إنّ فيه معنى الشراب الممزوج بالزنجبيل. والمعنى كأنّ فيها زنجبيلًا. ﴿عَيْنًا﴾ بدل من كأس. ويجوز أن ينتصب بإضمار فعل أي يسقون عينًا. ويجوز نصبه بإسقاط الخافض أي من عين على ما تقدم في قوله تعالى: «عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ». ﴿فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾ السَّلْسَبيل الشراب اللذيذ، وهو فَعْلَليل من السَّلاسة؛ تقول العرب: هذا شراب سَلِسٌ وسَلْسال وسَلْسَلٌ وسَلْسَبِيل بمعنًى؛ أي طيّب الطعم لذيذه. وفي الصحاح: وتسلسل الماء في الحلق جرى، وسَلْسَلْتُه أنا صببته فيه، وماء سَلْسَل وسَلْسَال: سهل الدخول في الحلق لعذوبته وصفائه، والسُّلاسل بالضم مثله. وقال الزجاج: السَّلْسَبيل في اللغة: اسم لما كان في غاية السَّلاسة؛ فكأنّ العين سُمّيت بصفتها. وعن مجاهد قال: سَلْسَبيلا: حديدة الجَرْية تسيل في حلوقهم انسلالًا. ونحوه عن ابن عباس: إنها الحديدة الجَرْي. ذكره الماوردي؛ ومنه قول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

---

(1) الذي في ديوان الأعشى هذا البيت لا الذي بعده، وفيه: خالط فاها ... الخ والظاهر أن البيتين واحد واختلفت الرواية. والأرى: العسل.

Marfat.com

يسقُون مَنْ وَرَدَ البَرِيصَ عليهمُ • بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرَّحيق السَّلْسَلِ[1]

وقال أبو العالية ومقاتل : إنما سميت سَلْسَبِيلاً ؛ لأنها تسيل عليهم في الطرق وفي منازلهم ، تنبع من أصل العرش من جنة عدن إلى أهل الجنة . وقال قتادة : سلسة منقاد ماؤها حيث شاءوا . ونحوه عن عِكرمة . وقال القَفَّال : أي تلك عين شريفة فَسَلْ سَبِيلاً إليها . وروى هذا عن عليّ رضى الله عنه . وقوله : « تسمّى » أي إنها مذكورة عند الملائكة وعند الأبرار وأهل الجنة بهذا الاسم . وصرف سلسبيل ؛ لأنه رأس آية ؛ كقوله تعالى : « الظُّنُونَا » و « السَّبِيلَا » .

قوله تعالى : وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴾ بيّن مَن الذي يطوف عليهم بالآنية ؛ أي ويخدمهم ولدان مُخلَّدون، فإنهم أخفّ في الخدمة . ثم قال : « مُخَلَّدُونَ » أي باقون على ما هم عليه من الشّباب والغَضَاضة والحُسْن، لا يَهْرَمون ولا يتغيّرون، ويكونون على سنّ واحدة على مَرّ الأزمنة . وقيل : مُخلَّدون لا يموتون . وقيل : مُسوَّرون مُقرَّطون ؛ أي مُحلَّون والتخليد التحلية . وقد تقدم هذا[2] . ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا ﴾ أي ظننتهم من حسنهم وكثرتهم وصفاء ألوانهم : لؤلؤا مفرقا في عَرْصة المجلس ، واللؤلؤ إذا نُثِر[3] على بساط كان أحسن منه منظوما. وعن المأمون أنه ليلة زُفّت إليه بُوران بنت الحسن بن سهل، وهو

(١) البريص : نهر بدمشق . و بردى نهر آخر بدمشق أيضا أي ماء بردى . و يصفق : يمزج . والرحيق : الخمر البيضاء .
(٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٠٢
(٣) في ل، و : « واللؤلؤ إذ نثر كان أحسن ... » .

Marfat.com

على بساط منسوج من ذهب ، وقد نثرت عليه نساءُ دار الخليفة اللؤلؤ ، فنظر إليه منثورًا على ذلك البساط فآستحسن المنظر وقال : للهِ درُّ أبى نُواس كأنه أبصر هذا حيث يقول :

كأنّ صُغرى وكُبرى من فَقَاقِعها * حَصْباءُ دُرٍّ على أرضٍ مِنَ الذَّهبِ

وقيل : إنما شبههم بالمنثور ؛ لأنهم سراع فى الخدمة ، بخلاف الحور العين إذ شبههنّ باللؤلؤ المكنون المخزون ؛ لأنهنّ لا يُمتهنّ بالخدمة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ « ثَمَّ » : ظرف مكان أى هناك فى الجنة ، والعامل فى « ثَمَّ » معنى « رَأَيْتَ » أى و إذا رأيت ببصرك « ثَمَّ » . وقال الفرّاء : فى الكلام « ما » مضمرة ؛ أى و إذا رأيت ما ثَمّ ؛ كقوله تعالى : « لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ » أى ما بينكم . وقال الزجاج : « ما » موصولة بـ« ثم » على ماذكره الفرّاء ، ولا يجوز إسقاط الموصول وترك الصّلة ، ولكن « رَأَيْتَ » يتعدّى فى المعنى إلى « ثَمَّ » والمعنى : إذا رأيت ببصرك « ثَمَّ » ويعنى بـ« ثَمَّ » الجنة ، وقد ذكر الفرّاء هذا أيضا . والنعيم : سائر ما يُتنعم به . والمُلك الكبير : آستئذان الملائكة عليهم ؛ قاله السُّدى وغيره . قال الكلبى : هو أن يأتى الرسول من عند الله بكرامة من الكُسْوة والطعام والشراب والتحف إلى ولىّ الله وهو فى منزله ، فيستأذن عليه ؛ فذلك المُلْك العظيم . وقاله مقاتل بن سليمان . وقيل : المُلك الكبير : هو أن يكون لأحدهم سبعون حاجبًا ، حاجبًا دون حاجب ، فبينما ولىّ الله فيما هو فيه من اللذة والسرور إذ يستأذن عليه مَلَك من عند الله ، قد أرسله الله بكتاب وهدية وتحفة من ربّ العالمين لم يرها ذلك الولىّ فى الجنة قطّ ، فيقول للحاجب الخارج : آستأذن على ولىّ الله فإن معى كتابًا وهدية من ربّ العالمين . فيقول هذا الحاجب للحاجب الذى يليه : هذا رسول من ربّ العالمين ، معه كتاب وهديّة يستأذن على ولىّ الله ؛ فيستأذن كذلك حتى يبلغ إلى الحاجب الذى يلى ولىّ الله فيقول له : ياولىّ الله ! هذا رسول من ربّ العالمين يستأذن عليك ، معه كتاب وتُحفة من ربّ العالمين أيؤذن له ؟ فيقول : نعم ! فأذنوا له . فيقول ذلك الحاجب الذى يليه : نعم فأذنوا له (١) . فيقول الذى يليه للآخر كذلك حتى يبلغ

(١) فى ا ، ح ، ل : « فقاربوا له » .

الحاجب الآخر، فيقول له : نعم أيها الملك؛ قد أذن لك، فيدخل فيسلّم عليه ويقول : السّلام يُقرئك السّلام، وهذه تحفة، وهذا كتاب من رب العالمين إليك . فإذا هو مكتوب عليه : من الحيّ الذي لا يموت، إلى الحيّ الذي يموت . فيفتحه فإذا فيه : سلام على عبدي ووليي ورحمتي وبركاتي. ياوليي أما آن لك أن تشتاق إلى رؤية ربك؟ فيستخفه الشوق فيركب البُراق فيطير به البُراق شوقًا إلى زيارة علام الغيوب، فيعطيه مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وقال سفيان الثوريّ : بلغنا أن المُلْك الكبير تسليم الملائكة عليهم؛ دليله قوله تعالى : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ » . وقيل : المُلْك الكبير كون التيجان على رءوسهم كما تكون على رأس ملك من الملوك. وقال الترمذيّ الحكيم : يعني مُلْك التكوين، فإذا أرادوا شيئًا قالوا له كن . وقال أبو بكر الورّاق : مُلْك لا يتعقبه هُلْك . وفي الخبر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إنّ الملك الكبير هو [أنّ][1] أدناهم منزلة ينظر في مُلْكه مسيرة ألفي عام، يَرَى أقصاه كما يرى أدناه " قال : " وإن أفضلهم منزلة مَن ينظر في وجه ربّه تعالى كل يوم مرتين " سبحان المنعم[2] .

قوله تعالى : ﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ قرأ نافع وحمزة وآبن محيصن « عاليهم » ساكنة الياء، وآختاره أبو عبيد آعتبارا بقراءة آبن مسعود وآبن وثاب وغيرهما « عَالِيَتُهُمْ » وبتفسير آبن عباس : أما رأيت الرجل عليه ثياب يعلوها أفضل منها . الفراء : وهو مرفوع بالآبتداء وخبره « ثِيَابُ سُنْدُسٍ » وآسم الفاعل يراد به الجمع . ويجوز في قول الأخفش أن يكون[3] إفراده على أنه آسم فاعل متقدّم و« ثيابُ » مرتفعة به وسدّت مسدّ الخبر، والإضافة فيه في تقدير الآنفصال لأنه لم يُخصّ، وآبتدئ به لأنه آختصّ بالإضافة. وقرأ الباقون « عَالِيَهُمْ » بالنصب . وقال الفراء : هو كقولك فَوْقَهم، والعرب تقول : قومُك داخلَ الدارِ فينصبون داخل على الظرف، لأنه محلّ . وأنكر الزجاج هذا وقال : هو مما لا نعرفه في الظروف، ولو كان ظرفًا لم يجز إسكان الياء، ولكنه بالنصب على الحال من شيئين : أحدهما الهاء والميم في قوله :

(١) زيادة يقتضيها المعنى .		(٢) جملة : « سبحان المنعم » : في الأصل المطبوع .
(٣) جملة : « أن يكون » ساقطة من الأصل .

Marfat.com

« يَطُوفُ عَلَيْهِمْ » أى على الأبرار « وِلْدَانٌ » عاليـا الأبرارَ ثيابُ سندسٍ؛ أى يطوف عليهم فى هذه الحال، والثانى أن يكون حالًا من الولدان؛ أى « إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا » فى حال علو الثياب أبدانهم . وقال أبو علىّ : العامل فى الحـال إمّا « لَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا » وإمّا « جَزَاهُمْ بِمَـا صَبَرُوا » قال : ويجوز أن يكون ظرفًا فصُرِف . المهـدوى : ويجوز أن يكون آسم فاعل ظرفًا؛ كقولك هو ناحيةً من الدار، وعلى أن عاليًا لمـا كان بمعنى فوق أُجْرِى مُجْراه بجعل ظرفًا . وقرأ آبن محيصن وآبن كثير وأبو بكر عن عاصم « خُضْرٍ » بالجر على نعت السُّنْدس « وَإِسْتَبْرَقٌ » بالرفع نَسَقًا على الثياب ، ومعناه عاليهم [ثيابُ](١) سندسٍ وإستبرقٌ . وقرأ آبن عامر وأبو عمرو ويعقوب « خُضْرٌ » رفعًـا نعتًا للثياب «وَإِسْتَبْرَقٍ» بالخفض نعتًا للسُّندس ، وآختاره أبو عُبيد وأبو حاتم لجودة معناه ؛ لأن الخضر أحسن ما كانت نعتًا للثياب فهى مرفوعة ، وأحسن ما عطف الإستبرق على السُّندس عطف جنس على جنس، والمعنى: عاليَهم ثيابٌ خُضْرٌ من سندسٍ وإستبرقٍ؛ أى من هذين النوعين . وقرأ نافع وحفص كلاهما بالرفع ويكون «خُضْرٌ» نعتًا للثياب ؛ لأنهما جميعا بلفظ الجمع « وإِسْتَبْرَقٌ » عطفًا على الثياب . وقرأ الأعمش وآبن وَثّاب وحمزة والكسائىّ كلاهما بالخفض ويكون قوله : «خُضْرٍ» نعتًا للسُّندس ، والسُّندس آسم جنس، وأجاز الأخفش وصف آسم الجنس بالجمع على آستقباح له ؛ وتقول: أهلك الناسَ الدينارُ الصُّفْرُ والدرهمُ البِيضُ؛ ولكنه مستبعد فى الكلام. والمعنى على هـذه القراءة : عاليهم ثيابُ سُـندسٍ خضرٍ وثيابُ إستبرقٍ . وكلهم صرف الإستبرق إلا آبن محيصن، فإنه فتحه ولم يصرفه فقرأ «و إستبرقَ» نصبًا فى موضع الجر، على منع الصرف، لأنه أعجمى، وهو غلط؛ لأنه نكرة يدخله حرف التعريف؛ تقول الإستبرق إلا أن يزعم [آبن محيصن](٢) أنه قد يجعل علمًا لهذا الضرب من الثياب . وقرئ «وَآسْتَبْرَقَ» بوصل الهمزة والفتح على أنه سُمّى بآستفعل من البريق، وليس بصحيح أيضا؛ لأنه معرّب مشهور تعريبه، وأن أصله آستبرك(٣) . والسُّندس : ما رَقّ من الديباج . والإستبرق: ماغَلُظ منه . وقد تقدّم(٤) .

(١) زيادة تقتضيها العبارة . (٢) زيادة من ا ، ح . (٣) فى الأصل إستبرق، وهو تحريف والتصويب من القاموس الفارسى . وفى الألفاظ الفارسية وشرح القاموس أصله : « استبره » .

(٤) راجع جـ ١٠ ص ٣٩٧ و جـ ١٧ ص ١٧٩

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَحُلُّوا ﴾ عطف على « وَيَطُوفُ » . ﴿ أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ ﴾ وفى سورة فاطر « يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ » وفى سورة الحج « يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا » ، فقيل : حُلِيّ الرجل الفضة وحُلِيّ المرأة الذهب . وقيل : تارة يلبسون الذهب وتارة يلبسون الفضة . وقيل : يجمع فى يد أحدهم سواران من ذهب وسواران من فضة وسواران من لؤلؤ ، ليجتمع لهم محاسن الجنة ؛ قاله سعيد بن المسيّب . وقيل : أى لكل قوم ما تميل إليه نفوسهم . ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ قال علىّ رضى الله عنه فى قوله تعالى : « وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً » قال : إذا توجه أهل الجنة إلى الجنة مرّوا بشجرة يخرج من تحت ساقها عينان ، فيشربون من إحداهما ، فتجرى عليهم بنضرة النَّعيم ، فلا تتغير أبشارهم ، ولا تتشعث أشعارهم أبدًا ، ثم يشربون من الأخرى ، فيخرج ما فى بطونهم من الأذى ، ثم تستقبلهم خزنة الجنة فيقولون لهم : « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ » . وقال النَّخَعِىّ وأبو قِلابة : هو إذا شربوه بعد أكلهم طهّرهم ، وصار ما أكلوه وما شربوه رَشْح مِسْك ، وضَمُرت بطونهم . وقال مقاتل : هو من عينِ ماء على باب الجنة ، تنبع من ساق شجرة ، من شرب منها نزع الله ما كان فى قلبه من غِلّ وغشّ وحسدٍ ، وما كان فى جوفه من أذًى وقذر . وهذا معنى ما روى عن علىّ ، إلا أنه فى قول مقاتل عين واحدة وعليه فيكون فعولًا للمبالغة ، ولا يكون فيه حجة للحنفى أنه بمعنى الطاهر . وقد مضى بيانه فى سورة « الفرقان »[1] والحمد لله . وقال طَيِّب الجمّال : صَلَّيْتُ خَلْفَ سهل بن عبد الله العَتَمة ، فقرأ « وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً » وجعل يُحرِّك شفتيه وفمه ، كأنه يمصّ شيئًا ، فلما فرغ قيل له : أتشرب أم تقرأ ؟ فقال : والله لو لم أجد لذته عند قراءته كلذته عند شربه ما قرأته .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً ﴾ أى يقال لهم : إنما هذا جزاء لكم أى ثواب . ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُمْ ﴾ أى عملكم ﴿ مَشْكُورًا ﴾ أى من قبل الله ، وشكره للعبد قبول طاعته ، وثناؤه عليه ، وإثابته إياه . وروى سعيد عن قتادة قال : غفر لهم الذّنب وشكر لهم الحُسْنى . وقال

(١) راجع جـ ١٣ ص ٣٩

Marfat.com

مجاهد : « مَشْكُورًا » أى مقبولاً والمعنى متقارب؛ فإنه سبحانه إذا قبل العمل شكره، فإذا شكره أثاب عليه بالجزيل؛ إذ هو سبحانه ذو الفضل العظيم . روى عن ابن عمر : أن رجلًا حَبَشيًا قال : يا رسول الله ! فُضِّلتم علينا بالصُّوَر والألوان والنبوّة ، أفرأيت إن آمنتُ بما آمنت به ، وعملت بما عملت ، أكائن أنا معك فى الجنة؟ قال : " نعم والذى نفسى بيده إنه لَيُرَى بياض الأسود فى الجنة وضياؤه من مسيرة ألف عام " ثم قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من قال لا إله إلا الله كان له بها عند الله عَهْد ، ومن قال سبحان الله والحمد لله كان له بها عند الله مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة "، فقال الرجل : كيف نهلك بعدها[1] يا رسول الله ؟ فقال : " إن الرجل ليأتى يوم القيامة بالعمل لو وضعه على جبل لأثقله . فتجىء النعمة من نِعَم الله فتكاد أن تستنفد ذلك كله إلا أن يلطفَ[2] الله برحمته " . قال : ثم نزلت « هَـلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ » إلى قوله : « وَمُلْكًا كَبِيرًا » قال الحبشيّ : يا رسول الله ! وإن عينيّ لترى ما ترى عيناك فى الجنة ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " نعم " فبكى الحبشيّ حتى فاضت نَفْسه . وقال ابن عمر : فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يُدْليه فى حفرته ويقول : « إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا » قلنا : يا رسول الله وما هو ؟ قال : " والذى نفسى بيده لقد أوقفه الله ثم قال أى عبدى لأبيضنّ وجهك ولأُبَوِّئَنَّك من الجنة حيث شئت ، فنعم أجر العاملين " .

قوله تعالى : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ الَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴾ ما افتريتَه ولاجئتَ به من عندك ، ولا من تلقاء نفسك ، كما يدعيه المشركون . ووجه اتصال هذه الآية بما قبلُ أنه سبحانه لما ذكر أصناف الوعد والوعيد ، بيّن أن هذا الكتاب يتضمن ما بالناس حاجة إليه ، فليس بسحر

(١) فى ا ، ح ، و : « بعد هذا » . (٢) فى ز ، ط ، ل : يتعطف .

Marfat.com

ولا كهانة، ولا شعر، وأنه حق. وقال ابن عباس: أنزل القرآن متفرقا: آية بعد آية، ولم ينزل جملة واحدة؛ فلذلك قال «نزّلنا» وقد مضى القول في هذا مبينا[1] والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي لقضاء ربك. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: اصبر على أذى المشركين؛ هكذا قضيت. ثم نسخ بآية القتال. وقيل: أي اصبر لما حكم به عليك من الطاعات، أو انتظر حكم الله إذ وعدك أنه ينصرك عليهم، ولا تستعجل فإنه كائن لا محالة. ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا﴾ أي ذا إثم ﴿أَوْ كَفُورًا﴾ أي لا تطع الكفار. فروى معمر عن قتادة قال: قال أبو جهل: إن رأيت محمدا يصلي لأطأن على عنقه. فأنزل الله عز وجل: «وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا». ويقال: نزلت في عتبة بن ربيعة والوليد ابن المغيرة، وكانا أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضان عليه الأموال والتزويج. على أن يترك ذكر النبوة، ففيهما نزلت: «وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا». قال مقاتل: الذي عرض التزويج عتبة بن ربيعة؛ قال: إن بناتي من أجمل نساء قريش، فأنا أزوجك ابنتي من غير مهر وارجع عن هذا الأمر. وقال الوليد: إن كنت صنعت ما صنعت لأجل المال، فأنا أعطيك من المال حتى ترضى وارجع عن هذا الأمر؛ فنزلت. ثم قيل: «أو» في قوله تعالى: «آثِمًا أَوْ كَفُورًا» أوكد من الواو؛ لأن الواو إذا قلت: لا تطع زيدا وعمرا فأطاع أحدهما كان غير عاص؛ لأنه أمره ألا يطيع الاثنين، فإذا قال: «لَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا» فـ«أو» قد دلت على أن كل واحد منهما أهل أن يعصى؛ كما أنك إذا قلت: لا تخالف الحسن أو ابن سيرين، أو اتبع الحسن أو ابن سيرين فقد قلت: هذان أهل أن يتبعا وكل واحد منهما أهل لأن يتبع؛ قاله الزجاج. وقال الفراء: «أو» هنا بمنزلة «لا» كأنه قال: ولا كفورا؛ قال الشاعر:

لَا وَجْدُ ثَكْلَى كَمَا وَجَدْتُ وَلَا ۞ وَجْدُ عَجُولٍ أَضَلَّهَا رُبَعُ[2]

أَوْ وَجْدُ شَيْخٍ أَضَلَّ نَاقَتَهُ ۞ يَوْمَ تَوَافَى الحَجِيجُ فَانْدَفَعُوا

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٩ (٢) العجول من النساء والإبل: الواله التي فقدت ولدها، سميت بذلك لعجلتها في جيئتها وذهابها جزعا، وهي هنا الناقة. والربع: كصرد: الفصيل ينتج في الربيع.

Marfat.com

أراد ولا وجد شيخ . وقيل: الآثم المنافق، والكفور الكافر الذى يظهر الكفر؛ أى لا تطع منهم آثمـا ولا كفورًا . وهو قريب من قول الفراء .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أى صـلّ لربك أول النهار وآخره ، ففى أوله صلاة الصبح وفى آخره صلاة الظهر والعصر . ﴿ وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُ ﴾ يعنى صلاة المغرب والعشاء الآخرة . ﴿ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ يعنى التطوع فى الليل ؛ قاله ٱبن حبيب . وقال ٱبن عباس وسفيان : كلّ تسبيح فى القرآن فهو صلاة . وقيل : هو الذكر المطلق سواء كان فى الصـلاة أو فى غيرها . وقال ٱبن زيد وغيره : إن قوله : « وَسَبِّحْهُ لَيْـلًا طَوِيلًا » منسوخ بالصلوات الخمس . وقيل : هو ندب . وقيل : هو مخصوص بالنبيّ صلى الله عليه وسلم . وقد تقـدّم القول فى مثله فى سـورة « المزمل »(١) وقول ٱبن حبيب حسن . وجمع الأصيل : الأصائل والأُصُل ؛ كقولك سَفَائن وسُفُن ؛ قال :

* ولا بأحسنَ منها إذ دنا الأُصُلُ *

وقال(٢) فى الأصائل ، وهو جمع الجمع :

لَعَمْرِى لأَنْتَ البيتُ أُكْرِمُ أَهْلَهُ * وأقعـدُ فى أَفْيَـائِهِ بالأَصَـائِلِ

وقد مضى هذا فى آخر « الأعراف »(٣) مستوفًى . ودخلت « مِن » على الظـرف للتبعيض ، كما دخلت على المفعول فى قوله تعالى : « يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ » .

قوله تعالى : إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَـٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَـٰلَهُمْ تَبْـدِيلًا ﴿٢٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴾ : توبيخ وتقريع ، والمراد أهل مكة . والعجلة الدنيـا ﴿ وَيَذَرُونَ ﴾ أى ويدعون ﴿ وَرَاءَهُمْ ﴾ أى بين أيديهـم ﴿ يَوْمًا ثَقِيـلًا ﴾

(١) راجع ص ٣٨ من هذا الجزء . (٢) قاله أبو ذؤيب الهذلى . (٣) راجع ج ٧ ص ٣٥٥ .

Marfat.com

أى عسيرًا شديدًا كما قال : « ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى يتركون الإيمان بيوم القيامة. وقيل: « وَرَاءَهُمْ » أى خلفهم، أى ويذرون الآخرة خلف ظهورهم، فلا يعملون لهـا . وقيل : نزلت فى اليهود فيما كتموه من صفة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحة نبوته . وحبهم العاجلة : أخذهم الرشا على ما كتموه . وقيـل : أراد المنافقين ؛ لاستبطانهم الكفر وطلب الدنيا . والآية تعم . واليوم الثقيل يوم القيامة . وإنما سمى ثقيلًا لشدائده وأهواله . وقيل : للقضاء فيه بين عباده .

قوله تعـالى : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ ﴾ أى من طين . ﴿ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾ أى خَلْقهم ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتـادة ومقاتل وغيرهم . والأَسْر الخَلْق ؛ قال أبو عُبيد : يقـال فرس شديد الأَسْر أى الخَلْق . ويقال أسره الله جلّ ثناؤه إذا شدَّد خَلْقه ؛ قال لبيد :

سَاهِمُ الوجـهِ شـديدٌ أَسْرُهُ * مُشْرِفُ الحارِكِ مَحْبوكُ الكَتَدْ (١)

وقال الأخطل :

مِن كلِّ مُجْتَنِبٍ شَـديدٍ أَسْرُهُ * سَلِسِ القِيـادِ تَخـالُهُ مُخْتـالَا (٢)

وقال أبو هريرة والحسن والربيع : شددنا مفاصلهم وأوصالهم بعضها إلى بعض بالعـروق والعصب . وقال مجاهد فى تفسير الأَسْر : هو الشَّرْج، أى إذا خرج الغـائط والبول تقبَّض الموضع . وقال ابن زيد القوّة . وقال ابن أحمر يصف فرسا :

يَمْشِى بِأَوْظِفَـةٍ شِـدَادٍ أَسْرُهَا * صُمِّ السَّنَابِكِ لا تَقِى بِالجَـدْجَدِ (٣)

واشتقاقه من الإسار وهو القِـدّ الذى يشـد به الأقتاب ؛ يقـال : أَسَرْتُ القَتَبَ أَسْرًا أى شددته وربطته؛ ويقـال : ما أحسن أَسْرَ قَتَبِـه أى شدّه وربطه؛ ومنه قولهم : خذه

(١) ورد فى اللسان مادة (حبك) أنشد بيت لبيد على هذه الصورة : مشرف الحارك محبوك الكفل (وكذلك هو فى ديوانه) ، ومحبوك الكفل : مدمجه . وفى مادة حرك أنشد الشطر :

* مفبط الحارك محبوك الكفل *

أما الشطر الذى فى التفسير هنا فهو لأبى دواد وقد مر فى جـ ١٧ ص ٣٢ .

(٢) مجتنب : مفتعل من الجنيبة وهى الفرس تقاد ولا تركب ، وكانوا يركبون الإبل ويجنبون الخيل فإذا صاروا إلى الحرب ركبوا الخيل . (٣) الجدجد : الأرض الصلبة . ولا تقى : لا تتوقى ولا تهيب .

Marfat.com

بِأَسْره إذا أرادوا أن يقولوا هو لك كله ؛ كأنهم أرادوا تَعْكيمه(1) وشدّه لم يُفتح ولم يُنقص منه شيء . ومنه الأسير ، لأنه كان يُكتَف بالإسار . والكلام خرج مخرج الآمتنان عليهم بالنِّعَم حين قابلوها بالمعصية . أي سَوَّيتُ خَلْقك وأحكمته بالقوى ثم أنت تكفر بي . ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ قال آبن عباس : يقول لو نشاء لأهلكناهم وجئنا بأطوع لله منهم . وعنه أيضا : لغيّرنا محاسنهم إلى أسمج الصُّوَر وأقبحها . كذلك روى الضحاك عنه . والأول رواه عنه أبو صالح .

قوله تعالى : إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ ﴾ أي السورة ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ أي موعظة ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ أي طريقا موصّلا إلى طاعته وطلب مرضاته . وقيل : « سَبِيلًا » أي وسيلة . وقيل وجهة وطريقا إلى الجنة(2) . والمعنى واحد . ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ ﴾ أي الطاعة والآستقامة وآتخاذ السبيل إلى الله ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ فأخبر أن الأمر إليه سبحانه ليس إليهم ، وأنه لا تنفذ مشيئة أحد ولا تتقدّم، إلا أن تتقدّم مشيئته . وقرأ آبن كثير وأبو عمرو « وَمَا يَشَاءُونَ » بالياء على معنى الخبر عنهم . والباقون بالتاء على معنى المخاطبة لله سبحانه . وقيل : إن الآية الأولى منسوخة بالثانية . والأشبه أنه ليس بنسخ، بل هو تبيين أن ذلك لا يكون إلا بمشيئته . قال الفرّاء : « وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » جواب لقوله : « فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا » ثم أخبرهم أن الأمر ليس إليهم فقال : « وَمَا تَشَاءُونَ » ذلك السبيل « إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » لكم . ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا ﴾ بأعمالكم ﴿ حَكِيمًا ﴾ في أمره ونهيه لكم . وقد مضى في غير موضع .

---

(1) عكمت المتاع شددته ، والعكام الخيط الذي يعكم به ، وعكمت البعير شددت عليه العكم .

(2) في ب ، ز ، ط : إلى الخير .

Marfat.com

﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أى يدخله الجنة راحمًا له ﴿وَالظَّالِمِينَ﴾ أى و يعذب الظالمين فنصبه بإضمار يعذب. قال الزجاج: نصب الظالمين لأن قبله منصوب؛ أى يدخل من يشاء فى رحمته و يعذب الظالمين أى المشركين ويكون ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾ تفسيرًا لهذا المضمر، كما قال الشاعر:

أَصْبَحْتُ لَا أَحْمِلُ السِّلَاحَ وَلَا * أَمْلِكُ رَأْسَ الْبَعِيرِ إِنْ نَفَرَا
وَالذِّئْبَ أَخْشَاهُ إِنْ مَرَرْتُ بِهِ * وَحْدِى وَأَخْشَى الرِّيَاحَ وَالْمَطَرَا

أى أخشى الذئب أخشاه. قال الزجاج: والاختيار النصب و إن جاز الرفع؛ تقول: أعطيت زيدًا وعمرًا أعددت له برا، فيختار النصب؛ أى و بررت عمرًا أو أبر عمرا. وقوله فى «حم عسق»: «يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ» ارتفع لأنه لم يذكر بعده فعل يقع عليه فينصب فى المعنى؛ فلم يجز العطف على المنصوب قبله فارتفع بالابتداء. وها هنا قوله: «أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا» يدل على و يعذب، فجاز النصب. وقرأ أبان بن عثمان «وَالظَّالِمُونَ» رفعا بالابتداء والخبر ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾. ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أى مؤلمـا موجعًا. وقد تقدم هذا فى سورة «البقرة»[(1)] وغيرها والحمد لله. ختمت السورة.

سورة المرسلات

مكيّةٌ فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. وقال ابن عباس وقتادة إلا آية منها، وهى قوله تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ» مدنية. وقال ابن مسعود: نزلت «وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا» على النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الجن ونحن معه نسير، حتى أوينا إلى غار بمنى فنزلت، فبينا نحن نتلقاها منه، وإن فاه لرطب بها إذ وثبت حية، فوثبنا عليها لنقتلها فذهبت؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم: "وُقِيتم شرّها كما وُقِيت شرّكم". وعن كريب مولى ابن عباس قال: قرأت سورة «وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا» فسمعتنى أمّ الفضل امرأة العباس، فبكت وقالت: والله يا بنى لقد أذكرتنى بقراءتك هذه السورة إنها لآخر ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها فى صلاة المغرب. والله أعلم. وهى خمسون آية.

(١) راجع جـ ١ ص ١٩٨

Marfat.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾
وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾
عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾
وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ
أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ
مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ جمهور المفسرين على أن المرسلات الرياح . وروى مسروق عن عبد الله قال : هى الملائكة أرسلت بالمعروف من أمر الله تعالى ونهيه والخبر والوحى . وهو قول أبى هريرة ومقاتل وأبى صالح والكلبى . وقيل : هم الأنبياء أرسلوا بلا إله إلا الله ؛ قاله ابن عباس . وقال أبو صالح : إنهم الرسل تُرسَل بما يُعرَفون به من المعجزات . وعن ابن عباس وابن مسعود : إنها الرياح ؛ كما قال تعالى : « وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ » وقال : « وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ » . ومعنى « عُرْفًا » يتبع بعضها بعضا كعرف الفرس ؛ تقول العرب : الناس إلى فلان عُرْفٌ واحد : إذا توجهوا إليه فأكثروا . وهو نصب على الحال من « وَالْمُرْسَلَاتِ » أى والرياح التى أرسلت متتابعة . ويجوز أن تكون مصدرًا أى تباعًا . ويجوز أن يكون النصب على تقدير حرف الجر، كأنه قال : والمرسلات بالعُرْف، والمراد الملائكة أو الملائكة والرسل . وقيل : يحتمل أن يكون المراد بالمرسلات السحاب، لما فيها من نعمة ونقمة، عارفة بما أرسلت فيه ومن أرسلت إليه . وقيل : إنها الزواجر والمواعظ . و « عُرفا » على هذا التأويل متتابعات كعرف الفرس؛ قاله ابن مسعود . وقيل : جاريات ؛ قاله الحسن ؛ يعنى فى القلوب . وقيل : معروفات فى العقول .

Marfat.com

﴿ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴾ الرياح بغير اختلاف ؛ قاله المهدوي . وعن ابن مسعود : هي الرياح العواصف تأتي بالعصف، وهو ورق الزرع وحطامه ؛ كما قال تعالى : « فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا »(١) . وقيل : العاصفات الملائكة الموكلون بالرياح يعصفون بها . وقيل : الملائكة تعصف بروح الكافر؛ يقال: عصف بالشيء أي أباده وأهلكه ، وناقة عَصُوف أي تعصف براكبها ، فتمضي كأنها ريح في السرعة ، وعصفت الحرب بالقوم أي ذهبت بهم . وقيل : يحتمل أنها الآيات المهلكة كالزلازل والخسوف . ﴿ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴾ الملائكة الموكلون بالسحب ينشرونها . وقال ابن مسعود ومجاهد : هي الرياح يرسلها الله تعالى نشراً بين يدي رحمته ؛ أي تنشر السحاب للغيث . وروى ذلك عن أبي صالح . وعنه أيضا : الأمطار ؛ لأنها تنشر النبات، فالنشر بمعنى الإحياء؛ يقال : نشر الله الميّت وأنشره أي أحياه . وروى عنه السدي : أنها الملائكة تنشر كتب الله عزّ وجلّ . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : يريد ما ينشر من الكتب وأعمال بني آدم . الضحاك : إنها الصحف تنشر على الله بأعمال العباد . وقال الربيع : إنه البعث للقيامة تنشر فيه الأرواح . قال : « وَالنَّاشِرَاتِ » بالواو ؛ لأنه استئناف قسم آخر . ﴿ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴾ الملائكة تنزل بالفرق بين الحق والباطل ؛ قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وأبو صالح . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : ما تفرق الملائكة من الأقوات والأرزاق والآجال . وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : الفارقات الرياح تفرق بين السحاب وتبدده . وعن سعيد عن قتادة قال : « الْفَارِقَاتِ فَرْقًا » الفرقان، فرّق الله فيه بين الحق والباطل والحرام والحلال. وقاله الحسن وابن كيسان. وقيل : يعني الرسل فرّقوا بين ما أمر الله به ونهى عنه أي بيّنوا ذلك . وقيل : السحابات الماطرة تشبيهاً بالناقة الفارق وهي الحامل التي تخرج وتندّ في الأرض حين تضع ، ونوق

(١) كذا في الأصول ؛ ولعل المناسب الاستشهاد بقوله تعالى : « جاءتها ريح عاصف » كما أشار إليه أبو حيان بقوله : وأن العصف من صفات الريح ... الخ .

Marfat.com

فوارقُ وفُرَّق . [وربما][1] شبهوا السحابة التى تنفرد من السحاب بهذه الناقة ؛ قال ذو الرمة :

أَوْ مُزْنَةٌ فارقٌ يجلو غواربها * تَبَوُّجُ البرقِ والظّلماءُ عُلْجُومُ[2]

﴿ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ الملائكة بإجماع ؛ أى تلق كتب الله عز وجل إلى الأنبياء عليهم السلام ؛ قاله المهدوى . وقيل : هو جبريل وسمى باسم الجمع ؛ لأنه كان ينزل بها . وقيل : المراد الرسل يلقون إلى أممهم ما أنزل الله عليهم ؛ قاله قُطْرب . وقرأ ابن عباس « فالملقّيات » بالتشديد مع فتح القاف ؛ وهو كقوله تعالى : « وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ » . ﴿ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴾ : أى تلق الوحى إعذارًا من الله أو إنذارًا إلى خلقه من عذابه ؛ قاله الفراء . وروى عن أبى صالح قال : يعنى الرسل يُعذرون ويُنذرون . وروى سعيد عن قتادة « عُذْراً » قال : عذرًا لله جلّ ثناؤه إلى خلقه ، ونُذرًا للؤمنين ينتفعون به ويأخذون به . وروى الضحاك عن ابن عباس . « عُذْرًا » أى ما يلقيه الله جل ثناؤه من معاذير أوليائه وهى التوبة « أَوْ نُذْراً » ينذر أعداءه . وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى وحفص « أَوْ نُذْرًا » بإسكان الذال وجميع السبعة على إسكان ذال « عُذْرًا » سوى ما رواه الجُعْفى والأعشى عن أبى بكر عن عاصم أنه ضم الذال . وروى ذلك عن ابن عباس والحسن وغيرهما . وقرأ إبراهيم التَّيمى وقتادة « عُذْرًا وَنُذْرًا » بالواو العاطفة ولم يجعلا بينهما ألفا . وهما منصوبان على الفاعل له أى للإعذار أو للإنذار . وقيل : على المفعول به ، قيل : على البدل من « ذِكْرًا » أى فالملقيات عذرًا أو نذرًا . وقال أبو على : يجوز أن يكون العذُر والنذُر بالتثقيل على جمع عاذر وناذر؛ كقوله تعالى : « هَٰذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ » فيكون نصبًا على الحال من الإلقاء ؛ أى يلقون الذكر فى حال العذر والإنذار . أو يكون مفعولا لـ « ذكرًا » أى « فَالْمُلْقِيَات » أى تَذَكَّرُ « عُذْرًا أَوْ نُذْرًا » . وقال المبرد : هما بالتثقيل جمع والواحد عَذير ونَذير . ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴾ هذا جواب ما تقدم من القسم ؛ أى ما توعدون من أمر القيامة لواقع بكم ونازل عليكم .

(١) الزيادة من اللسان عن الجوهرى مادة « فرق » .

(٢) تبوج البرق : تفتحه وتكشفه . علجوم : شديد السواد .

Marfat.com

ثم بيّن وقت وقوعه فقال : ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ أى ذهب ضوءها ومُحي نورُها كطمس الكتاب ؛ يقال: طَمَس الشيء إذا درس وطُمِس فهو مطموس ، والريح تطمُس الآثار فتكون الريح طامسة والأثر طامسًا بمعنى مطموس . ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴾ أى فُتحت وشُقّت ؛ ومنه قوله تعالى : « وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا » . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : فُرجت للطيّ . ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ أى ذهب بها كلها بسرعة ؛ يقال : نَسَفْتُ الشيءَ وأنسفته : إذا أخذته كله بسرعة . وكان ابن عباس والكلبيّ يقول: سُوِّيت بالأرض ، والعرب تقول : فَرَس نَسُوف إذا كان يؤخر الحزام بمرفقيه؛ قال بِشْر :

* نَسُوفٌ لِلحَزَام بمرفقيها *

ونَسَفت النـاقةُ الكلأَ : إذا رعته . وقال المبرد : نُسِفت قُلِعت من موضعها ؛ يقول الرجل للرجل يقتلع رجليه من الأرض : أَنْسَفت رجلاه . وقيل : النَّسْف تفريق الأجزاء حتى تذروها الرياح . ومنه نسف الطعام؛ لأنه يُحرَّك حتى يذهب الريح بعض ما فيه من التِّبْن . ﴿ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴾ أى جمعت لوقتها ليوم القيامة ، والوقت الأجل الذى يكون عنده الشيء المؤخر إليه؛ فالمعنى : جعل لهـا وقت وأجل للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم ؛ كما قال تعالى : « يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ » . وقيل : هـذا فى الدنيا أى جمعت الرسل لميقاتها الذى ضرب لهـا فى إنزال العـذاب بمن كذبهم بأن الكفّار مُمْهَلون . وإنمـا تزول الشكوك يوم القيامة . والأول أحسن؛ لأن التوقيت معناه شيء يقع يوم القيامة ، كالطمس ونَسْف الجبال وتشقيق السماء ولا يليق به التأقيت قبل يوم القيامة . قال أبو على : أى جعل يوم الدين والفصل لهـا وقتًا . وقيـل : أُقِّتت وُعِدت وأُجِّلت . وقيـل : « أُقِّتَتْ » أى أرسلت لأوقات معلومة على ما علمه الله وأراد . والهمزة فى « أُقِّتت » بدل من الواو[1] ؛ قاله الفراء والزجاج . قال الفراء : وكل واو ضُمّت وكانت ضمتها لازمة جاز أن يبدل منها همزة؛ تقول : صلّى القوم إحْدانا تريد وِحْدانا ، ويقولون هذه وُجُوه حسان و[أُجُوه][2] . وهذا

(١) وضع المؤلف هذا البدل عند قوله تعالى : (قل أوحى) فى أول هذا الجزء. (٢) زيادة يقتضيها المقام .

Marfat.com

لأن ضمة الواو ثقيلة . ولم يجز البدل فى قـوله : « وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ » لأن الضمة غير لازمة . وقرأ أبو عمرو وحميد والحسن ونصر . وعن عاصم ومجاهد « وُقِّتَتْ » بالواو وتشديد القـاف على الأصل . وقال أبو عمرو : وإنمـا يقرأ « أُقِّتَتْ » من قال فى وُجُوه أُجُوه . وقرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج « وُقِتَت » بالواو وتخفيف القاف . وهو فُعِلَت من الوقت ومنه « كِتَابًا مَوْقُوتًا » . وعن الحسن أيضا : « وُوقِتَتْ » بواوين ، وهو فُوعِلت من الوقت أيضا مثـل عُوهِدت . ولو قلبت الواو فى هاتين القراءتين ألفًا لجـاز . وقرأ يحيى وأيوب وخالد بن إلياس وسلام « أُقِتَتْ » بالهمزة والتخفيف ؛ لأنها مكتوبة فى المصحف بالألف . ﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴾ ؟ أى أخرت ، وهذا تعظيم لذلك اليوم فهو آستفهام على التعظيم . أى ﴿ لِيَـوْمِ الْفَصْلِ ﴾ أُجِّلت . وروى سعيد عن قتادة قال : يفصل فيه بين الناس بأعمالهم إلى الجنـة أو إلى النـار . وفى الحديث : " إذا حشر الناس يوم القيامة قاموا أربعين عاماً على رءوسهم الشمسُ شاخصةً أبصارهم إلى السماء ينتظرون الفصل " . ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ أتبع التعظيم تعظيمًا ؛ أى وما أعلمك ما يوم الفصل ؟ ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أى عذاب وخزى لمن كذّب بالله و برسله وكتبه وبيوم الفصل فهو وعيد . وكرره فى هذه السورة عند كل آية لمن كذب ؛ لأنه قسمه بينهم على قدر تكذيبهم ، فإن لكل مكذّب بشىء عذابا سوى تكذيبه بشىء آخر ، ورُبّ شىء كذّب به هو أعظم جُرْمًا من تكذيبه بغيره ؛ لأنه أقبح فى تكذيبه ، وأعظم فى الرّد على الله ، فإنمـا يقسّم له من الويل على قدر ذلك ، وعلى قدر وفاقه وهو قوله : « جَزَاءً وِفَاقًا » . وروى عن النعمان بن بشير قال : وَيْلٌ : وادٍ فى جهنم فيه ألوان العذاب . وقاله آبن عباس وغيره . قال آبن عباس : إذا خَبَت جهنمُ أُخذ من جمره فألقى عليها فيأ كل بعضها بعضا . وروى أيضا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " عُرِضت علىّ جهنم فلم أر فيها واديًا أعظم من الويْل " وروى أنه مجْمَع مايسيل من قيح أهل النار وصديدهم ، وإنما يسيل الشىء فيما سفل من الأرض وآنفطر ، وقد علم العباد فى الدنيا أن شر المواضع فى الدنيا ما آستنقع فيها مياه الأدناس والأقذار والغُسالات من الجيف وماء الحمامات ؛ فذكر أن ذلك

Marfat.com

الوادى . مستنقع صديد أهل الكفر والشرك ؛ ليعلم ذوو العقول أنه لا شيء أقذر منه قذارة ، ولا أنتن منه نتنًا ، ولا أشدّ منه مرارةً ، ولا أشدّ سوادًا منه ؛ ثم وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بما تضمن من العذاب ، وأنه أعظم وادٍ فى جهنم ، فذكره الله تعالى فى وعيده فى هذه السورة .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴾ أخبر عن إهلاك الكفار من الأمم الماضين من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴾ أى نلحق الآخرين بالأولين . ﴿ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ أى مثل ما فعلناه بمن تقدّم نفعل بمشركى قريش إما بالسيف ، وإما بالهلاك . وقرأ العامة « ثُمَّ نُتْبِعُهُمْ » بالرفع على الاستئناف ، وقرأ الأعرج « نُتْبِعْهُمْ » بالجزم عطفًا على « نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ » كما تقول : ألم تزرنى ثم أكرمك . والمراد أنه أهلك قومًا بعد قوم على اختلاف أوقات المرسلين . ثم استأنف بقوله : « كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ » يريد من يهلك فيما بعد . ويجوز أن يكون الإسكان تخفيفًا من « نُتْبِعُهُمْ » لتوالى الحركات . وروى عنه الإسكان للتخفيف . وفى قراءة ابن مسعود « ثُمَّ سَنُتْبِعُهُمْ » والكاف من « كَذَٰلِكَ » فى موضع نصب ، أى مثل ذلك الهلاك نفعله بكل مشرك . ثم قيل : معناه التهويل لهلاكهم فى الدنيا اعتبارًا . وقيل : هو إخبار بعذابهم فى الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ أى ضعيف حقير وهو النطفة وقد تقدّم . وهذه الآية أصل لمن قال : إن خلق الجنين إنما هو من ماء الرجل وحده . وقد مضى القول[1] فيه .

(١) راجع جـ ١٢ ص ٧ .

Marfat.com

﴿ فجعلناه فى قرار مكين ﴾ أى فى مكان حريز وهو الرحم . ﴿ إلى قدر معلوم ﴾ قال مجاهد : إلى أن نصوره . وقيل : إلى وقت الولادة . ﴿ فقدرنا ﴾ وقرأ نافع والكسائى « فقدّرنا » بالتشديد . وخفف الباقون ، وهما لغتان بمعنى . قاله الكسائى والفراء والقتبى . قال القتبى : قدرنا بمعنى قدّرنا مشدّدة : كما تقول : قدرت كذا وقدّرته ؛ ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم فى الهلال : " إذا غُمّ عليكم فاقدُروا له " أى قدّروا له المسير والمنازل. وقال محمد بن الجهم عن الفراء : « فقدّرنا » قال : وذكر تشديدها عن علىّ رضى الله عنه وتخفيفها : قال : ولا يبعد أن يكون المعنى فى التشديد والتخفيف واحدًا ؛ لأن العرب تقول : قُدّر عليه الموت وقُدِر : قال الله تعالى : « نحن قدّرنا بينكم الموت » قرئ بالتخفيف والتشديد ، وقُدِر عليه رزقه وقُدّر. قال : واحتج الذين خففوا فقالوا ؛ لو كانت كذلك لكانت فنعم المقدّرون . قال الفراء: وتجمع العرب بين اللغتين ؛ قال الله تعالى : « فمهل الكافرين أمهلهم رويدًا » قال الأعشى:

وأنكرتنى وما كان الذى نكرتْ * من الحوادثِ إلا الشيْبَ والصلعا

وروى عن عكرمة « فقدرنا » مخففة من القدرة ، وهو اختيار أبى عبيد وأبى حاتم والكسائى لقوله : ﴿ فنعم القادرون ﴾ ومن شدد فهو من التقدير ، أى فقدّرنا الشقى والسعيد فنعم المقدّرون . رواه ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم . وقيل : المعنى قدرنا قصيرًا أو طويلًا . ونحوه عن ابن عباس : قدرنا ملكنا . المهدوى : وهذا التفسير أشبه بقراءة التخفيف .

قلت : هو صحيح فإن عكرمة هو الذى قرأ « فقدرنا » مخففا قال : معناه فملكنا فنعم المالكون ، فأفادت الكلمتان معنيين متغايرين ؛ أى قدرنا وقت الولادة وأحوال النطفة فى التنقيل من حالة إلى حالة حتى صارت بشرا سويا ، أو الشقى والسعيد ، أو الطويل والقصير ، كله على قراءة التشديد . وقيل : هما بمعنى كما ذكرنا .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

Marfat.com

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴾ أى ضامة تضم الأحياء على ظهورها والأموات فى بطنها . وهذا يدل على وجوب مواراة الميت ودفنه ، ودفن شعره وسائر ما يزيله عنه . وقوله عليه السلام : " قُصُّوا أظافركم وادفنوا قُلاماتكم " وقد مضى فى « البقرة »[1] بيانه . يقال : كَفَتُّ الشيء أكفِته : إذا جمعته وضممته ، والكَفْت : الضم والجمع ، وأنشد سيبويه .

كِرامٌ حينَ تَنْكَفِتُ الأفاعى ☆ إلى أجحارهنّ من الصَّقيع

وقال أبو عبيد : « كِفَاتًا » أوعية . ويقال لِلنِّحْى : كِفْت وكَفِيت ، لأنه يحوى اللبن ويضمه قال :

فأنت اليومَ فوقَ الأرض حَيًّا ☆ وأنت غداً تَضُمُّكَ فى كِفَات

وخرج الشَّعبىّ فى جنازة فنظر إلى الجَبَّان فقال : هذه كِفات الأموات ، ثم نظر إلى البيوت فقال : هذه كِفات الأحياء .

و[الثانية][2] — روى عن ربيعة فى النَّبَّاش قال تقطع يده فقيل له : لم قلت ذلك ؟ قال : إن الله عز وجل يقول : « أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا » فالأرض حِرْز . وقد مضى هذا فى سورة « المائدة »[3] . وكانوا يسمّون بَقيع الغَرْقَد كَفْتة ، لأنه مقبرة تضم الموتى ، فالأرض تضم الأحياء إلى منازلهم والأموات فى قبورهم . وأيضا استقرار الناس على وجه الأرض ، ثم اضطجاعهم عليها ، انضمام منهم إليها . وقيل : هى كِفات للأحياء يعنى دفن ما يخرج من الإنسان من الفضلات فى الأرض ، إذ لا ضَمّ فى كون الناس عليها ، والضَّمّ يشير إلى الاحتفاف من جميع الوجوه . وقال الأخفش وأبو عبيدة ومجاهد فى أحد قوليه : الأحياء والأموات ترجع إلى الأرض ، أى الأرض منقسمة إلى حىّ وهو الذى ينبت ، وإلى ...

(١) راجع جـ ٢ ص ١٠٢
(٢) لم يذكر فى الأصول لفظ المسألة الثانية والمتبادر أن هنا موضعها كما يستفاد من أحكام القرآن لابن العربى .
(٣) راجع جـ ٦ ص ١٦٨

Marfat.com

وهو الذى لا ينبت . وقال الفراء : آنتصب « أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا » بوقوع الكفات عليه ؛ أى ألم نجعل الأرض كفات أحياء وأموات . فإذا نونت نصبت ؛ كقوله تعالى : « أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ . يَتِيمًا » . وقيل : نصب على الحال من الأرض ، أى منها كذا ومنها كذا . وقال الأخفش : « كِفَاتًا » جمع كافتة والأرض يراد بها الجمع فنعتت بالجمع . وقال الخليل : التكفيت : تقليب الشيء ظهراً لبطن أو بطناً لظهر . ويقال : آنكفت القومُ إلى منازلهم أى آنقلبوا . فمعنى الكفات أنهم يتصرفون على ظهرها وينقلبون إليها ويدفنون فيها . ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا ﴾ أى فى الأرض ﴿ رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ ﴾ يعنى الجبال ، والرواسى الثوابت ، والشامخات الطوال ؛ ومنه يقال : شمخ بأنفه إذا رفعه كبرا . قال : ﴿ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴾ أى وجعلنا لكم سُقْيا . والفُرات : الماء العذب يشرب ويسق منه الزرع . أى خلقنا الجبال وأنزلنا الماء الفرات . وهذه الأمور أعجب من آلبعث . وفى بعض الحديث قال أبو هريرة : فى الأرض من الجنة الفُرَات والدِّجلة ونهر الأردن . وفى صحيح مسلم : سَيحان وَجَيحان والنيل والفُرات كلٌّ من أنهار الجنة .

قوله تعالى : آنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ آنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ آنطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ أى يقال للكفار سيروا «إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تكذبون » من العذاب يعنى النار، فقد شاهدتموها عياناً . ﴿ آنطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ﴾ أى دخان ﴿ ذِى ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴾ يعنى الدخان الذى يرتفع ثم يتشعب إلى ثلاث شعب . وكذلك شأن الدخان العظيم إذا آرتفع تشعب . ثم وصف الظلّ فقال : ﴿ لَا ظَلِيلٍ ﴾ أى ليس كالظل الذى يق حرّ الشمس ﴿ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴾ أى لا يدفع من لهب جهنم شيئاً . واللهب

Marfat.com

ما يعلو على النار إذ ٱضطرمت ، من أحمر وأصفر وأخضر . وقيل : إن الشُّعَب الثلاث هي الضريع والزَّقُّوم والغِسْلين ؛ قاله الضحاك . وقيل : اللهب ثم الشرر ثم الدخان ؛ لأنها ثلاثة أحوال، هي غاية أوصاف النار إذا ٱضطرمت وٱشتدت . وقيل : عُنُق يخرج من النار فيتشعب ثلاث شعب . فأما النور فيقف على رءوس المؤمنين، وأما الدخان فيقف على رءوس المنافقين، وأما اللهب الصافي فيقف على رءوس الكافرين . وقيل : هو السُّرَادق، وهو لسان من نار يحيط بهم، ثم يتشعب منه ثلاث شعب، فتظللهم حتى يُفْرَغ من حسابهم إلى النار . وقيل : هو الظل من يحموم ؛ كما قال تعالى : « فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ . وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ . لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ »(١) على ما تقدم . وفي الحديث : ” إن الشمس تدنو من رءوس الخلائق وليس عليهم يومئذ لباس ولا لهم أكفان فتلحقهم الشمس وتأخذ بأنفاسهم ومُدّ(٢) ذلك اليوم ، ثم ينجّي الله برحمته من يشاء إلى ظلّ من ظلّه فهنالك يقولون : « فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ » “ ويقال للمكذبين : « ٱنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ » من عذاب الله وعقابه « ٱنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ » . فيكون أولياء الله جلّ ثناؤه في ظلّ عرشه أو حيث شاء من الظلّ ، إلى أن يفرغ من الحساب ثم يؤمر بكل فريق إلى مستقره من الجنة والنار . ثم وصف النار فقال : ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾ الشرر : واحدته شررة . والشرار : واحدته شرارة، وهو ما تطاير من النار في كل جهة، وأصله من شَرَّرْتُ الثوبَ إذا بسطته للشمس ليجفّ . والقصر البناء العالي . وقراءة العامة « كَالْقَصْرِ » بإسكان الصاد : أي الحصون والمدائن في العظم وهو واحد القصور . قاله ٱبن عباس وٱبن مسعود . وهو في معنى الجمع على طريق الجنس . وقيل : القصر جمع قَصْرة ساكنة الصاد، مثل جَمْرة، وجَمْر وتَمْرة وتَمْر . والقصرة : الواحدة من جَزْل الحطب الغليظ .

وفي البخاريّ عن ٱبن عباس أيضا : « تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ » قال كنا نرفع الخشب بقَصَرٍ(٣) ثلاثة أذرع أو أقلّ ، فترفعه للشتاء، فنسميه القَصَر . وقال سعيد بن جُبير والضحاك : هي

---

(١) راجع جـ ١٧ ص ٢١٣ (٢) كذا في الأصول ولعل اللفظ تلفحهم .

(٣) بنصب ثلاثة ويجوز إضافة بقصر إليها أي بقدر ثلاثة أذرع . ولفظ الحديث في (النهاية قصر) : (كنا نرفع الخشب للشتاء ثلاث أذرع أو أقل ، ونسميه القصر) .

Marfat.com

أصول الشجر والنخل العظام إذا وقع وقُطِع . وقيل : أعناقه . وقرأ ابن عباس ومجاهد وحُميد والسّلمى « كَالْقَصَرِ » بفتح الصاد، أراد أعناق النخل . والقَصَرة العنق، جمعها قَصَر وقَصَرات . وقال قتادة : أعناق الإبل . وقرأ سعيد بن جُبير بكسر القاف وفتح الصاد ، وهى أيضا جمع قَصْرة مثل بَدْرة و بِدَر وقَصْعة وقِصَع وحَلْقَة وحِلَق، لحلق الحديد . وقال أبو حاتم : ولعله لغة، كما قالوا حاجَة وحِوَج . وقيل : القَصْر: الجبل، فشبه الشرر بالقَصْر فى مقاديره، ثم شبهه فى لونه بالجمالات الصُّفْر، وهى الإبل السود؛ والعرب تسمى السُّود من الإبل صُفْرًا ؛ قال الشاعر[(١)] :

تِلْكَ خَيْلِى منه وتلك رِكَابِى * هُنَّ صُفْرٌ أَوْلَادُها كالزَّبِيبِ

أى هنّ سود . وإنما سُمّيت السود من الإبل صُفْرًا لأنه يشوب سوادها شىء من صُفرة ؛ كما قيل لبيض الظباء : الأُدْم ؛ لأن بياضها تعلوه كُدْرة : والشرر إذا تطاير وسقط وفيه بقية من لون النار أشبه شىء بالإبل السود ، لما يشوبها من صُفْرة . وفى شعر عِمْران ابن حِطّان الخارجىّ :

دَعَتْهُمْ بِأعلى صَوْتِها وَرَمَتْهُمُ * بِمثْلِ الجِمالِ الصُّفْرِ نَزّاعةُ الشَّوَى

وضعّف الترمذىّ[(٢)] هذا القول فقال : وهذا القول محال فى اللغة ، أن يكون شىء يشوبه شىء قليل، فنسب كله إلى ذلك الشائب ، فالعجب لمن قد قال هذا ، وقد قال الله تعالى : « جِمَالَاتٌ صُفْرٌ » فلا نعلم شيئاً من هذا فى اللغة . ووجهه عندنا أن النار خُلِقت من النور فهى نار مضيئة ، فلما خلق الله جهنم وهى موضع النار، حشا ذلك الموضع بتلك النار، و بعث إليها سلطانه وغضبه ، فاسودّت من سلطانه وازدادت حِدّة ، وصارت أشد سوادًا من النار ومن كل شىء سوادًا ، فإذا كان يوم القيامة وجىء بجهنم فى الموقف رمت بشررها على أهل الموقف ، غضبا لغضب الله ، والشرر هو أسود، لأنه من نار سوداء ، فإذا رمت النار بشررها فإنها ترمى الأعداء به ، فهنّ سود من سواد النار، لا يصل ذلك إلى الموحدين؛ لأنهم

---

(١) هو الأعشى .   (٢) فى نسخة : اليزيدى . وهو تصحيف .

Marfat.com

فى سرادق الرحمة قد أحاط بهم فى الموقف ، وهو الغمام الذى يأتى فيه الربّ تبارك وتعالى، ولكن يعاينون ذلك الرمى، فإذا عاينوه نزع الله ذلك السلطان والغضب عنه فى رأى العين منهم حتى يروها صفراء؛ ليعلم الموحدون أنهم فى رحمة الله لا فى سلطانه وغضبه . وكان ٱبن عباس يقول : الجمالات الصُّفر : حِبال السفن يجمع بعضها إلى بعض حتى تكون كأوساط الرجال . ذكره البخارى . وكان يقرؤها «جُمَالَاتٌ» بضم الجيم ، وكذلك قرأ مجاهد وحُميد «جُمَالَات» بضم الجيم، وهى الحبال الغلاظ، وهى قُلُوس السفينة أى حبالها. وواحد القُلُوس: قَلْس. وعن ٱبن عباس أيضا على أنها قطع النحاس. والمعروف فى الحبل الغليظ جُمَّل بتشديد الميم كما تقدم فى «الأعراف»[(1)]. «وجُمَالَات» بضم الجيم: جمع جِمَالة بكسر الجيم مُوَحّدًا، كأنه جمع جَمَل، نحو حَجَر وحِجارة، وذَكَر وذِكَارة . وقرأ يعقوب وٱبن أبى إسحاق وعيسى والجَحْدَرىّ « جُمَالَة » بضم الجيم موحدًا وهى الشىء العظيم المجموع بعضه إلى بعض . وقرأ حفص وحمزة والكسائى « جِمَالَة » و بقية السبعة « جِمَالَات » قال الفراء : يجوز أن تكون الجمالات جمع جِمَال كما يقال : رجل ورِجال ورِجالات . وقيل : شبهها بالجمالات لسرعة سيرها . وقيل : لمتابعة بعضها بعضا . والقَصْر: واحد القصور . وقَصْر الظلام: ٱختلاطه. و يقال : أتيته قصرًا أى عَشِيًّا، فهو مشترك؛ قال[(2)]:

كأنّهـم قَصْرًا مَصابيحُ راهِبٍ * بِمَوْزَنَ رَوَّى بالسَّلِيط ذُبالَها

مسألة — فى هذه الآية دليل على جواز ٱدخار الحطب والفحم وإن لم يكن من القوت، فإنه من مصالح المرء ومغانى مفاقِرِه . وذلك مما يقتضى النظر أن يكتسبه فى غير وقت حاجته؛ ليكون أرخص وحالة وجوده أمكن، كما كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يدّخر القوت فى وقت عموم وجوده من كسبه وماله ، وكل شىء محمول عليه . وقد بين ٱبن عباس هذا بقوله : كنا نعمد إلى الخشبة فنقطعها ثلاثة أذرع وفوق ذلك ودونه وندّخره للشتاء وكنا نسميه القَصَر. وهذا أصح ما قيل فى ذلك والله أعلم .

---

(1) راجع جـ ٧ ص ٢٠٧

(2) قائله كثير عزة . وموزن كمقعد : بلد بالجزيرة .

Marfat.com

قوله تعالى : هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ هذا يومُ لا ينطِقون ﴾ أى لا يتكلمون ﴿ ولا يُؤذن لهم فيعتذِرونَ ﴾ أى إن يوم القيامة له مواطن ومواقيت ، فهذا من المواقيت التى لا يتكلّمون فيها ، ولا يؤذن لهم فى الاعتذار والتنصل . وعن عِكرمة عن ابن عباس قال : سأله ابن الأزرق عن قوله تعالى : « هذا يوم لا ينطِقون » و « لا تَسْمَعُ إلا هَمْسًا » وقد قال تعالى: « وأَقْبَلَ بعضُهم على بَعْضٍ يَتَسَاءلون » فقال له : إن الله عز وجل يقول : « وإنَّ يومًا عِند ربكَ كألفِ سنة مِما تَعدُّون » فإن لكل مقدار من هذه الأيام لونا من هذه الألوان . وقيل : لا ينطقون بحجة نافعة ، ومن نطق بما لا ينفع ولا يفيد فكأنه ما نطق . قال الحسن : لا ينطقون بحجة وإن كانوا ينطقون . وقيل : إن هذا وقت جوابهم « اخسئوا فِيها ولا تكلّمون »[(١)] وقد تقدم . وقال أبو عثمان : أسكتتهم رؤيةُ الهيبة وحياءُ الذنوب . وقال الجُنيد: أىُّ عذر لِمن أعرض عن مُنعِمه وجحده وكفر أياديه ونعمه؟ و « يوم » بالرفع قراءة العامة على الابتداء والخبر ؛ أى تقول الملائكة : « هذا يوم لا ينطِقون » . ويجوز أن يكون قوله : « انطلِقوا » من قول الملائكة ، ثم يقول الله لأوليائه : هذا يوم لا ينطِق الكُفّار . ومعنى اليوم الساعة والوقت . وروى يحيى بن سلطان عن أبى بكر عن عاصم « هذا يومَ لا ينطِقون » بالنصب، ورُوِيتْ عن ابن هُرمز وغيره ، فجاز أن يكون مبنيا لإضافته إلى الفعل وموضعه رفع . وهذا مذهب الكوفيين . وجاز أن يكون فى موضع نصب على أن تكون الإشارة إلى غير اليوم . وهذا مذهب البصريين ؛ لأنه إنما بنى عندهم إذا أضيف إلى مبنىّ، والفعل هاهنا معرب . وقال الفراء فى قوله تعالى: « ولا يؤذن لهم فيعتذِرون » الفاء نَسَق أى عطف على« يُؤذَن» ، وأجيز ذلك ؛ لأن أواخر الكلام بالنون . ولو قال : فيعتذروا لم يوافق الآيات . وقد قال :

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٥٣

Marfat.com

« لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا » بالنصب وكله صواب ؛ ومثله : « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ » بالنصب والرفع .

قوله تعالى : هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ أي ويقال لهم هذا اليوم الذي يُفْصل فيه بين الخلائق ؛ فيتبين المحق من المبطل. ﴿ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴾ قال ابن عباس: جمع الذين كذبوا محمدا والذين كذبوا النبيين من قبله . رواه عنه الضحاك . ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ ﴾ أي حيلة في الخلاص من الهلاك ﴿ فَكِيدُونِ ﴾ أي فاحتالوا لأنفسكم وقاوُوني وإن تجدوا ذلك . وقيل : أي « فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ » أي قدرتم على حرب « فَكِيدُونِ » أي حاربوني . كذا روى الضحاك عن ابن عباس . قال : يريد كنتم في الدنيا تحاربون محمدا صلى الله عليه وسلم وتحاربونني فاليوم حاربوني . وقيل : أي إنكم كنتم في الدنيا تعملون بالمعاصي وقد عجزتم الآن عنها وعن الدفع عن أنفسكم . وقيل : إنه من قول النبي صلى الله عليه وسلم، فيكون كقول هود : « فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ » .

قوله تعالى: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴾ أخبر بما يصير إليه المتقون غدا ، والمراد بالظلال ظلال الأشجار وظلال القصور مكان الظل في الشعب الثلاث . وفي سورة يس « هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ »(١) . ﴿ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي يتمنون . وقراءة العامة « ظِلَالٍ » . وقرأ الأعرج والزهري وطلحة « ظُلَلٍ » جمع ظُلَّة يعني

(١) راجع جـ ١٥ ص ٤٤ .

Marfat.com

فى الجنة . ﴿ كُلُوا وَٱشْرَبُوا ﴾ أى يقال لهم غدًا هـذا بدل ما يقال للشركين « فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ » . فـ « كُلُوا وَٱشْرَبُوا » فى موضع الحال من ضمير « ٱلْمُتَّقِينَ » فى الظرف الذى هـو « فِي ظِلَالٍ » أى هم مستقرون « فِي ظِلَالٍ » مقـولًا لهم ذلك . ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أى نثيب الذين أحسنوا فى تصديقهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وأعمالهم فى الدنيا .

قوله تعـالى : كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيـلًا إِنَّـكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا ﴾ هذا مردود إلى ما تقدم قبل المتقين ، وهو وعيد وتهديد وهو حال من « الْمُكَذِّبِينَ » أى الويل ثابت لهم فى حال ما يقال لهم : « كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيـلًا » . ﴿ إِنَّـكُم مُّجْرِمُونَ ﴾ أى كافرون . وقيل : مكتسبون فعلًا يضركم فى الآخرة ، من الشرك والمعاصى .

قوله تعـالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴾ أى إذا قيل لهؤلاء المشركين : « ٱرْكَعُوا » أى صلّوا « لَا يَرْكَعُونَ » أى لا يصلون ؛ قاله مجاهد . وقال مقاتل : نزلت فى ثقيف ، امتنعوا من الصلاة فنزل ذلك فيهم . قال مقاتل : قال لهم النبيّ صـلى الله عليه وسلم : " أسلموا " وأمرهم بالصلاة فقالوا : لا نَنْحَنِى فإنها مَسبّة علينا ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا خير فى دين ليس فيه ركوع ولا سجود " . يُذْكَر أن مالكًا رحمه الله دخل المسجد بعد صلاة العصر ، وهو ممن لا يرى الركوع بعد العصر ، فجلس ولم يركع ، فقال له صبيّ : ياشيخ قم فاركع . فقام فركع ولم يحاجّه بمـا يراه مذهبا ، فقيـل له فى ذلك ، فقال : خشيت أن أكون من الذين « إِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ » . وقال ابن عبـاس : إنمـا يقال لهم هـذا فى الآخرة حين يُدْعون إلى السجود فلا يستطيعون . قتادة : هذا فى الدنيا . ابن العربى : هذه الآية

Marfat.com

حجة على وجوب الركوع وإنزاله ركنا فى الصلاة وقد آنعقد الإجماع عليه، وظن قوم أن هذا إنما يكون فى القيامة وليست بدار تكليف فيتوجه فيها أمر يكون عليه ويل وعقاب، وإنما يُدعون إلى السجود كشفا لحال الناس فى الدنيا، فمن كان لله يسجد يمكن من السجود (١)، ومن كان يسجد رئاء لغيره صار ظهره طَبَقا واحدا . وقيل : أى إذا قيل لهم آخضعوا للحق لا يخضعون، فهو عام فى الصلاة وغيرها وإنما ذكر الصلاة، لأنها أصل الشرائع بعد التوحيد . وقيل : الأمر بالإيمان؛ لأنها لا تصح من غير إيمان .

قوله تعالى : ﴿ فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾ أى إن لم يصدقوا بالقرآن الذى هو المعجز والدلالة على صدق الرسول عليه السلام، فبأى شيء يصدّقون ! وكُرِّر « ويل يومئذ للمكذبين » لمعنى تكرير التخويف والوعيد . وقيل : ليس بتكرار، لأنه أراد بكل قول منه غير الذى أراد بالآخر؛ كأنه ذكر شيئا فقال : ويل لمن يكذب بهذا، ثم ذكر شيئا آخر فقال : ويل لمن يكذب بهذا، ثم ذكر شيئا آخر فقال : ويل لمن يكذب بهذا . ثم كذلك إلى آخرها . ختمت السورة ولله الحمد .

سورة « عَمَّ » مكية وتسمى سورة « النبأ » وهى أربعون أو إحدى وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥)

قوله تعالى : ﴿ عم يتساءلون ﴾ ؟ « عم » لفظ آستفهام ؛ ولذلك سقطت منها ألف « ما » ليتميز الخبر عن الاستفهام . وكذلك (فيم، ومم) إذا آستفهمت . والمعنى عن أى شيء

(١) فى نسخة : تمكن من السجود .　(٢) كذا فى أحكام القرآن لابن العربى طبعة السعادة .

Marfat.com

يسأل بعضهم بعضا . وقال الزجاج : أصل « عَمَّ » عن ما فأدغمت النون في الميم ، لأنها تشاركها في الغُنّة . والضمير في « يتساءلون » لقريش . وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : كانت قريش تجلس لما نزل القرآن فتتحدث فيما بينها فمنهم المصدّق ومنهم المكذب به فنزلت « عم يتساءلون » ؟ وقيل : « عم » بمعنى : فيم يتشدّد المشركون ويختصمون .

قوله تعالى : ﴿ عنِ النبإ العظِيم ﴾ أي يتساءلون « عنِ النبإ العظِيم » فعن ليس تتعلق بـ« يتساءلون » الذي في التلاوة ؛ لأنه كان يلزم دخول حرف الاستفهام فيكون «عنِ النبإ العظِيم» كقولك : كم مالك أثلاثون أم أربعون ؟ فوجب لما ذكرناه من امتناع تعلقه بـ« يتساءلون » الذي في التلاوة ، وإنما يتعلق بيتساءلون آخر مضمر . وحسن ذلك لتقدم يتساءلون ؛ قاله المَهْدوِيّ . وذكر بعض أهل العلم أن الاستفهام في قوله : « عن » مكرر إلا أنه مضمر ، كأنه قال عم يتساءلون أعن النبإ العظيم ؟ فعلى هذا يكونّ متصلا بالآية الأولى . والنبأ العظيم » أي الخبر الكبير . ﴿ الّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتلفون ﴾ أي يخالف فيه بعضهم بعضا ، فيصدق واحد ويكذب آخر ؛ فروى أبو صالح عن ابن عباس قال : هو القرآن ؛ دليله قوله : « قُلْ هُوَ نَبأٌ عظِيم . أَنتُم عنهُ مُعرِضُونَ » فالقرآن نبأ وخبر وقصص ، وهو نبأ عظيم الشأن . وروى سعيد عن قتادة قال : هو البعث بعد الموت صار الناس فيه رجلين : مصدّق ومكذب . وقيل : أمر النبي صلى الله عليه وسلم . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : وذلك أن اليهود سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن أشياء كثيرة ، فأخبره الله جل ثناؤه باختلافهم ، ثم هدّدهم فقال : ﴿ كلا سَيَعْلمون ﴾ أي سيعلمون عاقبة القرآن ، أو سيعلمون البعث : أحق هو أم باطل . و « كلا » ردّ عليهم في إنكارهم البعث أو تكذيبهم القرآن ، فيوقف عليها . ويجوز أن يكون بمعنى حقا أو « ألاَ » فيُبدأ بها . والأظهر أن سؤالهم إنما كان عن البعث ؛ قال بعض علمائنا : والذي يدل عليه قوله عز وجل « إن يوم الفصلِ كان مِيقاتا » يدل على أنهم كانوا يتساءلون عن البعث . ﴿ ثم كلا سيعلمون ﴾ أي حقا لَيَعْلَمُنَّ (١) صدق ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن ومما ذكره لهم من البعث بعد الموت . وقال الضحاك : « كلا

(١) في الأصول : ليعلمون . والفعل مؤكد بالنون الثقيلة بعد القسم .

Marfat.com

سيعلمون» يعني الكافرين عاقبة تكذيبهم . «ثم كلا سيعلمون» يعني المؤمنين عاقبة تصديقهم . وقيل : بالعكس أيضا . وقال الحسن : هو وعيد بعد وعيد . وقراءة العامة فيهما بالياء على الخبر ؛ لقوله تعالى : «يتساءلون» وقوله : «ثم فيه مختلفون» . وقرأ الحسن وأبو العالية ومالك بن دينار بالتاء فيهما .

قوله تعالى : أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلم نجعلِ الأرض مِهادًا ﴾ : دلهم على قدرته على البعث ؛ أى قُدْرتنا على إيجاد هذه الأمور أعظم من قدرتنا على الإعادة . والمهاد : الوِطاء والفراش . وقد قال تعالى : «الذى جَعَلَ لكم الأرضَ فِراشا» وقُرِئَ «مَهْدًا» . ومعناه أنها لهم كالمهد للصبيّ وهو ما يمهد له فينوم عليه . ﴿ والجبال أوتادًا ﴾ أى لتسكن ولا تتكفأ ولا تميل بأهلها . ﴿ وخلقناكُم أزواجًا ﴾ أى أصنافا : ذكرا وأنثى . وقيل : ألوانا . وقيل : يدخل فى هذا كل زوج من قبيح وحسن ، وطويل وقصير ؛ لتختلف الأحوال فيقع الاعتبار ، فيشكر الفاضل ويصبر المفضول . ﴿ وجعلنا نومَكم ﴾ « جعلنا » معناه صيّرنا ؛ ولذلك تعدّت إلى مفعولين . ﴿ سُبَاتًا ﴾ المفعول الثانى ، أى راحة لأبدانكم ، ومنه يوم السَّبْت أى يوم الراحة ؛ أى قيل لبنى إسرائيل : استريحوا فى هذا اليوم ، فلا تعملوا فيه شيئا . وأنكر ابن الأنبارى هذا وقال : لا يقال للراحة سُبَات . وقيل : أصله التمدّد ؛ يقال : سبتت المرأة شعرها : إذا حلته وأرسلته ، فالسُّبَات كالمد ، ورجل مسبوت الخلق : أي ممدود . وإذا أراد الرجل أن يستريح تمدّد ، فسميت الراحه سبتا .

Marfat.com

وقيل : أصله القَطْع؛ يقال: سَبَتَ شعره سَبْتا : حَلَقه؛ وكأنه إذا نام انقطع عن الناس وعن الاشتغال، فالسُّبات يشبه الموت، إلا أنه لم تفارقه الروح . ويقال: سَير سَبْت : أى سهل لين ؛ قال الشاعر(١) :

وَمطْويةِ الأقرابِ أمّا نهارُها * فَسَبْتٌ وأمّا ليلُها فذَمِيلُ

﴿ وجعلنا الليل لِباسا ﴾ أى تلبَسكم ظلمته وتغشاكم ؛ قاله الطبرى. وقال ابن جُبير والسُّدى : أى سَكَنا لكم . ﴿وجعلنا النهار معاشا﴾ فيه إضمار، أى وقتَ معاش،أى مُتَصَرَّفا لطلب المعاش وهو كل ما يُعاش به من المطعم والمشرب وغير ذلك فـ«معاشا» على هذا اسم زمان ، ليكون الثانى هو الأول. ويجوز أن يكون مصدرا بمعنى العيش على تقدير حذف المضاف . ﴿وبنينا فوقكم سبعا شِدادا ﴾ أى سبع سموات محكمات ؛ أى محكمة الخلق وثيقة البنيان . ﴿ وجعلنا سِراجا وَهّاجا ﴾ أى وقّادا وهى الشمس. وجعل هنا بمعنى خلق؛ لأنها تعدّت لمفعول واحد والوهاج الذى له وَهَج ؛ يقال ؛ وَهَج يَهِج وَهْجا ووَهَجًا ووَهَجانا . ويقال للجوهر إذا تلألأ توهّج . وقال ابن عباس : وهّاجا منيرا متلألئا . ﴿ وأنزلنا مِن المُعصِرات ماء ثَجّاجا ﴾ قال مجاهد وقتادة : والمعصرات الرياح . وقاله ابن عباس . كأنها تَعْصِر السحاب . وعن ابن عباس أيضا: أنها السحاب. وقال سفيان والربيع وأبو العالية والضحاك: أى السحائب التى تنعصر بالماء ولما تُمطر بعد ، كالمرأة المُعْصِر التى قد دنا حيضُها ولم تحض، قال أبو النجم :

[تمشى الهُوَيْنَى مائلا خِمارُها * قد أعْصَرتْ أو قد دنا إعصارُها](٢)

[وقال آخر] :

فكان مِجَنّى دون من كنت أتقى * ثلاثُ شُخُوصٍ كاعِبان ومُعْصِرُ(٣)

---

(١) هو حميد بن ثور؛ والسبت : السير السريع . والذميل : السير اللين .

(٢) هذه الزيادة من أبي حيان ، دل عليها إجماع نسخ الأصل على ذكر أبي النجم .

(٣) البيت لعمر بن أبي ربيعة .

Marfat.com

وقال آخر[1] :

وذِى أُشُرٍ كالأُقْحُــوانِ يزينــهُ * ذِهابُ الصَّبا والمُعْصِراتُ الرَّوائِـحُ

فالرياح تسمى مُعْصرات؛ يقال : أَعْصَرت الريح تُعْصِر إعصارا : إذا أثارت العجاج، وهى الإعصار، والسحب أيضا تسمى المُعْصِرات لأنها تمطر. وقال قتادة أيضا : المُعْصِرات السماء. النَّحاس : هذه الأقوال صحاح؛ يقال للرياح التى تأتى بالمطر مُعْصِرات، والرياح تلقح السحاب؛ فيكون المطر، والمطر ينزل من الريح على هذا. ويجوز أن تكون الأقوال واحدة، ويكون المعنى وأنزلنا من ذوات الرياح المُعصِرات «ماءً ثَجَّاجا» وأصح الأقوال أن المعصرات : السحاب. كذا المعروف أن الغيث منها، ولو كان (بالمُعصرات) لكان الريح أولى. وفى الصحاح : والمعصرات السحائب تَعْتَصِر بالمطر. وأُعصِر القوم أى أُمطِروا؛ ومنه قرأ بعضهم «وفيه يُعْصَرون» والمعصِر : الجارية أول ما أدركت وحاضت؛ يقال : قد أعصرت كأنها دخلت عصر شبابها أو بلغته؛ قال الراجز[2] :

جاريةٌ بسَــفَوانَ دارها * تمشى الهُوَيْنَى ساقطا خمارُها

* قد أعصَرَتْ أو قــددنا إعصارُها *

والجمع : معَاصِر، ويقـال : هى التى قاربت الحيض؛ لأن الإعصار فى الجارية كالمراهقة فى الغلام. سمعته من أبى الغوث الأعرابى. قال غيره : والمُعصر السحابة التى حان لها أن تمطر؛ يقال أجن الزرع فهو مُجِنّ : أى صار إلى أن يُجِنّ، وكذلك السحاب إذا صار إلى أن يمطر فقد أعصر. وقال المبرِّد : يقال سحاب مُعصر أى ممسك للماء، ويُعْتَصر منه شىء بعد شىء، ومنه العَصَر بالتحريك للملجأ الذى يلجأ إليه، والعُصْرة بالضم أيضا الملجأ. وقد مضى هـذا المعنى فى سورة «يوسف»[3] والحمد لله. وقال أبو زبيد[4] :

---

(١) هو البعيث كما فى اللسان، وروايته للبيت :

وذى أشر كالأقحــوان تشوفه * ذهاب الصبا والمعصرات الدوالح

والدوالح السحائب التى أثقلها الماء : والذهاب بكسر الذال : الأمطار الضعيفة.   (٢) هو منصور بن مرثد الأسدى

(٣) راجع جـ ٩ ص ٢٠٥.   (٤) قاله فى رثاء ابن أخته وكان مات عطشا فى طريق مكة.

Marfat.com

صاديًا يستغيثُ غيرَ مُغاثٍ * ولقدْ كان عُصْرة المَنْجودِ

ومنه المُعصِر للجارية التي قد قربت من البلوغ يقال لها مُعصِر؛ لأنها تُحْبَس في البيت، فيكون البيت لها عَصَرا. وفي قراءة ابن عباس وعِكرمة «وأَنزلنا بالمعصِراتِ». والذي في المصاحف «مِن المعصِراتِ» قال أُبيّ بن كعب والحسن وابن جبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان: «مِن المعصِراتِ» أي من السموات. «ماء ثجّاجا» صبابا متتابعا؛ عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما. يقال: ثَجَجت دمَه فأنا أَثُجه ثجا، وقد ثج الدم يَثُج ثجوجا، وكذلك الماء، فهو لازم ومتعدّ. والثجاج في الآية المنصَبّ. وقال الزجاج: أي الصَّبّاب، وهو متعدّ كأنه يثج نفسه أي يَصُبّ. وقال عَبِيد بن الأبرص[1]:

فثَجّ أعلاه ثم ارتجّ أسفلُه * وضاقَ ذَرْعا بحَمْلِ الماءِ مُنْصاحِ

وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن الحج المبرور فقال: "العَجّ والثَّجّ" فالعج: رفع الصوت بالتلبية، والثج: إراقة الدماء وذبح الهدايا. وقال ابن زيد: ثجاجا كثيرا. والمعنى واحد.

قوله تعالى: ﴿ لِنخرجَ بِهِ ﴾ أي بذلك الماء ﴿حبًّا﴾ كالحنطة والشعير وغير ذلك ﴿ونَبَاتًا﴾ من الأبّ، وهو ما تأكله الدواب من الحشيش. ﴿ وجناتٍ ﴾ أي بساتين ﴿ألفافًا﴾ أي ملتفة بعضها ببعض لتشعّب أغصانها، ولا واحد له كالأوزاع والأخياف. وقيل: واحد الألفاف لِفّ بالكسر، ولُفّ بالضم. ذكره الكسائي؛ قال:

جنةٌ لُفٌّ وعيشٌ مُغْدِق * ونَدامَى كلُّهمْ بِيضٌ زُهُرْ

وعنه أيضا وأبي عبيدة: لفيف كشريف وأشراف. وقيل: هو جمع الجمع. حكاه الكسائي. يقال: جنة لَفّاء ونبت لِفّ والجمع لُفّ بضم اللام مثل حمر، ثم يجمع اللُّف ألفافا. الزمخشري: ولو قيل جمع مُلتفة بتقدير حذف الزوائد لكان وجيها. ويقال: شجرة لَفّاء وشجر لُفّ وامرأة

(١) البيت في وصف المطر، ومنصاح: منشق بالماء. وفي الديوان: فالتج أعلاه. (٢) قوله: والجمع لف بضم اللام راجع إلى جنة لفاء بدليل قوله: مثل حمر، لأنه جمع لحمراء، وأما لف بالكسر والفتح فجمعه ألفاف.

Marfat.com

لفاء: أى غليظة الساق مجتمعة اللحم . وقيل : التقدير: ونخرج به جنات ألفافا، فحذف لدلالة الكلام عليه . ثم هذا الالتفاف والانضمام معناه أن الأشجار فى البساتين تكون متقاربة[1]؛ فالأغصان من كل شجرة متقاربة لقوتها .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ يوم الفصلِ كان مِيقاتاً ﴾ أى وقتا ومجمعا وميعادا للأولين والآخرين؛ لما وعد الله من الجزاء والثواب . وسمى يوم الفصل لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه .

قوله تعالى : ﴿ يوم ينفخ فِى الصورِ ﴾ أى للبعث ﴿ فتأتُونَ ﴾ أى إلى موضع العَرْض. ﴿ أفواجًا ﴾ أى أمما، كل أمة مع إمامهم . وقيل : زمرا وجماعات. الواحد: فوج . ونصب يوما بدلا من اليوم الأول . وروى من حديث معاذ بن جبل قلت : يارسول الله ! أرأيت قول الله تعالى « يوم ينفخ فِى الصور فتأتون أفواجا » فقال النبى صلى الله عليه وسلم: "يامعاذ [بن جبل][2] لقد سألت عن أمر عظيم" ثم أرسل عينيه باكيا، ثم قال : "يُحشر عشرة أصناف من أمتى أشتاتا قد ميزهم الله تعالى من جماعات المسلمين ، وبدل صُوَرهم ، فمنهم على صورة القِرَدة وبعضهم على صورة الخنازير وبعضهم مُنكَّسون: أرجلهم أعلاهم، ووجوهُهم يُسْحَبون عليها ، وبعضهم عُمْى يترددون ، وبعضهم صُمٌّ بُكْمٌ لا يعقلون ، وبعضهم يَمضُغون ألسنتهم ، فهى مُدلَّاة على صدورهم ، يسيل القَيح من أفواههم لعابا ، يتقذرهم أهل الجمع ، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم ، وبعضهم مصلبون على جذوع من النار ، وبعضهم أشدّ نَتْنا من الجِيف ، وبعضهم ملبسون جلابيب سابغة من القَطِران لاصقة بجلودهم ؛ فأما الذين على صورة القردة فالقَتَّات من الناس — يعنى النمام — وأما الذين على صورة الخنازير ، فأهل

(١) فى أ ، ح : متقاربة الأغصان من كل ... الخ .
(٢) [بن جبل] : ساقطة من الأصل المطبوع .

Marfat.com

السُّحت والحرام والمَكْس . وأما المنكَّسون رءوسهم ووجوههم، فأَكَلة الربا، والعُمْى : من يجور فى الحكم، والصم البكم : الذين يعجبون بأعمالهم . والذين يمضغون ألسنتهم : فالعلماء والقُصّاص الذين يخالف قولهم فعلهم . والمقطعة أيديهم وأرجلهم : فالذين يؤذون الجيران . والمصلّبون على جذوع النار : فالسعاة بالناس إلى السلطان والذين هم أشد نَتْنا من الجيف فالذين يتمتعون بالشهوات واللذات ، ويمنعون حق الله من (١) أموالهم . والذين يلبسون الجلابيب : فأهل الكِبْر والفخر والخيلاء " .

قوله تعالى : ﴿ وفُتِحتِ السماء فكانت أبوابا ﴾ أى لنزول الملائكة ؛ كما قال تعالى : «ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا» . وقيل : تقطعت ، فكانت قِطعا كالأبواب فآنتصاب الأبواب على هذا التأويل بحذف الكاف . وقيل : التقدير فكانت ذات أبواب ؛ لأنها تصير كلها أبوابا . وقيل : أبوابها طُرُقها . وقيل : تنحلّ وتتناثر، حتى تصير فيها أبواب . وقيل : إن لكل عبد بابين فى السماء : بابا لعمله ، وبابا لرزقه، فإذا قامت القيامة آنفتحت الأبواب . وفى حديث الإسراء : "ثم عَرج بنا الى السماء فآستفتح جبريل، فقيل: من أنت قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد بُعث إليه ؟ قال : قد بُعث إليه . ففُتح لنا " . ﴿وسيرتِ الجبال فكانت سرابا ﴾ أى لاشيء كما أنّ السراب كذلك : يظنه الرائى ماء وليس بماء . وقيل : «سُيِّرت» نسفت من أصولها . وقيل : أُزيلت عن مواضعها .

قوله تعالى : إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

(١) وفى الدر المنثور : حق الله والفقراء ... الخ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ إن جهنم كانت مِرصادًا ﴾ : مِفعال من الرَّصد والرصَد: كل شيء كان أمامك. قال الحسن : إن على النار رَصَدًا، لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز عليه، فمن جاء بجواز جاز، ومن لم يجئ بجواز حُبِس. وعن سُفيان رضي الله عنه قال : عليها ثلاث قَناطر . وقيل «مِرصادا» ذات أَرْصاد على النسب، أي ترصد من يمرّ بها . وقال مقاتل : مَحْبِسا . وقيل : طريقا وممرّا، فلا سبيل إلى الجنة حتى يَقْطع جهنم. وفي الصّحاح : والمِرصاد: الطريق . وذكر القُشَيْريّ: أن المرصاد المكان الذى يَرْصُد فيه الواحد العدوّ، نحو المِضمار: الموضع الذى تُضَمَّر فيه الخيـل . أى هى معدّة لهم ؛ فالمِرصـاد بمعنى المحلّ ؛ فالملائكة يرصـدون الكفار حتى ينزلوا بجهنم . وذكر المـاورديّ عن أبي سِنان(١) أنهـا بمعنى راصدة ، تجازيهم بأفعالهم . وفي الصحاح : الراصد الشيء: الراقبُ له ؛ تقول : رصدَه يرصدُه رَصْدا ورَصَدًا، والترصُّد : الترقب . والمَرْصَـد : موضع الرصْد . الأصمعيّ : رَصَدْته أرصُده : ترقبته ، وأرْصدته : أعددت له . والكسائي : مثله .

قلت : فجهنم مُعَدّة مترصّدة، مُتفعِّل من الرصْد وهو الترقب؛ أي هى متطامة لمن يأتى. والمِرصاد مِفعال من أبنيـة المبالغة كالمِعطار والمِغيار، فكأنه يكثر من جهنم انتظار الكفار . ﴿ لِلطاغِين مآبا ﴾ بدل من قوله : «مِرصادا» والمآب: المرجع، أى مرجعا يرجعون إليها؛ يقال : آب يَئوب أوبة : إذا رجع . وقال قتادة : مأوًى ومنزلا . والمراد بالطاغين من طغى فى دينه بالكفر، أو فى دنياه بالظلم .

قوله تعالى : ﴿ لابثِين فِيها أحقابا ﴾ أى ماكثين فى النـار مادامت الأحقاب ، وهى لاتنقطع، فكلما مضى حُقُب جاء حُقُب . والحُقُب بضمتين: الدهر،والأحقاب الدهور. والحِقْبة بالكسر : السّنة؛ والجمع حِقَب ؛ قال متمم بن نُو يرة التميمى :

وكنا كنَدْمانَىْ جَذِيمة حِقبـةً　＊　مِن الدَّهرِ حتى قيـل لنْ يتصدّعَا
فلمـا تفرّقنـا كأَنّى ومالِكًا　＊　لِطُـولِ آجتماعٍ لم نبِتْ ليلةً معًا

(١) أ، ح، ل، و: «أبى سفيان» .

Marfat.com

والحُقُب بالضم والسكون : ثمانون سنة . وقيل : أكثر من ذلك وأقل ، على ما يأتى ، والجمع : أحقاب .
والمعنى فى الآية ؛ [لابثين](1) فيها أحقاب الآخرة التى لا نهاية لها ؛ فحذف الآخرة لدلالة الكلام عليه ؛ إذ فى الكلام ذكر الآخرة وهو كما يقال أيام الآخرة ؛ أى أيام بعد أيام إلى غير نهاية ، وإنما كان يدل على التوقيت لو قال خمسة أحقاب أو عشرة أحقاب . ونحوه وذكر الأحقاب لأن الحُقُب كان أبعد شيء عندهم ، فتكلم بما تذهب إليه أوهامهم ويعرفونها ، وهى كناية عن التأبيد ، أى يمكثون فيها أبدا . وقيل : ذكر الأحقاب دون الأيام ؛ لأن الأحقاب أهول فى القلوب ، وأدل على الخلود . والمعنى متقارب ؛ وهذا الخلود فى حق المشركين . ويمكن حمل الآية على العُصاة الذين يخرجون من النار بعد أحقاب . وقيل : الأحقاب وقت لشربهم الحميم والغَسَّاق ، فإذا انقضت فيكون لهم نوع آخر من العقاب ؛ ولهذا قال : «لابِثِين فِيها أحقابا . لا يذوقون فِيها بَرْدًا ولا شرابا . إلا حَمِيماً وغَسَّاقًا» . و «لابِثِين» اسم فاعل من لبِث ، ويقويه أن المصدر منه اللُّبث بالإسكان ، كالشُّرب . وقرأ حمزة والكسائى «لبِثِين» بغير ألف وهو اختيار أبى حاتم وأبى عبيد ، وهما لغتان ؛ يقال : رجل لابِث ولبِث ، مثل طمِع وطامِع ، وفرِه وفارِه . ويقال : هو لَبِث بمكان كذا : أى قد صار اللَّبث شأنه ، فشبه بما هو خلقة فى الإنسان نحو حَذِر وفَرِق ؛ لأن باب فَعِل إنما هو لما يكون خِلْقة فى الشيء فى الأغلب ، وليس كذلك اسم الفاعل من لابث . والحُقُب : ثمانون سنة فى قول ابن عمر وابن مُحَيصن وأبى هريرة ، والسنة ثلثمائة يوم وستون يوما ، واليوم ألف سنة من أيام الدنيا ؛ قاله ابن عباس . وروى ابن عمر هذا مرفوعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم . وقال أبو هريرة : والسنة ثلثمائة يوم وستون يوما كل يوم مثل أيام الدنيا . وعن ابن عمر أيضا : الحُقُب : أربعون سنة . السُّدِّى : سبعون سنة . وقيل : إنه ألف شهر . رواه أبو أمامة مرفوعا . بشير بن كعب : ثلثمائة سنة . الحسن : الأحقاب لا يَدرِى أحدكم هى ، ولكن ذكروا أنها مائة حُقُب ، والحُقُب الواحد منها سبعون ألف سنة ، اليوم منها كألف سنة مما تعدون . وعن أبى امامة أيضا ،

(1) [لابثين] : ساقط من ا ، ز ، ل ، ط .

Marfat.com

عن النبي صلى الله عليـه وسلم : " إن الحُقُب الواحد ثلاثون ألف سنة " ذكره المهدوى . والأول الماوردى . وقال قُطرب : هو الدهر الطويل غير المحدود . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قال النبي صلى الله عليه وسلم : "والله لا يخرُج من النار من دخلها حتى يكون فيها أحقابا، الحُقُب بضع وثمـانون سنة، والسنة ثلثمائة وستون يوما، كلّ يوم ألفُ سنة مما تَعُدُّون ؛ فلا يتكلَنَّ أحدكم على أنه يخرج من النار" . ذكره الثعلبى . القُرظى : الأحقاب : ثلاثة وأربعون، حُقُبا كل حُقُب سبعون خَريفا ، كل خريف سبعمائةِ سنة ، كل سنة ثلثمائة وستون يوما ، كل يوم ألف سنة .

قلت : هذه أقوال متعارضة، والتحديد فى الآية للخلود، يحتاج إلى توقيف يقطَع العُذْر ، وليس ذلك بثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم . وإنمـا المعنى — والله أعلم — ما ذكرناه أوّلا ؛ أى لابثين فيها أزمانا ودهورا ، كلما مضى زمن يعقبه زمن ، ودهر يعقبه دهر ، هكذا أبد الآبدين من غير انقطاع . وقال ابن كَيْسان : معنى « لابِثِينَ فِيها أحقاباً » لا غاية لها انتهاء، فكأنه قال أبدا . وقال ابن زيد ومُقاتل : إنهـا منسوخة بقوله تعـالى : « فذوقوا فلن نَزِيدكم إلا عذابا » يعنى أن العدد قد انقطع، والخلود قد حصل .

قلت : وهذا بعيد ؛ لأنه خبر، وقد قال تعالى : « ولا يدْخُلُون الجَنَّةَ حتَّى يلِجَ الجملُ فِي سَمِّ الخِياطِ » (١) على ما تقدم . هذا فى حق الكفار، فأما العُصاة الموحدون فصحيح ويكون النسخ بمعنى التخصيص . والله أعلم . وقيل : المعنى « لابِثِين فِيها أحقابا» أى فى الأرض ؛ إذ قد تقدم ذكرها ويكون الضمير فى « لا يذوقون فِيهـا بردا ولا شرابا » لجهنم . وقيل : واحد الأحقاب حُقُب وحِقْبَة ؛ قال :

فإنْ تنأَ عنهـا حِقْبـةً لا تُلاقِهـا * فأنتَ بمـا أَحْدَثْتَـهُ بِالمُجَـرِّبِ

وقال الكميت (١) :

* مَرّ لهـا بعد حِقبـةٍ حِقَبُ *

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠٦

(٢) صدر البيت : * ولا حـول غدت ولا دمن *

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ لا يَذُوقُونَ فِيها ﴾ أى فى الأحقاب ﴿ بَرْداً ولا شَرَاباً ﴾ البرد: النوم فى قول أبى عبيدة وغيره ؛ قال الشاعر[1] :

ولو شِئْتُ حَرَّمْتُ النساءَ سِواكُمُ * وإن شِئْتُ لم أَطْعَمْ نُقاخًا ولا بَرْدَا

وقاله مجاهد والسُّدِّىّ والكسائىّ والفضل بن خالد وأبو معاذ النحوى ؛ وأنشدوا قول الكندىّ :

بَرَدت مَراشِفُها علىَّ فصدنى * عنها وعن تقبيلها البَرْد

يعنى النوم . والعرب تقول : مَنع البَرْدُ البَرْدَ، يعنى : أذهب البرد النوم .

قلت : وقد جاء الحديث أنه عليه الصلاة والسلام سُئل هل فى الجنة نوم . فقال : "لا، النوم أخو الموت، والجنة لا موت فيها" فكذلك النار؛ وقد قال تعالى : « لا يُقْضَى عليهم فيموتوا » وقال ٱبن عباس : البَرْدُ : برد الشراب . وعنه أيضا : البرد النوم: والشراب الماء . وقال الزّجاج : أى لا يذوقون فيها برد ريح، ولا ظل، ولا نوم . فجعل البرد برد كل شيء له راحة، وهذا برد ينفعهم، فأما الزمهرير فهو برد يتأذّون به، فلا ينفعهم، فلهم منه من العذاب ما الله أعلم به . وقال الحسن وعطاء وٱبن زيد : بَرْدًا : أى رَوْحًا وراحة ؛ قال الشاعر[2] :

فلا الظلَّ من بردِ الضحى تستطيعُه * ولا الفَيْءَ أوقاتَ العَشِىّ[3] تذوقُ

« لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا » جملة فى موضع الحال من الطاغين، أو نعت للأحقاب؛ فالأحقاب ظرف زمان ، والعامل فيه « لابِثين » أو « لَبِثين » على تعدية فعل . ﴿ إلا حميما وغساقا ﴾ ٱستثناء منقطع فى قول من جعل البرد النوم، ومن جعله من البرودة كان بدلا منه . والحميم : الماء الحار؛ قاله أبو عبيدة . وقال ٱبن زيد: الحميم : دموع أعينهم، تجمع فى حياض ثم يُسقَونه . قال النحاس : أصل الحميم : الماء الحار، ومنه ٱشتق الحَمّام، ومنه الحُمَّى، ومنه « وظِلٍّ من

---

(١) هو العرجى : عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان . ونسب إلى العرج، وهو موضع قبل الطائف كان ينزل به . والنقاخ كغراب : الماء الطيب . (٢) قائله حميد بن ثور يصف سرحة، وكنى بها عن امرأة .

(٣) كذا فى الأصل . وفى كتب اللغة مادة « فيأ » ولا الفىء من برد العشى ... الخ .

Marfat.com

يحموم» : إنما يراد به النهاية في الحر . والغسّاق : صديد أهل النار وقيحهم . وقيل الزمهرير . وقرأ حمزة والكسائي بتشديد السين، وقد مضى في «ص»(١) القول فيه . ﴿جزاءً وفاقا﴾ أي موافقا لأعمالهم . عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما ؛ فالوِفاق بمعنى الموافقة كالقتال بمعنى المقاتلة . و «جزاء» نصب على المصدر، أي جازيناهم جزاء وافق أعمالهم ؛ قاله الفراء والأخفش . وقال الفراء أيضا : هو جمع الوِفق، والوفق واللفق واحد . وقال مقاتل : وافق العذاب الذنب، فلا ذنب أعظم من الشرك، ولا عذاب أعظم من النار . وقال الحسن وعكرمة : كانت أعمالهم سيئة، فأتاهم الله بما يسوءهم . ﴿إنهم كانوا لا يرجُون﴾ أي لا يخافون ﴿حسابا﴾ أي محاسبة على أعمالهم . وقيل : معناه لا يرجون ثواب حساب . الزجاج : أي إنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث فيرجون حسابهم . ﴿وكذّبوا بآياتنا كِذّابا﴾ أي بما جاءت به الأنبياء . وقيل : بما أنزلنا من الكتب . وقراءة العامة «كِذّابا» بتشديد الذال، وكسر الكاف، على كذّب، أي كذّبوا تكذيبا كبيرا . قال الفراء : هي لغة يمانية فسيحة ؛ يقولون : كذّبت [به](٢) كِذّابا، وخرقت القميص خِرّاقا ؛ وكل فِعل في وزن (فعّل) فمصدره فِعّال مشدد في لغتهم ؛ وأنشد بعض الكلابيين :

لقد طال ما ثبّطتني عن صحابتي * وعن حِوجٍ قِضّاؤها من شِفائيا

وقرأ علي رضي الله عنه «كِذَابا» بالتخفيف وهو مصدر أيضا . وقال أبو علي : التخفيف والتشديد جميعا : مصدر المكاذبة ، كقول الأعشى :

فصدقتها وكذّبتها(٣) * والمرءُ ينفعه كِذَابه

أبو الفتح : جاءا جميعا مصدر كَذَب وكذّب جميعا . الزمخشري : «كِذَابا» بالتخفيف مصدر كَذَب ؛ بدليل قوله :

فصدقتُها وكذَبتُها * والمرءُ ينفعه كِذابهْ

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٢١ فما بعدها . (٢) الزيادة من معاني القرآن للفراء .

(٣) قال الشهاب : وضمير صدقتها وكذبتها للنفس . والمراد : أنه يصدق نفسه : تارة ، بأن يقول إن أمانيها محققة ، وتكذيبها بخلافه ، أو على العكس .

Marfat.com

وهو مثل قوله : « أَنبتكُم من الأَرضِ نَباتاً » يعنى وكذبوا بآياتنا أفكَذَبوا كِذَّابا . أو تنصبه بـ « كَذَّبوا » ، لأنه يتضمن معنى كَذَبوا ؛ لأن كل مُكَذِّب بالحـق كاذب ؛ لأنهم إذا كانوا عنـد المسلمين كاذبين ، وكان المسلمون عندهم كاذبين ، فبينهم مُكاذبة . وقرأ ابن عمر « كُذَّابا » بضم الكاف والتشديد ، جمع كاذب ؛ قاله أبو حاتم . ونصبه على الحال الزمخشري . وقد يكون الكُذّاب : بمعنى الواحد البليغ فى الكَذِب ، يقال : رجل كُذّاب ، كقولك حُسَان وبُخّال ، فيجعله صـفة لمصدر « كَذَّبوا » أى تكذيبا كُذّابا مفـرطا كذبُه . وفى الصحاح : وقوله تعالى : «وكذبوا بِآياتنا كِذَّابا» وهو أحد مصادر المشدّد ؛ لأن مصدره قد يجئ على (تفعيل) مثل التكليم وعلى (فِعّال) كِذّاب وعلى (تفعِلة) مثل توصية ، وعلى (مُفَعَّل) ؛ « ومَزَّقْناهم كلَّ مُمزَّق » . ﴿ وكُلَّ شيءٍ أحْصَيْناهُ كِتَابًا ﴾ « كلَّ » نصب بإضمار فعل يدل عليه « أحصيناه » أى وأحصينا كل شيء أحصيناه . وقرأ أبو السَّمّال « وكُلُّ شيءٍ » بالرفع على الابتداء . « كِتَاباً » نصب على المصدر ؛ لأن معنى أحصينا : كتبنا ، أى كتبناه كتابا . ثم قيل : أراد به العلم ، فإن ما كُتِب كان أبعد من النسيان . وقيل : أى كتبناه فى اللوح المحفوظ لتعرفه الملائكة . وقيل : أراد ما كُتب على العباد من أعمالهم . فهذه كتابة صدرت عن الملائكة الموكّلين بالعباد بأمر الله تعالى إياهم بالكتابة ؛ دليله قوله تعـالى : « وإنَّ عليكُمْ لحافِظِينَ . كِراماً كاتِبِينَ » . ﴿ فذُوقوا فلنْ نَزِيدكُمْ إلّا عَذَابا ﴾ قال أبو بَرْزة : سألت النبيّ صلى الله عليـه وسلم عن أشد آية فى القرآن؟ فقال : " قوله تعالى : « فذُوقوا فلنْ نَزِيدَكم إلّا عذابا » " أى « كلما نَضِجَتْ جُلودُهمْ بَدَّلناهم جلودا غيرَها » و « كلّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيرا » .

قوله تعـالى : إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ ذكر جزاء من اتقى مخالفة أمر الله « مَفَازًا » موضع فوز ونجاة وخلاص مما فيه أهل النار . ولذلك قيل للفلاة إذا قل ماؤها : مفازة ، تفاؤلا بالخلاص منها . ﴿ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴾ هذا تفسير الفوز. وقيل : « إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا » إن للمتقين حدائقَ ؛ جمع حديقة ، وهى البستان المُحَوَّط عليه ؛ يقال أحدق به : أى أحاط . والأعناب : جمع عنب ، أى كروم أعناب ، فحذف . ﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾ كواعب : جمع كاعب وهى الناهد ؛ يقال : كَعَبت الجارية تكعَب كُعوبا ، وكَعَّبت تُكَعِّب تكعيبا ، ونَهَدت تَنْهَد نُهُودًا . وقال الضحاك : ككواعب العَذَارَى ؛ ومنه قول قيس بن عاصم :

وكَمْ مِن حَصانٍ قد حَوَينا كريمةٍ * ومِن كاعِبٍ لم تدرِ ما البُؤسُ مُعْصِرِ

والأتراب : الأقران فى السن . وقد مضى فى سورة « الواقعة »[(1)] الواحد : ترب . ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ قال الحسن وقتادة وابن زيد وابن عباس : مُتْرَعة مملوءة ؛ يقال : أدهقت الكأس : أى ملأتها ، وكأس دِهاق أى ممتلئة ؛ قال :

ألا فاسقِنِي صِرْفًا سقانِى الساقِى * مِن مائِها بِكأسِك الدِّهاقِ

وقال خِداش بن زُهَير :

أتانا عامِرٌ يبغِى قِرانَا * فأَتْرَعْنا له كأسًا دِهاقَا

وقال سعيد بن جُبير وعِكْرمة ومجاهد وابن عباس أيضا : متتابعة ، يَتبع بعضُها بعضا ؛ ومنه ادَّهقَتِ الحجارة ادِّهاقا ، وهو شدة تلازُبها ودخول بعضها فى بعض ؛ فالمتتابع كالمتداخل . وعن عِكرمة أيضا و زيد بن أسلم : صافية ؛ قال الشاعر :

لَأَنتِ إلى الفؤادِ أحبُّ قُربًا * مِن الصادِى إلى كأسٍ دِهاقِ

وهو جمع دهق[(2)] ، وهو خشبتان [يغمز] بهما [الساق][(3)] . والمراد بالكأس الخمر ، فالتقدير : خمرا ذات دهاق ، أى عُصِرت وصُفِّيت ؛ قاله القشيرى . وفى الصحاح : وأَدْهَقْت الماء : أى أفرغته

(1) راجع جـ ١٧ ص ٢١١ (2) فى (اللسان : دهق) : والدهق (بالتحريك) : ضرب من العذاب . وهو بالفارسية : (أشكنجة) . ودهقت الشىء : كسرته وقطعته . اهـ .
(3) التصحيح من كتب اللغة وفى الأصول : خشبتان يعصر بهما .

Marfat.com

إفراغا شديدا : قال أبو عمرو : والدَّهق ــ بالتحريك : ضرب من العذاب . وهو بالفارسية أشْكَنْجَهْ . المبرد : والمدهوق : المعذَّب بجميع العذاب الذى لا فُرجة فيه . آبن الأعرابى : دَهقت الشيء كسرته وقطعته ؛ وكذلك دَهْدَقْته : وأنشد لحُجْر بن خالد :

نُدَهْدِق بَضْعَ اللحم لِلباع والنـدَى * وبعضهُمُ تغـلى بـذمٍّ مَناقِعـه[1]

ودَهْمَقته بزيادة الميم : مثله . وقال الأصمعى: الدهمقة : لِين الطعام وطِيبهُ ورِقته ، وكذلك كل شيء لين؛ ومنه حديث عمر : لو شئت أن يُدَهْمَق لى لفعلت ، ولكن الله عاب قوما فقال : « أذهبتم طيباتِكم فى حياتِكُمُ الدنيا وآستمتعْتم بها » .

قوله تعالى : ﴿ لا يَسْمعون فيها ﴾ أى فى الجنة ﴿ لَغْوًا ولا كِذابًا ﴾ اللغو : الباطل ، وهو ما يُلْغَى من الكلام ويُطَّرح؛ ومنه الحديث : "إذا قلت لصاحبك أنصت يوم الجمعة والإمام يخطب فقد لَغَوت " وذلك أن أهل الجنـة إذا شربوا لم تتغير عقولهم ، ولم يتكلموا بلغو ؛ بخلاف أهل الدنيا . «ولا كِذابا» : تقدم ، أى لا يُكَذِّب بعضهم بعضا ، ولا يسمعون كذبا . وقرأ الكسائى « كِذَابا » بالتخفيف من كَذَبْت كِذَابا أى لا يتكاذَبُون فى الجنـة . وقيل: هما مصدران للتكذيب ، و إنما خففها هاهنا لأنها ليست مقيَّدة بفعل يصير مصدرا له ، وشدّد قوله : « وكَذَّبوا بآ ياتنا كِذَّابا » لأن كذبوا يقيد المصدر بالكذّاب . ﴿ جزاءً مِن ربِّك ﴾ نصب على المصدر . لأن المعنى جزاهم بمـا تقدّم ذكْره ، جزاءه وكذلك ﴿ عطاء ﴾ لأن معنى أعطاهم وجزاهم واحد . أى أعطاهم عطاء . ﴿ حِسـابًا ﴾ أى كثيرا ؛ قاله قتادة ؛ يقال : أَحْسَبْت فلانا : أى كثَّرت له العطاء حتى قاله حَسْبِى . قال[2] :

ونُقْفِى ولِيدَ الحىِّ إن كان جائعا ونُحْسِبُهُ إنْ كانَ ليس بجائـع

(١) يروى هكذا فى اللسان مادة « دهق » . وفى الأصول « مراجله » . والمناقع : القدور الصغار، واحدها : منقع ومنقعة .

(٢) قائله آمرأة من بنى قشير . ونقفيه : أى نؤثره بالقفية ؛ وهى ما يؤثر به الضيف والصبى .

وقال القُتَبِيّ : ونرى أصل هذا أن يعطيه حتى يقول حَسْبِي . وقال الزجاج : « حِساباً » أى ما يكفيهم . وقاله الأخفش . يقال : أَحسبني كذا : أى كفاني . وقال الكلبيّ : حاسبهم فأعطاهم بالحسنة عشرا . مجاهد : حسابا لما عملوا ، فالحساب بمعنى العدّ . أى بقدر ما وجب له فى وعد الرب ، فإنه وعد للحسنة عشرا ، ووعد لقوم بسبعمائة ضِعف ، وقد وعد لقوم جزاء لا نهاية له ولا مقدار ، كما قال تعالى : « إنما يوفَّى الصابرون أجرهم بِغير حِساب » . وقرأ أبو هاشم « عَطاء حَسَّابا » بفتح الحاء ، وتشديد السين ، على وزن فَعَّال أى كَفافا ؛ قال الأصمعيّ : تقول العرب : حَسَّبْت الرجل بالتشديد : إذا أكرمته ؛ وأنشد قول الشاعر :

* إذا أتاهُ ضيفُه يُحَسِّبُهْ *

وقرأ ابن عباس « حسانا »[(١)] بالنون .

قوله تعالى : ﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ربِّ السمواتِ والأرضِ وما بينهما الرحمن ﴾ : قرأ ابن مسعود ونافع وأبو عمرو وابن كثير وزيد عن يعقوب ، والمفضل عن عاصم : « ربُّ » بالرفع على الاستئناف ، « الرحمنُ » خبره . أو بمعنى : هو رب السموات ، ويكون « الرحمن » مبتدأ ثانيا . وقرأ ابن عامر ويعقوب وابن محيصن كلاهما بالخفض ، نعتا لقوله : « جزاءً مِن رَبِّك » أى جزاء من ربك رب السموات الرحمنِ . وقرأ ابن عباس وعاصم وحمزة والكسائى : « رَبِّ السموات

(١) هكذا رسم الشوكاني الكلمة فى تفسيره ، فتح القدير (٥/٢٠٨) ولم يضبطها .

خفضا على النعت، «الرحمن»[(١)] رفعا على الابتداء، أى هو الرحمن . وآختاره أبو عُبيد وقال: هذا أعدلُها، خفض « رَبِّ » لقربه من قوله « مِن رَبِّك » فيكون نعتا له، ورفع « الرحمن » لبعده منه، على الآستئناف، وخبرُه ﴿ لا يملكون منه خِطابا ﴾ أى لا يملكون أن يسألوه إلّا فيما أَذن لهم فيه . وقال الكسائى : « لا يملِكون منه خِطابا » بالشفاعة إلا بإذنه . وقيل : الخطاب : الكلام، أى لا يملكون أن يخاطبوا الربَّ سبحانه إلا بإذنه، دليله : «لا تكَلَّمُ نفس إلا بإذْنِهِ » . وقيل : أراد الكفار « لا يملِكُون منه خِطابا » ، فأمّا المؤمنون فيَشْفَعُون .

قلت : بعد أن يُؤْذن لهم ، لقوله تعالى : « من ذَا الذِى يَشْفع عِنده إلا بإذْنِهِ » وقوله تعالى : « يومئذٍ لا تنفع الشفاعة إلا من اذن له الرحمن ورضِى له قولا » .

قوله تعالى : ﴿ يَوم يقومُ الرُّوحُ والملائِكةُ صَفًّا ﴾ « يومَ » نصب على الظرف، أى يوم لا يملِكون منه خطابا يومَ يقوم الروح . وآختلف فى الروح على أقوال ثمانية : الأوّل — أنه مَلَك من الملائكة . قال آبن عباس : ماخلق الله مخلوقا بعد العرش أعظم منه، فإذا كان يومُ القيامة قام هو وحده صفّا، وقامت الملائكة كلهم صفّا، فيكون عِظَمُ خَلْقه مثل صفوفهم . ونحو منه عن آبن مسعود، قال : الروح ملك أعظم من السموات السبع، ومن الأرضين السبع، ومن الجبال . وهو حِيال السماء الرابعة[(٢)]، يسبحُ الله كل يوم آثنى عشرة ألفَ تسبيحة، يخلق الله من كل تسبيحة ملكا، فيجئ يوم القيامة وحده صفّا، وسائر الملائكة صَفّا . الثانى — أنه جبريل عليه السلام . قاله الشعبي والضحاك وسعيد بن جبير . وعن آبن عباس : إن عن يمين العرش نَهْرا من نور، مثل السموات السبع، والأرضين السبع، والبحار السبع، يَدْخل جبريل كل يوم فيه سحرا فيغتسل، فيزداد نورا على نوره، وجمالا على جماله، وعظما على عظمه، ثم ينتفض فيخلق الله من كل قطرة

---

(١) هذه القراءة ذكرها القرطبي وآبن عطية ولم يذكرا قراءة عاصم بالجر فيهما وهى رواية حفص ، وقد ذكرها أبو حيان والألوسى ، فتكون القراءات عن عاصم على هذا ثلاثا ؛ رفع فيهما ، وجرفيهما ، وجر « رب » ورفع « الرحمن » .

(٢) فى نسخة : السماء السابعة .

Marfat.com

تقع من ريشه سبعين ألف ملك، يدخل منهم كل يوم سبعون ألفا البيت المعمور، والكعبة سبعون ألفا لا يعودون إليهما إلى يوم القيامة . وقال وهب : إن جبريل عليه السلام واقف بين يدى الله تعالى ترعد فرائصه ؛ يخلق الله تعالى من كل رعدة مائة ألف ملك ، فالملائكة صفوف بين يدى الله تعالى منكسة رءوسهم ، فإذا أذن الله لهم فى الكلام قالوا : لا إله إلا أنت ؛ وهو قوله تعالى: «يوم يقوم الروح والملائكة صفا لايتكلمون إلا من أذن له الرحمن» فى الكلام « وقال صوابا » يعنى قول : « لا إله إلا أنت » . والثالث — روى ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الروح فى هذه الآية جند من جنود الله تعالى، ليسوا ملائكة، لهم رءوس وأيد وأرجل، يأكلون الطعام". ثم قرأ « يوم يقوم الروح والملائكة صفا » ، فإن هؤلاء جند ، وهؤلاء جند . وهـذا قول أبى صالح ومجاهد . وعلى هذا هم خلق على صورة بنى آدم ، كالناس وليسوا بناس . الرابع — أنهم أشراف الملائكة ؛ قاله مقاتل بن حيان . الخامس — أنهـم حفظة على الملائكة ؛ قاله ابن أبى نجيح . السادس — أنهـم بنو آدم ، قاله الحسن وقتـادة . فالمعنى ذوو الروح . وقال العوفى والقرظى : هـذا مما كان يكتمه ابن عباس ؛ قال : الروح : خلق من خلق الله على صور بنى آدم ، وما نزل ملك من السماء إلا ومعه واحد من الروح. السابع — أرواح بنى آدم تقوم صفا، فتقوم الملائكة صفا ، وذلك بين النفختين ، قبل أن ترد إلى الأجساد ؛ قاله عطية . الثامن — أنه القـرآن ؛ قاله زيد ابن أسلم ، وقرأ « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا » . و « صفا » : مصدر أى يقومون صفوفا. والمصدر ينبئ عن الواحد والجمع، كالعدل والصوم. و يقال ليوم العيد: يوم الصف. وقال فى موضع آخر: « وجاء ربك والملك صفا صفا » هذا يدل على الصفوف، وهذا حين العرض والحساب. قال معناه القتبى وغيره . وقيل: يقوم الروح صفا، والملائكة صفا، فهم صفان . وقيل : يقوم الكل صفا واحدا . ﴿ لا يتكلمون ﴾ أى لايشفعون ﴿ إلا من أذن له الرحمن ﴾ فى الشفاعة ﴿ وقال صوابا ﴾ يعنى حقا ؛ قاله الضحاك ومجاهد . وقال أبو صالح : لا إله إلا الله . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : يشفعون لمن قال لا إله إلا الله .

Marfat.com

وأصل الصواب: السداد من القول والفعل، وهو من أصاب يصيب إصابة؛ كالجواب من أجاب يجيب إجابة. وقيل: «لايتكلمون» يعنى الملائكة والرُّوح الذين قاموا صفا، لا يتكلمون هيبة وإجلالا «إلا من أذِن له الرحمنُ» فى الشفاعة وهم قد قالوا صوابا، وأنهم يوحِّدون الله تعالى ويسبحونه. وقال الحسن: إن الرُّوح يقول يوم القيامة: لا يدخل أحد الجنة إلا بالرحمة، ولا النار إلا بالعمل. وهو معنى قوله تعالى: «وقال صوابا».

قوله تعالى: ﴿ ذٰلِكَ اليومُ الحقُّ ﴾ أى الكائن الواقع ﴿ فمن شاء آتخذ إلى ربه مآبا ﴾ أى مرجعا بالعمل الصالح؛ كأنه إذا عمل خيرا ردّه إلى الله عز وجل، وإذا عمل شرا عده منه. ويَنْظر إلى هذا المعنى قوله عليه السلام: "والخير كله بيديك، والشر ليس إليك".

وقال قتادة: «مآبا»: سبيلا.

قوله تعالى: ﴿ إنا أنذرناكم عذابا قريبا ﴾: يخاطبَ كفار قريش ومشركى العرب؛ لأنهم قالوا: لا نبعث. والعذاب عذاب الآخرة، وكل ما هو آتٍ فهو قريب، وقد قال تعالى: «كأنهم يومَ يَرونَها لم يلبثُوا إلا عشِيَّةً أو ضُحاها» قال معناه الكلبي وغيره. وقال قتادة: عقوبة الدنيا؛ لأنها أقرب العذابين. قال مقاتل: هى قتلُ قريش ببدْر. والأظهر أنه عذاب الآخرة، وهو الموت والقيامة؛ لأن من مات فقد قامت قيامته، فإن كان من أهل الجنة رأى مَقعدَه من الجنة، وإن كان من أهل النار رأى الخزْى والهوان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ يوم ينظرُ المرء ماقدّمتْ يداهُ ﴾ [بيّن وقت ذلك العذاب؛ أى أنذرناكم عذابا قريبا فى ذلك اليوم، وهو يوم ينظر المرء ما قدمت يداه، أى يراه](1)، وقيل: ينظر إلى ما قدمت فحذف إلى. والمرء ها هنا المؤمن فى قول الحسن؛ أى يجد لنفسه عملا، فأما الكافر فلا يجد لنفسه عملا، فيتمنى أن يكون ترابا. ولما قال: ﴿ ويقول الكافر ﴾ علم أنه أراد بالمرء المؤمن. وقيل: المرء ها هنا: أبىّ خلف وعُقبة بن أبى مُعَيط. «ويقول الكافر» أبو جهل. وقيل: هو عام فى كل أحد وإنسان يَرَى فى ذلك اليوم جزاء ماكَسَب. وقال مُقاتل: نزلت قوله «يوم ينظر المرء ما قدمت يداه» فى أبى سَلَمة بن عبد الأسَد المخزومى ﴿ ويقول الكافر ياليتَنِى كنت

(1) ما بين القوسين: ساقط من ز، ط، ل.

Marfat.com

ترابا ﴾ : فى أخيه الأسود بن عبد الأسد . وقال الثعلبي : سمعت أبا القاسم بن حبيب يقول : الكافر : هاهنا إبليس ، وذلك أنه عاب آدم بأنه خُلِق من تراب ، وٱفتخر بأنه خُلق من نار ، فإذا عاين يوم القيامة ما فيه آدم و بنوه من الثواب والراحة والرحمة ، ورأى ماهو فيه من الشدة والعذاب ، تمنى أنه يكون بمكان آدم ، فـ « يقول ياليتني كنت ترابا » قال : ورأيته فى بعض التفاسير للقُشَيرى أبى نصر . وقيل : أى يقول إبليس ياليتنى خُلِقت من التراب ولم أقل أنا خير من آدم . وعن ٱبن عمر : إذا كان يومُ القيامة مُدَّتِ الأرض مَدَّ الاديم ، وحُشِر الدوابُّ والبهائم والوحوش ، ثم يوضعُ القِصاص بين البهائم ، حتى يُقْتَص للشاة الجماَّء من الشاة القَرْناء بنطحتها ، فإذا فرغ من القِصاص بينها قيل لها : كونى ترابا ، فعند ذلك يقول الكافر : « ياليتنِي كنتُ ترابا » . ونحوه عن أبى هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهم . وقد ذكرناه فى كتاب « التذكرة ، بأحوال الموتى وأمور الآخرة » ، مجودا والحمد لله . ذكر أبو جعفر النّحاس : حدثنا أحمد بن محمد بن نافع ، قال حدثنا سَلَمة بن شبيب ، قال حدثنا عبد الرازق ، قال حدثنا مَعْمر ، قال أخبرنى جعفر بن بَرْقان الجَزَرى ، عن يزيد بن الأصم ، عن أبى هريرة ، قال : إن الله تعالى يحشر الخلق كلهم من دابة وطائر و إنسان ، ثم يقال للبهائم والطير كونى ترابا ، فعند ذلك « يقول الكافر: ياليتني كنتُ تُرابا » . وقال قوم : « ياليتِني كنت ترابا » : أى لم أبعث ، كما قال: « ياليتِني لم أُوتَ كِتابِيه » . وقال أبو الزّناد: إذا قُضِى بين الناس ، وأُمِر بأهل الجنة إلى الجنة ، وأهلِ النار إلى النار ، قيل لسائر الأمم ولمؤمنى الجنّ : عودُوا ترابا ، فيعودون ترابا ، فعند ذلك يقول الكافر حين يراهم « ياليتِني كنت ترابا » . وقال ليث بن أبى سليم : مؤمنو الجنّ يعودون ترابا . وقال عمر بن عبد العزيز والزهرى والكلبي ومجاهد: مؤمنو الجنة حول الجنة فى رَبَض ورِحاب وليسوا فيها . وهذا أصح ، وقد مضى فى سورة « الرحمن »[1] بيان هذا ، وأنهم مكلّفون : يُثابون و يعاقبون ، فهم كبنى آدم ، والله أعلم بالصواب .

(١) راجع جـ ١٧ ص ١٦٩

Marfat.com

سـورة النازعات

مكّية بإجماع . وهى خمس أو ست وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّـٰبِحَـٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّـٰبِقَـٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾

قوله تعالى ﴿ والنازعاتِ غرقا ﴾ : أقسم سبحانه بهذه الأشياء التى ذكرها ، على أن القيامة حقٌّ . و «النازعاتِ» : الملائكة التى تنزِع أرواحَ الكفار ؛ قاله علىّ رضى الله عنه ، وكذا قال ابن مسعود وآبن عباس و مسروق ومجاهد : هى الملائكة تنْزِع نفوس بنى آدم . قال آبن مسعود : يريد أنفسَ الكُفار ينزِعها ملك الموت من أجسادهم ، من تحت كل شعرة ، ومن تحت الأظافير وأصول القدمين نَزْعا كالسَّفُّود يُنزَع من الصُّوف الرَّطْب ، ثم يغرِقها ، أى يرجعها فى أجسادهم ، ثم ينزِعها ؛ فهذا عمله بالكفار . وقاله آبن عباس . وقال سعيد بن جبير : نُزِعت أرواحهم ، ثم غرِقت ، ثم حُرِقت ، ثم قُذِف بها فى النار . وقيل : يرى الكافر نفسه فى وقت النزع كأنها تغرق . وقال السُّدّى : و« النازعاتِ » هى النفوس حين تغرق فى الصدور . مجاهد : هى الموت ينزِع النفوس . الحسن وقتادة : هى النجومُ تنزِع من أفق إلى أفق ؛ أى تذهب ، من قولهم : نَزَع إليه أى ذهب ، أو من قولهم : نَزَعَت الخيل أى جرت . « غَرْقًا »

Marfat.com

أى إنها تغرق وتغيب وتطلع من أفق إلى أفق آخر . وقاله أبو عُبيدة وآبن كَيسان والأخفش .
وقيل : النازعات القِسِيّ تنزِع بالسّهام ؛ قاله عطاء وعِكْرمة . و «غَرْقا» بمعنى إغراقا ؛ وإغراق النازع فى القوس أن يبلغ غاية المدّ ، حتى ينتهى إلى النصل . يقال : أغرق فى القوس أى آستوفى مدّها ، وذلك بأن تنتهى إلى العَقَب الذى عند النصل الملفوف عليه . والآستغراق الآستيعاب . و يقال لقشرة البيضة الداخلة : « غِرقِئ » . وقيل : هم الغُزاة الرُّماة .

قلت : هو والذى قبله سواء ؛ لأنه إذا أقسم بالقِسِيّ فالمراد النازعون بها تعظيما لها ؛ وهو مثل قوله تعالى : « والعادياتِ ضبحا » والله أعلم . وأراد بالإغراق : المبالغة فى النزع وهو سائغ فى جميع وجوه تأويلها . وقيـل : هى الوحش تنزِعُ[(١)] من الكلأ وتنفـر . حكاه يحيي ابن سلام . ومعنى « غرقا » أى إبعادا فى النزع .

قوله تعالى : ﴿ والناشطاتِ نَشْطًا ﴾ قال آبن عباس : يعنى الملائكة تنشط نفس المؤمن ، فتقبضها كما يُنْشَط العِقال من يد البعير: إذا حُلَّ عنه . وحكى هذا القول الفراء ثم قال: والذى سمعت من العـرب أن يقولوا أُنشِطت وكأنما أُنشِط من عِقال . ورَبْطها نَشْـطُها والرابط الناشط ، وإذا ربطت الحبل فى يد البعير فقد نَشَطْته ، فأنت ناشط ، وإذا حللته فقد أنشطته وأنت مُنْشِط . وعن آبن عباس أيضا : هى أنفس المؤمنين عند الموت تَنْشَط للخروج ؛ وذلك أنه ما من مؤمن [يحضره الموت][(٢)] إلا وتُعرض عليه الجنة قبل أن يموت ، فيرى فيها ما أعدّ الله له من أزواجه وأهله من الحور العين ، فهم يدعونه إليها ، فنفسه إليهم نشِطَة أن تخرج فتأتيهم . وعنه أيضا قال: يعنى أنفس الكفار والمنافقين تَنْشط كما ينشَط العقب ، الذى يعقب به السهم . والعقَب بالتحريك : العصب الذى تعمل منه الأوتار ، الواحدة عقَبة ؛ تقول منه : عَقَبَ السهم والقدح والقوس عقْبا : إذا لوى شيئا منه عليه . والنشط : الجذب بسرعة ، ومنه الأنشوطة : عقدة يسهل آنحلالها إذا جذبت مثل عقدة التكة . وقال أبو زيد : نشطت

(١) فى نسخ الأصل : تنزع من الكلأ . وفى البحر : تنزع إلى ... الخ .
(٢) الزيادة من تفسير الثعلبي .

Marfat.com

الحبل أَنشطه نَشطا : عقدته بأنشوطة ، وأَنشطته أى حللته ، وأَنشطت الحبل أى مددته حتى ينحلّ . وقال الفراء : أُنشط العقال أى حُلّ ، ونُشِط : أى رَبط الحبل فى يديه . وقال الليث : أنشطته بأُنشوطة وأُنشوطتين أى أوثقته ، وأَنشطت العِقال : أى مددت أُنشوطته فانحلت . قال : ويقال نشط بمعنى أَنشط ، لغتان بمعنى ؛ وعليه يصح قول ابن عباس المذكور أولا . وعنه أيضا : الناشطات الملائكة لنشاطها ، تذهب وتجىء بأمر الله حيثما كان . وعنه أيضا وعن علىّ رضى الله عنهما : هى الملائكة تنشِط أرواح الكفار ، ما بين الجلد والأظفار ، حتى تخرجها من أجوافهم نَشطا بالكَرب والغمّ ، كما تَنشِط الصوف من سَفُود الحديد ، وهى من النَّشط بمعنى الجذب ؛ يقال : نَشَطت الدلو أَنشِطُها بالكسر ، وأَنشُطها بالضم : أى نزعتها . قال الأصمعى : بئر أنشاط : أى قريبة القعر ، تخرج الدلو منها بجذبة واحدة . وبئر نَشوط ؛ قال : وهى التى لا يخرج منها الدلو حتى تُنشَط كثيرا . وقال مجاهد : هو الموت يَنْشِط نفس الإنسان . السُّدى : هى النفوس حين تنشِط من القدمين . وقيل : النازعات : أيدى الغُزاة أو أنفسهم ، تنزِع القِسِىّ بإغراق السهام ، وهى التى تَنشِط الأوهاق[1] . عِكرمة وعطاء : هى الأوهاق تَنْشِط السهام . وعن عطاء أيضا وقتادة والحسن والأخفش : هى النجوم تنشِط من أفق إلى أفق : أى تذهب . وكذا فى الصحاح . « والناشِطاتِ نشطا » يعنى النجـوم من بُرْج إلى برج ، كالثور الناشط من بلد إلى بلد . والهموم تنشِط بصاحبها ؛ قال هِميان بن قُحافة :

أمسَت همـومى تنشِط المناشِـطَا * الشـامَ بِى طورا وطورا واسِـطَا

أبو عبيدة وعطاء أيضا : الناشطات : هى الوحش حين تنشِطُ من بلد إلى بلد ، كما أن الهموم تنشِطُ الإنسان من بلد إلى بلد ؛ وأنشد قول هِميان :

* أمست همومى ... * البيت

وقيل : « والنازِعاتِ » للكافرين « والناشِطاتِ » للؤمنين ؛ فالملائكة يجذبون رُوح المؤمن برفق ، والنزع جذب بشدة ، والنشط جذب بِرِفق . وقيل : هما جميعا للكفار والآيتان بعدهما للؤمنين عند فراق الدنيا .

(١) جمع وهق بحركتين وقد يسكن : الحبل تشدّ به الإبل والخيل لئلا تند ، ويقال فى طرفه أنشوطة .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ والسابحات سَـبْحا ﴾ قال عليّ رضى الله عنـه : هى الملائكة تسـبح بأرواح المؤمنين . الـكلبي : هى الملائكة تقبض أرواح المؤمنين، كالذى يسبح فى المـاء، فأحيانا ينغمس وأحيانا يرتفع، يُسلونها سَلًّا رفيقا بسهولة، ثم يدعونها حتى تستريح. وقال مجاهد وأبو صالح: هى الملائكة ينزلون من السماء مسرعين لأمر الله؛ كما يقال للفرس الجواد سابح: إذا أسرع فى جريه . وعن مجاهد أيضا : الملائكة تسبح فى نزولها وصعودها . وعنه أيضا : السابحات : الموت يسبح فى أنفس بنى آدم . وقيل : هى الخيل الغزاة؛ قال عنترة :

والخيـلُ تعـلَمُ حين تَسْـ * ـبَحُ فى حِياض الموت سَبْحا

وقال آمرؤ القيس :

مِسَـحٌّ إذا ما السابحاتُ على الوَنَى * أَثَرْنَ غُبارا بالكَديد المُـرَكَّلِ (١)

قتادة والحسن : هى النجوم تسبح فى أفلاكها ، وكذا الشمس والقمر ؛ قال الله تعـالى : « كل فى فلك يَسْبَحون » . عطاء : هى السُّفن تسبح فى المـاء . آبن عباس : السـابحات أرواح المؤمنين تسبح شوقا إلى لقاء الله و رحمته حين تخرج .

قوله تعـالى : ﴿ فالسابقات سـبقا ﴾ قال عليّ رضى الله عنـه : هى الملائكة تسـبق الشـياطين بالوحى إلى الأنبياء عليهم السـلام . وقاله مسروق ومجاهد . وعن مجاهد أيضـا وأبى رَوْق : هى الملائكة سبقت آبن آدم بالخير والعمل الصالح . وقيل : تسبق بنى آدم إلى العمل الصالح فتكتبه . وعن مجاهد أيضا : الموت يسبق الإنسان . مقاتل : هى الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنـة . آبن مسعود : هى أنفس المؤمنين تسـبق إلى الملائكة الذين يقْبِضونها وقد عاينتِ السرور، شوقا إلى لقاء الله تعالى و رحمته. ونحوه عن الربيع، قال: هى النفوس تسبق بالخروج عند الموت . وقال قتادة والحسن ومعمر : هى النجـوم يسبق بعضها بعضا فى السير . عطاء : هى الخيل التى تسبق إلى الجهاد . وقيل : يحتمل أن تكون

(١) مسح : يصب الجرى . الونى : الفتور . الكديد : الموضع الغليظ . المركل : الذى يركل بالأرجل . ومعنى البيت : إن الخيل السريعة إذا فترت فأثارت الغبار بأرجلها من التعب، جرى هذا الفرس جريا سهلا كما يسح السحاب المطر.

Marfat.com

السابقات ما تسبق من الأرواح قبـل الأجساد إلى جنة أو نار ؛ قاله المـاوردى . وقال الجُرجانى : ذكر « فالسابقات » بالفاء لأنهـا مشتقة من التى قبلهـا ؛ أى واللائى يسبحن فيسبقن ، تقول : قام فذهب ؛ فهذا يوجب أن يكون القيام سببا للذهاب ، ولو قلت : قام وذهب ، لم يكن القيام سببا للذهاب .

قوله تعـالى : ﴿ فالمدَبِّرات أَمْرًا ﴾ قال القُشَيرى : أجمعوا على أن المـراد الملائكة . وقال المـاوردى : فيه قولان : أحدهما الملائكة ؛ قاله الجمهور . والقول الثانى هى الكواكب السبعة . حكاه خالد بن مَعْدان عن مُعاذ بن جبل . وفى تدبيرها الأمر وجهان : أحدهمـا تدبير طلوعها وأفولها . الثانى تدبيرها ما قضاه الله تعالى فيها من تقلّب الأحوال . وحكى هذا القول أيضا القشيرى فى تفسـيره ، وأن الله تعالى علّق كثيرا من تدبير أمر العـالم بحركات النجوم ، فأضيف التدبير إليها وإن كان من الله ، كما يسمى الشيء باسم ما يجاوره . وعلى أن المراد بالمدبِّرات الملائكة ، فتدبيرها نزولها بالحلال والحرام وتفصيله ؛ قاله ابن عباس وقتادة وغيرهما . وهو إلى الله جل ثناؤه ، ولكن لـمـا نزلت الملائكة به سميت بذلك ؛ كما قال عز وجل : « نزل بِهِ الروحُ الأمِين » وكما قال تعالى : « فإنه نَزَّله على قلبِك » يعنى جبريل نزله على قلب محمد صـلى الله عليه وسلم ، والله عز وجل هو الذى أنزله . وروى عطاء عن ابن عباس : « فالمدبِّراتِ أَمْرًا » : الملائكة وُكِّلت بتدبير أحوال الأرض فى الرياح والأمطار وغير ذلك . قال عبد الرحمن بن سابِط : تدبير أمر الدنيا إلى أربعة ؛ جبريل وميكائيل وملك الموت واسمه عزرائيـل وإسرافيل ، فأما جبريل فوكل بالرياح والجنـود ، وأما ميكائيل فوكل بالقَطْر والنبات ، وأما ملك الموت فوكل بقبض الأنفس فى البر والبحر ، وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهـم ، وليس من الملائكة أقرب من إسرافيل ، وبينـه وبين العرش مسيرة خمسمائة عام . وقيـل : أى وُكّلوا بأمور عرّفهم الله بهـا . ومن أول السـورة إلى هنا قسم أقسم الله به ، ولله أن يقسم بما شاء من خلقه ، وليس لنا ذلك إلا به عز وجل . وجواب القسم مضمر ، كأنه قال : والنازعات وكذا وكذا لَتُبعَثُنّ ولتحاسَبُنّ . أضمر لمعرفة السامعين

Marfat.com

بالمعنى ؛ قاله الفراء . ويدل عليـه قوله تعالى : « أئذا كنا عظاما نخرة » ألست ترى أنه كالجواب لقولهم : «أئذا كنا عظاما نخرة» نُبعث؟ فاكتفى بقوله : «ائذا كنا عظاما نخرة » ؟ وقال قوم : وقع القسم على قوله : « إنّ في ذلك لعبرةً لمن يخشى » وهذا آختيار الترمذي ابن علي . أي فيما قصصت من ذكر يوم القيامة وذكر موسى وفرعون «لعبرة لمن يخشى» ولكنّ وقع القسم على ما في السورة مذكورا ظاهرا بارزا أحرى وأقمن من أن يؤتى بشيء ليس بمذكور فيما قال آبن الأنباري : وهذا قبيح، لأن الكلام قد طال فيما بينهما . وقيل : جواب القسم هل أتاك حديث موسى» لأن المعنى قد أتاك . وقيل : الجواب ﴿ يوم تَرْجُفُ الراجفةُ ﴾ على تقدير ليوم ترجُف، فحذف اللام. وقيل: فيه تقديم وتأخير، وتقديره يوم ترجُف الراجفة وتتبعها الرادفة والنازعات غرقا . وقال السجستاني : يجوز أن يكون هذا من التقديم والتأخير، كأنه قال : فإذا هم بالساهرة والنازعات . آبن الأنباري : وهذا خطأ ؛ لأن الفاء لا يُفتح بها الكلام ، والأول الوجه . وقيل : إنما وقع القسم على أن قلوب أهل النار تجفّ، وأبصارهم تخشع ، فانتصـاب « يومَ ترجُف الراجفة » على هذا المعنى، ولكن لم يقع عليه . قال الزجاج : أي قلوب واجفة يوم ترجُف . وقيل : آنتصب بإضمار آذكر . و « ترجُف » أي تضطرب . والراجفة : أي المضطربة كذا قال عبد الرحمن بن زيد؛ قال : هي الأرض، والرادفة الساعة . مجاهـد : الراجفة الزلزلة ﴿ تتبعها الرادفة ﴾ الصيحة . وعنـه أيضا وآبن عبـاس والحسن وقتادة : هما الصيحتان . أي النفختان . أما الأولى فتميت كل شيء بإذن الله تعالى ، وأما الثانية فتحيي كل شيء بإذن الله تعالى . وجاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " بينهما أربعون سنة " وقال مجاهد أيضا : الرادفة حين تنشق السماء وتُحمل الأرض والجبال فتدك دكة واحدة، وذلك بعد الزلزلة . وقيل : الراجفة تحرُّك الأرض، والرادفة زلزلة أخرى تفني الأرضين » . فالله أعلم . وقد مضى في آخر « النمل »[(1)] ما فيه كفاية في النفخ في الصور . وأصل الرجفة الحركة، قال الله تعالى : « يوم ترجُفُ الأرض » وليست الرجفة هاهنا من

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٣٩ فما بعدها .

Marfat.com

الحركة فقط، بل من قولهم: رجَف الرعد يرجُف رَجْفًا ورَجيفا: أى أظهر الصوتَ والحركةَ، ومنه سميت الأراجيف، لاضطراب الأصوات بها، و إفاضة الناس فيها ؛ قال:

أبِالأراجيف يابن اللومِ تُوعِدنِى * وفِى الأَرَاجِيف خِلتُ اللؤمَ والخَورا (١)

وعن أُبىّ بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا ذهب ربع الليل قام ثم قال: "يأيها الناس آذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه". ﴿ قلوب يومئذٍ واجفة ﴾ أى خائفة وجلة ؛ قاله آبن عباس وعليه عامة المفسرين . وقال السُّدّى: زائلة عن أماكنها . نظيره « إِذِ القلوب لدى الحناجرِ ». وقال المؤرِّخ: قلقة مُسْتَوفِزة، مرتكضة (٢) غير ساكنة. وقال المبرد: مضطربة. والمعنى متقارب، والمراد قلوب الكفار؛ يقال وجَف القلب يجِف وجِيفا إذا خَفَـق ، كما يقال: وَجَب يَجِب وَجيبا ، ومنه وجيف الفرس والناقة فى العدو، والإيجاف حمل الدابة على السير السريع ، قال:

بُدِّلْنَ بعـد جِرةٍ صَرِيفَـا * وبعـد طـولِ النَّفَسِ الوجِيفـا

و « قلوب » رفع بالابتداء و « واجفة » صفتها . و ﴿ أبصارها خاشعة ﴾ خبرها؛ مثل قوله « ولعبد مومن خيرٌ مِن مشرِك» ومعنى « خاشعة » منكسرة ذليلة من هول ما ترى. نظيره: « خاشِعة أبصارهم ترهَقُهم ذِلّة » والمعنى أبصار أصحابها ، فحذف المضاف . ﴿ يقولون ائنا لمردودون فِى الحافِرةِ ﴾ أى يقول هؤلاء المكذبون المنكرون للبعث، إذا قيل لهم إنكم تبعثون، قالوا منكرين متعجبين: أنرد بعد موتنا إلى أول الأمر ، فنعود أحياء كما كنا قبل الموت؟ وهو كقولهم: « ائنا لمبعوثون خلقا جديدا » يقال: رجع فلان فى حافرته ، وعلى حافرته ، أى رجع من حيث جاء ؛ قاله قتادة . وأنشد آبن الأعرابى:

(١) قائله منازل بن ربيعة المنقرى فى هجو رؤبة والعجاج : والرواية المشهورة للبيت كما فى كتب النحو كشرح التصريح وغيره هى:

أبا لأراجيز يابن اللؤم توعدنى * وفى الأراجيز — خلت — اللؤم والخور

والأراجيز جمع أرجوزة، وهى القصائد الجارية على بحر الرجز: وفى الأراجيز خبر مقدّم واللؤم مبتدأ مؤخر وتوسط (خلت) بين المبتدإ والخبر أبطل عملها ، وهو موضع الشاهد فى البيت عند النحاة . وقيل لا يمتنع النصب على أن يقدر مبتدأ أى (أنا) . (٢) مرتكضة: مضطربة .

Marfat.com

أحافِرةً على صَلَعٍ وشَيْبٍ * مَعَاذَ اللهِ مِن سَفَهٍ وعارِ

يقول : أأرجع إلى ما كنت عليه فى شبابى من الغَزَل والصِّبا بعد أن شِبت وصَلِعت ! ويقال : رجع على حافرته : أى الطريق الذى جاء منه . وقولهم فى المثل : النقدُ عند الحافرة . قال يعقوب : أى عند أوّل كلمة . ويقال : ٱلتقى القوم فاقتتلوا عند الحافرة . أى عند أوّل ما ٱلتقوا . وقيل : الحافرة العاجلة ؛ أى أئنا لمردودون إلى الدنيا فنصير أحياء كما كنا ؟ قال الشاعر :

آليتُ لا أُنْسِاكُمْ فاْعلَمُوا * حَتّى يُرَدَّ النَّاسُ فى الحافِرهْ

وقيل : الحافرة : الأرض التى تُحْفَر فيها قبورُهم ، فهى بمعنى المحفورة ؛ كقوله تعالى : « ماءٍ دافِقٍ » و « عِيشَةٍ راضِيَةٍ » . والمعنى أئنا لمردودون فى قبورنا أَحْياء . قاله مجاهد والخليل والفرّاء . وقيل : سميت الأرض الحافرة ؛ لأنها مستقرّ الحوافر ، كما سميت القدم أرضا ؛ لأنها على الأرض . والمعنى أئنا لراجعون بعد الموت إلى الأرض فنمشى على أقدامنا . وقال ٱبن زيد : الحافرة : النار ، وقرأ « تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ » . وقال مقاتل وزيد بن أسلم : هى ٱسم من أسماء النار . وقال ٱبن عباس : الحافِرة فى كلام العرب : الدنيا . وقرأ أبو حَيْوة : «الحَفِرةِ» بغير ألف ، مقصور من الحافر . وقيل : الحفِرة : الأرض المنتنة بأجساد موتاها ؛ من قولهم : حَفِرت أسنانُه ، إذا ركبها الوسخ من ظاهرها وباطنها . يقال : فى أسنانه حَفْر ، وقد حَفَرت تحفِر حَفْرا ، مثل كسر يكسِر كسرا إذا فسدت أصولها . وبنو أسد يقولون : فى أسنانه حَفَر بالتحريك . وقد حفِرت مثال تعِب تعبا ، وهى أردأ اللغتين ؛ قاله فى الصحاح .

﴿ أَئِذا كُنّا عِظاما نَخِرةً ﴾ أى بالية متفتّتة . يقال : نَخِرَ العظم بالكسر : أى بَلِي وتفتّت ؛ يقال : عظام نَخِرة . وكذا قرأ الجمهور من أهل المدينة ومكة والشام والبصرة ، وٱختاره أبو عُبيد ؛ لأن الآثار التى تذكر فيها العظام ، نظرنا فيها فرأينا نَخِرة لا ناخرة . وقرأ أبو عمرو وٱبنه عبد الله وٱبن عباس وٱبن مسعود وٱبن الزبير وحمزة والكسائى وأبو بكر « ناخِرة » بالألف ، وٱختاره الفرّاء والطّبرى وأبو معاذ النحوى ؛ لِيوافق رءوس الآى . وفى الصحاح : والناخر من العظام

التى تدخل الريح فيه ثم تخرج منه ولها نَخِـير . ويقال : ما بها ناخر، أى ما بها أحد . حكاه يعقوب عن الباهلى . وقال أبو عمرو بن العلاء : الناخرة التى لم تنخر بعد، أى لم تبل ولابدّ أن تنخر . وقيل : الناخر المُجَوَّفة . وقيل : هما لغتان بمعنى ؛ كذلك تقول العرب : نَخِر الشىء فهو نَخِر وناخِر، كقولهم : طَمِـع فهو طَمِـع وطامِـع ، وحَذِرٌ وحاذِر ، وبَخِلٌ وباخِل ، وفَرِه وفارِه ؛ قال الشاعر :

يَظَلّ بها الشيخُ الذى كان بادنا * يَـدِب على عُوجٍ له نَخِـراتِ

عُوج : يعنى قوائم . وفى بعض التفسير : ناخرة بالألف : بالية، ونخرة : تنخر فيها الريح أى تمر فيها ، على عكس الأول ؛ قال (١) :

* من بعدِ ما صِرتُ عِظاما ناخِرهْ *

وقال بعضهم : الناخرة : التى أُكلت أطرافها و بقيت أوساطها . والنخرة : التى فسدت كلها . قال مجاهد : نخرة أى مرفوتة؛ كما قال تعالى : « عِظاما ورُفاتا » ونُخْرة الريح بالضم : شدّة هبوبها . والنُّخْرة أيضا والنُّخَرة مثال الهُمَزة : مقدم أنف الفرس والحمار والخنزير؛ يقال : هشم نُخَرَته : أى أنفه . ﴿ قالوا تِلك إذًا كَرَّة خاسِرة ﴾ أى رَجْعة خائبة ، كاذبة باطلة ، أى ليست كائنة؛ قاله الحسن وغيره . الربيع بن أنس : « خاسِرة » على من كذب بها . وقيل : أى هى كرة خُسران . والمعنى أهلها خاسرون ؛ كما يقال : تجارة رابحـة أى يربح صاحبها . ولا شىء أخسر من كَرَّة تقتضى المصير إلى النار . وقال قتادة ومحمد بن كعب : أى لئن رجعنا أحياء بعـد الموت لنحْشَرَن بالنار، و إنما قالوا هذا لأنهم أوعدوا بالنار . والكر : الرجوع ؛ يقال : كره، وكر بنفسه، يتعدى ولا يتعدى . والكرة : المرة، والجمع الكرات . ﴿ فإنما هِى زجْرة واحِدة ﴾ ذكر جل ثناؤه سهولة البعث عليه فقال : «فإنما هِى زَجْرة واحدة» . و رَوى الضحاك عن آبن عباس قال : نفخة واحدة ﴿ فإذا هم ﴾ أى الخلائق أجمعون ﴿ بِالساهِرةِ ﴾ أى على وجه الأرض، بعد ما كانوا فى بطنها . قال الفراء : سميت بهذا الأسم؛ لأن فيها نوم

(١) قائله الهمدانى يوم القادسية .

Marfat.com

الحيوان وسهرهم . والعـرب تسمى الفلاة ووجه الأرض ساهِرة ، بمعنى ذاتِ سَهَر ؛ لأنه يُسْهَر فيهـا خوفا منها، فوصفها بصفة ما فيها ؛ واستدل ابن عباس والمفسرون بقول أميـة ابن أبى الصَّلْت :

وفيها لحمُ ساهِرةٍ وبحـــرٌ * وما فاهـوا بِهِ لهُمُ مُقِـيمُ

وقال آخر يوم ذى قار لفرسه :

أَقْـدم مَحَاجِ إنهـا الأَساوِرَهْ * ولا يَهُولَنَّـــكَ رِجْلٌ نادِرَهْ (١)

فإنما قَصْرُك تُرْبُ الساهِرَهْ * ثم تعودُ بعـدَها فى الحافِرَهْ

* مِن بعـدِ ما صِرت عِظاما ناخِرَهْ *

وفى الصحاح . ويقال : الساهور : ظِل الساهِرة، وهى وجه الأرض . ومنه قوله تعالى : « فإذا هُمْ بالساهِرةِ » ، قال أبو كبير الهذلى :

يَرْتَدْنَ ساهِرةً كأنّ جَمِيمَها * وعَمِيمَها أَسْداف ليلٍ مُظْلِمِ (٢)

ويقال: الساهور: كالغلاف للقمر يدخُل فيه إذا كُسِف (٣)، وأنشدوا قول أمية بن أبى الصَّلْت (٤) :

* قمـرٌ وساهورٌ يُسَـــلّ ويُغْمَـدُ *

وأنشدوا لآخر فى وصف امرأة :

كأنهـا عِرقُ سامٍ عنـــد ضارِبِهِ * أو شُقّةٌ (٥) خرجَتْ مِن جوفِ ساهورِ

يريد شُقّة القمر . وقيل : الساهرة : هى الأرض البيضاء . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : أرض من فِضة لم يعص الله جل ثناؤه عليها قط خلقها حينئذ . وقيل : أرض جددها

---

(١) هـذه الأبيات للهمدانى يوم القادسية وقد تقـدم ذكرها . محاج : اسم فرس الشاعر . وفى اللسان مادة « نخر » أقدم أخانهم . ولا تهولنك رءوس . وفى السمين : بادره . (٢) الجميم بالجيم : النبت الذى قد نبت وارتفع قليلا ولم يتم كل التمام، والعميم المكتمل التام من النبت، والأسداف : جمع سدف بالتحريك ، وهو ظلمة الليل .
(٣) هذا كما تزعم العرب فى الجاهلية . (٤) وصدر البيت : * لا نقص فيه غير أن خبيئة *
(٥) كذا فى نسخ الأصل التى بأيدينا . والذى فى اللسان مادة « سهر » : أو فلقة .

الله يوم القيامة . وقيـل : الساهرة آسم الأرض السابعة يأتى بها الله تعالى فيحاسب عليها الخلائق ، وذلك حين تبدل الأرض غير الأرض . وقال الثورى : الساهرة : أرض الشام . وهب بن منبه : جبل بيت المقدس . عثمان بن أبى العاتكة : إنه آسم مكان من الأرض بعينه ، بالشام ، وهو الصقع الذى بين جبل أريحاء وجبل حسان[1] يمده الله كيف يشاء . قتادة : هى جهنم أى فإذا هؤلاء الكفار فى جهنم . وإنما قيل لها ساهرة ؛ لأنهـم لا ينامون عليها حينئذ . وقيل : الساهرة : بمعنى الصحراء على شفير جهنم ؛ أى يوقفون بأرض القيامة ، فيدوم السهر حينئذ . ويقال : الساهرة : الأرض البيضاء المستوية سميت بذلك ، لأن السراب يجرى فيها من قولهم عين ساهرة : جارية الماء ، وفى ضدها : نائمة ؛ قال الأشعث بن قيس :

وساهرة يُضحِى السرابُ مُجَلِّلا * لِأَقطارِها قـد جئتُها متلـثِّما

أو لأن سالكها لا ينام خوف الهلكة .

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۝١٥ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ۝٢٤ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ۝٢٥ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٢٦ ﴾

قوله تعالى : ﴿ هل أتاك حديث موسى . إذا ناداه ربه بالوادى المقـدس طُوًى ﴾ أى قد جاءك وبلغك « حديث موسى » وهـذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم . أى إن فرعون

(١) ذكره الطبرى أيضا .

Marfat.com

كان أقوى من كفار عصرك، ثم أخذناه، وكذلك هؤلاء . وقيل : « هل » بمعنى « ما » أى ما أتاك ، ولكن أُخبرت به ، فإن فيه عِبرةً لمن يخشَى . وقد مضى من خبر موسى وفرعونَ فى غير موضع ما فيه كفاية (١) . وفى « طُوًى » ثلاث قراءات : قرأ ٱبن محيصن وٱبن عامر والكوفيون «طُوًى» منونا وٱختاره أبو عبيد لخفة الأسم . الباقون بغير تنوين ؛ لأنه معدول مثل عُمر وقُثَم ؛ قال الفرّاء : طُوًى : واد بين المدينة ومصر . قال : وهو معدول عن طاوٍ، كما عدل عمر عن عامر . وقرأ الحسن وعكرمة «طِوًى» بكسر الطاء، ورُوى عن أبى عمرو، على معنى المُقدَّس مرة بعد مرة ؛ قاله الزّجاج ؛ وأنشد :

أعاذِلَ إنّ اللوم فى غيرِ كُنهِهِ　*　علىّ طِوًى من غَيِّك المتردِّدِ (٢)

أى هو لوم مكرر علىّ . وقيل : ضم الطاء وكسرها لغتان، وقد مضى فى « طـه (٣) » القول فيه . ﴿ ٱذهب إلى فِرعونَ ﴾ أى ناداه ربه ، فحذف، لأن النداء قول ؛ فكأنه ؛ قال له ربه « ٱذهب إلى فِرعون » . ﴿ إنه طَغَى ﴾ أى جاوز القدر فى العصيان . ورُوى عن الحسن قال : كان فرعون عِلْجا من هَمْدان . وعن مجاهد قال: كان من أهل إصطَخر . وعن الحسن أيضا قال : من أهل أَصْبهان، يقال له ذو ظفر، طوله أربعة أشبار . ﴿ فقلْ هل لك إلى أنْ تزكَّى ﴾ أى تسلِم فتطهرَ من الذنوب . وروى الضحاك عن ٱبن عباس قال : هل لك أن تشهد أن لا إله إلا الله . ﴿ وأَهْدِيك إلى ربك ﴾ أى وأرشدك إلى طاعة ربك ﴿فتخشَى﴾ أى تخافه وتتقيه . وقرأ نافع وٱبن كثير «تَزَّكَّى» بتشديد الزاى، على إدغام التاء فى الزاى لأن أصلها تتزكى . الباقون: «تَزَكَّى» بتخفيف الزاى على معنى طرح التاء. وقال أبو عمرو : «تَزَّكَّى» بالتشديد [تَتَصدَّق بـ] (٤) الصدقة ، و «تَزَكَّى» يكون زكيا مؤمنا . وإنما دعا فرعون ليكون زكيا مؤمنا . قال : فلهذا ٱخترنا التخفيف . وقال صخر بن جُوَيْرِية :

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٥٦ فما بعدها ، وجـ ١١ ص ٢٠٠ فما بعدها ، وجـ ١٣ ص ٢٥٠ فما بعدها .
(٢) قائله عدى بن زيد .　　(٣) راجع جـ ١١ ص ١٧٥ .
(٤) الزيادة من الطبرى ، وهى لازمة .

Marfat.com

لما بعث الله موسى إلى فرعون قال له : « آذهب إلى فِرعون » إلى قوله « وأَهْـدِيَك إلى ربك فتخشَى » ولن يفعل؛ فقال : يارب، وكيف أذهب إليه وقد علمتَ أنه لا يفعـل ؟ فأوحى الله إليه أن آمض إلى ما أمرتك به، فإن فى السماء آثنى عشر ألف مَلَك يطلبـون علم القَدر، فلم يبلغوه ولا يدركوه . ﴿ فأراه الآيَةَ الكُبْرَى ﴾ أى العلامة العُظْمَى وهى المعجزة . وقيل : العصا . وقيـل : اليد البيضاء تَبْرُق كالشمس . وروى الضحاك عن آبن عباس : الآية الكبرى قال العصا . الحسن : يده وعصاه . وقيل : فَلْق البحر . وقيـل : الآية : إشارة إلى جميـع آياته ومعجزاته . ﴿ فـكذب ﴾ أى كذب نبىَّ الله موسى ﴿ وعَصَى ﴾ أى عصى ربه عز وجل . ﴿ ثم أَدْبَرَ يسعَى ﴾ أى ولَّى مدْبرا معرِضا عن الإيمان « يسـعَى » أى يعمل بالفساد فى الأرض . وقيل : يعمل فى نكاية موسى . وقيل : « أدبر يسعَى » هاربا من الحية . ﴿ فحَشَرَ ﴾ أى جمع أصحابه ليمنعوه منها . وقيل : جمع جنوده للقتال والمحاربة، والسَّحرة للمعارضة . وقيل : حشر الناس للحضور . ﴿ فنادى ﴾ أى قال لهم بصوت عال ﴿ أنا ربكُم الأعلَى ﴾ أى لا رب لكم فوقى . ويروَى : إن إبليس تصور لفرعون فى صورة الإنس بمصر فى الحمام، فأنكره فرعون، فقال له إبليس : ويْحَك ! أما تعرفنى ؟ قال : لا . قال : وكيف وأنت خلقتنى ؟ ألست القـائل أنا ربكم الأعلَى . ذكره الثعلبىّ فى كتاب العـرائس . وقال عطاء : كان صنع لهم أصناما صغارا وأمرهم بعبادتها، فقال أنا رب أصنامكم . وقيل : أراد القادة والسادةَ، هو ربهم، وأولئك هم أرباب السَّفِلة . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير؛ فنادى فحشر؛ لأن النـداء يكون قبـل الحشر . ﴿ فأخذه الله نكال الآخِرَةِ والأولى ﴾ أى نكال قـوله : « ما علمت لكم من إله غيرى » وقوله بعـد : « أنا ربكم الأعلَى » قاله آبن عباس ومجاهد وعكرمة . وكان بين الكلمتين أربعون سنة؛ قاله آبن عباس . والمعنى : أمهله فى الأولى، ثم أخذه فى الآخرة؛ فعذبه بكلمتيه . وقيل : نكالُ الأولى : هو أن أغرقه، ونكال الآخرة : العذابُ فى الآخرة . وقاله قتادة وغيره . وقال مجاهد : هو عذاب أول عمره وآخره . وقيل : الآخرة قـوله « أنا ربكم الأعلَى » والأولى تكذيبـه لموسى . عن قتادة أيضـا .

Marfat.com

و « نكالَ » منصوب على المصدر المؤكّد في قول الزّجاج؛ لأن معنى أخذه الله: نكّل الله به، فأخرج [نكالَ][(1)] مكانَ مصدر من معناه، لا من لفظه . وقيل : نصب بنزع حرف الصفة، أي فأخذه الله بنكال الآخرة، فلما نُزِع الخافض نُصِب . وقال الفرّاء : أي أخذه الله أخذا نكالا، أي للنكال. والنكال : آسم لما جعل نكالا للغير أي عقوبة له حتى يعتبر به . يقال : نكّل فلان بفلان: إذا أثخنه عقوبة . والكلمة من الآمتناع، ومنه النكولُ عن اليمين، والنِّكل القيد . وقد مضى في سورة « المزمل »[(2)] والحمد لله . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً ﴾ أي آعتبارا وعظة . ﴿ لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ أي يخاف الله عزّ وجلّ .

قوله تعالى : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾

قولُه تعالَى : ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا ﴾ : يريد أهل مكة ، أي أخلقكم بعد الموت أشد في تقديركم ﴿ أَمِ السَّمَاءُ ﴾ فمن قَدَر على السماء قَدَر على الإعادة؛ كقوله تعالى: « لَخلقُ السموات والأرض أكبر مِن خلقِ الناس » وقوله تعالى : « أَوَلَيْس الذي خلق السموات والأرض بقادرٍ على أن يخلق مِثلَهم » ، فمعنى الكلام التقريع والتوبيخ. ثم وصف السماء فقال: ﴿ بناها ﴾ أي رفعها فوقكم كالبناء . ﴿ رفع سَمْكها ﴾ أي أعلى سقفها في الهواء ؛ يقال : سَمَكت الشيءَ أي رفعته في الهواء، وسَمَك الشيءُ سُمُوكا: آرتفع. وقال الفرّاء: كل شيء حَمَل شيئا من البناء وغيره فهو سَمْك . وبناء مَسْمُوك وسَنام سامِك تامِك أي عالٍ، والمسموكات[(3)] : السموات . ويقال : آسْمُك في الدَّيْم ، أي آصعد في الدرجة .

(١) زيادة تقتضيها العبارة . (٢) راجع ص ٤٥ من هذا الجزء . (٣) الذي في اللغة المسمكات كمكرمات وورد كذلك في الخبر . وصحح التاج أن المسموكات لغة لا لحن ، وربما ورد الخبر عن طريق آخر .

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿فَسَوَّاها﴾ أى خلقها خلقا مستويا، لا تفاوت فيه، ولا شُقوق، ولا فُطُور.
﴿وأَغطَش لَيلَها﴾ أى جعله مظلما؛ غَطِش الليلُ وأغطشه الله؛ كقولك: ظَلِم [الليلُ] (١)
وأظلمه الله. ويقال أيضا: أغطش الليلُ بنفسه، وأغطشه الله؛ كما يقال: أظلم الليلُ، وأظلمه
الله. والغَطَش والغَبَش: الظلمة. ورجل أغطش: أى أعمى، أو شبيه به، وقد غَطِش، والمرأة
غَطْشاء؛ ويقال: ليلة غَطْشاء، وليلٌ أغطش، وفلاة غَطْشَى لا يُهْتَدَى لها؛ قال الأعشى:

ويَهْماءَ بالليلِ غَطْشَى الفَلا * ةِ يؤنِسني صوتُ فَيادِها (٢)

وقال الأعشى أيضا:

عَقرتُ لهم مَوْهِنًا ناقتِي * وغامِرُهُم مدلِهمٌّ غَطِش

يعنى بغامرهم ليلهم، لأنه غمرهم بسواده. وأضاف الليل إلى السماء لأن الليل يكون بغروب
الشمس، والشمس مضاف إلى السماء؛ ويقال: نجوم الليل، لأن ظهورها بالليل. ﴿وأخرج
ضُحاها﴾ أى أبرز نهارها وضوءها وشمسها. وأضاف الضُّحا إلى السماء كما أضاف إليها
الليل؛ لأن فيها سبب الظلام والضياء وهو غروب الشمس وطلوعها. ﴿والأرضَ بعد
ذلك دَحاها﴾ أى بسطها. وهذا يشير إلى كون الأرض بعد السماء. وقد مضى القول فيه
فى أول «البقرة» (٣) عند قوله تعالى: «هو الذى خلق لكُم ما فى الأَرض جميعا، ثم آستوى
إلى السماء» مستوفًى. والعرب تقول: دَحَوْت الشيءَ أدحوه دحوا: إذا بسطته. ويقال
لعش النعامة أُدحِيّ؛ لأنه مبسوط على وجه الأرض. وقال أمية بن أبى الصلت:

وبثَّ الخلقَ فيها إذ دَحاها * فهُمْ قُطّانُها حتّى التنادِى (٤)

وأنشد المبرّد:

دحاها فلما رآها آستوت * على الماءِ أرسى عليها الجبالا

---

(١) هذه الزيادة من اللسان عن الفراء، قال: ظلم الليل بالكسر وأظلم بمعنى.
(٢) الفياد بفتح الفاء وضمها: ذكر البوم. (٣) راجع جـ ١ ص ٢٥٥.
(٤) مضى هذا البيت فى جـ ١٥ ص ٣١٠ بلفظ: سكانها. والمعنى واحد.

Marfat.com

وقيل : دحاها سوّاها ؛ ومنه قول زيد بن عمرو :

وأسلمتُ وجهى لمن أسلمتْ * له الأَرضُ تحمل صخرًا ثقالا
دحاها فلما آستوت شدَّها * بأيْـدٍ وأرسَى عليها الجبالا

وعن آبن عباس: خلق الله الكعبة ووضعها على الماء على أربعة أركان ، قبل أن يخلق الدنيا بألف عام، ثم دُحيت الأرض من تحت البيت. وذكر بعض أهل العلم أن «بعد» فى موضع « مع » كأنه قال : والأرض مع ذلك دحاها ؛ كما قال تعالى : « عُتُلٍّ بعد ذلك زَنِيمٍ » . ومنه قولهم : أنت أحمق وأنت بعد هذا سيِّئُ الخلق ؛ قال الشاعر :

فقلت لها عَنِّى إليكِ فإننى * حَرَامٌ وإنى بعد ذاك لَبيبُ

أى مع ذلك لبيب. وقيل : بعد: بمعنى قبل؛ كقوله تعالى: « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر » أى من قبل الفرقان ؛ قال أبو خِراش الهذلىّ :

حَمِدتُ إلٰهى بعد عروة إذ نجا * خِراشٌ وبعض الشرأهون من بعض

وزعموا أن خِراشا نجا قبل عروة . وقيل : « دحاها » : حرثها وشقها . قاله آبن زيد. وقيل: دحاها مهّدها للأقوات . والمعنى متقارب . وقراءة العامة « والأَرضَ » بالنصب ، أى دحا الأرض . وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون « والأرض » بالرفع، على الابتداء؛ لرجوع الهاء . ويقال : دحا يدحو دَحْوا ودَحَى يَدْحَى دحيا؛ كقولهم: طغَى يطغَى ويطغُو، وطغِىَ يطغَى، ومحا يمحو ويمحى ، ولَحَى العودَ يلحَى ويلحو ، فمن قال : يدحو قال دحوت ومن قال يدحى قال دحيْت . ﴿ أخرجَ منها ﴾ أى أخرج من الأرض ﴿ ماءها ﴾ أى العيون المتفجرة بالماء. ﴿ ومرعاها ﴾ أى النبات الذى يُرْعَى . وقال القُتَبى : دل بشيئين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتا ومتاعا للأنام من العشب والشجر والحب والتمر والعصف والحطب واللباس والنار والملح ؛ لأن النار من العيدان والملح من الماء . ﴿ والجبال أرساها ﴾ قراءةُ العامة «والجبالَ» بالنصب، أى وأرسَى الجبال « أرساها» يعنى: أثبتها فيها أوتادا لها . وقرأ

Marfat.com

الحسن وعمرو بن ميمون وعمرو بن عبيد ونصر بن عاصم « والجبالُ » بالرفع على الابتداء . ويقال : هلا أدخل حرف العطف على « أخرج » فيقال : إنه حال بإضمار قد؛ كقوله تعالى : «حصِرت صدورهم» . ﴿ متاعا لكم ﴾ أى منفعة لكم . ﴿ولأنعامِكم﴾ من الإبل والبقر والغنم . و « متاعا » نصب على المصدر من غير اللفظ؛ لأن معنى « أخرج منها ماءها ومرعاها » أمتع بذلك . وقيل : نصب بإسقاط حرف الصفة تقديره لتتمتعوا به متاعا .

قوله تعالى : فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فإذا جاءتِ الطامّة الكبرى ﴾ أى الداهية العظمى، وهى النفخة الثانية، التى يكون معها البعث ؛ قاله ابن عباس فى رواية الضحاك عنه، وهو قول الحسن . وعن ابن عباس أيضا والضحاك : أنها القيامة؛ سميت بذلك لأنها تطِمّ على كل شىء، فتعم ما سواها لعظم هولها ؛ أى تقلبه . وفى أمثالهم :

* جرى الوادِى فطمّ على القرِىّ [1] *

المبرد : الطامة عند العرب الداهية التى لا تستطاع ، وإنما أخذت فيما أحسب من قولهم : طم الفرس طميما إذا استفرغ جهده فى الجرى، وطم الماء إذا ملأ النهر كله . غيره : هى مأخوذة من طمّ السيلُ الرَّكِيّة [2] أى دفنها، والطمّ : الدفن والعلو. وقال القاسم بن الوليد الهمْدانى : الطامة الكبرى حين يُساق أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار. وهو معنى قول مجاهد: وقال سفيان : هى الساعة التى يُسْلَم فيها أهل النار إلى الزبانية . أى الداهية التى طمّت وعظمت ؛ قال :

إن بعض الحبّ يُعْمِى و يصِمّ * وكذاك البغضُ أدهَى وأطَمّ

(١) القرى مجرى الماء فى الروضة والجمع أقرية وأقراء وقريان ؛ و يضرب المثل عند تجاوز الشىء حده .

(٢) الركية : البئر ؛ أى جرى سيل الوادى .

Marfat.com

﴿ يومَ يتذكَّرُ الإنسانُ ماسعى ﴾ أى ماعمل من خير أو شر. ﴿ وبُرِّزت الجحيمُ ﴾ أى ظهرت. ﴿ لِمن يرى ﴾ قال ابن عباس: يكشف عنها فيراها تتلظى كل ذى بصر. وقيل: المراد الكافر لأنه الذى يرى النار بما فيها من أصناف العذاب. وقيل: يراها المؤمن ليعرف قدر النعمة ويصلَى الكافر بالنار. وجواب « فإذا جاءتِ الطامّةُ » محذوف أى إذا جاءت الطامة دخل أهل النار النار وأهل الجنة الجنة. وقرأ مالك بن دينار: « وبَرَزَتِ الجحيمُ ». عِكرمة: وغيره: « لِمن ترى » بالتاء، أى لمن تراه الجحيم، أو لمن تراه أنت يامحمد. والخطاب له عليه السلام، والمراد به الناس.

قوله تعالى: فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾

قوله تعالى: ﴿ فأما من طَغَى. وآثَرَ الحياةَ الدنيا ﴾ أى تجاوز الحد فى العصيان. قيل: نزلت فى النضر وابنه الحارث، وهى عامة فى كل كافر آثر الحياة الدنيا على الآخرة. وروى عن يحيى بن أبى كثير قال: من اتخذ من طعام واحد ثلاثة ألوان فقد طغى. وروى جُوَيبر عن الضحّاك قال: قال حذيفة: أخوف ما أخاف على هذه الأمة أن يؤثروا مايرون على ما يعلمون[1]. ويروى أنه وجد فى الكتب: إن الله جل ثناؤه قال « لا يؤثرُ عبدٌ لى دنياه على آخرته، إلا بثثت عليه همومه وضيعته[2]، ثم لا أبالى فى أيّها هلك ». ﴿ فإن الجحيمَ هِى المأْوَى ﴾ أى مأواه. والألف واللام بدل من الهاء. ﴿ وأما من خاف مقام ربِّه ﴾ أى حذِر مقامه بين يدى ربه. وقال الربيع: مقامه يوم الحساب. وكان قتادة يقول: إن لله عز وجل مقاما قد خافه المؤمنون. وقال مجاهد: هو خوفه فى الدنيا من الله عز وجل عند مواقعة الذنب

(١) فى ط: ما يعملون. (٢) كذا فى ا، ح، ز، ل. وفى بعض الأصول: وصنيعته.

Marfat.com

فيقلع . نظيره : « ولِمن خاف مَقامَ ربهِ جنتانِ » . ﴿ ونَهى النفسَ عنِ الهوى ﴾ أى زجرها عن المعاصى والمحارم . وقال سهل : ترك الهوى مِفتاح الجنة؛ لقوله عز وجل : « وأما من خاف مقام ربهِ ونهى النفسَ عنِ الهوى » قال عبـد الله بن مسعود : أنتم فى زمان يقود الحقُّ الهوى، وسيأتى زمان يقود الهَوَى الحقَّ، فنعوذ بالله من ذلك الزمان. ﴿ فإن الجنة هِى المأْوَى ﴾ أى المنزل. والآيتان نزلتا فى مصْعَب بن عُمَير وأخيه عامر بن عمير؛ فروَى الضحاك عن ابن عباس قال : أما من طغى فهو أخ لمصعب بن عمير أُسِر يوم بدر ، فأخذته الأنصار فقالوا : من أنت؟ قال: أنا أخو مُصْعَب بن عُمير، فلم يشُـدُّوه فى الوَثاق، وأكرموه وبيتوه عندهم، فلما أصبحوا حدّثوا مصعب بن عُمَير حديثه؛ فقال: ما هو لى بأخ، شدّوا أسيركم، فإن أمه أكثر أهـل البطحاء حليا ومالا . فأوثقـوه حتى بعثت أمّه فى فِـدائه . « وأما من خاف مقام ربه » فمصْعَب بن عمير ، وقى رسـول الله صلى الله عليـه وسلم بنفسه يوم أُحُد حين تفرق الناس عنه ، حتى نفذت المشاقص فى جوفه . وهى السهام ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسـلم متشحِّطا فى دمه قال : " عندَ الله أحتسبك " وقال لأصحابه : " لقد رأيته وعليه بُردان ما تعرف قيمتهما و إن شراك نعليه من ذَهب " . وقيـل : إن مصعب ابن عمير قتل أخاه عامرا يوم بدر. وعن ابن عباس أيضا قال: نزلت هذه الآية فى رجلين: أبى جهل بن هشام المخزومىّ ومصعب بن عمير العبدرىّ . وقال السُّدّى : نزلت هذه الآية « وأما من خاف مقام ربهِ » فى أبى بكر الصـديق رضى الله عنه . وذلك أن أبا بكر كان له غلام يأتيه بطعـام ، وكان يسأله من أين أتيت بهذا ، فأتاه يوما بطعام فلم يسأله وأكله ؛ فقال له غلامه : لِم لا تسألنى اليوم ؟ فقال : نسيت، فمن أين لك هـذا الطعام . فقال : تكهنت لقوم فى الجـاهلية فأعطَوْنيه . فتقاياه من ساعته وقال : يا رب ما بقى فى العروق فأنت حبَسته فنزلت: «وأما من خاف مقام ربهِ» . وقال الكلبىّ : نزلت فى من همّ بمعصية وقدر عليها فى خَلْوة ثم تركها من خوف الله . ونحوه عن ابن عبـاس . يعنى من خاف عنـد المعصية مَقامه بين يدَى الله ، فانتهى عنها . والله أعلم .

Marfat.com

قوله تعالى : يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ يسألونكَ عنِ الساعةِ أيّانَ مُرْسَاها ﴾ قال آبن عباس : سأل مشركو مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم متى تكون الساعة آستهزاء ، فأنزل الله عز وجل الآية . وقال عُروة بن الزبير في قوله تعالى : ﴿ فِيمَ أنتَ مِن ذِكْرَاها ﴾ ؟ لم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يسأل عن الساعة، حتى نزلت هذه الآية ﴿ إلى رَبِّكَ مُنتهاها ﴾ . ومعنى « مُرْساها » أى قيامُها . قال الفراء : رُسُوُّها قيامها كرسوّ السفينةِ (١) . وقال أبو عبيدة : أى منتهاها ، ومَرسَىٰ السفينة حيث تنتهى . وهو قول آبن عباس . الربيع بن أنس : متى زمانها . والمعنى متقارب . وقد مضى فى « الأعراف (٢) » بيان ذلك . وعن الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لا تقوم الساعة إلا بغضبة يغضبها ربك " . « فِيمَ أنت مِن ذِكراها » أى فى أى شيء أنت يا محمد من ذكر القيامة والسؤال عنها ؟ وليس لك السؤال عنها . وهذا معنى ما رواه الزُّهرِىّ عن عُروة بن الزُّبير قال : لم يزل النبيُّ صلَّى الله عليه وسلم يسأل عن الساعة حتى نزلت « فِيم أَنتَ مِن ذِكراها ؟ إلى ربك منتهاها » أى منتهى علمها ؛ فكأنه عليه السلام لما أكثروا عليه سأل الله أن يعرفه ذلك ، فقيل له : لا تسأل، فلست فى شيء من ذلك . ويجوز أن يكون إنكارا على المشركين فى مسألتهم له ؛ أى فيم أنت من ذلك حتى يسألوك بيانه، ولست ممن يَعلَمه . رُوِى معناه عن آبن عباس . والذكرى بمعنى الذكر . « إلى ربك مُنتهاها » أى منتهى علمها، فلا يُوجَد عند غيره علم الساعة؛ وهو كقوله تعالى : « قل إنما علمها عِند ربى» وقوله تعالى: «إن الله عِندهُ علم الساعةِ» . ﴿ إنما أنت منذِر من يخشاها ﴾:

(١) قال الفراء : كقولك قام العدل ، وقام الحق ، أى ظهر وثبت .

(٢) راجع جـ ٨ ص ٣٣٥ فما بعدها .

Marfat.com

أى مخوّف؛ وخصّ الإنذار بمن يخشى، لأنهم المنتفعون به، وإن كان منذرا لكل مكلف؛ وهو كقوله تعالى : «إنما تنذر من آتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب» . وقراءة العامة «منذر» بالإضافة غير منون ؛ طاب التخفيف، وإلا فأصله التنوين ؛ لأنه للمستقبل وإنما لاينون فى الماضى . قال الفراء: يجوز التنوين وتركه؛ كقوله تعالى : «بالغُ أمرِه» ، و «بالغٌ أمرَه» و «مُوهِنُ كيدِ الكافرين» و «موهنٌ كيدَ الكافرين» والتنوين هو الأصل، وبه قرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج وآبن مُحيصن وحُميد وعياش عن أبى عمرو «منذرٌ» منونا، وتكون فى موضع نصب، والمعنى نصب، إنما ينتفع بإنذارك من يخشى الساعة . وقال أبو على : يجوز أن تكون الإضافة للماضى، نحو ضارب زيدٍ أمس ؛ لأنه قد فعل الإنذار، الآية ردّ على من قال : أحوال الآخرة غير محسوسة، وإنما هى راحة الرُّوح أو تألمها من غير حِسّ . ﴿ كأنهم يوم يرونها ﴾ يعنى الكفار يرون الساعة ﴿ لم يلبثوا ﴾ أى فى دنياهم ، ﴿ إلا عَشية ﴾ أى قدر عشية ﴿ أو ضحاها ﴾ أى أو قدر الضُّحا الذى يلى تلك العشية، والمراد تقليل مدة الدنيا، كما قال تعالى: «لم يلبثوا إلا ساعةً من نهار». وروَى الضحاك عن آبن عباس: كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا يوما واحدا . وقيل : «لم يلبثوا» فى قبورهم «إلا عشية أو ضحاها» ، وذلك أنهم آستقصروا مدة لَبثهم فى القبور لما عاينوا من الهول . وقال الفراء : يقول القائل: وهل للعشية ضُحًا؟ وإنما الضحا لصدر النَّهار، ولكن أضيف الضحا إلى العشية، وهو اليوم الذى يكون فيه على عادة العرب ؛ يقولون : آتيك الغداة أو عشيتها ، وآتيك العشيةَ أو غداتها ، فتكون العشية فى معنى آخر النهار ، والغداة فى معنى أوّل النهار ؛ قال : وأنشدنى بعض بنى عُقَيل :

نحنُ صَبَحْنا عامرا فى دارِها * جُرْدًا تَعادَى طرَفَى نهارِها

* عشيةِ الهلالِ أو سِرارِها *

اراد : عشيةِ الهلالِ، أو سِرار العشية ، فهو أشدّ من آتيك الغداة أو عَشِيَّها .

Marfat.com

سورة عبس

مكية في قول الجميع ، وهي إحدى وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿عَبَسَ﴾ أي كلح بوجهه ؛ يقال : عبس و بَسَر . وقد تقدّم . ﴿وتولَّى﴾ أي أعرض بوجهه ﴿أن جاءَهُ﴾ « أنْ » في موضع نصب لأنه مفعول له ، المعنى لأن جاءه الأعمى ، أي الذي لا يبصر بعينيه . فروى أهل التفسير أجمع أن قوما من أشراف قريش كانوا عند النبي صلى الله عليه وسلم وقد طمع في إسلامهم ، فأقبل عبد الله بن أم مكتوم ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يَقْطَع عبدُ الله عليه كلامه ، فأعرض عنه ، ففيه نزلت هذه الآية . قال مالك : إن هشام بن عُروة حدّثه عن عروة ، أنه قال : نزلتْ « عبس وتولى » في ابن أم مكتوم ؛ جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فجعل يقول : يا محمد آستدنني[(١)] ، وعند النبي صلى الله عليه وسلم رجل من عظماء المشركين ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يُعرض عنه ويُقبل على الآخر ، ويقول : " يا فلان ، هل ترى بما أقولُ بأسا " ؟ فيقول : [لا والدُّمَى[(٢)] ما أرى بما تقول بأسا[(٣)]] ؛ فأنزل الله « عبس وتولى » . وفي الترمذي مسندا قال : حدّثنا سعيد ابن يحيى بن سعيد الأُموي ، حدّثني أبي ، قال هذا ما عرضنا على هشام بن عُروة عن أبيه عن عائشة ، قالت : نزلت « عبس وتولى » في ابن أم مكتوم الأعمى ، أتى رسول الله صلى الله عليه

(١) الرواية هنا وفي ابن العربي يا محمد ، والمشهور في التفسير يا رسول الله علمني مما علمك الله . وفي رواية : يا رسول الله أرشدني : كما سيأتي للمصنف . (٢) الدمى : جمع دمية وهي الصورة ، يريد بها الأصنام .
(٣) ما بين المربعين ساقط من ب .

Marfat.com

وسلم يقول : يارسول الله أرشدنى ، وعند رسـول الله صلى الله عليه وسلم رجل من عظماء المشركين ، فجعل رسـول الله صلى الله عليه وسلم يُعْرض عنـه ، ويُقْبل على الآخر، ويقول : "أترى بما أقول بأسا" فيقول : لا ؛ ففى هذا نزلت ؛ قال : هذا حديث غريب .

الثانيـــة — الآية عتاب من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم فى إعراضه وتوليه عن عبد الله ابن أم مكتوم . ويقال: عمرو بن أم مكتوم، وآسم أم مكتوم عاتكة بنت عامر بن مخزوم، وعمرو هذا : هو آبن قيس بن زائدة بن الأصم، وهو آبن خال خديجة رضى الله عنها . وكان قد تشاغل عنـه برجل من عظماء المشركين ، يقال كان الوليد بن المغيرة . آبن العربى : قاله المـالكية من علمائنا، وهو يكنى أبا عبد شمس . وقال قتادة : هو أميـة بن خلص وعنه : أبى بن خلف . وقال مجاهد : كانوا ثلاثة عتبة وشيبة آبنا ربيعة وأبى بن خلف . وقال عطاء عتبة بن ربيعة . سفيان الثورى : كان النبي صلى الله عليه وسلم مع عمه العباس . الزمخشرى: كان عنـده صناديد قريش : عتبة وشيبة آبنا ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، والعباس بن عبد المطلب ، وأميـة بن خَلَف، والوليد بن المغـيرة يدعوهم إلى الإسـلام، رَجاء أن يُسْلِم بإسلامهم غيرهم . قال آبن العربى : أما قول علمائنا إنه الوليد بن المغيرة فقد قال آخرون إنه أميـة بن خلف والعباس وهذا كله باطل وجهل من المفسرين الذين لم يتحققوا الدين ، ذلك أن أميـة بن خلف والوليد كانا بمكة وآبن أم مكتوم كان بالمدينـة ، ما حضر معهما ولا حضرا معه، وكان موتهما كافرين، أحدهما قبل الهجرة، والآخر ببدر، ولم يقصد قط أمية المدينة، ولا حضر عنده مفردا، ولا مع أحد .

الثالثـــة — أقبل آبن أم مكتوم والنبى صلى الله عليه وسلم مشتغل بمن حضره من وجوه قريش يدعوهم إلى الله تعالى، وقد قوى طمعه فى إسلامهم، وكان فى إسلامهم إسـلام من وراءهم من قومهم ، فجاء آبن أم مكتوم وهو أعمى فقال : يا رسول الله علمنى مما علمك الله ، وجعل يناديه ويكثر النداء، ولا يدرى أنه مشتغل بغيره، حتى ظهرت الكراهة فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لقطعة كلامه، وقال فى نفسه : يقول هؤلاء: إنما أتباعه العُميان والسَّفلة

Marfat.com

والعبيد؛ فعبس وأعرض عنه، فنزلت الآية . قال الثورى : فكان النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا رأى ابن أم مكتوم يبسط له رداءه و يقول : " مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى " . و يقول : " هل من حاجة " ؟ وآستخلفه على المدينة مرتين فى غزوتين غزاهما . قال أنس : فرأيته يوم القادسية راكبا وعليه درع ومعه راية سوداء .

الرابعـــة — قال علماؤنا : ما فعـله آبن أم مكتوم كان من سوء الأدب لو كان عالما بأن النبي صلى الله عليه وسلم مشغول بغيره، وأنه يرجو إسلامهم ، ولكن الله تبارك وتعالى عاتبه حتى لا تنكسر قلوب أهل الصُّفَّة ؛ أو ليعلم أن المؤمن الفقير خير من الغنى ، وكان النظر إلى المؤمن أولى و إن كان فقيرا أصلح وأولى من الأمر الآخر، وهو الإقبال على الأغنياء طمعا فى إيمانهم، وإن كان ذلك أيضا نوعا من المصلحة، وعلى هذا يخرج قوله تعـالى: «ما كان لنبيّ أن يكون له أسرى » ... الآية على ما تقدّم[(١)] . وقيل : إنما قصد النبي صلى الله عليه وسلم تأليف الرجل، ثقة بما كان فى قلب آبن أم مكتوم من الإيمان، كما قال: " إنى لأصل الرجل وغيره أحب إلىّ منه، مخافة أن يكبه الله فى النار على وجهه " .

الخامســـة — قال آبن زيد : إنمـا عبس النبي صـلى الله عليه وسـلم لآبن أم مكتوم وأعرض عنه؛ لأنه أشار إلى الذى كان يقوده أن يكفه، فدفعه آبن أم مكتوم، وأبى إلا أن يكلم النبي صلى الله عليه وسلم حتى يعلمه ، فكان فى هذا نوعُ جفاء منـه . ومع هذا أنزل الله فى حقه على نبيه صلى الله عليه وسلم : « عَبَس وتولّى » بلفظ الإخبار عن الغائب ، تعظيما[(٢)] له ولم يقل : عبستَ وتوليتَ . ثم أقبل عليه بمواجهة الخطاب تأنيسا له فقال: ﴿وما يُدْرِيكَ﴾ أى يعلمك ﴿ لَعَلَّه ﴾ يعنى آبن أم مكتوم ﴿ يَزَّكَّى ﴾ بمـا آستدعى منك تعليمه إياه من القرآن والدين، بأن يزداد طهارة فى دينه ، وزوال ظلمة الجهل عنه . وقيل : الضمير فى « لعله » للكافر يعنى إنك إذا طمعت فى أن يتزكى بالإسلام أو يذّكر، فتقربه الذكرى إلى قبول الحق

(١) راجع جـ ٨ ص ٤٥ فما بعدها .
(٢) فى ا ، ح : تعليما .

Marfat.com

وما يُدْرِيك أن ما طمعت فيه كائن . وقرأ الحسن «آأَن جاءه الأعمى»(1) بالمدّ على الآستفهام
ف «أن» متعلقة بفعل محذوف دل عليه «عبس وتولى» التقدير: آأن جاءه أعرض عنه وتولى؟
فيوقف على هذه القراءة على «وتولّى»، ولا يوقف عليه على قراءة الخبر، وهى قراءة العامة .

السادسة — نظير هذه الآية فى العتاب قوله تعالى فى سورة الأنعام : «ولا تَطْرُدِ
الذين يدعون ربهم بالغَداة والعَشِيّ» وكذلك قوله فى سورة الكهف : «ولا تَعْدُ عيناك عنهم
تريد زينة الحياة الدنيا» وما كان مثله، والله أعلم . ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ يتعظ بما تقول ﴿فتنفعه
الذِّكْرى﴾ أى العظة . وقراءة العامة «فتنفعُه» بضم العين، عطفا على «يزّكّى» . وقرأ عاصم
وآبن أبى إسحاق وعيسى «فتنفعَه» نصبا . وهى قراءة السُّلَمِيّ وزِرّ بن حُبَيش، على جواب
لعل، لأنه غير موجَب، كقوله تعالى : «لعلّى أبلغ الأسبابَ» ثم قال : «فاطّلعَ» .

قوله تعالى : أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾
وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾
فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿أما مَنِ آستغنَى﴾ أى كان ذا ثروة وغِنًى ﴿فأنتَ له تَصدَّى﴾ أى تَعرَّضُ
له، وتُصْغِي لكلامه . والتصدّى : الإصغاء؛ قال الراعى :

تَصَدَّى لوضّاحٍ كأنّ جَبينه * سِراجُ الدُّجَى يَحْنِي إليه الأساوِرُ(2)

وأصله تتصدّد من الصَّدّ ، وهو ما آستقبلك، وصار قبالتك؛ يقال : دارى صَدَدُ داره
أى قِبالتها، نُصب على الظرف . وقيل : من الصَّدَى وهو العطش . أى تتعرض له كما يتعرض
العطشان للماء، والمصاداة : المعارضة . وقراءة العامة «تَصدّى» بالتخفيف، على طرح التاء

---

(1) قال الزمخشرى وقرئ «آآن» بهمزتين وألف بينهما .

(2) الإسوار (بكسر الهمزة وضمها) قائد الفرس، وقيل : هو الجيد الرمى بالسهام، وقيل : هو الجيد الثبات على ظهر الفرس، والجمع أساورة وأساور .

Marfat.com

الثانية تخفيفا . وقرأ نافع وابن محيصن بالتشديد على الإدغام . ﴿ وما عليك ألا يزكى ﴾ أى لا يهتدى هذا الكافر ولا يؤمن ، إنما أنت رسول ، ما عليك إلا البلاغ .

قوله تعالى : ﴿ وأما من جاءك يسعى ﴾ يطلب العلم لله ﴿ وهو يخشى ﴾ أى يخاف الله . ﴿ فأنت عنه تلهى ﴾ أى تعرض عنه بوجهك وتشغل بغيره . وأصله تتلهى ؛ يقال : لهيت عن الشيء ألهى : أى تشاغلت عنه . والتلهى : التغافل . ولهيت عنه وتليت : بمعنى .

قوله تعالى : كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ كلا إنها تذكرة ﴾ « كلا » كلمة ردع وزجر ؛ أى ما الأمر كما تفعل مع الفريقين ؛ أى لا تفعل بعدها مثلها : من إقبالك على الغني ، وإعراضك عن المؤمن الفقير . والذى جرى من النبي صلى الله عليه وسلم كان ترك الأولى كما تقدم ، ولو حمل على صغيرة لم يبعد ؛ قاله القشيري . والوقف على « كلا » على هذا الوجه : جائز . ويجوز أن تقف على « تلهى » ثم تبتدئ « كلا » على معنى حقا . ﴿ إنها ﴾ أى السورة أو آيات القرآن ﴿ تذكرة ﴾ أى موعظة وتبصرة للخلق ﴿ فمن شاء ذكره ﴾ أى اتعظ بالقرآن . قال الجرجاني : « إنها » أى القرآن ، والقرآن مذكر إلا أنه لما جعل القرآن تذكرة ، أخرجه على لفظ التذكرة ، ولو ذكره لجاز ؛ كما قال تعالى فى موضع آخر : « كلا إنه تذكرة » . ويدل على أنه أراد القرآن قوله : « فمن شاء ذكره » أى كان حافظا له غير ناس ؛ وذكر الضمير ؛ لأن التذكرة فى معنى الذكر والوعظ . وروى الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى : « فمن شاء ذكره » قال من شاء الله تبارك وتعالى ألهمه . ثم أخبر عن جلالته فقال : ﴿ في صحف ﴾ جمع صحيفة ﴿ مكرمة ﴾ أى عند الله ؛ قاله السدى . الطبري : « مكرمة » فى الدين لما فيها من العلم والحكم . وقيل : « مكرمة » لأنها نزل بها كرام الحفظة ، أو لأنها نازلة من اللوح المحفوظ . وقيل : « مكرمة »

Marfat.com

لأنها نزلت من كريم ؛ لأن كرامة الكتاب من كرامة صاحبه . وقيل : المراد كُتُب الأنبياء ؛ دليله : « إن هـذا لفِي الصحفِ الأولى : صحفِ إبراهيم وموسى » . ﴿ مرفوعةٍ ﴾ رفيعـة القدر عند الله . وقيل : مرفوعة عنده تبارك وتعالى . وقيل : مرفوعة فى السماء السابعة ، قاله يحيى بن سلام . الطبرى : مرفوعة الذكر والقدر . وقيل: مرفوعة عن الشُّبَه والتناقض . ﴿ مُطَهَّرةٍ ﴾ قال الحسن : من كل دنس . وقيل : مصانة(١) عن أن ينالها الكفار . وهو معنى قول السُّدّى . وعن الحسن أيضا : مطهَّرة من أن تنزل على المشركين . وقيل : أى القرآن أثبت للملائكة فى صحف يقرءونهـا فهى مكرمة مرفوعة مطهـرة . ﴿ بِأَيدِى سَـفَرَةٍ ﴾ أى الملائكة الذين جعلهم الله سـفراء بينه وبين رسله ، فهم بررة لم يتدنسوا بمعصية . ورَوى أبو صالح عن آبن عباس قال : هى مطهرة تجعـل التطهير لمن حملها « بِأَيدِى سَفَرةٍ » قال : كَتَبة . وقاله مجاهد أيضا . وهم الملائكة الـكرام الكاتبون لأعمال العبـاد فى الأسفار، التى هى الكتب ، واحدهم: سافر، كقولك : كاتب وكَتَبة . ويقال : سَفَرْتُ أى كتبتُ ، والكتاب : هو السفر، وجمعه أسفار . قال الزجاج : وإنما قيل للكتاب سِفْر، بكسر السين، وللكاتب سافر؛ لأن معناه أنه يبين الشيء ويوضحـه . يقال : أسفر الصبح : إذا أضاء ، وسَفَرتِ المـرأة : إذا كشفت النقاب عن وجهها . قال : ومنه سَفَرت بين القوم أَسْـفِر سفارة : أصلحت بينهم . وقاله الفراء ، وأنشد :

فمـا أَدَعُ السِّفارةَ بينَ قومِي * ولا أَمشِي بغِشٍّ إن مَشَيْتُ

والسفير: الرسول والمصلح بين القوم، والجمع: سفراء، مثل فقيه وفقهاء. ويقال للوراقين سُفَرَاء، بلغة العِبرانية . وقال قتادة : السَّفَرة هنا : هم القُرّاء، لأنهم يقرءون الأسفار . وعنه أيضا كقول آبن عباس . وقال وهب بن مُنَبِّه : « بِأَيدِى سَفَرةٍ . كِرامٍ بَرَرَةٍ » هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم . قال آبن العربىّ : لقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سَفَرةً ، كِراما بَرَرَة ، ولكن ليسوا بمرادين بهذه الآية ، ولا قاربوا المرادين بها ، بل هى لفظة مخصوصة بالملائكة عند الإطلاق ، ولا يشاركهم فيها سواهم ، ولا يدخل معهم فى مُتناولها غيرهم . ورُوى

(١) كذا فى الأصول ، وهو مخالف لما فى كتب اللغة . والصواب : (مصونة) . انظر تاج العروس .

Marfat.com

فى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "[مَثَل](١) الذى يقرأ القرآن وهو حافظ له ، مع السَّفَرة الكرام البررة ؛ ومَثَل الذى يقرؤه وهو يتعاهده ، وهو عليه شديد ، فله أجران" متفق عليه ، واللفظ للبخارى . ﴿ كِرَامٍ ﴾ أى كرام على ربهم ؛ قاله الكلبى . الحسن : كرام عن المعاصى ، فهم يرفعون أنفسهم عنها . وروى الضحاك عن ابن عباس فى « كِرَامٍ » قال : يتكرمون أن يكونوا مع ابن آدم إذا خلا بزوجته ، أو تبرز لغائطه . وقيل : أى يؤثرون منافع غيرهم على منافع أنفسهم . ﴿ بَرَرَةٍ ﴾ جمع بارّ مثل كافر وكفرة ، وساحر وسحرة ، وفاجر وفجرة ؛ يقال : برّ وبارّ إذا كان أهلا للصدق ، ومنه برّ فلان فى يمينه : أى صدق ، وفلان يَبَرّ خالقه ويتبرره : أى يطيعه ؛ فمعنى « بررةٍ » مطيعون لله ، صادقون لله فى أعمالهم . وقد مضى فى سورة « الواقعة » قوله تعالى : « إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنونٍ . لا يمسه إلا المطهرون »(٢) أنهم الكرام البَرَرَة فى هذه السورة .

قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾ ؟ « قتل » أى لعن . وقيل : عُذِّب . والإنسان الكافر . روى الأعمش عن مجاهد قال : ما كان فى القرآن « قُتِل الإنسان » فإنما عُنِى به الكافر . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : نزلت فى عُتْبة بن أبى لَهَب ، وكان قد آمن ، فلما نزلت « والنجم » ارتدّ ، وقال : آمنت بالقرآن كلّه إلا النجم ، فأنزل الله جل ثناؤه فيه « قتِل الإنسان » أى لُعن عُتبة حيث كفر بالقرآن ، ودعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) الزيادة من صحيح البخارى
(٢) راجع جـ ١٧ ص ٥٢٢

Marfat.com

فقال : " اللّهُمّ سلّط عليه كلباً من كلابك أسـد الغاضرة "(١) فخرج من فوره بتجارة إلى الشام ، فلما انتهى إلى الغاضرة تذكر دعاء النبي صلى الله عليـه وسلم ، فجعل لمن معه ألف دينار إن هو أصبح حيا ، فجعلوه فى وسط الرُّفقة ، وجعلوا المتاع حوله ، فبينما هم على ذلك أقبل الأسد، فلما دنا من الرحال وثب، فإذا هو فوقه فمزقه ، وقد كان أبوه ندبه وبكى وقال : ما قال محمد شيئا قـطُّ إلا كان . وروى أبو صالح عن ابن عباس « ما أكفره » : أىُّ شىء أكفـره ؟ وقيل : « ما » تعجب ؛ وعادة العرب إذا تعجبوا من شىء قالوا : قاتله الله ما أحسنه ! وأخزاه الله ما أظلمه ؛ والمعنى : اعجبوا من كفر الإنسان لجميع ماذكرنا بعد هذا . وقيل : ما أكفـره بالله ونعمه مع معرفته بكثرة إحسانه إليـه على التعجب أيضا ؛ قال ابن جريج : أى ما أشدّ كفره ! وقيل : « ما » استفهام أى أىّ شىء دعاه إلى الكفر ؛ فهو استفهام توبيخ . و « ما » تحتمل التعجب ، وتحتمل معنى أىّ، فتكون استفهاما . ﴿ مِن أىِّ شىءٍ خَلَقَهُ ﴾ أى من أىّ شىء خلق الله هذا الكافر فيتكبر ؟ أى اعجبوا لخلقه . ﴿ مِن نطفـةٍ ﴾ أى من ماء يسـيرٍ مَهِين جماد ﴿ خَلَقَـهُ ﴾ فلِمَ يغلط فى نفسه ؟ ! قال الحسن : كيف يتكبر من خرج من سبيل البول مرتين . ﴿ فقدّره ﴾ فى بطن أمه . كذا روى الضحاك عن ابن عباس : أى قدّر يديه ورجليه وعينيه وسائر آرابه ، وحسنا ودميا، وقصيرا وطويلا، وشقيا وسعيدا. وقيـل : « فقدّره » أى فسواه كما قال : « أكفرت بالذى خلقك من ترابٍ ثم من نطفةٍ ثم سوّاك رجلا » . وقال : « الذى خلقك فسواك » . وقيل : « فقدّره » أطوارا أى من حال إلى حال؛ نطفة ثم علقة، إلى أن تم خَلْقه. ﴿ ثم السبيل يَسّره ﴾ قال ابن عباس فى رواية عطاء وقتادة والسدى ومقاتل : يسّره للخـروج من بطن أمه . مجاهد : يسّره لطريق الخير والشر ؛ أى بيّن له ذلك . دليـله : « إنا هديناه السبيلَ » و « هديناه النجدَينِ » . وقاله الحسن وعطاء وابن عباس أيضا فى رواية أبى صالح عنـه . وعن مجاهد أيضا قال : سبيل

(١) كذا لفظ الحـديث فى الأصول ورواية أبى حيان له : " اللهم ابعث عليـه كلبك يأكله " ، ثم قال : فلما انتهى إلى الغاضرة ... الخ .

Marfat.com

الشقاء والسعادة . ابن زيد : سبيل الإسلام . وقال أبو بكر بن طاهر : يَسَّر على كل أحد ما خلقه له، وقدَّره عليه ؛ دليله قوله عليه السلام : "اعملوا فكلٌّ مُيَسَّر لما خُلق له" .

﴿ ثم أماته فأقبره ﴾ أى جعل له قبرا يوارَى فيه إكراما ، ولم يجعله مما يُلقَى على وجه الأرض تأكله الطير والعوافي[1] ؛ قاله الفرّاء . وقال أبو عبيدة : « أقبره » : جعل له قبرا، وأمر أن يُقْبَر . قال أبو عبيدة : ولما قتَل عمرُ بن هُبيرة صالحَ بن عبد الرحمن ، قالت بنو تميم ودخلوا عليه : أَقبِرنا صالحا ؛ فقال : دونكموه . وقال : « أَقبره » ولم يقل قَبَره ؛ لأن القابر هو الدافن بيده ، قال الأعشى :

لو أَسْندتْ مَيْتا إلى نحرِها ‌ * ‌ عاشَ ولم يُنقَلْ إلى قابِرِ

يقال : قبرت الميت : إذا دفنته، وأقبره الله : أى صيره بحيث يُقْبر ، وجعل له قبرا؛ تقول العرب : بترت ذَنَب البعير ، وأبتره الله ، وعضبت قَرْن الثور، وأعضبه الله، وطردت فلانا، والله أطرده، أى صيره طريدا . ﴿ ثم إذا شاء أنشره ﴾ أى أحياه بعد موته . وقراءة العامة « أَنْشرهُ » بالألف . وروى أبو حَيْوة عن نافع وشعيب بن أبى حمزة « شاء نشره » بغير ألف ، لغتان فصيحتان بمعنى ؛ يقال : أنشر الله الميت ونَشَره ؛ قال الأعشى :

حتى يقولَ الناس مما رأَوا ‌ * ‌ يا عَجَبا لِلميتِ الناشرِ

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا لمَّا يقضِ ما أَمَرَهُ ﴾ قال مجاهد وقتادة : « لمّا يَقْضِ » : لا يقضى أحد ما أُمِر به . وكان ابن عباس يقول : « لما يقضِ ما امره » لم يف بالميثاق الذى أُخِذ عليه فى صلب آدم . ثم قيل : « كَلَّا » ردع وزجر ، أى ليس الأمر: كما يقول الكافر ؛ فإن الكافر إذا أُخبر بالنُّشور قال : « ولئن رُجِعت إلى ربى إن لِى عِندَه لَلحُسْنَى » ربما يقول قد قضيت ما أُمِرت به . فقال : كلّا لمْ يقض شيئا بل هو كافر بى وبرسولى . وقال الحسن : أى حَقّا لم يقض : أى لم يعمل بما أمر به . و « ما » فى قوله : « لمّا » عماد للكلام ؛ كقوله تعالى : « فبِما رحمةٍ مِن اللهِ » وقوله : « عما قليلٍ ليصبِحُنّ نادِمينَ »

---

(١) العوافي : طلاب الرزق من الإنس والدواب والطير ؛ والمراد هنا : الوحوش والبهائم .

Marfat.com

وقال الإمام ابن فُورَك : أى : كَلَّا لَمَّا يقض الله لهذا الكافر ما أَمره به من الإيمان ، بل أمره بما لم يقض له . ابن الأنبارى : الوَقف على « كَلّا » قبيح ، والوقف على « أَمره » و « نشره » جيد ؛ فـ « كلّا » على هذا بمعنى حقًّا .

قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿فليَنظرِ الإنسانُ إلى طعامِهِ﴾ لما ذكر جل ثناؤه ابتداء خلق الإنسان، ذكر ما يُسّر من رزقه ؛ أى فلينظر كيف خَلَق الله طعامه . وهذا النظر نظر القلب بالفكر ؛ أى ليتدبر كيف خَلَق الله طعامَه الذى هو قِوام حياته ، وكيف هيأ له أسباب المعاش ، ليستعد بها للمعاد . ورُوِى عن الحسن ومجاهد قالا : « فَلْيَنْظُرِ الإنسان إلى طعامِهِ » أى إلى مُدخله ومُخرجه . وروى ابن أبى خَيْثمة عن الضحاك بن سفيان الكلابى قال: قال لى النبى صلى الله عليه وسلم : " يا ضحاكُ ما طعامك " قلت : يا رسول الله ! اللَّحم واللبن ؛ قال : " ثم يصير إلى ماذا " قلت إلى ما قد علمته ؛ قال : " فإنّ الله ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلا للدنيا " . وقال أُبَىّ بن كعب : قال النبى صلى الله عليه وسلم : "إن مَطْعَم ابن آدم جُعِل مثلا للدنيا وإن قَزَحَه ومَلَّحه[1] فانظر إلى ما يصير" . وقال أبو الوليد : سألت ابن عمر عن الرجل يدخل الخلاء فينظر ما يخرج منه ؛ قال : يأتيه الملك فيقول انظر ما بَخِلت به إلى ما صار ؟

(١) قزحه : أى تبله ، من القزح ، وهو التابل الذى يطرح فى القدر ، كالكمون والكزبرة ونحو ذلك . والمعنى : إن المطعم وإن تكلف الإنسان التنوق فى صنعته وتطييبه فإنه عائد إلى حال يكره ويستقذر ، فكذلك الدنيا المحروص على عمارتها ونظم أسبابها راجعة إلى خراب وإدبار » « النهاية » .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ أَنَّا صَبَبْنا المَاءَ صَبًّا ﴾ قراءة العامة « إنا » بالكسر، على الاستئناف . وقرأ الكوفيون ورُوَيْس عن يعقوب « أَنَّا » بفتح الهمزة، فـ « أنا » في موضع خفض على الترجمة عن الطعام ، فهو بدل منه ؛ كأنه قال : « فلينظرِ الإنسان إلى طعامِهِ » إلى « أنا صببنا » ، فلا يَحسُن الوقف على « طعامِهِ » من هذه القراءة . وكذلك إن رفعت « أَنَّا » بإضمار هو أنا صببنا ؛ لأنها في حال رفعها مترجمة عن الطعام . وقيل : المعنى : لأنا صببنا الماء، فأخرجنا به الطعام، أي كذلك كان . وقرأ الحسين بن علي[1] « أَنَّى » ممال، بمعنى كيف ؟ فمن أخذ بهذه القراءة قال : الوقف على « طعامه » تام . ويقال : معنى « أنَّى » أين، إلا أن فيها كناية عن الوجوه ؛ وتأويلها : من أي وجه صَببنا الماء ؛ قال الكميت :

أَنَّى ومِنْ أينَ آبكَ[2] الطَّـرَبُ * مِن حيثُ لا صَبْوةٌ ولا رِيبُ

« صببنا المـاء صبا » : يعني الغيث والأمطار . ﴿ ثم شققنا الارض شقا ﴾ : أي بالنبات ﴿ فأَنبتنا فيها حَبًّـا ﴾ أي قمحا وشعيرا وسُلْتاً[3] وسائر ما يُحْصَد و يدّخر ﴿ وعِنَبًا وقضباً ﴾ وهو القَتّ والعَلَف ؛ عن الحسن : سمي بذلك لأنه يُقْضَب أي يقطع بعد ظهوره مرة بعد مرة. قال القُتَبي وثعلب : وأهـل مكة يسمون القَتّ القَضْب . وقال ابن عبـاس : هو الرَّطب لأنه يُقْضَب من النخل : ولأنه ذكر العِنب قبله . وعنه أيضا : أنه الفِصفِصة وهو القَتّ الرطب . وقال الخليل : القضب الفِصْفِصة الرطبة . وقيل : بالسين، فإذا يبست فهو قَتّ . قال : والقضْب : اسم يقع على ما يُقْضَب من أغصان الشجرة، ليتخذ منها سِهام أو قِسِيّ . ويقال : قَضْبا، يعني جميع ما يقضب ، مثل القَتّ والكُرّاث وسائر البقول التي تقطع فينبت أصْلها . وفي الصحاح : والقَضْبة والقَضْب الرَّطْبة ، وهي الإسفِسْت بالفارسية ، والموضع الذي ينْبُت فيه مَقْضَبة . ﴿ وزيتونًا ﴾ وهي شجرة الزيتون ﴿ ونخلًا ﴾ يعني النخيل ﴿ وحدائِق ﴾ أي

(١) في ب ، ز : قرأ بعض القراء .

(٢) آبك : أتاك . الريب : صروف الدهر .

(٣) السلت (بالضم) : ضرب من الشعير .

Marfat.com

بساتين واحدها حديقة . قال الكلبي : وكل شيء أحيط عليه من نخيل أو شجر فهو حديقة ، وما لم يُحَط عليه فليس بحديقة . ﴿ غُلْبا ﴾ عظاما شجرها ؛ يقال : شجرة غَلْباء ، ويقال للأسد : الأغلب ؛ لأنه مُصْمَت العنق ، لا يلتفت إلا جميعا ؛ قال العجاج :

ما زِلتُ يوم البَيْن ألوِي صَلَبِي * والرأسَ حتى صِرتُ مِثلَ الأغلبِ

ورجل أغلب بيِّن الغَلَب إذا كان غليظ الرقبة . والأصل في الوصف بالغَلَب : الرقاب فاستعير ؛ قال قال عمرو بن معدي كرب :

يَمشِي بها غُلْبُ الرقابِ كأنهم * بُزْلٌ كُسِينَ مِن الكُحَيْلِ جِلالا (١)

وحديقة غلباء : ملتفة وحدائق غُلْب . واغلَولَب العشب : بلغ والتف البعض بالبعض . قال ابن عباس : الغُلْب : جمع أغلب وغلباء وهي الغلاظ . وعنه أيضا الطِّوال . قتادة وابن زيد : الغُلْب : النخل الكرام . وعن ابن زيد أيضا وعكرمة : عظام الأوساط والجذوع . مجاهد : ملتفة . ﴿ وفاكِهة ﴾ أي ما تأكله الناس من ثمار الأشجار كالتين والخوخ وغيرهما ﴿ وأَبًّا ﴾ هو ما تأكله البهائم من العُشب ؛ قال ابن عباس والحسن : الأبُّ : كل ما أنبتت الأرض ، مما لا يأكله الناس ، ما يأكله الآدميون هو الحَصيد ؛ ومنه قول الشاعر في مدح النبي صلى الله عليه وسلم :

له دَعْوة مَيْمونة رِيحُها الصَّبا * بها يُنْبِتُ الله الحَصيدةَ والأبَّا

وقيل : إنما سمي أبًّا ؛ لأنه يُؤَبُّ أي يُؤَمّ ويُنْتجَع . والأَبّ والأم : أخوان ؛ قال :

جِذمنا قيسٌ ونجْدٌ دارنا * ولنا الأَبُّ بِهِ والمَكْرَع (٢)

وقال الضحاك : والأب : كل شيء ينبت على وجه الأرض . وكذا قال أبو رَزِين : هو النبات . يدل عليه قول ابن عباس قال : الأبُّ : ما تنبت الأرض مما يأكل الناس والأنعام .

---

(١) الكحيل : نوع من القطران تطلى به الإبل للجرب ولا يستعمل إلا مصغرا . وجل الدابة : الذي تلبسه لتصان به ، والجمع جلال وأجلال .

(٢) الجذم (بكسر الجيم) : الأصل . والمكرع : مفعل من الكرع ، أراد به الماء الصالح للشرب .

Marfat.com

وعن ابن عباس أيضا وابن أبى طلحة : الأبّ : الثمار الرَّطبة . وقال الضحاك : هو التين خاصة . وهو محكى عن ابن عباس أيضا ؛ قال الشاعر :

فما لَهُم مَرْتَعٌ للسَّوا (١) * م والأَبُّ عندهم يُقْدَرُ

الكلبي : هو كل نبات سوى الفاكهة . وقيل : الفاكهة : رَطْب الثمار، والأب يابسها . وقال إبراهيم التيمى : سئل أبو بكر الصديق رضى الله عنه عن تفسير الفاكهة والأب فقال : أىُّ سماء تُظلنى، وأىُّ أرض تُقِلّنى إذا قلت : فى كتاب الله مالا أعلم . وقال أنس : سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه قرأ هذه الآية ثم قال: كل هذا قد عرفناه، فما الأبّ؟ ثم رفع عصا كانت بيده وقال : هذا لعَمْر الله التكلُّف ، وما عليك يابن أم عُمَر ألّا تدرى ما الأب؟ ثم قال : آتبعوا ما بُيِّن لكم من هذا الكتاب ، وما لا فدعوه . ورُوِى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "خُلِقتم من سبْع ، ورزقتم من سبع ، فاسجدوا لله على سبع". وإنما أراد بقوله : "خلقتم من سبع" يعنى «مِن نطفةٍ، ثم مِن علقةٍ، ثم مِن مُضْغةٍ» الآية، والرزق من سبْع، وهو قوله تعالى: «فأنبتنا فِيها حبًّا وعنبا» إلى قوله : « وفاكهة» ، ثم قال: «وأبًّا» وهو يدل على أنه ليس برزق لابن آدم، وأنه مما تختص به البهائم . والله أعلم . ﴿مَتَاعًا لَكُمْ﴾ نصب على المصدر المؤكِّد ، لأن إنبات هذه الأشياء إمتاع لجميع الحيوانات . وهذا ضرب مثَل ضربه الله تعالى لبعث الموتى من قبورهم؛ كنبات الزرع بعد دُثُوره، كما تقدم بيانه فى غير موضع . ويتضمن آمتنانا عليهم بما أنعم به، وقد مضى فى غير موضع أيضا .

قوله تعالى : فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

(١) السوام والسائمة : المال الراعى من الإبل والغنم وغيرها .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فإذا جاءت الصاخّة ﴾ لما ذكر أمر المعاش ذكر أمر المعاد، ليتزودوا له بالأعمال الصالحة، و بالإنفاق مما آمتنّ به عليهم . والصاخّة : الصيحة التى تكون عنها القيامة، وهى النفخة الثانية، تَصُخّ الأسماع : أى تُصِمُّها فلا تسمع إلا ما يُدْعَى به للأحياء . وذكر ناس من المفسرين قالوا : تصيخ لها الأسماع، من قولك : أصاخ الى كذا : أى آستمع إليه، ومنه الحديث : "ما من دابة إلّا وهى مُصيخة يومَ الجمعة شفقًا من الساعة إلّا الجنّ والإنس".
وقال الشاعر :

يُصيخُ لِلنَّبْأَةِ أَسْماعَهُ * إصاخةَ المُنْشِدِ لِلمنْشِدِ

قال بعض العلماء : وهذا يؤخذ على جهة التسليم للقدماء، فأما اللغة فمقتضاها القول الأوّل، قال الخليل : الصاخّة : صيحة تَصُخّ الآذان صَخًّا أى تُصِمُّها بشدة وقعتها . وأصل الكلمة فى اللغة : الصكّ الشديد . وقيل : هى مأخوذة من صَخّه بالحجر : إذا صكّه، قال الراجز :

يا جارتى هل لكِ أن تجالِدِى * جلادة كالصّكّ بالجَلامِدِ

ومن هذا الباب قول العرب : صَخّتْهم الصّاخة و باتتهم البائتة، وهى الداهية . الطبرى : وأحسبه من صخّ فلان فلانا : إذا أصماه . قال آبن العربىّ (١) : الصاخّة التى تُورث الصَّمَم، وإنها لمُسمِعة، وهذا من بديع الفصاحة، حتى لقد قال بعض حَديثى الأسنان حديثى الأزمان :

* أَصَمَّ بِكَ الناعِى وإنْ كان أَسْمَعا *

وقال آخر :

أَصَمَّنِي سِرُّهم أيامَ فُرقتهم * فهل سَمِعتم بسِرٍ يُورِثُ الصَّمَما

لعمر الله إنّ صيحة القيامة لمسمِعة تُصِم عن الدنيا، وتُسمِع أمور الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ يومَ يَفِرُّ المرءُ مِن أخيه ﴾ أى يهرب، أى تجىء الصاخة فى هذا اليوم الذى يهرب فيه من أخيه ؛ أى من موالاة أخيه ومكالمته؛ لأنه لا يتفرغ لذلك، لاشتغاله بنفسه، كما قال بعده : ﴿ لِكل آمرئٍ مِنهمْ يومئذٍ شأنٌ يُغْنِيه ﴾ أى يشغله عن غيره . وقيل : إنما يفر حذرا من مطالبتهم إياه، لما بينهم من التَّبِعات . وقيل : لئلا يرَوا ما هو

(١) لم نجد كلام ابن العربى هذا فى النسخة المطبوعة بمطبعة السعادة من كتابه (أحكام القرآن) .

Marfat.com

فيه من الشدة . وقيل : لعلمه أنهم لا ينفعونه ولا يغنون عنه شيئا؛ كما قال : « يوم لا يغني مولًى عن مولًى شيئا » . وقال عبد الله بن طاهر الأبهري : يفرّ منهم لما تبين له من عجزهم وقلة حيلتهم، إلى من يملك كشف تلك الكروب والهموم عنه، ولو ظهر له ذلك في الدنيا لما آعتمد شيئا سوى ربه تعالى . ﴿ وصاحبته ﴾ أي زوجته . ﴿ وبنيه ﴾ أي أولاده .

وذكر الضحاك عن آبن عباس قال : يفرّ قابيلُ من أخيه هابيلَ ، ويفر النبيُّ صلى الله عليه وسلم من أمه ، وإبراهيم عليه السلام من أبيه ، ونوح عليه السلام من آبنه، ولوط من آمرأته، وآدم من سَوْأة بنيه . وقال الحسن : أوّل من يفرّ يوم القيامة من أبيه : إبراهيم، وأوّل من يفرّ من آبنه نوح، وأوّل من يفرّ من آمرأته لوط . قال : فيَرون أن هذه الآية نزلت فيهم وهذا فرار التبرؤ . ﴿ لِكل آمرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ . في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " يُحشر الناس يوم القيامة حُفاة عُراة غُرْلًا " قلت ، يارسول الله ! الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : " يا عائشة، الأمر أشدّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض" . خرّجه الترمذي عن آبن عباس : أن النبي صلى عليه وسلم قال: " يُحشرون حفاة عُراة غُرْلًا " فقالت آمرأة : أينظر بعضنا، أو يرى بعضنا عورة بعض ؟ قال : " يا فلانة " " لكل آمرئ منهم يومئذ شأن يغنيه " . قال : حديث حسن صحيح . وقراءة العامة بالغين المعجمة ؛ أي حالٌ يشغَلُه عن الأقرباء . وقرأ آبن مُحيصن وحُميد « يَعْنِيه » بفتح الياء ، وعين غير معجمة ؛ أي يعنيه أمره . وقال القُتَبي : يعنيه : يصرفه ويصُدّه عن قرابته؛ ومنه يقال : آعْنِ عني وجهك : أي آصرفه وآعنِ عن السفيه ؛ قال خُفاف :

سَيَعْنِيك حرب بني مالكٍ * عن الفُحْش والجهل في المَحْفِلِ

قوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ مُسْفِرة ﴾ : أي مُشرقة مضيئة، قد علمت مالها من الفوز والنعيم ، وهي وجوه المؤمنين . ﴿ ضاحكة ﴾ أي مسرورة فَرِحة . ﴿ مُسْتَبْشِرة ﴾ : أي بما

Marfat.com

آتاها الله من الكرامة . وقال عطاء الخُراسانى : « مُسْفِرة » من طول ما آغْبرت فى سبيل الله جل ثناؤه . ذكره أبو نعيم . الضحاك : من آثار الوضوء . آبن عباس : من قيام الليل؛ لما رُوى فى الحديث : "من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار" يقال : أسفر الصبح إذا أضاء . ﴿ ووجوهٌ يومئـذٍ عليها غَبَرَة ﴾ أى غبـار ودخان ﴿ تَرْهَقُها ﴾ أى تغشاها ﴿ قَـتَرَة ﴾ أى كسوف وسواد . كذا قال آبن عباس . وعنه أيضا : ذِلة وشِدّة . والقَتَر فى كلام العرب : الغبار، جمع القَتَرة، عن أبى عُبيد ؛ وأنشد الفرزدق :

مُتَـوَّجٌ بِرداء المـلكِ يَتْبعـه * مَوجٌ ترى فوقه الراياتِ والقترا

وفى الخبر : إن البهائم إذا صارت ترابًا يوم القيامة حُوِّل ذلك التراب فى وجوه الكفار . وقال زيد بن أسلم : القَتَرة: ما آرتفعت إلى السماء، والغَبَرة: ما آنحطت إلى الأرض، والغبار والغَـبَرة : واحد . ﴿ أولئك هم الكَفَرة ﴾ جمع كافر ﴿ الفَجَرة ﴾ جمـع فاجر ، وهو الكاذب المفترى على الله تعـالى . وقيل : الفاسق ؛ [يقال] : فجـر يفجر فجورا : أى فسق ، وفجـر : أى كذب . وأصله : الميل، والفـاجر : المـائل . وقد مضى بيـانه والكلام فيـه . والحمد لله وحده .

ســـورة التكوير

مكية فى قول الجميع . وهى تسع وعشرون آية

وفى الترمذى : عن آبن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من سره أن ينظر إلى يوم القيـامة [كأنه رأْىُ عينٍ] فليقرأ إذا الشمس كورت، وإذا السماء آنفطـرت ، وإذا السماء آنشقت " . قال : هذا حديث حسن [غريب][1] .

(١) الزيادة من صحيح الترمذى .

Marfat.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إذا الشمسُ كُوِّرتْ ﴾ قال ٱبن عباس : تكويرها : إدخالها فى العرش . والحسن : ذهاب ضوئها . وقاله قتادة ومجاهد : وروى عن ٱبن عباس أيضا . سعيد بن جُبير : عُوِّرَتْ . أبو عبيدة : كورت مثل تكوير العمامة ، تلف فتمحى . وقال الربيع بن خيثم : « كورت » رُمِى بها ؛ ومنه : كوّرته فتكوّر ، أى سقط .

قلت : وأصل التكوير : الجمع ، مأخوذ من كار العمامة على رأسه يكورها أى لاثها وجمعها فهى تُكوَّر ويمحى ضوءها ، ثم يُرْمى بها فى البحر . والله أعلم . وعن أبى صالح : كوّرت : نُكِّست . ﴿ وإذا النجوم ٱنكدرت ﴾ أى تهافتت وتناثرت . وقال أبو عبيدة : ٱنصبّت كما تنصبّ العُقاب إذا ٱنكسرت . قال العجّاج يصف صقرا[1] :

أبصرَ خِربان فضاء فانكدر * تقضِّىَ البازِى إذا البازِى كسر

(١) هكذا البيت فى نسخ الأصل التى بأيدينا والذى فى ديوان العجاج رواية الأصمعى نسخة الشنقيطى : قال يمدح عمرو بن عبيد الله بن معمر : قد جبر الدين الاله فجبر . إلى أن قال :

دانى جناحيه من الطور فمر * تقضى البازى إذا البازى كسر
أبصر خربان فضاء فانكدر * شاكى الكلاليب إذا أهوى ٱطفر

الطور : الجبل ، وعنى هنا الشام ، يقول : انقض ابن معمر انقضاضة من الشام ، انقضاض البازى ضم جناحيه . وخربان : جمع خرب ، وهو ذكر الحبارى ، والكلاليب المخالب ، واطفر : أصله اظتفر ، فأبدلت التاء طاء ، فأدغمت فى الظاء .

Marfat.com

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يبقى في السماء يومئذ نجم إلا سقط في الأرض، حتى يفزع أهل الأرض السابعة مما لقيت وأصاب العليا"، يعني الأرض. وروى الضحاك عن ابن عباس قال : تساقطت ؛ وذلك أنها قناديل معلقة بين السماء والأرض بسلاسل من نور ، وتلك السلاسل بأيدي ملائكة من نور ؛ فإذا جاءت النفخة الأولى مات من في الأرض ومن في السموات، فتناثرت تلك الكواكب وتساقطت السلاسل من أيدي الملائكة ؛ لأنه مات من كان يمسكها . ويحتمل أن يكون انكدارها طَمْس آثارها . وسميت النجوم نجوما لظهورها في السماء بضوئها . وعن ابن عباس أيضا : انكدرت تغيرت فلم يبق لها ضوء لزوالها[1] عن أماكنها . والمعنى متقارب . ﴿ وإذا الجبالُ سُيِّرتْ ﴾ يعني قُلعت من الأرض، وسيرت في الهواء؛ وهو مثل قوله تعالى: «ويوم نُسيِّرُ الجبال وترى الارض بارزة» . وقيل : سيرُها تحوّلها عن منزلة الحجارة، فتكون كثيبا مَهِيلا، أي رملا سائلا ، وتكون كالعِهن، وتكون هباء منثورا، وتكون سَرابا، مثل السرابُ الذي ليس بشيء . وعادت الأرض قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أَمْتا[2] . وقد تقدم في غير موضع والحمد لله . ﴿وإذا العِشار عُطِّلتْ﴾ أي النوق الحوامل التي في بطونها أولادها؛ الواحدة عُشَراء، أو التي أتى عليها في الحمل عشرة أشهر، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع، و بعد ما تضع أيضا . ومن عادة العرب أن يسمُّوا الشيء باسمه المتقدّم وإن كان قد جاوز ذلك؛ يقول الرجل لفرسه وقد قَرِح : هاتوا مُهْرى، وقربوا مُهْرى، يسميه بمتقدّم اسمه ؛ قال عنترة :

لا تذكري مُهْـري وما أطعمتُـه * فيكونَ جِلْدُكِ مثلَ جِلدِ الأَجرب

وقال أيضا :

* وحَمَلْتُ مُهرى وسْطَها فمضاها[3] *

وإنما خص العِشار بالذكر؛ لأنها أعز ما تكون على العرب، وليس يُعطّلها أهلها إلا حال القيامة . وهذا على وجه المثل ؛ لأن في القيامة لا تكون ناقة عُشَرَاءَ ، ولكن أراد به المثل؛ أن هول

(١) في ا ، ح، و : لزوالها .
(٢) راجع جـ ١١ ص ٢٤٥ .
(٣) صدره :
* وضربت قرنى كبشها فتجدلا *

Marfat.com

يوم القيامة بحال لو كان للرجل ناقة عُشَراء لعطّلها وآشتغل بنفسه ، وقيل : إنهم إذا قاموا من قبورهم ، وشاهد بعضهم بعضا ، ورأوا الوُحوش والدوابّ محشورة ، وفيها عِشارهم التي كانت أنفس أموالهم ، لم يعبئوا بها ، ولم يهمّهم أمرُها . وخُوطبت العرب بأمر العِشار ؛ لأن ما لها وعيشها أكثره من الإبل . وروى الضحاك عن آبن عباس : عُطّلت : عطّلها أهلها ، لآشتغالهم بأنفسهم . وقال الأعشى :

هـو الواهِبُ المـائةَ المصطفا * ةَ إمـا مَخاضـًا و إما عِشـارَا

وقال آخر :

ترى المرءَ مهجورا إذا قلّ مالهُ * و بيتُ الغنِيّ يُهْـدَى له ويُزارُ
وما ينفـعُ الزوّارَ مالُ مَزُورِهم * إذا سَرَحَتْ شَوْلٌ[1] له وعِشـارُ

يقال : ناقة عُشَراء، وناقتان عُشَراوان، ونوق عِشارٌ وعُشَراوات، يبدلون من همزة التأنيث واوا . وقد عشّرت الناقة تعشيرا : أي صارت عُشَراء. وقيل : العِشار : السحاب يُعطَّل مما يكون فيه وهو المـاء فلا يمطر ؛ والعرب تشبه السحاب بالحامل . وقيل : الديار تُعطَّل فلا تُسكن . وقيل : الأرض التي يُعَشَّر زرعها تعطل فلا تزرع . والأول أشهر، وعليه من الناس الأكثر .

﴿ وإذا الوحوشُ حُشِرتْ ﴾ أي جمعتْ والحشر : الجمع . عن الحسن وقتادة وغيرهما . وقال آبن عباس : حَشْرها : موتها . رواه عنه عِكرمة. وحَشْر كل شيء : الموت غيرَ الجن والإنس ، فإنهما يُوافيان يوم القيـامة . وعن آبن عبـاس أيضا قال : يُحْشَر كل شيء حتى الذُّباب . قال آبن عباس : تحشر الوحـوش غدا : أي تجمع حتى يُقتصّ لبعضها من بعض ، فيقتصّ للجمّاء من القَرْناء، ثم يقال لها كوني ترابا فتموت . وهذا أصح ممـا رواه عنه عِكرمة، وقد بيناه في كتاب « التـذكرة » مستوفى ، ومضى في سورة «الأنعام»[2] بعضُه . أي إن الوحوش إذا كانت هذه حالها فكيف ببني آدم . وقيل : عُني بهذا أنها مع نُفْرتها اليوم من الناس وتبددها

(١) في ط : بزل .
(٢) راجع جـ ٦ ص ٤٢١ .

فى الصحارى ، تنضم غدا إلى النـاس من أهوال ذلك اليوم . قال معناه أبىّ بن كعب . ﴿ وإذا البحار سُجِّـرتْ ﴾ أى ملئت من المـاء ؛ والعـرب تقول : سَجَرت الحوضَ أَسْجُره سَجْرا : إذا ملأته ، وهو مسجور ، والمسجور والساجر فى اللغة : الملآن . وروى الربيع بن خثيم : سُجِّرت : فاضت ومُلئت . وقاله الكلبىّ ومقاتل والحسن والضحاك . قال آبن أبى زَمَنِين : سُجِّرت : حقيقته مُلئت ، فيفيض بعضها إلى بعض ، فتصير شيئا واحدا . وهو معنى قول الحسن . وقيل : أرسِل عَذْبها على مالحها ، ومالحها على عذبها ، حتى آمتلأت . عن الضحاك ومجاهد : أى فُجِرت فصارت بحرا واحدا . القشيرىّ : وذلك بأن يرفع الله الحاجز الذى ذكره فى قوله تعـالى : « بيْنَهما برزخ لا يبغيانِ » ، فإذا رفع ذلك البرزخ تفجرت مياه البحار ، فعمت الأرض كلها ، وصارت البحار بحرا واحدا . وقيل : صارت بحرا واحدا من الحميم لأهـل النار . وعن الحسن أيضا وقتادة وآبن حيان : تيبس فلا يبقى من مائها قطرة . القُشَيْرىّ : وهو من سَجَرْت التنور أَسْجُره سَجْرا : إذا أحميتـه ، و إذا سُلّط عليه الإيقاد نشف ما فيه من الرطوبة ، وتُسَيَّر الجبال حينئذ ، وتصير البحار والأرض كلها بساطا واحدا ، بأن يُمْلَأَ مكان البحار بتراب الجبال . وقال النحاس : وقد تكون الأقوال متفقة ؛ يكون تيبس من المـاء بعد أن يفيض ، بعضها إلى بعض ، فتقلَب نارا .

قلت : ثم تُسَيَّر الجبال حينئذ ، كما ذكر القشيرى ، والله أعلم . وقال آبن زيد وشَمِر وعطية وسفيان ووهب وأُبَىّ وعلىّ بن أبى طالب وآبن عبـاس فى رواية الضحاك عنه : أُوقدت فصارت نارا . قال آبن عبـاس : يُكَوِّر الله الشمس والقمر والنجوم فى البحر ، ثم يبعث الله عليها ريحا دَبُورا ، فتنفخُه حتى يصير نارا . وكذا فى بعض الحديث : " يأمر الله جل ثناؤه الشمس والقمر والنجوم فينتثرون فى البحر ، ثم يبعث الله جل ثناؤه الدَّبور فيسجِّرها نارا ، فتلك نار الله الكبرى ، التى يعـذب بها الكفار " . قال القشيْرى : قيل فى تفسير قول آبن عباس « سُجِّـرتْ » أوقدت ، يحتمل أن تكون جهنم فى قُعور من البحار ، فهى الان غير مسْجورة لِقوام الدنيا ، فإذا آنقضت الدنيا سُجِّرت ، فصارت كلها نارا يدخلها الله أهلها . ويحتمل أن تكون تحت البحر نار ، ثم يوقـد الله البحر كله فيصـير نارا . وفى الخبَر : البحر نار فى نار .

Marfat.com

وقال معاوية بن سعيد : بحر الروم وسط الأرض، أسفله آبار مُطْبقة بنُحاس يُسَجَّر نارا يوم القيامة . وقيل : تكون الشمس في البحر، فيكون البحر نارا بحر الشمس . ثم جميع ما في هذه الآيات يجوز أن يكون في الدنيا قبل يوم القيامة ويكون من أشراطها ، ويجوز أن يكون يوم القيامة ، وما بعد هذه الآيات فيكون في يوم القيامة .

قلت : رُوِي عن عبد الله بن عمرو : لا يتوضأ بماء البحر لأنه طَبَق جهنم . وقال أُبيّ بن كعب : ست آيات من قَبْل يوم القيامة : بينما الناس في أسواقهم ذهب ضوء الشمس وبدت النجوم فتحيروا ودُهِشوا ، فبينما هم كذلك ينظرون إذ تناثرت النجوم وتساقطت ، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض، فتحركت واضطربت واحترقت، فصارت هباء منثورا، ففزعت الإنس إلى الجنّ والجنّ إلى الإنس، واختلطت الدوابُّ والوحوش والهوامُّ والطير ، وماج بعضها في بعض ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ وإذا الوُحُوش حُشِرت ﴾ ثم قالت الجنّ للإنس : نحن نأتيكم بالخبر ، فانطلقوا إلى البحار فإذا هي نار تأجّج ، فبينما هم كذلك تصدّعت الأرض صَدْعة واحدة إلى الأرض السابعة السُّفلَى ، وإلى السماء السابعة العليا ، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريح فأماتتهم . وقيل : معنى «سُجِّرت» : هو حُمْرة مائها ، حتى تصير كالدم ؛ مأخوذ من قولهم : عين سَجْراء : أي حمراء . وقرأ ابن كثير « سُجِرت » وأبو عمرو أيضا ، إخبارا عن حالها مرة واحدة . وقرأ الباقون بالتشديد إخبارا عن حالها في تكرير ذلك منها مرة بعد أخرى .

قوله تعالى : ﴿ وإذا النفوسُ زُوِّجت ﴾ قال النعمان بن بشير : قال النبي صلى الله عليه وسلم « وإذا النفوس زُوِّجت » قال : "يُقْرَن كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون كعمله". وقال عمر بن الخطاب : يُقْرَن الفاجر مع الفاجر، ويقرن الصالح مع الصالح . وقال ابن عباس : ذلك حين يكون الناس أزواجا ثلاثة ، السابقون زوج ـــ يعني صنفا ـــ وأصحاب اليمين زوج ، وأصحاب الشمال زوج . وعنه أيضا قال : زُوِّجت نفوس المؤمنين بالحُور العين ، وقُرِن الكافر

(١) يوم : ساقطه من ب ، ز ، ط .

Marfat.com

بالشياطين، وكذلك المنافقون . وعنه أيضا : قُرن كل شكل بشكله من أهل الجنة وأهل النار، فيضم المُبرِّز فى الطاعة إلى مثله ، والمتوسط إلى مثله ، وأهل المعصية إلى مثله ؛ فالتزويج أن يُقرن الشىء بمثله ؛ والمعنى : وإذا النفوس قُرنت إلى أشكالها فى الجنة والنار . وقيل : يضم كل رجل إلى من كان يلزمه من مَلِك وسلطان ، كما قال تعالى : « احشُروا الذِين ظلموا وازواجَهم » . وقال عبد الرحمن بن زيد : جُعلوا أزواجا على أشباه أعمالهم ليس بتزويج، أصحاب اليمين زوج، وأصحاب الشمال زوج، والسابقون زوج؛ وقد قال جل ثناؤه : « احشُروا الذِين ظلموا وأَزواجهم » أى أشكالهم . وقال عِكرمة : « وإذا النفوس زُوِّجت » قرنت الأرواح بالأجساد؛ أى ردت إليها . وقال الحسن : ألحق كل امرئ بشيعته : اليهود باليهود، والنصارى بالنصارى، والمجوس بالمجوس، وكل من كان يعبد شيئا من دون الله يُلحق بعضهم ببعض، والمنافقون بالمنافقين، والمؤمنون بالمؤمنين . وقيل : يُقْرَن الغاوى بمن أغواه من شيطان أو إنسان، على جهة البغض والعداوة ، ويقرن المطيع بمن دعاه إلى الطاعة من الأنبياء والمؤمنين . وقيل : قُرنت النفوس بأعمالها، فصارت لاختصاصها به كالتزويج .

قوله تعالى : ﴿ وإذا الموءودةُ سُئِلت . بِأى ذنبٍ قُتِلتْ ﴾ الموءودة المقتولة ؛ وهى الجارية تدفن وهى حية، سميت بذلك لما يطرح عليها من التراب، فيؤودها أى يثقلها حتى تموت ؛ ومنه قوله تعالى : « ولا يَؤُوده حفظهما » أى لا يثقله ؛ وقال متمم بن نُويرة :

ومَوءودة مَقبورة فِى مَفازةٍ * بآمتِها مَوسودة لم تُمهَّدِ[(١)]

وكانوا يدفنون بناتهم أحياء لخصلتين؛ إحداهما كانوا يقولون إن الملائكة بنات الله، فألحقوا البنات به . الثانية إما مخافة الحاجة والإملاق، و إما خوفا من السبى والاسترقاق . وقد مضى

---

(١) كذا روى البيت ونسب إلى متمم بن نويرة فى الأصول ، ونسبه اللسان وشرح القاموس مادة (عوز) إلى حسان رضى الله عنه وروى فيهما :

وموءودة مقرورة فى معاوز * بآمتها مرموسة لم توسد

والآمة : ما يعلق بسرة المولود إذا سقط من بطن أمه . والمعاوز : خرق يلف بها الصبى .

Marfat.com

فى سورة « النحل » هذا المعنى، عند قوله تعالى : «أم يدُسّه فِى الترابِ» مستوفًى . وقد كان[1] ذوو الشرف منهم يمتنعون من هذا ، و يمنعون منه، حتى آفتخر به آلفرزدق ، فقال :

ومِنّا الّذى منعَ الـوائداتِ[2] * فأحيـا الوئيـد فـلم يُـوأَدِ

يعنى جدّه صعصعة كان يشتريهن من آبائهن ، فجاء الإسلام وقد أحيا سبعين موءودة . وقال ابن عباس : كانت المرأة فى الجاهلية إذا حملت حفرت حفرة، وتمخضت على رأسها ، فإن ولدت جارية رمت بها فى الحفرة، وردّتِ التراب عليها ، و إن ولدت غلاما حبسته ، ومنه قول الراجز :

سَمَّيتها إذ وُلِدتْ تمـوتُ * والقبرُ صِهرٌ ضامنٌ زِمِّيتُ

الزِّميت الوقور، والزميت مثال الفِسيق أوقر من الزِّمِيت، وفلان أزمت الناس أى أوقرهم، وما أشد تَزَمّته؛ عن الفراء . وقال قتادة : كانت الجاهلية يقتل أحدهم ابنته، و يغذو كلبه ، فعاتبهم الله على ذلك ، وتوعدهم بقوله : «و إذا الموءودة سئِلت» قال عمر فى قوله تعالى « و إذا الموءودة سُئِلت » قال : جاء قيس بن عاصم إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله! إنى وأدت ثمانَ بنات كنّ لى فى الجاهلية ، قال : ” فأعتِق عن كل واحدة منهن رقبة “ قال: يارسول الله إنى صاحب إبل، قال : ” فأهْدِ عن كل واحدة منهنّ بَدَنه إن شئت “. وقوله تعالى: «سُئِلت» سؤال الموءودة سُؤال تو بيخ لقاتلها، كما يقال للطفل إذا ضُرِب: لم ضُرِبت؟ وما ذنبك ؟ قال الحسن : أراد الله أن يُوبِّخ قاتلها؛ لأنها قُتِلت بغير ذنب . وقال ابن أسلم : بأى ذنب ضُرِبت، وكانوا يُضربونها . وذكر بعض اهل العلم فى قوله تعالى «سئِلت» قال : طُلِبت ؛ كأنه يريد كما يُطاب بدم القتيل . قال : وهو كقوله : « وكان عهد الله مسئولا » أى مطلوبا . فكأنها طُلِبت منهم ، فقيل أين أولادكم ؟ ! وقـرأ الضحاك وأبو الضُّحا عن جابر بن زيد وأبى صالح «و إذا الموءودة سَألت» فتتعلق الجارية بأبيها، فتقول : بأى ذنب

(١) راجع جـ ١٠ ص ١١٧

(٢) و يروى : وجدّى الذى منع الوائدات ... الخ .

Marfat.com

قتلتنى ؟ ! فلا يكون له عذر ؛ قاله ابن عباس وكان يقرأ « وإذا الموءودة سَأَلَتْ » وكذلك هو فى مصحف أُبىّ . وروى عِكرمة عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " إن المرأة التى تقتل ولدها تأتى يوم القيامة متعلقا ولدُها بثديها، ملطخا بدمائه، فيقول ياربّ، هذه أمى، وهذه قتلتنى" والقول الأول عليه الجمهور، وهو مثل قوله تعالى لعيسى : « أَأَنت قلت للناس» ، على جهة التوبيخ والتبكيت لهم، فكذلك سؤال الموءودة توبيخ لوائدها، وهو أبلغ من سؤالها عن قتلها؛ لأن هذا مما لا يصح إلا بذنب، فبأىّ ذنب كان ذلك، فإذا ظهر أنه لاذنب لها، كان أعظم فى البلية وظهور الحجة على قاتلها . والله أعلم . وقرئ «قُتِّلت» بالتشديد، وفيه دليل بين على أن أطفال المشركين لا يُعذَّبون ، وعلى أن التعذيب لا يُستحق إلا بذنب.

قوله تعالى : ﴿ وإذا الصُّحُف نُشِرت ﴾ أى فُتحت بعد أن كانت مطوية ، والمراد صحف الأعمال التى كَتَبَت الملائكة فيها ما فعل أهلها من خير وشر ، تُطْوَى بالموت، وتنشر فى يوم القيامة، فيقف كل إنسان على صحيفته، فيعلم ما فيها، فيقول : «مالِ هذا الكتاب لا يغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها » . وروَى مَرثَد بن وَداعة قال : إذا كان يوم القيامة تطايرت الصحف من تحت العرش، فتقع صحيفة المؤمن فى يده « فِى جنةٍ عالِيةٍ » إلى قوله : «الأيامِ الخالِيةِ » وتقع صحيفة الكافر فى يده « فِى سَمُومٍ وحَمِيمٍ » إلى قوله : ولا كَرِيمٍ » . ورُوى عن أمّ سلمة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يُحْشَر الناس يوم القيامة حُفاة عُراة" فقلت : يا رسول الله ! فكيف بالنساء ؟ قال: " شُغِل الناس يا أمّ سَلَمة ". قلت : وما شَغَلَهم ؟ قال : " نشر الصحف فيها مثاقيل الذر ومثاقيل الخردل " . وقد مضى فى سورة « سُبحان » [1] قول أبى التوار العدوِى : هما نَشْرَتان وطَيَّة ، أما ما حييت يابن آدم فصحيفتك المنشورة، فأملِ فيها ما شئت، فإذا مِت طويت ، حتى إذا بُعثت نشِرت «اقرأ كِتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا» . وقال مقاتل : إذا مات المرء طُويت صحيفة عمله ، فإذا كان يوم القيامة نُشرت . وعن عمر رضى الله عنه أنه كان إذا قرأها قال : إليك يساق

---

(١) راجع ج ١٠ ص ٢٣٠

Marfat.com

الأمر يابن آدم . وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وأبو عمرو « نُشِرَتْ » مخففة، على نشرت مرة واحدة ، لقيام الحجة . الباقون بالتشديد، على تكرار النشر، للمبالغة في تقريع العاصي، وتبشير المطيع . وقيل : لتكرار ذلك من الإنسان والملائكة الشهداء عليه .

قوله تعالى : ﴿ وإذا السماء كُشِطَتْ ﴾: الكشط : قَلْع عن شدّة التزاق؛ فالسماء تُكْشَط كما يُكْشَط الجلد عن الكبش وغيره ، والقَشْط : لغة فيه . وفي قراءة عبد الله « وإذا السماء قُشِطَت » وكَشَطْتُ البعير كشطا : نزعت جلده، ولا يقال سَلَخْتُه؛ لأن العرب لا تقول في البعير إلا كَشَطْته أو جَلَّدته ، وانكشط : أي ذهب ؛ فالسماء تُنْزَع من مكانها كما ينزع الغطاء عن الشيء . وقيل : تُطْوَى كما قال تعالى : « يوم نطوي السماء كطيّ السِّجِلّ لِلكِتاب » ، فكأن المعنى : قُلِعت فطويت . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وإذا الجحيمُ سُعِّرَتْ ﴾ أي أوقدت فأُضْرِمت للكفار وزِيدَ في إحمائها . يقال : سَعَرْتُ النار وأسعرتها . وقراءة العامة بالتخفيف من السعير . وقرأ نافع وابن ذكوان ورُوَيْس بالتشديد ؛ لأنها أوقدت مرة بعد مرة . قال قتادة : سَعَّرها غضب الله وخطايا بني آدم . وفي الترمذيّ عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أُوقِد على النار ألفَ سنة حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألفَ سنةٍ حتى ابيضّت ، ثم أوقد عليها ألفَ سنةٍ حتى اسودّت ، فهي سوداء مُظلمة " ورُوِي موقوفا .

قوله تعالى : ﴿ وإذا الجنة أُزلِفتْ ﴾ أي دَنَتْ وقُرِّبت من المتقين . قال الحسن إنهم يُقَرَّبون منها ؛ لا أنها تزول عن موضعها . وكان عبد الرحمن بن زيد يقول : زُيِّنت[1] أُزلِفَتْ ؟ والزلفى في كلام العرب : القُربة؛ قال الله تعالى : « وأُزلِفت الجنة لِلمتقين » وتزلف فلان تقرب .

قوله تعالى : ﴿ عَلِمتْ نفس ما أَحضرتْ ﴾ يعني ما عملت من خير وشر . وهذا جواب « إذا الشمس كُوِّرتْ » وما بعدها . قال عمر رضي الله عنه لهذا أُجري الحديث . ورُوِ

(١) ف ز : أدنيت .

Marfat.com

عن ابن عباس وعمر رضى الله عنهما أنهما قرآها ، فلما بلغا « علمت نفس ما أحضرت » قالا لهذا أجريت القصة؛ فالمعنى على هذا إذا الشمس كورت وكانت هذه الأشياء ، علمت نفس ما أحضرت من عملها . وفى الصحيحين عن عدىّ بن حاتم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما منكم من أحد إلا وسيكلمه الله ما بينه و بينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدّمه [وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم] (١) بين يديه، فتستقبله النار، فمن استطاع منكم أن يتقى النار ولو بشق تمرة فليفعل" وقال الحسن : « إذ الشمس كورت » قسم وقع على قوله : « علمت نفس ما أحضرت » كما يقال : إذا نفر زيد نفر عمرو . والقول الأوّل أصح . وقال ابن زيد عن ابن عباس فى قوله تعالى : « إذا الشمسُ كُوِّرت » إلى قوله : « وإذا الجنة أُزلفت » اثنتا عشرة خصلة : ستة فى الدنيا، وستة فى الآخرة ؛ وقد بينا الستة الأولى بقول أبىّ بن كعب .

قوله تعالى : فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فلا أُقسِم ﴾ أى أقسم، و«لا» زائدة، كما تقدّم . ﴿ بِالخُنَّس الجوارِى الكُنَّس ﴾ هى الكواكب الخمسة الدّرارىّ : زُحَل والمُشترِى وعُطارِد والمِرّيخ والزُّهَرة، فيما ذكر من أهل التفسير . والله أعلم . وهو مَروىّ عن علىّ كرم الله وجهه . وفى تخصيصها بالذكر من بين سائر النجوم وجهان : أحدهما — لأنها تَستقبل الشمس ؛ قاله بكر بن عبد الله المُزَنى . الثانى — لأنها تقطع المجرة ؛ قاله ابن عباس . وقال الحسن وقتادة : هى النجوم التى تخنس

(١) الزيادة من صحيح مسلم .

Marfat.com

بالنهار وإذا غربت ، وقاله علىّ رضى الله عنه ، قال : هى النجوم تخنِس بالنهار ، وتظهر بالليل، وتكنِس فى وقت غروبها ؛ أى تتأخر عن البصر لخفائها، فلا تُرَى . وفى الصحاح : و « الخُنَّس » : الكواكب كلها . لأنها تخنِس فى المغيب ، أو لأنها تخنِس نهارا . ويقال : هى الكواكب السيارة منها دون الثابتة . وقال الفراء فى قوله تعالى : « فلا أُقسم بالخُنس . الجوارى الكُنَّس » : إنها النجوم الخمسة ؛ زُحل والمشترِى والمِرِّيخ والزُّهَرة وعُطارد ؛ لأنها تخنِس فى مجراها، وتكنِس ، أى تستتر كما تكنِس الظباء فى المغار ، وهو الكناس . ويقال : سميت خُنَّسا لتأخرها، لأنها الكواكب المتحيرة التى ترجع وتستقيم ؛ يقال: خَنَس عنه يخنُس بالضم خنوسا : تأخر، وأخنسه غيره : إذا خلَّفه ومضى عنه . والخَنَس تأخر الأنف عن الوجه مع ٱرتفاع قليل فى الأرنبة، والرجل أخنس ، والمرأة خنساء، والبقر كلها خُنْس . وقد روى عن عبد الله بن مسعود فى قوله تعالى : « فلا أُقسم بِالخُنَّس » هى بقر الوحش . روى هُشَيم عن زكريا عن أبى إسحاق عن أبى ميسرة عمرو بن شُرَحبيل قال قال لى عبد الله ابن مسعود : إنكم قوم عرب فما الخنس ؟ قلت : هى بقر الوحش ؛ قال : وأنا أرى ذلك . وقاله إبراهيم وجابر بن عبد الله. وروى عن ٱبن عباس: إنما أقسم الله ببقر الوحش . وروى عنه عِكرمة قال : « الخُنَّس » : البقر و « الكنَّس » : هى الظباء ، فهى خُنَّس إذا رأين الإنسان خَنَسْنَ وٱنقبضن وتأخرن ودخلن كِناسهنّ . القشيرىّ : وقيل على هذا « الخُنَّس » من الخَنَس فى الأنف ، وهو تأخُر الأرنبة وقصر القَصَبة ، وأنوف البقر والظباء خنس. والأصح الحمل على النجوم، لذكر الليل والصبح بعد هذا، فذكر النجوم أليق بذلك .

قلت : لله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته من حيوان وجماد ، وإن لم يعلم وجه الحكمة فى ذلك . وقد جاء عن ٱبن مسعود وجابر بن عبد الله وهما صحابيان والنخعى أنها بقر الوحش . وعن ٱبن عباس وسعيد بن جُبير أنها الظباء . وعن الحجاج بن منذر قال : سألت جابر بن زيد عن الجوارى الكُنَّس ، فقال : الظباء والبقر ، فلا يبعد أن يكون المراد

Marfat.com

النجوم . وقد قيل : إنها الملائكة ؛ حكاه الماوردىّ . والكُنَّس الغُيَّب ؛ مأخوذة من الكِناس ، وهو كِناس الوحش الذى يختفى فيه . قال أوس بن حَجَر :

ألم ترأنّ الله أنزل مُزْنَه * وعُفْرُ الظِباء فى الكِناس تَقَمَّعُ (١)

وقال طَرَفة :

كأنّ كِناسَىْ ضالةٍ يَكْنُفانِها * وأَطْرَ قِسِىٍّ تحت صُلْبٍ مُؤَيَّدِ (٢)

وقيل : الكُنوس أن تأوى إلى مكانسها ، وهى المواضع التى تأوِى إليها الوحش والظباء . قال الأعشى :

فلمّا أتينا الحى أتْلَــعَ آنِسٌ * كما أَتْلعَتْ تحتَ المكانس رَبْرَبُ

يقال : تَلَع النهار ٱرتفع وأتلعتِ الظبية من كِناسها : أى سَمَت بجيدها . وقال ٱمرؤ القيس:

تَعَشّى قليـــلا ثم أنحى ظُـــلُوفَهُ * يثير التراب عن مَبِيتٍ ومَكْنِسِ (٣)

والكُنَّس: جمع كانِس وكانِسة، وكذا الخُنَّس جمع خانِس وخانِسة . والجوارى : جمع جارية من جرى يجرى . ﴿ والليلِ إذا عَسْعَسَ ﴾ قال الفراء : أجمع المفسرون على أن معنى عسعس أدبر ؛ حكاه الجوهرىّ . وقال بعض أصحابنا : إنه دنا من أوله وأظلم وكذلك السحاب إذا دنا من الأرض . المهدوىّ : «والليلِ إذا عَسْعَسَ» أدبر بظلامه ؛ عن ٱبن عباس ومجاهد وغيرهما . وروى عنهما أيضا وعن الحسن وغيره : أقبل بظلامه . زيد بن أسلم: «عسعس» ذهب . الفرّاء : العرب تقول عسعس وسَعْسَع إذا لم يبق منه إلا اليسير . الخليل وغيره : عسعس الليل إذا أقبل أو أدبر. المبرد: هو من الأضداد، والمعنيان يرجعان إلى شىء واحد، وهو ٱبتداء الظلام فى أوّله ، و إدباره فى آخره ؛ وقال علقمة بن قرط :

حتى إذا الصبحُ لهــا تنفّسا * وٱنجابَ عنها ليلُها وعَسْعَسا

(١) تقمع : تحرك رءوسها من القمعة ؛ وهى ذباب أزرق يدخل فى أنوف الدواب أو يقــع عليها فيلسعها .
(٢) قال : « كناسى » لأن الحيوان يستكن بالغــداة فى ظلها و بالعشى فى فيئها . والضال : السدر البرى ، الواحدة ضالة . والأطر : العطف . والمؤيد : المقوى . يقول الشاعر : كأن كناسى ضالة يكنفان هــذه الناقة ، لسعة ما بين مرفقيها و زورها . (٣) تعشى : دخل فى العشاء، وهو أول الليل . ظلوفه : حوافره .

وقال رُؤْبة :

يا هنـدُ ما أسرعَ ما تَسَعْسَعَا * من بَعْدِ ما كان فَتًى سَرَعْرَعَا[1]

وهذه حجة الفراء . وقال آمرؤ[2] القيس :

عَسْعَسَ حتى لو يشاءُ آدَّنا * كانَ لنا مِن نارِهِ مَقْبِسُ

فهذا يدل على الدنو . وقال الحسن ومجاهدٌ : عَسْعَسَ : أظلم ؛ قال الشاعر :

حتى إذا ما ليلُهن عسعسَا * رِكبن مِن حد الظلامِ حِندِسَا

الماوردى : وأصل العَسّ الآمتلاء ؛ ومنه قيل للقدح الكبير عُسّ لآمتلائه بما فيه ، فأطلق على إقبال الليـل لآبتداء امتلائه ؛ وأطلق على إدباره لآنتهاء آمتلائه على ظلامه ؛ لآستكمال آمتلائه به . وأما قول آمرئ القيس :

* ألمَّا على الربـعِ القديم بِعسْعَسَا[3] *

فموضع بالبادية . وعسعس أيضا آسم رجل ؛ قال الرجز :

* وعَسْعَسٌ نِعْـمَ الفـتى تبيـاه *

أى تعتمده . ويقال للذئب العَسْعَس والعَسْعاس والعَسَّاس ؛ لأنه يَعُسُّ بالليل ويطلب . ويقال للقنافذ العَسَاعس لكثرة ترددها بالليـل . قال أبو عمـرو : والتعسعس الشم ؛ وأنشـد :

* كمنخـر الذِّئبِ إذا تَعَسْعَسَا *

والتعسعس أيضا : طلب الصيد [بالليل[4]] .

---

(١) تسعسعا : أدبر وفنى ، والسرعرع : الشاب الناعم .

(٢) كذا فى الأصول كلها ولم نجده فى ديوانه . وفى اللسان : كان له من ضوئه مقبس . ثم قال : أنشده أبو البلاد النحوى وقال : وكانوا يرون أن هذا البيت مصنوع . وادنا أصله : إذ دنا ، فأدغم .

(٣) تمامه : * كأنى أنادى أو أكلم أخرسا *

(٤) الزيادة من الصحاح .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ والصبح إذا تنفّس ﴾ أى آمتـدّ حتى يصير نهارا واضحا ؛ يقال للنهار إذا زاد : تنفس. وكذلك الموج إذا نضح المـاء. ومعنى التنفس: خروج النسيم من الجوف. وقيـل : « إذا تنفس » أى آنشق وآنفلق ؛ ومنه تنفست القوس (١) أى تصدعت . ﴿ إنه لقول رسولٍ كريم ﴾ هـذا جواب القسم . والرســول الكريم جبريل؛ قاله الحسن وقتـادة والضحاك . والمعنى « إنه لقول رسولٍ » عن الله « كريم » على الله . وأضاف الكلام إلى جبريل عليـه السلام ، ثم عداه عنه بقوله « تنزيل مِن رب العالمين » ليعلم أهـل التحقيق فى التصديق، أن الكلام لله عز وجل. وقيل : هو محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ ذِى قوةٍ ﴾: من جعله جبريل فقوّته ظاهرة ؛ فروى الضحاك عن آبن عباس قال : من قوته قلعه مدائن قوم لُوط بقوادم جناحه . ﴿ عِند ذِى العرش ﴾ أى عند الله جل ثنـاؤه ﴿ مكِين ﴾ أى ذى منزلة ومكانة؛ فرُوى عن أبى صالح قال : يدخل سبعين سُرادِقا بغير إذن . ﴿ مطاعٍ ثم ﴾ : أى فى السموات ؛ قال آبن عباس : من طاعة الملائكة جبريل ، أنه لمـا أُسْرِى برسول الله صلى الله عليه وسلم قال جبريل عليه السلام لرضوان خازن الجنان: آفتح له ، ففتح، فدخل ورأى ما فيها، وقال لمـالك خازن النار : آفتح له جهنم حتى ينظر إليها، فأطاعه وفتح له . ﴿ أمِين ﴾ أى مؤتمن على الوحى الذى يجىء به . ومن قال : إن المـراد محمد صلى الله عليه وسلم فالمعنى « ذِى قوةٍ » على تبليغ الرسالة « مُطاعٍ » أى يطيعه من أطاع الله جلّ وعزّ. ﴿ وما صاحِبكم بِمجنونٍ ﴾ يعـنى محمدا صلى الله عليه وسـلم ليس بمجنون حتى يتهـم فى قوله . وهو من جواب القَسَم . وقيل : أراد النبىّ صلى الله عليه وسلم أن يرى جبريل فى الصورة التى يكون بها عند ربه جلّ وعزّ فقال: ماذاك إلىّ ؛ فأذن له الرب جل ثناؤه، فأتاه وقد سدّ الأفق، فلما نظر إليه النبى صلى الله عليه وسلم خرّ مغشيا عليه، فقال المشركون : إنه مجنون، فنزلت: « إنه لَقَول رسولٍ كريم » « وما صاحِبكم بِمجنون » وإنمـا رأى جبريل على صورته فهابه ، وورد عليه ما لم تحتمل بِنيته، فخرّ مغشيا عليه .

(١) فى نسخ الأصـل « تنفست القوس والنفوس ؛ أى تصدعت . واللغـة لاذكر فيها لكلمة النفوس ، ولعلها زيادة من الناسخ .

Marfat.com

قوله تعالى : وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ ولقد رآه بِالأُفقِ المبِينِ ﴾ أى رأى جبريل فى صورته ، له ستمائة جَناح . « بِالأفقِ المُبِينِ » أى بمطلع الشمس من قِبل المَشْرق ؛ لأن هذا الأفق إذا كان منه تطلع الشمس فهو مُبِين . أى من جهتـه تُرَى الأشياء . وقيل : الأفق المبين : أقطار السماء ونواحيها ؛ قال الشاعر :

أَخَــذْنا بِآفاقِ السماءِ عليــكُمُ　＊　لنــا قَمَراها والنجــومُ الطوالِــعُ

المـاوردى : فعلى هـذا ، فيه ثلاثة أقاويل ؛ أحدها : أنه رآه فى أفق السماء الشرقى ؛ قاله سفيان . الثانى : فى أفق السماء الغربى ، حكاه ابن شجرة . الثالث : أنه رآه نحو أجياد ، وهو مَشْرق مكة ؛ قاله مجاهـد . وحكى الثعلبى عن ابن عباس ، قال النبى صلى الله عليه وسـلم لجبريل : " إنى أحبُّ أن أراك فى صورتك التى تكون فيها فى السماء " قال : لن تقدر على ذلك . قال : "بلى" قال : فأين تشاء أن أتخيل لك؟ قال : "بالأبطح" قال : لا يسعُنى . قال : " فبمِنًى " قال : لا يسعنى . قال : " فبعرفات " قال : ذلك بالحرى أن يسعنى . فواعده فخرج النبى صلى الله عليـه وسلم للوقت ، فإذا هو قد أقبل بخَشْخَشةٍ وكَلْكلةٍ من جبال عَرَفات ، قد ملأ ما بين المشرق والمغرب ؛ ورأسه فى السماء ورجلاه فى الأرض ، فلما رآه النبى صلى الله عليـه وسلم خرّ مغشيا عليه ، فتحول جبريل فى صـورته ، وضمه إلى صدره . وقال : يامحمد لا تخف ؛ فكيف لو رأيت إسرافيل ورأسه من تحت العرش ورجلاه فى تخوم الأرض السابعة ، وإن العرش على كاهله ، وإنه ليتضاءل أحيانا من خشية الله ، حتى يصير مثل الوصع (١) — يعنى العصفور — حتى ما يحمل عرش ربك إلا عظمته . وقيل : إن محمدا

(١) فى (اللسان : وصع) الوصع : هو العصفور الصغير .

Marfat.com

عليه السـلام رأى ربه عز وجل بالأفق المبين . وهو معنى قول آبن مسعود . وقـد مضى القول فى هذا فى « والنجم » مستوفًى[1] ، فتأمله هناك . وفى « المبين » قولان : أحدهما أنه صفة الأفق؛ قاله الربيع . الثانى أنه صفة لمن رآه؛ قاله مجاهد . ﴿ وما هو على الغيب بِظَنِين﴾: بالظاء، قراءة آبن كثير وأبى عمرو والكسائى ، أى بمتَّهم، والظنة التُّهَمة ؛ قال الشاعر :

أما وكتابِ اللهِ لا عن شـناءةٍ * هُجِـرتُ ولكنّ الظنينَ ظَنِينُ

وآختاره أبو عُبيد ؛ لأنهـم لم يُبَخِّلوه ولكن كذبوه ؛ ولأن الأكثر من كلام العرب : ما هو بكذا ، ولا يقولون : ما هو على كذا، إنمـا يقولون : ما أنت على هذا بمتَّهم . وقرأ الباقون « بِضَنِين » بالضاد : أى ببخيل من ضَنِنْت بالشىء أضَنّ ضِـنًّا [فهو] ضنين . فروى آبن أبى نجيح عن مجاهـد قال : لا يضنّ عليكم بمـا يعلم، بل يُعَـلِّم الخَلْق كلام الله وأحكامه . وقال الشاعر :

أَجود بمكنونِ الحديثِ وإننى * بِسِرِّكِ عمن سالـنِى لَضَنِيـنُ

والغَيْب : القـرآن وخبر السماء . ثم هـذا صفة محمد عليـه السلام . وقيل : صـفة جبريل عليه السلام . وقيل : بظَنِين : بضعيف . حكاه الفراء والمبرد ؛ يقال : رجل ظَنِيـن : أى ضعيف . وبئر ظَنُونٌ : إذا كانت قليلة المـاء ؛ قال الأعشى :

ما جُعِل الجُـدُّ[2] الظَّنونُ الذى * جُنِّب صَوْبَ اللاجِبِ المـاطِرِ

مِثـلَ الفُـراتِىِّ إذا ما طما * يقـذِف بالبُـوصِىِّ والمـاهِرِ

والظَّنون : الدين الذى لا يدرى أيقضيه آخذه أم لا؟ ومنه حديث علىّ عليه السلام فى الرجل يكون له الدين الظنون، قال : يزكيه لمـا مضى إذا قبضه إن كان صادقا . والظَّنون : الرجل السـيِّئ الخلق ؛ فهو لفظ مشـترك . ﴿ وما هو ﴾ يعنى القـرآن ﴿ بِقولِ شيطانٍ رجيمٍ ﴾ أى مرجوم ملعون ، كما قالت قريش . قال عطاء : يريد بالشيطان الأبيض الذى كان

---

(١) راجع جـ ١٧ ص ٩٤ وقول آبن مسعود هناك هو : أن محمدا صلى الله عليه وسلم رأى جبريل والذى قال بأنه رأى ربه ، هو ابن عباس رضى الله عنهما .

(٢) الجد : البئر تكون فى موضع كثير الكلأ . الفراتى : المنسوب إلى الفرات . والبوصى : ضرب من سفن البحر ، والملاح أيضا . والماهر : السابح .

Marfat.com

يأتى النبي صلى الله عليه وسلم فى صورة جبريل يريد أن يفتنه . ﴿ فأين تذهبون ﴾ قال قتادة : فإلى أين تعدلون عن هذا القول وعن طاعته . كذا روى مَعْمر عن قتادة ؛ أى أين تذهبون عن كتابى وطاعتى . وقال الزجاج : فأىّ طريقة تسلكون أبين من هذه الطريقة التى بيَّنت لكم . ويقال : أين تذهب؟ وإلى أين تذهب؟ وحكى الفراء عن العرب : ذهبت الشامَ وخرجت العراقَ وانطلقت السوقَ : أى إليها . قال : سمعناه فى هذه الأحرف الثلاثة ؛ وأنشدنى بعض بنى عُقَيل :

تَصِيح بنا حنيفةُ إذْ رأتنا * وأىَّ الأرض تَذهبُ بالصِّياح

يريد إلى أى أرض تذهب ، فحذف إلى . وقال الجنيد : معنى الآية مقرون بآية أخرى ، وهى قوله تعالى : «وإن مِن شىءٍ إلا عِندنا خزائنه» المعنى : أىَّ طريق تسلكون أبينَ من الطريق الذى بينه الله لكم . وهذا معنى قول الزجاج . ﴿ إن هو ﴾ يعنى القرآن ﴿ إلا ذِكر للعالمين ﴾ أى مَوْعظة وزَجْر . و «إنْ» بمعنى «ما» . وقيل : ما محمد إلا ذِكر . ﴿ لِمن شاء مِنكم أن يستقيم ﴾ أى يتبع الحق ويقيم عليه . وقال أبو هريرة وسليمان بن موسى : لما نزلت «لِمن شاء مِنكم أن يستقيم» قال أبو جهل : الأمر إلينا ، إن شئنا آستقمنا ، وإن شئنا لم نستقم — وهذا هو القَدَر ، وهو رأس القَدَرية — فنزلت : ﴿ وما تشاءون إلا ان يشاء الله رب العالمين ﴾ ، فبين بهذا أنه لا يعمل العبد خيرا إلا بتوفيق الله ، ولا شرا إلا بخذلانه . وقال الحسن : والله ما شاءت العرب الإسلام حتى شاءه الله لها . وقال وهب بن مُنبه : قرأتُ فى سبعة وثمانين[(١)] كتابا مما أنزل الله على الأنبياء : من جعل إلى نفسه شيئا من المشيئة فقد كفر . وفى التنزيل : « ولو أننا نزلنا إليهمُ الملائكة وكلمهمُ الموتى وحشرنا عليهم كل شىءٍ قُبُلاً ما كانوا لِيؤمنوا إلا أن يشاء الله » . وقال تعالى : «وما كان لِنفسٍ أن تؤمن إلا بإذنِ الله» . وقال تعالى : «إنك لا تهدِى من أحببت ولكن الله يهدِى من يشاء » والآى فى هذا كثير ، وكذلك الأخبار ، وأن الله سبحانه هدى بالإسلام ، وأضل بالكفر ، كما تقدم فى غير موضع . ختمت السورة والحمد لله .

(١) فى تفسير الثعلبى : بضعة وثمانين .

Marfat.com

سورة الانفطار

مكية عند الجميع، وهى تسع عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ أى تشققت بأمر الله، لنزول الملائكة ؛ كقوله : « ويوم تشقّق السماء بالغمام ونُزّل الملائكة تنزيلا » . وقيل : تفطّرت لهيبة الله تعالى . والفَطْر: الشَّق ؛ يقال : فطرته فانفطر، ومنه فَطَر ناب البعير : طلع، فهو بعير فاطر، وتفطّر الشيء : شقّق ، وسيفُ فُطار أى فيه شقوق ؛ قال عنترة :

وسيفى كالعقيقة وهو كِمعى * سلاحى لا أفلّ ولا فُطارا [(١)]

وقد تقدّم فى غير موضع [(٢)] . ﴿ وإذا الكواكبُ انتثرتْ ﴾ أى تساقطت ؛ نثرتُ الشيء أنثره نثرا ، فانتثر، والاسم النِّثار . والنُّثار بالضم : ما تناثر من الشيء، ودُرّ مُنَثَّر، شدد للكثرة . ﴿ وإذا البحار فُجِّرتْ ﴾ أى فُجر بعضها فى بعض، فصارت بحرا واحدا، على ما تقدّم . قال الحسن : فُجِّرت : ذهب ماؤها ويبست ؛ وذلك أنها أولا راكدة مجتمعة، فإذا فُجِّرت تفرقت، فذهب ماؤها . وهذه الأشياء بين يدى الساعة، على ما تقدّم فى « إذا الشمس كورت » . ﴿ وإذا القبور بُعثرت ﴾ أى قُلِبت وأخرج ما فيها من أهلها أحياء ؛ يقال : بعثرت المتاع : قلبته ظهرا لبطن، وبعثرت الحوض وبحثرته : إذا هدمته وجعلت أسفله أعلاه . وقال قوم منهم الفرّاء : « بعثرت » : أخرجت ما فى بطنها من الذهب والفضة . وذلك من أشراط الساعة : أن تخرج الأرض

(١) العقيقة : شعاع البرق الذى يبدو كالسيف . والكمع : الضجيع .

(٢) راجع جـ ١٦ ص ٤

Marfat.com

ذه بها وفضتها . ﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ مثل : « ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر » ، وتقدم . وهذا جواب « إذا السماء انفطرت » لأنه قسم فى قول الحسن وقع على قوله تعالى : « علمت نفس » يقول: إذا بدت هذه الأمور من أشراط الساعة ختمت الأعمال فعلمت كل نفس ما كسبت ، فإنها لا ينفعها عمل بعد ذلك . وقيل : أى إذا كانت هذه الأشياء قامت القيامة ، فحوسبت كل نفس بما عملت ، وأوتيت كتابها بيمينها أو بشمالها، فتذكرت عند قراءته جميع أعمالها . وقيل : هو خبر، وليس بقسم، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ يأيها الإنسان ﴾ خاطب بهذا منكرى البعث . وقال ابن عباس : الإنسان هنا : الوليد بن المغيرة . وقال عكرمة : أبى بن خلف . وقيل : نزلت فى أبى الأشد بن كلدة الجمحى . عن ابن عباس أيضا : «ما غرك بربك الكريم» أى ما الذى غرك حتى كفرت؟ « بربك الكريم » أى المتجاوز عنك . قال قتادة : غره شيطانه المسلط عليه . الحسن : غره شيطانه الخبيث . وقيل : حمقه وجهله . رواه الحسن عن عمر رضى الله عنه . وروى غالب الحنفى قال : لما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « يأيها الإنسانُ ما غرك بربك الكريم » قال : " غره الجهل " وقال صالح بن مسمار : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ « يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم »؟ فقال : " غره جهله " . وقال عمر رضى الله عنه : كما قال الله تعالى « إنه كان ظلوما جهولا » . وقيل : غره عفو الله ، إذ لم يعاقبه فى أول مرة . قال إبراهيم بن الأشعث : قيل للفضيل بن عياض : لو أقامك الله ...

Marfat.com

يوم القيامة بين يديه، فقال لك : « ما غرك بربك الكريم »؟ ماذا كنت تقول ؟ قال : كنت أقول غرّنى سُتُورك المرخاة ، لأن الكريم هو الستّار . نظمه آبن السّماك فقال :

يا كاتمَ الذنب أما تستحى * واللهُ فى الخَلْوة ثانيكا
غرَّكَ من ربك إمهالُهُ * وسَتْرُه طولَ مَساويكَا

وقال ذو النون المصرىّ : كم من مغرور تحت السّتْر وهو لا يشعر .

وأنشد أبو بكر بن طاهر الأبهرى :

يا من غلا فى العُجْب والتيهِ * وغره طولُ تماديهِ
أملَى لك الله فبارزته * ولم تخف غِبّ معاصيهِ

وروى عن علىّ رضى الله عنه أنه صاح بغلام له مرات فلم يُلَبِّهِ، فنظر فإذا هو بالباب، فقال : مالك لم تُجبنى ؟ فقال . لثقتى بحلمك، وأمنى من عقوبتك. فاستحسن جوابه فأعتقه. وناس يقولون: ما غرك : ما خَدَعك وسَوّل لك، حتى أضعت ما وجب عليك؟ وقال آبن مسعود : ما منكم من أحد إلا وسيخلو الله به يوم القيامة، فيقول له : يآبن آدم ماذا غرك بى؟ يا بن آدم ماذا عملت فيما علمت ؟ يا بن آدم ماذا أجبت المرسلين؟ ﴿الذِى خلقك﴾ أى قدّر خلقَك من نطفة ﴿فسواك﴾ فى بطن أمك، وجعل لك يدين ورجلين وعينين وسائر أعضائك ﴿فعدَّلك﴾ أى جعلك معتدلا سَوِىّ الخَلْق، كما يقال : هذا شىء معدّل. وهذه قراءة العامة، وهى آختيار أبى عبيد وأبى حاتم، قال الفراء : وأبو عبيد : يدل عليه قوله تعالى : « لقد خلقنا الإنسان فِى أحسنِ تقوِيم ». وقرأ الكوفيون : عاصم وحمزة والكسائى: «فعدَلك » مخففا أى : أمالك وصرفك إلى أىّ صورة شاء، إما حسنا وإما قبيحا، وإما طويلا وإما قصيرا . وقال [موسى بن علىّ آبن أبى رَباح اللَّخْمى عن أبيه عن جده](1) قال : قال لى النبى صلى الله عليه وسلم: ” إن النطفة

(١) الزيادة من تفسير الثعلبى والطبرى والدر المنثور . والحديث كما رواه الثعلبى بعد السند : قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجده ”ما ولد لك“؟ قال : يا رسول الله وما عسى أن يولد لى، إما غلاما أو جارية . قال ”فمن يشبه“ قال : فمن يشبه ، أمه أو أباه ؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم . ”لا تقل هكذا إن النطفة ... الحديث “ .

Marfat.com

إذا آستقرت فى الرحم أحضرها الله كل نسب بينها و بين آدم". أما قرأت هذه الآية (فِى أى صورةٍ ما شاء ركبك) : " فيما بينك و بين آدم " [وقال عكرمة وأبو صالح : « فى أى صورةٍ ما شاء ركبك »] : إن شاء فى صورة إنسان ، و إن شاء فى صورة حمار ، وإن شاء فى صورة قرد، وإن شاء فى صورة خنزير . وقال مكحول : إن شاء ذكرا، وإن شاء أنثى . قال مجاهد : « فِى أى صورةٍ » أى فى أى شبه من أبٍ أو أم أو عم أو خالٍ أو غيرهم . و « فى » متعلقة بـ « ركبك »، ولا تتعلق بـ « عدلك »، على قراءة من خفف؛ لأنك تقول عَدَلْت إلى كذا، ولا تقول عَدَلت فى كذا ؛ ولذلك منع الفراء التخفيف ؛ لأنه قدّر « فى » متعلقة بـ « عدّلك »، و «ما» يجوز أن تكون صلة مؤكدة؛ أى فى أى صورة شاء ركبك . ويجوز أن تكون شرطية أى إن شاء ركبك فى غير صورة الإنسان من صورة قِرد أو حمار أو خنزير، فـ« ما » بمعنى الشرط والجزاء ؛ أى فى صورة ما شاء يركبك ركبك .

قوله تعالى : (كلا بل تكذبون بالدِين) يجوز أن تكون «كَلَّا» بمعنى حقًّا و « ألَا » فيبتدأ بها . ويجوز أن تكون بمعنى «لا» ، على أن يكون المعنى ليس الأمر كما تقولون من أنكم فى عبادتكم غير الله محقُّون . يدل على ذلك قوله تعالى : « ما غَرَّكَ بِربك الكريم » وكذلك يقول الفراء : يصير المعنى: ليس كما غُررت به . وقيل: أى ليس الأمر كما تقولون، من أنه لا بعث . وقيل: هو بمعنى الردع والزجر. أى لا تغتروا بحلم الله وكرمه، فتتركوا التفكر فى آياته . آبن الأنبارى: الوقف الجيّد على « الدينِ »، وعلى « ركبك »، والوقف على «كَلّا» قبيح . (بل تكذبون) ياأهل مكة (بِالدينِ) أى بالحساب، و « بل » لنفى شىء تقدم وتحقيق غيره . وإنكارهم للبعث كان معلوما، وإن لم يجر له ذكر فى هذه السورة .

قوله تعالى : وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : (وإن عليكم لحافِظين) أى رُقباء من الملائكة (كِراما) أى علىّ ؛ كقوله : « كِرام بَرَرَةٍ » . وهنا ثلاث مسائل :

Marfat.com

الأولى — رُوِى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "أكرِموا الكرامَ الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى حالتين : الخِراءة(١) أو الجماع، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر بجِرم [حائط(٢)] أو بغيره، أو ليستره أخوه". ورُوِى عن علىّ رضى الله عنه قال : "لا يزال المَلَك موليا عن العبد ما دام بادىَ العورة" ورُوِى "إن العبدَ إذا دخل الحمام بغير مِئزر لعنه ملكاه".

الثانية — واختلف الناس فى الكُفّار هل عليهم حفَظَة أم لا ؟ فقال بعضهم : لا ؛ لأن أمرهم ظاهر، وعملهم واحد؛ قال الله تعالى : « يُعْرَف المجرمون بِسيماهم ». وقيل : بل عليهم حفظة؛ لقوله تعالى : « كلا بل تُكَذِّبون بِالدينِ . وإن عليهم لحافِظِين . كِراما كاتِبِين . يعلمون ما تفعلون ». وقال : « وأما من أُوتِى كِتابه بِشِمالِهِ » وقال : «وأما من أوتِى كِتابه وراء ظهرِه» ، فأخبر أن الكفار يكون لهم كُتّاب، ويكون عليهم حفَظَة. فإن قيل : الذى على يمينه أىَّ شىء يكتب ولا حسنة له ؟ قيل له : الذى يكتب عن شماله يكون بإذن صاحبه، ويكون شاهدا على ذلك وإن لم يكتب . والله أعلم .

الثالثة — سئل سفيان : كيف تعلم الملائكة أن العبدَ قد هم بحسنة أو سيئة؟ قال : إذا هم العبد بحسنة وجدوا منه ريح المسك ، وإذا هم بسيئة وجدوا منه ريح النَّتْن . وقد مضى فى « ق(٣) » عند قوله : « ما يلفِظ من قولٍ إلا لديهِ رقِيب عتِيد » زيادة بيان لمعنى هذه الآية . وقد كره العلماء الكلام عند الغائط والجماع، لمفارقة الملك العبد عند ذلك. وقد مضى فى آخر « آلِ عِمرانَ(٤) » القول فى هذا . وعن الحسن : يعلمون لا يخفى عليهم شىء من أعمالكم . وقيل : يعلمون ما ظهر منكم دون ما حدّثتم به أنفسكم . والله أعلم .

(١) فى ا ، ب ح، ط ، ل : الخـزاية ، ورواية روح المعانى (حـ ٩ ص ٣١٧) : لايفارقونكم إلا عند إحدى الغائط ، والجنابة ، والغسل .

(٢) الزيادة من الدر المنثور وفيه . سبب ورود الحديث أنه عليه السلام رأى رجلا يغتسل بفلاة من الأرض ... ... الخ .

(٣) راجع جـ ١٧ ص ١١ (٤) راجع ٤ ص ٣١٠ فما بعدها .

Marfat.com

قوله تعالى : إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأبرار لفي نعيم . وإن الفجار لفي جحيم ﴾ تقسيم مثل قوله : «فريق في الجنة، وفريق في السعير» . وقال : «يومئذ يَصَّدَّعون . فأما الذين آمنوا» الآيتين. ﴿ يَصْلَوْنها ﴾ أى يصيبهم لهبها وحرّها ﴿ يومَ الدين ﴾ أى يوم الجزاء والحساب، وكرر ذكره تعظيما لشأنه؛ نحو قوله تعالى: «القارعة ما القارعة؟ وما أدراك ما القارعة» وقال ابن عباس فيما روى عنه : كل شيء من القرآن من قوله : «وما أدراك» ؟ فقد أدراه، وكل شيء من قوله : «وما يُدْرِيك» فقد طُوِى عنه . ﴿ يوم لا تملك نفسٌ ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو «يومُ» بالرفع على البدل من «يومُ الدين» أو ردا على اليوم الأول، فيكون صفة ونعتا لـ «يوم الدين» . ويجوز أن يرفع بإضمار هو . الباقون بالنصب على أنه في موضع رفع إلّا أنه، نصب؛ لأنه مضاف غير متمكن؛ كما تقول: أعجبني يوم يقومُ زيد . وأنشد المبرد:

مِن أَيِّ يومَيَّ مِنَ المـوتِ أَفِرّ * أيومَ لم يُقْـدَرَ أم يومَ قُـدِرْ

فاليومان الثانيان مخفوضان بالإضافة، عن الترجمة عن اليومين الأولين، إلا أنهما نصبا في اللفظ؛ لأنهما أضيفا إلى غير محض . وهذا اختيار الفراء والزجّاج . وقال قوم : اليوم الثاني منصوب على المحل، كأنه قال في يوم لا تملك نفس لنفس شيئا . وقيل: بمعنى: إن هذه الأشياء تكون يومَ ، أو على معنى يُدانون يومَ ؛ لأن الدِّين يدل عليه ، أو بإضمار اذكر . ﴿ والأمر يومئذ لله ﴾ لا ينازعه فيه أحد؛ كما قال : «لِمن الملك اليومَ ؟ لله الواحد القهار. اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم» . تمت السورة والحمد لله .

Marfat.com

سـورة المطففين

مكية فى قول ابن مسعود والضحاك ومقاتل . ومدنية فى قول الحسن وعكرمة . وهى ست وثلاثون آية

قال مقاتل : وهى أول سورة نزلت بالمدينة . وقال ابن عباس وقتادة : مدنية إلا ثمان آيات من قوله : « إن الذين أجرموا » إلى آخرها ، مكى . وقال الكلبى وجابر بن زيد : نزلت بين مكة والمدينة .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣)

فيه أربع مسائل :

الأولى — روى النسائى عن ابن عباس قال : لما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا، فأنزل الله تعالى: «ويل للمطففين» ، فأحسنوا الكيل بعد ذلك . قال الفراء: فهم من أوفى الناس كيلا إلى يومهم هذا . وعن ابن عباس أيضا قال : هى: أول سورة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة نزل المدينة، وكان هذا فيهم ؛ كانوا إذا اشتروا استوفوا بكيل راجح، فإذا باعوا بخسوا المكيال والميزان، فلما نزلت هذه السورة انتهوا، فهم أوفى الناس كيلا إلى يومهم هذا . وقال قوم: نزلت فى رجل يعرف بأبى جهينة، واسمه عمرو ؛ كان له صاعان يأخذ بأحدهما، ويعطى بالآخر ؛ قاله أبو هريرة رضى الله عنه .

الثانيـة — قوله تعالى : « ويلٌ » أى شدة عذاب فى الآخرة . وقال ابن عباس : إنه وادٍ فى جهنم يسيل فيه صديد أهل النار، فهو قوله تعالى : «ويل للمطففين» أى الذين ينقصون مكاييلهم وموازينهم . وروى عن ابن عمر قال : المطفف : الرجل يستأجر المكيال

وهو يعلم أنه يحيف فى كيله فوزره عليه . وقال آخرون : التطفيف فى الكيل والوزن والوضوء والصلاة والحديث . وفى الموطأ قال مالك : ويقال لكل شيء وفاءٌ وتطفيف . وروى عن سالم ابن أبى الجعْد قال : الصلاة بمكيال، فمن أوفَى له ومن طَفَّف فقد علمتم ما قال الله عز وجل فى ذلك : « ويل لِلمطففين » .

الثالثـــة — قال أهل اللغة : المطفِّف مأخوذ من الطَّفِيف، وهو القليل ، والمطفِّف هو المقِلّ حق صاحبه بنقصانه عن الحق، فى كيل أو وزن . وقال الزجاج: إنمـا قيل للفاعل من هـذا مطفِّف ؛ لأنه لا يكاد يسرق من المكيال والميزان إلا الشيء الطفيف الخفيف ، وإنما أخذ من طَفِّ الشيء وهو جانبه . وطِفاف المَكُّوك وطَفافه بالكسر والفتح : ما ملأ أصباره، وكذلك طَفُّ المَكُّوكِ وطَفَفُه ؛ وفى الحديث : "كلكم بنو آدم طَفُّ الصـاع لم تملئوه". وهو أن يقـرب أن يمتلئ فلا يفعل؛ والمعنى بعضُكم من بعض قريب، فليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى . والطُّفاف والطُّفافة بالضم : مافوق المكيال . وإناء طُفاف: إذا بلغ المِلء طفافه ؛ تقول منـه : أطَفَفْت . والتطفيف : نقص المِكيال وهو ألا تملأه إلى أصباره، أى جوانبه؛ يقال : أدهقت الكأس إلى أصبارها أى إلى رأسها . وقول ٱبن عمر حين ذكر النبي صلى الله عليه وسلم سَبْق الخيل: كنت فارسا يومئذ فسبقت الناس حتى طَفَّف بى الفَرَس مسجدَ بنى زُرَيق، حتى كاد يساوى المسجد . يعنى : وثب بى .

الرابعـــة — المطفِّف : هو الذى يُخْسر فى الكيل والوزن ، ولا يوفى حَسْب ما بيناه ؛ وروى ٱبن القاسم عن مالك : أنه قرأ «ويل لِلمطفِّفِينَ» فقال : لا تُطَفِّف ولا تَخْلُب(١)، ولكن أرسل وصُبّ عليه صَبّا، حتى إذا ٱستوفى(٢) أرسل يدك ولا تُمْسك . وقال عبد الملك بن الماجشون: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مسح الطُّفاف ، وقال : إن البركة فى رأسه . قال : وبلغنى أن كيل فرعون كان مسحا بالحديد .

---

(١) كذا فى الأصول : أى لا تغش وفى ابن العربى (ولا تجلب) .

(٢) فى أ ، ح ، ز ، ط ، ل ، وابن العربى : « استوى » .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ الذينَ إذا ٱ كتالوا على الناسِ يستوفُون ﴾ قال الفَراء : أى من الناس ؛ يقال : ٱكتلت منك : أى آستوفيت منك ، و يقال ٱكتلت ما عليك : أى أخذت ما عليك . وقال الزَّجاج : أى إذا ٱكتالوا من الناس ٱستوفَوا عليهم الكيل ؛ والمعنى : الذين إذا ٱستوفوا أخذوا الزيادة ، و إذا أوفَوا أو وزنوا لغيرهم نقصوا ، فلا يرضَون للناس ما يرضون لأنفسهم . الطبرى : « على » بمعنى عند .

قوله تعـالى : ﴿ و إذا كالوهُم أو وَزَنُوهُمْ يُخسِرون ﴾ .

فيــه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى : «و إذا كالوهم أو وزنوهم» : أى كالوا لهم أو وزنوا لهم فحذفت اللام ، فتعدى الفعل فَنصب ؛ ومثله نصحتك ونصحت لك ، وأمرتك به وأمرتكه ؛ قاله الأخفش والفراء . قال الفراء : وسمعت أعرابية تقول إذا صَدَر الناسُ أتينا التـاجرَ فيكيلنا المُدّ والمُدّين إلى الموسم المقبل . وهو من كلام أهل الحجاز ومن جاورهم من قيس . قال الزجاج : لا يجـوز الوقف على « كالُوا » و « وزونوا » حتى تصـل به « هُمْ » قال : ومن النـاس من يجعلها توكيدا ، و يجـيز الوقف على « كالُوا » و « وزَنوا » والأول الآختيار ؛ لأنها حرف واحد . هو قول الكسائى . قال أبو عبيد : وكان عيسى بن عمر يجعلها حرفين ، و يقف على « كالوا » و « وزنوا » و يبتـدئ « هُمْ يخسِرون » قال : وأحسب قراءة حمزة كذلك أيضا . قال أبو عبيد : والآختيار أن يكونا كلمة واحدة من جهتين : إحداهما : الخطّ ؛ وذلك أنهم كتبوهما بغير ألف ، ولو كانتا مقطوعتين لكانتا « كالوا » و « وزنوا » بالألف ، والأخرى : أنه يقال : كِلْتك ووزنتُك بمعنى كلت لك ، ووزنت لك ، وهو كلام عربى ؛ كما يقال : صِدْتُك وصِدْت لك ، وكسبتُك وكسبْتُ لك ، وكذلك شكرتك ونصحتك ونحو ذلك . قوله : « يُخسِرون » : أى يَنقُصون ؛ والعرب تقول : أخسرت الميزان وخسَرته . و « هم » فى موضع نصب ، على قراءة العامة ، راجع إلى الناس ، تقديره «و إذا كالوا» الناس «أو وزنوهم يُخسِرون» وفيه وجهان : أحدهما أن يراد كالوا لهم أو وزنوا لهم ، فحذف الجار ، وأوصل الفعل ، كما قال :

ولقـدْ جَنَيْتُكَ أكْمُؤًا وعساقِلاً * ولقد نهيْتُك عن بنـاتِ الأوبرِ

Marfat.com

أراد : جنيت لك، والوجه الآخر: أن يكون على حذف المضاف، و إقامة المضاف إليه مُقامه ، والمضاف هو المكيل والموزون . وعن آبن عباس رضى الله عنه : إنكم معاشر الأعاجم وَلِيتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم : المِكيالَ والمِيزان. وخَصَّ الأعاجم، لأنهم كانوا يجمعون الكيل والوزن جميعا، وكانا مُفَرّقين فى الحَرَمين؛ كان أهل مكة يزنون، وأهل المدينة يكيلون . وعلى القراءة الثانية « هُمْ » فى موضع رفع بالآبتداء؛ أى وإذا كالوا للناس أو وزنوا لهم فهم يخسرون . ولا يصح؛ لأنه تكون الأُولى مُلغاة، ليس لها خبر، و إنما كانت تستقيم لو كان بعدها : وإذا كالواهم يَنْقُصون، أو وزنوا هم يُخسرون .

الثانيـــة — قال آبن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم : "خمس بخمس: مانقض قوم العهد إلا سَلَّط الله عليهم عدوّهم، ولا حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت الفاحشة فيهم إلا ظهر فيهم الطاعون، وما طَفَّفوا الكيلَ إلا مُنعوا النَّبات، وأخذوا بالسنين، ولامنعوا الزكاة إلا حَبَس الله عنهم المَطَر" خرجه أبو بكر البزار بمعناه، ومالك بن أنس أيضا من حديث آبن عمر. وقد ذكرناه فى كتاب التذكرة . وقال مالك بن دينار: دَخَلْت على جارلى قد نزل به الموت، فجعل يقول : جَبَلين من نار! جبلين من نار! فقلت : ماتقول ؟ اتهجر (١)؟ قال : ياأبايحيى ، كانلى مكيالان، أكيل بأحدهما ، وأكتال بالآخر؛ فقمت فجعلت أضرب أحدهما بالآخر، حتى كَسَرتهما، فقال : ياأبا يحيى، كلما ضربت أحدهما بالآخر آزداد عِظَمًا، فمات من وجعه . وقال عكرمة : أشهدُ على كل كَيّال أو وزّان أنه فى النار . قيل له : فإن آبنك كيّال أو وزان . فقال : أشهد أنه فى النـار . قال الأصمعىّ : وسمعت أعرابية تقول: لا تَلْتَمِس المروءة ممن مروءته فى رءوس المكاييل، ولا ألسنة الموازين. ورُوى ذلك عن علىّ رضى الله عنه. وقال عبدُ خير: مر علىّ رضى الله عنه على رجل وهو يزن الزعفران وقد أرجح، فأكفأ الميزان، ثم قال: أقم الوزن بالقسط، ثم أرجح بعد ذلك ماشئت . كأنه أمره بالتسوية أولا ليعتادها، ويُفضل الواجبَ من النفل. وقال نافع: كان آبن عمر يمر بالبائع فيقول: آتق الله وأوف الكيل

(١) هجر فى نومه ومرضه يهجر هجرا : هذى .

Marfat.com

والوزن بالقسط ، فإن المطففين يوم القيامة يوقفون حتى إن العَرَق ليُلجِمُهم إلى أنصاف آذانهم . وقد رُوى أن أبا هريرة قدم المدينة وقد خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى خيبر وآستخلف على المدينة سِباع بن عُرْفُطة ، فقال أبو هريرة : فوجدناه فى صلاة الصبح فقرأ فى الركعة الأولى « كهيعص » وقرأ فى الركعة الثانية « ويل لِلمطففين » قال أبو هريرة : فأقول فى صلاتى : ويْل لأبى فلان ، كان له مِكيالان إذا آكتال آكتال بالوافى ، وإذا كال كال بالناقص .

قوله تعالى : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٦) ﴾

قوله تعالى : ﴿ ألا يظن أولئك ﴾ إنكار وتعجيب عظيم من حالهم، فى الاجتراء على التطفيف، كأنهم لا يُخطِرون التطفيف ببالهم ، ولا يُخمِّنون تخمينا ﴿ إنهم مبعوثون ﴾ فمسئولون عما يفعلون . والظن هنا بمعنى اليقين ؛ أى ألا يُوقِن أولئك، ولو أيقنوا ما نقصوا فى الكيل والوزن . وقيل : الظن بمعنى التردد ، أى إن كانوا لا يستيقنون بالبعث، فهلا ظنّوه، حتى يتدبروا ويبحثوا عنه ، ويأخذوا بالأحوط ﴿ لِيومٍ عظِيمٍ ﴾ شأنه وهو يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ يوم يقوم الناس لِربّ العالمين ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى ــ العامل فى « يومَ » فعل مضمر، دل عليه « مبعوثون » . والمعنى يبعثون « يومَ يقوم الناس لرب العالمين » . ويجوز أن يكون بدلا من يوم فى « لِيومٍ عظِيمٍ » وهو مبنى . وقيل : هو فى موضع خفض؛ لأنه أضيف إلى غير متمكن . وقيل : هو منصوب على الظرف أى فى يوم ، ويقال : أقم إلى يومَ يخرج فلان، فتنصب يوم ، فإن أضافوا إلى الاسم فحينئذ يخفضون ويقولون : أقم إلى يومِ خروج فلان . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير، التقدير : إنهم مبعوثون يوم يقوم الناس لرب العالمين ليوم عظيم .

Marfat.com

الثانيــة — وعن عبد الملك بن مروان: أن أعرابيا قال له: قد سمعتَ ما قال الله تعالى في المطففين؛ أراد بذلك أن المطففين قد توجه عليهم هذا الوعيد العظيم الذى سمعت به، فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن. وفى هذا الإنكارِ والتعجيبِ وكلمةِ الظن، ووصفِ اليوم بالعظيم، وقيامِ الناس فيه لله خاضعين، ووصفِ ذاته برب العالمين، بيان بليغ لِعظم الذنب، وتفاقم الإثم فى التطفيف، وفيما كان فى مثل حاله من الحيف، وترك القيام بالقسط، والعمل على التسوية والعدل، فى كل أخذٍ وإعطاءٍ، بل فى كل قول وعمل.

الثالثــة — قرأ ابن عمر: «ويل لِلمطفِفين» حتى بلغ «يومَ يقومُ الناسُ لِرب العالمين» فبكى حتى سَقَط، وامتنع من قراءة ما بعده، ثم قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول "يومَ يقوم الناس لرب العالمين، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، فمنهم من يبلغ العرَق كعبيه، ومنهم من يبلغ ركبتيه، ومنهم من يبلغ حِقْويه، ومنهم من يبلغ صدره، ومنهم من يبلغ أذنيه، حتى إن أحدهم ليغيب فى رَشْحه كما يغيب الضِّفدع (١)". وروى ناس عن ابن عباس قال: يقومون مقدار ثلثمائة سنة. قال: ويهون على المؤمنين قدرُ صلاتهم الفريضة. ورُوى عن عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يقومون ألف عام فى الظُّلَة". ورَوَى مالك عن نافع عن ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "يوم يقوم الناس لرب العالمين، حتى إن أحدهم ليقوم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه". وعنه أيضا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: "يقوم مائة سنة". وقال أبو هريرة قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لبشير الغِفاريّ: "كيف أنت صانع فى يوم يقوم الناس فيه مقدار ثلثمائة سنة لرب العالمين، لا يأتيهم فيه خبر، ولا يؤمر فيه بأمر" قال بشير: المستعان الله.

قلت: قد ذكرناه مرفوعا من حديث أبى سعيد الخدريّ عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إنه لَيُخَفَّف عن المؤمن، حتى يكون أخفّ عليه من صلاة المكتوبة يصلّيها فى الدنيا" فى «سأل سائل» (٢). وعن ابن عباس: يَهون على المؤمنين قدرُ صلاتهم الفريضة. وقيل:

(١) أى فى الماء.

(٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٨٢.

إن ذلك المقام على المؤمن كزوال الشمس؛ والدليل على هذا من الكتاب قوله الحق: «ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون» ثم وصفهم فقال: «الذين آمنوا وكانوا يتقون» جعلنا الله منهم بفضله وكرمه وجوده. ومنه آمين. وقيل: المراد بالناس جبريل عليه السلام يقوم لرب العالمين؛ قاله ابن جُبير. وفيه بُعد؛ لما ذكرنا من الأخبار في ذلك، وهي صحيحة ثابتة، وحسبُك بما في صحيح مسلم والبخاري والترمذي من حديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم «يوم يقوم الناس لرب العالمين» قال: "يقوم أحدهم في رشحه إلى نصف أذنيه". ثم قيل: هـذا القيام يوم يقومون من قبورهم. وقيل: في الآخرة بحقوق عباده في الدنيا. وقال يزيد الرشك: يقومون بين يديه للقضاء.

الرابعــة — القيام لله رب العالمين سبحانه حقير بالإضافة إلى عظمته وحقه، فأما قيام الناس بعضهم لبعض فاختلف فيه الناس؛ فمنهم من أجازه، ومنهم من منعه. وقد رُوي أن النبي صلى الله عليه وسلم قام إلى جعفر بن أبي طالب واعتنقه، وقام طلحة لكعب بن مالك يوم تِيب عليه. وقول النبي صلى الله عليـه وسلم للأنصـار حين طلع عليه سـعد بن مُعاذ: "قوموا إلى سيِّدكم". وقال أيضا: "من سره أن يتمثل له الناس قياما فليتبوأ مقعده من النار". وذلك يرجع إلى حال الرجل ونيته، فإن انتظر ذلك واعتقده لنفسه، فهو ممنوع، وإن كان على طريق البشاشة والوُصلة فإنه جائز، وخاصة عند الأسباب، كالقدوم من السفر ونحوه. وقد مضى في آخر سورة «يوسف»(1) شيء من هذا.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾

(1) راجع جـ ٩ ص ٢٦٥ فما بعدها.

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ قال قوم من أهل العلم بالعربية : « كَلَّا » : ردع وتنبيه ؛ أى ليس الأمر على ماهم عليه من تطفيف الكيل والميزان ، أو تكذيب بالآخرة ، فليرتدعوا عن ذلك . فهى كلمة رَدْع وزَجْر ، ثم استأنف فقال : « إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ » . وقال الحسن : « كَلَّا » بمعنى حَقًّا . ورَوَى ناس عن ابن عباس « كَلَّا » قال : ألا تصدقون ؛ فعلى هذا : الوقفُ « لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » . وفى تفسير مقاتل : إن أعمال الفجار . وروى ناس عن ابن عباس قال : إن أرواح الفجار وأعمالهم « لَفِي سِجِّينٍ » . وروى ابن أبي نَجِيح عن مجاهد قال : سِجِّين صخرة تحت الأرض السابعة ، تقلب فيجعل كتاب الفجار تحتها . ونحوه عن ابن عباس وقتادة وسعيد بن جُبير ومقاتل وكعب ؛ قال كعب : تحتها أرواح الكفار تحت خدّ إبليس . وعن كعب أيضا قال : سجين صخرة سوداء تحت الأرض السابعة ، مكتوب فيها اسم كل شيطان ، تلقى أنفس الكفار عندها . وقال سعيد بن جبير : سجين تحت خد إبليس . يحيي بن سلام : حجر أسود تحت الأرض ، يكتب فيه أرواح الكفار . وقال عطاء الخُراسانى : هى الأرض السابعة السفلى ، وفيها إبليس وذرّيته . وعن ابن عباس قال : إن الكافر يحضُره الموت ، وتحضره رسل الله ، فلا يستطيعون لبغض الله له وبغضهم إياه ، أن يؤخروه ولا يعجلوه حتى تجيء ساعته ، فإذا جاءت ساعته قبضوا نفسه ، ورفعوه إلى ملائكة العذاب ، فأروه ما شاء الله أن يُرُوه من الشر ، ثم هبطوا به إلى الأرض السابعة ، وهى سِجِّين ، وهى آخر سلطان إبليس ، فأثبتوا فيها كتابه . وعن كعب الأحبار فى هذه الآية قال : إن رُوح الفاجر إذا قبضت يُصْعد بها إلى السماء ، فتأبى السماء أن تقبلها ، ثم يُهْبط بها إلى الأرض ، فتأبى الأرض أن تقبلها ، فتدخل فى سبع أرضين ، حتى يُنْتَهى بها إلى سِجِّين ، وهو خد إبليس ، فيخرج لها من سجين من تحت خدّ إبليس رَقّ ، فيرقم فيوضع تحت خد إبليس . وقال الحسن : سِجِّين فى الأرض السابعة . وقيل : هو ضرب مثل وإشارة إلى أن الله تعالى يرد أعمالهم التى ظنوا أنها تنفعهم . قال مجاهد : المعنى عملهم تحت الأرض السابعة لا يصعد منها شيء . وقال :

Marfat.com

سجين صخرة فى الأرض السابعة . وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "سجين جُب فى جهنم وهو مفتوح" وقال فى الفلق : "إنه جُبّ مغطى" . وقال أنس : هى دركة فى الأرض السفلى . وقال أنس قال النبي صلى الله عليه وسلم : سجين أسفلَ الأرض السابعة". وقال عِكرمة : "سِجـين : خسار وضلال ؛ كقولهم لمن سقط قدره : قد زلق بالحضيض . وقال أبو عبيدة والأخفش والزجاج : « لفِي سِجِينٍ » لفى حبس وضيق شـديد ، فِعّيل من السِّجْن ؛ كما يقول : فِسِّيق وشِرِّيب ؛ قال ابن مقبل :

ورُفقة يضربون البيْضَ ضاحِية * ضَرْبًا تواصتْ به الأبطالُ سِجِّينا(١)

والمعنى: كتابهم فى حبس؛ جعل ذلك دليلا على خساسة منزلتهم، أو لأنه يَحُل من الإعراض عنه والإبعاد له مَحَـلّ الزجر والهوان . وقيل : أصله سِجِّيل، فأبدلت اللام نونا . وقد تقدّم ذلك . وقال زيد بن أسلم : سِجِّين فى الأرض السافلة، وسجيل فى السماء الدنيا . القُشيرى: سِجِّين : موضع فى السافلين، يدفن فيه كتاب هؤلاء، فلا يظهر بل يكون فى ذلك الموضع كالمسجون . وهذا دليل على خبث أعمالهم، وتحقير الله إياها ؛ ولهذا قال فى كتاب الأبرار: « يشهده المقربون » . ﴿ وما أدراك ما سِجِّينٌ ﴾ أى ليس ذلك مما كنت تعلمه يا محمد أنت ولا قومك . ثم فسره له فقال : ﴿ كِتاب مرقومٌ ﴾ أى مكتوب كالرقم فى الثـوب، لا يُنْسى ولا يُمحى . وقال قتادة : مرقوم أى مكتوب ، رقم لهم بشر : لا يُزاد فيهم أحدٌ ولا ينقُص منهم أحد . وقال الضحاك : مرقوم : مختوم، بلغة حمير ؛ وأصل الرقم : الكتابة ؛ قال :

سأَرقم فى المـاءِ القَراحِ إليـكُمُ(٣) * على بعدِكم إن كان لِلمـاءِ راقِمُ

وليس فى قوله : « وما أدراك ما سِجِّين؟ » ما يدل على أن لفظ سجين ليس عربيا، كما لا يدل فى قوله : « القارِعة ما القارِعة . وما أدراك ما القارِعة » بل هو تعظيم لأمر سجين. وقد مضى فى مقدّمة الكتاب — والحمد لله — أنه ليس فى القرآن غير عربى(٢) . ﴿ ويلٌ يومئذٍ لِلمكذِّبين ﴾

---

(١) الذى فى التاج نقلا عن الجوهرى : * ورجلة يضربون الهام عن عرض *

(٢) راجع جـ ١ ص ٦٨ . (٣) القراح بوزن سحاب : الماء الذى لا ثفل فيه .

Marfat.com

أى شدة وعذاب يوم القيامة للمكذبين . ثم بيّن تعالى أمرهم فقال : ﴿ الذينَ يُكَذِّبون بيومِ الدِّين ﴾ أى بيوم الحساب والجزاء والفصل بين العباد. ﴿ وما يُكَذِّب به إلا كلُّ مُعْتَدٍ أثيم ﴾ أى فاجر جائر عن الحق، معتد على الخلق فى معاملته إياهم، وعلى نفسه، وهو أثيم فى ترك أمر الله . وقيل هذا فى الوليد بن المغيرة وأبى جهل ونظرائهما ؛ لقوله تعالى : ﴿ إذا تُتْلَى عليه آياتُنا قال أساطيرُ الأوَّلينَ ﴾ وقراءة العامة « تُتْلَى » بتاءين ، وقراءة أبى حَيْوة وأبى سِماك وأشهب العُقَيلى والسُّلَمى : «إذا يُتْلَى» بالياء . وأساطير الأولين : أحاديثهم وأباطيلهم التى كتبوها وزخرفوها . واحدها أُسطورة وإسطارة ، وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رانَ على قُلُوبِهِمْ ما كانوا يَكْسِبُون ﴾ : « كَلَّا » : ردْع وزجْر، أى ليس هو أساطيرَ الأوَّلينَ . وقال الحسن : معناها حقا « رَانَ على قُلُوبهمْ » . وقيل : فى الترمذى : عن أبى هُريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكِتَتْ فى قلبه نُكْتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر الله وتاب، صُقِل قلبه، فإن عاد زيد فيها، حتى تعلُوَ على قلبه، وهو (الرَّانُ) الذى ذكر الله فى كتابه «كَلَّا بلْ رَانَ على قُلُوبهمْ ما كانوا يَكْسِبون » ". قال : هذا حديث حسن صحيح . وكذا قال المفسرون : هو الذنب على الذنب حتى يسودّ القلب . قال مجاهد : هو الرجل يُذْنب الذنب، فيحيط الذنب بقلبه، ثم يذنب الذنب فيحيط الذنب بقلبه، حتى تُغَشِّى الذنوب قلبه . قال مجاهد : هى مثل الآية التى فى سورة البقرة : « بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً » ... الآية . ونحوه عن الفراء؛ قال : يقول كثرت المعاصى منهم والذنوب، فأحاطت بقلوبهم ، فذلك الرَّيْنُ عليها . ورُوى عن مجاهد أيضا قال : القلب مثل الكهف ورفع كفه ، فإذا أذنب العبد الذنب انقبض ، وضم إصبعه ، فإذا أذنب الذنب انقبض ، وضم

(١) راجع جـ ٢ ص ١١

Marfat.com

أخرى، حتى ضم أصابعه كلها، حتى يُطْبَع على قلبه . قال : وكانوا يرون أن ذلك هو الرَّيْن، ثم قرأ « كَلّا بَلْ رانَ على قلوبِهِمْ ما كانوا يَكْسِبون » . ومثله عن حذيفة رضى الله عنه سواء . وقال بكر بن عبد الله : إن العبد إذا أذنب صار فى قلبه كوخزة الإبرة، ثم صار إذا أذنب ثانيا صار كذلك ، ثم إذا كثرت الذنوب صار القلب كالمُنْخُل، أو كالغربال، لا يعى خيرا، ولا يثبُت فيه صلاح . وقد بيَّنا فى « البقرة »(١) القولَ فى هذا المعنى بالأخبار الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا معنى لإعادتها . وقد روى عبد الغنى بن سعيد عن موسى ابن عبد الرحمن عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس، وعن موسى عن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس شيئا الله أعلم بصحته ؛ قال : هو الرَّان الذى يكون على الفخذين والساق والقدم، وهو الذى يُلْبَس فى الحرب . قال: وقال آخرون: الران: الخاطر الذى يخطر بقلب الرجل . وهذا مما لا يُضْمن عُهْدة صحته . فالله أعلم . فأما عامة أهل التفسير فعلى ما قد مضى ذكره قبل هذا . وكذلك أهلُ اللغة عليه ؛ يقال : رانَ على قلبه ذنبُه يَرِينُ رَيْنا ورُيونا أى غلب . قال أبو عُبيدة فى قوله : « كَلّا بَلْ رانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ما كانوا يَكْسِبُونَ » أى غلب ؛ وقال أبو عُبيد : كل ما غلبك [وعَلاكَ](٢) فقد ران بك، ورانك، وران عليك؛ وقال الشاعر:

وكَمْ رانَ مِن ذنبٍ على قلبِ فاجرٍ * فتابَ مِن الذنبِ الذى رانَ وانْجلَى

ورانتْ الخمر على عقله : أى غلبته ، وران عليه النُّعاسُ : إذا غطّاه؛ ومنه قول عمر فى الأُسَيفع - أُسَيفع جُهَيْنة - : فأصبح قد رِينَ به(٣) . أى غلبته الديون ، وكان يدّانُ ؛ ومنه قول أبى زُبَيد يصف رجلا شرب حتى غلبه الشراب سُكْرا ، فقال :

ثم لما رآه رانتْ بهِ الخمـ * ـرُ وأنْ لا تَرِينَه بإتقاءِ(٤)

فقوله : رانت به الخمر، أى غلبت على عقله وقلبه . وقال الاموى : قد أران القوم فهم مُرِينون : إذا هلكت مواشيهم وهُزِلت . وهذا من الأمر الذى أتاهم مما يغلبهم، فلا يستطيعون احتماله . قال أبو زَيد يقال : قد رِينَ بالرجل رَيْنا : إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه، ولا قبل له

---

(١) راجع جـ١ ص ١٨٨ فما بعدها . (٢) [وعلاك] : زيادة من (اللسان : ران)، تتميما لكلام أبى عبيد . (٣) فى النهاية لابن الأثير : أى أحاط الدين بماله . (٤) البيت فى (اللسان : ران) منسوبا لأبى زبيد، يصف سكرانا غلبت عليه الخمر .

Marfat.com

وقال . أبو مُعاذ النحوى : الرَّين : أن يسودّ القلب من الذنوب ، والطَّبَع أن يُطْبَع على القلب ، وهذا أشد من الرَّين ، والإقفال أشد من الطَّبع . الزّجاج : الرَّين : هو كالصدأ يُغَشِّي القلب كالغيم الرقيق، ومثله الغين، يقال : غِين على قلبه : غُطِّى . والغَين : شجر ملتف ، الواحدة غيناء ، أى خضراء ، كثيرة الورق ، ملتفة الأغصان . وقد تقدم قول الفراء أنه إحاطه الذنب بالقلوب . وذكر الثعلبي عن ابن عباس : « ران على قلوبهم » : أى غطَّى عليها . وهذا هو الصحيح عنه إن شاء الله . وقرأ حمزة والكسائى والأعمش وأبو بكر والمفضل « ران » بالإمالة؛ لأن فاء الفعل الراء، وعينه الألف منقلبة من ياء، فحسنت الإمالة لذلك . ومن فتح فعلى الأصل؛ لأن باب فاء الفعل فى (فَعَلَ) الفتح، مثل كال و باع ونحوه . واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم ووقف حفص « بَلْ » ثم يبتدئ «رَانَ» وقفا يُبَيِّن اللام، لا للسكت .

قوله تعالى : ﴿ كلا إنهم ﴾ أى حقا « إنهم » يعنى الكفار ﴿ عن ربهم يومئذ ﴾ أى يوم القيامة ﴿ لمحجوبون ﴾ . وقيل : «كلّا» ردع وزجر، أى ليس كما يقولون، بل « إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » . قال الزجاج : فى هذه الآية دليل على أن الله عز وجل يُرَى فى القيامة، ولولا ذلك ما كان فى هذه الآية فائدة، ولا خست منزلة الكفار بأنهم يحجبون . وقال جل ثناؤه : « وجوه يومئذ ناضِرة ، إلى ربها ناظِرة » فأعلم الله جل ثناؤه أن المؤمنين ينظرون إليه ، وأعلم أن الكفار محجوبون عنه ، وقال مالك بن أنس فى هذه الآية : لما حجب أعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه . وقال الشافعى : لما حجب قوما بالسخط ، دل على أن قوما يرونه بالرضا . ثم قال : أما والله لو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى ربه فى المعاد لما عبده فى الدنيا . وقال الحسين بن الفضل : لما حجبهم فى الدنيا عن نور توحيده حجبهم فى الآخرة عن رؤيته . وقال مجاهد فى قوله تعالى « لمحجوبون » : أى عن كرامته ورحمته ممنوعون . وقال قتادة : هو أن الله لاينظر إليهم برحمته، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم . وعلى الأول الجمهور، وأنهم محجوبون عن رؤيته فلا يرونه . ﴿ ثم إنهم لصالو الجحيم ﴾ أى

---

(١) الرين : هو الختم ، أى الطبع على القلب كما فى « اللسان » مادة « ر ين » .

Marfat.com

ملازموها، ومحترفون فيها غير خارجين منها ، « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها » و « كلما خبت زدناهم سعيرا » . ويقال : الجحيم البـاب الرابع من النار . ﴿ ثم يقال ﴾ لهم أى تقول لهم خزنة جهنم ﴿ هذا الذى كنتم به تكذبون ﴾ رسل الله فى الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١ ﴾

قوله تعالى : ﴿ كلا إن كتاب الأبرارِ لفى عِليين ﴾ « كَلَّا » بمعنى حقا، والوقف على « تكذبون » . وقيل أى ليس الأمر كما يقولون ولا كما ظنوا، بل كتابهم فى سجين، وكتاب المؤمنين فى عِليين . وقال مقاتل: كَلّا، أى لا يؤمنون بالعذاب الذى يَصْلَونه . ثم آستأنف فقال : « إن كتاب الأبرارِ » مرفوع فى عليين على قدر مرتبتهم . قال آبن عباس : أى فى الجنة . وعنه أيضا قال: أعمالهم فى كتاب الله فى السماء . وقال الضحاك ومجاهد وقتادة : يعنى السماء السابعة فيها أرواح المؤمنين . وروى آبن الأجلح عن الضحاك قال : هى سِدْرة المنتهى، ينتهى إليها كل شىء من أمر الله لا يعدوها، فيقولون : ربِّ ! عبدك فلان، وهو أعلم به منهم ، فيأتيه كتاب من الله عز وجل مختوم بأمانه من العذاب. فذلك قوله تعالى : « كلا إن كتاب الأبرارِ » . وعن كعب الأحبار قال : إن روح المؤمن إذا قبضت صُعِد بها إلى السماء ، وفُتحت لها أبواب السماء ، وتلقتها الملائكة بالبشرى ، ثم يخرجون معها حتى ينتهوا إلى العرش، فيخرج لهم من تحت العرش، رَقٌّ فيرقم ويختم فيه النجاة من الحساب يوم القيامة ويشهده المقرّبون . وقال قتادة أيضـا : « فى عِلِّيِّن » هى فوق السماء السابعة عند قائمة العـرش اليمنى . وقال البَرَاء بن عازب قال النبى صلى الله عليه وسـلم : عِلِّيون فى السماء السابعة تحت العرش". وعن آبن عباس أيضا : هولوح من ز برجدة خضراء معلق بالعرش، أعمالهم مكتوبة فيه . وقال الفراء : عِليون آرتفاع بعد آرتفاع . وقيـل : عليون أعلى الأمكنة . وقيل : معناه علو فى علو مضاعف، كأنه لا غاية له ؛ ولذلك جمع بالواو والنون . وهو معنى قول الطبرى . قال الفـراء : هو آسم موضوع على صفة الجمع، ولا واحد له من

Marfat.com

لفظة؛ كقولك: عشرون وثلاثون، والعرب إذا جمعت جمعا ولم يكن له بناء من واحده ولا تثنية، قالوا فى المذكر والمؤنث بالنون. وهى معنى قول الطبرى. وقال الزجاج: إعراب هذا الاسم كإعراب الجمع، كما تقول: هذه قِنَّسْرون، ورأيت قِنسرين. وقال يونس النحوى واحدها: عِلِّيّ وعِلية. وقال أبو الفتح: عِليين: جمع عِلّيّ، وهو فِعِّيل من العلو. وكان سبيله أن يقول عِلِّية كما قالوا للغرفة عِلِّية؛ لأنها من العلو، فلما حذف التاء من علية عوضوا منها الجمع بالواو والنون، كما قالوا فى أرضين. وقيل: إن عليين صفة للملائكة، فإنهم الملأ الأعلى؛ كما يقال: فلان فى بنى فلان؛ أى هو فى جملتهم وعندهم. والذى فى الخبر من حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن أهل عِليين لينظرون إلى الجنة من كذا، فإذا أشرف رجل من أهل عِليين أشرقت الجنة لضياء وجهه، فيقولون: ماهذا النور؟ فيقال أشرف رجل من أهل عِليين الأبرار أهل الطاعة والصدق". وفى خبر آخر: "إن أهل الجنة ليرون أهل عِليين كما يُرى الكوكب الدُّرِّىّ فى أفق السماء" يدل على أن عِليين اسم الموضع المرتفع. وروى ناس عن ابن عباس فى قوله «عِليين» قال: أخبر أن أعمالهم وأرواحهم فى السماء الرابعة. ثم قال: ﴿ وما أدراك ما عليون ﴾ أى ما الذى أعلمك يا محمد أى شىء عليون؟ على جهة التفخيم والتعظيم له فى المنزلة الرفيعة. ثم فسره له فقال: ﴿ كتاب مرقوم يشهده المقربون ﴾. وقيل: إن «كتاب مرقوم» ليس تفسيرا لِعليين، بل تم الكلام عند قوله «عليون» ثم ابتدأ وقال: «كتاب مرقوم» أى كتاب الأبرار كتاب مرقوم ولهذا عكس الرقم فى كتاب الفجار؛ قاله القشيرى. وروى: أن الملائكة تصعد بعمل العبد، فيستقبلونه[1] فإذا انتهوا به إلى ماشاء الله من سلطانه أوحى إليهم: إنكم الحفَظَة على عبدى، وأنا الرقيب على ما فى قلبه، وإنه أخلص لى عمله، فاجعلوه فى عليين، فقد غفرت له، وإنها لتصعد بعمل العبد، فيتركونه فإذا انتهوا به إلى ما شاء الله أوحى إليهم: أنتم الحفظة على عبدى وأنا الرقيب على مافى قلبه، وإنه لم يخلص لى عمله، فاجعلوه فى سِجِّين.

(١) فيستقبلونه: كذا فى ا، ب، ح، ط، ل.

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ يشهده المقرّبون ﴾ أى يشهد عمل الأبرار مقربو كل سماء من الملائكة.
وقال وهب وابن إسحاق : المقربون هنا إسرافيل عليه السلام ، فإذا عمل المؤمن عمل البر،
صعدت الملائكة بالصحيفة وله نور يتلألأ فى السموات كنور الشمس فى الأرض، حتى
ينتهى بها إلى إسرافيل، فيختم عليها و يكتب فهو قوله : « يشهده المقربون » أى يشهد كتابتهم

قوله تعالى : إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾
تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾
خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن
تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ إن الابرار ﴾ أى أهل الصدق والطاعة . ﴿ لفى نعيم ﴾ أى نَعْمة، والنَّعمة بالفتح : التنعيم؛ يقال : نَعَّمه الله وناعمه فتنعم، وامرأة منعَّمة ومناعَمة بمعنى . أى إن الأبرار فى الجنات يتنعمون . ﴿ على الأرائِك ﴾ وهى الأسرة فى الحجال ﴿ ينظُرون ﴾ أى إلى ما أعدّ الله لهم من الكرامات ؛ قاله عكرمة وابن عباس ومجاهد . وقال مقاتل : ينظُرون إلى أهل النار . وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ينظرون إلى أعدائهم فى النار " ذكره المَهْدوِى .
وقيل : على أرائك أفضاله ينظرون إلى وجهه وجلاله .

قوله تعالى : ﴿ تعرِفُ فِى وجوهِهم نَضْرة النعيم ﴾ أى بهجته وغضارته ونوره؛ يقال : نضر النبات : إذا ازهر ونور . وقراءة العامة « تعرِفُ » بفتح التاء وكسر الراء « نَضْرةَ » نصبا ؛ أى تعرف يا محمد . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع و يعقوب وشيبة وابن أبى إسحاق : « تُعْرَف » بضم التاء وفتح الراء على الفعل المجهول « نضرة » رفعا . ﴿ يُسْقَون مِن رحِيقٍ ﴾ أى من شراب لا غِش فيه . قاله الأخفش والزجّاج . وقيل ، الرحيق الخمر الصافية . وفى الصحاح : الرحيق صفوة الخمر . والمعنى واحد . الخليل : أقصى[1] الخمر وأجودها . وقال مقاتل وغيره : هى الخمر العتيقة البيضاء الصافية من الغش النيرة ، قال حسان :

(١) كذا فى الأصول كلها ولعل الصواب : أصفى الخمر .

Marfat.com

يسقون من ورد البريص عليهم * بردى يصفق بالرحيق السلسل (١)

وقال آخر (٢) :

أم لا سبيل إلى الشباب وذكره * أشهى إلى من الرحيق السلسل

﴿مختوم ختامه مسك﴾ قال مجاهد : يختم به آخر جرعة . وقيل : المعنى إذا شربوا هذا الرحيق ففنى ما فى الكأس ، انختم ذلك بخاتم المسك . وكان ابن مسعود يقول: يجدون عاقبتها طعم المسك . ونحوه عن سعيد بن جبير وإبراهيم النخعى قالا : ختامه آخر طعمه . وهو حسن ، لأن سبيل الأشربة أن يكون الكدر فى آخرها ، فوصف شراب أهل الجنة بأن رائحة آخره رائحة المسك . وعن مسروق عن عبد الله : قال المختوم الممزوج . وقيل : مختوم أى ختمت ومنعت عن أن يمسها ماس إلى أن يفك ختامها الأبرار . وقرأ على وعلقمة وشقيق والضحاك وطاوس والكسائى « خاتمه » بفتح الخاء والتاء وألف بينهما . قاله علقمة : أما رأيت المرأة تقول للعطار : اجعل خاتمه مسكا، تريد آخره . والخاتم والختام متقاربان فى المعنى، إلا أن الخاتم الاسم ، والختام المصدر، قاله الفراء. وفى الصحاح : والختام : الطين الذى يختم به . وكذا قال مجاهد وابن زيد : ختم إناؤه بالمسك بدلا من الطين . حكاه المهدوى . وقال الفرزدق :

* وبت أفض أغلاق الختام (٣) *

وقال الأعشى :

* وأبرزها وعليها ختم (٤) *

أى عليها طينة مختومة، مثل نفض بمعنى منفوض، وقبض بمعنى مقبوض. وذكر ابن المبارك وابن وهب، واللفظ لابن وهب، عن عبد الله بن مسعود فى قوله تعالى : «ختامه مسك» : خلطه، ليس بخاتم يختم، ألا ترى إلى قول المرأة من نسائكم : إن خلطه من الطيب كذا وكذا.

(١) تقدم شرح البيت بهامش ص ١٤١ من هذا الجزء . (٢) هو أبو كبير الهذلى .

(٣) صدر البيت : * فبتن جنابى مصرعات *

(٤) صدره : * وصهباء طاف يهوديها *

Marfat.com

إنما خلطه مسك؛ قال : شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر أشربتهم ، لو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل فيه يده ثم أخرجها، لم يبق ذو روح إلا وجد ريح طيبها . وروى أُبَيّ بن كعب قال : قيل يارسول الله ما الرحيق المختوم ؟ قال : " غُدْران الخمر " . وقيل : مختوم فى الآنية، وهو غير الذى يجرى فى الأنهار . فالله أعلم . ﴿ وفِى ذلِك ﴾ أى وفى الذى وصفناه من أمر الجنة ﴿ فليتنافسِ المتنافِسون ﴾ أى فليرغب الراغبون؛ يقال : نَفَسْت عليه الشيء أنفسه نفاسة : أى ضننت به ، ولم أحبّ أن يصير إليه. وقيل : الفاء بمعنى إلى، أى و إلى ذلك فليتبادر المتبادرون فى العمل؛ نظيره : لِمِثلِ هذا فليعملِ العامِلون » . ﴿ ومِزاجُه ﴾ أى ومزاج ذلك الرحيق ﴿ مِن تسنِيم ﴾ وهو شراب ينصبّ عليهم من علو، وهو أشرف شراب فى الجنة . وأصل التسنيم فى اللغة : الآرتفاع، فهى عين ماء تجرى من علو إلى أسفل ؛ ومنه سنام البعير لعلوه من بدنه ، وكذلك تسنيم القبور . وروى عن عبد الله قال : تسنيم عين فى الجنة يشرب بها المقربون صِرْفا، و يمزح منها كأس أصحاب اليمين فتطيب. وقال آبن عباس فى قوله عز وجل : « ومِزاجه مِن تسنِيم » قال : هذا مما قال الله تعالى : « فلا تعلم نفس ما أُخْفِى لهم مِن قُرّةِ أعينٍ » .وقيل : التسنيم عين تجرى فى الهواء بقدرة الله تعالى، فتنصبّ فى أوانى أهل الجنة على قدر مائها، فإذا آمتلأت أمسك الماء، فلا تقع منه قطرة على الأرض، ولا يحتاجون إلى الآستقاء؛ قاله قتادة . آبن زيد : بلغنا أنها عين تجرى من تحت العرش . وكذا فى مراسيل الحسن . وقد ذكرناه فى سورة « الإنسان »(1) . ﴿ عينا يشرب بِها المقربون ﴾ أى يشرب منها أهل جنة عدن، وهم أفاضل أهل الجنة، صِرْفًا ، وهى لغيرهم مِزاج . و « عينا » نصب على المدح . وقال الزجاج : نصب على الحال من تسنيم، وتسنيم معرفة، ليس يعرف له آشتقاق، و إن جعلته مصدرا مشتقا من السنام فـ« عينا » نصب؛ لأنه مفعول به ؛ كقوله تعالى : « او إطعام فِى يومٍ ذِى مسغبةٍ . يتِيما » وهذا قول الفراء إنه منصوب بتسنيم . وعند الأخفش بـ « يُسْقَون » أى يسقون عينا أو من عين . وعند المبرد بإضمار أعنى على المدح .

(1) راجع ص ١٢٠ من هذا الجزء.

Marfat.com

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ أَجرموا ﴾ وصف أرواح الكفار في الدنيا مع المؤمنين باستهزائهم بهم ، والمراد رؤساء قريش من أهل الشرك . روى ناس عن ابن عباس قال : هو الوليد بن المغيرة ، وعُقْبة بن أبي مُعَيْط ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد يغوث ، والعاص ابن هشام ، وأبو جهل ، والنضر بن الحارث ، وأولئك ﴿ كانوا من الذين آمنوا ﴾ من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم مثل عمّار ، وخبّاب وصُهَيب وبلال ﴿ يضحكون ﴾ على وجه السخرية . ﴿ وإذا مروا بهم ﴾ عند إتيانهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ يتغامزون ﴾ : يغمز بعضهم بعضا ، ويشيرون بأعينهم . وقيل : أي يعيّرونهم بالإسلام ويعيبونهم به ؛ يقال : غمزت الشيء بيدي ؛ قال :

وكنت إذا غمزتُ قناةَ قومٍ * كَسَرتُ كُعوبَها أو تستقيما

وقالت عائشة : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سجد غمزني ، فقبضت رجلي . الحديث ؛ وقد مضى في « النساء »(١) . وغمزته بعيني . وقيل : الغمز : بمعنى العيب ، يقال غمزه : أي عابه ، وما في فلان غَمْزة أي عيب . وقال مقاتل : نزلت في علي بن أبي طالب جاء في نفر من المسلمين إلى النبي صلى الله عليه وسلم فلَمَزَهُمُ المنافقون ، وضحكوا عليهم وتغامزوا . ﴿ وإذا انقلبوا ﴾ أي انصرفوا إلى أهلهم وأصحابهم وذويهم ﴿ انقلبوا فَكِهين ﴾ أي مُعْجَبين منهم . وقيل : مُعْجَبون بما هم عليه من الكفر ، متفكهون بذكر المؤمنين . وقرأ ابن القعقاع وحفص والأعرج والسلمي : « فَكِهين » بغير ألف . الباقون بالف . قال الفراء : هما لغتان مثل

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٢٦ .

Marfat.com

طمع وطامـع وحذر، وحاذر وقد تقدم فى سورة «الدخان»(١) والحمد لله. وقيل: الفكه: الأشر البطر والفاكه: الناعم المتنعم. ﴿ وإذا رأوهم ﴾ أى إذا رأى هؤلاء الكفار أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ قالوا إن هؤلاءِ لضالّون ﴾ فى آتباعهم محمدا صلى الله عليه وسـلم ﴿ وما أُرسلوا عليهم حافظين ﴾ لأعمالهم، موكلين بأحوالهم، رقباء عليهم ﴾ ﴿ فاليومَ ﴾ يعنى هذا اليوم الذى هو يوم القيامة ﴿ الـذين آمنوا ﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ مِن الكفارِ يضحكون ﴾ كما ضحك الكفار منهم فى الدنيا. نظيره فى آخر سورة «المؤمنين»(٢) وقد تقدم. وذكر آبن المبارك: أخبرنا محمـد بن بشار عن قتادة فى قوله تعالى «فاليوم الذين آمنوا مِن الكفارِ يضحكون» قال: ذُكِر لنـا أن كعبا كان يقول إن بين الجنـة والنار كُوًى، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدوّ كان له فى الدنيا آطلع من بعض الكُوَى؛ قال الله تعـالى فى آية أخرى: «فاطلع فرآه فى سواءِ الجحيم» قال: ذُكِر لنـا أنه آطلع فرأى جماجم القوم تَغْلِي. وذكر آبن المبارك أيضا: أخبرنا الكلبيّ عن أبى صالح فى قوله تعالى «الله يستهزئ بهم» قال: يقال لأهل النار وهم فى النار: آخرجوا، فتفتح لهم أبواب النار، فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج، والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك، فإذا آنتهوا إلى أبوابها غُلِّقت دونهم؛ فذلك قوله؛ «الله يستهزئ بهم» ويضحك منهم المؤمنون حين غُلِّقتْ دونهم فذلك قوله تعالى: «فاليوم الذين آمنوا مِن الكفارِ يضحكون». ﴿ على الأرائِكِ ينظُرون. هل ثُوِّبَ الكفارُ ما كانوا يفعلون ﴾ وقد مضى هـذا فى أول سورة «البقرة»(٣). ومعنى «هل ثُوِّب» أى هل جُوزى بسخريتهم فى الدنيا بالمؤمنين إذا فُعِل بهم ذلك. وقيل: إنه متعلق بـ «ينظرون» أى ينظرون: هل جُوزى الكفار؟ فيكون معنى هل [التقرير] وموضعها نصبا بـ«ينظرون». وقيل: آستئناف لا موضع له من الإعراب. وقيل: هو إضمار على القول، والمعنى؛ يقول بعض المؤمنين لبعض «هـل ثُوِّب الكفار» أى أُثيب وجُوزى. وهو من ثاب يثوب أى رجع؛ فالثـواب ما يرجع على العبـد فى مقابلة عمـله، ويستعمل فى الخـير والشرّ.

ختمت السورة والله أعلم.

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ١٣٩ (٢) راجع جـ ١٢ ص ١٥٥. (٣) راجع جـ ١ ص ٢٠٨

Marfat.com

سورة الانشقاق

مكية في قول الجميع، وهي خمس وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ أي انصدعت، وتفطرت بالغمام، والغمام مثل السحاب الأبيض. وكذا روى أبو صالح عن ابن عباس. وروى عن علي عليه السلام قال : تُشق من المجرة. وقال : المَجَرَّة باب السماء. وهذا من أشراط الساعة وعلاماتها. ﴿ وأذنت لربها وحُقَّتْ ﴾ أي سمعت، وحق لها أن تسمع. رُوي معناه عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما؛ ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " ما أَذِن الله لشيء كأَذَنه لنبيّ يتغنى بالقرآن " أي ما استمع الله لشيء؛ قال الشاعر :

صُمٌّ إذا سمعوا خيرًا ذُكِرتُ به * وإن ذُكِرتُ بسوءٍ عندهم أَذِنُوا

أي سمعوا. وقال قعنب بن أم صاحب :

إنْ يأذَنُوا رِيبةً طاروا بها فرحا * وما هُمُ أَذِنوا من صالحٍ دفنوا

وقيل : المعنى وحقق الله عليها الاستماعَ لأمره بالانشقاق. وقال الضحاك : حُقَّتْ : أطاعت، وحُقّ لها أن تطيع ربها، لأنه خلقها؛ يقال : فلان محقوق بكذا. وطاعة السماء : بمعنى أنها لا تمتنع مما أراد الله بها، ولا يبعد خلق الحياة فيها حتى تطيع وتجيب. وقال قتادة : حق لها أن تفعل ذلك؛ ومنه قول كثير :

فإنْ تكنِ العُتْبَى فأهلًا ومَرْحَبًا * وحُقَّتْ لها العُتْبَى لدينا وقَلَّتِ

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وإذا الأرضُ مُدَّتْ ﴾ أى بُسِطت ودُكَّت جِبالها . قال النبي صلى الله عليه وسلم : " تُمَدّ مَدَّ الأديم " لأن الأديم إذا مدّ زال كل آنثناء فيه وآمتدّ وآستوى . قال آبن عباس وآبن مسعود : ويزاد، وسعتها كذا وكذا ؛ لوقوف الخلائق عليها للحساب حتى لا يكون لأحد من البشر إلا موضع قدمه ، لكثرة الخلائق فيها . وقد مضى فى سـورة «إبراهيم»(١) أن الأرض تبدل بأرض أخرى وهى الساهرة فى قول آبن عباس على ما تقدم عنه(٢). ﴿ وألقت ما فِيها وتخلت ﴾ أى أخرجت أمواتها ، وتخلت عنهم . وقال آبن جُبَير: ألقت ما فى بطنها من الموتى ، وتخلت ممن على ظهرها من الأحياء . وقيـل : ألقت ما فى بطنها من كنوزها ومعادنها ، وتخلت منها . أى خلا جوفها ، فليس فى بطنها شىء ، وذلك يؤذن بعظم الأمر ، كما تلقى الحامل ما فى بطنها عند الشدة . وقيل : تَخَلَّت مما على ظهرها من جبالها وبحارها . وقيـل : أَلقَتْ ما آستُودِعتْ ، وتخلت مما آستحفِظت ؛ لأن الله تعـالى آستودعها عباده أحياء وأمواتا ، وآستحفظها بلاده مزارعة وأقواتا . ﴿ وأَذِنت لِربهـا ﴾ أى فى إلقاء موتاها ﴿ وحُقَّتْ ﴾ أى وحق لها أن تسمع أمره . وآختلف فى جواب «إذا» فقال الفراء: «أَذِنت» والواو زائدة ، وكذلك « وأَلقَتْ » . آبن الأنبارى : قال بعض المفسرين : جواب « إذا السماء آنشقت » « أَذِنت » ، وزعم أن الواو مقحمة وهذا غلط ؛ لأن العرب لاتقحم الواو إلا مع « حتى — إذا» كقوله تعالى : « حتى إذا جاءوها وفُتِحت أَبوابها» ومع «لمـا» كقوله تعالى : « فلما أَسْلَمَا وتَلَّه لِلجبِينِ . وناديناه » معناه «ناديناهُ» والواو لاتقحم مع غير هذين . وقيل : الجواب فاء مضمرة كأنه قال : « إذا السماء آنشقت » فيأيها الإنسان إنك كادح . وقيل : جوابها مادل عليه «فمُلاقِيه» أى إذا السماء آنشقت لاقى الإنسان كدحه . وقيل : فيه تقديم وتأخير، أى « ياأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقِيه» « إذا السماء آنشقت» . قاله المبرد . وعنه أيضا : الجواب « فأما من أوتِى كِتابه بِيمِينِه » وهو قول الكسائى ؛ أى إذا السماء آنشقت فمن أوتى كتابه بيمينه فحكمه كذا . قال أبو جعفر النحاس : وهـذا أصح

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٨٣ . (٢) راجع ص ١٩٦ من هذا الجزء .

Marfat.com

ما قيل فيه وأحسنه . قيل : هو بمعنى آذكر « إذا السماء آنشقت » . وقيل : الجواب محذوف لعلم المخاطبين به ؛ أى إذا كانت هذه الأشياء علم المكذّبون بالبعث ضلالتهم وخسرانهم . وقيل : تقدّم منهم سؤال عن وقت القيامة ، فقيل لهم : إذا ظهرت أشراطها كانت القيامة، فرأيتم عاقبة تكذيبكم بها . والقرآن كالآية الواحدة فى دلالة البعض على البعض. وعن الحسن : إن قوله « إذا السماء آنشقت » قسم . والجمهور على خلاف قوله من أنه خبر وليس بقسم .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا ﴾ المراد بالإنسان الجنس أى يآبن آدم. وكذا روى سعيد عن قتادة : يابن آدم، إن كَدْحَك لضعيف، فمن آستطاع أن يكون كدحه فى طاعة الله فليفعل ولا قوة إلا بالله . وقيل : هو معيَّن ؛ قال مقاتل : يعنى الأسود بن عبد الأسد . ويقال : يعنى أُبَىَّ بن خَلَف . ويقال : يعنى جميع الكفار ؛ أيها الكافر إنك كادح . والكدح فى كلام العرب : العمل والكسب ؛ قال آبن مقبل :

وما الدهرُ إلا تارتان فمنهما * أموت وأُخرى أبتغِى العيش أكدح

قال آخر :

ومَضَتْ بشاشةُ كل عيش صالِح * وبَقِيتُ أكدح للحياةِ وأنصب

أى أعمل . وروى الضحاك عن آبن عباس : « إنك كادح » أى راجع « إلى ربك كدحا » أى رجوعا لامحالة « فملاقِيه » أى مُلاقٍ ربك . وقيل : مُلاقٍ عملك . القتبي « إنك كادح » أى عامل ناصب فى معيشتك إلى لقاء ربك . والملاقاة بمعنى اللقاء أى تلقى ربك بعملك. وقيل أى تلاقى كتاب عملك؛ لأن العمل قد آنقضى ولهذا قال : « فأما مَنْ أُوتِىَ كتابه بيمينه » .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا من أوتِى كِتابه بِيمِينِهِ ﴾ وهو المؤمن ﴿ فسوف يحاسب حِسابا يسيرا ﴾ لا مناقشة فيه . كذا روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من حوسب يوم القيامة عُذِّب" قالت : فقلت يا رسول الله أليس قد قال الله « فأما من أُوتِى كِتابه بِيمِينِهِ فسوف يُحاسب حِسابا يَسِيرا » فقال : "ليس ذاكِ الحساب ، إنما ذلكِ العَرْضُ ، مَنْ نُوقِش الحساب يوم القيامة عذب" أخرجه البخارى ومسلم والترمذى . وقال حديث حسن صحيح . ﴿ وينقلب إلى أهلِهِ مسرورا ﴾ أزواجه فى الجنة من الحور العين « مسرورا » أى مغتبطا قرير العين . ويقال إنها نزلت فى أبى سلمة ابن عبد الأسد ، هو أول من هاجر من مكة إلى المدينة . وقيل : إلى أهله الذين كانوا له فى الدنيا ، ليخبرهم بخلاصه وسلامته . والأول قول قتادة . أى إلى أهله الذين قد أعدهم الله له فى الجنة .

قوله تعالى : وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وأما من أُوتِى كِتابه وراء ظهرِهِ ﴾ نزلت فى الأسود بن عبد الأسد أخى أبى سلمة ؛ قاله ابن عباس . ثم هى عامة فى كل مؤمن وكافر . قال ابن عباس : يمد يده اليمنى ليأخذ كتابه فيجذبه مَلَك ، فيخلع يمينه ، فيأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره . وقال قتادة ومقاتل : يفك ألواح صدره وعظامه ثم تدخل يده وتخرج من ظهره ، فيأخذ كتابه كذلك . ﴿ فسوفَ يدعُو ثُبورا ﴾ أى بالهلاك فيقول : ياويلاه ، ياثبوراه . ﴿ ويَصْلَى سعيرا ﴾ أى ويدخل النار حتى يصلى بحرّها . وقرأ الحِرْميان وابن عامر والكسائى « ويُصَلَّى » بضم الياء وفتح الصاد ، وتشديد اللام ؛ كقوله تعالى : « ثم الجحيم صَلُّوه » وقوله : « وتَصْلِيَةُ جحِيم » . الباقون « ويَصْلَى » بفتح الياء مخففا ، فعل لازم غير متعد ؛ لقوله : « إلا من هو صالِ الجحِيم » وقوله : « يصلى النار الكبرى » وقوله : « ثم إنهم لصالو الجحيم » . وقراءة ثالثة رواها أبان

Marfat.com

عن عاصم وخارجة عن نافع وإسمعيل المكى عن ابن كثير « ويُصْلَى » بضم الياء وإسكان الصاد وفتح اللام مخففا ؛ كما قرئ « وسَيُصْلَون » بضم الياء، وكذلك فى « الغاشية » قد قرئ أيضا : « تُصْلَى نارا » وهما لغتان صلى وأصلى ؛ كقوله : « نزل . وأنزل » . ﴿ إنه كان فى أهلِهِ ﴾ أى فى الدنيا ﴿ مسرورا ﴾ قال ابن زيد : وصف الله أهل الجنة بالمخافة والحزن والبكاء والشفقة فى الدنيا ، فأعقبهم به النعيم والسرور فى الآخرة ، وقرأ قول الله تعالى : « إنا كنا قبلُ فِى أهلِنا مشفِقِين فمن الله علينا ووقانا عذاب السمومِ » . قال : ووصف أهل النار بالسرور فى الدنيا والضحك فيها والتفكه . فقال : « إنه كان فِى اهلِهِ مسرورا » . ﴿ إنه ظن أن لن يحور ﴾ أى لن يرجع حيا مبعوثا فيحاسب ، ثم يثاب أو يعاقب . يقال : حار يحور إذا رجع ؛ قال لبيد :

وما المرء إلا كالشهاب وضوئِهِ * يحورُ رمادا بعد إذا هو ساطِعُ

وقال عكرمة وداود بن أبى هند ، يحور كلمة بالحبشية ، ومعناها يرجع . ويجوز أن تتفق الكلمتان فإنهما كلمة اشتقاق ؛ ومنه الخبز الحُوارَى ؛ لأنه يرجع إلى البياض . وقال ابن عباس : ما كنت أدرى : ما يحور ؟ حتى سمعت أعرابية تدعو بنية لها : حُورى ، أى ارجعى إلىّ . فالحَوْر فى كلام العرب الرجوع ؛ ومنه قوله عليه السلام : "اللهم إنى أعوذ بك من الحَوْر بعد الكَوْر" يعنى : من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة ، وكذلك الحُور بالضم . وفى المثل «حُورٌ فى محارة» (١) أى نقصان فى نقصان . يضرب للرجل إذا كان أمره يُدْبِر ؛ قال الشاعر (٢) :

واستعجلوا عن خفيف المضغ فازدردُوا * والذم يبقَى وزاد القومِ فى حُورِ

والحُوْر أيضا : الاسم من قولك : طحنَت الطاحنة فما أحارت شيئا ؛ أى ما ردت شيئا من الدقيق . والحُور أيضا : الهلكة ؛ قال الراجز (٣) :

* فى بئرِ لا حُورٍ سَرَى ولا شَعَر *

(١) أى حور فى حور ، فمحاورة : مصدر ميمى بمعنى الحور .
(٢) قائله سبيع بن الخطيم ؛ يريد الأكل يذهب والذم يبقى .
(٣) هو العجاج .

Marfat.com

قال أبو عبيدة : أى بِئْر حُورٍ ، و « لا » زائدة . وروى "بعـد الكون"[1] ومعناه من آنتشار الأمر بعد تمـامه . وسئِل معمر عن الحَوْر بعد الكون ، فقال : هو الكُنْتِي . فقال له عبد الرزاق : وما الكُنْتِيّ ؟ فقـال : الرجل يكون صالحا ثم يتحـول رجل سَـوْء . قال أبو عمرو : يقال للرجل إذا شاخ: كُنتِيّ، كأنه نسب إلى قوله : كنت فى شبابى كذا. قال:

فأصبحت كُنتِيا وأصبحت عاجِنا * وشر خصـالِ المرءِ كُنْتُ وعاجِنُ

عجن الرجل: إذا نهض معتمدا على الأرض من الكبر.وقال آبن الأعرابى: الكُنتِيّ: هو الذى يقول: كنت شابا، وكنت شجاعا،والكانِيّ هو الذى يقول: كان لى مال وكنت أهب،وكان لى خيل وكنت أركب .

قوله تعـالى : ﴿ بَلَى ﴾ أى ليس الأمر كما ظنّ، بلى يحور إلينا ويرجع. ﴿ إِن ربه كان بِهِ بصيرا ﴾ قبل أن يخلقه، عالمـا بأن مرجعه إليه . وقيل : بَلَى لَيَحُورَنّ وليرجعَنّ. ثم آستأنف فقال : « إن ربه كان بِهِ بصيرا » من يوم خلقه إلى أن بعثه . وقيل : عالمـا بمـا سبق له من الشقاء والسعادة .

قوله تعـالى : فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعـالى : ﴿ فلا أُقسم ﴾ أى فأقسم و « لا » صـلة . ﴿ بِالشَّفَق ﴾ أى بالحمرة التى تكون عند مغيب الشمس حتى تأتى صلاة العشاء الآخرة . قال أشهب وعبد الله بن الحكم ويحيى بن يحيى وغيرهم ، كثير عددهم، عن مالك : الشّفَق الحمرة التى فى المغرب، فإذا ذهبت الحمرة فقد خرجتُ من وقت المغرب ووجبتْ صلاة العشاء.وروى آبن وهب قال : أخبرنى غير واحد عن علىّ بن أبى طـالب ومُعاذ بن جبل وعُبـادة بن الصامت وشـدّاد بن أوس

(١) الكون هنا : مصدر كان التامة يقال : كان يكون كونا : أى وجد وآستقر . (النهاية) .

Marfat.com

وأبى هريرة : أن الشفَق الحمرة ، وبه قال مالك بن أنس . وذكر غير ابن وهب من الصحابة : عمر وابن عمر وابن مسعود وابن عباس وأنسًا وأبا قتادة وجابر بن عبد الله وابن الزبير ، ومن التابعين : سعيد بن جبير، وابن المسيب وطاوس ، وعبد الله بن دينار، والزهرى ، وقال به من الفقهاء الأوزاعى ومالك والشافعى وأبو يوسف وأبو ثور وأبو عبيد وأحمد و إسحاق . وقيل : هو البياض؛ رُوى ذلك عن ابن عباس وأبى هريرة أيضا وعمر بن عبد العزيز والأوزاعى وأبى حنيفة فى إحدى الروايتين عنه . وروى أسد بن عمرو أنه رجع عنه . ورُوِى عن ابن عمر أيضا أنه البياض والاختيار الأول ؛ لأن أكثر الصحابة والتابعين والفقهاء عليه ؛ ولأن شواهد كلام العرب والاشتقاق والسنة تشهد له . قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول لثوب عليه مصبوغ : كأنه الشفق وكان أحمر، فهذا شاهد للحمرة ؛ وقال الشاعر :

* وأحمر اللون كمحمر الشفق *

وقال آخر :

قـم يا غلام أعِنى غير مرتبك * على الزمانِ بِكأسٍ حَشْوُها شَفَقُ

ويقال للمَغْرة الشفق . وفى الصحاح : الشفق بقيـة ضوء الشمس وحمرتها فى أول الليل إلى قريب من العَتَمة . قال الخليل : الشفق : الحمرة ، من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة، إذا ذهب قيل : غاب الشفق . ثم قيل : أصـل الكلمة من رقة الشىء ؛ يقال : شىء شَفِق أى لا تماسك له لرقته . وأشفق عليه : أى رق قلبه عليه ، والشفقة : الاسم من الإشفاق ، وهو رِقة القلب ، وكذلك الشَّفَق ؛ قال الشاعر (١) :

تهـوَى حَياتِى وأهوى موتها شَفَقًا * والمـوتُ أكرم نَزّالٍ على الحُـرَمِ

فالشفَق : بقية ضوء الشمس وحمرتها فكأن تلك الرقة عن ضوء الشمس . وزعم الحكماء أن البياض لا يغيب أصلا . وقال الخليل : صعدت منارة الإسكندرية فرمقت البياض، فرأيته يتردد من أفق إلى أفق ولم أره يغيب . وقال ابن أبى أويس : رأيته يتمادى إلى طلوع الفجر

(١) هو لإسحاق بن خلف . وقيل هو لابن المعلى . اللسان .

قال علماؤنا : فلما لم يتحدد وقته سقط آعتباره . وفى سُنَن أبى داود عن النعمان بن بَشِير قال : أنا أعلمكم بوقت صلاة العشاء الآخرة ؛ كان النبى صلى الله عليه وسلم يصليها لسقوط القمر لثالثة . وهذا تحديد ، ثم الحكم معلق بأول الاسم . لا يقال : فينقض عليكم بالفجر الأول ، فإنا نقول الفجر الأول لا يتعلق به حكم من صلاة ولا إمساك ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم بين الفجر بقوله وفعله فقال : " وليس الفجر أن تقول هكذا — فرفع يده إلى فوق — ولكن الفجر أن تقول هكذا وبسطها "وقد مضى بيانه فى آية الصيام من سورة « البقرة »(١) ، فلا معنى للإعادة . وقال مجاهد : الشفق : النهار كله ألا تراه قال « والليلِ وما وَسَق » . وقال عِكرمة : ما بقى من النهار . والشفق أيضا : الردىء من الأشياء ؛ يقال : عطاء مُشفَّق أى مقلل قال الكُمَيت :

مَلِكٌ أغرّ مِن الملوك تحلّبت * للسائلين يداه غيرَ مُشفَّقِ

قوله تعالى : ﴿ والليلِ وما وَسَق ﴾ أى جمع وضم ولف ، وأصله من سَوْرة السلطان وغضبه ؛ فلولا أنه خرج إلى العباد من باب الرحمة ما تمالك العباد لمجيئه ، ولكن خرج من باب الرحمة فمزج بها ، فسكن الخلق إليه ثم آبذَعَرُّوا وآلتفُّوا وآنقبضوا ، ورجع كل إلى مأواه فسكن فيه من هَوْلِه وحشا ، وهو قوله تعالى : « ومن رحمتِه جعل لكم الليل والنهار لِتسكنوا فيه » أى بالليل « ولِتبتغوا مِن فضلِه » أى بالنهار على ما تقدم . فالليل يجمع ويضم ما كان منتشرا بالنهار فى تَصَرّفه . هذا معنى قول آبن عباس ومجاهد ومقاتل وغيرهم ؛ قال ضابئ آبن الحارث البرجُمِىّ :

فإنى وإياكُم وشوقا إليكُم * كقابِض ماءٍ لم تَسِقْه أناملُه

يقول : ليس فى يدِه من ذلك شىء كما أنه ليس فى يد القابض على الماء شىء ؛ فإذا جلل الليل الجبال والأشجار والبحار والأرض فاجتمعت له ، فقد وَسَقَها . والوَسْق : ضمك الشىء

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٣١٨ فما بعدها .

Marfat.com

بعضه إلى بعض، تقول : وَسَقْتُه أَسِقُه وَسْقًا . ومنه قيل للطعام الكثير المجتمع : وَسْق، وهو ستون صاعا . وطعام مُوسَّق : أي مجموع ، وإبل مُسْتَوْسِقة أي مجتمعة ؛ قال الراجز[1] :

إنَّ لنَا قَلائِصا حقائِقا * مُسْتَوْسِقاتٍ لو يَجِدْنَ سائِقا

وقال عِكرمة : « وما وَسَق » أي وما ساق من شيء إلى حيث يأوِي ؛ فالوَسْق بمعنى الطَّرْد، ومنه قيل للطريدة من الإبل والغنم والحمر : وسِيقة، قال الشاعر[2] :

* كما قافَ آثارَ الوسِيقةِ قائفُ *

وعن ابن عباس : « وما وَسَق » أي وما جنّ وستر . وعنه أيضا : وما حَمَل، وكل شيء حملته فقد وَسَقْتَه ، والعرب تقول : لا أفعله ما وَسَقَتْ عيني الماء، أي حملته . ووسقت الناقةُ تَسِق وَسْقًا : أي حملت وأغلقت رحمها على الماء، فهي ناقة واسق، ونوق وِسَاق مثل نائم ونيام، وصاحِب وصِحاب، قال بشر بن أبي خازم :

أَلَظَّ بِهِن يحدوهُنّ حتى * تبينتِ الحِيالُ مِن الوِساقِ

ومَواسيق أيضا . وأوسقت البعير : حَمَّلته حمله ، وأوسَقَتِ النخلة : كثر حملها . وقال يمان والضحاك ومقاتل بن سليمان : حمل من الظلمة . قال مقاتل : أو حمل من الكواكب . القشيري : ومعنى حَمَل : ضم وجمع ، والليل يجلل بظلمته كل شيء فإذا جللها فقد وسقها . ويكون هذا القَسَم قسما بجميع المخلوقات ، لاشتمال الليل عليها ، كقوله تعالى : « فلا أقسم بما تُبْصِرون وما لا تبصرون » . وقال ابن جُبير : « وما وَسَق » أي وما عمل فيه ، يعني التهجد والاستغفار بالأسحار ، قال الشاعر :

ويومًا ترانا صالحين وتارةً * تقومُ بِنا كالواسِقِ المتلَبِّبِ

أي كالعامل .

---

(١) هو العجاج كما في اللسان مادة « وسق » .

(٢) قائلة الأسود بن يعفر ، وصدره : * كذبت عليك لا تزال تقوفني

قوله تعالى : ﴿ والقمرِ إذا اتَّسق ﴾ أى تم وأجتمع وآستوى . قال الحسن : آتسق: أى آمتلأ واجتمع . ابن عباس : استوى . قتادة : استدار . الفراء : اتساقه : امتلاؤه واستواؤه ليالىَ البدر، وهو افتعال من الوَسْق الذى هو الجمع، يقال : وسقته فاتسق، كما يقال: وصلته فاتصل ، ويقال : أمر فلان مُتَّسِق : أى مجتمع على الصلاح منتظم . ويقال : اتسق الشيء: إذا تتابع : ﴿ لتركَبُنَّ طَبَقًا عن طَبَقٍ ﴾ قرأ أبو عمرو وابن مسعود وابن عباس وأبو العالية ومسروق وأبو وائل ومجاهد والنخعي والشعبي وابن كثير وحمزة الكسائى « لَتَركَبَنَّ » بفتح الباء خطابا للنبي صلى الله عليه وسلم ، أى لتركَبَنَّ يا محمد حالا بعد حال ، قاله ابن عباس . الشعبي : لتركَبَنَّ يا محمد سماء بعد سماء، ودرجة بعد درجة، ورُتبة بعد رتبة، فى القربة من الله تعالى . آبن مسعود : لتركَبن السماء حالا بعد حال، يعنى حالاتها التى وصفها الله تعالى بها من الانشقاق والطيّ وكونها مرة كالمُهل ومرة كالدِّهان . وعن إبراهيم عن عبد الأعلى : «طبقا عن طبقٍ» قال : السماء تَقَلَّبُ حالا بعد حال . قال : تكون وردة كالدهان، وتكون كالمهل ؛ وقيل : أى لتركَبن أيها الإنسان حالا بعد حال، من كونك نطفة ثم علقه ثم مضغة ثم حيا وميتا وغنيا وفقيرا . فالخطاب للإنسان المذكور فى قوله : « يأيُّها الإنسان إنك كادح» هو آسم للجنس، ومعناه الناس . وقرأ الباقون « لتركَبُنّ » بضم الباء، خطابا للناس، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم، قال : لأن المعنى بالناس أشبه منه بالنبي صلى الله عليه وسلم، لما ذكر قبل هذه الآية فمن أوتى كتابه بيمينه ومن أوتى كتابه بشماله . أى لتركبن حالا بعد حال من شدائد القيامة ، أو لتركَبُن سُنّة من كان قبلكم فى التكذيب وآختلاق على الأنبياء .

قلت : وكله مراد، وقد جاءت بذلك أحاديث(1) ، فروى أبو نعيم الحافظ عن جعفر بن محمد بن على عن جابر رضى الله عنه ، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن آبن آدم لفى غفلة عما خلقه الله عز وجل ؛ إن الله لا إله غيره إذا أراد خَلْقه قال للملك آكتب رزقه وأثره وأجله ، وآكتب شقيا أو سعيدا ؛ ثم يرتفع ذلك الملك ، ويبعث الله ملكا

(1) راجع جـ ١٧ ص ١٤ .

آخر فيحفظه حتى يدرك، ثم يبعث الله ملكين يكتبان حسناته وسيئاته، فإذا جاءه الموت ارتفع ذانك الملكان، ثم جاءه ملك الموت عليه السلام فيقبض روحه، فإذا أدخل حفرته رُدّ الروح في جسده، ثم يرتفع ملك الموت، ثم جاءه ملكا القبر فامتحناه، ثم يرتفعان، فإذا قامت الساعة انحط عليه ملك الحسنات وملك السيئات، فأنشطا كتابا معقودا في عنقه، ثم حضرا معه، واحد سائق والآخر شهيد" ثم قال الله عز وجل «لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك، فبصرك اليوم حديد» قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لتركَبُنّ طبقا عن طبق» قال: "حالا بعد حال" ثم قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "إن قُدّامَكُم أمرا عظيما فاستعينوا بالله العظيم" فقد اشتمل هذا الحديث على أحوال تعترى الإنسان، من حين يُخلق إلى حين يُبعث، وكله شدة بعد شدة، حياة ثم موت، ثم بعث ثم جزاء، وفي كل حال من هذه شدائد. وقال صلى الله عليه وسلم: "لتركَبُن[(1)] سَنَن من قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جُحر ضَبّ لدخلتموه" قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: "فَمَن"؟ خرجه البخاري. وأما أقوال المفسرين، فقال عكرمة: حالا بعد حال، فطيما بعد رضيع، وشيخا بعد شباب، قال الشاعر:

كذلك المرءُ إن يُنْسَأْ له أَجلٌ * يَرْكَبْ على طَبَقٍ من بعدِه طَبَقُ

وعن مكحول: كلَّ عشرين عاما تجدون أمرا لم تكونوا عليه: وقال الحسن: أمرا بعد أمر، رخاء بعد شدة، وشدة بعد رخاء، وغنًى بعد فقر، وفقرا بعد غنًى، وصحة بعد سُقم، وسقما بعد صحة: سعيد بن جبير: منزلة بعد منزلة، قوم كانوا في الدنيا متضعين فارتفعوا في الآخرة، وقوم كانوا في الدنيا مرتفعين فاتضعوا في الآخرة: وقيل: منزلة عن منزلة، وطبقًا عن طبق[(2)]، وذلك أن من كان على صلاح دعاه إلى صلاح فوقه، ومن كان على فساد دعاه إلى فساد فوقه، لأن كل شيء يجرى إلى شكله: ابن زيد: ولتصيرُن من طَبَق الدنيا إلى طَبَق الآخرة: وقال ابن عباس: الشدائد والأهوال: الموت. ثم البعث، ثم العَرْض،

(١) رواية البخاري "لتتبعن" بدل "لتركبن".   (٢) في أ، ح، ط، ل: طبقة.

Marfat.com

والعرب تقول لمن وقع فى أمر شـديد : وقع فى بناتِ طَبَق، وإحدى بنات طَبَق، ومنه قيل للداهية الشديدة : أم طَبَق ، وإحدى بناتِ طَبَق : وأصـلها من الحيّات ، إذ يُقال للحية أم طَبَق لتحوّيها: والطبق فى اللغة : الحال كما وصفنا، قال الأقرع بن حابس التميمى:

إنى امرؤ قد حَلَبْتُ الدهرَ أَشْطُرَهُ * وساقـنى طَبَقٌ منــه إلى طَبَـقِ

وهذا أدل دليل على حدوث العالم، و إثبات الصانع، قالت الحكماء: من كان اليوم على حالة، وغدا على حالة أخرى فليعلم أن تدبيره إلى سواه. وقيل لأبى بكر الورّاق: ما الدليل على أن لهذا العـالم صانعا ؟ فقال : تحـويل الحالات ، وعجز القوة ، وضعف الأركان ، وقهر النية : ونسخ العزيمة: ويقال: أتانا طَبَقٌ من الناس وطبق من الجراد: أى جماعة : وقول العباس فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم :

تَنَقَّـلُ مِن صالبٍ إلى رَحِمٍ * إذا مضَى عالَمٌ بدا طَبَـقُ

أى قرن من الناس. يكون طباقَ الأرض أى ملأها. والطَّبَق أيضا: عظم رقيق يفصل بين الفَقارين. ويقال: مضى طبق من الليل، وطَبَق من النهار: أى معظم منه. والطبق: واحد الأطباق، فهو مشترك . وقرئ « لتركبِن » بكسر الباء، على خطاب النفس و « ليَرْكَبَن » بالياء على ليركبن الإنسان. و « عن طبقٍ » فى محل نصب على أنه صفة لـ«طبقا » أى طبقا مجاوزا لطبق. أو حال من الضمير فى «لتركبن» أى لتركبن طبقا مجاوِزين لطبق، أومجاوِزا أو مجاوزة على حسب القراءة .

قوله تعالى : ﴿ فما لهم لايؤمنون ﴾ يعنى أى شىء يمنعهم من الإيمان بعـد ما وضحت لهم الآيات وقامت الدلالات . وهـذا استفهام إنكار . وقيل : تعجب أى اعجبوا منهـم فى ترك الإيمان مع هذه الآيات .

قوله تعـالى : ﴿ وإذا قُرِئَ عليهم القرآن لايسجدون ﴾ أى لايُصَلُّون . وفى الصحيح : إن أبا هريرة قرأ « إذا السماء انشقت» فسجد فيها، فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سجد فيها . وقد قال مالك : إنها ليست من عزائم السجود ؛ لأن [المعنى](١)

(١) [المعنى] : ساقطة من ا ، ح ، و.

Marfat.com

لا يُذعنون ولا يطيعون فى العمل بواجباته . ٱبن العربى : والصحيح أنها منه ، وهى رواية المَدَنيين عنه ، وقد ٱعتضد فيها القرآن والسنة . قال ٱبن العربى : لما أَمَمْتُ بالناس تركت قراءتها ؛ لأنى إن سجدت أنكروه ، وإن تركتها كان تقصيرا منى ، فٱجتنبتها إلا إذا صليت وحدى . وهذا تحقيق وعدِ الصادق بأن يكون المعروف منكرا ، والمنكر معروفا ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم لعائشة : " لولا حِدْثان قومك بالكفر لهدمتُ البيت ، ولرددته على قواعد إبراهيم " . ولقد كان شيخنا أبو بكر الفِهْرِىّ يرفع يديه عند الركوع ، وعند الرفع منه ، وهو مذهب مالك والشافعى ويفعله الشِّيعة ، فحضر عندى يوما فى مَحْرَس ٱبن الشَّوَّاء بالثغر — موضع تدريسى — عند صلاة الظهر ، ودخل المسجد من المَحْرس المذكور ، فتقدم إلى الصف وأنا فى مؤخره قاعدا على طاقات البحر ، أتنسم الريح من شدة الحر ، ومعى فى صف واحد أبو ثمنة رئيس البحر وقائده ، مع نفر من أصحابه ينتظر الصلاة ، ويتطلع على مراكب تحت الميناء ، فلما رفع الشيخ يديه فى الركوع وفى رفع الرأس منه قال أبو ثمنة وأصحابه : ألا ترون إلى هذا المشرقىّ كيف دخل مسجدنا ؟ فقوموا إليه فاقتلوه وٱرموا به إلى البحر ، فلا يراكم أحد . فطار قلبى من بين جوانحى وقلت : سبحان الله هذا الطُّرْطُوشىّ فقيه الوقت . فقالوا لى : ولِمَ يرفع يديه ؟ فقلت : كذلك كان النبى صلى الله عليه وسلم يفعل ، وهذا مذهب مالك ، فى رواية أهل المدينة عنه . وجعلت أسكنهم وأسكتهم حتى فرغ من صلاته ، وقمت معه إلى المسكن من المحرس ، ورأى تغير وجهى ، فأنكره ، وسألنى فأعلمته ، فضحك وقال : ومن أين لى أن أُقتل على سنة ؟ فقلت له : ولا يحل لك هذا ، فإنك بين قوم إن قمت بها قاموا عليك وربما ذهب دمك . فقال : دع هذا الكلام ، وخذ فى غيره .

قوله تعالى : ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ بلِ الذين كَفَرُوا يُكَذِّبون ﴾ محمدا صلى الله عليه وسلم وما جاء به . وقال مقاتل : نزلتْ في بني عمرو بن عُمَير وكانوا أربعة ، فأسلم آثنان منهم . وقيل : هي في جميع الكفار . ﴿ والله أعلم بِما يُوعُون ﴾ أي بما يضمرونه في أنفسهم من التكذيب . كذا رَوى الضحاك عن آبن عباس . وقال مجاهد : يكتُمُون من أفعالهم . آبن زيد : يجمعون من الأعمال الصالحة والسيئة ؛ مأخوذ من الوِعاء الذي يَجْمع ما فيه ؛ يقال : أوعيت الزاد والمتاع : إذا جعلته في الوِعاء ؛ قال الشاعر :

الخير أبقى وإن طال الزمانُ بِهِ * والشرُّ أخبث ما أوعيت مِن زادِ (١)

ووعاه أي حفظه ؛ تقول : وَعَيْتُ الحديث أَعِيه وَعْيًا ، وأُذُنٌ واعية . وقد تقدم . ﴿ فبشرهم بِعذابٍ أليم ﴾ أي مُوجع في جهنم على تكذيبهم . أي آجعل ذلك بمنزلة البشارة . ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالِحاتِ ﴾ آستثناء منقطع ، كأنه قال : لكن الذين صَدَّقوا بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وعملوا الصالحات ، أي أدّوا الفرائض المفروضة عليهم ﴿ لهم أَجْر ﴾ أي ثواب ﴿ غير ممنونٍ ﴾ أي غير منقوص ولا مقطوع ؛ يقال : مَنَنْتُ الحبل : إذا قطعته . وقد تقدم (٢) . وسأل نافع بن الأزرق آبن عباس عن قوله « لهم اجر غير ممنونٍ » فقال : غير مقطوع . فقال : هل تعرف ذلك العرب ؟ قال : نعم قد عرفه أخو يَشْكُرَ حيث يقول : (٣)

فترى خَلْفَهُنَّ مِن سُرْعةِ الرَّجْـ * ـع مَنِينًا كأنَّهُ أَهْبَاءُ

قال المبرد : المنين : الغبار ؛ لأنها تقطعه وراءها . وكل ضعيف منين وممنون . وقيل : « غير ممنونٍ » لا يُمَنّ عليهم به . وذكر ناس من أهل العلم أن قوله « إلا الذين آمنوا وعمِلوا الصالِحاتِ » ليس آستثناء ، وإنما هو بمعنى الواو ، كأنه قال : والذين آمنوا . وقد مضى في « البقرة » (٤) القول فيه والحمد لله . تمت سورة الإنشقاق .

---

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٦٣ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٤١ .

(٣) تقدم هذا البيت بلفظ : فترى حتهن من الرجع وال * ـع منينا ... الخ .

(٤) راجع جـ ٢ ص ١٦٩ .

Marfat.com

سورة البروج

مكية باتفاق . وهى ثنتان وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ ﴾

قسم أقسم الله به جل وعز . وفى «البروج» أقوال أربعة : أحدها — ذات النجوم ؛ قاله الحسن وقتادة ومجاهد والضحاك . الثانى — القُصُور ؛ قاله ٱبن عباس وعكرمة ومجاهد أيضا . قال عِكرمة : هى قُصور فى السماء . مجاهد : البُرُوج فيها الحرس . الثالث — ذات الخَلْق الحسن ؛ قاله المِنهال بن عمرو . الرابع — ذات المنازل ؛ قاله أبو عبيدة ويحيى آبن سلام . وهى آثنا عشر بُرْجا ، وهى منازل الكواكب والشمس والقمر . يسير القمر فى كل برج منها يومين وثلث يوم ؛ فذلك ثمانية وعشرون يوما ، ثم يستسِرّ[1] ليلتين ؛ وتسير الشمس فى كل برج منها شهرا . وهى : الحَمَل ، والثَّور ، والجَوزاء ، والسَّرطان ، والأسد ، والسُّنبلة ، والمِيزان ، والعَقْرب ، والقَوْس والجَدْى ، والدلو ، والحُوت . والبروج فى كلام العرب : القصور ؛ قال الله تعالى : « ولو كنتم فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ »[2] . وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ ﴾

قوله تعالى : ﴿ اليومِ الموعودِ ﴾ أى الموعود به . وهو قَسَم آخر ، وهو يوم القيامة ؛ من غير آختلاف بين أهل التأويل . قال آبن عباس : وُعِد أهلُ السماء وأهل الأرض أن يجتمعوا فيه . ﴿ وشاهِدٍ ومشهودٍ ﴾ آختلف فيهما ؛ فقال علىّ وآبن عباس وآبن عمر وأبو هريرة رضى الله عنهم : الشاهد يوم الجمعة ، والمشهودُ يوم عرفة . وهو قول الحسن .

(١) سرر الشهر (بفتحتين) : آخر ليلة منه ؛ وهو مشتق من قولهم : آستسر القمر ؛ أى خفى ليلة السرار ؛ فربما كان ليلة وربما كان ليلتين .

(٢) راجع جـ ٥ ص ٨٢

Marfat.com

ورواه أبوهُريرة مرفوعا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اليوم الموعود يوم القيامة واليوم المشهود يوم عرفة والشاهد يوم الجمعة ..." خرّجه أبو عيسى الترمذيّ في جامعه، وقال : هذا حديث [حسن](١) غريب ، لا نعرفه إلا من حديث موسى بن عُبيدة ، وموسى آبن عبيدة يُضعّف في الحديث ، ضعّفه يحيي بن سعيد وغيره . وقد روى شُعبة وسفيان الثوريّ وغير واحد من الأئمة عنه . قال القشيريّ فيومُ الجمعة يشهد على كل عامل بما عمل فيه .

قلت : وكذلك سائر الأيام والليالي ؛ فكل يوم شاهد، وكذا كل ليلة ؛ ودليله ما رواه أبو نعيم الحافظ عن معاوية بن قُرّة عن مَعْقِل بن يسار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "ليس من يوم يأتي على العبد إلا يُنادَى فيه : يآبن آدم، أنا خَلْق جديد، وأنا فيما تعمل عليك شهيد، فاعمل فيّ خيرا أشهد لك به غدا، فإني لو قد مضيتُ لم ترني أبدا، ويقول الليل مثلَ ذلك". حديث غريب من حديث معاوية، تفرّد به عنه زيد العَمّي(٢)، ولا أعلمه مرفوعا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم إلا بهذا الإسناد . وحكى القُشَيريّ عن آبن عمر وآبن الزُّبير أن الشاهد يوم الأضحى . وقال سعيد بن المسيب : الشاهد : التّروِية، والمشهود : يوم عَرَفة . وروى إسرائيل عن أبي إسحاق عن الحارث عن عليّ رضي الله عنه : الشاهد يوم عرفة ، والمشهود يوم النحر. وقاله النخعيّ. وعن عليّ أيضا : المشهود يوم عرفة. وقال آبن عباس والحسين آبن عليّ رضي الله عنهما : المشهود يوم القيامة ؛ لقوله تعالى : « ذٰلِك يوم مجموع له الناس وذٰلِك يوم مشهود »(٣) .

(١) الزيادة من صحيح الترمذي .

(٢) في كتاب الانساب للسمعاني : « العمى » بفتح العين المهملة وتشديد الميم ، هذه النسبة إلى العم ، وهو بطن من تميم . وفي التهذيب : « قال علي بن مصعب : سمي زيد العمي لأنه كان كلما سئل عن شيء قال حتى أسأل عمي » .

(٣) راجع جـ ٩ ص ٩٦

Marfat.com

قلت : وعلى هذا آختلفت أقوال العلماء فى الشاهد، فقيل : الله تعالى ؛ عن آبن عباس والحسن وسعيد بن جُبير ؛ بيانه : « وكفى بِاللهِ شهيدا »[(١)] ، « قل أى شيء أكبر شهادة ؟ قلِ الله شهيد بيني و بينكم »[(٢)] . وقيل : محمد صلى الله عليه وسلم ؛ عن آبن عباس أيضا والحسين آبن على ؛ وقرأ آبن عباس « فكيف إذا جِئنا مِن كل أمةٍ بِشهيدٍ وجِئنا بِك على هؤلاءِ شهيدا »[(١)] ، وقرأ الحسين « يأيها النبِي إِنا أرسلناك شاهِدا ومبشرا ونذيرا »[(٣)] .

قلت : وأقرأ أنا « و يكون الرسول عليكُمْ شهيدا » . وقيل : الأنبياء يَشْهَدون على أممهم ؛ لقوله تعالى : « فكيف إِذا جِئنا مِن كل أُمةٍ بشهيدٍ »[(١)] . وقيل : آدم . وقيل : عيسى بن مريم ؛ لقوله : « وكنت عليهم شهيدا ما دمت فِيهِم »[(٤)] . والمشهود : أمته . وعن آبن عباس أيضا ومحمد بن كعب : الشاهد الإنسان ؛ دليله : « كفى بِنفسك اليوم عليك حسيبا» . مقاتل : أعضاؤه ؛ بيانه : « يوم تَشْهَد عليهم ألسِنتهم وأيدِيهم وأرجلهم بما كانوا يعملون »[(٥)] . الحسين بن الفضل : الشاهد هذه الأمة ، والمشهود سائر الأمم ؛ بيانه : « وكذلِك جعلناكم امة وسطا لِتكونوا شهداء على النـاسِ » . وقيل : الشاهد : الحفَظَة ، والمشهود : بنو آدم . وقيل : الليالى والأيام . وقد بيناه .

قلت : وقد يشهد المالُ على صاحبه ، والأرضُ بما عُمل عليها ؛ ففى صحيح مسلم عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن هذا المال خَضِر حُلو ، ونِعم صاحبُ المسلم هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وآبن السبيل — أوكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — وإنه من يأخذه بغير حقه كان كالذى يأكل ولا يَشْبَع ويكون عليه شهيدا يوم القيامة " . وفى الترمذيّ عن أبى هريرة قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : « يومئذٍ تحدّث أخبارها » قال : " أتدرون ما أخبارُها " ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : " فإن أخبارها أن تشهد على

(١) راجع جـ ٥ ص ١٩٧ ، ٢٨٧ (٢) راجع جـ ٦ ص ٣٩٩ (٣) راجع جـ ١٤ ص ١٩٩
(٤) راجع جـ ٦ ص ٣٧٦ (٥) راجع جـ ٢ ص ١٥٣

Marfat.com

كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، تقول عمل يوم كذا كذا وكذا . قال : فهذه أخبارها". قال حديث حسن غريب صحيح. وقيل: الشاهد الخلق ، شهدوا لله عز وجل بالوحدانية . والمشهود له بالتوحيد هو الله تعالى . وقيل : المشهود يومُ الجمعة ؛ كما رَوَى أبو الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أكثروا عليّ من الصلاة يوم الجمعة فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة ... " وذكر الحديث . خرجه ٱبن ماجه وغيره .

قلت : فعلى هذا يوم عرفة مشهود،لأن الملائكة تشهده، وتنزل فيه بالرحمة.(1) وكذا يوم النحر إن شاء الله . وقال أبو بكر العطار : الشاهد الحجر الأسود ؛ يشهد لمن لمسه بصدق وإخلاص ويقين . والمشهود الحاجّ . وقيل : الشاهد الأنبياء، والمشهود محمد صلى الله عليه وسلم ؛ بيانه : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة — إلى قوله تعالى — : وأنا معكم من الشاهدين » .

قوله تعالى : قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ قتل أصحابُ الأخدود ﴾ أي لعن . قال ٱبن عباس : كل شيء في القرآن « قُتِل » فهو لُعِن . وهذا جواب القسم — في قول الفرّاء — واللام فيه مضمرة ؛ كقوله : «والشمس وضحاها — ثم قال — قد أفلح من زكاها» : أي لقد أفلح. وقيل : فيه تقديم وتأخير ؛ أي قتل أصحاب الأخدود والسماءِ ذات البُروج ؛ قاله أبو حاتم السجستاني . ٱبن الأنباري : وهذا غَلَط ؛ لأنه لا يجوز لقائل أن يقول : والله قام زيد ؛ على معنى قام زيد والله . وقال قوم : جواب القسم « إنّ بطْش ربك لشديد» وهذا قبيح؛ لأن الكلام قد طال بينهما . وقيل : « إنّ الذين فَتَنوا » . وقيل : جواب القسم محذوف، أي والسماء ذات البروج لَتُبعثُنّ . وهذا ٱختيار ٱبن الأنباري . والأخدود : الشق العظيم

(1) راجع جـ ٤ ص ١٢٤

Marfat.com

المستطيل فى الأرض كالخندق ، وجمعه أخاديد . ومنه الخدّ لمجارى الدموع ، والمخدّة؛ لأن الخدّ يوضع عليها . ويقال : تخدّد وجه الرجل : إذا صارت فيه أخاديد من جراح . قال طَرَفة :

ووجهٌ كأنّ الشمسَ حلّتْ رداءها * عليه نَقِيُّ اللونِ لم يتخـدّدِ

﴿ النارِ ذات الوقود ﴾ « النار » بدل من الأخدود » بدل الاشتمال . و « الوقود » بفتح الواو قراءة العامة ، وهو الحَطَب . وقرأ قتادة وأبو رجاء ونصر بن عاصم (بضم الواو) على المصدر ؛ أى ذات الاتقاد والالتهاب . وقيل : ذات الوُقود بأبدان الناس . وقرأ أشهب العُقَيلى وأبو السَّمال العدوىّ وابن السميقع « النارُ ذاتُ » بالرفع فيهما ؛ أى أحرقتهم النار ذات الوقود . ﴿ إذ هُمْ عليها قُعودٌ ﴾ أى الذين خدّدوا الأخاديد وقعدوا عليها يلقون فيها المؤمنين ، وكانوا بنجرانَ فى الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم . وقد اختلفت الرواة فى حديثهم . والمعنى متقارب . ففى صحيح مسلم عن صُهَيب : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كان ملك فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر؛ فلما كبر قال للملك : إنى قد كبرت فابعث إلىّ غلاما أعلمه السحر ؛ فبعث إليه غلاما يعلمه؛ فكان فى طريقه إذا سلك ، راهب ، فقعد إليه وسمع كلامه ، فأعجبه؛ فكان إذا أتى الساحر مرّ بالراهب وقعد إليه؛ فإذا أتى الساحر ضربه ؛ فشكا ذلك إلى الراهب ، فقال : إذا خشيت الساحرَ فقل : حبسنى أهلى . وإذا خشيت أهلك فقل : حبسنى الساحر . فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس ، فقال : اليوم أعلم آلساحر أفضل أم الراهب أفضل ؟ فأخذ حجرا فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحبّ إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة ، حتى يمضى الناس ؛ فرماها فقتلها ومضى الناس . فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب : أى بنى ؛ أنت اليوم أفضل منى ، قد بلغ من أمرك ما أرى ، وإنك ستبتلى ؛ فإن ابتليت فلا تدلّ علىّ . وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ، ويداوى الناس من سائر الأدواء . فسمع جليس للملك كان قد عمى ، فأتاه بهدايا كثيرة فقال : ما هاهنا لك أجمع إن أنت شفيتنى . فقال : إنى لا أشفى أحدا ، إنما

Marfat.com

يشفي الله ؛ فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك ؛ فآمن بالله فشفاه الله . فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس ؛ فقال له الملك : مَنْ ردّ عليك بصرك ؟ قال ربيّ . قال : ولك رب غيرى ؟ ! قال : ربي وربُّك الله . فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دَلَّ على الغلام ؛ فجيء بالغلام فقال له الملك : أى بنى ! أقد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص ، وتفعل وتفعل ؟ ! قال : إنا لا أشفى أحدا ، إنما يشفى الله . فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الراهب ؛ فجيء بالراهب ، فقيل له : آرجع عن دينك . فأبى فدعا بالمنشار ، فوضع المنشار فى مَفْرِق رأسه فشقه حتى وقع شِقاه . ثم جيء بجليس الملِكِ فقيل له : آرجع عن دينك ؛ فأبى فوضع المنشار فى مَفْرِق رأسه ، فشقه به حتى وقع شِقاه . ثم جيء بالغلام فقيل له : آرجع عن دينك ، فأبى فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه فقال : آذهبوا به إلى جبل كذا وكذا ، فآصعدوا به الجبل ، فإذا بلغتم ذِروته فإن رجع عن دينه وإلا فآطرحوه ؛ فذهبوا به فصعِدوا به الجبل فقال : اللهم آكفِنيهم بما شِئت ، فرجف بهم الجبل ، فسقطوا . وجاء يمشى إلى الملِكِ ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال : كفانيهم الله . فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : آذهبوا به فآحملوه فى قُرْقُور[1] ، فتوسطوا به البحر ، فإن رجع عن دينه وإلا فآقذفوه ؛ فذهبوا به فقال : اللهم آكفنيهم بما شئت ؛ فآنكفأت بهم السفينة ، فغرقوا . وجاء يمشى إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال : كفانيهم الله . فقال للملك : إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمُرك به . قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس فى صعيدٍ واحدٍ ، وتصلبنى على جِذع ، ثم خذ سهما من كنانتى[2] ، ثم ضع السهم فى كبد القوس ، ثم قل : بآسم الله رب الغلام ، ثم آرمنى ؛ فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى . فجمع الناس فى صعيد واحد ، وصلبه على جِذع ، ثم أخذ سهما من كنانته ، ثم وضع السهم فى كبد القوس ثم قال : بآسم الله رب الغلام ؛ ثم رماه فوقع السهم فى صدغه ، فوضع يده فى صدغه ، فى موضع السهم ، فمات ؛ فقال الناس : آمنا برب الغلام ! آمنا برب الغلام ! آمنا برب

(١) القرقور بضم القافين : السفينة الصغيرة . (٢) الكنانة (بالكسر) : جعبة السهام تتخذ من جلود لا خشب فيها ، أو من خشب لا جلود فيها .

Marfat.com

الغلام ! فأتى الملك فقيل له : أرأيت ما كنت تحذر ؟ قد والله نزل بك حذرك ، قد آمن الناس ؛ فأمر بالأخدود في أفواه السكك ، نخدّت ، وأضرم النيران ، وقال : من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها — أو قيل له آقتحم — ففعلوا ؛ حتى جاءت آمرأة ومعها صبي لها ، فتقاعست أن تقع فيها ، فقال لها الغلام : " يا أمّه آصبري فإنك على الحق ". خرجه الترمذي بمعناه . وفيه : " وكان على طريق الغلام راهب في صومعة " قال معمر : أحسب أن أصحاب الصوامع كانوا يومئذ مسلمين . وفيه : " أن الدابة التي حبست الناس كانت أسدا ، وأن الغلام دُفن — قال — فيذكر أنه أُخرج في زمن عمر بن الخطاب وأصبعه على صدغه كما وضعها حين قتل ". وقال : حديث حسن غريب . ورواه الضحاك عن آبن عباس قال : كان مَلِك بنَجْران ، وفي رعيته رجل له فتى ، فبعثه إلى ساحر يعلمه السحر ، وكان طريق الفتى على راهب يقرأ الإنجيل ؛ فكان يعجبه ما يسمعه من الراهب ، فدخل في دين الراهب ؛ فأقبل يوما فإذا حية عظيمة قطعت على الناس طريقهم ، فأخذ حجرا فقال بآسم الله رب السموات والأرض وما بينهما ؛ فقتلها . وذكر نحو ما تقدم . وأن الملك لما رماه بالسهم وقتله قال أهل مملكة الملك : لا إله إلا إله(1) عبد الله بن ثامر ؛ وكان آسمَ الغلام ، فغضب الملك ، وأمر نُخدّت أخاديد ، وجُمع فيها حطب ونار ، وعَرَض أهل مملكته عليها ، فمن رجع عن التوحيد تركه ، ومن ثبت على دينه قذفه في النار . وجيء بآمرأة مُرْضع فقيل لها آرجعي عن دينك وإلا قذفناك وولدك — قال — فأشفقت وهمّت بالرجوع ، فقال لها الصبي المُرْضَع : يا أمي ، آثبتي على ما أنت عليه ، فإنما هي غميضة ؛ فألقوها وآبنها . وروى أبو صالح عن آبن عباس أن النار آرتفعت من الأخدود فصارت فوق الملك وأصحابه أربعين ذراعا فأحرقتهم . وقال الضحاك : هم قوم من النصارى كانوا باليمن قبل مَبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربعين سنة ، أخذهم يوسف آبن شراحيل بن تُبّع الحميري ، وكانوا نيفا وثمانين رجلا ، وحفر لهم أخدودا وأحرقهم فيه . حكاه الماوردي ، وحكى الثعلبي عنه أن أصحاب الأخدود من بني إسرائيل ، أخذوا رجالا

(1) في الأصول : « . . . إلا الله عبد الله . . . » وهو تحريف .

Marfat.com

ونساء، نخذوا لهم الأخاديد، ثم أوقدوا فيها النار، ثم أقيم المؤمنون عليها . وقيل لهم : تكفرون أو تُقذفون فى النار ؟ و يزعمون أنه دانيال وأصحابه ؛ وقاله عَطية العوفيّ . ورُوى نحو هذا عن آبن عباس . وقال علىّ رضى الله عنه : إن ملِكا سكر فوقع على أخته، فأراد أن يجعل ذلك شرعا فى رعيته فلم يقبلوا، فأشارت إليه أن يخطُب بأن الله — عزوجل — أحل نكاح الأخوات، فلم يُسمع منه . فأشارت إليه أن يخدلهم الأخدود، و يلقى فيه كل من عصاه . ففعل . قال: و بقايا هم ينكحون الاخوات وهم المجُوس، وكانوا أهل كتاب . ورُوى عن علىّ أيضا أن أصحاب الأخدود كان سببهم أن نبيا بعثه الله تعالى إلى الحبشة، فآتبعه ناس، نخدلهم قومهم أخدودا، فمن آتبع النبيّ رمى فيها ، فجىء بآمرأة لها بُنَىّ رضيع فجزعت ، فقال لها : يا أماه ، آمضى ولا تجزعى . وقال أيوب عن عِكرمة قال : « قتِل أصحاب الأُخدودِ » قال : كانوا من قومك من السجستان . وقال الكلبىّ : هم نصارى نجران، أخذوا بها قوما مؤمنين، نخدوا لهم سبعة أخاديد ، طول كل أخدود أربعون ذراعا ، وعرضه آثنا عشر ذراعا . ثم طرح فيه النفط[1] والحطب ، ثم عرضوهم عليها ؛ فمن أبى قذفوه فيها . وقيل : قوم من النصارى كانوا بالقُسْطنطينية زمان قُسْطنطين . وقال مقاتل : أصحاب الأخدود ثلاثة ؛ واحد بنجران ، والآخر بالشام ، والآخر بفارس . أمّا الذى بالشام فأنطيانوس الرومى، وأما الذى بفارس فبختنصر، والذى بأرض العرب يوسف بن ذى نُواس . فلم ينزل الله فى الذى بفارس والشام قرآنا ، وأنزل قرآنا فى الذى كان بنجران . وذلك أن رجلين مسلمين كان أحدهما بتهامة ، والآخر بنجران ، آجر أحدهما نفسه ، فجعل يعمل ويقرأ الإنجيل ؛ فرأت آبنة المستأجِر النورَ فى قراءة الإنجيل، فأخبرت أباها فأسلم . و بلغوا سبعة وثمانين بين رجل وآمرأة ، بعد ما رفع عيسى، نخدلهم يوسف بن ذى نُواس بن تُبّع الحِميرِىّ أخدودا، وأوقد فيه النار ؛ وعرضهم على الكفر ، فمن أبى أن يكفر قذفه فى النار ، وقال : من رجع عن دين عيسى لم يقذف . وإن آمرأة معها ولدها صغير لم يتكلم ، فرجعت ، فقال لها آبنها : يا أمّاه ، إنى أرى أمامك

---

(١) النفط (بالكسر وقد يفتح) : زيت معدنى سريع الاحتراق ، توقد به النار و يتداوى به .

Marfat.com

نارا لا تُطْفَأ، فقذفا جميعا أنفسهما فى النار، فجعلها الله وآبنها فى الجنة. فقُذِف فى يوم واحد سبعة وسبعون إنسانا. وقال آبن إسحاق عن وهب بن منبه: كان رجل من بقايا أهل دين عيسى بن مريم عليه السلام، يقال له قيميون(١)، وكان رجلا صالحا مجتهدا زاهدا فى الدنيا مجاب الدعوة، وكان سائحا فى القرى، لا يُعْرَف بقرية إلا مضى عنها، وكان بنّاء يعمل الطين. قال محمد بن كعب القُرَظيّ: وكان أهل نَجْران أهل شرك يعبدون الأصنام، وكان فى قرية من قراها قريبا من نجران ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر، فلما نزل بها قيميون، بنى بها خيمة بين نجران وبين تلك القرية التى بها الساحر، فجعل أهل نجران يبعثون غلمانهم إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر، فبعث إليه الثامرُ عبدَ الله بن الثامر، فكان مع غلمان أهل نجران، وكان عبد الله إذا مر بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى من أمر صلاته وعبادته، فجعل يجلس إليه ويسمع منه، حتى أسلم، فوحّد الله وعبده، وجعل يسأله عن آسم الله الأعظم، وكان الراهب يعلمه، فكتمه إياه وقال: يابن أخى، إنك لن تحمله، أخشى ضعفك عنه؛ وكان أبو الثامر لا يظن إلا أن آبنه يختلف إلى الساحر كما يختلف الغلمان. فلما رأى عبد الله أن الراهب قد بخل عليه بتعليم آسم الله الأعظم، عمد إلى قِداح(٢) فجمعها، ثم لم يُبق لله تعالى آسما يعلمه إلا كتبه فى قِدْح، لكل اسم قِدْح؛ حتى إذا أحصاها أوقد لها نارا، ثم جعل يقذفها فيها قِدْحا قِدْحا، حتى إذا مر بالآسم الأعظم قذف فيها بقِدحه، فوثب القِدْح حتى خرج منها لم يضرّه شىء؛ فأخذه ثم قام إلى صاحبه، فأخبره أنه قد علم آسم الله الأعظم الذى كتمه إياه؛ فقال: وما هو؟ قال: كذا وكذا. قال: وكيف علمته؟ فأخبره بما صنع. فقال له: يابن أخى، قد أصبته، فأمسك على نفسك، وما أظن أن تفعل. فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يلق أحدا به ضُرّ إلا قال: يا عبد الله، أتوحّد الله وتدخل فى دينى، فأدعوَ الله لك فيعافيَك مما أنت فيه من البلاء؟ فيقول: نعم؛ فيوحّد الله ويسلم، فيدعو الله له فيُشفَى، حتى لم يبق أحد بنجران به ضر إلا أتاه فاتبعه على دينه ودعا له فعوفى؛ حتى رُفِع شأنه إلى ملكهم، فدعاه فقال له:

(١) فى ا، ح، و، تاريخ الطبرى: « فيمون »، بالفاء.
(٢) القدح (بالكسر): السهم قبل أن ينصل ويراش، جمعه قداح.

Marfat.com

أفسدت علىّ أهل قريتى ، وخالفت دينى ودين آبائى ، فلأمثلنّ بك . قال : لا تقدر على ذلك ؛ فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل ، فيطرح عن رأسه ، فيقع على الأرض ليس به بأس . وجعل يبعث به إلى مياه نجرانَ ، بحار لا يلقَى فيها شئ إلا هلك ، فيلقَى فيها فيخرج ليس به بأس ؛ فلما غلبه قال له عبد الله بن الثامر : والله لا تقدر على قتلى حتى توحِّد الله وتؤمن بما آمنت به ؛ فإنك إن فعلت ذلك سُلِّطت علىّ وقتلتنى . فوحد الله ذلك الملك وشهد شهادته ، ثم ضربه بعصا فشجه شجة صغيرة ليست بكبيرة ، فقتله ، وهلك الملك مكانَه ، واجتمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر ، وكان على ما جاء به عيسى بن مريم من الإنجيل وحُكْمه . ثم أصابهم ما أصاب أهل دينهم من الأحداث ؛ فمن ذلك كان أصل النصرانية بنجران . فسار إليهم ذو نُواس اليهودىّ بجنوده من حِمْير ، فدعاهم إلى اليهودية ، وخيرهم بين ذلك أو القتل ، فآختاروا القتل ، فخدّ لهم الأخدود ؛ فحرّق بالنار وقتل بالسيف ، ومثّل بهم حتى قتل منهم عشرين ألفا . وقال وهب بن منبه : آثنى عشر ألفا . وقال الكلبىّ : كان أصحاب الأخدود سبعين(١) ألفا . قال وهب : ثم لما غَلَب أرياط على اليمن خرج ذو نُواس هاربا ، فاقتحم البحر بفرسه فغرق . قال آبن إسحاق : وذو نُواس هذا آسمه زُرْعة بن تُبّان(٢) أسعد الحميرىّ ، وكان أيضا يسمى يوسف ، وكان له غدائر من شعر تَنُوس ، أى تضطرب ، فسمى ذا نُواس ؛ وكان فعل هذا بأهل نجران ، فأفلت منهم رجل آسمه دَوْس ذو ثَعْلَبان ، فساق الحبشة لينتصر بهم ، فملكوا اليمن وهلك ذو نواس فى البحر ؛ ألقى نفسه فيه ؛ وفيه يقول عمرو بن معدى كرب :

أَتُوعِدنى كأنك ذو رُعَيْنٍ * بأَنعم عِيشةٍ أو ذو نُواسِ
وكائنْ كان قبلَك من نَعيمٍ * ومُلْكٍ ثابتٍ فى الناس راسِ
قديمٍ عهدُه من عهدِ عادٍ * عظيمٍ قاهرِ الجبروت قاسِ
أزال الدهرُ مُلْكَهم فأضحى * يُنَقَّل من أناس فى أناس

(١) فى ز ، ل : « تسعين ألفا » .
(٢) هو كفراب أو كرمان ، و يكسر . وهو أول من كسا البيت الحرام .

Marfat.com

وذو رُعين : ملك من ملوك حمير . ورُعَين حصن له وهو من ولد الحرث بن عمرو بن حمير ابن سَبَأ

مسألة — قال علماؤنا : أعلم الله عز وجل المؤمنين من هذه الأمة فى هذه الآية ، ما كان يلقاه مَن وَحّد قبلهم من الشدائد، يُؤَنِّسهم بذلك . وذكر لهم النبي صلى الله عليه وسلم قصة الغلام ليصبروا على ما يلاقون من الأذى والآلام ، والمشقات التى كانو عليها ، ليتأسّوا بمثل هذا الغلام ، فى صبره وتصلبه فى الحق وتمسكه به، وبذله نفسه فى حق إظهار دعوته، ودخول الناس فى الدين مع صِغر سِنه وعظم صبره . وكذلك الراهب صبر على التمسك بالحق حتى نُشر بالمنشار . وكذلك كثير من الناس لما آمنو بالله تعالى ورسخ الإيمان فى قلوبهم ، صبروا على الطرح فى النار ولم يرجعوا فى دينهم . ابن العربى : وهذا منسوخ عندنا ، حَسْب ماتقدم بيانه فى سورة « النحل »(١) .

قلت : ليس بمنسوخ عندنا ،وأن الصبر على ذلك لمن قويت نفسه وصلب دينه أولى، قال الله تعالى مخبرا عن لقمان : « يابنى أَقِمِ الصلاة وأمر بالمعروف وانه عنِ المنكرِ واصبر على ما أصابك إن ذلِك مِن عزمِ الأمورِ »(٢) : وروى أبو سعيد الخُدرِي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إن من أعظم الجهاد كلمةَ عدلٍ عند سلطان جائر" : خرجه الترمذي وقال : حديث حسن غريب ، ورَوَى ابن سنجر (محمد بن سِنجر) عن أميمة مولاةِ النبي صلى الله عليه وسلم قالت : كنت أوضئ النبي صلى الله عليه وسلم، فأتاه رجل، قال: أوصنى: فقال : "لا تشرك بالله شيئا وإن قُطِّعت أو حُرِّقت بالنار ... " الحديث : قال علماؤنا : ولقد امتُحِن كثير من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بالقتل والصَّلْب والتعذيب الشديد، فصبروا ولم يلتفتوا إلى شيء من ذلك : ويكفيك قصة عاصم وخُبيب وأصحابهما وما لَقُوا من الحروب والمِحَن والقتل والأسر والحرق ، وغير ذلك ، وقد مضى فى« النحل » أن هذا إجماع ممن قوى فى ذلك، فتأمله هناك(٣) .

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٨٠ ، وص ٢٠٢	(٢) راجع جـ ١٤ ص ٦٨
(٣) راجع جـ ١٠ ص ١٨٠

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصحاب الأخدودِ ﴾ دعاءٌ على هؤلاء الكفار بالإبعاد من رحمة الله تعالى : وقيل : معناه الإخبار عن قتل أولئك المؤمنين ، أى إنهم قُتلوا بالنار فصبَروا : وقيل : هو إخبار عن أولئك الظالمين ، فإنه رُوِى أن الله قبض أرواح الذين أُلقوا فى الأخدود قبل أن يصلوا إلى النار ، وخرجت نار من الأخدود فأحرقت الذين هم عليها قعود : وقيل : إن المؤمنين نَجَوا ، وأحرقت النار الذين قعدوا ، ذكره النحاس ، ومعنى « عليها » أى عندها وعلى بمعنى عند : وقيل : « عليها » على ما يدنو منها من حافات الأخدود ، كما قال :

* وباتَ على النارِ النّدَى والمحلّقُ[(١)] *

العامل فى « إذ » : « قُتِل » ، أى لعنوا فى ذلك الوقت : ﴿ وهم على ما يفعلون بِالمؤمنين شهود ﴾ أى حضور : يعنى الكفار ، كانوا يعرضون الكفر على المؤمنين ، فمن أبى ألقوه فى النار وفى ذلك وصفهم بالقسوة ثم[(٢)] بالجد فى ذلك : وقيل : « على » بمعنى مع ، أى وهم : مع ما يفعلون بالمؤمنين شهود .

قوله تعالى : وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِى لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وما نَقَموا منهم ﴾ وقرأ أبو حَيْوة « نقِموا » بالكسر ، والفصيح هو الفتح ، وقد مضى فى « براءة »[(٣)] القول فيه : أى ما نقم الملك وأصحابه من الذين حرّقهم : ﴿ إلا أن يؤمنوا ﴾ أى إلا أن يصدّقوا : ﴿ بِالله العزيزِ ﴾ أى الغالب المنيع : ﴿ الحميد ﴾

(١) البيت لأعشى قيس ، وصدره :

* تشب لمقرورين يصطليانها *

(٢) فى بعض النسخ : « أى بالخلد » بدل « ثم بالجد » .

(٣) راجع جـ ٨ ص ٢٠٧

Marfat.com

أى المحمود فى كل حال . ﴿ الذى له ملك السموات والأرض ﴾ لاشريك له فيهما ولا نديد ﴿ والله على كل شىء شهيد ﴾ أى عالم بأعمال خلقه لا تخفى عليه خافية .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ إِن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ﴾ أى حرّقوهم بالنار . والعرب تقول : فتن فلانٌ الدرهمَ والدينارَ، إذا أدخله الكور، لينظر جودته . ودينار مفتون . ويسمى الصائغ الفتان ، وكذلك الشيطان ، وورِق فتِين ، أى فضة محترقة . ويقال للحَرّة(١) فتين ، أى كأنها أحرقت حجارتها بالنار ، وذلك لسوادها . ﴿ ثم لم يتوبوا ﴾ أى من قبيح صنيعهم مع ما أظهره الله لهذا الملك الجبار الظالم وقومه من الآيات والبينات على يد الغلام . ﴿ فلهم عذاب جهنم ﴾ لكفرهم . ﴿ ولهم عذاب الحريق ﴾ فى الدنيا لإحراقهم المؤمنين بالنار . وقد تقدم عن ابن عباس . وقيل : « ولهم عذاب الحريق » أى ولهم فى الآخرة عذاب زائد على عذاب كفرهم بما أحرقوا المؤمنين . وقيل : لهم عذاب، وعذاب جهنم الحريق . والحريق : اسم من أسماء جهنم؛ كالسَّعير . والنار دركات وأنواع ولها أسماء . وكأنهم(٢) يعذبون بالزمهرير فى جهنم، ثم يعذَّبون بعذاب الحريق . فالأول عذاب ببردها ، والثانى عذاب بحرها . ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ أى هؤلاء الذين كانوا آمنوا بالله؛ أى صدقوا به و برسله . ﴿ وعملو الصالحات لهم جناتٌ ﴾ أى بساتين . ﴿ تجرى من تحتها الأنهار ﴾ من ماء غير آسن، ومن لبن لم يتغير طعمه ، ومن خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفًّى . ﴿ ذلك الفوز الكبير ﴾ أى العظيم ، الذى لا فوز يشبهه(٣) .

(١) الحرة (بفتح الحاء المهملة) : أرض ذات حجارة سود نخرة .
(٢) فى ا ، ح ، ز ، ط ، ل : وكانوا .   (٣) ا ، ح ، ولا يشابهه شىء .

Marfat.com

قوله تعالى : إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ أى أخذه الجبابرة والظلمة ، كقوله جل ثناؤه : « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد » . وقد تقدم (١) . قال المبرد « إن بطش ربك » جواب القسم . المعنى : والسماء ذات البروج إن بطش ربك ، وما بينهما معترض مؤكد للقسم . وكذلك قال الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول : إن القسم واقع عما ذكر صفته بالشدة : ﴿ إنه هو يبدئ ويعيد ﴾ يعنى الخلق — عن أكثر العلماء — يخلقهم ابتداء ، ثم يعيدهم عند البعث . وروى عكرمة قال : عجب الكفار من إحياء الله جل ثناؤه الأموات ، وقال ابن عباس : يبدئ لهم عذاب الحريق فى الدنيا ، ثم يعيده عليهم فى الآخرة . وهذا اختيار الطبرى : ﴿ وهو الغفور ﴾ أى الستور لذنوب عباده المؤمنين ، لا يفضحهم بها ﴿ الودود ﴾ أى المحب لأوليائه . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : كما يود أحدكم أخاه بالبشرى والمحبة . وعنه أيضا « الودود » أى المتودد إلى أوليائه بالمغفرة ، وقال مجاهد الواد لأوليائه ، فعول بمعنى فاعل . وقال ابن زيد : الرحيم ، وحكى المبرد عن إسمعيل بن إسحق القاضى أن الودود هو الذى لا ولد له ، وأنشد قول الشاعر :

وأركب فى الروع عُريانةً * ذلولَ الجناح لقاحا ودودا

أى لا ولد لها تحن إليه ، ويكون معنى الآية : إنه يغفر لعباده وليس له ولد يغفر لهم من أجله ، ليكون بالمغفرة متفضلا من غير جزاء . وقيل : الودود بمعنى المودود ، كركوب وحلوب ، أى يوده عباده الصالحون ويحبونه ﴿ ذو العرش المجيد ﴾ قرأ الكوفيون إلا عاصما « المجيد » بالخفض ، نعتا للعرش . وقيل : لـ« ربك » ؛ أى إن بطش ربك المجيد لشديد ،

(١) راجع جـ ٩ ص ٩٥

Marfat.com

ولم يمتنع الفصل، لأنه جارٍ مجرى الصفة فى التشديد . الباقون بالرفع نعتا لـ«ذو» وهو الله تعالى . وٱختاره أبو عُبيد وأبو حاتم ؛ لأن المجد هو النهاية فى الكرم والفضل، والله سبحانه المنعوت بذلك، و إن كان قد وُصف عرشه بالكريم فى آخر « المؤمنون »(١) . تقول العرب : فى كل شجر نار، وٱستمجد المرخُ والعَفَار(٢)؛ أى تناهيا فيه، حتى يُقْتَبَس منهما . ومعنى ذو العرش : أى ذو المُلْك والسلطان؛ كما يقال : فلان على سرير ملكه؛ و إن لم يكن على سرير . ويقال : ثُل عرشه : أى ذهب سلطانه . وقد مضى بيان هذا فى « الأعراف »(٣) وخاصة فى « كتاب الأسنى، فى شرح أسماء الله الحسنى » . ﴿ فعال لِمَا يريد ﴾ أى لا يمتنع عليه شيء يريده . الزمخشري : « فَعَّال » خبر ٱبتداء محذوف . وإنما قيل : « فَعَّال » لأن ما يريد ويفعل فى غاية الكثرة . وقال الفراء : هو رفع على التكرير والٱستئناف ؛ لأنه نكرة محضة . وقال الطبري : رفع « فعال » وهى نكرة محضة على وجه الإتباع لإعراب « الغفور الودود » . وعن أبى السَّفَر(٤) قال : دخل ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على أبى بكر رضى الله عنه يعودونه فقالوا : ألا نأتيك بطبيب ؟ قال : قد رآنى ! قالوا : فما قال لك ؟ قال : قال : إنى فعال لما أريد .

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ هل أتاك حديث الجنودِ ﴾ أى قد أتاك يا محمد خبر الجموع الكافرة المكذبة لأنبيائهم؛ يؤنّسه بذلك ويسليه . ثم بينهم فقال . ﴿ فِرعونَ وثمودَ ﴾ وهما فى موضع جر على البدل من « الجنود » . المعنى : إنك قد عرفت ما فعل الله بهم حين كذبوا أنبياءه ورسله . ﴿ بل الذين كفروا ﴾ أى من هؤلاء الذين لا يؤمنون بك . ﴿ فِى تكذيب ﴾

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٥٧ .　(٢) المرخ والعفار : شجرتان من أكثر الشجر نارا، يتخذ منها الزناد، والعرب تضرب بهما المثل فى الشرف العالى . و « ٱستمجد » . ٱستكثر .　(٣) راجع جـ ٧ ص ٢٢٠
(٤) هو سعيد بن يحمد الهمدانى .

Marfat.com

لك ، كدأب من قبلهم . وإنما خص فرعون وثمود؛ لأن ثمود فى بلاد العرب ، وقصتهم عندهم مشهورة وإن كانوا من المتقدمين . وأمر فرعون كان مشهورا عند أهل الكتاب وغيرهم، وكان من المتأخرين فى الهلاك؛ فدلّ بهما على أمثالهما فى الهلاك . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ والله من ورائهم محيط ﴾ أى يقدر على أن يُنزل بهم ما أنزل بفرعون . والمحاط به كالمحصور . وقيل : أى والله عالم بهم فهو يجازيهم . ﴿ بل هو قرآن مجيد ﴾ أى متناه فى الشرف والكرم والبركة، وهو بيان ما بالناس الحاجة إليه من أحكام الدين والدنيا، لا كما زعم المشركون . وقيل « مجيد » : أى غير مخلوق . ﴿ فى لوح محفوظ ﴾ أى مكتوب فى لوح . وهو محفوظ عند الله تعالى من وصول الشياطين إليه . وقيل: هو أم الكتاب؛ ومنه انتُسخ القرآن والكتب . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : اللوح من ياقوته حمراء، أعلاه معقود بالعرش وأسفله فى حجر مَلَك يقال له ما طِرْيون(١)، كتابه نور، وقلمه نور، ينظر الله عز وجل فيه كل يوم ثلثمائة وستين نظرة ؛ ليس منها نظرة إلا وهو يفعل ما يشاء؛ يرفع وضيعا، ويضع رفيعا »، ويغنى فقيرا، ويفقر غنيا ؛ يحيى ويميت ، ويفعل ما يشاء ؛ لا إله إلا هو . وقال أنس بن مالك ومجاهد: إن اللوح المحفوظ الذى ذكره الله تعالى فى جبهة إسرافيل . وقال مقاتل : اللوح المحفوظ عن يمين العرش . وقيل : اللوح المحفوظ الذى فيه أصناف الخلق والخليقة، وبيان أمورهم، وذكر آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم، والأقضية النافذة فيهم، ومآل عواقب أمورهم ؛ وهو أم الكتاب . وقال ابن عباس : أوّل شىء كتبه الله تعالى فى اللوح المحفوظ « إنى أنا الله لا إله إلا أنا، محمد رسولى، من استسلم لقضائى وصبر على بلائى ، وشكر نعمائى، كتبته صدّيقا و بعثته مع الصدّيقين، ومن لم يستسلم لقضائى

---

(١) فى روح المعانى : « ساطر يون » .

Marfat.com

ولم يصبر على بلائى ، ولم يشكر نعمائى ، فليتخذ إلها سواى » . وكتب الحجاج إلى محمد ابن الحنفية رضى الله عنه يتوعده ؛ فكتب إليه ابن الحنفية : « بلغنى أن لله تعالى فى كل يوم ثلثمائة وستين نظرة فى اللوح المحفوظ ؛ يُعز ويذِلّ، ويبتلى ويُفْرح، ويفعل ما يريد ؛ فلعل نظرة منها تشغلك بنفسك، فتشتغل بها ولا تتفرغ » . وقال بعض المفسرين : اللوح شيء يلوح للملائكة فيقرءونه . وقرأ ابن السَّمَيْقع وأبو حَيْوة « قرآن مجيد » على الإضافة؛ أى قرآن ربٍّ مجيد . وقرأ نافع « فى لوح محفوظ » بالرفع نعتا للقرآن؛ أى بل هو قرآن مجيد محفوظ فى لوح . الباقون (بالجر) نعتا للوح . والقرّاء متفقون على فتح اللام من «لوح» إلا ما روى عن يحيى بن يعمَر؛ فإنه قرأن « لُوح » بضم اللام؛ أى إنه يلوح، وهو ذو نور وعلو وشرف . قال الزمخشرىّ : واللُّوح الهواء؛ يعنى اللُّوح فوق السماء السابعة الذى فيه اللوح . وفى الصحاح : لاح الشيء يلوح لَوحا أى لَمَحَ . ولاحهُ السفر : غيره . ولاح لوحا ولواحا : عِطش ، والتاح مثله . واللَّوح : الكتِف ، وكل عظم عريض . واللوح : الذى يكتب فيه . واللُّوح (بالضم) : الهواء بين السماء والأرض . والحمد لله .

تم بعون الله تعالى الجزء التاسعَ عَشَرَ من تفسير القرطبىّ،
يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء العشرون ، وأوله :
" سورة (الطارق) "

Marfat.com

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

(المتوفى ٦٧١ هـ — ١٢٧٣ م)

الجـــزء العشرون

اعاد طبعـــه

دار إحياء التراث العربي

بـيروت ـ لبـــنان

١٩٦٧

Marfat.com

بيان

تم بعون الله تعالى تحقيق ومراجعة هذا الجزء (العشرين)

من تفسير القُرْطُبيّ ، على الأصول الآتية :

(١)	نسخة رقم	٩٥	تفسير ، المرموز إليها بحرف				ا
(٢)	»	»	١	حليم تفسير »	»	»	ح
(٣)	»	»	٢٨٥	المكتبة الأزهرية ، المرموز إليها بحرف			ز
(٤)	»	»	١٣	تفسير ، المرموز إليها بحرف			س
(٥)	»	»	٣١٨	»	»	»	ط
(٦)	»	»	٦٤	»	»	»	ل
(٧)	»	»	٢٨٤	»	»	»	هـ
(٨)	»	»	٣٠٧	»	»	»	ى

وقد وُصفت هذه النسخ جميعها فى مقدّمة الجزء الثالث « الطبعة الثانية »

وبالله التوفيق م

مصطفى السقا
الأستاذ بجامعة القاهرة

Marfat.com

فهرس الجزء العشرين

ســـورة « الطارق »

صفحة

تفسير قوله تعـالى : « والسماء والطارق ... » الآيات . الكلام على النجم الطارق والاختلاف فى اسمـه . النهى عن أن يطرق المسافر أهـله ليلا . معنى الطرق فى اللغـــة ١

تفسير قوله تعـالى : « إن كل نفس لمـا عليها حافظ » . الكلام فى معنى الحافظ ، وهل هو الله سبحانه ، أو عقل الإنسان ، أو الملائكة ٣

تفســير قوله تعـالى : « فلينظر الإنسان مِمّ خلِق ... » الآيات . أمر الإنسان بالنظر فى أول أمره ، ليعلم أن من أنشأه قادر على إعادته وجزائه ، فيعمل ليوم الإعادة والجـزاء . الكلام على المـاء الدافق ، وكيف يخرج من بين الصلب والترائب . قول العلمـاء فى الصلب والترائب ٤

تفسير قوله تعـالى : « يوم تبلى السرائر » . الكلام على اختبار السرائر . بيـان أن الله تعـالى ائتمن خلقه على أربع ٨

تفسير قوله تعـالى : « والسماء ذات الرجع ... » الآيات . معنى « الرجع » وهل هو المطر أو النبات . معنى « الصدع » . المراد بالقول الفصل ١٠

تفسير قوله تعـالى : « فمهل الكافرين أمهلهم رويدا » . بيان أن هذه الآية نسخت بآية السيف . معنى « رويدا » فى كلام العرب ١٢

ســـورة « الأعلى »

تفسير قوله تعـالى : « سبح آسم ربك الأعلى » . بيان أنه يستحب للقارئ إذا قرأ هذه الآية أن يقول عقبها : سبحان ربى الأعلى ، امتثالا لأمره تعالى . لمـا نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اجعلوها فى سجودكم » . ثواب من قال سبحان ربى الأعلى فى صلاته أو فى غير صلاته ١٣

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « الذى خلق فسوى ... » الآيات . الكلام على تسوية الخلق . أقوال العلماء فى معنى « قدّر فهدى » . معنى قوله : « غثاء أحوى » وبيان أن هذا مثل ضربه الله تعالى للكفار لذهاب الدنيا بعد نضارتها 15

تفسير قوله تعالى : « سنقرئك فلا تنسى ... » الآيات . بيان أن هذه الآيات بشرى من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم 18

تفسير قوله تعالى : « فذكر إن نفعت الذكرى ... » الآيات . القول فى أن التذكير واجب وإن لم ينفع . بيان أن الشقى فى علم الله هو الذى يتجنب الذكرى ويبعد عنها ، وأن أهل الشقاء متفاوتون فى شقائهم 20

تفسير قوله تعالى : « قد أفلح من تزكى ... » الآيات . رأى العلماء فى قوله « تزكى » وهل هو فى زكاة الأموال ، أو فى زكاة الأعمال ، وفيمن نزلت . معنى قوله : « وذكر اسم ربه فصلى » 21

تفسير قوله تعالى : « بل تؤثرون الحياة الدنيا ... » الآيات . بيان الذين آثروا الحياة الدنيا على الآخرة ، لأن الدنيا حضرت وعجلت طيباتها ولذاتها ، وأن الآخرة غيبت ، فأخذوا العاجل وتركوا الآجل 23

تفسير قوله تعالى : « ان هذا لفى الصحف الأولى ... » . القول فى أن صحف إبراهيم عليه السلام كانت أمثالا كلها ، وأن صحف موسى عليه السلام كانت عبرا كلها 24

سورة « الغاشية »

تفسير قوله تعالى : « هل أتاك حديث الغاشية » . الاختلاف فى « الغاشية » هل هى القيامة ، أو النار ، أو النفخة الثانية للبعث 25

تفسير قوله تعالى : « وجوه يومئذ خاشعة ... » الآيات . القول فى أن وجوه المشركين ذليلة فى الآخرة ، وأنهم أنصبوا أنفسهم فى الدنيا على معصية الله عز وجل وعلى الكفر 26

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « تصلى نارا حامية » . اختلف فى المراد بالحامية هاهنا على أربعة أوجه ٢٨

تفسير قوله تعالى : « ليس لهم طعام إلا من ضريع » . لما ذكر تعالى شراب أهل النار ذكر طعامهم ، وأنه الضريع ، وقد تباينت أقوال العلماء فيه ٢٩

تفسير قوله تعالى : « وجوه يومئذ ناعمة ... » الآيات . بيان أن المراد وجوه المؤمنين ، نعمت بما عاينت من عاقبة أمرها وعملها الصالح . وأن المؤمنين فى جنة مرتفعة عالية القدر، لا يسمعون فيها كلمة لغو . واختلف فى اللغو هنا على ستة أوجه . وأن فى الجنة أنواع الأشربة اللذيذة تجرى على وجه الأرض من غير أخدود ٣٢

تفسير قوله تعالى : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ... » الآيات . بيان أن الله تعالى لما ذكر أمر أهل الدارين تعجب الكفار من ذلك فكذبوا وأنكروا ؛ فذكرهم الله صنعته ، وأنه قادر على كل شىء ، ثم ذكر الإبل أولا لكثرتها عندهم ٣٤

تفسير قوله تعالى : « فذكر إنما أنت مذكر... » الآيات . اختلف هل الآية منسوخة بآية السيف ، أو لانسخ فيها ٣٧

سورة « الفجر »

تفسير قوله تعالى : « والفجر . وليال عشر » . أقوال العلماء فى معنى الفجر هنا والليالى العشر ٣٨

تفسير قوله تعالى : « والشفع والوتر» . اختلف فى الشفع والوتر هنا على عدّة أقوال ٣٩

تفسير قوله تعالى : « والليل إذا يسر . هل فى ذلك قسم لذى حجر » . القول فى أن الله تعالى لما أقسم بالليالى العشر على الخصوص أقسم بالليل على العموم . اختلف فى معنى « يسرى » . بيان العلة فى إسقاط الياء من « يسرى » . القول فى معنى « لذى حجر » ٤٢

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد » . أوجه القراءة فى قوله « بعاد . إرم » . القول فى نسب عاد وقومه . اختلف فى قوله « ذات العماد » هل هو الطول ، أو كانوا عمادا لقومهم ، أو ذات الأبنية المرفوعة على العمد ٤٤

تفسير قوله تعالى : « التى لم يخلق مثلها فى البلاد » . اختلف فى الضمير فى « مثلها » هل راجع إلى القبيلة ، أو راجع إلى المدينة . بيان أنه كان لعاد ابنان ، فملكا وقهرا ، ثم مات أحدهما وخلص الأمر للآخر ، فملك الدنيا وسمع بذكر الجنة فقال : أبنى مثلها ، فبنى إرم فى بعض صحارى عدن وهى مدينة عظيمة ، قصورها من الذهب والفضة ، ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته ، وقبل أن يصل إليها بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا ٤٦

تفسير قوله تعالى : « وثمود الذين جابوا الصخر بالواد » . بيان أن ثمود هم قوم صالح ، وهم أول من نحت الجبال والصخور والرخام ، وبنوا المدائن كلها من الحجارة ، وكانوا لقوتهم ينحتون الصخور وينقبون الجبال ويجعلونها بيوتا لأنفسهم ٤٧

تفسير قوله تعالى : « وفرعون ذى الأوتاد » . بيان ما كان يفعله فرعون تجبرا وعتوا بالناس ٤٨

تفسير قوله تعالى : « الذين طغوا فى البلاد ... » الآيات . المراد بهم عاد وثمود وفرعون ، وأنهم لما عتوا وتجاوزوا القدر فى الظلم والعدوان صب الله تعالى عليهم العذاب . بيان أن كلمة «سوط» تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب . ٤٩

تفسير قوله تعالى : « إن ربك لبالمرصاد » القول فى أن الله عز وجل يرصد عمل كل إنسان ، ويسمع أقوالهم ونجواهم ، ويعلم أعمالهم وأسرارهم فيجازى كلا بعمله ٥٠

تفسير قوله تعالى : « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه ... » الآيات . المراد بالإنسان هنا الكافر ، واختلف فيه . من صفات الكافر الذى لا يؤمن بالبعث أن الكرامة عنده والهوان بكثرة الحظ فى الدنيا وقلته . أما المؤمن فالكرامة عنده أن

Marfat.com

صفحة

يكرمه الله تعالى بطاعته وتوفيقه المؤدى إلى حظ الآخرة، وإن وسع عليه فى الدنيا حمده وشكره ٥١

تفسير قوله تعالى: « كلا بل لا تكرمون اليتيم ... » الآيات . بيان أن هذا إخبار من الله تعالى عما كانوا يصنعونه من منع الأيتام الميراث، وأكل مالهم إسرافا وبدارا أن يكبروا . أصل اللم فى كلام العرب . ما كان يفعله أهل الشرك بمال من مات منهم، وأنهم يحبون المال حلالا كان أو حراما . معنى « الجم » فى كلام العرب ٥٢

تفسير قوله تعالى : « كلا إذا دكت الأرض دكا دكا » بيان أن هذا رد لانكبابهم على الدنيا وجمعهم لها . المعنى المراد من دك الأرض، ومعنى الدك لغة ٥٤

تفسير قوله تعالى : « وجاء ربك والملك صفا صفا ... » الآيات . أقوال العلماء فى معنى « وجاء ربك » هل جاء أمره وقضاؤه، أو جاءهم بالآيات العظيمة . والله جل شأنه لا يوصف بالتحول من مكان إلى مكان . الكلام على قوله « وجىء يومئذ بجهنم » وكيف يجاء بها . بيان أن الكافر يعتبر عند معاينة جهنم، ولا ينفعه الاتعاظ والتوبة وقد فرط فيهما فى الدنيا . أقوال العلماء فى معنى « فيومئذ لا يعذب عذابه أحد » ٥٥

تفسير قوله تعالى : « يأيتها النفس المطمئنة ... » الآيات . الكلام على النفس المطمئنة . بيان أن هذا حال من اطمأنت نفسه إلى الله تعالى، فسلم لأمره واتكل عليه . الاختلاف فيمن نزلت فيه هذه الآيات، أهو عثمان بن عفان، أم خبيب بن عدى، رضى الله عنهما ٥٧

سورة « البلد »

تفسير قوله تعالى : « لا أقسم بهذا البلد » . الكلام على « لا » فى هذه الآية . والمراد بالبلد هنا مكة من غير اختلاف . بيان أن الله تعالى حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهى حرام إلى أن تقوم الساعة ٥٩

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « وأنت حل بهذا البلد . ووالد وما ولد » بيان أن هذه أقسام من الله تعالى ، ولله أن يقسم بما يشاء من مخلوقاته لتعظيمها ٦٠

تفسير قوله تعالى : « لقد خلقنا الإنسان فى كبد » بيان المراد بالإنسان هنا . معانى « كبد » لغة ٦٢

تفسير قوله تعالى : « أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ... » الآيات . الكلام فى سبب نزول هذه الآيات . بيان نعم الله تعالى التى أنعمها على بنى آدم . القول فى العقبة وركوبها ، ومعنى اقتحامها ٦٤

تفسير قوله تعالى : « فك رقبة » وهل هو خلاصها من الأسر ، أو عتقها من الرق ، أو هو خلاص نفسه باجتناب المعاصى وفعل الطاعات . بيان أن العتق والصدقة من أفضل الأعمال ٦٨

تفسير قوله تعالى : « أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ... » الآيات . القول فى أن إطعام الطعام فضيلة . وأن الصدقة على القرابة أفضل منها على غير القرابة . أقوال العلماء فى المتربة ٦٩

تفسير قوله تعالى : « ثم كان من الذين آمنوا ... » الآيات . بيان أن شرط قبول الطاعة أن تكون مصحوبة بالإيمان ٧١

سورة « الشمس »

تفسير قوله تعالى : « والشمس وضحاها ... » الآيات . بيان أن هذه أقسام أقسم الله تعالى بها لما فيها من عجائب الصنعة الدالة عليه . قول أهل اللغة فى معانى كلمات هذه الآيات ٧٢

تفسير قوله تعالى : « قد أفلح من زكاها ... » الآيات . الكلام على تزكية النفس وتدسيسها ٧٦

تفسير قوله تعالى : « كذبت ثمود بطغواها ... » الآيات . بيان أن الله تعالى أطبق على ثمود العذاب بذنبهم الذى هو الكفر والتكذيب وعقر الناقة . قول أهل اللغة فى الدمدمة ٧٨

Marfat.com

صفحة

ســـورة « الليـــل »

تفسير قوله تعـالى : « والليل إذا يغشى ... » الآيات . توجيهات العلماء فى قوله :
« وما خلق الذكر والأنثى » . بيان المراد بالذكر والأنثى هنا ٨٠
تفسير قوله تعـالى : « فأما من أعطى واتقى ... » الآيات . القول فى سبب نزول هـذه الآيات . فضل المنفق فى سبيل الله . الكلام فيمن أعطى وصدّق بالحسنى، وما هى الحسنى . بيـان أن كل إنسان ميسر لعمله الذى خلق له .
القول فيمن ضنّ بمـا عنده ولم يبذل خيرا، وتيسيره للعسرى . بيان أن الجود من مكارم الأخلاق ، والبخل من أرذلها ٨٢
تفسير قوله تعـالى : « فأنذرتكم نارا تلظى ... » الآيات . الكلام على الأشقى الذى كذب وتولى ٨٦
تفسير قوله تعـالى : « وسيجنبها الأتقى ... »الآيات . الاختلاف فى سبب نزول هـذه السورة ، هل نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه لمـا اشترى بلالا وأعتقه .
أو نزلت فى أبى الدحداح فى النخلة التى اشتراها ببستان له ٨٨

ســـورة « الضحى »

تفسير قوله تعـالى : « والضحى . والليـــل إذا سجى ... » الآيات . أقوال العلماء فى سبب نزول هذه الآيات ٩١
تفسير قوله تعـالى : « ألم يجدك يتيما فآوى ... » الآيات . القول فى تعداد نعم الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم . بيان معنى قوله «ووجدك ضالا» والمراد من الضلال هنا ٩٦
تفسير قوله تعـالى : « فأما اليتيـم فلا تقهـر ... » الآيات . الحث على اللطف باليتيم ، وعلى برّه والإحسان إليه . النهى عن إغلاظ القول للسائل وزجره .
القـول فى أن التحدّث بنعم الله تعالى والاعتراف بهـا شكر . القول فيما إذا بلغ القارئ إلى آخر « والضحى » كبر بعد كل سورة تكبيرة إلى أن يختم القرآن ... ١٠٠

Marfat.com

صفحة

ســورة « ألم نشرح »

تفسير قوله تعالى : « ألم نشرح لك صدرك » الكلام على انشراح الصدر .
ما ورد فى شق صدر الرسول عليه السلام ١٠٤

تفسير قوله تعالى : « ووضعنا عنك وزرك ... » معنى الوزر الذى وضعه الله تعالى
عن رسوله الكريم . بيان رفع ذكره صلى الله عليه وسلم ١٠٥

تفسير قوله تعالى : « فإن مع العسر يسرا ... » بيان أن العرب إذا ذكروا اسما
معرّفا ثم كرروه فهو هو ، وإذا نكروه ثم كرروه فهو غيره ١٠٧

تفسير قوله تعالى : « فإذا فرغت فانصب ... » بيان المعنى المراد من هذه الآيات. ١٠٨

ســورة « والتين »

تفسير قوله تعالى : « والتين والزيتون » بيان الاختلاف فى معنى التين والزيتون .
الكلام على فضائل التين والزيتون ، وما فيهما من منافع . أقوال العلماء
فى وجوه الزكاة فيهما ١١٠

تفسير قوله تعالى : « وطور سينين . وهذا البلد الأمين » الكلام على « طور
سينين » . بيان أن المراد بالبلد الأمين مكة ١١٢

تفسير قوله تعالى : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ... » المعنى المراد
بالإنسان هنا . بيان أن الله تعالى ليس له خلق أحسن من الإنسان ، و بيان
صفاته التى خلقه الله عليها . تأويل قول الرسول عليه السلام "إن الله خلق آدم
على صورته" . قول الفلاسفة إن الإنسان هو العالم الأصغر . الكلام على ردّ
الإنسان إلى أسفل سافلين ١١٣

تفسير قوله تعالى : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... » ١١٥

تفسير قوله تعالى : « فما يكذبك بعد بالدين ... » الاختلاف فى المخاطب هل هو
الكافر ، توبيخا له . أو هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . بيان أن ألف
الاستفهام إذا دخلت على النفى وفى الكلام معنى التوقيف صار إيجابا ١١٦

Marfat.com

صفحة

ســـورة « العلق »

تفسير قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » بيان أن هـذه السورة أول ما نزل من القرآن على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهو قائم على حراء . القول فى أن أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصادقة ١١٧

تفسير قوله تعالى : « الذى علم بالقلم » . فضل تعلم الكتابة ، و بيان أن القلم نعمة من الله تعالى عظيمة . الاختلاف فيمن علم بالقلم . أقوال العلماء فى أن أصل الأقلام ثلاثة . القول فى أن العرب كانت أقل الخلق معرفة بالكتاب . وجه النهى فى تعليم النساء الكتابة ١٢٠

تفسير قوله تعالى : « علم الإنسان ما لم يعلم » اختلف فى الإنسان هنا أهو آدم عليه السلام ، أم نبينا صلى الله عليه وسلم ١٢٢

تفسير قوله تعالى : « كلا إن الإنسان ليطغى ... » الآيات . الكلام على من نزلت فيه هذه الآيات ١٢٢

تفسير قوله تعالى : « أرأيت الذى ينهى عبدا إذا صلى ... » الآيات . بيان أن هـذا نزل تو بيخا لأبى جهل ، لنهيه النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الصلاة ، وتكذيبه بكتاب الله ، وإعراضه عن الإيمان ١٢٤

تفسير قوله تعالى : « كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية ... » بيان أن هذا وإن كان فى أبى جهل فهو عظة للناس ، وتهديد لمن يمتنع أو يمنع غيره عن الطاعة . أقوال أهل اللغة فى معنى هـذه الآيات ١٢٥

تفسير قوله تعالى : « فليدع ناديه . سندع الزبانية » . الكلام على الزبانية : ومعنى النادى ١٢٦

تفسير قوله تعالى : « كلا لا تطعه واسجد واقترب » . القول فيما يقرب العبد من ربه تعالى ١٢٨

Marfat.com

صفحة

سورة « القدر »

تفسير قوله تعالى : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر ...» الآيات . الكلام على كيفية نزول القرآن . أقوال العلماء فيما يقدّر ليلة القدر . ما فى ليلة القدر من الفضائل . اختلاف العلماء فى تعيينها . العلامات الدالة عليها ١٢٩

سورة « لم يكن »

بيان ما جاء من الأحاديث فى فضلها . القول فى قراءة العالم على المتعلم ١٣٨

تفسير قوله تعالى : « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ... » الآيات . الكلام على أن أهل الكتاب هم اليهود الذين كانوا بيثرب ، وهم قريظة والنضير وبنو قينقاع ، وأن المشركين هم الذين كانوا بمكة والمدينة وما حولها ، وهم مشركو قريش . القول فى معنى « منفكين » وفى البينة التى أتتهم ١٤٠

تفسير قوله تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين ... » . فى الآية دليل على وجوب النية فى العبادات . معنى « حنفاء » ١٤٤

سورة « الزلزلة »

الكلام على فضائل هذه السورة ١٤٦

تفسير قوله تعالى : « إذا زلزلت الأرض زلزالها ... » الآيات . الكلام على زلزلة الأرض وإخراج أثقالها . أقوال العلماء فى حديث الأرض بأخبارها ١٤٧

تفسير قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ... » بيان أن هذا مثل ضربه الله تعالى بأنه لا يغفل من عمل ابن آدم صغيرة ولا كبيرة . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى هذه الآية : الآية الجامعة الفاذة ١٥٠

سورة « والعاديات »

تفسير قوله تعالى : « والعاديات ضبحا ... » اختلف فى « العاديات » ، أهى الخيل تعدو فى سبيل الله ، أم هى الإبل فى الحج ، ودليل كل . الكلام على معنى

Marfat.com

صفحة

الضبح . واختلف أيضا فى « الموريات » أهى الخيل أم الإبل . قول أهل اللغة فى معنى النقع ١٥٣

تفسير قوله تعالى : « إن الإنسان لربه لكنود » . بيان أن الكافر طبع على كفران النعمة . معنى الكنود فى اللغة ١٦٠

ســورة « القارعة »

تفسير قوله تعالى : « القارعة . ما القارعة ... » الكلام على القارعة ، وأنها تقرع الخلائق بأهوالها وأفزاعها... ... ... ١٦٤

تفسير قوله تعالى : « فأما من ثقلت موازينه ... » القول فى الميزان الذى يوزن به أعمال بنى آدم . لم سميت جهنم هاوية ١٦٦

ســورة « التكاثر »

تفسير قوله تعالى : « ألهاكم التكاثر ... » أقوال العلماء فى سبب نزولها . الكلام على زيارة القبور وأن زيارتها من أعظم الدواء للقلب القاسى . القول فى أنه ينبغى لمن قسا قلبه وأراد علاجه أن يكثر من ذكر الموت ، ويواظب على مشاهدة المحتضرين ، وزيارة قبور أموات المسلمين . القول فى الآداب التى يتأدب بها من عزم على زيارة القبور . بيان أن هذه السورة تضمنت القول فى عذاب القبر ، وأن الإيمان به واجب ١٦٨

تفسير قوله تعالى : « ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » . الكلام على قصة مالك ابن التيهان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ، رضوان الله عليهم . بيان اختلاف أهل التأويل فى النعيم المسئول عنه على عشرة أقوال ١٧٤

ســورة « والعصر »

تفسير قوله تعالى : « والعصر . إن الإنسان لفى خسر ... » أقوال العلماء فى العصر المقسم به . أقوالهم فيمن حلف ألا يكلم رجلا عصرا ١٧٨

Marfat.com

صفحة

سـورة « الهمزة »

تفسير قوله تعالى : « ويل لكل همزة لمزة ... » القول فى الهمزة اللمزة . بيان أصل الهمزة واللمزة . الاختلاف فيمن نزلت فيه هذه السورة . الكلام على الحطمة . ١٨١

سـورة « الفيل »

تفسير قوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » بيان أن هذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولكنه عام . الكلام على قصة أصحاب الفيل . اختلاف العلماء فى تاريخ مولده صلى الله عليه وسلم بالنسبة لعام الفيل . بيان أن قصة الفيل كانت من إرهاصاته صلى الله عليه وسلم ١٨٧

تفسير قوله تعالى : « وأرسل عليهم طيرا أبابيل ... » أقوال العلماء فى صفة الطير التى أرسلها الله تعالى على أصحاب الفيل . كلام أهل اللغة فى معنى « أبابيل وسجيل » . كيفية هلاكهم بالحجارة ١٩٦

سـورة « قريش »

تفسير قوله تعالى : « لإيلاف قريش ... » . اختلاف العلماء فى اتصال هذه السورة بالتى قبلها فى المعنى، الكلام على إيلافهم . نسب قريش . اختلف فى تسميتهم قريشا على أربعة أقوال . الكلام على رحلة الشتاء والصيف . توجيه قول مالك : الشتاء نصف السنة ، والصيف نصفها... ... ... ٢٠٠

سـورة « الماعون »

تفسير قوله تعالى : « أرأيت الذى يكذب بالدين ... » اختلاف الأقوال فيمن نزلت فيه هذه السورة . كانوا فى الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصبيان . الكلام على السهو فى الصلاة . بيان حقيقة الرياء . القول فى إظهار العمل إن كان فريضة ، وإخفائه إن كان تطوعا ، بيان المراد من منع الماعون ، وأن فيه اثنى عشر قولا ٢١٠

Marfat.com

صفحة

سـورة « الكوثر »

تفسير قوله تعالى : « إنا أعطيناك الكوثر » قول أهل اللغة فى معنى الكوثر . اختلاف أهل التأويل فى الكوثر الذى أعطيه النبي صلى الله عليه وسلم ٢١٦

تفسير قوله تعالى : « فصل لربك وانحر ... » أقوال العلماء فى معنى الصلاة والنحر . القول فيمن نحر قبل الصلاة . اختلاف العلماء فيمن وضع يمينه على شماله فى الصلاة . واختلافهم فى الموضع الذى عليه توضع اليد . اختلافهم أيضا فى رفع اليدين فى التكبير عند الافتتاح والركوع والرفع من الركوع والسجود ... ٢١٨

تفسير قوله تعالى : « إن شانئك هو الأبتر » الكلام على سبب نزول هذه الآية . أقوال أهل اللغة فى معنى الأبتر ٢٢٢

سـورة « الكافرون »

بيان ماجاء فى فضلها، وأنها تعدل ثلث القرآن ٢٢٤

تفسير قوله تعالى: « قل يا أيها الكافرون... » القول فى سبب نزول هذه السورة. بيان أن القرآن نزل على أساليب العرب، ومن مذاهبهم التكرار إرادة التأكيد والإفهام ، كما أن مذاهبهم الاختصار إرادة التخفيف والإيجاز . الاختلاف فى نسخ هذه السورة ٢٢٥

سـورة « النصر »

تفسير قوله تعالى : « إذا جاء نصر الله والفتح ... » بيان المراد بهذا النصر، ومعناه لغة . قول بعض العلماء إن المراد بالناس فى هذه السورة هم أهل اليمن . بيان أن الله تعالى أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم بحضور أجله بنزول هذه السورة . القول فى استغفاره صلى الله عليه وسلم، وهل كان تعبدا، أو تنبيها لأمته خشية أن يتركوا الاستغفار ٢٢٩

Marfat.com

صفحة

سورة « تبت »

تفسير قوله تعالى : « تبت يدا أبى لهب وتب ... » القول فى سبب نزول هذه السورة . بيان ما كان يفعله أبو لهب وامرأته بالرسول صلوات الله عليه ... أقوال العلماء فى تكنية أبى لهب . بيان أن ولد الرجل من كسبه . القول فى أن امرأة أبى لهب كانت تمشى بالنميمة بين الناس . التحذير من النميمة ، وأنه لا يدخل الجنة نمام . أفعال امرأة أبى لهب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كلام أهل اللغة فى معنى المسد ٢٣٤

سورة « الإخلاص »

تفسير قوله تعالى : « قل هو الله أحد ... » الكلام على معنى « أحد » ومعنى « الصمد » . بيان أن هذه السورة نزلت جوابا لأهل الشرك لما قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : صف لنا ربك . القول فى الأحاديث الواردة فى هذه السورة ٢٤٤

سورة « الفلق »

تفسير قوله تعالى : « قل أعوذ برب الفلق ... » الكلام فى فضلها . قول أهل اللغة فى « الفلق والغاسق » . اختلاف العلماء فى النفث عند الرقية . الكلام فى معنى الحسد ، وأنه مذموم . القول فى أن الحاسد بارز ربه من خمسة أوجه ٢٥٢

سورة « الناس »

تفسير قوله تعالى : « قل أعوذ برب الناس ... » بيان ما جاء فى الوسواس الخناس ٢٦٠

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة «الطارق»

مَكِّيَّةٌ، وهى سبع عشرة آية

قوله تعالى: وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣)

قوله تعالى: ﴿والسماءِ والطارِقِ﴾ قَسَمان: «السماء» قَسَم، و «الطارق» قَسَم. والطارق: النجم. وقد بينه الله تعالى بقوله: ﴿ومَا أدراكَ ما الطارِقُ. النَّجْمُ الثاقِبُ﴾. واختلف فيه؛ فقيل: هو زُحَل: الكوكب الذى فى السماء السابعة؛ ذكره محمد بن الحسن[1] فى تفسيره، وذكر له أخبارا، الله أعلم بصحتها. وقال ابن زيد: إنه الثُّريا. وعنه أيضا أنه زُحَل؛ وقاله الفراء. ابن عباس: هو الجَدْى. وعنه أيضا وعن على بن أبى طالب — رضى الله عنهما — والفراء: «النجم الثاقِب»: نجم فى السماء السابعة، لا يسكنها غيره من النجوم؛ فإذا أخَذَت النجوم أمكنتها من السماء، هبط فكان معها، ثم يرجع إلى مكانه من السماء السابعة، وهو زُحَل؛ فهو طارق حين ينزل، وطارق حين يصعد. وحكى الفراء: ثَقَبَ الطائر: إذا ارتفع وعلا. وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعدا مع أبى طالب، فانحط نجم، فامتلأت الأرض نورا، ففزع أبو طالب، وقال: أى شىء هذا؟ فقال: "هذا نجم رُمِىَ به، وهو آية من آيات الله" فعجب أبو طالب، ونزل: «والسماءِ والطارِقِ». وروى عن ابن عباس أيضا «والسماءِ والطارِقِ» [قال: السماء][2] وما يطْرُق فيها. وعن

(١) لعل المراد به: أبو بكر العطار: محمد بن الحسن بن مقسم.

(٢) زيادة من الطبرى.

Marfat.com

ابن عباس وعطاء: « الثاقب » : الذى تُرمَى به الشياطين . قتادة : هو عام فى سائر النجوم؛ لأن طلوعها بليل ، وكل من أتاك ليلا فهو طارق . قال :

ومِثلكِ حبلى قد طرقت ومرضعًا * فألهيتها عن ذى تمائم مُغيِلِ[1]

وقال :

ألم ترياني كلما جئت طارقا * وجدت بها طيبا وإن لم تَطَيَّبِ

فالطارق : النجم ، اسم جنس ، سمى بذلك لأنه يطرق ليلا ، ومنه الحديث : " نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يطرُق المسافر أهلَه ليلا ، كى تستحِدّ المُغيبة ، وتمتشط الشعِثة "[2] . والعرب تسمى كل قاصِد فى الليل طارقا . يقال : طرق فلان إذا جاء بليل . وقد طرُق يطرق طروقا ، فهو طارق . ولابن الرومِى[3] :

يا راقدَ الليلَ مسرورا بأوّلِهِ * إن الحوادث قد يطرُقن أسحارا

لاتفرحَنَّ بليل طابَ أوّله * فرب آخرِ ليلٍ أجّج النارا

وفى الصحاح : والطارق : النجم الذى يقال له كوكب الصبح . ومنه قول هند[4] :

نحنُ بناتِ طارِقِ * نمشى على النمارِقِ

أى إن أبانا فى الشرف كالنجم المضىء . الماوردى : وأصل الطَّرْق : الدّق ، ومنه سميت المِطرقة ، فسمى قاصدُ الليلِ طارقا ، لاحتياجه فى الوصول إلى الدق . وقال قوم : إنه قد يكون نهارا . والعرب تقول ؛ أتيتك اليوم طَرْقتين : أى مرتين . ومنه قوله صلى الله عليه

---

(١) البيت لامرئ القيس . والتمائم : التعاويذ التى تعلق فى عنق الصبى . وذو التمائم : هو الصبى . والمغيل : الذى تؤتى أمه وهى ترضعه . ويروى : « محول » بدل « مغيل » وهو الذى أتى عليه الحول .

(٢) الاستحداد : حلق العانة بالحديد . والمغيبة : التى غاب عنها زوجها . والشعثة : التى تلبد شعرها .

(٣) لم نعثر على هذين البيتين فى ديوان ابن الرومى . وقد أورد الجاحظ البيت الأول فى كتابه (الحيوان جـ ٦ ص ٥٠٨ طبع مطبعة الحلبى) غير منسوب . ولم يعرف أن الجاحظ يستشهد بشعر ابن الرومى . وقد توفى الجاحظ وكانت سن ابن الرومى ٣٤ على أن هذا الشعر ليس من روح ابن الرومى . وقد أورد أيضا الغزالى فى (الإحياء جـ ٣ ص ١٨٠ طبع الحلبى) البيت الأول ضمن ستة أبيات من وزنه وقافيته .

(٤) هى هند بنت بياضة بن رباح بن طارق الإيادى ، قالت هذا الرجز يوم أحد تحض على الحرب ، والرجز بأ كله فى (اللسان : طرق) .

Marfat.com

وسلم : " أعوذ بك من شر طوارِق الليل والنهار، إلا طارقا يطرق بخير يارحمن " . وقال جرير في الطروق :

طَـرَقَتْكَ صائدةُ القلوب وليس ذا * حينَ الزيارة فارجِعِي بسلامِ

ثم بين فقال : ﴿ وما أَدْراكَ ماالطارق . النجْمُ الثاقِبُ ﴾ والثاقب : المضيء . ومنه « شِهاب ثاقِب »(١) . يقال : ثَقَب يثْقب ثُقُوبا وثقابة : إذا أضاء . وثُقوبُه : ضوءه . والعرب تقول : أثقِب نارك ؛ أى أضِئْها . قال :

أذاعَ به في النـاسِ حتّى كأنَّه * بعلياءَ نارٌ أُوقِـدتْ بثَقُـوبِ

الثَّقوب : ما تشعل به النار من دُقاق العِيدان . وقال مجاهد : الثاقب : المتوهِّج . القشيري : والمعظَم على أن الطارق والثاقب اسم جنس أريد به العُموم(٢) ، كما ذكرنا عن مجاهد . ﴿وماأدراك ما الطارِق ﴾ تفخيما لشأن هذا المقسَم به . وقال سفيان : كل مافى القرآن « وما أدراك » ؟ فقد أخبره به . وكل شيء قال فيه « ومايدريك » : لم يخبره به .

قوله تعـالى : إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾

قال قتادة : حَفَظة يحفظون عليك رِزقك وعملك وأجلك . وعنه أيضا قال : قرينـه يحفظ عليه عمله : من خير أو شر . وهذا هو جواب القسم . وقيل : الجواب « إنه على رجعه لقادِر » في قول الترمذي : محمد بن على . و «إن» : مخففة من الثقيلة، و « ما » : مؤكدة، أى إن كل نفس لعليها حافظ . وقيـل : المعنى إن كل نفس إلا عليها حافظ : يحفظها من الآفات، حتى يُسلمها إلى القدر . قال الفراء : الحافظ من الله، يحفظها حتى يسلمها إلى المقادير، وقاله الكلبي . وقال أبو أُمامة : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " وُكِّل بالمؤمن مائة وستون ملكا يذُبون عنه ما لم يقدر عليه . من ذلك البصر، سبعة أملاك يذبون عنه، كما يذب عن قصعة العسل الذباب . ولو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين " . وقراءة ابن عامر وعاصم وحمزة « لمـّا » بتشديد الميم، أى ما كل نفس إلا عليها حافظ، وهى لغة

(١) آية ١٠ سورة الصافات . (٢) أى لم يرد به نجم معين، كالثريا أو زحل، كما قال بعض المفسرين .

Marfat.com

هذيل . يقول قائلهم : نَشَدتك لمّا قمت . الباقون بالتخفيف ، على أنها زائدة مؤكدة ، كما ذكرنا . ونظير هذه الآية قوله تعالى : « له معقبات مِن بينِ يديهِ ومِن خلفِهِ يحفظونه مِن أمرِ الله »(١) ، على ماتقدم . وقيل : الحافظ هو الله سبحانه ؛ فلولا حفظه لها لم تبق . وقيل : الحافظ عليه عقله ، يرشده إلى مصالحه ، ويكفه عن مضارّه .

قلت : العقل وغيره وسائط ، والحافظ فى الحقيقة هو الله جل وعز ؛ قال الله عز وجل : « فالله خيرٌ حافظا »(٢) ، وقال : « قل من يكلؤكم بالليلِ والنهارِ مِن الرحمنِ »(٣) . وما كان مثله .

قوله تعالى : فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسان ﴾ أى ابن آدم ﴿ مِمَّ خُلِق ﴾ ؟ وجه الاتصال بماقبله توصية الإنسان بالنظر فى أول أمره وسنته الأولى ، حتى يعلم أن من أنشأه قادر على إعادته وجزائه ؛ فيعمل ليوم الإعادة والجزاء ، ولا يُمْلِى على حافظه إلا مايسره فى عاقبة أمره . و « مِمَّ خُلِق » ؟ استفهام ؛ أى من أى شىء خلق ؟ ثم قال : ﴿ خُلِق ﴾ وهو جواب الاستفهام ﴿ مِن ماءٍ دافِقٍ ﴾ أى من المنِىّ . والدَّفْق : صب الماء ، دفقت الماء أدفُقُه دفقا : صببته ، فهو ماء دافق ، أى مدفوق ؛ كما قالوا : سِرٌّ كاتم : أى مكتوم ؛ لأنه من قولك : دُفِق الماء ، على مالم يُسَمَّ فاعله . ولا يقال : دَفَق الماءُ(٤) . ويقال : دفَقَ الله رُوحَه : إذا دُعِى عليه بالموت . قال الفراء والأخفش : « من ماءٍ دافِقٍ » أى مصبوب فى الرحم . الزجاج : من ماء ذى اندفاق . يقال : دارع وفارس ونابل ؛ أى ذو فرس ، ودرع ، ونبل . وهذا مذهب سيبويه . فالدافق هو المندفق بشدّة قوته . وأراد ماءين : ماء الرجل وماء المرأة ؛ لأن الإنسان مخلوق منهما ، لكنْ جعلهما ماء واحدا لامتزاجهما . وعن عكرمة عن ابن عباس : « دافِقٍ » لزِج . ﴿ يخرج ﴾

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٩١ (٢) آية ٦٥ سورة يوسف . (٣) آية ٤٢ سورة الأنبياء .
(٤) بل يقال ذلك ، ونقله صاحب اللسان عن الليث . وانظره أيضا فى المصباح المنير للفيومى .

Marfat.com

أى هذا الماء ﴿ مِن بينِ الصُّلْبِ ﴾ أى الظهر . وفيه لغات أربع [١] : صُلْب ، وصُلُب — وقرئ بهما — وصَلَب (بفتح اللام) ، وصالب (على وزن قالَب) ؛ ومنه قول العباس [٢] :

* تُنْقَلُ من صالِبٍ إلى رَحِمِ *

﴿ والترائب ﴾ : أى الصدر ، الواحدة : تَرِيبة ؛ وهى موضع القِلادة من الصدر . قال :

مُهَفْهَفة بيضاء غيرُ مُفاضةٍ * ترائبُها مصقولة كالسَّجَنْجَلِ [٣]

والصُّلْب من الرجل ، والترائب من المرأة . قال ابن عباس : الترائب : موضع القلادة . وعنه : ما بين ثدييها ؛ وقال عكرمة . ورُوِى عنه : يعنى ترائب المرأة : اليدين والرجلين والعينين ؛ وبه قال الضحاك . وقال سعيد بن جبير : هو الجِيد . مجاهد : هو ما بين المنكبين والصدر . وعنه : الصَّدر . وعنه : التراقى . وعن ابن جبير عن ابن عباس : الترائب : أربع أضلاع من هذا الجانب . وحكى الزجاج : أن الترائب أربع أضلاع من يمنة الصدر ، وأربع أضلاع من يسرة الصدر . وقال معمر بن أبى حبيبة المَدَنىّ : الترائب عُصارة القلب ؛ ومنها يكون الولد . والمشهور من كلام العرب : أنها عظام الصدر والنحر [٤] . وقال دُرَيد بن الصمة :

فإن تدبِروا نأخذْكُم فى ظهورِكُمْ * وإن تقبلوا نأخذكم فى الترائب

وقال آخر :

وبدت كأن ترائبا من نحرها * جمرُ الغَضَى فى ساعدٍ تتوقد

وقال آخر :

والزعفرانُ على ترائبها * شرق به اللبات والنحرُ [٥]

---

(١) بل هى ثلاث فقط ؛ أما صلب بضمتين ، فضمة العين إتباع للفاء ، وليست لغة ثابتة (انظر تاج العروس : صلب) . (٢) هو ابن عبد المطلب ، يمدح النبى صلى الله عليه وسلم ، وتمام البيت :

* إذا مضى عالم بدا طبق *

(٣) البيت من معلقة امرئ القيس . والمهفهفة : الخفيفة اللحم ، التى ليست برهلة ولا ضخمة البطن . والمفاضة : المسترخية البطن . والسجنجل : المرآة . وقيل : سبيكة الفضة ، أو الزعفران ، أو ماء الذهب .

(٤) فى بعض نسخ الأصل : « أنها عظام النهد والصدر » .

(٥) البيت للخبل . وشرق الجسد بالطيب امتلأ فضاق . واللبات (جمع لبة) : موضع القلادة .

Marfat.com

وعن عكرمة : الترائب : الصدر ؛ ثم أنشد :

* نظامُ دُرٍّ على ترائبها *

وقال ذو الرمة :

* ضَرَجْن البرود عن ترائب حرة (١) *

أى شققن . ويروى « ضرحن » بالحاء ؛ أى ألقين . وفى الصحاح : والتريبة : واحدة الترائب ، وهى عظام الصدر ؛ ما بين الترقوة والثُّنْدُوة .

قال الشاعر :

* أشرفَ ثَدياها على التَّرِيبِ (٢) *

وقال المثقِّب العَبْدِىّ :

ومن ذَهَبٍ يُسَنُّ على تَرِيبٍ (٣) * كلون العاج ليس بذى غُضُونِ (٤)

[عن غير الجوهرىّ : الثندوة للرجل : بمنزلة الثدى للمرأة . وقال الأصمعىّ : مَغْرِز الثدى . وقال ابن السكيت : هى اللحم الذى حول الثدى ؛ إذا ضممت أولها همزت ، و إذا فتحت لم تهمز](٥) .
وفى التفسير : يخلق من ماء الرجل الذى يخرج من صلبه العظم والعصب . ومن ماء المرأة الذى يخرج من ترائبها اللحم والدّم ؛ وقاله الأعمش . وقد تقدّم مرفوعا فى أوّل سورة (آل عمران)(٦) . والحمد لله — وفى (الحجرات) « إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى » وقد تقدّم(٧) . وقيل : إن ماء الرجل ينزل من الدماغ ، ثم يجتمع فى الأنثيين . وهذا لا يعارض قوله : « من بين الصلب » ؛ لأنه

---

(١) تمام البيت :

* وعن أعين قتلننا كل مقتل *

(٢) القائل : هو الأغلب العجلى . وعجز البيت :

* لم يعدوا التفليك فى النتوب *

وتفلك ثدى الجارية : استدار . والنتوب : النهود ، وهو ارتفاعه .

(٣) كذا فى بعض النسخ والطبرى . وفى بعضها : « يسر » بالراء . وفى روح المعانى : « يبين » . وفى اللسان وشعراء النصرانية « يلوح » . (٤) فى اللسان مادة (ترب) : « ... ليس له غضون » . والبيت من قصيدة مكسورة القافية ، مطلعها :

أفاطم قبل بينك متعينى * ومنعك ما سألت كأن تبينى

(٥) ما بين المربعين ساقط من بعض نسخ الأصل . (٦) راجع جـ ٤ ص ٧ (٧) راجع جـ ١٦ ص ٣٤٣

Marfat.com

إن نزل من الدماغ، فإنما يمر بين الصلب والترائب . وقال قتادة : المعنى ويخرج من صلب الرجل وترائب المرأة . وحكى الفراء أن مثل هذا يأتى عن العرب؛ وعليه فيكون معنى من بين الصلب : من الصلب . وقال الحسن : المعنى : يخرج من صلب الرجل وترائب الرجل، ومن صلب المرأة وترائب المرأة . ثم إنا نعلم أن النطفة من جميع أجزاء البدن؛ ولذلك يُشْبه الرجل والديه كثيراً (١) . وهذه الحكمة فى غسل جميع الجسد من خروج المنى . وأيضا المكثر من الجماع يجد وجعا فى ظهره وصلبه ؛ وليس ذلك إلا لخلو صلبه عما كان محتبسا من الماء . وروى إسماعيل عن أهل مكة « يخرج من بين الصُّلُب » بضم اللام . ورُويت عن عيسى الثقفى . حكاه المهدوى وقال : من جعل المنِيّ يخرج من بين صلب الرجل وترائبه، فالضمير فى «يخرج» للماء . ومن جعله من بين صلب الرجل وترائب المرأة، فالضمير للإنسان . وقرئ «الصَّلَب»، بفتح الصاد واللام . وفيه أربعُ لغات (٢) : صُلْب وصُلُب وصَلَب وصَالَب . قال العجّاج :

* فى صَلَبٍ مثلِ العِنان المؤدَمِ *

وفى مدح النبيّ صلى الله عليه وسلم :

* تُنْقَل من صَالَبٍ إلى رَحِمِ (٣) *

الأبيات مشهورة معروفة . ﴿إنه﴾ أى إن الله جل ثناؤه ﴿على رَجْعِهِ﴾ أى على ردّ الماء فى الإحليل، ﴿لقادر﴾ كذا قال مجاهد والضحاك . وعنهما أيضا أن المعنى : إنه على رد الماء فى الصلب؛ وقاله عكرمة . وعن الضحاك أيضا أن المعنى : إنه على ردّ الإنسان ماء كما كان لقادر . وعنه أيضا أن المعنى : إنه على ردّ الإنسان من الكِبَر إلى الشباب، ومن الشباب إلى الكبر، لقادر . وكذا فى المهدِوىّ . وفى الماوردِىّ والثعلبيّ : إلى الصِّبا، ومن الصبا إلى النطفة . وقال ابن زيد : إنه على حبس ذلك الماء حتى لا يخرج، لقادر . وقال ابن عباس وقتادة والحسن وعكرمة أيضا : إنه على ردّ الإنسان بعد الموت لقادر . وهو اختيار الطبرىّ . الثعلبىّ : وهو الأقوى؛ لقوله تعالى : « يومَ تُبْلَى السَّرائِر » . قال الماوردىّ : ويحتمل أنه على أن يعيده إلى الدنيا بعد بعثه فى الآخرة ؛ لأن الكفار يسألون الله تعالى فيها الرَّجْعة .

(١) وقال الأستاذ الإمام فى تفسير جزء (عم) : كنى بالصلب عن الرجل، وبالترائب عن المرأة .
(٢) انظر ما سبق فى ص ٥ .		(٣) تمام البيت * إذا بدا عالم بدا طبق *
وهو من قول العباس بن عبد المطلب فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم .

Marfat.com

قوله تعالى : يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾

فيه مسألتان :

الأولى — العامل فى « يومَ » — فى قول من جعل المعنى إنه على بعث الإنسان — قوله « لقادر » ، ولا يعمل فيه « رَجْعِه » لما فيه من التفرقة بين الصلة والموصول بخبر « إنّ » . وعلى الأقوال الأخر التى فى « إنه على رجْعِه لقادِر » ، يكون العامل فى « يومَ » فعل مضمر ، ولا يعمل فيه « لقادر » ؛ لأن المراد فى الدنيا . و ﴿ تُبْلَى ﴾ أى تمتحن وتختبر ؛ وقال أبو الغُول الطُّهوِىّ[1] :

ولا تَبْلَى بَسالَتُهُمْ وإنْ هُمْ * صَلُوا بالحَرْب حِينا بعدَ حِينِ

ويروى « تبلى بَسالَتُهم » . فمن رواه «تُبلى» — بضم التاء — جعله من الاختبار ، وتكون البسالة على هذه الرواية الكراهة ؛ كأنه قال : لا يُعرف لهم فيها كراهة . و « تُبلَى » تُعرَف . قال الراجز :

قد كنتَ قبلَ اليوم تَزْدَرِيني * فاليومَ أَبْلُوكَ وتَبْتَلِيني

أى أعرفك وتعرفنى . ومن رواه «تَبلَى» — بفتح التاء — فالمعنى : أنهم لا يضعفون عن الحرب وإن تكررت عليهم زمانا بعد زمان . وذلك أن الأمور الشّداد إذا تكررت على الإنسان هدّته وأضعفته . وقيل : «تُبلَى السرائر» : أى تخرج مخبآتها وتظهر ، وهو كل ما كان استسره الإنسان من خير أو شر ، وأضمره من إيمان أو كفر ؛ كما قال الأحوص :

سيبقى[2] لها فى مُضْمَر القلب والحَشَا * سريرةُ وَدٍّ يوم تُبْلَى السَّرائرُ

---

(١) هو شاعر إسلامى ، منسوب الى « طهية » ، بضم الطاء ، وهى أم قبيلة من العرب .

(٢) كذا ورد فى بعض نسخ الأصل و(خزانة الأدب ج ١ ص ٣٢٢) وفى بعض نسخ الأصل ، والشعر والشعراء ، و (كتاب الأغانى ج ٤ ص ٢٤٢ طبع دار الكتب المصرية) : « ستبلى لكم ... » .

Marfat.com

الثـانية — رُوِى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: " اِئتمن الله تعالى خلقه على أربع: على الصلاة، والصوم، والزكاة، والغُسل، وهى السرائر التى يختبرها الله عز وجل يوم القيامة ". ذكره المهدوىّ. وقال ابن عُمر قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " ثلاث من حافظ عليها فهو ولىّ الله حقا، ومن اختانهنّ فهو عدوّ الله حقا: الصلاة، والصوم، والغُسل من الجنابة" ذكره الثعلبيّ. وذكر المـاوَرْدِىّ عن زيد بن أسلم: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " الأمانة ثلاث: الصلاة، والصوم، والجنابة. استأمن الله عز وجل ابن آدم على الصلاة، فإن شاء قال صليت ولم يصل. استأمن الله عز وجل ابن آدم على الصوم، فإن شاء قال صمت ولم يصم. استأمن الله عز وجل ابن آدم على الجنابة، فإن شاء قال اغتسلت ولم يغتسل، اقرءوا إن شئتم «يوم تُبْلَى السرائر» "، وذكره الثعلبى عن عطاء. وقال مالك فى رواية أشهب عنه، وسألته عن قوله تعالى: «يوم تبلى السرائر»: أبلغك أن الوضوء من السرائر؟ قال: قد بلغنى ذلك فيما يقول الناس، فأما حديث أحدّث (1) به فلا. والصلاة من السرائر، والصيام من السرائر، إن شاء قال صليت ولم يصـل. ومن السرائر ما فى القلوب، يجزى الله به العباد. قال ابن العـربىّ: «قال ابن مسعود يُغفر للشهيد إلا الأمانة، والوضوء من الأمانة، والصلاة والزكاة من الأمانة، والوديعة من الأمانة؛ وأشدّ ذلك الوديعة؛ تُمَثّل له على هيئتها يوم أخذها، فيرمى بها فى قعر جهنم، فيقال له: أخرجها، فيتبعها فيجعلها فى عنقه، فإذا رجا أن يخرج بها زلت منه، فيتبعها؛ فهو كذلك دَهْرَ الداهرين. وقال أبىّ بن كعب: من الأمانة أن ائْتُمِنَت المرأة على فرجها. قال أشهب: قال لى سفيان: فى الحَيضة والحمل، إن قالت لم أحِض وأنا حامل صُدِّقت، ما لم تأت بمـا يعرف فيه أنها كاذبة». وفى الحديث: " غُسل الجنابة من الأمانة ". وقال ابن عُمر: يُبدِى الله يوم القيامة كل سر خفىّ، فيكون زينا فى الوجوه، وشينا فى الوجوه. والله عالم بكل شىء، ولكن يظهر علامات الملائكة والمؤمنين.

(1) فى ابن العربى: «أخذته».

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾

قوله تعالى : ﴿فما له﴾ أى للإنسان ﴿مِن قوةٍ﴾ أى مَنعة تمنعه . ﴿ولا ناصِر﴾ ينصره مما نزل به . وعن عِكرمة « فما له مِن قوةٍ ولا ناصِر» قال : هؤلاء الملوك ، ما لهم يوم القيامة من قوة ولا ناصر . وقال سفيان : القوة : العَشيرة . والناصر: الحَليف . وقيل : « فما له من قوةٍ » فى بدنه . « ولا ناصِر » من غيره يمتنع به من الله . وهو معنى قول قتادة .

قوله تعالى : ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝١٢ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝١٤ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦﴾

قوله تعالى : ﴿والسماءِ ذاتِ الرَّجْع﴾ أى ذات المطر. ترجع كل سنة بمطر بعد مطر . كذا قال عامة المفسرين . وقال أهل اللغة : الرجْع : المطر، وأنشدوا لِلْمُتَنَخِّل يصف سيفا شبهه بالماء :

أبيضُ كالرجْعِ رَسُوبٌ إذا * ما ثاخ فى مُحْتَفَلٍ يَخْتَلِي

[ثاخت قدمه فى الوحل تثوخ وتثيخ : خاضت وغابت فيه ؛ قاله الجوهرى][1] .

قال الخليل : الرجع : المطر نفسه ، والرجع أيضا : نبات الربيع . وقيل : «ذاتِ الرجع» : أى ذات النفع . وقد يُسمى المطر أيضا أَوْبا ، كما يسمى رَجْعا ، قال :

رَبّاءُ شَمّاءُ لا يأوِى لِقُلّتِها * إلا السحابُ وإلا الأَوْبُ والسَّبَلُ[2]

(١) ما بين المربعين ذكر فى هامش بعض نسخ الأصل . والمحتفل : أعظم موضع فى الجسد . ويختلى : يقطع .

(٢) البيت للمتنخل الهذلى . قال السكرى فى شرح هـذا البيت : « ربّاء يربأ فوقها ؛ يقول لا يدنو اقلتها ؛ أى لرأسها . أى لا يعلو هـذه الهضبة من طـولها . لا السحاب والأوب . والأوب : رجـوع النحل . والسبل : القطر حين يسبل » .

Marfat.com

وقال عبد الرحمن بن زيد: الشمس والقمر والنجوم يَرْجِعن في السماء؛ تطلع من ناحية وتغيب في أخرى. وقيل: ذات الملائكة؛ لرجوعهم إليها بأعمال العباد. وهذا قَسَم. ﴿ والأَرضِ ذاتِ الصَّدْعِ ﴾ قَسَم آخر؛ أي تتصدّع عن النبات والشجر والثمار والأنهار؛ نظيره « ثم شَقَقْنا الأَرضَ شَقًا (١) »... الآية. والصدع: بمعنى الشّق؛ لأنه يصدع الأرض، فتنصدع به. وكأنه قال: والأرض ذات النبات؛ لأن النبات صادع للأرض. وقال مجاهد: والأرض ذات الطُّرُق التي تَصْدَعها المشاة. وقيل: ذاتِ الحَرْث، لأنه يصدعها. وقيل: ذاتِ الأموات: لانصداعها عنهم للنشور. ﴿ إنهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ على هذا وقع القَسَم. أي إن القرآن يَفْصل بين الحق والباطل. وقد تقدّم في مقدمة الكتاب (٢) ما رواه الحارث عن عليّ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "كتاب فيه خَبَر ما قبلكم وحُكم مابعدكم، هو الفَصْل، ليس بالهزل، من تركه من جبَّار قَصَمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله". وقيل: المراد بالقول الفصل: ماتقدم من الوعيد في هذه السورة، من قوله تعالى: « إنه على رجعِهِ لقادِر. يوم تُبْلَى السرائر ». ﴿ وما هُوَ بِالهزلِ ﴾ أي ليس القرآن بالباطل واللعب. والهزل: ضدّ الجِدّ، وقد هَزَل يَهْزِل. قال الكميت.

* يُجَدّ بنا في كلِّ يومٍ ونَهْزِل (٣) *

﴿ إنهم ﴾ أي إن أعداء الله ﴿ يَكِيدون كَيْدا ﴾ أي يمكرون بمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه مَكرا. ﴿ وأَكِيدُ كيدا ﴾ أي أجازيهم جزاء كيدهم. وقيل: هو ما أوقع الله بهم يومَ بدرٍ من القتل والأَسر. وقيل: كَيْد الله: استدراجُهم من حيث لا يعلمون. وقد مضى هذا المعنى في أول « البقرة »، عند قوله تعالى: « الله يستهزئ بهم » (٤). مستوفًى.

---

(١) آية ٢٦ سورة عبس. (٢) راجع جـ ١ ص ٥ طبعة ثانية أو ثالثة. (٣) صدر البيت:

* أرانا على حب الحياة وطولها *

(٤) راجع جـ ١ ص ٢٠٨ طبعة ثانية أو ثالثة.

Marfat.com

قوله تعالى : فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فمهل الكافرين ﴾ أى أخرهم ، ولا تسأل الله تعجيل إهلاكهم ، وارض بما يدبره (١) فى أمورهم . ثم نسخت بآية السيف «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» (٢). ﴿ أَمْهِلْهُمْ ﴾ تأكيد . ومَهَّل وأمهل : بمعنى؛ مثل نَزَّل وأنزل . وأمهله : أنظره، ومهله تمهيلا ، والاسم : المُهْلَة . والاستمهال : الاستنظار . وتَمَهَّل فى أمره أى اتّأد . واتْمَهَلّ اتْمِهْلالا : أى اعتدل وانتصب . والاتْمِهلال أيضا : سكون وفتور . ويقال : مهلا يافلان؛ أى رِفقا وسكونا . ﴿ رُوَيْدا ﴾ أى قريبا؛ عن ابن عباس . قتادة : قليلا . والتقدير : أمهلهم إمهالا قليلا . والرُّوَيد فى كلام العرب : تصغير رُوْد . وكذا قاله أبو عبيد . وأنشد :

* كأنَّها ثَمِلٌ يمشى على رُودِ (٣) *

أى على مَهَل . وتفسير « رُوَيدا » : مَهْلا ، وتفسير (رُوَيْدَك) : أمهل؛ لأن الكاف إنما تدخله إذا كان بمعنى أفعل دون غيره ، وإنما حركت الدال لالتقاء الساكنين ، فنُصب نصب المصادر ، وهو مصغر مأمور به؛ لأنه تصغير الترخيم من إرواد؛ وهو مصدر أَرْوَد يُرْوِد . وله أربعة أوجه : اسمٌ للفعل ، وصفة ، وحال ، ومصدر؛ فالاسم نحو قولك : رُوَيْدَ عَمْرا ؛ أى أرود عمرا ، بمعنى أمهله . والصفة نحو قولك : ساروا سيرا رُوَيْدا . والحال نحو قولك : سار القوم رُوَيْدًا ، لما اتصل بالمعرفة صار حالا لها . والمصدر نحو قولك : رُوَيْدَ عَمْرٍو بالإضافة؛ كقوله تعالى : « فضَرْبَ الرقاب» (٤) . قال جميعه الجوهرى . والذى فى الآية من هذه الوجوه أن يكون نعتا للمصدر؛ أى إمهالا رُوَيدا . ويجوز أن يكون للحال؛ أى أمهلهم غير مستعجل لهم العذاب . ختمت السورة .

---

(١) فى بعض النسخ « يريده » . (٢) آية ٥ سورة التوبة .

(٣) هذا عجز بيت للجموح الظفرى . وصدره :

* تكاد لا تثلم البطحاء وطأتها *

(٤) آية ٤ سورة محمد .

Marfat.com

سورة « الأعلى »

مكّية فى قول الجمهور . وقال الضحاك : مدنيّة . وهى تسع عشرة آية .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾

يُستحب للقارئ إذا قرأ « سبح اسم ربك الأعلى » أن يقول عَقِبه : سبحانَ ربيَ الأعلى ؛ قاله النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وقاله جماعة من الصحابة والتابعين ؛ على ما يأتى . وروى جعفر ابن محمد عن أبيه عن جدّه قال : إن لله تعالى مَلَكا يقال له حِزْقيائيل ، له ثمانيةَ عَشرَ ألفَ جَناح ، مابين الجناح إلى الجناح مسيرة خمسمائة عام ، فخطر له خاطر : هل تقدر أن تبصر العرش جميعه ؟ فزاده الله أجنحة مثلها ، فكان له ستة وثلاثون ألف جناح ، مابين الجناح إلى الجناح خمسمائة عام . ثم أوحى الله إليه : أيها المَلَك ، أَنْ طِرْ ، فطار مقدار عشرين ألف سنة ؛ فلم يبلغ رأس قائمة من قوائم العرش . ثم ضاعف الله له فى الأجنحة والقوّة ، وأمره أن يطير، فطار مقدار ثلاثين ألف سنة أخرى ، فلم يصل أيضا ؛ فأوحى الله إليه : أيها المَلَك ، لو طرت إلى نفخ الصور مع أجنحتك وقوّتك لم تبلغ ساق عرشى . فقال المَلَك : سبحان ربِّيَ الأعلى ؛ فأنزل الله تعالى « سَبِّحِ ٱسمَ رَبِّكَ الأعلَى » ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "اجعلوها فى سُجودكم" . ذكره الثعلبيّ فى (كتاب العرائس) له . وقال ابن عباس والسُّدّيّ : معنى « سبح ٱسم ربك الأعلى » أى عظم ربك الأعلى . والاسم صِلة ، قصد بها تعظيم المسمَّى ؛ كما قال لَبِيد :

* إلى الحولِ ثم ٱسمُ السلامِ عليكما (١) *

(١) تمامه : * ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر * والبيت من قصيدة له ، يخاطب بها ابنتيه ، مطلعها :
تمنى ابنتاى أن يعيش أبوهما * وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر

Marfat.com

وقيل : نزه ربك عن السوء، وعما يقول فيه الملحدون . وذكر الطبري أن المعنى نزّه اسم ربك عن أن تسمى به أحدا سواه . وقيل : نزه تسمية ربك وذكرك إياه، أن تذكره إلا وأنت خاشع معظم ، ولذكره محترم . وجعلوا الآسم بمعنى التسمية ، والأولى أن يكون الاسم هو المسمّى . روى نافع عن ابن عمر قال : لا تقل على آسم الله؛ فإن آسم الله هو الأعلى . وروى أبو صالح عن ابن عباس : صَلِّ بأمر ربك الأعلى . قال : وهو أن تقول سبحان ربك الأعلى . وروى عن عليّ رضى الله عنه ، وابنِ عباس وابنِ عمر وابنِ الزبير وأبى موسى وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهم : أنهم كانوا إذا افتتحوا قراءة هذه السورة قالوا : سبحان ربّيَ الأعلى ؛ امتثالا لأمره فى ابتدائها . فيُختار الاقتداء بهم فى قراءتهم ؛ لا أن سبحان ربى الأعلى من القرآن ؛ كما قاله بعض أهل الزيغ . وقيل : إنها فى قراءة أُبيّ : «سبحان ربى الأعلى» . وكان ابن عمر يقرؤها كذلك . وفى الحديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأها قال : " سبحان ربّيَ الأعلى " . قال أبو بكر الأنباري : حدّثنى محمد بن شَهرِيار، قال : حدّثنا حسين بن الأسود، قال : حدّثنا عبدالرحمن بن أبى حمّاد قال : حدّثنا عيسى ابن عمر، عن أبيه ، قال : قرأ عليّ بن أبى طالب عليه السلام فى الصلاة «سَبِّحِ آسمَ رَبِّكَ الأعلى» ، ثم قال : سبحان رَبِّيَ الأعلى ؛ فلما انقضت الصلاة قيل له : يا أمير المؤمنين ، أتزيد هذا فى القرآن ؟ قال : ماهو ؟ قالوا : سبحان ربى الأعلى . قال : لا ، إنما أُمِرنا بشيء فقلته ، وعن عقبة بن عامر الجُهَنِيّ قال : لما نزلت « سَبِّحِ آسمَ رَبِّكَ الأعلى » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " آجعلوها فى سجودكم " . وهذا كله يدل على أن الآسم هو المسمى؛ لأنهم لم يقولوا : سبحان اسم ربى الأعلى . وقيل : إن أوّل من قال (سبحان ربى الأعلى) ميكائيل عليه السلام . وقال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل : " يا جبريل أخبرنى بثواب من قال : سبحان ربى الأعلى فى صلاته أو فى غير صلاته " . فقال : " يا محمد ، ما من مؤمن ولا مؤمنه يقولها فى سجوده أو فى غير سجوده ، إلا كانت له فى ميزانه أثقل من العرش والكرسي وجبال الدنيا ، ويقول الله تعالى : صدق عبدى ، أنا فوق كل شيء ، وليس فوق شيء ، اشهدوا يا ملائكتى أنى قد غفرت له ،

Marfat.com

وأدخلته الجنة. فإذا مات زاره ميكائيل كل يوم، فإذا كان يوم القيامة حمله على جناحه، فأوقفه بين يدى الله تعالى، فيقول: يا رب شفّعنى فيه، فيقول قد شفعتك فيه، فاذهب به إلى الجنة".

وقال الحسن: «سبح اسم ربك الأعلى» أى صل لربك الأعلى. وقيل: أى صل بأسماء الله، لا كما يصلى المشركون بالمُكاء والتصدية[1]. وقيل: ارفع صوتك بذكر ربك. قال جرير:

قَبَحَ الإلهُ وجوهَ تغلبَ كلّما ＊ سَبَحَ الحجيجُ وكبّروا تكبيرا

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿الذى خلق فسوّى﴾ قد تقدم معنى التسوية فى «الانفطار»[2] وغيرها. أى سوّى ما خلق، فلم يكن فى خلقه تَثْبيج[3]. وقال الزجاج: أى عدل قامته. وعن ابن عباس: حسن ما خلق. وقال الضحاك: خلق آدم فسوّى خلقه. وقيل: خلق فى أصلاب الآباء، وسوّى فى أرحام الأمهات. وقيل: خلق الأجساد، فسوّى الأفهام. وقيل: أى خلق الإنسان وهيأه للتكليف. ﴿الذى قدّر فهدى﴾ قرأ علىّ رضى الله عنه والسُّلَمىّ والكسائىّ «قَدَر» مخففة الدال، وشدّد الباقون. وهما بمعنى واحد. أى قدّر ووفق لكل شكل شكله. ﴿فهدى﴾ أى أرشد. قال مجاهد: قدّر الشقاوة والسعادة، وهدى للرشد والضلالة. وعنه قال: هدَى الإنسانَ للسعادة والشقاوة، وهدَى الأنعام لمراعيها. وقيل: قدّر أقواتهم وأرزاقهم، وهداهم لمعاشهم إن كانوا إنسا، ولمراعيهم إن كانوا وَحْشا. وروى عن ابن عباس والسُّدّىّ ومقاتل والكلبىّ فى قوله «فهدى» قالوا: عرّف خلقه كيف يأتى الذكر الأنثى؛ كما قال فى (طه): «أعطى كل شىء خلقه ثم هدى»[4] أى الذكر للأنثى. وقال عطاء: جعل لكل دابة ما يصلحها، وهداها له. وقيل: خلق المنافع فى الأشياء، وهدى الإنسان لوجه

(١) المكاء: الصفير. والتصدية التصفيق. قال ابن عباس: «كانت قريش تطوف بالبيت عراة يصفقون ويصفرون؛ فكان ذلك عبادة فى ظنهم».　(٢) راجع جـ ١٩ ص ٢٢٤　(٣) التثبيج: التخليط.

(٤) آية ٥٠.

Marfat.com

استخراجها منها . وقيل « قَدَّر فهدَى » : قدّر لكل حيوان ما يصلحه ، فهداه إليه ، وعرفه وجه الانتفاع به . يحكى أن الأفعى إذا أتت عليها ألفُ سنة عميت ، وقد ألهمها الله أن مسح العين بورق الرازيانج[١] الغضّ يرد إليها بصرها ؛ فربما كانت فى برّية بينها وبين الريف مسيرة أيام ، فتطوى تلك المسافة على طولها وعلى عماها ، حتى تهجُم فى بعض البساتين على شجرة الرازيانج لا تخطئها ، فتحك بها عينيها وترجع باصرة بإذن الله تعالى . وهدايات الإنسان إلى مالا يحدّ من مصالحه ، ومالا يحصر من حوائجه ، فى أغذيته وأدويته ، وفى أبواب دنياه ودينه ، وإلهامات البهائم والطيور وهوامّ الأرض باب واسع ، وشَوْط بطين[٢] ، لا يحيط به وصف واصف ؛ فسبحان ربى الأعلى . وقال السُّدّى : قدّر مدّة الجنين فى الرّحم تسعة أشهر ، وأقل وأكثر ، ثم هداه للخروج من الرّحم . وقال الفراء : أى قدّر ، فهدى وأضل ؛ فاكتفى بذكر أحدهما ؛ كقوله تعالى : « سرابيل تقيكم الحر »[٣] ويحتمل أن يكون بمعنى دعا إلى الإيمان ؛ كقوله تعالى : « وإنك لتهدى إلى صِراطٍ »[٤] أى لتدعو ، وقد دعا الكل إلى الإيمان . وقيل : «فهدى» أى دلهم بأفعاله على توحيده ، وكونه عالما قادرا . ولا خلاف أن من شدّد الدال من « قَدَّر » أنه من التقدير ؛ كقوله تعالى : « وَخلق كل شيء فقدره تقديرا »[٥] . ومن خفف فيحتمل أن يكون من التقدير فيكونان بمعنى . ويحتمل أن يكون من القُدْرة والمُلْك ؛ أى ملك الأشياء ، وهدى من يشاء .

قلت : وسمعت بعض أشياخى يقول : الذى خلق فسوّى وقدّر فهدى . هو تفسير العلو الذى يليق بجلال الله سبحانه على جميع مخلوقاته .

قوله تعالى : ﴿ والذى أخرج المرْعَى ﴾ أى النبات والكلأ الأخضر . قال الشاعر[٦] :

وقد ينبُتُ المرْعَى على دِمنِ الثّرَى * وَتبقَى حَزازات النفوس كما هِيَا

---

(١) الرازيانج : شجرة يسميها أهل اليمن (السمار) ، ومن خصائصها أن عصارة أغصانها وأوراقها تخلط بالأدوية التى تحد البصر وتجلوه (انظر المعتمد فى الأدوية المفردة لملك اليمن يوسف بن رسول . طبع مصطفى البابى الحلبى وأولاده بالقاهرة) .

(٢) أى بعيد .

(٣) آية ٨١ سورة النحل .

(٤) آية ٥٢ سورة الشورى .

(٥) آية ٢ سورة الفرقان .

(٦) هو زفر بن الحارث . والدمن : المرقين — الزبل — المتلبد بالبعر . والثرى : التراب والأرض .

Marfat.com

﴿ فجعله غثاءً أحوى ﴾ الغثـاء : ما يقذف به السيل على جوانب الوادى من الحشيش والنبات والقُماش[(١)]. وكذلك الغُثّاء (بالتشديد). والجمع : الأغثاء. قتادة : الغثاء : الشىء اليابس. ويقال للبقل والحشيش إذا تحطم ويبس : غُثـاءٌ وهَشِيم . وكذلك للذى يكون حول المـاء من القُماش غثاء ؛ كما قال :

كأن طَمِيَّـةَ[(٢)] المُجَيمِـرِ غُــدْوَةً * من السَّيْلِ والأَغْثاء[(٣)] فَلْكَةُ مِغْزَلِ

وحكى أهل اللغة : غثا الوادى وجفا[(٤)] . وكذلك المـاء : إذا علاه من الزَّبَد والقُماش مالا ينتفع به . والأَحْوى : الأســود ؛ أى أن النبات يضرب إلى الحُوّة من شدّة الخضرة كالأسود . والحوّة : السواد ؛ قال الأعشى[(٥)] :

لَمْيَـاء فى شَفَتيهـا حُـوّةٌ لَعَسٌ * وفى اللِّثاتِ وفى أنيابهـا شَنَب

وفى الصحاح : والحُوّة : سمرة الشفة . يقال : رجل أحوى ، وآمرأة حوّاء ، وقد حَوِيت . وبعـير أحوى إذا خالط خضرته ســواد وصفرة . وتصغير أحوى أُحَيْو ؛ فى لغـة من قال أُسَيْوِد . ثم قيل : يجوز أن يكون « أحوى » حالا من « المَرعَى » ، ويكون المعنى : كأنه من خضرته يضرب إلى السواد ؛ والتقدير : أخرج المرعى أحوى ، فجعله غثاء . يقال : قد حَوِيَ النبت ؛ حكاه الكسائى . وقال :

---

(١) القماش (بالضم) : ما كان على وجه الأرض من فتات الأشياء . وقماش كل شىء : فتاته .

(٢) كذا رواه صاحب اللسان فى (طما) ، وقال : طمية : جبل وفى بعض النسخ ومعلقة آمرئ القيس :

* كأن ذرا رأس المجيمر غدوة *

وقد أشار التبريزى شارح المعلقة إلى الرواية الأولى . قال : « والمجيمر » : أرض لبنى فزارة . وطميـة : جبل فى بلادهم . يقول : قد آمتلأ المجيمر ، فكأن الجبل فى الماء فلكة مغزل لما جمع السيل حوله من الغثاء .

(٣) فى المعلقة : « الغثاء » قال التبريزى : ورواه الفراء « من السيل والأغثاء » : جمع الغثاء ، وهو قليل فى الممدود . قال أبو جعفر : من رواه الأغثاء فقد أخطأ ؛ لأن غثاء لا يجمع على أغثاء ، وإنما يجمع على أغثية ؛ لأن أفعلة جمع الممدود ، وأفعالا جمع المقصور ، نحو رحا وأرحاء .

(٤) فى الأصول : (وانجفى) ، وهو تحريف عن (جفا) . والجفاء كغراب : ما يرمى به الوادى .

(٥) كذا فى جميع نسخ الأصل ، وهو خطأ . والبيت لذى الرمة كما فى ديوانه واللسان . واللمياء من الشفاه : اللطيفة القليلة الدم . واللعس (بفتحتين) : لون الشفة إذا كانت تضرب إلى السواد قليلا ؛ وذلك يستملح . والشنب : برودة وعذوبة فى الفم ، ورقة فى الأسنان .

Marfat.com

وغَيثٍ من الوسْمِىِّ حُوٍّ تِلاعُه * تَبطَّنته بشَيظَم صَلَتانِ (١)

ويجوز أن يكون « أحوى » صفة لـ « غثاء » . والمعنى : أنه صار كذلك بعد خضرته . وقال أبو عبيدة : فجعله أسودَ من احتراقه وقدمه؛ والرَّطب إذا يبس اسودّ . وقال عبد الرحمن بن زيد : أخرج المرعى أخضر، ثم لما يبس اسودَ من احتراقه، فصار غُثاء تذهب به الرياح والسيول. وهو مَثَل ضربه الله تعالى للكفار، لذهاب الدنيا بعد نضارتها .

قوله تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ ﴾

قوله تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ ﴾ أى القرآن يا محمد فنعلمكه ﴿ فَلَا تَنْسَى ﴾ أى فتحفظ؛ رواه ابن وهب عن مالك. وهذه بُشْرى من الله تعالى؛ بشره بأن أعطاه آية بينة، وهى أن يقرأ عليه جبريل ما يقرأ عليه من الوحى، وهو أُمى لا يكتب ولا يقرأ، فيحفظه ولا ينساه. وعن ابن أبى نَجيح عن مجاهد، قال: كان يتذكر مخافة أن ينسى، فقيل: كَفَيْتُكَه. قال مجاهد والكلبى : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه جبريل بالوحى، لم يفرغ جبريل من آخر الآية، حتى يتكلم للنبىّ صلى الله عليه وسلم بأوّلها، مخافة أن يَنْساها؛ فنزلت « سَنُقْرِئك فلا تَنْسى» بعد ذلك شيئا، فقد كَفَيْتُكَه. ووجه الاستثناء على هذا، ما قاله الفراء: إلا ما شاء الله، وهو لم يشأ أن تنسى شيئا؛ كقوله تعالى : « خالِدِينَ فيها ما دامتِ السموات والأرضُ إلا ما شاء رَبُّك» (٢) ولا يشاء . ويقال فى الكلام : لأعطينك كل ماسألت إلا ما شئتُ، وإلا أن أشاء أن أمنعك، والنية على ألّا يمنعه شيئا. فعلى هذا مجارى الأَيمان؛ يُسْتثنَى فيها ونية الحالف التمام. وفى رواية أبى صالح عن ابن عباس: فلم ينس بعد نزول هذه الآية حتى مات، «إلا ما شاء الله » . وعن سعيد عن قتادة، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينسى شيئا؛ «إلا

(١) الوسمى : مطر أوّل الربيع؛ لأنه يسم الأرض بالنبات. نسب إلى الوسم . والتلاع : جمع التلعة؛ وهى أرض مرتفعة غليظة يتردد فيها السيل، ثم يدفع منها إلى تلعة أسفل منها . وهى مكرمة من المنابت؛ وقيل: التلعة مجرى الماء من أعلى الوادى إلى بطون الأرض . وتبطنته : دخلته . والشيظم : الطويل الجسيم الفتى من الناس والخيل . والصلتان : النشيط الحديد الفؤاد من الخيل .

(٢) آية ١٠٨ سورة هود .

Marfat.com

ما شاء الله ». وعلى هذه الأقوال قيل: إلا ما شاء اللهُ أن يَنْسَى، ولكنه لم ينسَ شيئا منه بعد نزول هذه الآية. وقيل: إلا ما شاء الله أن ينسى، ثم يذكر بعد ذلك؛ فإذًا قد نسي، ولكنه يتذكر ولا ينسى نسيانا كُلِّيا. وقد رُوِي أنه أسقط آية في قراءته في الصلاة، فحسب أُبَيّ أنها نسِخت، فسأله فقال: "إني نسيتها". وقيل: هو من النسيان؛ أي إلا ما شاء الله أن ينسيك. ثم قيل: هذا بمعنى النسخ؛ أي إلا ما شاء الله أن ينسخه. والاستثناء نوع من النسخ. وقيل: النسيان بمعنى الترك؛ أي يعصمك من أن تترك العمل به؛ إلا ما شاء الله أن تتركه لنسخه إياه. فهذا في نسخ العمل، والأول في نسخ القراءة. قال الفَرْغاني: كان يغشى مجلس الجنيد أهلُ البَسْط من العلوم، وكان يغشاه ابن كَيْسانَ النحوي، وكان رجلا جليلا؛ فقال يوما: ما تقول يا أبا القاسم في قول الله تعالى: « سَنُقرِئك فلا تنسى »؟ فأجابه مسرعا — كأنه تقدّم له السؤال قبل ذلك بأوقات: لا تَنْسَى العمل به. فقال ابن كيسان: لا يَفْضُض الله فاك! مثلُك من يُصْدَر عن رأيه. وقوله: « فلا »: للنفي لا للنهي. وقيل: للنهي؛ وإنما أثبتت الياء[1] لأن رءوس الآي على ذلك. والمعنى: لا تغفل عن قراءته وتكراره فتنساه؛ إلا ما شاء الله أن ينسيكه برفع تلاوته للمصلحة. والأول هو المختار؛ لأن الاستثناء من النهي لا يكاد يكون إلا مؤقتا معلوما. وأيضا فإن الياء مثبتة في جميع المصاحف، وعليها القراء. وقيل: معناه إلا ما شاء الله أن يؤخر إنزاله. وقيل: المعنى بجعله غثاء أحوى إلا ما شاء الله أن يناله بنو آدم والبهائم، فإنه لا يصير كذلك.

قوله تعالى: ﴿ إنه يعلم الجهر ﴾ أي الإعلان من القول والعمل. ﴿ وما يخفى ﴾ من السر. وعن ابن عباس: ما في قلبك ونفسك. وقال محمد بن حاتم: يعلم إعلان الصدقة وإخفاءها. وقيل: الجهر ما حفظته من القرآن في صدرك. « وما يخفى » هو ما نسخ من صدرك. ﴿ ونيسرك ﴾: معطوف على «سنقرئك» وقوله: « إنه يعلم الجهر وما يخفى » اعتراض. ومعنى ﴿ لليسرى ﴾ أي للطريقة اليسرى؛ وهي عمل الخير. قال ابن عباس: نيسرك لأن تعمل خيرا. ابن مسعود: «لليسرى» أي للجنة. وقيل: نوفقك للشريعة اليسرى؛ وهي الحنيفية السمحة السهلة؛ قال معناه الضحاك. وقيل: أي نهوّن عليك الوحي حتى تحفظه وتعمل به.

(١) يريد الألف في (تنسى)، وأصلها الياء (نسي ينسى).

Marfat.com

قوله تعالى : فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ أى فعظ قومك يا محمد بالقرآن . ﴿ إِنْ نفعتِ الذكرى ﴾ أى الموعظة. وروى يونس عن الحسن قال: تذكرة للؤمن، وحجة على الكافر. وكان ابن عباس يقول: تنفع أوليائى، ولا تنفع أعدائى . وقال الجُرجانِيّ : التذكير واجب و إن لم ينفع . والمعنى: فذكر إن نفعت الذكرى، أو لم تنفع، فحذف؛ كما قال: « سرابِيل تقيكُم الحرّ »[(1)] . وقيل : إنه مخصوص بأقوام بأعيانهم . وقيل : إنّ « إنْ » بمعنى ما ؛ أى فذكر ما نفعت الذكرى ، فتكون « إنْ » بمعنى ما، لا بمعنى الشرط؛ لأن الذكرى نافعة بكل حال؛ قاله ابن شَجَرة. وذكر بعض أهل العربية : أنّ « إنْ » بمعنى إذْ؛ أى إذْ نفعت؛ كقوله تعالى: « وأنتم الأَعلَونَ إِنْ كنتم مؤمِنِين »[(2)] أى إذ كنتم؛ فلم يخبر بعلوهم إلا بعد إيمانهم . وقيل : بمعنى قد .

قوله تعالى : سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾

أى من يتّقى الله ويخافه. فروى أبو صالح عن ابن عباس قال: نزلت فى ابن أم مكتوم. المـاوَرْدِيّ : وقد يذكر من يرجوه، إلا أن تذكرة الخاشى أبلغ من تذكرة الراجى؛ فلذلك علقها بالخشية دون الرجاء، و إن تعلقت بالخشية والرجاء . وقيل : أى عَمِّم أنت التذكير والوعظ ، و إن كان الوعظ إنما ينفع من يخشى، ولكن يحصل لك ثواب الدعاء؛ حكاه القُشيرِيّ .

قوله تعالى : وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ ويتجنّبها ﴾ أى ويتجنب الذكرى ويبعد عنها . ﴿ الأشقى ﴾ أى الشقىّ فى علم الله. وقيل: نزلت فى الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة . ﴿ الذِى يصلى النار الكُبرى ﴾

(١) آية ٨١ سورة النحل . (٢) آية ١٣٩ سورة آل عمران .

Marfat.com

أى العظمى، وهى السفلى من أطباق النار؛ قاله الفرّاء . وعن الحسن : الكبرى نار جهنم، والصغرى نار الدنيا ؛ وقاله يحيى بن سلام . ﴿ ثم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ أى لا يموت فيستريح من العذاب ، ولا يحيا حياة تنفعه ؛ كما قال الشاعر :

ألا مَا لنفسٍ لا تموتُ فينقضِي * عَناها ولا تَحيا حياةً لها طَعمُ

وقد مضى فى «النساء» (١) وغيرها حديث أبى سعيد الخُدْرىّ، وأن الموحدين من المؤمنين إذا دخلوا جهنم — وهى النار الصغرى على قول الفراء — احترقوا فيها وماتوا ؛ إلى أن يُشْفَع فيهم . خرّجه مسلم . وقيل : أهل الشقاء متفاوتون فى شقائهم ، هذا الوعيد للأشقى ، وإن كانَ ثمّ شقِيّ لا يبلغ هذه المرتبة .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ أى قد صادف البقاء فى الجنة؛ أى من تَطَهَّر من الشرك بإيمان؛ قاله ابن عباس وعطاء وعكرمة . وقال الحسن والربيع : من كان عمله زاكيا ناميا . وقال مَعْمر عن قتادة : « تَزَكَّى » قال بعمل صالح . وعنه وعن عطاء وأبى العالية : نزلت فى صدقة الفِطر . وعن ابن سِيرِينَ « قد أفلح مَنْ تَزَكَّى . وذكر آسم ربه فصلى » قال : خرج فصلّى بعد ما أدّى . وقال عكرمة : كان الرجل يقول أقدّم زكاتى بين يدى صلاتى . فقال سفيان : قال الله تعالى : « قد افلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وذكر آسم ربه فصلى » . وروى عن أبى سعيد الخُدْرِيّ وابن عمر: أن ذلك فى صدقة الفطر، وصلاة العيد. وكذلك قال أبو العالية، وقال : إن أهل المدينة لا يرون صدقة أفضل منها، ومن سِقاية المـاء . وروى كَثير بن عبد الله عن أبيه عن جدّه، عن النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى: « قد أَفلَحَ مَنْ تَزَكَّى » قال : " أخرج زكاة الفطر "، « وذَكَرَاسْمَ ربِّهِ فصلى » قال : " صلاة العيد ". وقال ابن عباس والضحاك : « وذَكَرَاسْمَ ربِّهِ » فى طريق المصلَّي « فصلَّى » صلاة العيد . وقيل : المراد

(١) راجع جـ ٥ ص ١٩٦

Marfat.com

بالآية زكاة الأموال كلها، قاله أبو الأحوص وعطاء . وروى ابن جُرَيج قال: قلت لعطاء: « قَدْ أفلح مَنْ تَزَكَّى » للفطر؟ قال: هى للصدقات كلها . وقيل: هى زكاة الأعمال، لا زكاة الأموال؛ أى تطهر فى أعماله من الرياء والتقصير؛ لأن الأكثر أن يقال فى المال: زَكَّى، لا تَزَكَّى. وروى جابر بن عبدالله قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "«قد أفلح مَنْ تَزَكَّى» أى من شهد أَنْ لا إلهَ إلّا اللهُ، وخلع الأندادَ، وشهد أنى رسولُ الله" . وعن ابن عباس «تزكَّى» قال: لا إله إلا الله. وروى عنه عطاء قال: نزلت فى عثمان بن عفان رضى الله عنه. قال: كان بالمدينة منافق كانت له نخلة بالمدينة، مائلة فى دار رجل من الأنصار، إذا هبت الرياح أسقطت البُسْرَ والرطبَ إلى دار الأنصارى، فيأكل هو وعياله، فخاصمه المنافق؛ فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأرسل إلى المنافق وهو لا يعلم نفاقه، فقال: "إن أخاك الأنصارى ذكر أن بُسْرك ورُطَبك يقع إلى منزله، فيأكل هو وعياله، فهل لك أن أعطيك نخلة فى الجنة بدلها"؟ فقال: أبيع عاجلا بآجل! لا أفعل . فذكروا أن عثمان ابن عفان أعطاه حائطا من نخل بدل نخلته؛ ففيه نزلت «قد أفلح من تزكى». ونزلت فى المنافق «وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى» . وذكر الضحاك أنها نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

الثانيــة — قد ذكرنا القول فى زكاة الفطر فى السورة «البقرة»(١) مستوفى . وقد تقدّم أن هـذه السورة مكية، فى قول الجمهور، ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة فطر . القشيرى: ولا يبعد أن يكون أثنى على من يمتثل أمره فى صدقة الفطر وصلاة العيد، فيما يأمر به فى المستقبل.

الثالثــة — قوله تعالى: ﴿ وذكر آسمَ ربِّهِ فصلَّى ﴾ أى ذكر ربه . وروى عطاء عن آبن عباس قال: يريد ذكر معاده وموقفه بين يدى الله جل ثناؤه، فعبده وصلّى له . وقيل: ذكر آسم ربه بالتكبير فى أوّل الصلاة، لأنها لا تنعقد إلا بذكره؛ وهو قوله: الله أكبر: وبه يحتج على وجوب تكبيرة الافتتاح، وعلى أنها ليست من الصلاة؛ لأن الصلاة معطوفة عليها . وفيه حجة لمن قال: إن الافتتاح جائز بكل آسم من أسماء الله عز وجلّ . وهذه مسألة خلافية

(١) راجع ج ١ ص ٣٤٣ فما بعد .

Marfat.com

بين الفقهاء . وقد مضى القول فى هذا فى أول سورة «البقرة»[1] . وقيل: هى تكبيرات العيد. قال الضحاك: « وذكر آسم ربه » فى طريق المصلَّى «فصلَّى» ؛ أى صلاة العيد . وقيل : « وذكر آسم ربه » وهو أن يذكره بقلبه عند صلاته، فيخاف عقابه، ويرجو ثوابه؛ ليكون استيفاؤه لها، وخشوعه فيها، بحسب خوفه ورجائه . وقيل : هو أن يفتتح أول كل سورة بسم الله الرحمن الرحيم . «فصلَّى» أى فصلَّى وذكر . ولا فرق بين أن تقول: أكرمتنى فزرتنى، وبين أن تقول : زرتنى فأكرمتنى . قال آبن عباس : هذا فى الصلاة المفروضة ، وهى الصلوات الخمس . وقيل: الدعاء؛ أى دعاء الله بحوائج الدنيا والآخرة . وقيل : صلاة العيد؛ قاله أبو سعيد الخُدرىّ وآبن عمر وغيرهما . وقد تقدم . وقيل : هو أن يتطوّع بصلاة بعد زكاته ؛ قاله أبو الأحوص ، وهو مقتضى قول عطاء . ورُوِىَ عن عبد الله قال : من أقام الصلاة ولم يؤت الزكاة فلا صلاة له .

قوله تعالى : بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾

قراءة العامة « بل تؤثرون » بالتاء ؛ تصديقه قراءة أبىّ « بل أنتم تؤثرون » . وقرأ أبو عمرو ونصر بن عاصم « بل يؤثرون » بالياء على الغيبة ؛ تقديره : بل يؤثرون الأشقون الحياة الدنيا . وعلى الأوّل فيكون تأويلها بل تؤثرون أيها المسلمون الاستكثار من الدنيا، للاستكثار من الثواب . وعن آبن مسعود أنه قرأ هذه الآية، فقال : أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة ؟ لأن الدنيا حَضَرتْ وعجِلَت لنا طيباتها ، وطعامها وشرابها، ولذاتها وبهجتها ، والآخرة غُيبت عنا، فأخذنا العاجل، وتركنا الآجل . وروى ثابت عن أنس قال : كُنَّا مع أبى موسى فى مسير ، والناس يتكلمون ويذكرون الدنيا . قال أبو موسى : يا أنس ، إن هؤلاء يكاد أحدهم يَفْرِى الأديم بلسانه فريا، فتعال فلنذكر ربنا ساعة . ثم قال : يا أنس ، ما ثَبَرَ[2] الناس ! ما بَطَّأَ بهم ؟ قلت الدنيا والشيطان

(١) راجع جـ ١ ص ٥٧١ فما بعد .
(٢) الثبر : الحبس ؛ أى ما الذى صدهم ومنعهم عن طاعة الله .

Marfat.com

والشهوات . قال : لا، ولكن عُجّلتِ الدنيا، وغُيبت الآخرة، أما والله لو عاينوها ما عَدَلوا ولا مَيّـلوا (١) .

قوله تعالى : وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾

أى والدار الآخرة، أى الجنة . ﴿ خير ﴾ أى أفضل . ﴿ وأبق ﴾ أى أدوم من الدنيا . وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يضع أحدكم أصبعه فى اليمّ، فلينظر بم يرجع " صحيح . وقد تقدّم (٢) . وقال مالك بن دينار : لو كانت الدنيا من ذهب يفنى، والآخرة من خزف يبقى، لكان الواجب أن يُؤْثَر خزف يبقى، على ذهب يفنى . قال: فكيف والآخرة من ذهب يبقى، والدنيا من خزف يفنى .

قوله تعالى : إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إنّ هذا لفِي الصُّحُف الأولى ﴾ قال قتادة وابن زيد : يريد قوله « والآخِرة خير وأبقى » . وقالا : تتابعت كتب الله جل ثناؤه — كما تسمعون — أن الآخرة خير وأبقى من الدنيا . وقال الحسن : « إنّ هـذا لفِي الصحف الأُولى » قال : كُتُبِ الله جل ثناؤه كلها . الكلبيّ : « إنّ هذا لفِي الصحف الأُولى » من قوله : « قد أفلح » إلى آخر السورة؛ لحديث أبى ذرّ على ما يأتى . ورَوى عِكرمة عن ابن عباس : « إنّ هذا لفى الصحف الأولى » قال : هـذه السورة . وقال والضحاك : إن هـذا القرآن لفى الصحف الأولى ؛ أى الكتب الأولى . ﴿ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ ومُوسَى ﴾ يعنى الكتب المنزّلة عليهما . ولم يرد أن هذه الألفاظ بعينها فى تلك الصحف، و إنما هو على المعنى؛ أى إن معنى هذا الكلام وارد فى تلك الصحف . وروى الآجُرّى من حديث أبى ذرّ قال : قلت يا رسول الله، فما

(١) قوله « ما عدلوا » : ما ساووا بها شيئا . وقوله « ولا ميلوا » : أى ما شكوا ولا ترددوا (عن النهاية لابن الأثير) .

(٢) راجع جـ ٤ ص ٢٢٠

Marfat.com

كانت صحف إبراهيم ؟ قال : "كانت أمثالا كلُّها : أيها الملك المتسلِّط المُبتلَى المغرور، إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكن بعثتك لتردّ عنى دعوة المظلوم، فإنى لا أردّها ولو كانت من فم كافر . وكان فيها أمثال : وعلى العاقل أن يكون له [ثلاث][(١)] ساعات : ساعة يناجى فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، يفكر فيها فى صنع الله[(٢)] عز وجل إليه، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب . وعلى العاقل ألا يكون ظاعنا إلا فى ثلاث : تزود لمعاد، ومَرَمَّة لمعاش، ولذة فى غير محرم . وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه، مقبلا على شانه، حافظا للسانه . ومن عدّ كلامه من عمله قلّ كلامُه إلّا فيما يعنيه". قال : قلت يارسول الله، فما كانت صحف موسى ؟ قال : "كانت عِبرا كلها : عجِبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح ! وعجبت لمن أيقن بالقَدَر كيف ينْصَب . وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها ! وعجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم هو لا يعمل" ! قال : قلت يا رسول الله، فهل فى أيدينا شىء مما كان فى يدى إبراهيم وموسى، مما أنزل الله عليك؟ قال: "نعم اقرأ يا أبا ذرّ « قد أفلَح من تزَكَّى . وذَكَر اسمَ ربه فصَلَّى . بل تُؤْثِرونَ الحياةَ الدنيا والآخرةُ خيرٌ وأبقَى . إن هذا لفِى الصحف الأولى . صُحُفِ إبراهِيمَ ومُوسَى » . وذكر الحديث .

سورة « الغاشية »

وهى مكية فى قول الجميع ، وهى ست وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾

« هل » بمعنى قد؛ كقوله : « هل أتى على الإنسان[(٣)] » ؛ قاله قُطْرب . أى قد جاءك يامحمد حديث الغاشية؛ أى القيامة التى تغشى الخلائق بأهوالها وأفزاعها؛ قاله أكثر المفسرين . وقال سعيد بن جُبير ومحمد بن كعب : «الغاشية» : النار تَغْشَى وجوه الكفار؛ ورواه أبو صالح

(١) زيادة من الدر المنثور . (٢) فى الدر المنثور : « يحاسب فيها نفسه ، ويتفكر فيها صنع ... »
(٣) آية ١ سورة الإنسان .

Marfat.com

عن ابن عباس، ودليله قوله تعالى : « وتغشى وجوههم النار »[1] . وقيل : تغشى الخلق . وقيل : المراد النفخة الثانية للبعث؛ لأنها تغشى الخلائق . وقيل : « الغاشية » أهل النار يغشونها، و يقتحمون فيها . وقيل : معنى « هل أتاك » أى هذا لم يكن من علمك، ولا من علم قومك . قال ابن عباس : لم يكن أتاه قبل ذلك على هذا التفصيل المذكور ها هنا . وقيل : إنها خرجت مخرج الاستفهام لرسوله؛ ومعناه إن لم يكن أتاك حديث الغاشية فقد أتاك؛ وهو معنى قول الكلبي .

قوله تعالى : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾

قال ابن عباس : لم يكن أتاه حديثهم، فأخبره عنهم، فقال : ﴿ وُجُوهٌ يومئذ ﴾ أى يوم القيامة . ﴿ خاشعة ﴾ قال سفيان : أى ذليلة بالعذاب . وكل متضائل ساكن خاشع . يقال: خشع فى صلاته : إذا تذلل ونكس رأسه . وخشع الصوتُ : خفى؛ قال الله تعالى : « وخشعت الأصواتُ للرحمن »[2] . والمراد بالوجوه أصحاب الوجوه . وقال قتادة وابن زيد: « خاشعة » أى فى النار . والمراد وجوه الكفار كلهم؛ قاله يحيى بن سلام . وقيل : أراد وجوه اليهود والنصارى؛ قاله ابن عباس . ثم قال : ﴿ عاملة ناصبة ﴾ فهذا فى الدنيا؛ لأن الآخرة ليست دار عمل . فالمعنى : وجوه عاملة ناصبة فى الدنيا « خاشعة » فى الآخرة . قال أهل اللغة : يقال للرجل إذا دأب فى سيره : قد عمل يعمل عملا . و يقال للسحاب إذا دام برقه : قد عَمِل يعمل عملا . وذا سحاب عَمِل . قال الهذلى[3] :

حتى شآها كليلٌ مَوْهِنًا عَمِلٌ * باتت طِرابا و باتَ الليلَ لم يَنَمِ

---

(١) آية ٥٠ سورة ابراهيم . (٢) آية ١٠٨ سورة طه .

(٣) هو ساعدة بن جؤية . وقوله « شآها » : أى ساقها . والكليل : البرق الضعيف . والموهن : القطعة من الليل . و باتت طرابا : أى باتت البقر العطاش طرابا إلى السير إلى الموضع الذى فيه البرق . و بات البرق الليل أجمع لا يفتر: فعبر عن البرق بأنه لم ينم؛ لاتصاله من أول الليل الى آخره (راجع هذا البيت والكلام عليه فى خزانة الأدب الشاهد الرابع بعد الستمائة) .

Marfat.com

﴿ ناصبة ﴾ أي تعبة . يقال: نَصِب (بالكسر) ينصَب نَصَباً: إذا تعب، ونَصْبا أيضا، وأنصبه غيره . فروى الضحاك عن ابن عباس قال: هم الذين أنصبوا أنفسهم في الدنيا على معصية الله عز وجل، وعلى الكفر، مثل عَبَدة الأوثان، وكفار أهل الكتاب مثل الرهبان وغيرهم، لا يقبل الله جل ثناؤه منهم إلا ما كان خالصا له . وقال سعيد عن قتادة : « عاملة ناصبة » قال : تكبرت في الدنيا عن طاعة الله عز وجل، فأعملها الله وأنصبها في النار، بجر السلاسل الثقال، وحمل الأغلال، والوقوف حُفاة عراة في العَرَصات، في يوم كان مقداره خمسين ألفَ سنة . قال الحسن وسعيد بن جبير : لم تعمل لله في الدنيا، ولم تنصب له، فأعملها وأنصبها في جهنم . وقال الكلبي : يُجَرّون على وجوههم في النار . وعنه وعن غيره : يُكَلَّفون ارتقاء جبل من حديد في جهنم ، فينصَبون فيها أشدّ ما يكون من النَّصَب ، بمعالجة السلاسل والأغلال والخوض في النار، كما تخوض الإبل في الوَحَل، وارتقائها في صَعُود من نار، وهبوطها في حَدُور منها ؛ إلى غير ذلك من عذابها . وقاله ابن عباس . وقرأ ابن محيصن وعيسى وحميد، ورواها عبيد عن شبل عن ابن كثير « ناصبةً » بالنصب على الحال . وقيل : على الذم . الباقون (بالرفع) على الصفة أو على إضمار مبتدأ، فيوقف على « خاشعة » . ومن جعل المعنى في الآخرة، جاز أن يكون خبرا بعد خبر عن «وجوه»، فلا يوقف على « خاشعة » . وقيل : « عاملة ناصبة » أي عاملة في الدنيا ناصبة في الآخرة . وعلى هذا يحتمل وجوه يومئذ عاملة في الدنيا، ناصبة في الآخرة، خاشعة . قال عكرمة والسدي : عملت في الدنيا بالمعاصي . وقال سعيد بن جبير وزيد بن أسلم : هم الرُّهبان أصحاب الصوامع ؛ وقاله ابن عباس . وقد تقدّم في رواية الضحاك عنه . وروى عن الحسن قال : لما قدم عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — الشام أتاه راهب شيخ كبير مُتَقَهِّل[(١)]، عليه سواد، فلما رآه عمر بكى . فقال له : يا أمير المؤمنين، ما يبكيك؟ قال : هذا المسكين طلب أمرا فلم يصبه، ورجا رجاء فأخطأه، — وقرأ قول الله عز وجل — « وجوه يومئذ خاشعة . عاملة ناصبة » . قال الكسائي :

(١) أي شعث وسخ ، يقال : أقهل الرجل ، وتقهل . (النهاية لابن الأثير) .

التقهل : رثاثة الهيئة ، ورجل مُتَقَهِّل : يابس الجلد سَيِّئُ الحال ، مثل المتقحل . وقال أبو عمرو : التقهل : شكوى الحاجة . وأنشد :

* لَعْـوًا (١) إذا لاقيته تقهلا *

والقَهْل : كفران الإحسان . وقد قَهَل يَقْهَلُ قَهْلا : إذا أثنى ثناء قبيحا . وأقهل الرجل تكلف ما يعيبه ودنس نفسه . وانقهل ضعف وسقط ؛ قاله الجوهري . وعن عليّ رضى الله عنه أنهم أهل حَرُورَاء ؛ يعنى الخوارج الذين ذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " تَحقِرون (٢) صلاتكم مع صلاتهم ، وصيامكم مع صيامهم ، وأعمالكم مع أعمالهم ، يَمْرُقون من الدين كما يَمرُق السهمُ من الرَّمِيَّة ... " الحديث .

قوله تعالى : تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾

أى يصيبها صلاؤها وحرّها . ﴿ حامية ﴾ شديدة الحرّ ؛ أى قد أُوقدت وأُحميت المدة الطويلة . ومنه حَمِيَ النهار (بالكسر) ، وحَمِي التنور حَمْيا فيهما ؛ أى اشتدّ حرّه . وحكى الكسائىّ : اشتدّ حَمْيُ الشمس وحَمْوُها : بمعنى . وقرأ أبو عمرو وأبو بكر ويعقوب « تُصْلَى » بضم التاء . الباقون بفتحها . وقرئ « تُصَلَّى » بالتشديد . وقد تقدم القول فيها فى « إذا السماء انشقت » . الماوردىّ (٣) : فإن قيل فما معنى وصفها بالحَمْى ، وهى لا تكون إلا حامية ، وهو أقل أحوالها ، فما وجه المبالغة بهذه الصفة الناقصة ؟ قيل : قد اختلف فى المراد بالحامية ها هنا على أربعة أوجه : أحدها — أن المراد بذلك أنها دائمة الحَمْى ، وليست كنار الدنيا التى ينقطع حَمْيها بانطفائها . الثانى — أن المراد بالحامية أنها حِمًى من ارتكاب المحظورات ، وانتهاك المحارم ، كما قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " إن لكل ملك حِمًى ، وإن حِمى الله محارمه . ومن

(١) اللعو : السيئ الخلق . والشره الحريص .

(٢) أى تعدون صلاتكم حقيرة بالنظر إلى صلاتهم .

(٣) راجع جـ ١٩ ص ٢٧٠

Marfat.com

يرتع حول الحِمَى يُوشِك أن يقع فيه ". الثالث — أنها تحمى نفسها عن أن تطاق ملامستها، أو ترام مُماسّتها؛ كما يحمِي الأسد عَرِينه؛ ومثله قول النابغة:

تعدو الذئاب على من لا كلاب له ✽ وتتّقِي صَولةَ المستأسِدِ الحامِي

الرابع — أنها حامية حِمَى غيظ وغضب؛ مبالغة في شدّة الانتقام. ولم يرد حِمَى جِرْم وذات؛ كما يقال: قد حِمِيَ فلان: إذا اغتاظ وغضب عند إرادة الانتقام. وقد بين الله تعالى بقوله هذا المعنى فقال: « تكادُ تَمَيَّزُ من الغيظ »(1).

قوله تعالى: تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾

الآني: الذي قد انتهى حَرّه؛ من الإيناء(2)، بمعنى التأخير. ومنه " آنيتَ وآذيتَ "(3). وآناه يؤنيه إيناء، أي أخره وحبسه وأبطأه. ومنه « يَطُوفونَ بينَها وبينَ حَمِيمٍ آنٍ »(4). وفي التفاسير « مِن عينٍ آنيةٍ » أي تناهَى حرها؛ فلو وقعت نقطة منها على جبال الدنيا لذابت. وقال الحسن: آنيةٍ » أي حرها أدرك؛ أوقدت عليها جهنم منذ خلقت، فدُفعوا إليها وِردا عِطاشا. وعن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: بلغت أناها، وحان شربها.

قوله تعالى: لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾

قوله تعالى: ﴿ ليس لهم ﴾ أي لأهل النار. ﴿ طَعامٌ إلا من ضَرِيعٍ ﴾ لما ذكر شرابهم ذكر طعامهم. قال عكرمة ومجاهد: الضَّريع: نبت ذو شوك لاصق بالأرض، تسميه قريش الشِّبْرِق إذا كان رطبا، فإذا يبس فهو الضريع، لا تَقْرَبُه دابة ولا بهيمة ولا ترعاه؛ وهو سُمٌّ قاتل، وهو أخبث الطعام وأشنعه؛ على هذا عامّة المفسرين. إلا أن الضحاك روى عن ابن عباس قال: هو شيء يَرْمِي به البحر، يسمّى الضَّرِيعَ، من أقوات الأنعام

(1) آية ٨ سورة الملك. (2) آنية: متناهية في شدة الحر، من أَنَى يأنِي، كرمى يرمى، وليس من (الإيناء) مصدر آنى بمعنى آخر، قال الطبري في تفسير الآية: « تسق أصحاب هذه الوجوه من شراب عين قد أنى حرها، وبلغ غايته في شدة الحر. (3) أي في الحديث في صلاة الجمعة؛ إذ أنه قال لرجل جاء يوم الجمعة يتخطى رقاب الناس: لقد آنيت وآذيت. ومعنى « آنيت »: أخرت المجيء وأبطأت. و « آذيت » أي آذيت الناس بتخطيك.
(4) آية ٤٤ سورة الرحمن.

Marfat.com

لا الناس ، فإذا وقعت فيه الإبل لم تشبع ، وهلكت هُزْلا . والصحيح ماقاله الجمهور: أنه نبت . قال أبو ذُؤيب[(١)] :

رَعَى الشِّبرِقَ الريَّانَ حتى إذا ذَوَى * وعاد ضَرِيعًا بانَ منه النَّحائِصُ[(٢)]

وقال الهُذليّ[(٣)] وذكر إبلا وسوء مرعاها :

وحُبِسْنَ فى هَزْمِ الضريع فكلُّها * حَدْباءُ داميةُ اليدين حَرُودُ[(٤)]

وقال الخليل: الضريع: نبات أخضر مُنتن الريح، يرمى به البحر. وقال الوالبيّ عن آبن عباس: هو شجر من نار ، ولو كانت فى الدنيا لأحرقت الأرض وما عليها . وقال سعيد بن جُبير: هو الحجارة ، وقاله عكرمة . والأظهر أنه شجر ذو شوك حَسْب ماهو فى الدنيا . وعن آبن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الضريع: شيء يكون فى النار، يشبه الشوك، أشد مرارة من الصبر، وأنتن من الجيفة، وأحر من النار، سماه الله ضريعا". وقال خالد بن زياد: سمعت المتوكل بن حمدان يسأل عن هذه الآية « ليس لهم طعام إلا مِنْ ضَرِيعٍ » قال : بلغنى أن الضريع شجرة من نار جهنم ، حَمْلها القيح والدم، أشد مرارة من الصَّبِر، فذلك طعامهم . وقال الحسن : هو بعض ما أخفاه الله من العذاب . وقال آبن كيسان : هو طعام يَضْرعون عنده ويذلون ، ويتضرعون منه إلى الله تعالى ، طلبا للخلاص منه ؛ فسمى بذلك، لأن آكله يضرع فى أن يُعْفَى منه، لكراهته وخشونته . قال أبو جعفر النحاس : قد يكون مشتقا من الضارع، وهو الذليل ؛ أى ذو ضراعة ، أى من شَرِبه ذليل تلحقه ضراعة . وعن الحسن أيضا : هو الزَّقوم . وقيل : هو وادٍ فى جهنم . فالله أعلم . وقد قال الله تعالى فى موضع

(١) لم نعثر على هذا البيت فى ديوان أبى ذؤيب .

(٢) فى بعض نسخ الأصل : « بان عنه النحائص » . والنحائص : جمع النحوص (بفتح النون) ، وهى الأتان الوحشية الحائل . وقيل : هى التى فى بطنها ولد . وقيل : التى لا لبن لها .

(٣) هو قيس بن عيزارة ، كما فى اللسان .

(٤) هزم الضريع : ما تكسر منه . والحدباء : الناقة التى بدت حراقفها ، وعظم ظهرها . والحرود : التى لا تكاد تدر .

Marfat.com

آخر : « فَلَيسَ له اليومَ هاهُنا حَمِيمٌ . ولا طَعامٌ إلا مِنْ غِسْلِينٍ »(١) . وقال هنا : « إلا مِن ضَرِيع » وهو غير الغِسلين . ووجه الجمع أن النار دَرَكات ؛ فمنهم مَنْ طعامه الزَّقوم ، ومنهم من طعامه الغِسلين ، ومنهم من طعامه الضريع ، ومنهم من شرابه الحميم ، ومنهم من شرابه الصّديد . قال الكلبيّ : الضريع في درجة ليس فيها غيره ، والزقوم في درجة أخرى . ويجوز أن تُحمل الآيتان على حالتين كما قال : « يطوفون بينها وبين حميم آنٍ »(٢) . القُتَبيّ : ويجوز أن يكون الضريع وشجرة الزقوم نَبتين من النار ، أو من جوهر لا تأكله النار . وكذلك سلاسل النار وأغلالُها وعقاربها وحَيّاتها ، ولو كانت على ما نعلم ما بقيت على النار . قال : وإنما دلنا الله على الغائب عنده ، بالحاضر عندنا ؛ فالأسماء متفقة الدلالة ، والمعاني مختلفة . وكذلك ما في الجنة من شجرها وفرشها . القُشَيريّ : وأمثل من قول القُتَبيّ أن نقول : إن الذي يُبقي الكافرين في النار ليدوم عليهم العذاب ، يُبقي النبات وشجرة الزقوم في النار ، ليعذب بها الكفار . وزعم بعضهم أن الضريع بعينه لا يَنْبت في النار ، ولا أنهم يأكلونه . فالضريع من أقوات الأنعام ، لا من أقوات الناس . وإذا وقعت الإبل فيه لم تشبع ، وهلكت هزلا ، فأراد أن هؤلاء يقتاتون بما لا يشبعهم ، وضرب الضريع له مثلا ، أنهم يعذبون بالجوع كما يعذب من قوته الضريع . قال الترمذي الحكيم : وهذا نظر سقيم من أهله وتأويل دنيء ، كأنه يدل على أنهم تحيروا في قدرة الله تعالى ، وأن الذي أنبت في هذا التراب هذا الضريع قادر على أن ينبته في حريق النار ، جعل لنا في الدنيا من الشجر الأخضر نارا ، فلا النار تُحرق الشجر ، ولا رطوبة الماء في الشجر تُطفئ النار ؛ فقال تعالى : « الذي جعل لكم مِن الشجرِ الأخضرِ نارا فإذا أنتم منه توقِدون »(٣) . وكما قيل حين نزلت « ونحشرهم يوم القيامةِ على وجوهِهم »(٤) : قالوا يارسول الله ، كيف يمشون على وجوههم ؟ فقال : " الذي

(١) آية ٣٥ و٣٦ سورة الحاقة . (٢) آية ٤٤ سورة الرحمن .
(٣) آية ٨٠ سورة يس . (٤) آية ٩٧ سورة الإسراء .

Marfat.com

أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يُمشيهم على وجوههم ". فلا يتحير فى مثل هذا إلا ضعيف القلب . أو ليس قد أخبَرنا أنه « كلما نضِجت جلودهم بدَّلنـاهم جلودا غيرها » (١) ، وقال : « سَرَابِيلُهم مِن قَطِرانٍ » (٢) ، وقال : « إنّ لَدَيْنا أنكالا » (٣) أى قيودا . « وجحيما وطعاما ذا غُصةٍ » قيل : ذا شوك . فإنمـا يتلون عليهم العذاب بهذه الأشياء .

قوله تعـالى : لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾

يعنى الضريع لايسمن آكله . وكيف يَسْمن من يأكل الشـوك ! قال المفسرون : لمـا نزلت هذه الآية قال المشركون : إن إبلنا لتسمن بالضَّريع، فنزلت « لا يُسْمِن ولا يغنى من جوع » . وكَذَبوا ، فإن الإبل إنما ترعاه رَطْبا ، فإذا يبس لم تأكله . وقيل : اشتبه عليهم أمره فظنوه كغيره من النبت النافع ، لأن المضارعة المشابهة . فوجدوه لايسْمِن (٤) ولا يغنى من جوع .

قوله تعـالى : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَـةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِـيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ وُجُوهٌ يَومئذٍ ناعِمةٌ ﴾ أى ذات نَعْمة . وهى وجوه المؤمنين ؛ نَعِمت بمـا عاينت من عاقبة أمرها وعملها الصالح . ﴿ لِسعيها ﴾ أى لعملها الذى عملته فى الدنيا . ﴿ راضِيةٌ ﴾ فى الآخرة حين أُعطيت الجنة بعملها . ومجازه : لثواب سعيها راضية . وفيها واو مضمرة . المعنى : ووجوه يومئـذ ، للفصل بينها وبين الوجوه المتقدمة . والوجوه عبـارة عن الأنفس . ﴿ فِى جنـةٍ عالِيةٍ ﴾ أى مرتفعة ، لأنهـا فوق السموات حَسْب ما تقـدم . وقيل : عالية القدر ، لأن فيها ماتشتهيه الأنفس وتَلَذّ الأعين . وهم فيها خالدون .

(١) آية ٥٦ سورة النساء . (٢) آية ٥٠ سورة إبراهيم .
(٣) آية ١٢ سورة المزمل . (٤) فى بعض النسخ : « لا يشبه » .

Marfat.com

قوله تعالى : لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَـٰغِيَةً ﴿١١﴾

أى كلاما ساقطا غير مَرْضىّ . وقال : «لاغية» ، واللَّغْو واللَّغَا واللّاغية : بمعنى واحد . قال :

* عن اللَّغَا ورَفَثِ التَّكَلُّمِ (١) *

وقال الفرّاء والأخفش : أى لا تَسمع فيها كلمة لغو . وفى المراد بها ستة أوجه : أحدها — يعنى كذبا وبُهتانا وكفرا بالله عز وجل ؛ قاله ابن عباس . الثانى — لا باطل ولا إثم ؛ قاله قتادة . الثالث — أنه الشتم ؛ قاله مجاهد . الرابع — المعصية ؛ قاله الحسن . الخامس — لا يسمع فيها حالف يحلف بكذب ؛ قاله الفرّاء . وقال الكلبىّ : لا يُسمع فى الجنة حالف بيمين برّة ولا فاجرة . السادس — لا يسمع فى كلامهم كلمة بلغو ؛ لأن أهل الجنة لا يتكلمون إلا بالحكمة وحمد الله على ما رزقهم من النعيم الدائم ؛ قاله الفرّاء أيضا . وهو أحسنها لأنه يعمّ ما ذُكر . وقرأ أبو عمرو وابن كثير « لا يُسْمَع » بياء غير مسمّى الفاعل . وكذلك نافع ، إلا أنه بالتاء المضمومة ؛ لأن اللاغية اسم مؤنث فأنث الفعل لتأنيثه . ومن قرأ بالياء فلأنه حال بين الاسم والفعل الجار والمجرور . وقرأ الباقون بالتاء مفتوحة ﴿ لاغِيَة ﴾ نصبا على إسناد ذلك للوجوه ، أى لا تسمع الوجوه فيها لاغية .

قوله تعالى : فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فِيهَا عين جارية ﴾ أى بماء مندفق ، وأنواع الأشربة اللذيذة على وجه الأرض من غير أُخدود . وقد تقدم فى سورة « الإنسان » أن فيها عيونا (٢) . فـ«عين» : بمعنى عيون . والله أعلم . ﴿ فِيها سُرُرٌ مرفُوعة ﴾ أى عالية . ورُوى أنه كان ارتفاعها قدر ما بين

(١) قبـلـه : * ورب أسراب حجيج كظم *
قائله رؤبة . ونسبه ابن برى للعجاج .
(٢) راجع جـ ١٩ ص ١٢٤ ، ١٠٤

Marfat.com

السماء والأرض، ليرى ولى الله ملكه حوله . ﴿ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾ أى أباريق وأوانٍ . والإبريق : هو ماله عُروة وخُرطوم . والكوب : إناء ليس له عروة ولا خرطوم . وقد تقدم هذا فى سورة « الزخرف »(١) وغيرها . ﴿ وَنَمَارِقُ ﴾ أى وسائد ، الواحدة نُمْرُقة . ﴿ مَصْفُوفَةٌ ﴾ أى واحدة إلى جنب الأخرى . قال الشاعر :

و إنا لَنُجْرِى الكاسَ بين شُروبنا * وبينَ أبى قابوسَ فَوقَ النَّمارقِ

وقال آخر :

كُهولٌ وشبانٌ حِسانٌ وجوهُهُم * على سُرُرٍ مَصفوفة ونمارق

وفى الصحاح : النُّمرق والنُّمرقة : وسادة صغيرة . وكذلك النِّمرِقة (بالكسر) لغة حكاها يعقوب . وربما سموا الطِّنفِسة التى فوق الرحْل نُمرقة ؛ عن أبى عُبيد . ﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ : قال أبو عُبيدة : الزرابىّ : البُسُط . وقال ابن عباس : الزَّرابىّ : الطَّنافس التى لها خَمْل رقيق ، واحدتها : زُرْبِيَّة ؛ وقال الكلبىّ والفرّاء . والمبثوثة : المبسوطة ؛ قال قتادة . وقيل : بعضها فوق بعض ؛ قاله عكرمة . وقيل كثيرة ؛ قاله الفراء . وقيل : متفرقة فى المجالس ؛ قاله القُتَبىّ .

قلت : هذا أصوب ، فهى كثيرة متفرقة . ومنه « وبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دابةٍ »(٢) . وقال أبو بكر الأنبارىّ : وحدّثنا أحمد بن الحسين ، قال حدّثنا حسين بن عرفة ، قال حدّثنا عمار بن محمد ، قال : صليت خلف منصور بن المعتمر ، فقرأ : «هلْ أتاكَ حَديثُ الغَاشِيةِ» ، وقرأ فيها : « وزَرَابِىُّ مَبْثُوثَة » : متكئين فيها ناعمين .

قوله تعالى : أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾

قال المفسرون : لما ذكر الله عز وجل أمر أهلِ الدارين ، تعجّب الكفار من ذلك ، فكذّبوا وأنكروا ؛ فذكّرهُمُ الله صنعته وقدرته ؛ وأنه قادر على كل شىء ، كما خلق الحيوانات والسماء والأر[ض] . ثم ذكر الإبل أولا ، لأنها كثيرة فى العرب ، ول[...] ، فنبههم جل

(١) راجع جـ ١٦ ص ١١٣ (٢) آية ١٦٤ سورة البقرة .

Marfat.com

ثناؤه على عظيم من خَلْقه ؛ قد ذلله للصغير ، يقوده ويُنيخه وينهضه ويحمل عليه الثقيل من الحِمْل وهو بارك ، فينهض بثقيل حمله ، وليس ذلك فى شيء من الحيوان غيره . فأراهم عظيما من خَلقه ، مسخرا لصغير من خلقه ؛ يدلهم بذلك على توحيده وعظيم قدرته . وعن بعض الحكماء : أنه حدّث عن البعير وبديع خَلْقه ، وقد نشأ فى بلاد لا إبل فيها ؛ ففكر ثم قال : يوشِك أن تكون طوال الأعناق . وحين أراد بها أن تكون سفائن البر ، صبّرها على احتمال العطش ؛ حتى إن إظماءها ليرتفع إلى العَشْر فصاعدا ، وجعلها ترعى كل شيء نابت فى البرارى والمفاوز ، مما لا يرعاه سائر البهائم . وقيل : لمّا ذكر السُّرُر المرفوعة قالوا : كيف نصعدها؟ فأنزل الله هذه الآية ، وبين أن الإبل تَبْرُك حتى يحمل عليها ثم تقوم ؛ فكذلك تلك السُّرُر تتطامن ثم ترتفع . قال معناه قتادة ومقاتل وغيرهما . وقيل : الإبل هنا القِطع العظيمة من السحاب ؛ قاله المبرِّد . قال الثعلبي : وقيل فى الإبِل هنا : السحاب ، ولم أجد لذلك أصلا فى كتب الأئمة.

قلت : قد ذكر الأصمعي أبو سعيد عبدُ الملك بن قُرَيب ، قال أبو عمرو : من قرأها «أفلا ينظُرون إلى الإبِل كيف خُلِقت» بالتخفيف : عنى به البعير ؛ لأنه من ذوات الأربع ، يَبرُك فتحمل عليه الحَمولة ، وغيره من ذوات الأربع لا يحمل عليه إلا وهو قائم . ومن قرأها بالتثقيل فقال : «الإبِلّ»(١) ؛ عنى بها السحاب التى تحمل الماء والمطر . وقال الماوردي : وفى الإبل وجهان : أحدهما — وهو أظهرهما وأشهرهما : أنها الإبل من النَّعَم . الثانى — أنها السحاب . فإن كان المراد بها السحاب ، فلِما فيها من الآيات الدالة على قدرته ، والمنافع العامة لجميع خلقه . وإن كان المراد بها الإبل من النَّعَم ، فلأن الإبل أجمع للمنافع من سائر الحيوان ؛ لأن ضروبه أربعة : حَلُوبة ، ورَكُوبة ، وأَكُولة ، وحَمُولة . والإبل تجمع هذه الخِلال الأربع ؛ فكانت النعمة بها أعم ، وظهور القدرة فيها أتم . وقال الحسن : إنما خصها الله بالذكر لأنها تأكل النَّوَى والقَتّ ، وتخرج اللبن . وسئل الحسن أيضا عنها وقالوا : الفيل أعظم فى الأعجوبة ؛ فقال : العرب بعيدة العهد بالفيل ، ثم هو خنزير لا يُؤكل لحمه ، ولا يُركب ظهره ، ولا يحلب

(١) فى البحر المحيط : « قرأ الجمهور بكسر الباء وتخفيف اللام . الأصمعى عن أبى عمرو بإسكان الباء . وعلى وابن عباس بشد اللام ، ورويت عن أبى عمرو وأبى جعفر والكسائى ، وقالوا إنها السحاب » .

Marfat.com

دره . وكان شُرَيح يقول : اخرجوا بنا إلى الكُناسة[١] حتى ننظر إلى الإبل كيف خُلقت .
والإبل : لا واحد لها من لفظها، وهى مؤنثة؛ لأن أسماء الجموع التى لا واحد لها من لفظها،
إذا كانت لغير الآدميين، فالتأنيث لها لازم، وإذا صغرتها دخلتها الهاء، فقلت : أُبيلة وغنيمة،
ونحو ذلك . وربما قالوا للإبل : إبْل، بسكون الباء للتخفيف، والجمع : آبال .

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وإلى السَّماءِ كيف رُفِعَتْ ﴾ أى رُفعت عن الأرض بلا عَمَد . وقيل :
رفعت، فلا ينالها شىء . ﴿ وإلى الجبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ أى كيف نُصبت على الأرض، بحيث
لا تزول؛ وذلك أن الأرض لما دُحيت مادت، فأرساها بالجبال . كما قال : « وجعلنا
فى الأَرضِ رَواسِىَ أن تَميدَ بهم »[٢] . ﴿ وإلى الأرضِ كَيفَ سُطِحَتْ ﴾ أى بُسطت ومدت .
وقال أنس : صليت خلف علىّ رضى الله عنه، فقرأ « كَيفَ خَلَقْتُ » و « رَفَعْتُ » و « نَصَبْتُ »
و « سَطَحْتُ » ، بضم التاءات؛ أضاف الضمير إلى الله تعالى . وبه كان يقرأ محمد بن السَّمَيْقَع
وأبو العالية ؛ والمفعول محذوف ، والمعنى خلقتها . وكذلك سائرها . وقرأ الحسن وأبو حَيْوة
وأبو رجاء : « سُطِّحَتْ » بتشديد الطاء وإسكان التاء . وكذلك قرأ الجماعة، إلا أنهم خففوا
الطاء . وقدّم الإبل فى الذكر ، ولو قدّم غيرها لجاز . قال القشيرى : وليس هذا مما يطلب
فيه نوع حكمة . وقد قيل : هو أقرب إلى الناس فى حق العرب ، لكثرتها عندهم ،
وهم من أعرف الناس بها . وأيضا : مَرافق الإبل أكثر من مرافق الحيوانات الأُخَر؛
فهى مأكولة ، ولبنها مشروب ، وتصلح للحمل والركوب ، وقطع المسافات البعيدة عليها ،
والصبر على العطش، وقلة العلف، وكثرة الحمل، وهى مُعْظم أموال العرب . وكانوا يسيرون
على الإبل منفردين مستوحشين عن الناس ، ومَنْ هذا حاله تفكر فيما يحضره ، فقد ينظر

---

(١) الكناسة : سوق الكوفة ترد إليها الإبل بأحمال البضائع ، أو تصدر عنها ، وهى كالمربد للبصرة .

(٢) آية ٣١ سورة الأنبياء .

Marfat.com

فى مركوبه، ثم يمد بصره إلى السماء، ثم إلى الأرض . فأمروا بالنظر فى هذه الأشياء، فإنها أدل دليل على الصانع المختار القادر .

قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ أى فعظهم يا محمد وخوفهم . ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ أى واعظ . ﴿ لست عليهم بمصيطر ﴾ أى بمسلَّط عليهم فتقتلَهم . ثم نسختها آية السيف . وقرأ هارون الأعور « بِمُسَيْطَرٍ » (بفتح الطاء)، و « والمُسَيْطَرون »[(١)] . وهى لغة تميم . وفى الصحاح : «المسيطر والمصيطر: المسلّط على الشىء، ليشرف عليه، و يتعهد أحواله، و يكتب عمله، وأصله من السطر، لأن[(٢)] من معنى السطر ألا يتجاوز، فالكتاب مسطر، والذى يفعله مسطر ومسيطر، يقال : سيطرت علينا، وقال تعالى : « لست عليهم بمسيطر » . وسَطَرَه أى صرعه » . ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴾ ٱستثناء منقطع، أى لكن من تولى عن الوعظ والتذكير . ﴿ فيعذِّبه اللهُ العذابَ الأكبر ﴾ وهى جهنم الدائم عذابها . وإنما قال « الأكبر » لأنهم عذبوا فى الدنيا بالجوع والقَحط والأسر والقتل . ودليل هذا التأويل قراءة ابن مسعود : « إلا مَنْ تولّى وكفر فإنه يعذبه الله » . وقيل : هو استثناء متصل . والمعنى : لست بمسلّط إلا على من تولى وكفر، فأنت مُسَلَّط عليه بالجهاد، والله يعذبه بعد ذلك العذاب الأكبر، فلا نسخ فى الآية على هذا التقدير . ورُوِى أن عليا أُتِى برجل ٱرتد، فٱستتابه ثلاثة أيام، فلم يعاود الإسلام، فضرب عنقه، وقرأ « إلّا مَنْ تولّى وكَفَر » . وقرأ ابن عباس وقتادة « أَلَا » على الاستفتاح والتنبيه، كقول ٱمرئ القيس :

* أَلَا رُبَّ يوم لكَ مِنْهُنّ صالحٍ[(٣)] *

(١) آية ٣٧ سورة الطور . وقد أورده صاحب اللسان وشرحه . (٢) كذا فى نسخ الأصل وتفسير ابن عادل نقلا عن القرطبى . والذى فى الصحاح : « وأصله من السطر ، لأن الكتاب مسطر ... » .
(٣) تمامه :
* ولا سيما يوم بدارة جلجل *

و « مَنْ » على هذا : للشرط . والجواب « فَيُعَذِّبُهُ اللهُ » والمبتدأ بعد الفاء مضمر ، والتقدير : فهو يعذبه الله، لأنه لو أريد الجواب بالفعل الذى بعد الفاء لكان : إلا من تولى وكفر يعذبه الله . ﴿ إن إلينا إيابَهُمْ ﴾ أى رُجوعهم بعد الموت . يقال : آب يئوب ؛ أى رجع . قال عَبيد :

وكُلّ ذى غَيْبَةٍ يَئُوبُ * وغائبُ الموتِ لا يَئُوبُ

وقرأ أبو جعفر « إِيَّابَهُمْ » بالتشديد . قال أبو حاتم : لا يجوز التشديد، ولو جاز لجاز مثله فى الصيام والقيام . وقيل : هما لغتان بمعنى . الزمخشرى : وقرأ أبو جعفر المدنىّ « إيابهم » بالتشديد؛ ووجهه أن يكون فِيعالا : مصدر أيب، قيل من الإياب . أو أن يكون أصله إوّابا فِعّالا من أوّب ، ثم قيل : إيوابا كديوان فى دِوّان . ثم فعل ما فعل بأصل سيد ونحوه .

سورة « الفجر »

مكية ، وهى ثلاثون آية (١)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالْفَجْرِ ﴾ أقسم بالفجر . ﴿ وليالٍ عَشْرٍ . والشَّفْعِ والوَتْرِ . والليل إذا يسر ﴾ أقسام خمسة . واختُلِف فى « الفجر » ، فقال قوم : الفجر هنا : انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم؛ قاله علىّ وابن الزُّبير وابن عباس رضى الله عنهم . وعن ابن عباس (٢) أيضا أنه النهار كله، وعبّر عنه بالفجر لأنه أوّله . وقال ابن مُحَيْصِن عن عطية عن ابن عباس : يعنى فجر يوم المحرم . ومثله قال قتادة . قال : هو فجر أوّل يوم من المحرم، منه تنفجر السنة .

(١) فى بعض نسخ الأصل : « سبع وعشرون » وفى بعضها : « تسع وعشرون » .
(٢) فى بعض النسخ : « ابن مسعود » .

Marfat.com

وعنه أيضا : صلاة الصبح. وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : « والفجر » : يريد صبيحة يوم النحر؛ لأن الله تعالى جل ثناؤه جعل لكل يوم ليلة قبله ، إلا يوم النحر لم يجعل له ليلة قبله ولا ليلة بعده ؛ لأن يوم عرفة له ليلتان : ليلة قبله وليلة بعده ، فن أدرك الموقف ليلة بعد عرفة، فقد أدرك الحج إلى طلوع الفجر، فجر يوم النحر. وهذا قول مجاهد . وقال عكرمة : « والفجر » قال : انشقاق الفجر من يوم جَمْع[1] . وعن محمد بن كعب القُرَظيّ : « والفجرِ » آخر أيام العشر، إذا دفَعْتَ من جَمْع . وقال الضحاك : فجر ذى الحجة، لأن الله تعالى قرن الأيام به فقال : « وليالٍ عشرٍ » أى ليال عشر من ذى الحجة . وكذا قال مجاهد والسدّيّ والكلبيّ فى قوله : « وليالٍ عَشْرٍ » هو عشر ذى الحجة ، وقاله ابن عباس . وقال مسروق هى العشر التى ذكرها الله فى قصة موسى عليه السلام « وأتممناها بِعَشْرٍ[2] » ، وهى أفضل أيام السنة . وروى أبو الزبير عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " « والفجرِ . وليالٍ عشرٍ » — قال : عشر الأضحى " فهى ليال عشر على هذا القول ؛ لأن ليلة يوم النحر داخلة فيه، إذ قد خصها الله بأن جعلها موقفا لمن لم يدرك الوقوف يوم عرفة . وإنما نكرت ولم تعرّف لفضيلتها على غيرها[3]، فلو عُرِّفت لم تستقبل بمعنى الفضيلة الذى فى التنكير، فنكرت من بين ما أقسم به، للفضيلة التى ليست لغيرها . والله أعلم . وعن ابن عباس أيضا : هى العشر الأواخر من رمضان؛ وقاله الضحاك . وقال ابن عباس أيضا ويمان والطبرىّ : هى العشر الأُوَل من المحرّم، التى عاشرها يوم عاشوراء . وعن ابن عباس « وليالِ عشرٍ[4] » (بالإضافة) يريد : وليالى أيام عشر[5] .

قوله تعالى : وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾

الشفع : الاثنان ، والوتر : الفرد . واختلف فى ذلك؛ فرُوِى مرفوعا عن عمران بن الحصين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : الشفع والوتر : الصلاة، منها شَفْع ، ومنها وَتْر".

(١) جمع : هى مزدلفة . (٢) آية ١٤٢ سورة الأعراف . (٣) فى الجمل عن القرطبي : لأنها أفضل أيام السنة . (٤) فى تفسير الألوسى : « وقرأ ابن عباس بالإضافة نضبطه بعضهم (وليال عشر) بلام دون ياء، وبعضهم (وليالى) بالياء، وهو القياس » .
(٥) قال الإمام محمد عبده فى تفسيره : هى عشر الليالى فى أول كل شهر .

Marfat.com

وقال جابر بن عبد الله : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " « والفجرِ وليالٍ عشرٍ » — قال : هو الصبح، وعشر النحر، والوتر يوم عرفة، والشفع : يوم النحر ". وهو قول ابن عباس وعكرمة. واختاره النحاس، وقال : حديث أبي الزبير عن جابر هو الذي صح عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهو أصح إسنادا من حديث عِمران بن حُصين . فيوم عرفة وتر، لأنه تاسعها، ويوم النحر شفع لأنه عاشرها . وعن أبي أيوب قال : سُئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : « والشَّفْعِ والوَتْرِ » فقال : " الشفع : يوم عرفة ويوم النحر، والوتر ليلة يوم النحر ". وقال مجاهد وابن عباس أيضا : الشفع خَلْقه، قال الله تعالى : « وخَلَقناكم أزواجا »(١) والوَتْر هو الله عز وجل . فقيل لمجاهد : أترويه عن أحد ؟ قال : نعم، عن أبي سعيد الخُدْرِيّ، عن النبي صلى الله عليه وسلم . ونحوَه قال محمد بن سيرين ومسروق وأبو صالح وقتادة، قالوا : الشفع : الخلق، قال الله تعالى : « ومِن كُلِّ شَيْءٍ خلقنا زوجينِ »(٢) : الكفر والإيمان، والشقاوة والسعادة، والهدى والضلال، والنوُر والظلمة، والليل والنهار، والحر والبرد، والشمس والقمر، والصيف والشتاء، والسماء والأرض، والجنّ والإنس . والوتر : هو الله عز وجل، قال جل ثناؤه : « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ . اللهُ الصَّمَد » . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن للهِ تسعةً وتسعين آسما، والله وِتر يحب الوِتر " . وعن ابن عباس أيضا : الشفع : صلاة الصبح » والوتر : صلاة المغرب . وقال الربيع بن أنس وأبو العالية : هى صلاة المغرب، الشفع فيها ركعتان، والوتر الثالثة . وقال ابن الزُّبير : الشفع : يوما مِنًى : الحادى عشر، والثانى عشر . والثالث عشر الوتر؛ قال الله تعالى : « فمن تعجل فِي يومينِ فلا إثم عليهِ : ومن تأخر فلا إثم عليهِ »(٣) . وقال الضحاك : الشفع : عشر ذى الحجة، والوتر : أيام مِنًى الثلاثة . وهو قول عطاء . وقيل : إن الشفع والوتر : آدم وحوّاء؛ لأن آدم كان فردا فشُفِع بزوجته حوّاء، فصار شفعا بعد وتر . رواه ابن أبي نَجيح، وحكاه القشيريّ عن ابن عباس . وفى رواية : الشفع : آدم وحوّاء، والوتر هو الله تعالى . وقيل : الشفع والوتر : الخلق؛ لأنهم شفع ووتر،

(١) آية ٨ سورة النبأ . (٢) آية ٤٩ سورة الذاريات . (٣) آية ٢٠٣ سورة البقرة .

Marfat.com

فكأنه أقسم بالخلق . وقد يقسم الله تعالى بأسمائه وصفاته لعلمه ، ويقسم بأفعاله لقدرته ؛ كما قال تعالى: « وما خَلَقَ الذكَرَ والأُنثى »(١) . ويقسم بمفعولاته ، لعجائب صنعه؛ كما قال: « والشَّمْسِ وضُحاها » ، « والسماءِ وما بَنَاها » ، « والسَّماءِ والطَّارِق » . وقيل : الشفع : دَرَجات الجنة، وهى ثمان. والوتر، دَرَكات النار؛لأنها سبعة. وهذا قول الحسين بن الفضل؛ كأنه أقسم بالجنة والنار . وقيل : الشفع : الصفا والمروة، والوتر: الكَعْبة . وقال مقاتل بن حَيّان: الشفع: الأيام والليالى، والوتر: اليوم الذى لا ليلة بعده، وهو يوم القيامة. وقال سفيان ابن عُيينة : الوتر: هو الله، وهو الشفع أيضا؛ لقوله تعالى : « ما يكون مِن نَجْوَى ثلاثةٍ إلا هو رابِعهم»(٢) . وقال أبو بكر الوراق : الشفع : تضادّ أوصاف المخلوقين : العز والذل، والقدرة والعجز ، والقوة والضعف ، والعلم والجهل ، والحياة والموت ، والبصر والعَمَى ، والسمع والصَّمَم، والكلام والخَرَس . والوتر : انفراد صفات الله تعالى : عِز بلا ذل ، وقدرة بلا عجز ، وقوة بلا ضعف ، وعلم بلا جهل ، وحياة بلا موت ، و بصر بلا عَمًى ، وكلام بلا خَرَس، وسمع بلا صَمَم، وما وازاها . وقال الحسن : المراد بالشفع والوتر: العدد كله؛ لأن العدد لا يخلو عنهما، وهو إقسام بالحساب. وقيل : الشفع: مسجد مكة والمدينة، وهما الحرمان. والوتر: مسجد بيت المقدس. وقيل: الشفع: القِرن بين الحج والعمرة، أو التمتع بالعمرة إلى الحج. والوتر: الإفراد فيه. وقيل: الشفع: الحيوان؛لأنه ذكر وأنثى. والوتر: الجماد. وقيل: الشفع: ما يَنْمِى، والوتر: ما لا يَنْمِى. وقيل غير هذا. وقرأ ابن مسعود وأصحابه والكسائى وحمزة وخلف « والوِترِ » بكسر الواو . والباقون (بفتح الواو) ، وهما لغتان بمعنى واحد . وفى الصحاح: الوِتر (بالكسر) : الفرد، والوَتْر (بفتح الواو): الذحل(٣). هذه لغة أهل العالية. فأما لغة أهل الحجاز فبالضدّ منهم . فأما تميم فبالكسر فيهما .

---

(١) آية ٣ سورة الليل .

(٢) آية ٧ سورة المجادلة .

(٣) الذحل : الحقد والعداوة .

Marfat.com

قوله تعالى : وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ والليلِ إذا يسرِى ﴾ وهذا قسم خامس . وبعد ما أقسم بالليالى العشر على الخصوص، أقسم بالليل على العموم . ومعنى « يسرِى » أى يُسْرَى فيه؛ كما يقال : ليل نائم ، ونهار صائم . قال :[1]

لَقَدْ لُمْتِنا يا أمَّ غَيلان فى السُّرَى * ونِمتِ وما ليـلُ المطىِّ بنـائمِ

ومنه قوله تعالى: « بَلْ مَكْرُ الليلِ والنهارِ »[2] . وهذا قول أكثر أهل المعانى، وهو قول القُتَبِىّ والأخفش . وقال أكثر المفسرين : معنى «يَسْرِى» : سار فذهب . وقال قتادة وأبو العالية : جاء وأقبـل . ورُوِى عن إبراهيم : « والليـلِ إذا يَسْرِ» قال : إذا استوى . وقال عكرمة والكلبى ومجاهد ومحمد بن كعب فى قوله « والليلِ » : هى ليلة المزدلِفة خاصة؛ لاختصاصها باجتماع الناس فيها لطاعة الله . وقيل : ليلة القَدْر ؛ لِسراية الرحمة فيها، واختصاصها بزيادة الثواب فيها . وقيل : إنه أراد عموم الليل كله .

قلت : وهو الأظهر ، كما تقدّم . والله أعلم . وقـرأ ابن كثير وابن مُحَيصن ويعقوب «يسرِى» بإثبات الياء فى الحالين، على الأصل؛ لأنها ليست بمجزومة، فثبتت فيها الياء. وقرأ نافع وأبو عمرو بإثباتها فى الوصل، وبحذفها فى الوقف، وروى عن الكسائى. قال أبو عبيد: كان الكسائى يقول مرة بإثبات الياء فى الوصل ، و بحذفها فى الوقف ، اتباعا للمصحف . ثم رجع إلى حذف الياء فى الحالين جميعا؛ لأنه رأس آية ، وهى قراءة أهل الشام والكوفة ، واختيار أبى عُبيد ، اتباعا للخط ؛ لأنهـا وقعت فى المصحف بغير ياء . قال الخليل : تسقط الياء منها اتفاقا لرءوس الآى . قال الفرّاء : قد تحذف العرب الياء، وتكتفى بكسر ما قبلها . وأنشد بعضهم :[3]

كَفَّـاكَ كَفٌّ ما تُلِيقُ دِرهَمًـا * جُوداوأخرى تعطِ بالسّيفِ الدّما

(١) هذا البيت من قصيدة لجرير يرد بها على الفرزدق . (٢) آية ٣٣ سورة سبأ .

(٣) البيت فى (اللسان : ليق) غير منسوب لقائله . وفى تفسير الطبرى (طبعة الحلبى ١٢ / ١١٦) .

Marfat.com

يقال : فلان ما يُلِيق درهما من جوده؛ أى ما يمسكه ، ولا يلصق به . وقال المؤرِّج : سألت الأخفش عن العلة فى إسقاط الياء من « يَسْرِ »فقال : لا أجيبك حتى تبيت على باب دارى سنة، فبت على باب داره سنة ؛ فقال : الليل لا يَسْرِى و إنما يُسْرَى ، فيه؛ فهو مصروف، وكل ما صرفته عن جهته بَخَسْته من إعرابه ؛ ألا ترى إلى قوله تعالى : « وما كانت أمك بغيا »(١)، ولم يقل بغيــة، لأنه صرفها عن باغية . الزمخشرى : وياء « يسرى » تحذف فى الدَّرْج، اكتفاء عنها بالكسرة ، وأما فى الوقف فتحذف مع الكسرة . وهذه الأسماء كلها مجرورة بالقسم، والجواب محذوف ، وهو لَيُعَذَّبُنَّ؛ يدل عليه قوله تعالى: « ألم تركيف فعل ربك — إلى قوله تعالى — فصبّ عليهم ربك سَــوْط عذاب » . وقال ابن الأنبارى هو « إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ » . وقال مقاتل: « هل » هنا فى موضع إنّ؛ تقديره: إن فى ذلك قسما لذى حِجْر . فـ « هل » على هــذا فى موضع جواب القسم . وقيل : هى على بابهـا من الاستفهام الذى معناه التقرير؛ كقولك : ألم أُنعِم عليك ؛ إذا كنت قد أنعمت . وقيل : المراد بذلك التأكيد لمـا أقسم به وأقسم عليــه . والمعنى » : بل فى ذلك مَقْنَع لذى حِجْــر . والجواب على هذا : « إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ » . أو مضمر محذوف . ومعنى ﴿ لِذِى حِجْــرٍ ﴾ أى لذى لُبّ وعقل . قال الشاعر :

وكيف يرجَّى أَنْ تتــوبَ وإنَّمــا * يُرَجَّى من الفِتيانِ مَنْ كان ذا حِجْر

كذا قال عامة المفسرين؛ إلا أن أبا مالك قال : «لِذِى حِجر» : لذى ستر من الناس . وقال الحسن : لذى حلم . قال الفــراء : الكل يرجع إلى معنى واحد : لذى حِجْــر، ولذى عقل، ولذى حلم ، ولذى ســتر ؛ الكل بمعنى العقل . وأصل الحِجر : المنع . يقال لمن ملك نفسه ومنعها : إنه لذو حِجْر ؛ ومنه سمى الحَجَر ، لامتناعه بصلابته : ومنه حَجَر الحاكم على فلان، أى منعه وضبطه عن التصرّف ؛ ولذلك سميت الحُجْرة حجرة، لامتناع ما فيها بها. وقال الفرّاء: العرب تقول : إنه لذو حِجر: إذا كان قاهرا لنفسه ،ضابطا لها ؛ كأنه أخذ من حَجَرت على الرجل .

(١) آية ٢٨ سورة مريم .

Marfat.com

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ أى مالكك وخالقك . ﴿ بِعَادٍ . إِرَمَ ﴾ قراءة العامة « بعادٍ » منونا . وقرأ الحسن وأبو العالية « بِعادِ إرَمَ » مضافا . فمن لم يضف جعل « إرَمَ » آسمه ، ولم يصرفه ؛ لأنه جعل عادا آسم أبيهم ، وإرَم آسم القَبِيلة ؛ وجعله بدلا منه ، أو عطف بيان . ومن قرأه بالإضافة ولم يصرفه جعله آسم أمّهم ، أو آسم بلدتهم . وتقديره : بعاد أهل إرم . كقوله : «وآسْأَلِ القَرْيَةَ» ولم تنصرف — قبيلة كانت أو أرضا — للتعريف والتأنيث . وقراءة العامة « إِرَمَ » بكسر الهمزة . وعن الحسن أيضا «بعادَ إرَمَ» مفتوحتين ، وقرئ « بعادَ إِرْمَ» بسكون الراء ، على التخفيف ؛ كما قرئ « بوَرْقِكم » . وقرئ « بِعادِ إرَمَ ذاتِ العِمادِ» بإضافة «إرَمَ» — إلى — «ذاتِ العِمادِ» . والإرم : العلم . أى بعاد أهل ذات العَلَم . وقرئ «بِعادٍ إِرَمَ ذاتَ العِمادِ» أى جعل الله ذاتَ العماد رميما . وقرأ مجاهد والضحاك وقتادة « أَرَمَ » بفتح الهمزة . قال مجاهد : من قرأ بفتح الهمزة شبههم بالآرام ، التى هى الأعلام ، واحدها : أَرَم . وفى الكلام تقديم وتأخير ؛ أى والفجر وكذا وكذا إنّ ربك لبالمرصاد ألم تر . أى ألم ينته علمك إلى ما فعل ربك بعاد . وهذه الرؤية رؤية القلب ، والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، والمراد عامّ . وكان أمر عاد وثمود عندهم مشهورا ؛ إذ كانوا فى بلاد العرب ، وحِجر ثمود موجود اليوم . وأمر فرعون كانوا يسمعونه من جيرانهم من أهل الكتاب ، واستفاضت به الأخبار ، وبلاد فرعون متصلة بأرض العرب . وقد تقدّم هذا المعنى فى سورة «البروج»(1) وغيرها ﴿بِعادٍ﴾ أى بقوم عاد . فروى شَهْر بن حَوْشَب عن أبى هريرة قال : إن كان الرجل من قوم عاد ليتخذ المِصْراع من حجارة ، ولو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة لم يستطيعوا أن يُقِلّوه ، وإن كان أحدهم لَيُدخِل قدمه فى الأرض فتدخل فيها . و« إرم » : قيل هو سام بن نوح ؛ قاله آبن إسحاق . وروى عطاء عن آبن عباس — وحكى عن آبن إسحاق

(1) راجع جـ ١٩ ص ٢٩٥

Marfat.com

أيضا — قال: عاد ابن إرَم . فإرَم على هذا أبو عاد، وعاد بن إرَم بن عوص بن سام بن نوح. وعلى القول الأوّل : هو ٱسم جدّ عاد . قال ٱبن إسحاق : كان سام بن نوح له أولاد، منهم إرم بن سام، وأَرْفَخْشَذ بن سام. فمن ولد إرم بن سام العمالقة والفراعنة والجبابرة والملوك الطغاة والعصاة. وقال مجاهد : «إرَم» أمّة من الأمم. وعنه أيضا: أن معنى إرَمَ : القديمة، ورواه ٱبن أبي نَجِيح . وعن مجاهد أيضا أن معناها القوية (١) . وقال قتادة: هى قبيلة من عاد. وقيل: هما عادان . فالأولى هى إرَم؛ قال الله عز وجل: « وأنه أهلك عادا الأولى » (٢) . فقيل لعقب عاد بن عَوص بن إرَم بن سام بن نوح : عاد ؛ كما يقال لبنى هاشم : هاشم . ثم قيل للأولين منهم: عاد الأولى، وإرَم: تسمية لهم بٱسم جَدّهم. ولمن بعدهم: عادٌ الأخيرة. قال ابن الرُّقَيّات :

مَجْـدًا تليـدا بناهُ أوّلُهُم * أدرك عادا وقبـلَه إرَمَا

وقال مَعْمر: « إرم » : إليه مجمع عاد وثمود . وكان يقال : عادُ إرَمَ، وعادُ ثَمُودَ . وكانت القبائل تنتسب إلى إرم. ﴿ذاتِ العِمادِ، الَّتي لم يُخْلَقْ مِثْلُها في البِلادِ﴾ قال ٱبن عباس فى رواية عطاء : كان الرجل منهم طوله خمسمائة ذراع ، والقصير منهم طوله ثلثمائة ذراع بذراع نفسه . ورُوى عن ٱبن عباس أيضا أن طول الرجل منهم كان سبعين ذراعا . ٱبن العربى: وهو باطل؛ لأن فى الصحيح : " إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعا فى الهواء، فلم يزل الخلق ينقُص إلى الآن". وزعم قتادة : أن طول الرجل منهم ٱثنا عشر ذراعا. قال أبو عبيدة: «ذاتِ العِمادِ» ذات الطُّول . يقال : رجل مُعَمَّد إذا كان طويلا . ونحوه عن ٱبن عباس ومجاهد . وعن قتادة أيضا : كانوا عِمـادا لقومهم؛ يقال : فلان عَميد القوم وعَمُودهم : أى سيدهم . وعنه أيضا : قيل لهم ذلك، لأنهم كانوا ينتقلون بأبياتهم للانتجاع، وكانوا أهل خيام وأعمدة، ينتجعون الغيوث، ويطلبون الكلأ ، ثم يرجعون إلى منازلهم . وقيل : « ذاتِ العِمادِ » أى ذات الأبنية المرفوعة على العَمَد. وكانوا ينصبون الأعمدة، فيبنون عليها القصور. قال ابن زيد :

(١) فى بعض النسخ : « القرية » .
(٢) آية ٥٠ سورة النجم .

Marfat.com

« ذاتِ العِمادِ » يعنى إحكام البُنيان بالعَمَد . وفى الصحاح : والعماد : الأبنية الرفيعة ، تذكر وتؤنث . قال عمرو بن كلثوم :

ونحن إذا عِمادُ الحيّ خَرّتْ * على الأَحْفاضِ نمنع مَنْ يَلينا

والواحدة عِمادة . وفلان طويل العِماد : إذا كان منزله مَعْلَماً لزائره . والأحفاض : جمع حَفَض (بالتحريك) وهو متاع البيت إذا هُيِّئ ليُحمل؛ أى خَرّتْ على المتاع . ويروى؛ « عن الأحفاض » أى خرّت عن الإبل التى تحمل خُرْثِيّ (١) البيت . وقال الضحاك : « ذاتِ العِمادِ » ذات القوّة والشدّة ، مأخوذ من قوّة الأعمدة ؛ دليله قوله تعالى : « وقالُوا مَنْ أشدُّ منّا قُوّةً (٢) » . وروى عوف عن خالد الرَّبعيّ « إرم ذاتِ العِمادِ » قال : هى دمشق . وهو قول عكرمة وسعيد المَقْبُرِيّ . رواه ابن وهب وأشهب عن مالك . وقال محمد بن كعب القُرظيّ : هى الإسكندرية .

قوله تعالى : ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾

الضمير فى « مثلها » يرجع إلى القبيلة . أى لم يخلق مثل القبيلة فى البلاد : قوّة وشدّة، وعِظم أجساد ، وطول قامة ؛ عن الحسن وغيره . وفى حرف عبد الله « الّتى لم يُخْلَق مِثْلُهم فى البلاد » . وقيل : يرجع للمدينة . والأوّل أظهر، وعليه الأكثر، حسْب ما ذكرناه . ومن جعل « إرم » مدينة قدّر حذفا ؛ المعنى : كيف فعل ربك بمدينة عاد إرم، أو بعد صاحبه إرم . وإرم على هذا : مؤنثة معرفة . واختار ابن العربيّ أنها دِمشق، لأنه ليس فى البلاد مثلها . ثم أخذ ينعتها بكثرة مياهها وخيراتها . ثم قال : وإن فى الإسكندرية لعجائب ، لو لم يكن إلا المنارة، فإنها مبنية الظاهر والباطن على العمد، ولكن لها أمثال، فأما دِمشق فلا مِثل لها . وقد روى مَعْن عن مالك أن كتابا وُجِد بالإسكندرية، فلم يُدْرَ ما هو ؟ فإذا فيه « أنا شدّاد ابن عاد، الذى رفع العماد ، بنيتها حين لا شيبَ ولا مَوْت . قال مالك : إن كان لتمرّ بهم

(١) الخرثى ككرسى : سقط متاع البيت وأثاثه (أردؤه) . (٢) آية ١٥ سورة فصلت .

Marfat.com

مائة سنة لا يرون فيها جنازة . وذكر عن ثور بن زيد(١) أنه قال : أنا شداد بن عاد ، وأنا رفعت العماد ، وأنا الذى شددت بذراعى بطن الواد ، وأنا الذى كنزت كنزا على سبعة أذرع ، لا يخرجه إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم . ورُوِى أنه كان لعاد ابنان : شدّاد وشديد ؛ فملكا وقهرا ، ثم مات شديد ، وخلص الأمر لشداد فملك الدنيا ، ودانت له ملوكها ؛ فسمع بذكر الجنة ، فقال : أبنى مثلها . فبنى إرَم فى بعض صحارى عَدَن ، فى ثلثمائة سنة ، وكان عمره تسعمائة سنة . وهى مدينة عظيمة ، قصورها من الذهب والفضة ، وأساطينها(٢) من الزَّبَرْجد والياقوت ، وفيها أصناف الأشجار والأنهار المُطَّرِدة(٣) . ولما تمّ بناؤها سار إليها بأهل مملكته ، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة ، بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا . وعن عبد الله بن قِلابة : أنه خرج فى طلب إبل له ، فوقع عليها، فحمل ما قدر عليه مما ثَمّ ، وبلغ خبره معاوية فاستحضره، فقص عليه، فبعث إلى كعب(٤) فسأله ، فقال: هى إرَمُ ذاتُ العماد، وسيدخلها رجل من المسلمين فى زمانك، أحمر أشقر قصير، على حاجبه خال، وعلى عَقِبه خال، يخرج فى طلب إبل له ؛ ثم التفت فأبصر ابن قِلابة، وقال : هذا والله ذلك الرجل. وقيل: أى لم يخلق مثل أبنية عاد المعروفة بالعمد. فالكناية للعماد . والعماد على هذا : جمع عَمَد . وقيل : الإرَم : الهلاك ؛ يقال : أَرِم بنو فلان ؛ أى هلكوا(٥) ؛ وقاله ابن عباس . وقرأ الضحاك : « أَرَمَّ(٦) ذاتَ العِمادِ » ؛ أى أهلكهم ، بجعلهم رَميما(٧) .

قوله تعالى : ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ ﴾

ثمود: هم قوم صالح. و « جابوا » : قطعوا. ومنه: فلان يجوب البلاد، أى يقطعها، وإنما سمى جيب القميص لأنه جِيبَ ؛ أى قطع . قال الشاعر وكان قد نزل على ابن الزبير بمكة ، فكتب له بستين وَسْقا يأخذها بالكوفة . فقال :

(١) فى الأصول : « يزيد » وهو تحريف . (٢) الأساطين : جمع الأسطوانة ، وهى العمود والسارية .
(٣) أى الجارية . (٤) يريد : كعبا الحبر : عالم أهل الكتاب . (٥) حكاه الطبرى .
(٦) كذا بفتح الهمزة والراء . حكاه الشوكانى فى فتح القدير (٥ / ٤٣٢) .
(٧) قوله (بجعلهم رميما) بيان للمعنى ، وليس تفسيرا للاشتقاق .

Marfat.com

راحت رَوَاحًا قَلُوصِى وهى حامدة * آلَ الزُّبَيرولم تَعْـدِل بهـم أحدًا
راحتْ بستينَ وَسْـقًا فى حَقِيبتهـا * ما حَمَلَتْ حَمْلَها الأدنَى ولا السَّددا
ما إنْ رأيتُ قَلُوصا قبلهـا حملت * سِتِينَ وَسْـقا ولا جابت به بلدا

أى قطعت . قال المفسرون : أوّل من نحت الجبـال والصور والرخام : ثمـود . فبنوا من المدائن ألفا وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة . ومن الدور والمنازل ألفَىْ ألف وسبعمائة ألف، كلها من الحجارة. وقد قال تعالى : «وكانوا يَنحِتُون مِن الجبالِ بيوتا آمِنِين»(١) . وكانوا لقوتهم يُخرجون الصخور، و ينقبون الجبال، ويجعلونها بيـوتا لأنفسهم . ﴿ بِالوادِى ﴾ أى بوادى القُرَى ؛ قاله محمد بن إسحاق . وروى أبو الأشهب عن أبى نَضْرة قال : أتى رسول الله صلى الله عليـه وسلم فى غَزاة تَبوك على وادى ثمود ، وهوَ على فَرَس أشقر ، فقال : "أسرعوا السير، فإنكم فى وادٍ ملعون" . وقيل : الوادى بين جبـال ، وكانوا ينقبون فى تلك الجبال بيوتا ودورا وأحواضا . وكل مُنْفَرَج بين جبال أو تلال يكون مسلكا للسيل ومنفذا فهو وادٍ.

قوله تعالى : وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾

أى الجنود والعساكر والجموع والجيوش التى تشدّ ملكه ؛ قاله ابن عباس . وقيل : كان يعذب الناس بالأوتاد ، ويشدهم بها إلى أن يموتوا ؛ تجبرا منه وعُتُوّا . وهكذا فعل بآمرأته آسية وماشطة ابنته ؛ حَسْب ما تقدم فى آخر سورة «التحريم»(٢) . وقال عبد الرحمن بن زيد : كانت له صخرة تُرفع بالبكرات ، ثم يؤخذ الإنسان فتوتد له أوتاد الحديد، ثم يرسل تلك الصخرة عليه فتشدخه . وقد مضى فى سورة « صۤ »(٣) من ذكر أوتاده ما فيه كفاية . والحمد لله .

قوله تعـالى : ٱلَّذِينَ طَغَـوْا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾

(١) آية ٨٢ سورة الحجر . (٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٠٢ (٣) راجع جـ ١٥ ص ١٥٤

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴾ يعنى عادا وثمودا[(١)] وفرعون « طَغَوْا » أى تمردوا وعَتَوْا وتجاوزوا القدر فى الظلم والعُدوان . ﴿ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴾ أى الجَوْر والأذى . و « الَّذِينَ طَغَوا» أحسن الوجوه فيه أن يكون فى محل النصب على الذم . ويجوز أن يكون مرفوعا على : هم الذين طغوا، أو مجرورا على وصف المذكورين : عادٍ، وثمودٍ، وفرعونَ . ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ أى أفرغ عليهم وألقَى ؛ يقال: صبّ على فلان خِلعة، أى ألقاها عليه . وقال النابغة :

فَصَبَّ عليه اللهُ أَحْسَنَ صَنْعِه[(٢)] * وكان له بين البرية ناصرا

﴿ سَوْط عذابٍ ﴾ أى نَصيب عذاب . ويقال : شِدّته ؛ لأن السوط كان عندهم نهاية ما يُعذَّب به . قال الشاعر :

ألم تر أن الله أظهر دِينه * وصبّ على الكفار سَوْطَعَذاب

وقال الفرّاء: وهى كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب. وأصل ذلك أن السوط هو عذابهم الذى يُعذِّبون به، فجرى لكل عذاب؛ إذ كان فيه عندهم غاية العذاب. وقيل. معناه عذاب يخالط اللحم والدم؛ من قولهم : ساطه يَسوطه سَوْطا أى خلطه ، فهو سائط . فالسوط : خلط الشيء بعضه ببعض؛ ومنه سمى المِسْواط . وساطَهُ[(٣)] أى خَلَطه ، فهو سائط، وأكثر ذلك يقال: سَوَّط فلان أموره . قال :

فَسُطْها ذَمِيمَ الرأيِ غيرَ مُوَفَّقٍ * فلستُ على تَسوِيطها بُمعانِ

قال أبو زيد : يقال أموالهم سَوِيطة بينهم ؛ أى مختلطة . حكاه عنه يعقوب . وقال الزجاج: أى جعل سوطَهم الذى ضربهم به العذاب. يقال: ساط دابته يَسُوطها؛ أى ضربها

---

(١) اختلف فى «ثمود» فنهم من صرفه ومنهم من لم يصرفه؛ فن صرفه ذهب به إلى الحى لأنه اسم عربى مذكر سمى بمذكر . ومن لم يصرفه ذهب به إلى القبيلة وهى مؤنثة .

(٢) الرواية فى البيت كما فى ديوانه وشعراء النصرانية : * وربّ عليه الله ... الخ *
قال البطليوسى شارح الديوان : ربه أتمه . وأصله أن يقال : ربيت معروفى عند فلان أربه ربا : إذا أدمته عليه ونمته لديه . و «رب عليه» : دعاء معطوف على ما قبله . وهو مدح فى النعمان . وعلى هذه الرواية لا شاهد فى البيت .

(٣) فى الأصل : (سوطه) بصيغة المصدر . وصيغة الفعل الثلاثى الماضى أمكن هنا .

Marfat.com

بسوطه. وعن عمرو بن عُبيد: كان الحسن إذا أتى على هذه الآية قال: إن عند الله أسواطا كثيرة، فأخذهم بسوط منها. وقال قتادة: كل شيء عذب الله تعالى به فهو سوط عذاب.

قوله تعالى: إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾

أى يَرْصُد عمل كل إنسان حتى يجازيه به؛ قاله الحسن وعكرمة. وقيل: أى على طريق العباد لا يفوته أحد. والمَرْصَد والمِرصاد: الطريق. وقد مضى فى سورة «براءة»[(1)] والحمد لله. فروى الضحاك عن ابن عباس قال: إن على جهنم سبع قناطر، يُسأل الإنسان عند أول قنطرة عن الإيمان، فإن جاء به تاما جاز إلى القنطرة الثانية، ثم يُسأل عن الصلاة؛ فإن جاء بها جاز إلى الثالثة، ثم يُسأل عن الزكاة، فإن جاء بها جاز إلى الرابعة. ثم يُسأل عن صيام شهر رمضان، فإن جاء به جاز إلى الخامسة. ثم يُسأل عن الحج والعُمْرة، فإن جاء بهما جاز إلى السادسة. ثم يسأل عن صلة الرحم، فإن جاء بها جاز إلى السابعة. ثم يُسأل عن المظالم، وينادى منادٍ: ألا من كانت له مَظْلِمة فليأت؛ فيقتص للناس منه، ويقتص له من الناس؛ فذلك قوله عز وجل: «إن ربك لبالمرصاد». وقال الثورى: «لبالمرصاد» يعنى جهنم؛ عليها ثلاث قناطر: قنطرة فيها الرَّحِم، وقنطرة فيها الأمانة، وقنطرة فيها الرب تبارك وتعالى.

قلت: أى حكمته وإرادته وأمره. والله أعلم. وعن ابن عباس أيضا «لبالمرصاد» أى يسمع ويرى.

قلت: هذا قول حسن؛ «يَسْمع» أقوالهم ونجواهم، و«يَرَى» أى يعلم أعمالهم وأسرارهم، فيجازى كلا بعمله. وعن بعض العرب أنه قيل له: أين ربك؟ فقال: بالمرصاد. وعن عمرو بن عُبيد أنه قرأ هذه السورة عند المنصور حتى بلغ هذه الآية، فقال: «إن ربك لبالمرصاد» يا أبا جعفر! قال الزمخشرى: عَرَّض له فى هذا النداء، بأنه بعض من

(١) راجع جـ ٨ ص ٧٣

تُوُعِّد بذلك من الجبابرة ؛ فلله دَرّه . أي أَسدٍ فَرَّاس كان بين يديه؟ يَدُقّ[1] الظَّلَمة بإنكاره، ويقمع[2] أهل الأهواء والبدع بآحتجاجه !

قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى : ﴿ فأمّا الإنسانُ ﴾ يعني الكافر . قال آبن عباس : يريد عُتبة بن ربيعة وأبا حذيفة بن المغيرة . وقيل : أُمية بن خلف . وقيل؛ أبيّ بن خلف . ﴿ إذا ما ابتلاه ربه ﴾ أى آمتحنه وآختبره بالنعمة . و «ما» : زائدة صلة . ﴿فأكرمه﴾ بالمال . ﴿ونعّمه﴾ بما أوسع عليه . ﴿ فَيقولُ ربّى أَكْرَمَنِ ﴾ فيفرح بذلك ولا يحمده . ﴿ وأما إِذَا ما ٱبْتَلاهُ ﴾ أى آمتحنه بالفقر وآختبره . ﴿ فقَدَر ﴾ أى ضيق ﴿ عليه رِزقَه ﴾ على مقدار البُلْغة . ﴿فيقولُ ربِّى أهانَنِ ﴾ أى أولانى هوانا . وهذه صفة الكافر الذى لا يؤمن بالبعث : وإنما الكرامة عنده والهوان بكثرة الحظ فى الدنيا وقلته . فأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته وتوفيقه، المؤدّى إلى حظ الآخرة ، وإن وسّع عليه فى الدنيا حمِده وشكره .

قلت : الآيتان صفة كل كافر. وكثير من المسلمين يظنّ أن ما أعطاه الله لكرامته وفضيلته عند الله ، وربما يقول بجهله : لو لم أستحقّ هذا لم يعطنيه الله . وكذا إن قتّر عليه يظنّ أن ذلك لهوانه على الله . وقراءة العامة «فقَدَر» مخففة الدال . وقرأ آبن عامر مشدّدا، وهما لغتان . والآختيار التخفيف؛ لقوله : « ومن قُدِرَ عليه رِزقه »[2] . قال أبو عمرو : و«قُدِر» أى قُتِّر . و«قُدّر» مشدّدا : هو أن يعطيه ما يكفيه، ولو فعل به ذلك ما قال «ربّى أهانَن» . وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو «ربّىَ» بفتح الياء فى الموضعين. وأسكن الباقون. وأثبت البَزّى

(١) فى بعض الأصول والزمخشرى : « تو بيه » .
(٢) آية ٧ سورة الطلاق .

Marfat.com

وابن مُحَيصن ويعقوب الياء من « أكرمنِ » ، و « أهاننِ » فى الحالين؛ لأنها اسم فلا تحذف . وأثبتها المدنيون فى الوصل دون الوقف، اتباعا للمصحف . وخيرأبو عمرو فى إثباتها فى الوصل أو حذفها؛ لأنها رأس آية ، وحذفها فى الوقف لخط المصحف . الباقون بحذفها، لأنها وقعت فى الموضعين بغير ياء ، والسنة ألا يخالف خط المصحف ؛ لأنه إجماع الصحابة .

قوله تعالى : كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا ﴾ ردّ ؛ أى ليس الأمر كما يُظَنّ ، فليس الغِنى لفضله ، ولا الفقر لهوانه ، وإنما الفقر والغنى من تقديرى وقضائى . وقال الفراء : « كَلَّا » فى هذا الموضع بمعنى لم يكن ينبغى للعبد أن يكون هكذا ، ولكن يحمَدُ الله عز وجل على الغنى والفقر . وفى الحديث : ”يقول الله عز وجل : كلا إنى لا أكرِم من أكرمت بكثرة الدنيا ، ولا أهِين من أهنت بقلتها ، إنما أكرم من أكرمت بطاعتى ، وأهين من أهنت بمعصيتى“ .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ لا تُكْرِمُونَ اليَتِيمَ ﴾ إخبار عن ما كانوا يصنعونه من منع اليتيم الميراث ، وأكل ماله إسرافا وبِدَارا أنْ يَكْبَروا . وقرأ أبو عمرو ويعقوب « يُكْرِمون » ، و « يَحُضُّون » و « يأكلون » ، و « يُحِبُّونَ » بالياء ؛ لأنه تقدّم ذكر الإنسان ، والمراد به الجنس ، فعبر عنه بلفظ الجمع . الباقون بالتاء فى الأربعة ، على الخطاب والمواجهة ؛ كأنه قال لهم ذلك تقريعا وتوبيخا . وترك إكرام اليتيم بدفعه عن حقه ، وأكل ماله كما ذكرنا . قال مقاتل : نزلت فى قُدامة ابن مظعون وكان يتيما فى حجر أُمية بن خَلَف . ﴿ ولا تَحُضونَ عَلَى طعامِ المِسْكِينِ ﴾ أى لا يأمرون أهليهم بإطعام مسكين يجيئهم . وقرأ الكوفيون « ولا تَحَاضُّونَ » بفتح التاء والحاء والألف . أى يَحُضّ بعضهم بعضا . وأصله تتحاضُّون ، فحذف إحدى التاءين لدلالة الكلام عليها . وهو اختيار أبى عُبيد . ورُوِى عن إبراهيم والشَّيْزَرِى عن الكسائى والسُّلَمِى « تُحَاضُّون » بضم

التاء، وهو تُفاعِلون من الحضّ، وهو الحث . ﴿وتأكُلُون التُّراثَ﴾ أى ميراث اليتامى . وأصله الوُراث من ورِث، فأبدلوا الواو تاء؛ كما قالوا فى تُجاه وتُخمة وتُكأة وتُؤدة ونحو ذلك . وقد تقدّم . ﴿أَكْلًا لَمًّا﴾ أى شديدًا ؛ قاله السُّدّى . قيل « لَمًّا » : جمعا؛ من قولهم : لممت الطعام لمًّا إذا أكلته جمعا ؛ قاله الحسن وأبو عُبيدة . وأصل اللَّمّ فى كلام العرب : الجمع ؛ يقال : لَمَمْتُ الشىء أَلُمُّه لَمًّا : إذا جمعته ، ومنه يقال : لمّ الله شعثه، أى جمع ماتفرق من أموره . قال النابغة :

ولَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لا تَلُمُّـــه * على شَعَثٍ أَىُّ الرجال المُهَذَّبُ

ومنه قولهم : إن دارك لَمُومَة ؛ أى تَلُمّ الناس وتَرُبُّهم وتجمعهم . وقال المِرناق[1] الطائىّ يمدح علقمة بن سيف :

لأَحَبَّنِي حُبَّ الصبىّ ولَمَّنِي[2] * لَمَّ الهَدِىّ إلى الكريم الماجِدِ

وقال الليث : اللمّ الجمع الشديد، ومنه حجر ملموم، وكتيبة ملمومة . فالآكل يَلُمّ الثريد، فيجمعه لُقَما ثم يأكله . وقال مجاهد . يَسفُّه سَفًّا : وقال الحسن : يأكل نصيبه ونصيب غيره . قال الحُطيئة :

إذا كانَ لَمًّا يُتْبِعُ الذمَّ ربَّه * فلا قدّس الرحمنُ تلك الطواحِنا

يعنى أنهم يجمعون فى أكلهم بين نصيبهم ونصيب غيرهم . وقال ابن زيد : هو أنه إذا أكل ماله ألَمّ بمال غيره فأكله ، ولا يفكر : أكل من خبيث أو طيب . قال : وكان أهل الشرك لا يورّثون النساء ولا الصبيان، بل يأكلون ميراثهم مع ميراثهم، وتراثهم مع تُراثهم . وقيل : يأكلون ما جمعه الميت من الظلم وهو عالم بذلك، فيَلُمّ فى الأكل بين حرامه وحلاله . ويجوز

(١) كذا فى نسخ الأصل ومعجم الشعراء للمرزبانى . قال المرزبانى : « وأحسبه لقبا » . وفى لسان العرب : « قال فدكى بن أعبد يمدح ... » . وفى كتاب أشعار الحماسة : « وقال رجل من بهراء، واسمه فدكى يمدح ... » .

(٢) فى اللسان والحماسة ومعجم الشعراء : « ورمّنى » بالراء بدل « ولمّنى » باللام، وعلى هذا لا شاهد فيه . وقوله « ورمّنى » : أى أصلح حالى وشأنى . و « الهدى » : العروس تهدى إلى زوجها ، فإذا زفت إليه تكلف أهلها فى حسن تجهيزها ، لئلا يعير أهل زوجها خللا وقع فى أمرها .

Marfat.com

أن يذمّ الوارث الذى ظفِر بالمـال سَهْلا مَهْلا ، من غير أن يَعرَق فيه جبينه ، فيسرف فى إنفاقه ، ويأكله أكلا واسـعا ، جامعا بين المشتهيات من الأطعمة والأشربة والفواكه ، كما يفعل الوُرّاث البطالون . ﴿ وتُحبّون المـالَ حُبّا جَمّا ﴾ أى كثيرا ، حلاله وحرامه . والجمّ الكثير . يقال : جمّ الشيء يَجُمّ جُموما ، فهو جَمٌّ وجامٌّ . ومنه جمّ المـاء فى الحوض : إذا اجتمع وكثر. وقال الشاعر (١) :

إن تغفـرِ اللّهـمّ تغفرْ جَمّـا * وأَىُّ عبـدٍ لكَ لا أَلَمّا

والجَمّة : المكان الذى يجتمع فيه ماؤه . والجَموم : البئر الكثيرة المـاء . والجُمُوم (بالضم) : المصدر ؛ يقال : جمّ المـاء يجم جموما : إذا كثر فى البئر واجتمع ، بعد ما استقِي ما فيها .

قوله تعـالى : ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ كَلَّا ﴾ أى ما هكذا ينبغى أن يكون الأمر . فهـو ردّ لانكبابهم على الدنيا ، وجمعهم لهـا ؛ فإن من فعل ذلك يندم يوم تُدَكّ الأرض ، ولا ينفع الندم . والدكّ : الكسر والدقّ ؛ وقد تقدّم (٢) . أى زلزلت الأرض ، وحُرّكت تحريكا بعد تحريك . وقال الزجاج : أى زلزلت فَدَكّ بعضها بعضا . وقال المبرد : أى ألصِقت وذهب ارتفاعها . يقـال ناقة : دَكّاء ، أى لا سنام لهـا ، والجمع دُكٌّ . وقد مضى فى سورة «الأعراف» و «الحاقة» القول فى هذا . ويقولون : دُكّ الشيء أى هُدِم . قال :

* هل غير غارٍ دَكّ غارا فانهدمْ (٣) *

﴿ دَكًّا دَكًّا ﴾ أى مرة بعد مرة ؛ زلزلت فكسّر بعضها بعضا ؛ فتكسر كل شيء على ظهرها . وقيل : دُكّت جبالها وأنشازها حتى استوت . وقيل : دُكت أى استوت فى الانفراش ؛ فذهب دُورها وقُصورها وجبالها وسائر أبنيتها . ومنه سمى الدّكان ، لاستوائه فى الانفراش . والدك : حطُّ المرتفع من الأرض بالبسط ؛ وهو معنى قول ابن مسعود وابن عباس : تمدّ الأرض مدّ الأديم .

(١) هو أبو خراش الهذلى .
(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٧٨ وجـ ١١ ص ٦٣ وجـ ١٨ ص ٢٦٤
(٣) الغار : الجمع الكثير من الناس ؟

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿وجاءَ ربُّك﴾ أى أمره وقضاؤه ؛ قاله الحسن . وهو من باب حذف المضاف . وقيل : أى جاءهم الربّ بالآيات العظيمة ؛ وهو كقوله تعالى : « إلّا أن يأتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الغَمامِ »[(١)] ، أى بظلل . وقيل : جعل مجىء الأيات مجيئا له ، تفخيما لشأن تلك الآيات . ومنه قوله تعالى فى الحديث : " يا بن آدم ، مرِضتُ فلم تَعُدنى ، وآستسقيتُك فلم تَسْقِنى ، وآستطعمتك فلم تُطْعِمْنى " . وقيل : « وجاءَ رَبُّك » أى زالت الشُّبَهُ ذلك اليوم ، وصارت المعارف ضرورية ، كما تزول الشُّبَه والشك عند مجىء الشىء الذى كان يُشَك فيه . قال أهل الإشارة : ظهرت قدرته وآستولت[(٢)] ، والله جل ثناؤه لا يوصف بالتحوّل من مكان إلى مكان ، وأنّى له التحوّل والآنتقال ، ولا مكان له ولا أوان ، ولا يجرى عليه وقت ولا زمان ؛ لأن فى جَرَيان الوقت على الشىء فوت الأوقات ، ومن فاته شىء فهو عاجز .

قوله تعالى : ﴿والمَلَكُ﴾ أى الملائكة . ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ أى صفوفا . ﴿وجِىءَ يومئذٍ بجهنّم﴾ : قال آبن مسعود ومقاتل : تقاد جهنم بسبعين ألف زمام ، كل زمام بيد سبعين ألف ملك ، لها تغيظ وزفير ؛ حتى تنصب عن يسار العرش . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يُؤْتَى بجهنم يومئذ ، لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك ، يجرّونها " . وقال أبو سعيد الخُدرى : لما نزلت « وجِىءَ يومئذٍ بجَهَنَّم » تغيرلون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعُرِف فى وجهه ، حتى آشتدّ على أصحابه ، ثم قال : " أقرأنى جبريل « كَلَّا إذا دُكّتِ الأرضُ دَكًّا دَكًّا — الآية — وجِىءَ يومئذٍ بجهنم " . قال علىّ رضى الله عنه : قلت يا رسول الله ، كيف يجاء بها ؟ قال : " يؤتى بها تقاد بسبعين ألف زمام ، يقود بكل زمام سبعون ألف مَلَك ، فتَشْرُد شَرْدَة لو تركت لأحرقت أهل الجمع

(١) آية ٢١٠ سورة البقرة . (٢) فى بعض الأصول : « واستوت » .

Marfat.com

ثم تعـرض لى جهنم فتقول : مالى ولك يا محمد ، إن الله قـد حرّم لحمك علىّ " فلا يبقى أحد إلا قال نفسى نفسى ! إلا محمد صلى الله عليه وسلم فإنه يقول : رب أمتى! ربّ أمتى !

قوله تعـالى : ﴿ يومئذ يتذكّر الإنسان﴾ أى يتعظ و يتوب . وهو الكافر، أو من همته معظم الدنيا[(1)] . ﴿وأنّى له الذّكرى﴾ أى ومن أين له الاتعاظ والتوبة وقد فرّط فيها فى الدنيا . ويقـال : أى ومن أين له منفعة الذكرى . فلا بدّ من تقـدير حذف المضاف ، وإلا فبين « يومئذ يتذكر » وبين « وأنّى له الذكرى » تناف ؛ قاله الزمخشرى .

قوله تعـالى : يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾

أى فى حيـاتى . فاللام بمعنى فى . وقيل : أى قـدمت عملا صالحا لحياتى ، أى لحياة لا موت فيها . وقيل : حياة أهل النار ليست هنيئة ، فكأنهم لا حياة لهم ؛ فالمعنى : ياليتنى قدّمت من الخير لنجاتى من النار ، فأكون فيمن له حياة هنيئة .

قوله تعـالى : فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ فيومئذ لا يُعذّب عذابه أحد ﴾ أى لا يعذّب كعذاب الله أحد ، ولا يُوثِق كوثاقه أحد . والكناية ترجع إلى الله تعالى . وهـو قول ابن عباس والحسن . وقـرأ الكسائى « لا يُعَـذَّب » « ولا يُوثَق » بفتح الذال والثاء ؛ أى لا يعـذب أحد فى الدنيـا كعذاب الله الكافر يومئذ ، ولا يوثَق كما يوثَق الكافر . والمراد إبليس ؛ لأن الدليل قام على أنه أشدّ الناس عذابا ، لأجل إجرامه ؛ فأطلق الكلام لأجل ما صحبه من التفسير . وقيل : إنه أمية ابن خلف ؛ حكاه الفرّاء . يعنى أنه لا يعذّب كعذاب هـذا الكافر المعيّن أحد ، ولا يوثَق بالسلاسل والأغلال كوثاقه أحد ؛ لتناهيه فى كفره وعناده . وقيل : أى لا يعـذّب مكانه

(١) هكذا وردت فى جميع نسخ الأصل . وفى تفسير ابن عادل : « ومن همته الدنيا » .

Marfat.com

أحد ، فلا يؤخذ منه فـداء . والعذاب بمعنى التعذيب ، والوثاق بمعنى الإيثاق . ومنـه قول الشاعر :

* وبعد عطائك المـائة الرتاعا (١) *

وقيـل : لا يعذب أحد ليس بكافر عذاب الكافر . وآختار أبو عبيد وأبو حاتم فتح الذال والثاء . وتكون الهاء ضمير الكافر؛ لأن ذلك معروف: أنه لا يعذب أحد كعذاب الله . وقد روى أبو قِلابة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قرأ بفتح الذال والثاء . وروى أن أباعمرو رجـع إلى قراءة النبيّ صلى الله عليه وسـلم . وقال أبو عليّ : يجوز أن يكون الضمير للكافر على قراءة الجماعة ؛ أى لا يعذِّب أحدٌ أحدا مثل تعذيب هذا الكافر ؛ فتكون الهاء للكافر. والمراد بـ « أحد » الملائكة الذين يتولون تعذيب أهل النار .

قوله تعـالى : ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ يَأَيَّتُهَا النَّفْسُ المطمئنة ﴾ لمـا ذكر حال من كانت هِمته الدنيا فاتهم الله فى إغنائه و إفقاره، ذكر حال من آطمأنت نفسه إلى الله تعالى، فسلم لأمره، واتكل عليه . وقيل : هو من قول الملائكة لأولياء الله عز وجل . والنفس المطمئنة : الساكنة المُوقنة ؛ أيقنت أن الله ربهـا، فأخبتت لذلك؛ قاله مجاهـد وغيره . وقال آبن عباس : أى المطمئنة بثواب الله . وعنـه المؤمنة . وقال الحسن : المؤمنة الموقنة . وعن مجاهد أيضا : الراضـية بقضاء الله، التى علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها، وأنّ ما أصابها لم يكن ليخطئها . وقال مقاتل : الآمنة من عذاب الله . وفى حرف أُبيّ بن كعب « يأيتها النفس الآمنة المطمئنة » . وقيل : التى عمِلت على يقين بمـا وعد الله فى كتابه . وقال آبن كَيسان : المطمئنة هنا : المخلصة.

(١) هذا عجز بيت للقطامى ، من قصيدة مدح بها زفر بن الحارث ، وصدره :

* أكفرا بعد ردّ الموت عنى *

والرتاع : الإبل الراتعة .

Marfat.com

وقال ابن عطاء : العارفة التى لا تصبر عنه طرفة عين . وقيل : المطمئنة بذكر الله تعالى؛ بيانه «الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ»(1) . وقيل : المطمئنة بالإيمان، المُصدِّقة بالبعث والثواب . وقال ابن زيد : المطمئنة لأنها بشرت بالجنة عند الموت، وعند البعث ، ويوم الجمع . وروى عبد الله بن بُرَيدة عن أبيه قال : يعنى نفس حمزة . والصحيح أنها عامة فى كل نفسٍ مؤمنٍ مخلص طائع . قال الحسن البصرى : إن الله تعالى إذا أراد أن يقبض رُوح عبده المؤمن، اطمأنت النفس إلى الله تعالى، واطمأن الله إليها . وقال عمرو بن العاص : إذا تُوُفِّىَ المؤمن أرسل الله إليه مَلَكين، وأرسل معهما تُحفة من الجنة، فيقولان لها : "اخرجى أيتها النفسُ المطمئنةُ راضية مَرضية، ومَرضيا عنك، اخرجى إلى رَوْح وريحان، ورَبٍّ راضٍ غير غضبان، فتخرج كأطيب ريح المسك وجد أحد من أنفه على ظهر الأرض . وذكر الحديث . وقال سعيد بن زايد : قرأ رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم « يا أيتها النفس المُطْمَئِنَّة » ، فقال أبو بكر : ما أحسن هذا يارسول الله ! فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " إن المَلَك سيقولها لك يا أبا بكر" . وقال سعيد بن جبير : مات ابن عباس بالطائف ، فجاء طائر لم يُرَ على خلقته طائر قط، فدخل نعشه ، ثم لم ير خارجا منه ، فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر — لا يُدرَى من تلاها — : ﴿ يا أيتها النفسُ المُطْمَئِنة ارجعى إلى ربك راضيةً مرضية ﴾ . وروى الضحاك أنها نزلت فى عثمان بن عفان رضى الله عنه حين وقف بئر رُومة(2) . وقيل : نزلت فى خُبَيب بن عدى الذى صَلَبه أهل مكة ، وجعلوا وجهه إلى المدينة ، فحوّل الله وجهه نحو القبلة . والله أعلم .

معنى ﴿ إلى رَبِّك ﴾ أى إلى صاحبك وجسدك؛ قاله ابن عباس وعكرمة وعطاء . واختاره الطَّبَرى ؛ ودليله قراءة ابن عباس « فادْخُلِي فِي عَبْدِى » على التوحيد ، فيأمر الله تعالى الأرواح غدا أن ترجع إلى الأجساد . وقرأ ابن مسعود « فى جسدِ عبدى » . وقال الحسن : ارجعى إلى ثواب ربك وكرامته . وقال أبو صالح : المعنى : ارجعى إلى الله . وهذا عند الموت .

(1) آية ٢٨ سورة الرعد . (2) هى بئر بالمدينة .

Marfat.com

﴿ فادْخلِي فِي عِبادِي ﴾ أي في أجساد عبادي؛ دليله قراءة ابن عباس وابن مسعود . قال ابن عباس : هذا يومَ القيامة ؛ وقاله الضحاك . والجمهور على أن الجنة هي دار الخلود التي هي مَسْكَن الأبرار ، ودار الصالحين والأخيار . ومعنى « فِي عِبادِي » أي في الصالحين من عبادي ؛ كما قال: «لَنُدْخِلَنَّهم فِي الصَّالِحِين»(١) . وقال الأخفش: «فِي عِبادِي» أي في حِزبي ؛ والمعنى واحد . أي انتظمي في سِلْكهم . ﴿ وادخلي جنتِي ﴾ معهم .

ســورة « البـــلد »

مكية باتفاق . وهي عشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : لَآ أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾

يجوز أن تكون « لا » زائدة؛ كما تقدّم في « لا أقسم بيومِ القيامَة »(٢)؛ قاله الأخفش . أي أقسم ؛ لأنه قال : «بِهذا البلدِ » وقد أقسم به في قوله : « وهذا البلدِ الامينِ » فكيف يَجْحَد القسم به وقد أقسم به . قال الشاعر :

تَذَكَّرتُ ليلى فاعترتني صَبابة　＊　وكاد ضميرُ القلبِ لا يتقطَّع

أي يتقطع ، ودخل حرف « لا » صلة ؛ ومنه قوله تعالى : « ما مَنَعَك ألَّا تَسْجُدَ إذْ أمَرْتُك »(٣) بدليل قوله تعالى في (ص) : «ما منعك ان تسجد»(٤) . وقرأ الحسن والأعمش وابن كثير« لَأُقْسِم» من غير ألف بعد اللام إثباتا . وأجاز الأخفش أيضا أن تكون بمعنى « ألَا » . وقيل : ليست بنفي القسم ، وإنما هو كقول العرب : لا والله لا فعلت كذا ، ولا والله ما كان

(١) آية ٩ سورة العنكبوت .　　(٢) راجع جـ ١٩ ص ٩٠
(٣) آية ١٢ سورة الأعراف راجع جـ ٧ ص ١٧٠　　(٤) آية ٧٥ .

Marfat.com

كذا ، ولا والله لأفْعَلَنّ كذا . وقيل : هى نفى صحيح ؛ والمعنى : لا أقسم بهذا البلد إذا لم تكن فيه، بعد خروجك منه . حكاه مكيّ . ورواه آبن أبى نَجِيح عن مجاهد قال: «لا» ردٌّ عليهم . وهذا آختيار آبن العربيّ؛ لأنه قال: «وأما من قال إنها ردّ، فهو قول ليس له ردّ؛ لأنه يصح به المعنى،ويتمكن اللفظ والمراد». فهو ردّ لكلام من أنكر البعث ثم آبتدأ القسم. وقال القشيريّ: قوله «لا»: ردّ لما توهم الإنسان المذكور فى هذه السورة، المغرور بالدنيا. أى ليس الأمر كما يحسبه، من أنه لن يقدر عليه أحد، ثم آبتدأ القسم . و«البلد»: هى مكة، أجمعوا عليه. أى أقسم بالبلد الحرام الذى أنت فيه، لكرامتك علىّ وحبى لك. وقال الواسطىّ أى نحلف لك بهذا البلد الذى شرفته بمكانك فيه حيا، وبركتك ميتا ؛ يعنى المدينة . والأول أصح ؛ لأن السورة نزلت بمكة بآتفاق .

قوله تعالى : وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ (٢)

يعنى فى المستقبل ؛ مثل قوله تعالى : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وإِنَّهُم مَيِّتُونَ »(١) . ومثله واسع(٢) فى كلام العرب . تقول لمن تَعِدُه الإكرامَ والحِباء: أنت مُكْرَمٌ مَحْبُوّ. وهو فى كلام الله واسع، لأن الأحوال المستقبلة عنده كالحاضرة المشاهدة ؛ وكفاك دليلا قاطعا على أنه للآستقبال ، وأن تفسيره بالحال محال : أن السورة بآتفاق مكية قبلَ الفتح . فروى منصور عن مجاهد: « وأَنتَ حِلٌّ » قال : ما صنعت فيه من شيء فأنت فى حِلّ . وكذا قال آبن عباس : أُحِلّ له يوم دخل مكة أن يقتل من شاء، فقتل آبن خَطَل(٣) ومِقْيس بن صُبَابة وغيرهما . ولم يَحِلّ لأحد من الناس أن يقتل بها أحدا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى السُّدّى قال : أنت فى حِلّ ممن قاتلك أن تقتله . وروى أبو صالح عن آبن عباس قال : أُحِلّت له ساعة من نهار، ثم أُطبِقت وحرّمت إلى يوم القيامة ؛ وذلك يومَ فتح مكة . وثبت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إنّ الله حرّم مكة يوم خَلَق السمواتِ والأرضَ، فهى حَرام إلى أن تقوم الساعة، فلم

(١) آية ٣٠ سورة الزمر . (٢) فى بعض نسخ الأصل : « شائع » .

(٣) هو عبد الله ، كان معلقا بأستار الكعبة ؛ فقتله أبو برزة الأسلمى بأمر الرسول صلوات الله عليه .

Marfat.com

تَحِلَّ لأحد قبلى، ولا تَحِلّ لأحد بعدى، ولم تَحِلَّ لى إلّا ساعةً من نهار " الحديث. وقد تقدّم فى سورة « المائدة ». ابن زيد: لم يكن بها أحد حلالا غيرَ النبيّ صلى الله عليه وسلم. وقيل: وأنت مُقيم فيه وهو محلك. وقيل: وأنت فيه محْسن، وأنا عنك فيه راضٍ. وذكر أهل اللغة أنه يقال: رجل حِلٌّ وحَلال ومُحِلّ، ورجل حَرامٌ ومُحِل، ورجل حَرام ومُحْرِم. وقال قتادة: أنت حِلٌّ به: لست بآثم. وقيل: هو ثناء على النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ أى إنك غير مرتكب فى هذا البلد ما يَحْرُم عليك ارتكابه، معرفة منك بحق هذا البيت؛ لا كالمشركين الذين يرتكبون الكفر بالله فيه. أى أقسم بهذا البيت المعظم الذى قد عَرَفتَ حرمته، فأنت مقيم فيه معظم له، غير مرتكب فيه ما يحرُم عليك. وقال شُرَحْبِيل بن سعد: « وأنت حِل بهذا البلد » أى حلال؛ أى هم يحرِّمون مكة أن يقتلوا بها صيدا أو يعضِدوا[1] بها شجرة، ثم هم مع هذا يستحلون إخراجك وقتلك.

قوله تعالى: وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾

قال مجاهد وقتادة والضحاك والحسن وأبو صالح: « وَوَالِدٍ » آدم: عليه السلام. « وما ولد » أى وما نَسَل من ولده. أقسم بهم لأنهم أعجبُ ما خلق الله تعالى على وجه الأرض؛ لما فيهم من التِّبيان والنطق والتدبير، وفيهم الأنبياء والدُّعاة إلى الله تعالى. وقيل: هو إقسام بآدم والصالحين من ذُرِّيته[2]، وأما غير الصالحين فكأنهم بهائم. وقيل: الوالد إبراهيم. وما ولد: ذرِّيته؛ قاله أبو عمران الجَوْنِيّ. ثم يحتمل أنه يريد جميع ذرِّيته. ويحتمل أنه يريد المسلمين من ذرِّيته. قال الفرّاء: وصَلَحتْ « ما » للناس؛ كقوله: « مَا طَابَ لَكُمْ »، وكقوله: « وما خَلَقَ الذَّكَرَ والأُنثَى » وهو الخالق للذكر والأنثى. وقيل: « ما » مع ما بعدها فى موضع المصدر؛ أى ووالد وولادته؛ كقوله تعالى: « والسماءِ وما بناها ». وقال عكرمة وسعيد بن جُبير: « ووالِدٍ » يعنى الذى يولد له. « وما ولد »

(١) عضد الشجرة وغيرها: قطعها بالمعضد والمعضد: سيف يمتهن فى قطع الشجرة.
(٢) فى بعض نسخ الأصل: « وأما الطالحون ».

Marfat.com

يعنى العاقر الذى لا يُولَد له ؛ وقاله آبن عباس . و « ما » على هذا نفى . وهو بعيد، ولا يصح إلا بإضمار الموصول ؛ أى و والد والذى ما ولد ، وذلك لا يجوز عند البصريين . وقيـل : هو عموم فى كل والد وكل مولود ؛ قاله عطية العَوفى . ورُوِى معناه عن آبن عباس أيضا. وهو آختيار الطبرى . قال المـاوردى : ويحتمل أن الوالد النبىّ صلى الله عليه وسلم، لتقدّم ذكره، وما ولد أمّته : لقوله عليه السلام: " إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم". فأقسم به وبأمّته بعد أن أقسم ببلده ؛ مبالغة فى تشريفه عليه السلام .

قوله تعـالى : لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾

إلى هنا آنتهى القَسَم ؛ وهذا جوابه . ولله أن يُقْسِم بمـا يشاء من مخلوقاته لتعظيمها، كما تقدم . والإنسان هنا آبن آدم . ﴿ فى كَبَدٍ ﴾ أى فى شدّة وعناء من مكابدة الدنيا . وأصل الكَبَد الشدّة . ومنه تَكَبَّد اللبن : غَلُظ وخَثُر وآشتدّ . ومنه الكَبِد؛ لأنه دم تغلّظ وآشتدّ . ويقال : كابدت هذا الأمر : قاسيت شدّته . قال لَبيد :

يا عينُ هـلّا بكيتِ أربدَ إذْ * قُمْنا وقام الخصـومُ فى كَبَدِ

قال آبن عبـاس والحسن : « فى كَبَد » أى فى شـدّة ونَصَب . وعن آبن عباس أيضا : فى شدّة من حمله وولادته و رضاعه ونَبْت أسنانه، وغير ذلك من أحواله. و روى عكرمة عنه قال : منتصبا فى بطن أمّه . والكَبَد : الآستواء والآستقامة . فهذا آمتنان عليه فى الخلقة . ولم يخلق الله جل ثناؤه دابة فى بطن أمها إلا منكَبّة على وجْهها إلا آبن آدم ، فإنه منتصب آنتصابا ؛ وهو قول النخَعِى ومجاهد وغيرهما . آبن كيسان : منتصبا رأسُه فى بطن أمه ؛ فإذا أُذِن الله أن يخرج من بطن أمه قَلَبَ رأسَه إلى رجلى أمّه . وقال الحسن: يُكابِد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة . وعنـه أيضا : يكابد الشكر على السَّراء و يكابد الصبرَ على الضَّراء ؛ لأنه لا يخـلو من أحدهما . و رواه آبن عمر. وقال يمـانٌ: لم يخلق الله خلقا يكابد ما يكابد آبن آدم ؛ وهـو مع ذلك أضعف الخلق . قال عُلماؤنا : أوّل ما يكابد قطع سُرّته ؛ ثم إذا

Marfat.com

قُمِط قِماطا، وشُدّ رِباطا، يكابد الضيق والتعب، ثم يكابد الأرتضاع، ولو فاته لضاع، ثم يكابد نبت أسنانه، وتحرك لسانه، ثم يكابد الفِطام، الذى هو أشدّ من اللِّطام، ثم يكابد الختان، والأوجاع والأحزان، ثم يكابد المُعَلِّم وصولته، والمؤدّب وسياسته، والأستاذ وهيبته، ثم يكابد شغل التَّزْويج والتعجيل فيه (١)، ثم يكابد شُغْل الأولاد، والخدم والأجناد، ثم يكابد شغل الدور، وبناء القصور، ثم الكِبَر والهَرَم، وضعف الركبة والقدم، فى مصائب يكثر تعدادُها، ونوائب يطول إيرادُها، من صُداع الرأس، ووجع الأضراس، ورمد العين، وغَمّ الدَّين، ووجع السنّ، وألم الأذن. ويكابِد مِحنًا فى المال والنفس، مثل الضرب والحبس، ولا يمضى عليه يوم إلّا يقاسى فيه شدّة، ولا يكابد إلا مشقة، ثم الموت بعد ذلك كله، ثم مساءلة المَلَك، وضَغْطة القبر وظلمته، ثم البعث والعرض على الله، إلى أن يستقر به القرار، إما فى الجنة وإما فى النار؛ قال الله تعالى: «لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ فِى كَبَدٍ»، فلو كان الأمر إليه لمـا آختار هذه الشدائد. ودلّ هذا على أن له خالقا دَبَّره، وقضى عليه بهذه الأحوال؛ فليمتثل أمره. وقال آبن زيد: الإنسان هنا آدم. وقوله: «فِى كَبَدٍ» أى فى وسط السماء. وقال الكلبيّ: إن هذا نزل فى رجل من بنى جُمَح؛ كان يقال له أَبُو الأشدين (٢)، وكان يأخذ الأديم العُكاظِيّ فيجعله تحت قدميه، فيقول: من أزالنى عنه فله كذا. فيجذبه عشرة حتى يتمزق ولا تزول قدماه؛ وكان من أعداء النبيّ صلى الله عليه وسلم، وفيه نزل «أَيَحْسَبُ أن لَن يَقْدِرَ عليهِ أَحَد» يعنى: لقوته. ورُوِى عن آبن عباس. «فِى كَبَدٍ» أى شديدا، يعنى شديد الخَلْق؛ وكان من أشدّ رجال قريش. وكذلك رُكانة بن هاشم بن عبد المطلب، وكان مثلا فى البأس والشدّة. وقيل: «فِى كَبَدٍ» أى جرىء القلب، غليظ الكَبِد، مع ضعف خِلقته، ومهانة مادّته. آبن عطاء: فى ظلمة وجهل. الترمذيّ: مُضيعا ما يَعْنِيه، مشتغلا بما لا يعنيه.

---

(١) فى نسخة من نسخ الأصل وحاشية الجمل: «ثم يكابد شغل التزيج والتعجيل فيه» والتزويج».
(٢) كذا فى نسخ الأصل. وفى الكشاف وروح المعانى والبيضاوى والثعلبى: «أبو الأشد».

Marfat.com

يعنى العاقر الذى لا يُولَد له ؛ وقاله آبن عباس . و « ما » على هذا نفى . وهو بعيد، ولا يصح إلا بإضمار الموصول ؛ أى و والد والذى ما ولد ، وذلك لا يجوز عند البصريين . وقيـل : هو عموم فى كل والد وكل مولود ؛ قاله عطية العَوفى . ورُوِى معناه عن آبن عباس أيضا . وهو آختيار الطبرىّ . قال المـاوردىّ : ويحتمل أن الوالد النبىّ صلى الله عليه وسلم، لتقدم ذكره، وما ولد أمّته : لقوله عليه السلام: "إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم". فأقسم به وبأمّته بعد أن أقسم ببلده ؛ مبالغة فى تشريفه عليه السلام .

قوله تعـالى : لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾

إلى هنا آنتهى القَسَم ؛ وهذا جوابه . ولله أن يُقْسم بمـا يشاء من مخلوقاته لتعظيمها، كما تقدم . والإنسان هنا آبن آدم . ﴿ فى كَبَدٍ ﴾ أى فى شدّة وعناء من مكابدة الدنيا . وأصل الكَبَد الشدّة . ومنه تَكَبَّد اللبن : غَلُظ وخَثُر وآشتدّ . ومنه الكَبِد؛ لأنه دم تغلّظ وآشتدّ . ويقال : كابدت هذا الأمر : قاسيت شدّته . قال لَبِيد :

ياعينُ هـلّا بكيتِ أربدَ إذْ * قُمْنا وقام الخصـومُ فى كَبَدِ

قال آبن عبـاس والحسن : « فى كَبَد » أى فى شـدّة ونَصَب . وعن آبن عباس أيضا : فى شدّة من حمله وولادته و رضاعه ونَبْت أسنانه ، وغير ذلك من أحواله . وروى عكرمة عنه قال : منتصبا فى بطن أمّه . والكَبَد : الآستواء والآستقامة . فهذا آمتنان عليه فى الخلقة . ولم يخلق الله جل ثناؤه دابة فى بطن أمها إلا منكبّة على وجْهها إلا آبن آدم ، فأنه منتصب آنتصابا ؛ وهو قول النخعِىّ ومجاهد وغيرهما . آبن كيسان : منتصبا رأسه فى بطن أمه ؛ فإذا أَذِن الله أن يخرج من بطن أمه قَلَبَ رأسه إلى رجلى أمّه . وقال الحسن : يُكابِد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة . وعنـه أيضا : يكابد الشكر على السّرّاء ويكابد الصبرَ على الضّرّاء ؛ لأنه لا يخـلو من أحدهما . ورواه آبن عمر . وقال يَمـانٌ : لم يخلق الله خلقا يكابد ما يكابد آبن آدم ؛ وهـو مع ذلك أضعف الخلق . قال عُلماؤنا : أوّل ما يكابد قطع سُرّته ؛ ثم إذا

Marfat.com

قُمط قِماطا، وشُدَّ رِباطا، يكابد الضيق والتعب، ثم يكابد الارتضاع، ولو فاته لضاع، ثم يكابد نبت أسنانه، وتحرك لسانه، ثم يكابد الفِطام، الذى هو أشدّ من اللِّطام، ثم يكابد الختان، والأوجاع والأحزان، ثم يكابد المُعَلِّم وصَولته، والمؤدّب وسياسته، والأستاذ وهَيبته، ثم يكابد شغل التزويج والتعجيل فيه [(١)]، ثم يكابد شُغْل الأولاد، والخدم والأجناد، ثم يكابد شغل الدور، وبناء القصور، ثم الكِبَر والهَرَم، وضعف الركبة والقدم، فى مصائب يكثر تعدادُها، ونوائب يطول إيرادُها، من صُداع الرأس، ووجع الأضراس، ورمد العين، وغَمّ الدَّين، ووجع السنّ، وألم الأذن. ويكابِد مِحَناً فى المال والنفس، مثل الضرب والحبس، ولا يمضى عليه يوم إلّا يقاسى فيه شدّة، ولا يكابد إلا مشقة، ثم الموت بعد ذلك كله، ثم مساءلة المَلَك، وضَغْطة القبر وظلمته، ثم البعث والعرض على الله، إلى أن يستقر به القرار، إما فى الجنة وإما فى النار؛ قال الله تعالى: «لَقَدْ خَلَقْنا الإنسانَ فِى كَبَدٍ»، فلو كان الأمر إليه لما اختار هذه الشدائد. ودلّ هذا على أن له خالقا دَبَّره، وقضى عليه بهذه الأحوال؛ فليمتثل أمره. وقال ابن زيد: الإنسان هنا آدم. وقوله: «فِى كَبَدٍ» أى فى وسط السماء. وقال الكلبي: إن هذا نزل فى رجل من بنى جُمَح؛ كان يقال له أَبُو الأشدين [(٢)]، وكان يأخذ الأديم العُكاظى فيجعله تحت قدميه، فيقول: من أزالنى عنه فله كذا. فيجذبه عشرة حتى يتمزق ولا تزول قدماه؛ وكان من أعداء النبي صلى الله عليه وسلم، وفيه نزل «أيحسَبُ أن لَن يَقْدِرَ عليه أحد» يعنى: لقوّته. ورُوى عن ابن عباس. «فِى كَبَدٍ» أى شديدا، يعنى شديد الخَلق؛ وكان من أشدّ رجال قريش. وكذلك رُكانة بن هاشم بن عبد المطلب، وكان مثلا فى البأس والشدّة. وقيل: «فِى كَبَدٍ» أى جرىء القلب، غليظ الكَبِد، مع ضعف خِلقته، ومهانة مادّته. ابن عطاء: فى ظلمة وجهل. الترمذي: مُضيعا ما يَعْنيه، مشتغلا بما لا يعنيه.

---

(١) فى نسخة من نسخ الأصل وحاشية الجمل: «ثم يكابد شغل التزيج والتعجيل فيه، والتزويج».

(٢) كذا فى نسخ الأصل. وفى الكشاف وروح المعانى والبيضاوى والثعلبى: «أبو الأشد».

Marfat.com

قوله تعالى : أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يقدِرَ عليه أَحَد ﴾ أى أيظن آبن آدم أن لن يعاقبه الله عز وجل . ﴿ يَقُول أهلكت ﴾ أى أنفقت . ﴿ مالًا لُبَدًا ﴾ أى كثيرا مجتمعا . ﴿ أَيَحْسَبُ ﴾ أى أيظن . ﴿ أَنْ لم يَرَهُ ﴾ أى أن لم يعاينه ﴿ أَحَدٌ ﴾ بل علم الله عز وجل ذلك منه ، فكان كاذبا فى قوله : أهلكت ولم يكن أنفقه . وروى أبو هريرة قال : يوقف العبد ، فيقال ماذا عملت فى المال الذى رزقتك؟ فيقول : أنفقته و زكَّيته . فيقال : كأنك إنما فعلت ذلك ليقال سخيّ ، فقد قيل ذلك . ثم يؤمر به إلى النار . وعن سعيد عن قتادة : إنك مسئول عن مالك من أين جمعت؟ وكيف أنفقت؟ وعن ابن عباس قال : كان أبو الأشدَّين يقول : أنفقت فى عداوة محمد مالا كثيرا وهو فى ذلك كاذب . وقال مقاتل : نزلت فى الحارث بن عامر بن نوفل ، أذنب فآستفتى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فأمره أن يُكفِّر . فقال : لقد ذهب مالى فى الكفّارات والنفقات ، منذ دخلت فى دين محمد . وهذا القول منه يحتمل أن يكون استطالة بما أنفق ، فيكون طغيانا منه ، أو أسفا عليه ، فيكون ندما منه . وقرأ أبو جعفر «مالا لُبَّدًا» بتشديد الباء مفتوحة ، على جمع لابد ؛ مثل راكع وركّع ، وساجد وسُجّد ، وشاهد وشُهَّد ، ونحوه . وقرأ مجاهد وحُميد بضمّ الباء واللام مخففا ، جمع لُبود . الباقون بضمّ اللام وكسرها وفتح الباء مخففا ، جمع لُبْدة ولِبدة ، وهو ما تلبد ؛ يريد الكثرة . وقد مضى فى سورة « الجن » القول فيه.(١) وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرأ «أيحسُبُ» بضم السين فى الموضعين . وقال الحسن : يقول أتلفت مالا كثيرا ، فمن يحاسبنى به ؛ دعنى أَحْسُبه . ألم يعلم أن الله قادر على محاسبته ، وأن الله عز وجل يرى صنيعه ، ثم عدّد عليه نعمه فقال : ﴿ أَلَمْ نَجْعَل له عَيْنَيْنِ ﴾ يبصر بهما ﴿ ولِسانًا ﴾ ينطق به . ﴿ وشفتَيْنِ ﴾ يستر بهما

---

(١) راجع جـ ١٩ ص ٢٢ وما بعدها .

Marfat.com

ثغره. والمعنى: نحن فعلنا ذلك، ونحن نقدر على أن نبعثه ونُحصِىَ عليه ما عمله. وقال أبو حازم: قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى قال: يابن آدم، إن نازعك لسانك فيما حرّمتُ عليك، فقد أعنتُكَ عليه بطبقين، فأطبِق؛ و إن نازعك بصرك فيما حرّمت عليك، فقد أعنتك عليه بطبقين، فأطبِق؛ و إن نازعك فرجك إلى ما حرّمتُ عليك، فقد أعنتك عليه بطبقَين، فأطبق". والشَّفَة: أصلها شَفْهة، حذفت منها الهاء، وتصغيرها: شُفيهة، والجمع: شِفاهٌ. و يقال: شَفَهات وشَفَوات؛ والهاء أقيس، والواو أعمّ، تشبيها بالسنوات. وقال الأزهرىّ: يقال هذه شَفَة فى الوصل وشَفَهٌ، بالتاء والهاء. وقال قتادة: نِعَم الله ظاهرة، يقرّرك بها حتى تشكر.

قوله تعالى: وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾

يعنى الطريقين: طريق الخير وطريق الشر. أى بيناهما له بما أرسلناه من الرسُل. والنجد: الطريق فى ٱرتفاع. وهذا قول ٱبن عباس وٱبن مسعود وغيرهما. وروى قتادة قال: ذُكِر لنا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يقول: "يأَيُّها الناسُ، إنَّما هما النَّجْدان: نجد الخير، ونجد الشر، فلِم نجعل نجد الشر أحب إليك من نجد الخير". ورُوِى عن عكرمة قال: النَّجدان: الثديان. وهو قول سعيد بن المسيِّب والضحاك، ورُوِى عن ٱبن عباس وعلىّ رضى الله عنهما؛ لأنهما كالطريقين لحياة الولد ورزقه. فالنجد: العُلُوّ، و جمعه نُجُود؛ ومنه سُمِّيَتْ «نجد»، لٱرتفاعها عن انخفاض تِهامة. فالنجدان: الطريقان العاليان. قال ٱمرؤ القيس:

فريقان منهمْ جازعٌ بَطْنَ نخلةٍ (١) * وآخرُ منهم قاطِعٌ نجدَ كَبْكَبِ

قوله تعالى: فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾

أى فهلا أنفق ماله الذى يزعم أنه أنفقه فى عداوة محمد، هلا أنفقه لٱقتحام العَقَبة فيأمن! والٱقتحام: الرَّمْى بالنفس فى شىء من غير رَوِيَّة؛ يقال منه: قَحَم فى الأَمْر قُحُوما: أى رمى

(١) كذا فى الأصل وديوان ٱمرئ القيس: وفى اللسان (مادة نجد):

* غداة غدوا فسالك بطن نخلة *

والجازع: القاطع. و بطن نخلة: موضع بين مكة والطائف. وكبكب: الجبل الأحمر الذى تجده بظهرك إذا وقفت بعرفة.

Marfat.com

بنفسه فيه من غير روية . وقحّم الفرَس فارسَه تقحيما على وجهه : إذا رماه . وتقحيم النفس في الشيء: إدخالها فيه من غير روية . والقُحْمة (بالضم) المَهْلكة، والسنة الشديدة. يقال: أصابت الأعراب القُحْمة: إذا أصابهم قحط، فدخلوا الريف. والقُحَم : صِعاب الطريق. وقال الفرّاء والزجاج : وذكر « لا » مرة واحدة ، والعرب لا تكاد تفرد « لا » مع الفعل الماضي في مثل هذا الموضع، حتى يُعيدوها في كلام آخر؛ كقوله تعالى: «فلا صَدَّق ولا صلى»(١) « ولا خَوْفٌ عليهم ولا هم يحزنون » . وإنما أفردوها لدلالة آخر الكلام على معناه ؛ فيجوز أن يكون قوله : « ثم كان من الذين آمنوا » قائما مقام التكرير؛ كأنه قال: فلا ٱقتحم العقبة ولا آمن. وقيل: هو جارٍ مجرى الدعاء؛ كقوله : لا نجا ولا سلِم. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ ما العَقَبةُ﴾ ؟ قال سفيان بن عُيينة: كل شيء قال فيه « وما أدراك » ؟ فإنه أخبر به ، وكل شيء قال فيه « وما يدريك » ؟ فإنه لم يخبر به . وقال : معنى « فلا ٱقتحم العقبة » أي فلم يقتحم العقبة؛ كقول زُهَـير :

وكانَ طَوَى كَشْحا على مُسْتَكِنّةٍ(٢) * فلا هُـوَ أَبداها ولم يَتَقَـدّمِ

أي فلم يبدها ولم يتقدّم. وكذا قال المبرّد وأبو علي : « لا »: بمعنى لم . وذكره البخاريّ عن مجاهد . أي فلم يقتحم العقبة في الدنيا، فلا يحتاج إلى التكرير. ثم فسّر العقبة وركوبها فقال: « فَكُّ رَقَبةٍ » وكذا وكذا ؛ فبين وجوها من القُرَب المالية . وقال ٱبن زيد وجماعة من المفسرين: معنى الكلام الاستفهام الذي معناه الإنكار؛ تقديره : أفلا ٱقتحم العقبة، أو هلا ٱقتحم العقبة . يقول : هلا أنفق ماله في فكّ الرقاب ، وإطعام السَّغْبان، ليجاوز به العقبة؛ فيكون خيرا له من إنفاقه في عداوة محمد صلى الله عليه وسلم . ثم قيل : ٱقتحام العقبة ها هنا ضرب مَثَل ، أي هل تحمّل عِظام الأمور في إنفاق ماله في طاعة ربه ، والإيمان به . وهذا إنما يليق بقول من حمل « فَلَا ٱقْتَحَمَ العَقَبَةَ » على الدعاء ؛ أي فلا نجا ولا سلم من لم ينفق ماله في كذا وكذا . وقيل : شبه عِظم الذنوب وثقلها وشدّتها بعقبة ، فإذا أعتق رقبة وعمِل صالحا، كان مثله كمثل من ٱقتحم العقبة ، وهي الذنوب التي تضره وتؤذيه وتثقله . قال

(١) آية ٣١ سورة القيامة . (٢) الكشح : الخاصرة . ومستكنة : على نية أكنها في نفسه .

Marfat.com

ابن عمر : هذه العقبة جبل فى جهنم . وعن أبى رجاء قال : بلغنا أن العقبة مَصْعَدُها سبعة آلاف سنة ، ومهبِطها سبعة آلاف سنة . وقال الحسن وقتادة : هى عقبة شديدة فى النار دون الجسر، فاقتحِموها بطاعة الله . وقال مجاهد والضحاك والكلبي : هى الصراط يُضْرب على جهنم كحدّ السيف ، مسيرة ثلاثة آلاف سنة ، سهلا وصُعودا وهُبوطا . واقتحامه على المؤمن كما بين صلاة العصر إلى العشاء . وقيل : اقتحامه عليه قدرُ ما يصلى صلاة المكتوبة . وروى عن أبى الدرداء أنه قال ... عقبة ، أنجى الناس منها أخفهم حملا . وقيل : النار نفسها هى العقبة . فروى أبو رجاء عن الحسن قال : بلغنا أنه ما من مسلم يُعْتق رقبة إلا كانت فداءه من النار . وعن عبد الله بن عمر قال : من أعتق رقبة أعتق الله عز وجل بكل عضو منها عضوا منه . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال : "من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضوا من أعضائه من النار، حتى فرجه بفرجه". وفى الترمذى عن أبى أُمامة وغيره من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "أيّما آمرئٍ مُسْلِمٍ أعتق آمرأً مُسْلِما ، كان فَكَاكَهُ من النار، يَجْزِى كل عضو منه عضوا منه، وأيّما آمرأة مسلمة أعتقتْ آمرأة مُسلمة، كانت فَكاكَها من النار ، يجزى كل عضو منها عضوا منها" . قال : هذا حديث حسن صحيح غريب . وقيل : العقبة خلاصه من هول العَرْض . وقال قتادة وكعب : هى نار دون الجسر . وقال الحسن : هى والله عقبة شديدة : مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوّه الشيطان . وأنشد بعضهم :

إنى بُليتُ بأربعٍ يَرْمِيـننى * بالنَّبْـل قد نَصَبوا علىّ شِراكا
إبليسُ والدنيا ونفسى والهوَى * من أين أرجو بينهن فَكاكا
يا ربِّ ساعدنى بعفـوٍ إننى * أصبحت لا أرجو لهن سِواكا

قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴾ (١٢)

فيه حذف ؛ أى وما أدراك ما آقتحام العقبة . وهذا تعظيم لآلتزام أمر الدين ؛ والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم، ليعلمه آقتحام العقبة . قال القشيرى : وحمل العقبة على

Marfat.com

عَقَبة جَهنم بعيد؛ إذ أحد فى الدنيا لم يقتحم عقبةً جهنم؛ إلا أن يحمل على أن المراد فهلّا صَيَّر نفسه بحيث يمكنه اقتحام عقبة جهنم غدا . واختار البخاري قول مجاهد : إنه لم يقتحم العقبة فى الدنيا . قال ابن العربي : « و إنما اختار ذلك لأجل أنه قال بعد ذلك فى الآية الثانية : «وما أدراكَ ما العَقَبةُ»؟ ثم قال فى الآية الثالثة : « فَكُّ رَقَبةٍ » ، وفى الآية الرابعة « أَوْ إطْعامٌ فِي يومٍ ذِي مَسْغَبةٍ » ، ثم قال فى الآية الخامسة : « يَتِيما ذا مَقْربةٍ » ، ثم قال فى الآية السادسة : « أَوْ مِسكِينا ذا مَتْرَبةٍ » ؛ فهذه الأعمال إنما تكون فى الدنيا . المعنى : فلم يأت فى الدنيا بما يُسَهِّل عليه سلوك العقبة فى الآخرة » .

قوله تعالى : فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ فكها : خلاصها من الأسْر . وقيل : من الرّق . وفى الحديث : " وفك الرقبة أن تُعِين فى ثَمَنها " من حديث البراء ، وقد تقدم فى سورة «براءة» (١) . والفكّ : هو حلّ القيد ؛ والرِّق قيد . وسمى المرقوق رَقَبة ؛ لأنه بالرق كالأسير المربوط فى رقبته . وسُمِّى عتقها فَكًّا كفك الأسير من الأَسْر . قال حسان :

كَمْ من أسيرٍ فَكَكْناه بلا ثَمَنٍ * وجَزِّ ناصيةٍ كنّا مَوَاليها

وروى عُقبة بن عامر الجهنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من أعتق رقبة مؤمنة كانت فداءه من النار " . قال الماوردى : ويحتمل ثانيا أنه أراد فك رقبته وخلاص نفسه ، باجتناب المعاصى ، وفعل الطاعات ؛ ولا يمتنع الخبر من هذا التأويل ، وهو أشبه بالصواب .

الثانيـة ـــ قوله تعالى : ﴿رَقَبَةٍ﴾ قال أَصْبَغ : الرقبة الكافرة ذات الثمن أفضل فى العتق من الرقبة المؤمنة القليلة الثمن ؛ لقول النبى صلى الله عليه وسلم وقد سُئل أى الرقاب أفضل؟ قال : " أغلاها ثمنا ، وأنفسها عند أهلها " . ابن العربى : «والمراد فى هذا الحديث : (من

---

(١) راجع جـ ٨ ص ١٨٣ .

Marfat.com

المسلمين)؛ بدليل قوله عليه السلام : "مَنْ أَعْتَقَ آمْرَأً مُسْلِما" و"مَنْ أَعتَقَ رقبةً مُؤْمِنة". وما ذكره أصبغ وَهْـلَة(١)، وإنما نظر إلى تنقيص المال، والنظر إلى تجريد المعتق للعبادة، وتفريغه للتوحيد، أولى » .

الثالثة — العِتق والصدقة من أفضل الأعمال . وعن أبي حنيفة : أن العتق أفضل من الصدقة . وعند صاحبيه الصدقة أفضل . والآية أدل على قول أبي حنيفة؛ لتقديم العتق على الصدقة . وعن الشعبي في رجل عنده فضل نفقة : أيضعه في ذي قرابة أو يعتق رقبة ؟ قال : الرقبة أفضل ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من فك رقبة فك الله بكل عضو منها عضوا من النار " .

قوله تعالى : أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ او إِطْعـامٌ فِي يومٍ ذِي مَسْغَبةٍ ﴾ أى مجاعة . والسَّغَب : الجوع . والساغب : الجائع — وقرأ الحسن « أو إطعامٌ فِي يومٍ ذا مَسْغَبةٍ » بالألف في « ذا » — وأنشد أبو عبيدة :

فلَوْ كنتُ جارا يابن قَيْسِ بن عاصمٍ(٢) * لَمَا بِتُّ شَبْعانًا وجارُك ساغِبَا

وإطعام الطعام فضيلة، وهو مع السَّغَب الذى هو الجوع أفضل . وقال النَّخَعِيّ في قوله تعالى : « أو إطْعامٌ فِي يومٍ ذِي مَسْغَبَةٍ » قال : في يوم عزيز فيه الطعام . ورُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من موجباتِ الرحمةِ إطعامُ المُسْلِمِ السَّغْبانَ". ﴿ يَتِيماً ذا مَقْرَبةٍ ﴾ أى قرابة . يقال : فلان ذو قرابتى وذو مَقْرَبتى . يعلمك أن الصدقة على القرابة أفضل منها على غير القرابة، كما أن الصدقة على اليتيم الذى لا كافل له أفضل من الصدقة على اليتيم الذى يجد من يكفله . وأهل اللغة يقولون : سُمّى يتيما لضعفه . يقال : يَتَمَ الرجل يُتْما : إذا ضعف .

(١) كذا في الأصول وابن العربي، ولعلها المرة من الوهل، وهو الغلط . وهل إلى الشيء (بالفتح) يهل (بالكسر) وهلا (بالسكون) : إذا ذهب وهمه إليه . ويجوز أن يكون بمعنى غلطة أو سهوة .
(٢) كذا في الأصول . يريد : فلو كنت جارا قائما بحق الجوار لما حدث هذا .

Marfat.com

وذكروا أن اليتيم في الناس من قبل الأب ، وفى البهائم من قبل الأمهات . وقد مضى فى سورة « البقرة » مستوفى[1]، وقال بعض أهل اللغة : اليتيم الذى يموت أبواه . وقال قيس ابن الملوح :

إلى الله أشكو فقد ليلى كما شكا * إلى الله فقد الوالدين يتيم

قوله تعالى : ﴿ أو مسكينا ذا متربة ﴾ أى لا شىء له ، حتى كأنه قد لصق بالتراب من الفقر، ليس له مأوى إلا التراب . قال ابن عباس : هو المطروح على الطريق، الذى لا بيت له . مجاهد : هو الذى لا يقيه من التراب لباس ولا غيره . وقال قتادة : إنه ذو العيال . عكرمة : المديون . أبو سنان : ذو الزمانة . ابن جبير : الذى ليس له أحد . وروى عكرمة عن ابن عباس : ذو المتربة البعيد التربة؛ يعنى الغريب البعيد عن وطنه . وقال أبو حامد الخارزنجى : المتربة هنا : من التريب؛ وهى شدة الحال. يقال ترب : إذا افتقر. قال الهذلى :

وكنا إذا ما الضيف حل بأرضنا * سفكنا دماء البدن فى تربة الحال

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى : « فك » بفتح الكاف، على الفعل الماضى . « رقبة » نصبا لكونها مفعولا « أو أطعم » بفتح الهمزة ونصب الميم، من غير ألف ، على الفعل الماضى أيضا؛ لقوله : « ثم كان من الذين آمنوا » فهذا أشكل بـ « فك وأطعم » . وقرأ الباقون : «فكُّ» رفعا ، على أنه مصدر فككت . « رقبةٍ » خفض بالإضافة. «أو إطعامٌ» بكسر الهمزة وألف ورفع الميم وتنوينها على المصدر أيضا . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لأنه تفسير لقوله تعالى: «وما أدراك ما العقبة» ؟ ثم أخبره فقال : «فكُّ رقبةٍ . أو إطعامٌ» . المعنى : اقتحام العقبة : فك رقبة أو إطعام . ومن قرأ بالنصب فهو محمول على المعنى؛ أى ولا فك رقبة ، ولا أطعم فى يوم ذا مسغبة؛ فكيف يجاوز العقبة . وقرأ الحسن وأبو رجاء : « ذا مسغبة » بالنصب على أنه مفعول « إطعام » أى يطعمون ذا مسغبة و « يتيما » بدل منه . الباقون « ذى مسغبة » فهو صفة لـ « يوم » . ويجوز أن يكون قراءة النصب صفة لموضع الجار والمجرور؛ لأن قوله : « فى يوم » ظرف منصوب الموضع ، فيكون وصفا له على المعنى دون اللفظ .

(١) راجع جـ ٢ ص ١٤ طبعة ثانية .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِنَا هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كانَ مِنَ الذينَ آمنوا ﴾ يعني : أنه لا يقتحم العقبةَ من فكِّ رقبة ، أو أطعمَ في يوم ذا مَسْغَبة ، حتى يكون من الذين آمنوا ؛ أي صدّقوا ، فإن شرط قبول الطاعات الإيمان بالله . فالإيمان بالله بعد الإنفاق لا ينفع ، بل يجب أن تكون الطاعة مصحوبة بالإيمان ، قال الله تعالى في المنافقين : « وما منعهم أَن تقبل مِنهم نفقاتهم إِلَّا أَنهم كفروا بِاللهِ و بِرَسولِه »(١) . وقالت عائشة : يارسول الله ، إن ٱبن جُدْعَانَ كان في الجاهلية يَصِل الرحِم ، و يُطعِم الطعام ، و يَفُكُّ العانيَ ، و يُعتق الرقاب ، ويحمل على إبله لله ، فهل ينفعه ذلك شيئا ؟ قال : " لا ، إنه لم يقل يوماً ربِّ ٱغفرْ لي خطيئتي يومَ الدِّين " . وقيل : « ثُمَّ كانَ مِن الذينَ آمَنُوا » أي فعل هذه الأشياء وهو مؤمن ، ثم بقي على إيمانه حتى الوفاة ؛ نظيره قوله تعالى : « وإِنِّي لَغَفَّار لمن تاب وآمن وعمِل صالِحا ثم ٱهتدى »(٢) . وقيل : المعنى ثم كان من الذين يؤمنون بأن هذا نافع لهم عند الله تعالى . وقيل : أتى بهذه القُرَب لوجه الله ، ثم آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم . وقد قال حكيم بن حزام بعد ما أسلم ، يارسول الله ، إنا كنا نَتَحَنَّث(٣) بأعمالٍ في الجاهلية ، فهل لنا منها شيء ؟ فقال عليه السلام : " أسلمت على ما أسلفت من الخير " . وقيل : إن « ثم » بمعنى الواو ؛ أي وكان هذا المعتِق الرقبة ، والمطعم في المسغبة ، من الذين آمنوا . ﴿ وتَواصَوْا ﴾ أي أوصى بعضهم بعضا . ﴿ بِالصَّبْرِ ﴾ على طاعة الله ، وعن معاصيه ؛ وعلى ما أصابهم من البلاء والمصائب . ﴿ وتواصَوْا بِالمَرْحَمَةِ ﴾ أي بالرّحمة على الخلق ؛ فإنهم إذا فعلوا ذلك رحِموا اليتيم والمسكين . ﴿ أُولئكَ أَصحابُ المَيْمَنةِ ﴾ أي الذين يُؤْتَون كتبهم بأيمانهم ؛ قاله محمد بن كعب القُرَظيّ وغيره . وقال يحيى بن سلام : لأنهم مَيامينُ على أنفسهم . ٱبن زيد : لأنهم أُخِذوا من شِقّ آدم الأيمن . وقيل : لأن منزلتهم عن اليمين ؛ قاله مَيمون بن مِهْران . ﴿ والذين كفروا

(١) آية ٥٤ سورة التوبة . (٢) آية ٨٢ سورة طه . (٣) أي نتقرب بها إلى الله .

Marfat.com

بِآيَاتِنَا ﴾ أى القرآن . ﴿ هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ أى يأخذون كتبهم بشمائلهم؛ قاله محمد بن كعب . يحيى بن سلام : لأنهم مَشائيم على أنفسهم . آبن زيد : لأنهم أُخذوا من شِق آدم الأيسر . ميمون : لأن منزلتهم عن اليسار .

قلت : ويجمع هذه الأقوال أن يُقال : إن أصحاب الميمنة أصحابُ الجنة ، وأصحاب المَشأمة أصحابُ النار؛ قال الله تعالى : « وأَصحابُ اليمينِ مَا أصحابُ اليمينِ، في سِدْرٍ مَخْضُودٍ »(١)، وقال : « وأصحابُ الشِّمالِ ما أصحاب الشِّمالِ . فِي سَمُومٍ وحَمِيمٍ » . وما كان مثله . ومعنى ﴿ مُؤْصَدَةٌ ﴾ أى مطبَقة مُغْلَقة . قال :

تحِنُّ إلى أجبال مكة ناقتي * ومن دُونِها أبوابُ صنعاءَ مُؤْصَدَهْ

وقيل : مُبهمة ، لا يُدْرَى ما داخلُها . وأهل اللغة يقولون : أَوْصَدْتُ البابَ وآصَدْتُه؛ أى أغلقته . فمن قال أوصدت، فالآسم الوِصاد ، ومن قال آصدته، فالآسم الإصاد . وقرأ أبو عمرو وحفص وحمزة و يعقوب والشَّيْزَرِيُّ عن الكسائيّ « مُؤْصَدَة » بالهمز هنا، وفى « الهمزة » . الباقون بلا همز . وهما لُغتان . وعن أبى بكر بن عياش قال : لنا إمام يهمز « مُؤْصَدَة » ، فأشتهى أن أسُدّ أذنيّ إذا سمعته(٢) .

ســورة « الشمس »

مكية بآتفاق ، وهى خَمْسَ عَشْرَةَ آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١)

قال مجاهد : ﴿ وضحاها ﴾ أى ضوئها و إشراقها . وهو قَسَم ثان . وأضاف الضحى إلى الشمس، لأنه إنما يكون بآرتفاع الشمس . وقال قتادة : بهاؤها . السُّدّى : حرّها . وروى الضحاك عن آبن عباس : « وضحاها » قال : جعل فيها الضوء وجعلها حارة . وقال اليزيديّ : هو آنبساطها . وقيل : ما ظهر بها من كل مخلوق؛ فيكون القسم بها و بمخلوقات الأرض

(١) آية ٢٨ ، ٤٢ سورة الواقعة . (٢) كان ينكر على الكسائى همز (مؤصدة) .

Marfat.com

كلها . حكاه الماوردي . والضُّحا : مؤنثة . يقال : ارتفعت الضُّحا ، [وهي] فوق الضَّحو.[1] وقد تذكَّر . فمن أنّث ذهب إلى أنها جمع ضَحْوَة . ومن ذكر ذهب إلى أنه اسم على فُعَل ، نحو صُرَدٍ ونُغَرٍ.[2] وهو ظرف غير متمكن مثل سَحَر . تقول : لقيتُه ضُحًا وضُحَا ؛ إذا أردت به ضُحا يومِك لم تنوّنه . وقال الفرّاء : الضُّحا هو النهار ؛ كقول قتادة . والمعروف عند العرب أن الضحا : إذا طلعت الشمس وبُعَيْد ذلك قليلا ، فإذا زاد فهو الضَّحاء بالمد . ومن قال : الضُّحا : النهار كله ، فذلك لدوام نور الشمس . ومن قال : إنه نور الشمس أو حرها ، فنور الشمس لا يكون إلا مع حر الشمس . وقد استدل من قال : إن الضحى حر الشمس بقوله تعالى : «ولا تَضْحَى» أي لا يؤذيك الحرّ . وقال المبرد : أصل الضُّحَا من الضِّحّ ، وهو نور الشمس ، والألف مقلوبة من الحاء الثانيــة . تقول : ضَحْوَة وضَحَوَات ، وضَحَوَاتٌ وضُحَا ، فالواو من (ضَحْوَة) مقلوبة عن الحاء الثانية ، والألف في (ضُحَـا) مقلوبة عن الواو . وقال أبو الهيثم : الضِّـح : نقيض الظّل ، وهو نور الشمس على وجه الأرض ، وأصـله الضَّحَا ، فاستثقلوا الياء مع سكون الحاء ، فقلبوها ألفا .

قوله تعـالى : وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَـٰهَا ﴿٢﴾

أي تبعها : وذلك إذا سقطت رِىءَ الهلال . يقال : تَلَوْت فلانا : إذا تبِعته . قال قتادة : إنما ذلك ليلة الهلال ، إذا سقطت الشمس رِىءَ الهلال.[3] وقال ابن زيد : إذا غَرَبت الشمس في النصف الأول من الشهر ، تلاها القمر بالطلوع ، وفي آخر الشهر يتلوها بالغروب . الفراء : «تلاها» : أخذ منها ؛ يذهب إلى أن القمر يأخذ من ضوء الشمس . وقال قوم : « والقمرِ إذا تلاَها » حين استوى واستدار ، فكان مِثلَهَا في الضياء والنور ؛ وقاله الزجاج .

---

(١) كذا في حاشية الجمل نقلا عن القرطبي . وفي نسخ الأصل وتفسير ابن عادل : « فوق الصخور » . تحريف . يريد أن الضحا : أشد ارتفاعا من الضحو والضحوة (كما في اللسان : ضحا) .

(٢) الصرد : طائر فوق العصفور . والنغر : فرخ العصفور .

(٣) أصله (رئى) : قدمت الياء على الهمزة .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴾ (٣)

أي كشفها . فقال قوم : جلّى الظلمة ؛ وإن لم يجر لها ذكر ؛ كما تقول : أضحت باردة ؛ تريد أضحت غداتنا باردة . وهذا قول الفرّاء والكلبيّ وغيرهما . وقال قوم : الضمير في «جلّاها» للشمس ؛ والمعنى : أنه يبين بضوئه جِرْمها . ومنه قول قيس بن الخَطِيم :

تجلّت لنا كالشمس تحتَ غَمامةٍ * بدا حاجبٌ منها وضنّت بحاجبِ

وقيل : جلّى ما في الأرض من حيوانها حتى ظهر ، لاستتاره ليلا وانتشاره نهارا . وقيل : جلّى الدنيا . وقيل : جلّى الأرض ؛ وإن لم يجر لها ذكر ؛ ومثله قوله تعالى : « حتى تَوارَتْ بالحِجابِ »(١) على ما تقدم آنفا .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴾ (٤)

أي يغشى الشمس ، فيذهب بضوئها عند سقوطها ؛ قاله مجاهد وغيره . وقيل : يغشى الدنيا بالظُّلَم ، فتُظلم الآفاق . فالكناية ترجع إلى غير مذكور .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴾ (٥)

أي وبنيانها . فما مصدرية ؛ كما قال : « بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي »(٢) أي بغفران ربي ؛ قاله قتادة ، واختاره المبرد . وقيل : المعنى ومَن بناها ؛ قاله الحسن ومجاهد ؛ وهو اختيار الطبريّ . أي ومن خلقها ورفعها ، وهو الله تعالى . وحُكِي عن أهل الحجاز : سُبحانَ ما سَبَّحْتَ له ؛ أي سبحان مَنْ سبّحت له .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴾ (٦)

أي وطحوها . وقيل : ومَنْ طحاها ؛ على ماذكرناه آنفا . أي بسطها ؛ كذا قال عامة المفسرين ؛ مثل دحاها . قال الحسن ومجاهد وغيرهما : طحاها ودحاها : واحد ؛ أي بسطها

(١) آية ٣٢ سورة ص . (٢) آية ٢٧ سورة يس .

Marfat.com

من كل جانب . والطَّحْو : البسط؛ طَحَا يطحُو طحْوا، وطَحَى يَطْحِى طَحْيا، وطَحَيت : آضطجعت؛ عن أبي عمرو. وعن آبن عباس : طحاها : قَسمها. وقيل : خلقها؛ قال الشاعر :

وما تَدْرِى جَذِيمة من طَحَاها ✱ ولا مَنْ ساكِنُ العرشِ الرَّفيع

المـاوردىّ : ويحتمل أنه ما خرج منها من نبات وعيون وكنوز؛ لأنه حياة لمـا خُلِق عليها. ويقال فى بعض أيمـان العرب : لا ، والقمر الطَّاحِى؛ أى المُشْرِف المشرق المرتفع . قال أبوعمرو : طحا الرجل : إذا ذهب فى الأرض. يقال : ما أدرى أين طَحَا! ويقال: طحا به قلبه : إذا ذهب به فى كل شيء . قال علقمة :

طَحَا بكَ قَلْبٌ فى الحِسانِ طَروبُ ✱ بُعَيْدَ الشَّبابِ عَصْرَ حانَ مَشِيبُ

قوله تعـالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾ (٧)

قيل : المعنى وتسويتها . « فما » : بمعنى المصدر . وقيل : المعنى ومن سوّاها، وهو الله عز وجل. وفى النفس قولان : أحدهما آدم. الثانى — كل نفس منفوسة. وسوّى : بمعنى هيأ. وقال مجاهد : سوّاها : سَوَّى خَلْقها وعَدَّل . وهـذه الأسماء كلها مجرورة على القَسَم . أقسم جل ثناؤه بخلقه لمـا فيه من عجائب الصنعة الدالة عليه .

قوله تعـالى : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ (٨)

قوله تعالى: (فألهمها) أى عَرَّفها؛ كذا رَوَى ابن أبى نَجِيح عن مجاهد. أى عرفها طريق الفجور والتقوى ؛ وقاله آبن عباس . وعن مجاهد أيضا : عَرَّفها الطاعة والمعصية . وعن محمد بن كعب قال : إذا أراد الله عز وجل بعبده خيرا، ألهمه الخيرَ فعمِل به، وإذا أراد به السوء، ألهمه الشر فعمِل به. وقال الفَرّاء : « فألهمها » قال: عَرَّفها طريق الخير وطريق الشر؛ كما قال : « وهَدَيْناه النَّجدَيْنِ »(١) . وروى الضحاك عن آبن عباس قال : أَلْهَمَ المؤمن المتقى تقواه ، وألهم الفاجر فجوره . وعن سعيد عن قتادة قال : بيّن لهـا فجورها وتقواها . والمعنى

(١) آية ١٠ سورة البلد .

Marfat.com

متقارب . وروى عن أبى هريرة قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وتقواها » قال : "اللَّهُمَّ آتِ نفسى تقواها ، وزكِّها أنت خيرُ من زكَّاها ، أنت وليُّها ومولاها". ورواه جُوَيبر عن الضحاك عن ابن عباس : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية « فألهمها فُجُورَها وتقواها » رفع صوته بها ، وقال : " اللهم آتِ نفسِى تقواها ، أنت وليها ومولاها ، وأنت خيرُ من زكَّاها". وفى صحيح مسلم ، عن أبى الأسود الدُّؤَلِىّ قال : قال لى عمران ابن حصين : أرأيتَ ما يعمل الناس اليوم ، ويَكْدَحون فيه ، أشيء قُضِى ومَضَى عليهم من قَدَرٍ سبق ، أو فيما يَسْتقبلون (١) مما أتاهم به نبيُّهم ، وثبتت الحجة عليهم ؟ فقلت : بل شيء قُضِى عليهم ، ومَضى عليهم . قال فقال : أفلا يكون ظُلْما ؟ قال : ففزِعت من ذلك فزَعا شديدا ، وقلت : كل شيء خَلْقُ الله ومِلْك يده ، فلا يُسْأَل عما يفعلُ وهُمْ يُسْأَلون . فقال لى : يرحمك الله ! إنى لم أرِد بما سألتك إلا لأَحزِر (٢) عقلَك ، إنّ رجلين من مُزَينة أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا : يارسول الله ، أرأيت ما يعملُ الناس اليوم ويَكْدَحون فيه : أشيءٌ قُضِيَ عليهم ومضى فيهم من قَدَرٍ قد سبق ، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيُّهم . وثبتت الحجة عليهم ؟ فقال : "لا بل شيء قُضِى عليهم ومضى فيهم . وتصديق ذلك فى كتاب الله عز وجل « ونفسٍ وما سوَّاها . فألهمها فجورها وتقواها » ". والفجور والتقوى : مصدران فى موضع المفعول به .

قوله تعالى : قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّـٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّـٰهَا ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفلحَ مَنْ زكَّاها ﴾ هذا جواب القسم ، بمعنى : لقد أفلح . قال الزجاج : اللام حذفت ، لأن الكلام طال ، فصار طوله عِوضا منها . وقيل : الجواب محذوف ؛ أى والشمس وكذا وكذا لَتُبْعَثن . الزمخشري : تقديره لَيُدَمْدِمنّ الله عليهم ؛ أى على أهل مكة ، لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما دَمْدَم على ثمود ؛ لأنهم كذبوا صالحا . وأما « قد أفلح من زكَّاها » فكلام تابع لأوله ؛ لقوله : « فألهمها فجورها وتقواها » ، على سبيل الاستطراد ، وليس من جواب القسم

(١) فى بعض الأصول : « مما يستقبلون به ... الخ » . (٢) أى لأمتحن عقلك وفهمك ومعرفتك .

Marfat.com

فى شىء. وقيل: هو على التقديم والتأخير بغير حذف؛ والمعنى: قد أفلح من زكّاها، وقد خاب من دسّاها، والشمس وضحاها. ﴿أفلح﴾ فاز. ﴿مَنْ زَكَّاها﴾ أى من زكى الله نفسه بالطاعة. ﴿وقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها﴾ أى خسِرت نفسٌ دسَّها الله عز وجل بالمعصية. وقال ابن عباس: خابت نفس أضلها وأغواها. وقيل: أفلح من زكى نفسه بطاعة الله، وصالح الأعمال، وخاب من دسّ نفسه فى المعاصى؛ قاله قتادة وغيره. وأصل الزكاة: النمو والزيادة، ومنه زكا الزرع: إذا كثر رَيْعُه، ومنه تزكية القاضى للشاهد؛ لأنه يرفعه بالتعديل، وذكر الجميل. وقد تقدم هذا المعنى فى أول سورة «البقرة»(١) مستوفًى. فمصطنع المعروف والمبادر إلى أعمال البر، شَهَر نفسه ورفعها. وكانت أجواد العرب تنزل الرُّبا وارتفاعَ الأرض، ليشتهر مكانُها للمُعْتَفِين(٢)، وتوقد النار فى الليل للطارقين. وكانت اللئام تنزل الأوْلاج(٣) والأطراف والأهضام، ليخفى مكانها عن الطالبين. فأولئك علَّوا أنفسهم وزكَّوها، وهؤلاء أخفَوا أنفسهم ودَسُّوها. وكذا الفاجر أبدا خفِيُّ المكان، زَمِرُ(٤) المروءة، غامض الشخص، ناكس الرأس بركوب المعاصى. وقيل: دساها: أغواها. قال:

وأنتَ الذى دَسَّيْتَ عَمْرا فأصبحت * حلائلُه منه أراملَ ضُيَّعا(٥)

قال أهل اللغة: والأصل: دسَّسها، من التدسيس، وهو إخفاء الشىء فى الشىء، فأبدلت سينه ياء؛ كما يقال: قَصَّيْت أظفارى؛ وأصله قَصَّصْت أظفارى. ومثله قولهم فى تَقَضَّض: تقضى. وقال ابن الأعرابى: «وقَدْ خَابَ من دَسَّاها» أى دس نفسه فى جملة الصالحين وليس منهم.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۝١١ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ۝١٤﴾

(١) راجع جـ ١ ص ٢٤٣ طبعة ثانية أو ثالثة. (٢) المعتفى: كل طالب فضل أو رزق.
(٣) الأولاج: ما كان من كهف أو غار يلجأ إليه. والأهضام: أسافل الأودية.
(٤) الزمر: القليل. (٥) الذى فى اللسان (مادة دسا):
وأنت الذى دسيت عمرا فأصبحت * نساؤهم فيهم أرامل ضيع
وقال: دسيت: أغويت وأفسدت. وعمرو: قبيلة.

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴾ أى بطغيانها، وهو خروجها عن الحدّ فى العصيان؛ قاله مجاهد وقتادة وغيرهما . وعن ٱبن عباس « بِطغواها » أى بعذابها الذى وُعِدَتْ به. قال: وكان ٱسم العذاب الذى جاءها الطَّغْوى؛ لأنه طَغَى عليهم . وقال محمد كعب : « بِطغواها » بأجمعها . وقيل : هو مصدر، وخرج على هـذا المخرج، لأنه أَشْكَلُ برءوس الآى . وقيـل : الأصل بطَغْياها، إلا أن «فَعْلَى» إذا كانت من ذوات الياء أبدلت فى الآسم واوا ، لِيُفصَل بين الآسم والوصف . وقراءة العامة بفتح الطاء . وقرأ الحسن والجَحْدرى وحمـاد بن سلمة (بضم الطاء) على أنه مصدر؛ كالرُّجْعَى والحُسْنى وشبههما فى المصادر . وقيل : هما لغتان.

﴿ إِذِ ٱنبعَثَ ﴾ أى نهض . ﴿ أشـقاها ﴾ لعقْر الناقة . وٱسمه قُدَار بن سالِف . وقد مضى فى « الأعراف »[(١)] بيـان هذا ، وهل كان وا[illegible] جمـاعة . وفى البخارىّ عن عبـد الله ابن زَمعة أنه سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يخطُب، وذكر الناقة والذى عَقَرها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إِذِ ٱنبعَثَ أَشْقاها ، ٱنبعث لهـا رجل عزيز عارِم[(٢)]، منيع فى رهطه، مثل أبى زَمعة " وذكر الحديث . خرّجه مسلم أيضا . وروى الضحاك عن علىّ : أن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قال له : " أتدرى من أشقى الأولين " قلت : الله ورسوله أعلم . قال : " عاقر الناقة ــ قال ــ أتدرى من أشقى الآخرين " قلت : الله ورسوله أعلم . قال : "قاتلك".

﴿فقال لَهُمْ رسولُ اللهِ﴾ يعنى صالحا . ﴿ ناقَةَ اللهِ ﴾ « ناقةَ » منصوب على التحذير؛ كقولك: الأسد الأسد، والصبِيَّ الصبِيَّ، والحذارَ الحذارَ . أى احذروا ناقة الله؛ أى عَقْرها . وقيل : ذروا ناقة الله، كما قال: « هٰذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »[(٣)] . ﴿ وسُقْياها ﴾ أى ذروها وشربها . وقد مضى فى سورة « الشعراء »[(٤)] بيانه والحمد لله . وأيضا فى سورة «اقتربت الساعة»[(٥)] . فإنهم لمـا اقترحوا الناقة، وأخرجها لهم من الصخرة ، جعل لهم شِربَ يوم من بئرهم ، ولها شِربُ يوم مكان ذلك ، فشقّ ذلك عليهم .

(١) راجع جـ ٧ ص [illegible] (٢) [illegible] العارم : الجبار المفسد الخبيث . (٣) آية ٧٣ سورة الأعراف .
(٤) راجع جـ ١٣ ص [illegible] (٥) راجع [illegible] ١٤١

﴿ فكذّبوه ﴾ أى كذبوا صالحا عليه السلام فى قوله لهم : " إنكم تُعذَّبونَ إنْ عقرتُموها".
﴿ فعقروها ﴾ أى عقرها الأشقى . وأضيف إلى الكل، لأنهم رَضُوا بفعله . وقال قتادة : ذُكر لنا أنه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم . وقال الفرّاء : عقرها آثنان : والعرب تقول : هذان أفضلُ الناس ، وهذان خيرُ الناس ، وهذه المرأة أشقى القوم ؛ فلهذا لم يقل : أشقياها .

قوله تعالى : ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ﴾ أى أهلكهم وأطبق عليهم العذابُ بذنبهم الذى هو الكفر والتكذيب والعَقْر . وروى الضحاك عن آبن عباس قال : دَمْدم عليهم قال : دمَّرَ عليهم ربهم بذنبهم ؛ أى بجُرمهم . وقال الفرّاء : دَمْدم أى أرجف . وحقيقة الدمدمة تضعيف العذاب وترديده . ويقال : دَمَمْتُ على الشيء : أى أطبقت عليه ، ودمَّ عليه القبرَ : أطبقه . وناقة مدمومة : أَلْبَسها الشحم . فإذا كررت الإطباق قلت : دَمْدَمْتُ . والدمدمة : إهلاك باستئصال ؛ قاله المؤرّج . وفى الصحاح : ودَمْدَمْتُ الشيء : إذا ألزقته بالأرض وطَحْطَحْتُه . ودمدم الله عليهم : أى أهلكهم . القُشَيرى : وقيل دَمْدَمت على الميت الترابَ : أى سَوَّيتُ عليه . فقوله «فدمدم عليهم» أى أهلكهم ، فجعلهم تحت التراب . ﴿ فسَوّاها ﴾ أى سَوّى عليهم الأرض . وعلى الأول « فسوّاها » أى فسوّى الدَّمدمة والإهلاك عليهم . وذلك أن الصيحة أهلكتهم ، فأتت على صغيرهم وكبيرهم . وقال آبن الأنبارىّ : دمدمَ أى غضب . والدمدمة : الكلام الذى يزعج الرجل . وقال بعض اللغويين : الدمدمة : الإدامة ؛ تقول العرب : ناقة مُدَمْدَمة أى سمينة . وقيل : « فسوّاها » أى فسوّى الأمة فى إنزال العذاب بهم ، صغيرهم وكبيرهم ، وضيعهم وشريفهم ، ذكرهم وأنثاهم . وقرأ آبن الزُّبير « فدهْدَم » وهما لغتان ؛ كما يقال : امتُقِع لونُه وانْتُقِع .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾

أى فعل الله ذلك بهم غير خائف أن تلحقه تَبِعة الدَّمدمة من أحد ؛ قاله آبن عباس والحسن وقتادة ومجاهد . والهاء فى «عُقْباها» ترجع إلى الفَعْلة ؛ كقوله : " مَن اغتسل يوم

Marfat.com

الجمعة فيها ونعمت" أي بالفعلة والخصلة . قال السدّى والضحاك والكلبي : ترجع إلى العاقر؛ أى لم يخف الذى عقرها عُقبى ما صنع . وقاله ابن عباس أيضا . وفى الكلام تقديم وتأخير، مجازه : إذ انبعث أشقاها ولا يخاف عُقْباها . وقيل : لا يخاف رسول الله صالح عاقبة إهلاك قومه ، ولا يخشى ضررا يعود عليه من عذابهم ؛ لأنه قد أنذرهم ، ونجاه الله تعالى حين أهلكهم . وقرأ نافع وابن عامر « فلا » بالفاء ، وهو الأجود ؛ لأنه يرجع إلى المعنى الأول ؛ أى فلا يخاف الله عاقبة إهلاكهم . والباقون بالواو ، وهى أشبه بالمعنى الثانى ؛ أى ولا يخاف الكافر عاقبة ما صنع . وروى ابن وهب وابن القاسم عن مالك قالا : أخرج إلينا مالك مصحفا لجدّه ، وزعم أنه كتبه فى أيام عُثمان بن عفان حين كتب المصاحف ، وفيه : « ولا يخاف » بالواو . وكذا هى فى مصاحف أهل مكة والعراقيين بالواو ، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم ، اتباعا لمصحفهم .

سورة « والليل »

مَكّيّة . وقيل : مدنيّة . وهى إحدى وعشرون آية بإجماع

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ والليل إذا يَغْشَى ﴾ أى يُغطّى . ولم يذكر معه مفعولا للعلم به . وقيل : يغشى النهار . وقيل : الأرض . وقيل : الخلائق . وقيل : يغشى كل شىء بظلمته . وروى سعيد عن قتادة قال : أول ما خلق الله النورُ والظلمة ، ثم ميّز بينهما ، فجعل الظلمة ليلا أسود مظلما ، والنور نهارا مضيئا مبصرا . ﴿ والنهار إذا تجلّى ﴾ أى إذا انكشف ووضح وظهر، وبان بضوئه عن ظلمة الليل . ﴿ وما خلق الذّكر والأُنثى ﴾ قال الحسن : معناه والذى خلق

Marfat.com

الذكر والأنثى ؛ فيكون قد أقسم بنفسه عز وجل . وقيـل : معناه وخلق الذكر والأنثى ؛ (فما): مصدرية على ما تقدم. وأهل مكة يقولون للرعد : سُبْحان ما سَبَّحتَ له ! (فما) على هذا بمعنى (مَنْ) ، وهو قول أبي عبيدة وغيره . وقد تقـدّم . وقيـل : المعنى وما خلق من الذكر والأنثى؛ فتكون «مِنْ» مضمرة، ويكون القسم منه بأهل طاعته، من أنبيائه وأوليائه، ويكون قسمه بهم تكرمة لهم وتشريفا . وقال أبو عبيـدة : « وما خلق » أى مَنْ خلق . وكذا قوله : « والسماءِ وما بناها »، « ونفس وما سوّاها »؛ «ما» فى هذه المواضع بمعنى مَن . ورُوى عن ابن مسعود أنه كان يقرأ«والنهار إذا تجلى . والذكر والانثى» ويسقط«وما خلق» . وفى صحيح مسلم عن علقمة قال: قدمنا الشام، فأتانا أبو الدرداء ، فقال : فيكم أحد يقرأ على قراءة عبد الله ؟ فقلت : نعم ، أنا . قال : فكيف سمعت عبد الله يقرأ هذه الآية « والليلِ إذا يغشى » ؟ قال : سمعته يقرأ « والليـلِ إذا يَغْشَى . والذكر والأنثى » قال : وأنا والله هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها، ولكن هؤلاء يريدون أن أقرأ «وماخلق» فلا أتابعهم[(١)] . قال أبو بكر الأنبارى : وحدثنا محمد بن يحيى المروزى قال حدثنـا محمد قال حدثنا أبو أحمـد الزبيرى قال حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عبـد الرحمن بن يزيد عن عبدالله قال : أقرأنى رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنى أنا الرازق ذو القوة المتِين » ؛ قال أبو بكر : كل من هذين الحديثين مردود ؛ بخلاف الإجماع له ، وأن حمزة وعاصما يرويان عن عبد الله بن مسعود ما عليـه جماعة المسلمين ، والبناء على سـندين يوافقان الإجماع أولى من الأخذ بواحد يخالفه الإجماع والأمة ، وما يبنى على رواية واحد إذا حاذاه رواية جماعة تخالفه ، أخذ برواية الجماعة ، وأبطل نقل الواحد؛ لمـا يجوز عليه من النسيان والإغفال . ولو صح الحديث عن أبي الدرداء وكان إسنادهُ مقبولا معروفا ، ثم كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلى

(١) وفى كتاب الأحكام لابن العربى مانصه : « هذا مما لا يلتفت إليه بشر ؛ إنمـا المعول عليه ما فى المصحف ، فلا تجوز مخالفته لأحد ، ثم بعد ذلك يقع النظر فيما يوافق خطه ، مما لم يثبت ضبطه حسبما بيناه فى موضعه ؛ فإن القرآن لا يثبت بنقل الواحد وإن كان عدلا ، وإنما يثبت بالتواتر الذى يقع به العلم ، وينقطع معه العذر، وتقوم به الحجة على الخـلق » .

Marfat.com

وسائر الصحابة رضى الله عنهم يخالفونه ، لكان الحكم العمل بما روته الجماعة ،ورفض ما يحكيه الواحد المنفرد، الذى يسرع إليه من النسيان ما لا يسرع إلى الجماعة، و جميع أهل الملة .

وفى المراد بالذكر والأنثى قولان : أحدهما ــ آدم وحواء ؛ قاله آبن عباس والحسن والكلبي. الثانى ــ يعنى جميع الذكور والإناث من بنى آدم والبهائم ؛ لأن الله تعالى خلق جميعهم من ذكر وأنثى من نوعهم . وقيل : كل ذكر وأنثى من الآدميين دون البهائم لاختصاصهم بولاية الله وطاعته . ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ هذا جواب القسم . والمعنى : إن عملكم لمختلف . وقال عكرمة وسائر المفسرين: السعى: العمل ؛ فساعٍ فى فَكاك نفسه، وساعٍ فى عَطَبها ؛ يدل عليه قوله عليه السلام: "الناس غاديان : فمبتاع نفسه فمعتقها، و بائع نفسه فموبقها"[(١)]. وشتى: واحده شتيت ؛ مثل مريض ومرضى . و إنما قيل للمختلف شتى لتباعد ما بين بعضه و بعضه . أى إن عملكم لمتباعد بعضه من بعض ؛ لأن بعضه ضلالة وبعضه هدى . أى فمنكم مؤمن وبر، وكافر وفاجر، ومطيع وعاصٍ . وقيل : « لشتى » أى لمختلف الجزاء ؛ فمنكم مثاب بالجنة، ومعاقب بالنار . وقيل : أى لمختلف الأخلاق ؛ فمنكم راحم وقاس، وحليم وطائش، وجواد وبخيل ؛ وشبه ذلك .

قوله تعالى : فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ فأمّا من أعطى وآتقى ﴾ قال آبن مسعود : يعنى أبا بكر رضى الله عنه ؛ وقاله عامة المفسرين . فروى عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال : كان أبو بكر يُعْتِق على الإسلام عجائز ونساء ، قال : فقال له أبوه قحافة : أى بنى ! لو أنك

(١) هذه رواية الحديث كما فى الثعلبى . والذى فى نسخ الأصل : « الناس غاديان : فبائع نفسه فمعتقها ، أو موبقها » .

Marfat.com

أعتقت رجالا جُلْدًا يمنعونك ويقومون معك ؟ فقال : يا أبت إنمـا أريد ما أريد[1] . وعن ابن عباس في قوله تعالى : « فأمّا من أعطى » أي بذل . « واتقى » أي محارم الله التي نَهَى عنها . ﴿ وصدّق بالحسنى ﴾ أي بالخَلَف من الله تعالى على عطائه . ﴿ فسنيسره لليسرى ﴾ وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ومَلَكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعطِ منفقا خَلَفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تَلَفا " . وروى من حديث أبي الدرداء : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما من يوم غَرَبت شمسه إلا بُعِث بجنبتها ملكان يناديان يسمعهما خلق الله كلهم إلا الثَّقَلين : اللهم أعط منفقا خلفا ، وأَعطِ ممسكا تلفا " فأنزل الله تعالى في ذلك في القرآن « فأمّا من أعطى » ... الآيات . وقال أهل التفسير : « فأمّا من أعطى » المُعْسِرين . وقال قتادة : أعطى حق الله تعالى الذي عليه . وقال الحسن : أعطى الصدق من قلبه . ﴿ وصدق بالحسنى ﴾ أي بلا إله إلا الله ؛ قاله الضحاك والسلمي وابن عباس أيضا . وقال مجاهد : بالجنـة ؛ دليله قوله تعالى : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة[2] » ... الآية . وقال قتادة : بموعود الله الذي وعده أن يثيبه . زيد بن أسلم : بالصلاة والزكاة والصوم . الحسن : بالخَلَف من عطائه ؛ وهو اختيار الطبري . وتقـدم عن ابن عباس ، وكله متقارب المعنى ؛ إذ كله يرجع إلى الثواب الذي هو الجنة .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ فسنيسره لليُسْرى ﴾ أي نرشده لأسباب الخير والصلاح ، حتى يسهل عليه فعلها . وقال زيد بن أسلم : « لليسرى » للجنة . وفي الصحيحين والترمذي عن عليّ رضي الله عنه قال : كنا في جنازة بالبقيع ، فأتى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فجلس وجلسنا معه ، ومعه عود ينكُت به في الأرض ، فـرفع رأسه إلى السماء فقال : " ما من نفس منفوسة إلا [قد] كُتِب مدخلها " فقال القوم : يارسول الله ، أفلا نتكل على كتابنا ؟ فمن كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة ، ومن كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء . قال : " بل

(١) كذا في كتاب أسباب النزول وروح المعاني . وفي نسخ الأصل : « ما يريد » . وفي تفسير الثعلبي ورواية أخرى في أسباب النزول : « لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك ؛ قال : منع ظهري أريد » .
(٢) آية ٢٦ سورة يونس .

Marfat.com

اعملوا فكل ميسر، أما من كان من أهل السعادة فإنه يُيَسَّر لعمل السعادة، وأما من كان من أهل الشـقاء فإنه ييسر لعمل الشقاء — ثم قرأ — « فأمّا من اعطى وآتق وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل وآستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى » "لفظ الترمذى" . وقال فيه : حديث حسن صحيح . وسأل غلامان شابان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا : العمل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ؟ أم فى شيء يستأنف ؟ فقال عليه السلام : "بل فيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير" قالا : ففيم العمل؟ قال : "آعملوا ، فكل ميسر لعمل الذى خلق له" قالا : فالآن نجد ونعمل .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ وأما من بخل وآستغنى ﴾ أى ضنّ بما عنده، فلم يبذل خيرا. وقد تقدّم بيانه وثمرته فى الدنيا فى سورة « آل عمران »[1] . وفى الآخرة مآله النار، كما فى هذه الآية . روى الضحاك عن آبن عباس ﴿ فسنيسره للعسرى ﴾ قال : سوف أحول بينه و بين الإيمان بالله و برسوله . وعنه عن آبن عباس قال : نزلت فى أمية بن خلف وروى عكرمة عن آبن عباس : « وأما من بخل وآستغنى » يقول : بخل بماله ، واستغنى عن ربه . ﴿ وكذب بالحسنى ﴾ أى بالخلف . وروى آبن أبى نجيح عن مجاهد : « وكذب بالحسنى » قال : بالجنة . وبإسناد عنه آخر قال « بالحسنى » أى بلا إله إلا الله . ﴿ فسنيسره ﴾ أى نسهل طريقه . ﴿ للعسرى ﴾ أى للشر . وعن آبن مسعود : للنار . وقيل : أى فسنعسر عليه أسباب الخير والصلاح حتى يصعب عليه فعلها . وقـد تقـدّم أن الملك ينادى صباحا ومساء: " اللهم أعط منفقا خلفا، وأعط ممسكا تلفا " . رواه أبو الدرداء .

مسألة : قال العلماء : ثبت بهذه الآية وبقوله : « وممـا رزقناهم ينفقون »[2] ، وقوله : « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية »[3] إلى غير ذلك من الآيات — أن الجود من مكارم الأخلاق، والبخل من أرذلها . وليس الجواد الذى يعطى فى غير موضع العطاء ، ولا البخيل الذى يمنع فى موضع المنع ، لكن الجواد الذى يعطى فى موضع العطاء ، والبخيل

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٩١ (٢) آية ٣ سورة البقرة . (٣) آية ٢٧٤ سورة البقرة .

Marfat.com

الذى يمنع فى موضع العطاء، فكل من استفاد بما يعطى أجرا وحمدا فهو الجواد . وكل من استحق بالمنع ذما أو عقابا فهو البخيل. ومن لم يستفد بالعطاء أجرا ولا حمدا، وإنما استوجب به ذما فليس بجواد، وإنما هو مسرف مذموم، وهو من المبذِّرين الذين جعلهم الله إخوان الشياطين، وأوجب الحجْر عليهم. ومن لم يستوجب بالمنع عقابا ولا ذما، واستوجب به حمدا، فهو من أهل الرشد، الذين يستحقون القيام على أموال غيرهم، بحسن تدبيرهم وسَداد رأيهم.

الرابعـــة ـــ قال الفراء: يقول القائل: كيف قال: «فسنيسره للعسرى»؟ وهل فى العسرى تيسير؟ فيقال فى الجواب: هذا فى إجازته بمنزلة قوله عز وجل: «فبشرهم بِعذابٍ أليم»[1]، والبشارة فى الأصل على المفرح والسار، فإذا جمع فى كلامين هذا خير وهذا شر، جاءت البشارة فيهما . وكذلك التيسير فى الأصـل على المفرح، فإذا جمع فى كلامين هذا خير وهذا شر، جاء التيسير فيهما جميعا. قال الفراء: وقوله تعالى «فسنيسره»: سنهيئه. والعرب تقول: قد يَسَّرت الغنم: إذا ولدت أو تهيأت للولادة . قال:

هما ســيدانا يزعمان وإنما * يَسُودانِنا أن يَسَّرتْ غَنَماهما[2]

قوله تعـالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ وما يُغْنِي عنه ماله إذا تردَّى ﴾ أى مات. يقال: رَدِىَ الرجل يَرْدَى رَدًى: إذا هلك. قال:

* صرفت الهوى عنهنّ من خشية الردى *

وقال أبو صالح وزيد بن أسلم: «إذا تردى»: سقط فى جهنم؛ ومنه المتردِّية. ويقال: رَدِى فى البئر وتردى: إذا سقط فى بئر، أو تهوّر من جبل. يقال: ما أدرى أين رَدِىَ؟ أى أين ذهب. و«ما»: يحتمل أن تكون جحدا؛ أى ولا يغنى عنه ماله شيئا؛ ويحتمل أن تكون استفهاما

---

(١) آية ٢١ سورة آل عمران . (٢) البيت لأبى أسيدة الدبيرى . وقبله .

إن لنا شيخين لا ينفعاننا * غنيين لا يجدى علينا غناهما

Marfat.com

معناه التوبيخ ؛ أى أىّ شيء يغنى عنه إذا هلك ووقع فى جهنم ! ﴿ إِنَّ علينا للهُدَى ﴾ أى إن علينا أن نُبيِّن طريق الهدى من طريق الضلالة . فالهدى : بمعنى بيان الأحكام ، قاله الزجاج . أى على الله البيان ، بيان حلاله وحرامه ، وطاعته ومعصيته ؛ قاله قتادة . وقال الفرّاء : من سلك الهدى فعلى الله سبيله ؛ لقوله : « وعلى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ »(١) يقول : من أراد الله فهو على السبيل القاصد . وقيل : معناه إن علينا للهدى والإضلال ، فترك الإضلال ؛ كقوله : « بِيدِكَ الخيرُ »(٢) ، و « بيدِهِ ملكوتُ كل شيء »(٣) . وكما قال : « سرابيل تقيكم الحَرّ »(٤) وهى تقى البرد ؛ عن الفرّاء أيضا . وقيل : أى إن علينا ثواب هداه الذى هديناه . ﴿ وإنّ لنا للآخِرَةَ والأُولَى ﴾ « لَلآخِرَةَ » الجنة . « والأولى » الدنيا . وكذا روى عطاء عن ابن عباس . أى الدنيا والآخرة لله تعالى . وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : ثواب الدنيا والآخرة ، وهو كقوله تعالى : « من كان يريد ثواب الدنيا فعند اللهِ ثواب الدنيا والآخِرةِ »(٥) فمن طلبهما من غير مالكهما فقد أخطأ الطريق .

قوله تعالى : فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فأنذرتكم ﴾ أى حذرتكم وخوفتكم . ﴿ نارا تَلَظَّى ﴾ أى تلهّب وتتوقد . وأصله تتلظى . وهى قراءة عُبيد بن عُمير ، ويحيى بن يعمر ، وطلحة بن مصرف . ﴿ لا يصلاها ﴾ أى لا يجد صَلاها وهو حرها . ﴿ إلا الأَشْقَى ﴾ أى الشقى . ﴿ الذى كذب ﴾ نبي الله محمدا صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَتولّى ﴾ أى أعرض عن الإيمان . وروى مكحول عن أبى هريرة قال : كل يدخل الجنة إلا من أباها . قال : يا أبا هريرة ، ومن يأبى أن يدخل الجنة ؟ قال : الذى كَذّب وتَولّى . وقال مالك : صلّى بنا عمر بن عبد العزيز المغرب ، فقرأ « والليل

(١) آية ٩ سورة النحل .
(٢) آية ٢٦ سورة آل عمران .
(٣) آية ٨٣ سورة يس .
(٤) آية ٨١ سورة النحل .
(٥) آية ١٣٤ سورة النساء .

Marfat.com

إذا يغشى » فلما بلغ « فأنذرتكم نارا تلظّى » وقع عليه البكاء ، فلم يقدر يتعدّاها من البكاء، فتركها وقرأ ســورة أخرى . وقال الفرّاء : « إلا الأشقى » إلا من كان شقيا فى علم الله جل ثناؤه . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : « لا يصلاها إلا الأشقى » أميـة بن خلف ونظراؤه الذين كذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم. وقال قتادة: كذب بكتاب الله، وتولى عن طاعة الله. وقال الفرّاء: لم يكن كذب بردّ ظاهر، ولكنه قصّر عما أُمر به من الطاعة؛ فجُعل تكذيبا؛ كما تقول: لقِي فلان العدوّ فكذب: إذا نكل ورجع عن اتباعه. قال: وسمعت أبا ثروان يقول: إن بنى نُمَيْر ليس لِجَدّهم مكذوبة[1]. يقول: إذا لَقُوا صدقوا القتال، ولم يرجعوا. وكذلك قوله جل ثنـاؤه : « ليس لِوقعتِها كاذبة[2] » يقول : هى حق . وسمعت سلم بن الحسن يقول : سمعت أبا إسحاق الزجاج يقول: هذه الآية التى من أجلها قال أهل الإرجاء[3] بالإرجاء، فزعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر؛ لقوله جل ثناؤه: « لا يَصلاها إلا الأشقى. الذى كذب وتولى» وليس الأمر كما ظنوا . هذه نار موصوفة بعينها، لا يصلى هذه النار إلا الذى كذب وتولى. ولأهل النار منازل ؛ فمنها أن المنافقين فى الدَّرْك الأسفل من النار؛ والله سبحانه كل ما وعد عليه بجنس من العذاب فجائز أن يعذب به. وقال جل ثناؤه : « إن الله لا يغفر أن يشرك بِهِ ويغفِر ما دون ذلِك لِمن يشاء[4] » ، فلو كان كل من لم يشرك لم يعـذّب ، لم يكن فى قوله : « و يغفر مادون ذلك لمن يشاء » فائدة، وكان « و يغفر مادون ذلك » كلاما لا معنى له .

الزمخشرى: الآية واردة فى الموازنة بين حالتى عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين، فأريد أن يبالغ فى صفتيهما المتناقضتين ، فقيل : الأشقى، وجعل مختصا بالصَّلى، كأن النار لم تخلق

(١) كذا فى الأصول وأساس البلاغة للزمخشرى . والذى فى تفسير الفرّاء ولسان العرب — مادة كذب — : « لحدهم » بالحاء المهملة . وحدّ الرجل : بأسه ونفاذه فى نجدته . (٢) آية ٢ سورة الواقعة .

(٣) هم المرجئة ، وهم فرقة من فرق الاسلام ، يعتقدون أنه لا يضر مع الايمان معصية ، كما أنه لا ينفع مع الكفر طاعة . سموا مرجئة ، لاعتقادهم أن الله أرجأ تعذيبهم على المعاصى؛ أى أخره عنهم . وقيل : المرجئة فرقة من المسلمين يقولون: الإيمان قول بلا عمل ؛ كأنهم قدموا القول، وأرجئوا العمل، أى أخروه؛ لأنهم يرون أنهم لو لم يصلوا ولم يصوموا لنجاهم إيمانهم . (٤) آية ٤٨ سورة النساء .

Marfat.com

إلا له . وقيـل : الأتقى، وجعل مختصا بالجنة ، كأن الجنـة لم تخلق إلا له . وقيل : هما أبو جهل أو أمية بن خلف . وأبو بكر رضى الله عنه .

قوله تعالى : وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ وسيجنبها ﴾ أى يكون بعيـدا منها . ﴿ الأتقى ﴾ أى المتقى الخائف . قال آبن عباس : هو أبو بكر رضى الله عنـه ، يزحزح عن دخول النـار . ثم وصف الأتقى فقال ﴿ الذى يؤتى ماله يتزكى ﴾ أى يطلب أن يكون عند الله زا كيا،ولا يطلب بذلك رياء ولا سمعة ، بل يتصدق به مبتغيا به وجه الله تعـالى . وقال بعض أهل المعانى : أراد بقوله « الأتقى » و « الأشقى » أى التقىّ والشقىّ ؛ كقول طرفة :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت * فتـلك سبيل لست فيهـا بأوحدِ

أى واحد ووحيد ؛ وتوضع (أفعَل) موضع فعيل ، نحو قولهم : الله أكبر بمعنى كبير ، « وهو أهون عليه »(١) بمعنى هين .

قوله تعـالى : وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

قوله تعـالى:﴿ وما لِأحدٍ عِندهُ مِنْ نِعمةٍ تُجْزَى ﴾ أى ليس يتصدق ليجازِىَ على نعمة، إنما يبتغى وجه ربه الأعلى، أى المتعالى ﴿ ولسوف يرضى ﴾ أى بالجزاء. فروى عطاء والضحاك عن آبن عباس قال : عَذَّب المشركون بلالا ، و بلال يقول أَحد أَحَد ؛ فمرّ به النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : " أحد — يعنى الله تعالى — ينجيك " ثم قال لأبى بكر : " يابا بكر إنّ بلالا يعذب فى الله" فعرف أبو بكر الذى يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فآنصرف إلى منزله، فأخذ رطلا من ذهب، ومضى به إلى أمية بن خلف، فقال له : أتبيعنى بلالا؟ قال : نعم؛ فآشتراه فأعتقه . فقـال المشركون : ما أعتقه أبو بكر إلا ليـدٍ كانت له عنـده ؛ فنزلت « وما لأحدٍ عِنـدَه » أى عنـد أبى بكر « من نعمة » ، أى من يدٍ ومِنّة ، « تُجْزَى » بل

(١) آية ٢٧ سـورة الروم .

Marfat.com

« ابتغاءَ » بما فعل « وجْهَ ربِّهِ الأَعْلَى » . وقيل : اشترى أبو بكر من أمية وأُبىّ بن خلف بِلالا ، ببردة وعشر أواق ، فأعتقه لله ، فنزلت : « إنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى » . وقال سعيد بن المسيب : بلغني أن أمية بن خلف قال لأبي بكر حين قال له أبو بكر : أتبيعُنِيه ؟ فقال : نعم ، أبيعه بِنِسطاس ، وكان نِسْطاس عبـدا لأبي بكر ، صاحب عشرة آلاف دينار وغلمان وجوارٍ ومواشٍ ، وكان مشركا ، فحمله أبو بكر على الإسلام ، على أن يكون له مالُه ، فأبى ، فباعه أبو بكر به . فقال المشركون : ما فعل أبو بكر ببلال هذا إلا ليد كانت لبلال عنده ؛ فنزلت « وما لِأحدٍ عِنده مِن نِعمةٍ تُجْزَى . إلا ابتغاء » أى لكن ابتغاء ؛ فهو استثناء منقطع ؛ فلذلك نصبت . كقولك : ما في الدار أحد إلا حمارا . ويجوز الرفع . وقرأ يحيي بن وثاب « إلا ٱبتغاءُ وجهِ ربه » بالرفع ، على لغة من يقول : يجوز الرفع في المستثنى . وأنشد في اللغتين قول بشر بن أبي خازم :

أضحتْ خَلاءً قِفارا لا أنِيسَ بها * إلا الجآذرَ والظلمانَ تختلفُ (١)

وقول القائل :

وبلدةٍ ليسَ بهـا أنِيسُ * إلا اليعافيرُ وإلا العِيسُ (٢)

وفي التنزيل : « ما فعلوه إلا قليلٌ مِنهـم (٣) » وقد تقدم . ﴿ وجهِ ربِّهِ الأعلى ﴾ أى مَرْضـاته وما يقرّب منه . و « الأعلى » من نعت الرب الذى ٱستحق صفات العلو . ويجوز أن يكون « ٱبتغاء وجهِ ربه » مفعولا له على المعنى ؛ لأن معنىَ الكلام : لا يؤتِي ماله إلا ٱبتغاء وجهِ ربه ، لا لمكافأة نعمته . ﴿ ولَسوفَ يَرْضَى ﴾ أى سوف يعطيه في الجنة مايُرْضى ؛ وذلك أنه يعطيه أضعاف ما أنفق . وروى أبو حَيّان التيمىّ عن أبيه عن علىّ رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "رَحِم الله أبا بكر ! زوجني ٱبنته ، وحملني إلى دار الهجرة ، وأعتق بلالا من ماله". ولمـا اشـتراه أبو بكر قال له بلال : هل اشتريتني لعملك أو لعمل الله ؟ قال : بل لعمل الله

---

(١) الجآذر (جمع جؤذر) وهو ولد البقـرة الوحشية . والظلمان (بالكسر والضم) : جمع الظليم ، وهو الذكر من النعام . (٢) اليعافير : جمع يعفور : وهو ولد الظبية ، وولد البقرة الوحشية أيضا . والعيس : إبل بيض تخالط بياضها شقرة ، جمع أعيس وعيساء . (٣) آية ٦٦ سورة النساء . راجع جـ ٥ ص ٢٧٠ .

Marfat.com

قال : فذرني وعمل الله، فأعتقه . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا (يعنى بلالا رضى الله عنه) . وقال عطاء — وروى عن ٱبن عباس — : إن السورة نزلت فى أبى الدّحداح ، فى النخلة التى ٱشتراها بحائط له ؛ فيما ذكر الثعلبىّ عن عطاء . وقال القشيرِىّ عن ٱبن عباس : بأربعين نخلة ؛ ولم يسم الرجل . قال عطاء : كان لرجل من الأنصار نخلة ، يسقط من بلحها فى دار جارٍ له ، فيتناوله صبيانه ، فشكا ذلك إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "تبيعها بنخلة فى الجنة" ؟ فأبى ؛ فخرج فلقِيه أبو الدّحداح فقال : هل لك أن تبيعنِيها بـ« حُسْنَى » : حائطٍ له . فقال : هى لك . فأتى أبو الدّحداح إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وقال : يارسول الله ، اشترها منى بنخلة فى الجنة . قال : "نعم ، والذى نفسى بيده" فقال : هى لك يا رسول الله ؛ فدعا النبىّ صلى الله عليه وسلم جار الأنصارىّ ، فقال : "خذها" فنزلت « والليـلِ إذا يغشى » إلى آخر السـورة فى بستان أبى الدحداح وصاحب النخلة . « فأما من أعطى واتق » يعنى أبا الدحداح . « وصدَّق بِالحسنى » أى بالثواب . « فسنيسره لِليسرى » : يعنى الجنة . « وأما من بخِل واستغنى » يعنى الأنصارىّ . « وكذَّب بِالحسنى » أى بالثواب . « فسنيسره لِلعسرى » ، يعنى جهنم . وما يغنِى عنه ماله إذا تردَّى » أى مات . إلى قوله : « لا يصلاها إلا الأشقى » يعنى بذلك الخزرجِىّ ؛ وكان منافقا ، فمات على نفاقه . « وسَيُجَنَّبُهَا الأتقى » يعنى أبا الدحداح . « الذِى يؤتِى ماله يتزكى » فى ثمن تلك النخلة . « ما لِأحدٍ عِنده مِن نِعمةٍ تُجْزَى » يكافئه عليها ؛ يعنى أبا الدحداح . « ولسوف يرضى » إذا أدخله الله الجنـة . والأكثر أن السورة نزلت فى أبى بكر رضى الله عنـه . وروى ذلك عن ٱبن مسعود وٱبن عباس وعبـد الله بن الزبير وغيرهم . وقـد ذكرنا خبرا آخر لأبى الدحداح فى سـورة « البقرة » ، عند قوله : « من ذا الذِى يُقْرِض الله قرضا حسنا » (١) . والله تعالى أعلم .

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٣٧

Marfat.com

سورة « الضحى »

مكية بٱتفاق . وهى إحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ والضُّحَى . والليلِ إذا سَجَى ﴾ قد تقدّم القول فى «الضحى»[1] ، والمراد به النهار؛ لقوله : « والليلِ إذا سَجَى » فقابله بالليل . وفى سورة (الأعراف) « أفأَمِنَ أهْلُ القرى أن يأتِيَهم بأْسُنا بيَاتاً وهم نائمون . أَوَ أَمِنَ أَهْلُ القرى أن ياتِيهم بَأْسُنَا ضُحًى وهمْ يَلْعَبون »[2] أى نهارا . وقال قتادة ومقاتل وجعفر الصادق : أقسم بالضحى الذى كلم الله فيه موسى، و بليلة المِعراج . وقيل : هى الساعة التى خرّ فيها السَّحَرة سجدا . بيانه قوله تعالى : « وأن يُحْشَر النـاس ضُحًى »[3] . وقال أهل المعانى فيـه وفى أمثاله : فيـه إضمار، مجازه ورب الضحى . و « سَجَا » معناه : سكن ؛ قاله قتادة ومجاهد وٱبن زيد وعكرمة . يقال : ليلة ساجية أى ساكنة . و يقال للعين إذا سكن طرفها : ساجية . يقال : سجا الليـل يسجو سَجْوا[4] : إذا سكن . والبحر إذا سجا : سكن . قال الأعشى :

فما ذنبُنا[5] أن جاش بحر ٱبن عمكم * و بحرك ساجٍ ما يوارِى الدعامِصا

وقال الراجز :

يا حبَّذَا القَمْراءُ والليلُ الساجْ * وطُـرُق مِثْـلُ مِـلاءِ النّسّاجْ

---

(١) راجع ص ٧٢ وما بعدها من هذا الجزء . (٢) آية ٩٧ ، ٩٨ (٣) آية ٥٩ سورة طه .
(٤) فى اللسان : « يسجو سجوا وسجوا » . (٥) فى ديوان الأعشين : * أتوعدنى أن جاش ... *
والدعامص : جمع الدعموص : وهو دويبة صغيرة تكون فى مستنقع الماء .

Marfat.com

وقال جرير :

ولقــد رمينك يوم رُحْن بأعينٍ * ينظرن من خلَل الستور سواجى

وقال الضحاك : «سجا» غطّى كل شىء . قال الأصمعىّ : سَجْو الليل : تغطيته النهار ، مثلما يُسَجَّى الرجل بالثوب . وقال الحسن : غشى بظــلامه ؛ وقاله آبن عباس . وعنــه : إذا ذهب . وعنه أيضا : إذا أظلم . وقال سعيد بن جبير : أقبــل ؛ وروى عن قتادة أيضــا . وروى آبن أبى نَجيح عن مجاهد : « سجا » استوى . والقول الأول أشهر فى اللغة : «سجا» سكن ؛ أى سكن الناس فيه . كما يقال : نهار صائم ، وليل قائم . وقيل : سكونه استقرار ظلامه واستواؤه . ويقال : « والضحى . والليلِ إذا سَجَا » : يعنى عباده الذين يعبــدونه فى وقت الضحى ، وعباده الذين يعبدونه بالليــل إذا أظلم . ويقال : « الضحى » : يعنى نور الجنة إذا تنوّر . « والليل إذا سجا » : يعنى ظلمة الليل إذا أظلم . ويقال : « والضحى » : يعنى النور الذى فى قلوب العارفين كهيئة النهار . « والليلِ إذا سجا » : يعنى السواد الذى فى قلوب الكافرين كهيئة الليل ؛ فأقسم الله عز وجل بهذه الأشياء . ﴿ ما ودّعَكَ ربُّك ﴾ : هذا جواب القسم . وكان جبريل عليه السلام أبطأ على النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقال المشركون : قلاه الله وودّعه ؛ فنزلت الآية . وقال ابن جريج : احتبس عنه الوحى اثنى عشر يوما . وقال ابن عباس : خمسة عشر يوما . وقيل : خمسة وعشرين يوما . وقال مقاتل : أربعين يوما . فقال المشركون : إن محمدا ودّعه ربه وقلاه ، ولو كان أمره من الله لتابع عليه ، كما كان يفعل بمن كان قبله من الأنبياء . وفى البخارىّ عن جندب بن سفيان قال : اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يَقُم ليلتين أو ثلاثا ؛ فجاءت امرأة[1] فقالت : يا محمد ، إنى لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك ، لم أره قرِبَك منذ ليلتين أو ثلاث ؛ فأنزل الله عز وجل « والضُّحى . والليل إذا سجى . ما ودّعك ربك وما قلى » . وفى الترمذىّ عن جندب البجلىّ قال : كنت مع النبىّ صلى الله عليه وسلم فى غار فدميت إصبعه ، فقــال النبىّ صلى الله عليه وســلم : " هَلْ أَنتِ إلّا إِصْبَعٌ دَمِيتِ ،

---

(١) هى العوراء بنت حرب ، أخت أبى سفيان ، وهى حمالة الحطب ، زوج أبى لهب .

Marfat.com

وفي سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيتِ " ! قال : وأبطأ عليه جبريل فقال المشركون : قد وُدِّعَ محمد ؛ فأنزل الله تبارك وتعالى « ما ودَّعَكَ رَبُّك وما قَلَى » . هذا حديث حسن صحيح . لم يذكر الترمذي : « فلم يَقُم ليلتين أو ثلاثا » أسقطه الترمذيّ . وذكره البخاري ، وهو أصح ما قيل في ذلك . والله أعلم . وقد ذكره الثعلبي أيضا عن جندب بن سفيان البجلي ، قال : رُمِي النبيّ صلى الله عليه وسلم في إصبعه بحجر ، فدميت ، فقال : " هَلْ أنتِ إلّا إصْبَعٌ دَمِيتِ ، وفي سبيلِ اللهِ ما لَقِيتِ " فمكث ليلتين أو ثلاثا لا يقوم الليل . فقالت له أم جميل امرأة أبي لهب : ما أرى شيطانك إلا قد تركك ، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث ؛ فنزلت « والضُّحَى » . وروى عن أبي عِمران الجَوْني ، قال : أبطأ جبريل على النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى شق عليه ؛ فجاء وهو واضع جبهته على الكعبة يدعو ؛ فنكت بين كتِفيه ، وأنزل عليه : « ما ودّعك ربُّك وما قَلَى » . وقالت خولة — وكانت تخدُم النبيّ صلى الله عليه وسلم — : إن جَرْوًا دخل البيت ، فدخل تحت السرير فمات ، فمكث نبيّ الله صلى الله عليه وسلم أياما لا ينزل عليه الوحي . فقال : " يا خولة ، ما حدث في بيتي ؟ ما لجبريل لا يأتيني " ! قالت خولة فقلت : لو هيأت البيت وكنسته ؛ فأهويت بالمِكنسة تحت السرير ، فإذا جَرْوٌ ميت ، فأخذته فألقيته خلف الجدار ؛ فجاء نبيّ الله ترعد لَحْياه — وكان إذا نزل عليه الوحي استقبلته الرِّعدة — فقال : "يا خولة دثِّريني " فأنزل الله هذه السورة . ولما نزل جبريل سأله النبيّ صلى الله عليه وسلم عن التأخر فقال : " أما علمت أنا لا ندخل بيتا فيه كلب ولا صُورة " . وقيل : لما سألته اليهود عن الروح وذي القرنين وأصحاب الكهف قال : " سأخبركم غدًا " ولم يقل إن شاء الله . فاحتبس عنه الوحي ، إلى أن نزل جبريل عليه بقوله « ولا تقولنّ لِشيءٍ إني فاعل ذلك غدًا إلا أن يشاء الله »(١) فأخبره بما سئل عنه . وفي هذه القصة نزلت « ما ودّعك ربك وما قلى » . وقيل : إن المسلمين قالوا : يا رسول الله ، مالك لا ينزل عليك الوحي ؟ فقال : " وكيف ينزل عليّ وأنتم لا تنقون رواجبكم — وفي رواية براجمكم(٢) — ولا تقصون أظفاركم ولا تأخذون من شواربكم " . فنزل

(١) آية ٢٣ سورة الكهف . (٢) الرواجب (واحدها راجبة) : وهي ما بين عقد الأصابع . والبراجم (واحدها برجمة بالضم) : هي العقد التي في ظهور الأصابع يجتمع فيها الوسخ .

Marfat.com

جبريل بهذه السورة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " ما جئت حتى اشتقت إليك " فقال جبريل : " وأنا كنت أشد إليك شوقا، ولكنى عبد مأمور " ثم أنزل عليه « وما نتنزل إلا بأمر ربك »(١) . « ودّعك » بالتشديد : قراءة العامة ، من التوديع ، وذلك كتوديع المفارق . وروى عن ابن عباس وابن الزبير أنهما قرآه « وَدَعك » بالتخفيف، ومعناه : تركك . قال :

وثم وَدَعْنا آلَ عمرو وعامر * فرائسَ أطراف المثقفة السمْرِ(٢)

واستعماله قليل . يقال : هو يدع كذا ، أى يتركه . قال المبرد محمد بن يزيد : لا يكادون يقولون وَدَعَ ولا وَذَر، لضعف الواو إذا قدمت، واستغنوا عنها بترك .

قوله تعالى : ﴿وما قَلَى﴾ أى ما أبغضك ربك منذ أحبك . وترك الكاف، لأنه رأس آية . والقِلَى : البغض؛ فإن فتحت القاف مددت؛ تقول : قلاه يقليه قِلًى وقَلاء . كما تقول : قريت الضيف أقريه قِرًى وقَرَاء . ويقلاه : لغة طيئ . وأنشد ثعلب :

* أيامَ أمِّ الغَمْر لا نَقْـلاها *(٣)

أى لا نُبغضها . ونَقْلِي أى نُبغض . وقال :(٤)

أسيئى بنا أو أحسِنِي لا ملومةٌ * لدينـا ولا مَقْلِيّـةٌ إنْ تَقَلّتِ

وقال امرؤ القيس :

* ولستُ بمقلِيّ الخِلال ولا قالِ *(٥)

وتأويل الآية : ما ودّعك ربك وما قلاك . فترك الكاف لأنه رأس آية؛ كما قال عز وجل : « والذاكِرين الله كثيرا والذاكِراتِ »(٦) أى والذاكِراتِ الله .

---

(١) آية ٦٤ سورة مريم . (٢) المثقفة والمثقف : الرمح .

(٣) كذا فى اللسان . وفى الأصول : « يا رب » . وبعده كما فى اللسان :

* ولو تشاء قبلت عيناها *

(٤) هو كثير عزة . (٥) صدر البيت :

* صرفت الهوى عنهن من خشية الردى *

(٦) آية ٣٥ سورة الأحزاب .

Marfat.com

قوله تعالى : وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾

روى سلمة عن ابن إسحاق قال : « وَلَلْآخِرة خير لكَ مِنَ الأُولى » أى ما عندى فى مرجعك إلىّ يا محمد، خير لك مما عجلت لك من الكرامة فى الدنيا . وقال ابن عباس : أُرِى النبيّ صلى الله عليه وسلم مايفتح الله على أمته بعده، فسُرّ بذلك، فنزل جبريل بقوله : « وَلَلْآخِرة خير لك من الاولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى » . قال ابن إسحاق : الفَلْجُ فى الدنيا، والثواب فى الآخرة . وقيل : الحوض والشفاعة . وعن ابن عباس : ألفُ قَصْر من لؤلؤ أبيض ترابه المِسك . رفعه الأوزاعيّ، قال : حدثنى إسماعيل بن عبيد الله، عن على بن عبد الله ابن عباس، عن أبيه قال : أُرِى النبى صلى الله عليه وسلم ما هو مفتوح على أمته، فسر بذلك، فأنزل الله عز وجل « والضحى — إلى قوله تعالى — وَلَسَوْفَ يُعْطِيك رَبُّكَ فَتَرْضَى »، فأعطاه الله جل ثناؤه ألف قصر فى الجنة، ترابها المسك، فى كل قصر ما ينبغى له من الأزواج والخدم . وعنه قال : رضِى محمد ألا يدخل أحد من أهل بيته النار . وقال السدى . وقيل : هى الشفاعة فى جميع المؤمنين . وعن علىّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يشفعني الله فى أُمّتي حتى يقول الله سبحانه لى : رضيت يا محمد؟ فأقول يارب رضيت" . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبيّ صلى الله عليه وسلم تلا قول الله تعالى فى إبراهيم : « فمن تَبِعَنِي فإنه مِني ومَنْ عصانِي فإنكَ غفـورٌ رحِيمٌ »[1] وقول عيسى : « إن تعذبهم فإنهم عِبادُك »[2]، فرفع يديه وقال : "اللهم أمتى أمتى" و بكى . فقال الله تعالى لجبريل : "اذهب الى محمد، ور بك أعلم، فسله مايبكيك" فأتى جبريل النبيّ صلى الله عليه وسلم، فسأله فأخبره . فقال الله تعالى لجبريل : "اذهب إلى محمد، فقل له : إن الله يقول لك : إنا سنرضيك فى أمتك

(١) آية ٣٦ سورة إبراهيم .
(٢) آية ١١٨ سورة المائدة .

Marfat.com

ولا نَسوءك [١] ". وقال علىّ رضى الله عنه لأهل العراق : إنكم تقولون إن أرجىَ آية فى كتاب الله تعـالى : « قل يا عِبـادِىَ الذين أسرفوا على انفسِهِم لا تقنطوا مِن رحمـةِ اللهِ » [٢] قالوا : إنا نقول ذلك . قال : ولكنا أهل البيت نقول : إن أرجى آية فى كتاب الله قوله تعـالى : « ولَسَوف يعطيكَ ربك فترضَى » . وفى الحديث : لمـا نزلت هذه الآية قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " إذًا واللهِ لا أرضَى وواحد من أمتى فى النار " .

قوله تعـالى : أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾

عدد سبحانه مِنَنَه على نبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ الم يجِدْكَ يتِيما ﴾ لا أب لك ، قد مات أبوك . ﴿ فآوى ﴾ أى جعل لك مأوى تأوِى إليه عند عمك أبى طالب ، فكفلك . وقيل لجعفر بن محمد الصادق : لم أُوتِم النبى صلى الله عليه وسلم من أبويه ؟ فقال : لئلا يكون لمخلوق عليه حق . وعن مجاهد : هو من قول العـرب : درّة يتيمة ؛ إذا لم يكن لهـا مِثل . فمجاز الآية : ألم يجدك واحدا فى شرفك لا نظير لك ، فآواك الله بأصحابٍ يحفظونك ويَحُوطونك .

قوله تعـالى : وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾

أى غافلا عما يراد بك من أمر النبوّة ، فهداك : أى أرشدك . والضلال هنا بمعنى الغفلة ؛ كقوله جل ثناؤه : « لا يضِلّ ربى ولا ينسى » [٣] أى لا يغفل . وقال فى حق نبيه : « وإن كنت مِن قبـلِه لِمن الغافِلين » [٤] . وقال قوم : « ضالّا » لم تكن تدرى القـرآن والشرائع ، فهداك الله إلى القرآن ، وشرائع الإسلام ؛ عن الضحاك وشهر بن حوشب وغيرهما . وهو معنى

---

(١) رواية الحديث كما ورد فى صحيح مسلم : كتاب الإيمان : « أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل فى إبراهيم « رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى » الآية ، وقول عيسى عليه السلام « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » فرفع يديه وقال : " اللهم أمتى أمتى " ، وبكى ؛ فقال الله عز وجل : « يا جبريل إذهب إلى محمد وربك أعلم ، فسله ما يبكيك » فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام ، فسأله ، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم ؛ فقال الله : « ياجبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك » .

(٢) آية ٥٣ سورة الزمر . (٣) آية ٥٢ سورة طه . (٤) آية ٣ سورة يوسف .

Marfat.com

قوله تعالى: « ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان »، على ما بينا فى سورة « الشورى »[(١)] .
وقال قوم : « ووجدك ضالا » أى فى قوم ضلال ، فهداهم الله بك . هـذا قول الكلبي والفراء . وعن السدى نحوه؛ أى ووجد قومك فى ضلال، فهداك إلى إرشادهم . وقيل : «ووجدك ضالا» عن الهجرة، فهداك إليها . وقيل : « ضالا » أى ناسيا شأن الاستثناء حين سُئلت عن أصحاب الكهف وذى القرنين والروح ، فأذكرك ؛ كما قال تعالى : « أَن تَضِلّ إحداهما »[(٢)] . وقيل : ووجدك طالبا للقبلة فهداك إليها؛ بيانه : « قد نَرَى تَقَلُّبَ وجهِك فى السماءِ »[(٣)]... الآية . ويكون الضلال بمعنى الطلب ؛ لأن الضال طالب . وقيل : ووجدك متحيرا عن بيان ما نزل عليك، فهداك إليه؛ فيكون الضلال بمعنى التحير؛ لأن الضال متحير . وقيل : ووجدك ضائعا فى قومك؛ فهداك إليه؛ ويكون الضلال بمعنى الضياع . وقيل : ووجدك محبا للهداية، فهداك إليها؛ ويكون الضلال بمعنى المحبة . ومنه قوله تعالى : « قالوا تاللهِ إنك لفِى ضلالِك القديم »[(٤)] أى فى محبتك . قال الشاعر :

هذا الضلالُ أشاب منى المفرِقا　＊　والعارِضَينِ ولم أكن متحققا[(٥)]
عجبا لعـزةَ فى آختيار قطيعتى　＊　بعـد الضلال فحبلها قد أخلقا

وقيل : « ضالا » فى شِعاب مكة، فهداك وردّك إلى جدّك عبد المطلب . قال آبن عباس : ضل النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو صغير فى شِعاب مكة، فرآه أبو جهل منصرفا عن أغنامه ، فردّه إلى جده عبد المطلب ؛ فمنّ الله عليه بذلك ، حين ردّه إلى جده على يدى عدوّه . وقال سعيد بن جبير : خرج النبيّ صلى الله عليـه وسلم مع عمه أبى طالب فى سفر، فأخذ إبليس بزمام الناقة فى ليـلة ظلماء ، فعدل بها عن الطريق ، فجاء جبريل عليه السلام ، فنفخ إبليس نفخة وقع منها إلى أرض الهنـد ، وردّه إلى القافلة؛ فمنّ الله عليه بذلك . وقال كعب : إن حليمة لمـا قضت حق الرضاع، جاءت برسول الله صلى الله عليه وسلم لتردّه على عبد المطلب،

(١) آية ٥٢ راجع جـ ١٦ ص ٥٥　　(٢) آية ٢٨٢ سورة البقرة .
(٣) آية ١٤٤ سورة البقرة .　　(٤) آية ٩٥ سورة يوسف .
(٥) المفرق (كمقعد ومجلس) : وسط الرأس . والعارض : صفحة الخد .

Marfat.com

فسمعت عند باب مكة : هنيئا لك يا بطحاء مكة ، اليوم يرد إليك النور والدين والبهاء والجمال . قالت : فوضعته لأصلح ثيابي، فسمعت هدّة شديدة، فآلتفت فلم أره، فقلت : معْشَرَ الناس ، أين الصبيّ ؟ فقالوا : لم نر شيئا ؛ فصحت : وامحمداه ! فإذا شيخ فانٍ يتوكأ على عصاه ، فقال : اذهبي إلى الصنم الأعظم ؛ فإن شاء أن يردّه عليك فعل . ثم طاف الشيخ بالصنم، وقبل رأسه وقال : يا رب، لم تزل مِنتك على قريش، وهذه السعدية تزعم أن آبنها قد ضل، فردّه إن شئت . فانكب (هُبَلُ) على وجهه، وتساقطت الأصنام، وقالت : إليك عنا أيها الشيخ ، فهلاكنا على يدى محمد . فألقى الشيخ عصاه ، وآرتعد وقال : إن لآبنكِ ربا لا يضيعه، فآطلبيه على مَهَل . فآنحشرت قريش إلى عبد المطلب، وطلبوه فى جميع مكة، فلم يجدوه . فطاف عبد المطلب بالكعبة سبعا، وتضرع إلى الله أن يردّه، وقال :

يا ربِّ رُدَّ ولدى محمـدَا * آردده ربى وآتخذ عندى يدا

يا رب إنْ محمدٌ لم يُوجدا * فشمل قومى كلهم تبدّدا

سمعوا مناديا ينادى من السماء: معاشر الناس لا تضِجوا، فإن لمحمد ربا لا يخذله ولا يضيعه، وإن محمدا بوادى تِهامة، عند شجرة السَّمُر . فسار عبد المطلب هو وورقة بن نوفل، فإذا النبيّ صلى الله عليه وسلم قائم تحت شجرة، يلعب بالأغصان وبالورق . وقيل : « ووجدك ضالا » ليلة المعراج، حين انصرف عنك جبريل وأنت لا تعرف الطريق، فهداك إلى ساق العرش . وقال أبو بكر الورّاق وغيره : « ووجدك ضالا » : تحب أبا طالب، فهداك إلى محبة ربك . وقال بسام بن عبدالله : «ووجدك ضالا» بنفسك لاتدرى من أنت، فعرفك بنفسك وحالك . وقال الجنيدى: ووجدك متحيرا فى بيان الكتاب، فعلمك البيان؛ بيانه: «لِتبين للناس ما نُزّل إليهم»[(١)]... الآية . «لِتبين لهم الذى آختلفوا فِيه»[(٢)] . وقال بعض المتكلمين: إذا وجدت العرب شجرة منفردة فى فلاة من الأرض، لا شجر معها، سموها ضالة، فيهتدى بها إلى الطريق؛ فقال الله تعالى

(١) آية ٤٤ سورة النحل .
(٢) آية ٦٤ سورة النحل .

Marfat.com

لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « ووجدك ضالاً » أى لا أحد على دينك، وأنت وحيد ليس معك أحد، فهديتُ بك الخلقَ إلىّ .

قلت : هـذه الأقوال كلها حِسان، ثم منها ما هو معنوىّ، ومنها ما هو حِسىّ . والقول الأخير أعجب إلىّ ؛ لأنه يجمع الأقوال المعنوية . وقال قوم : إنه كان على جملة ما كان القوم عليـه ، لا يُظهِر لهم خلافا على ظاهر الحال ؛ فأما الشرك فلا يُظَنّ به ؛ بل كان على مراسم القوم فى الظاهر أربعين سنة . وقال الكلبىّ والسدّىّ : هذا على ظاهره؛ أى وجدك كافرا والقوم كفار فهداك(١) . وقد مضى هذا القول والردّ عليه فى سورة « الشورى »(٢) . وقيل : وجدك مغمورا بأهل الشرك، فميزك عنهم . يقال : ضل المـاء فى اللبن، ومنه « أئذا ضَلَلْنا فى الأرض »(٣) أى لحقنا بالتراب عند الدفن، حتى كأنا لا نتميز من جملته . وفى قراءة الحسن « ووجدك ضالٌّ فهدى » أى وجدك الضال فاهتدى بك؛ وهذه قراءة على التفسير . وقيل : « ووجدك ضالا » لا يهتدى إليك قومك، ولا يعرفون قدرك؛ فهدى المسلمين إليك، حتى آمنوا بك .

قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾

أى فقيرا لا مال لك . ﴿ فأغنى ﴾ أى فأغناك بخديجة رضى الله عنها ؛ يقال : عال الرجل يعيل عَيلة : إذا افتقر . وقال أُحَيحة بن الجُلاح :

فما يَدرِى الفقيرُ متى غِناهُ * وما يدرِى الغنِىّ متى يَعِيل

أى يفتقر . وقال مقاتل : فرضّاك بما أعطاك من الرزق . وقال الكلبىّ : قنعك بالرزق . وقال ابن عطاء : ووجدك فقير النفس ، فأغنى قلبك . وقال الأخفش : وجدك ذا عيال ؛ دليله « فأغنى » . ومنه قول جرير :

اللهُ أنزلَ فى الكتاب فريضةً * لابنِ السبيل ولِلفقيرِ العائلِ

(١) مثل هذه الأقوال لا يصح نسبتها الى سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه ، ولا لأحد من الأنبياء ؛ لأن العصمة ثابتة لهم قبل النبوة وبعدها ، من الكبائر والصغائر على الصحيح . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٥٥ فما بعدها .
(٣) آية ١٠ سورة السجدة .

Marfat.com

وقيل : وجدك فقيرا من الحُجج والبراهين، فأغناك بها . وقيل : أغناك بما فتح لك من الفتوح، وأفاءه عليك من أموال الكفار . القشيري : وفي هذا نظر؛ لأن السورة مكية ، وإنما فرض الجهاد بالمدينة .

وقراءة العامة « عائلا » . وقرأ ابن السميقع « عَيِّلا » بالتشديد؛ مثل طيب وهين .

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فأما اليتيمَ فلا تَقْهَرْ ﴾ أي لا تَسَلَّطْ[1] عليه بالظلم، ادفع إليه حقه، واذكر يتمك؛ قاله الأخفش . وقيل : هما لغتان بمعنى . وعن مجاهد « فلا تقهر » فلا تَحْتَقِرْ . وقرأ النخعي والأشهب العُقَيلي « تَكْهر » بالكاف، وكذلك هو في مصحف ابن مسعود . فعلى هذا يحتمل أن يكون نهيا عن قهره، بظلمه وأخذ ماله . وخص اليتيم لأنه لا ناصر له غير الله تعالى؛ فغلَّظ في أمره، بتغليظ العقوبة على ظالمه . والعرب تعاقب بين الكاف والقاف . النحاس : وهذا غلط، إنما يقال كَهَره : إذا اشتدّ عليه وغلَّظ . وفي صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي، حين تكلم في الصلاة بردّ السلام، قال : فبأبي هو وأمي ! ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه — يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم — فوالله ما كَهَرَني، ولا ضربني، ولا شتمني ... الحديث . وقيل : القهر الغلبة . والكَهْر : الزجر .

الثانيــة — ودلت الآية على اللطف باليتيم، وبره والإحسان إليه؛ حتى قال قتادة : كن لليتيم كالأب الرحيم . وروي عن أبي هريرة أن رجلا شكا إلى النبي صلى الله عليه وسلم قسوة قلبه؛ فقال : " إن أردت أن يلين، فامسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين " . وفي الصحيح عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أنا وكافل اليتيم له أو لغيره كهاتين " .

(١) في بعض نسخ الأصل : « لا تسطو » .

Marfat.com

وأشار بالسبابة والوسطى . ومن حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن اليتيم إذا بكى اهتز لبكائه عرش الرحمن ، فيقول الله تعالى لملائكته : يا ملائكتي ، من ذا الذي أبكى هذا اليتيم الذي غيبت أباه في التراب ، فتقول الملائكة ربنا أنت أعلم ، فيقول الله تعالى لملائكته : يا ملائكتي ، اشهدوا أن من أسكته وأرضاه ؟ أن أرضيه يوم القيامة[1] " . فكان ابن عمر إذا رأى يتيما مسح برأسه ، وأعطاه شيئا . وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من ضم يتيما فكان في نفقته ، وكفاه مئونته ، كان له حجابا من النار يوم القيامة ، ومن مسح برأس يتيم كان له بكل شعرة حسنة " . وقال أكثم ابن صيفي : الأذلاء أربعة : النمام ، والكذاب ، والمديون ، واليتيم .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وأما السائل فلا تنهر ﴾ أي لا تزجره ؛ فهو نهي عن إغلاظ القول . ولكن رده ببذل يسير ، أو رد جميل ، واذكر فقرك ؛ قاله قتادة وغيره . وروى عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يمنعن أحدكم السائل ، وأن يعطيه إذا سأل ، ولو رأى في يده قلبين[2] من ذهب " . وقال إبراهيم بن أدهم : نعم القوم السؤال : يحملون زادنا إلى الآخرة . وقال إبراهيم النخعي : السائل بريد الآخرة ، يجيء إلى باب أحدكم فيقول : هل تبعثون إلى أهليكم بشيء . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ردوا السائل ببذل يسير ، أو رد جميل ، فإنه يأتيكم من ليس من الإنس ولا من الجن ، ينظر كيف صنيعكم فيما خولكم الله " . وقيل : المراد بالسائل هنا ، الذي يسأل عن الدين ؛ أي فلا تنهره بالغلظة والجفوة ، وأجبه برفق ولين ؛ قاله سفيان . قال ابن العربي : وأما السائل عن الدين فجوابه فرض على العالم ، على الكفاية ؛ كإعطاء سائل البر سواء . وقد كان أبو الدرداء ينظر إلى أصحاب الحديث ، ويبسط رداءه لهم ، ويقول : مرحبا بأحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي حديث أبي هارون العبدي ، عن أبي سعيد الخدري[3] ، قال : كنا إذا أتينا أبا سعيد يقول : مرحبا بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الناس لكم تبع

(١) كذا في الأصول ط ، ب ، ح ، ص .
(٢) القلب (بضم وسكون) : السوار .
(٣) القائل هو أبو هارون العبدي .

Marfat.com

وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا". وفى رواية "يأتيكم رجال من قبل المشرق"... فذكره. و «اليتيم» و «السائل» منصوبان بالفعل الذى بعده؛ وحق المنصوب أن يكون بعد الفاء، والتقدير: مهما يكن من شىء فلا تقهر اليتيم، ولا تنهر السائل. وروى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: "سألت ربى مسئلة وددت أنى لم أسألها: قلت يا رب اتخذت إبراهيم خليلا، وكلمت موسى تكليما، وسخرت مع داود الجبال يسبحن، وأعطيت فلانا كذا؛ فقال عز وجل: ألم أجدك يتيما فآويتك؟ ألم أجدك ضالا فهديتك؟ ألم أجدك عائلا فأغنيتك؟ ألم أشرح لك صدرك؟ ألم أوتك ما لم أوت أحدا قبلك: خواتيم سورة البقرة، ألم أتخذك خليلا، كما اتخذت إبراهيم خليلا؟ قلت بلى يا رب".

الرابعــة — قوله تعالى: ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ أى انشر ما أنعم الله عليك بالشكر والثناء. والتحدث بنعم الله، والاعتراف بها شكر. وروى ابن أبى نجيح عن مجاهد «وأما بنعمة ربك» قال بالقرآن. وعنه قال: بالنبوة؛ أى بلغ ما أرسلت به. والخطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلم، والحكم عام له ولغيره. وعن الحسن بن علىّ رضى الله عنهما قال: إذا أصبت خيرا، أو عملت خيرا، فحدث به الثقة من إخوانك. وعن عمرو بن ميمون قال: إذا لقى الرجل من إخوانه من يثق به، يقول له: رزق الله من الصلاة البارحة كذا وكذا. وكان أبو فراس عبد الله بن غالب إذا أصبح يقــول: لقــد رزقنى الله البارحة كذا، قرأت كذا، وصليت كذا، وذكرت الله كذا، وفعلت كذا. فقلنا له: يا أبا فراس، إن مثلك لا يقول هــذا! قال يقول الله تعالى: «وأما بنعمة ربك فحـدث» وتقولون أنتم: لا تحدّث بنعمة الله! ونحوه عن أيوب السختيانىّ وأبى رجاء العطاردىّ رضى الله عنهم. وقال بكر بن عبد الله المزنىّ قال النبىّ صلى الله عليه وسلم: "من أعطى خيرا فلم يُرَ عليه، سمى بغيض الله، معاديا لنعم الله". وروى الشعبىّ عن النعمان بن بشير قال: قال النبىّ صلى الله عليه وسلم: "من لم يشكر القليل، لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر النـاس، لم يشكر الله، والتحدث بالنعم شكر، وتركه كفر، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب". وروى النسائى عن مالك بن نضلة الجُشَمىّ قال: كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا، فرآنى رثّ الثياب فقال: "ألك مال؟" قلت:

Marfat.com

نعم، يا رسول الله ، من كل المـال . قال : " إذا آتاك الله مالا فلْيُرَ أثره عليك " . وروى أبو سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن الله جميل يحب الجمال، ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده " .

فصل — يكبّر القارئ في رواية البزي عن ابن كثير — وقد رواه مجاهد عن ابن عباس، عن أبيّ بن كعب، عن النبي صلى الله عليه وسلم — إذا بلغ آخر «والضحى» كبّر بين[1] كل سورة تكبيرة، إلى أن يختم القرآن، ولا يصل آخر السورة بتكبيره؛ بل يفصل بينهما بسكتة . وكأن المعنى في ذلك أن الوحي تأخر عن النبي صلى الله عليه وسلم أياما، فقال ناس من المشركين : قد ودعه صاحبه وقلاه؛ فنزلت هذه السورة فقال : " الله أكبر " . قال مجاهد : قرأت على ابن عباس، فأمرني به، وأخبرني به عن أبيّ عن النبي صلى الله عليه وسلم . ولا يكبّر في قراءة الباقين؛ لأنها ذريعة إلى الزيادة في القرآن .

قلت : القرآن ثبت نقلا متواترا سوره وآياته وحروفه؛ لا زيادة فيه ولا نقصان؛ فالتكبير على هذا ليس بقرآن . فإذا كان بسم الله الرحمن الرحيم المكتوب في المصحف بخط المصحف ليس بقرآن، فكيف بالتكبير الذي هو ليس بمكتوب . أما أنّه ثبت سنة بنقل الآحاد، فاستحبه ابن كثير، لا أنه أوجبه فخطأ من تركه . ذكر الحاكم أبو عبدالله محمد بن عبد الله الحافظ في كتاب «المستدرك» له على البخاري ومسلم : حدثنا أبو يحيى محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن يزيد، المقرئ الإمام بمكة، في المسجد الحرام، قال : حدثنا أبو عبد الله محمد بن علي بن زيد الصائغ، قال : حدثنا أحمد بن محمد بن القاسم بن أبي بزة : سمعت عكرمة بن سليمان يقول : قرأت على إسماعيل بن عبـد الله بن قسطنطين، فلما بلغت « والضحى » قال لي كبر عند خاتمة كل سورة حتى تختم، فإني قرأت على عبد الله بن كثير فلمـا بلغت « والضحى » قال : كبر حتى تختم . وأخبره عبد الله بن كثير أنه قرأ على مجاهد، وأخبره مجاهد أن ابن عباس أمره بذلك، وأخبره ابن عباس أن أُبَيّ بن كعب أمره بذلك، وأخبره أُبَيّ بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره بذلك . هذا حديث صحيح ولم يخرجاه .

(١) كذا في الأصول ، ولعل اللفظ (بعد) في مكان (بين) .

Marfat.com

ســورة « ألم نشرح »

مكية فى قول الجميع . وهى ثمانى آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾

شرح الصدر : فتحه ؛ أى ألم نفتح صدرك للإسلام . وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : ألم نُلين لك قلبك . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : قالوا يا رسول الله، أينشرح الصدر ؟ قال : " نعم وينفسح " . قالوا : يارسول الله، وهل لذلك علامة ؟ قال : " نعم التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود، والاعتداد للموت ، قبل نزول الموت". وقد مضى هذا المعنى فى « الزمر »[1] عند قوله تعالى : « أفمن شرح الله صدره للإسلامِ فهو على نورٍ من ربه » . وروى عن الحسن قال : « ألم نشرح لك صدرك» قال : مُلئ حكما وعلما . وفى الصحيح[2] عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة — رجلٍ من قومه — أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " فبينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان إذ سمعت قائلا يقول : أحد الثلاثة[3] فأُتِيت بطَسْت من ذهب، فيها ماء زمزم، فشرح صدرى إلى كذا وكذا" قال قتادة قلت : مايعنى؟ قال: إلى أسفل بطنى، قال: " فاستخرج قلبي، فغُسِل قلبي بماء زمزم، ثم أعيد مكانه ، ثم حُشِى إيمانا وحكمة " . وفى الحديث قِصة . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " جاءنى ملكان فى صورة طائر ، معهما ماء وثلج ، فشرح أحدهما صدرى ، وفتح

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٧ (٢) وهذه رواية الترمذى فى كتاب التفسير . (٣) فى صحيح مسلم : «أحد الثلاثة بين الرجلين » روى أنه صلى الله عليه وسلم كان نائما معه حينئذ عمه حمزة بن عبد المطلب وابن عمه جعفر ابن أبى طالب . راجع شرح هذا الحديث فى صحيح مسلم (باب الإسراء) . وفى شرح القسطلانى فى كتاب بدء الخلق (باب ذكر الملائكة) .

Marfat.com

الآخر بمنقاره فيه فغسله " . وفى حديث آخر قال : " جاءنى مَلَك فشق عن قلبى ، فاستخرج منه عذرة[١] ، وقال : قلبك وكيع ، وعيناك بصيرتان ، وأذناك سميعتان ، أنت محمد رسول الله ، لسانك صادق ، ونفسك مطمئنة ، وخلقك قُثَم ، وأنت قيم " . قال أهل اللغة : قوله " وكيع أى يحفظ ما يوضع فيه . يقال : سِقاء وكيع ؛ أى قوى يحفظ ما يوضع فيه . وآستوكعتْ معدته ، أى قويت . وقوله " قُثَم " أى جامع . يقال : رجل قَثوم للخير ؛ أى جامع له . ومعنى « ألم نشرح » قد شرحنا ؛ الدليل على ذلك قوله فى النسَق عليه : « ووضعنا عنك وِزرك » ، فهذا عطف على التأويل ، لا على التنزيل ؛ لأنه لو كان على التنزيل لقال : ونضع عنك وِزرك . فدل هذا على أن معنى « ألم نشرح » : قد شرحنا . و « لم » جحد ، وفى الاستفهام طرف من الجحد ، وإذا وقع جحد ، رجع إلى التحقيق ؛ كقوله تعالى : « أليس الله بِأحكم الحاكمين »[٢] ومعناه : الله أحكم الحاكمين . وكذا « أليس الله بكاف عبده »[٣] . ومثله قول جرير يمدح عبد الملك ابن مروان :

ألستم خيرَ من ركب المطايا * وأندى العالمين بطونَ راح

المعنى : أنتم كذا .

قوله تعالى : وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ ووضعنا عنك وِزْرَك ﴾ ، أى حططنا عنك ذنبك . وقرأ أنس « وحللنا ، وحطَطْنا » . وقرأ ابن مسعود : « وحللنا عنك وِقرك » . هذه الآية مثل قوله تعالى : « لِيغفر لك الله ما تقدّم مِن ذنبِك وما تأخر »[٤] . قيل : الجميع كان قبل النبوّة . والوِزْر : الذنب ؛ أى وضعنا عنك ما كنت فيه من أمر الجاهلية ؛ لأنه كان صلى الله عليه وسلم فى كثير من مذاهب قومه ، وإن لم يكن عبدَ صنما ولا وثنا . قال قتادة والحسن والضحاك : كانت للنبيّ صلى الله عليه وسلم ذنوب أثقلته ؛ فغفرها الله له . ﴿ الذى أَنْقَض ظَهْـرَك ﴾ أى أثقله حتى سمع

(١) كذا فى بعض نسخ الأصل . وفى بعضها الآخر : « غدرة » بالغين المعجمة والدال المهملة . ولم نقف على هذا اللفظ لغير القرطبي . ولعله محرف عن (علقة) . (٢) آية ٨ سورة التين . (٣) آية ٣٦ سورة الزمر . (٤) آية ٢ سورة الفتح .

Marfat.com

نقيضه ؛ أى صوته . وأهل اللغة يقولون : أنقض الحمل ظهر الناقة : إذا سمعت له صريرا من شدة الحمل . وكذلك سمعت نقيض الرحل ؛ أى صريره . قال جميل :

وحتى تداعتْ بالنقيض حِبالُه * وهمتْ بَوانِي زَوْرِه أن تَحطَّمَا

« بَوانِي زوره » : أى أصول صدره . فالوِزر : الحمل الثقيل . قال المحاسبي : يعنى ثِقل الوِزر لو لم يعف الله عنه . ﴿ الذى أنقضَ ظهرَك ﴾ أى أثقله وأوهنه . قال : وإنما وصفت ذنوب الأنبياء بهذا الثقل ، مع كونها مغفورة ، لشدّة اهتمامهم بها ، وندمهم منها ، وتحسرهم عليها . وقال السُّدّى : « ووضعنا عنك وِزرك » أى وحططنا عنك ثِقلك . وهى فى قراءة عبد الله ابن مسعود «وحططنا عنك وِقرك» (١) . وقيل : أى حططنا عنك ثقل آثام الجاهلية . قال الحسين ابن الفضل : يعنى الخطأ والسهو . وقيل : ذنوب أمتك ، أضافها إليه لاشتغال قلبه بها . وقال عبد العزيز بن يحيى وأبو عبيدة : خففنا عنك أعباء النبوّة والقيام بها ، حتى لا تثقل عليك . وقيل : كان فى الابتداء يثقل عليه الوحى ، حتى كاد يرمى نفسه من شاهق الجبل ، إلى أن جاءه جبريل وأراه نفسه ؛ وأزيل عنه ما كان يخاف من تغير العقل . وقيل : عصمناك عن احتمال الوزر ، وحفظناك قبل النبوّة فى الأربعين من الأدناس ؛ حتى نزل عليك الوحى وأنت مطهر من الأدناس .

قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾

قال مجاهد : يعنى بالتأذين . وفيه يقول حسان بن ثابت :

أَغَرُّ عليه للنبوّة خاتَمٌ * من الله مشهود يلوح ويُشْهَدُ

وضمّ الإله اسم النبىّ إلى اسمه * إذا قال فى الخمس المؤذنُ أَشْهَدُ

ورُوِى عن الضحاك عن ابن عباس ، قال : يقول له لا ذُكِرتُ إلا ذُكِرتَ معى فى الأذان ، والإقامة والتشهد ، ويوم الجمعة على المنابر ، ويوم الفطر ، ويوم الأضحى : وأيام التشريق ،

---

(١) فى شواذ ابن خالويه : « وحططنا عنك وزرك » عن أنس بن مالك . « وحللنا وحططنا » جميعا عنه ، وعن ابن مسعود .

Marfat.com

ويوم عرفة ، وعند الجمار ، وعلى الصفا والمروة ، وفى خطبة النكاح ، وفى مشارق الأرض ومغاربها . ولو أن رجلا عبد الله جل ثناؤه ، وصدّق بالجنة والنار وكل شيء ، ولم يشهد أن محمدا رسول الله، لم ينتفع بشيء وكان كافرا . وقيل : أى أعلينا ذكرك، فذكرناك فى الكتب المنزلة على الأنبياء قبلك ، وأمرناهم بالبشارة بك، ولا دين إلا ودينك يظهر عليه . وقيل : رفعنا ذكرك عند الملائكة فى السماء ، وفى الأرض عند المؤمنين ، ونرفع فى الآخرة ذكرك بما نعطيك من المقام المحمود ، وكرائم الدرجات .

قوله تعالى : فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾

أى إن مع الضِّيقة والشدّة يسرا، أى سعة وغنى . ثم كرر فقال : ﴿ إنَّ مَعَ العسر يُسرًا ﴾، فقال قوم : هذا التكرير تأكيد للكلام؛ كما يقال : ارم ارم، اعجَل اعجَلْ؛ قال الله تعالى : «كلا سوف تعلمون . ثم كلا سوف تعلمون» (١) . ونظيره فى تكرار الجواب : بلى بلى، لا، لا. وذلك للإطناب والمبالغة؛ قاله الفراء . ومنه قول الشاعر :

همَمتُ بنفسِيَ بعضَ الهموم (٢) * فأولَى لنفسِيَ أولَى لها

وقال قوم : إن من عادة العرب إذا ذكروا آسما معرّفا ثم كرّروه، فهو هو . وإذا نكّروه ثم كرّروه فهو غيره . وهما آثنان ، ليكون أقوى للأمل ، وأبعث على الصبر؛ قاله ثعلب . وقال آبن عباس : يقول الله تعالى خلقت عُسْرا واحدا ، وخلقت يُسْرين ، ولن يغلب عسر يسرين . وجاء فى الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى هذه السورة : أنه قال : "لن يغلب عسر يسرين" (٣) . وقال آبن مسعود : والذى نفسى بيده، لو كان العسر فى حَجَر، لطلبه اليسر حتى يدخل عليه ؛ ولن يغلب عسر يسرين . وكتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعا من الروم، وما يُتخوّف منهم؛ فكتب إليه عمر رضى الله عنهما: أما بعد، فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من مَنزِل شِدّة، يجعل الله بعده فرجا، وإنه لن يغلب عسر يسرين، وإن الله تعالى يقول فى كتابه : « يأيها الذين آمنوا آصبروا وصابروا ورابطوا

(١) آية ٣ سورة التكاثر . (٢) البيت للخنساء . ويروى : * هممت بنفسى كل الهموم *
(٣) أى فى روايته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

Marfat.com

واتقوا الله لعلكم تفلحون » . وقال قوم منهم الجُرْجَانِيّ[1] : هذا قول مدخول ؛ لأنه يجب على هذا التدريج إذا قال الرجل : إن مع الفارس سيفا ، إن مع الفارس سيفا ، أن يكون الفارس واحدا والسيف اثنان . والصحيح أن يقال : إن الله بعث نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم مُقِلًّا مُخِفًّا ، فعيره المشركون بفقره ، حتى قالوا له : نجمع لك مالا ؛ فاغتم وظنّ أنهم كذبوه لفقره ؛ فعزّاه الله ، وعدد نِعمه عليه ، ووعده الغنى بقوله : « فإنّ مع العسر يسرا » أى لا يحزنك ما عيروك به من الفقر ؛ فإن مع ذلك العسر يسرا عاجلا ؛ أى فى الدنيا . فأنجزله ما وعده ؛ فلم يمت حتى فَتَح عليه الحجاز واليمن ، ووسَّع ذات يده ، حتى كان يعطى الرجل المائتين من الإبل ، ويهب الهبات السنية ، ويُعِدّ لأهله قوت سنة . فهذا الفضل كله من أمر الدنيا ؛ وإن كان خاصا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقد يدخل فيه بعض أمته إن شاء الله تعالى . ثم ابتدأ فضلا آخرا من الآخرة وفيه تأسية وتعزية له صلى الله عليه وسلم ، فقال مبتدئا : « إنّ مع العسر يسرا » فهو شىء آخر . والدليل على ابتدائه ، تعريه من فاء أو واو أو غيرها من حروف النَّسق التى تدل على العطف . فهذا وعد عام لجميع المؤمنين ، لا يخرج أحد منه ؛ أى إن مع العسر فى الدنيا للؤمنين يسرا فى الآخرة لا محالة . وربما اجتمع يسر الدنيا ويسر الآخرة . والذى فى الخبر : " لن يغلب عسر يسرين " يعنى العسر الواحد لن يغلبهما ، وإنما يغلب أحدهما إن غلب ، وهو يسر الدنيا ؛ فأما يسر الآخرة فكائن لامحالة ، ولن يغلبه شىء . أو يقال : « إن مع العسر » وهو إخراج أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة « يسرا » ، وهو دخوله يوم فتح مكة مع عشرة آلاف رجل ، مع عِز وشرف .

قوله تعالى : فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿فإذا فرغتَ﴾ قال ابن عباس وقتادة : فإذا فرغت من صلاتك ﴿فانصبْ﴾ أى بالغ فى الدعاء وسله حاجتك . وقال ابن مسعود : إذا فرغت من الفرائض

---

(١) آية سورة آل عمران .

فانصَبْ فى قيام الليل . وقال الكلبيّ : إذا فرغت من تبليغ الرسالة « فانصَب » أى آستغفر لذنبك وللؤمنين والمؤمنات . وقال الحسن وقتادة أيضا : إذا فرغت من جهاد عدوك ، فانصب لعبادة ربك . وعن مجاهد : « فإذا فرغت » من دنياك ، «فآنصب» فى صلاتك . ونحوه عن الحسن . وقال الجنيد : إذا فرغت من أمر الخلق ، فاجتهد فى عبادة الحق . قال آبن العربى : « ومن المبتدعة من قرأ هذه الآية « فانْصِب » بكسر الصاد، والهمزُ[(1)] من أوله ، وقالوا : معناه : انصِب الإمام الذى تستخلفه . وهذا باطل فى القراءة، باطل فى المعنى ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يستخلف أحدا . وقرأها بعض : الجهال «فانْصَبّ» بتشديد الباء، معناه : إذا فرغت من الجهاد ، فجِدّ فى الرجوع إلى بلدك . وهذا باطل أيضا قراءة ، لمخالفة الإجماع، لكن معناه صحيح ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " السفر قطعة من العذاب، يمنع أحدَكم نومَه وطعامه وشرابه ، فإذا قضى أحدكم نَهْمَته، فليعجل الرجوع إلى أهله " . وأشدّ الناس عذابا وأسوأهم مباء ومآبا ، من أخذ معنى صحيحا ، فركب عليه مِن قِبَل نفسه قراءة أو حديثا ، فيكون كاذبا على الله ، كاذبا على رسوله ؛ ومن أظلم ممن آفترى على الله كذبا » .

قال المهدويّ : وروى عن أبى جعفر المنصور : أنه قرأ « ألم نشرحَ لك صدرك » بفتح الحاء؛ وهو بعيد، وقد يؤوّل على تقدير النون الخفيفة، ثم أبدلت النون ألفا فى الوقف، ثم حُمِل الوصل على الوقف ، ثم حذف الألف . وأنشد عليه :

اضْربَ عنك الهمومَ طارِقَها * ضربك بالسوط قَوْنَس الفَرَسْ[(2)]

أراد : اضربَنْ . ورُوى عن أبى السَّمال « فإذا فرِغت » بكسر الراء ، وهى لغة فيه . وقرئ « فرغِّب » أى فرغب الناس إلى ما عنده .

الثانية — قال آبن العربيّ : « روى عن شُريح أنه مر بقوم يلعبون يوم عيد، فقال ما بهذا أمر الشارع . وفيه نظر، فإن الحَبَش كانوا يلعبون بالدّرق والحراب فى المسجد يوم

(١) أى همز الوصل لا القطع ، لأن ماضيه ثلاثى : (نصب ينصب) .
(٢) قونس الفرس : ما بين أذنيه . وقيل مقدم رأسه . والبيت لطرفة ، و يقال إنه مصنوع عليه .

Marfat.com

العيد، والنبي صلى الله عليه وسلم ينظر . ودخل أبو بكر في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على عائشة رضى الله عنها وعندها جاريتان من جوارى الأنصار تغنيان؛ فقال أبو بكر: أبمزمور الشيطان فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: "دعهما يا أبا بكر، فإنه يوم عيد". وليس يلزم الدءوب على العمل، بل هو مكروه للخلق » .

تفسير سورة « والتين »

مكية فى قول الأكثر . وقال ابن عباس وقتادة : هى مدنية ، وهى ثمانى آيات .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ والتينِ والزيتونِ ﴾ قال ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وإبراهيم النخعي وعطاء بن أبي رباح وجابر بن زيد ومقاتل والكلبي: هو تينكم الذى تأكلون، وزيتونكم الذى تعصرون منه الزيت؛ قال الله تعالى : « وشجرةً تخرج من طورِ سَيْناء تَنْبُتُ بِالدُّهنِ وصِبْغٍ لِلآكِلِين »(١) . وقال أبو ذر : أُهدِى للنبي صلى الله عليه وسلم سَلُّ تِين؛ فقال : "كلوا" وأكل منه . ثم قال : "لو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة، لقلت هذه، لأن فاكهة الجنة بلا عَجَم(٢) ، فكلوها فإنها تقطع البواسير ، وتنفع من النقرس" . وعن معاذ : أنه استاك بقضيب زيتون ، وقال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : "نِعم السواك الزيتون ! من الشجرة المباركة، يطيب الفم، و يذهب بالحفر(٣)، وهى سواكى وسواك الأنبياء من قبلى" .

وروى عن ابن عباس أيضا : التين : مسجد نوح عليه السلام الذى بُنِى على الجودى ، والزيتون : مسجد بيت المقدس . وقال الضحاك : التين : المسجد الحرام، والزيتون المسجد

(١) آية ٢٠ سورة المؤمنون . (٢) العجم (بالتحريك) : النوى .
(٣) الحفر (بفتح الحاء وسكون الفاء وفتحها) : صفرة تعلو الأسنان .

Marfat.com

الأقصى . ٱبن زيد : التين : مسجد دمشق ، والزيتون : مسجد بيت المقدس ، قتادة : التين : الجبل الذى عليه دمشق : والزيتون : الجبل الذى عليه بيت المقدس ، وقال محمد بن كعب : التين : مسجد أصحاب الكهف ، والزيتون : مسجد إيلياء . وقال كعبُ الأحبارِ وقتادة أيضا وعكرمة وٱبن زيد : التين : دمشق ، والزيتون : بيت المقدس . وهـذا اختيار الطبرى . وقال الفراء : سمعت رجلا من أهل الشام يقول : التين : جبال ما بين حُلْوان إلى هَمَذان ، والزيتون : جبال الشام . وقيل : هما جبلان بالشام ، يقال لهما طور زيتا وطور تِينا (بالسريانية) سميا بذلك لأنهما ينبتانهما . وكذا روى أبو مِكين عن عكرمة ، قال : التين والزيتون : جبلان بالشام . وقال [النابغة] :

* ... أَتَيْنَ التِّينَ عَنْ عُرُضٍ[1] *

وهذا ٱسم موضع . ويجوز أن يكون ذلك على حذف مضاف ؛ أى ومنابت التين والزيتون . ولكن لا دليل على ذلك من ظاهر التنزيل ، ولا من قول من لا يجوز خلافه ؛ قاله النحاس .

الثانيـة — أصح هذه الأقوال الأول ؛ لأنه الحقيقة ، ولا يُعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا بدليل . وإنما أقسم الله بالتين ، لأنه كان سِتر آدم فى الجنة ؛ لقوله تعالى : « يَخْصِفانِ عليهما مِن ورقِ الجنةِ »[2] وكان ورق التين . وقيـل : أقسم به ليبين وجه المِنة العظمى فيه ؛ فإنه جميل المنظر ، طيب المخبَر ، نَشِر[3] الرائحة ، سهل الجَنْى ، على قدر المضغة . وقد أحسن القائل فيه :

انظر إلى التين فى الغصون ضُحًى * ممزق الجِـلد مائل العُنُـقِ
كأنه ربّ نِعمـةٍ سُلِبت * فعاد بعد الجديد فى الخَلَقِ
أصغر ما فى النهود أكبره * لَكِنْ يُنَادَى عليه فى الطرقِ

(١) البيت بتمامه كما فى كتاب الملاحن لابن دريد وشعراء النصرانية :
صهب الظلال أتين التين عن عرض * يزجين غيما قليـلا ماؤه شبما
والصهب والصهبة : الحمرة . والعرض : الاعتراض ، أو الجانب . ويزجين : يسقن . والشبم ، البارد . والبيت فى وصف سحائب لا ماء فيها . وقد نسبه المؤلف لزهير .
(٢) آية ٢٢ سورة الأعراف .
(٣) كذا فى الأصول ، ولم نجده فى معاجم اللغة .

Marfat.com

وقال آخر :

التين يعدل عندى كل فاكهة * إذا انثنى مائلا فى غصنه الزاهى
مخمّش الوجه قد سالت حلاوته * كأنه راكع من خشية الله

وأقسم بالزيتون لأنه مثّل به إبراهيم فى قوله تعالى : « يوقد من شجرة مباركة زيتونة »(١) . وهو أكثر أُدُم أهل الشام والمغرب؛ يصطبغون به(٢)، ويستعملونه فى طبيخهم، ويستصبحون به، ويداوى به أدواء الجوف والقروح والجراحات، وفيه منافع كثيرة . وقال عليه السلام : "كلوا الزيت وادّهنوا به فإنه من شجرة مباركة"(٣) . وقد مضى فى سورة «المؤمنون» القول فيه.

الثالثة — قال ابن العربى : ولامتنان البارئ سبحانه، وتعظيم المنة فى التين، وأنه مُقتات مدخر [فلذلك](٤) قلنا بوجوب الزكاة فيه . وإنما فر كثير من العلماء من التصريح بوجوب الزكاة فيه، تقية جور الولاة؛ فإنهم يتحاملون فى الأموال الزكاتية، فيأخذونها مغرما، حَسْب ما أنذر به الصادق صلى الله عليه وسلم . فكره العلماء أن يجعلوا لهم سبيلا إلى مال آخر يتشططون فيه، ولكن ينبغى للمرء أن يخرج عن نعمة ربه، بأداء حقه . وقد قال الشافعى لهذه العلة وغيرها : لا زكاة فى الزيتون . والصحيح وجوب الزكاة فيهما(٥) .

قوله تعالى : وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾

روى ابن أبى نجيح عن مجاهد «وطور» قال : جبل . «سينين» قال : مبارك (بالسريانية). وعن عكرمة عن ابن عباس قال : « طور » جبل، و «سينين» حسن . وقال قتادة : سينين هو المبارك الحسن . وعن عكرمة قال : الجبل الذى نادى الله جل ثناؤه منه موسى عليه السلام. وقال مقاتل والكلبى : « سينين » كل جبل فيه شجر مثمر، فهو سينين وسيناء؛ بلغة النبط . وعن عمرو بن ميمون قال : صليت مع عمر بن الخطاب العشاء بمكة، فقرأ « والتين والزيتون .

---

(١) آية ٣٥ سورة النور . راجع جـ ١٢ ص ٢٦٣ . (٢) أى يأتدمون به .
(٣) راجع جـ ١٢ ص ١١٦ . (٤) زيادة عن ابن العربى .
(٥) فى نسخ الأصل : « فيها » .

Marfat.com

وطور سيناء . وهذا البلد الأمين » قال : وهكذا هى فى قراءة عبد الله؛ ورفع صوته تعظيما للبيت . وقرأ فى الركعة الثانية : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ » و « لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ » جمع بينهما . ذكره ابن الأنبارى . النحاس : وفى قراءة عبد الله «سِيناء» (بكسر السين)، وفى حديث عمرو بن ميمون عن عُمر (بفتح السين). وقال الأخفش : «طُور» جبل . و«سِينِينَ» شجر، واحدته سِينِينَة . وقال أبو علىّ : « سِينِين » فِعليل ، فكررت اللام التى هى نون فيه ، كما كررت فى زِحليل : للمكان الزلِق ، وكِرديدة : للقطعة من التمر ، وخِنذيذ : للطويل . ولم ينصرف «سينين» كما لم ينصرف سِيناء؛ لأنه جعل اسما لبقعة أو أرض ، ولو جعل اسما للمكان أو للمنزل أو اسم مذكر لانصرف؛ لأنك سميت مذكرا بمذكر . وإنما أقسم بهذا الجبل لأنه بالشام والأرض المقدّسة، وقد بارك الله فيهما؛ كما قال : « إلى المسجِد الأقصى الذى باركنا حوله » .

قوله تعالى : وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾

يعنى مكة . سماه أمينا لأنه آمن؛ كما قال : « أنَّا جَعَلْنا حَرَمًا آمِنًا[(١)] » فالأمين : بمعنى الآمن؛ قاله الفرّاء وغيره . قال الشاعر :

أَلَمْ تعلَمِى يا أَسْمُ وَيْحَكِ أَنَّنِى * حَلَفْتُ يَمِينًا لا أَخُونُ أَمِينِى

يعنى : آمِنى . وبهذا احتج من قال : إنه أراد بالتين دمشق، وبالزيتون بيت المقدس . فأقسم الله بجبل دِمَشق ، لأنه مأوى عيسى عليه السلام ، وبجبل بيت المقدس، لأنه مَقَام الأنبياء عليهم السلام ، وبمكة لأنها أَثَر إبراهيم ودار محمد صلى الله عليهما وسلم .

قوله تعالى : لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خلقنا الإنسانَ ﴾ هذا جواب القسم ، وأراد بالإنسان : الكافر . قيل : هو الوليد بن المُغيرة . وقيل : كَلَدَة بن أَسِيد . فعلى هذا نزلت فى مُنكرى

(١) آية ٦٧ سورة العنكبوت .

البعث . وقيـل : المراد بالإنسان آدم وذريته . ﴿ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ وهو اعتداله واستواء شبابه ؛ كذا قال عامة المفسرين. وهو أحسن ما يكون ؛ لأنه خلق كل شيء مُنْكَبًا على وجهه ، وخلقه هو مستويا ، وله لسان ذَلِق ، ويد وأصابع يقبض بها . وقال أبو بكر بن طاهر: مزينا بالعقل ، مؤدِّيا للأمر ، مَهْديًّا بالتمييز ، مديد القامة ؛ يتناول مأكوله بيده . ابن العربي : « ليس لله تعـالى خلق أحسنُ من الإنسان ، فإن الله خلقه حيا عالِما ، قادرا مريدا متكلما ، سميعا بصـيرا ، مدبرا حكيما . وهذه صفات الرب سـبحانه ، وعنها عبّر بعض العلماء ، ووقع البيان بقـوله : " إن الله خلق آدم على صُورته " يعني على صـفاته التي قدمنا ذكرها . وفي رواية " على صورة الرحمن " ومن أين تكون للرحمن صورة متشخصة ، فلم يبق إلا أن تكون معاني » . وقد أخبرنا المبارك بن عبد الجبار الأزدي قال : أخبرنا القاضي أبو القاسم عليّ بن أبي علي القاضي المحسِّن عن أبيـه قال : كان عيسى بن موسى الهاشمي يحب زوجته حبا شديدا فقال لها يوما : أنت طالق ثلاثا إن لم تكوني أحسن من القمر؛ فنهضت واحتجبت عنه ، وقالت : طلقتني ! . وبات بليـلة عظيمة ، فلما أصبح غدا إلى دار المنصور ، فأخبره الخـبر ، وأظهر للمنصور جزعا عظيما ؛ فاستحضر الفقهاء واستفتاهم . فقـال جميع من حضر : قد طلقت ؛ إلا رجلا واحدا من أصحاب أبي حنيفة ، فإنه كان ساكتا . فقال له المنصور : مالك لا تتكلم؟ فقال له الرجل : بسم الله الرحمن الرحيم « والتينِ والزيتونِ . وطورِ سينِين . وهذا البلد الأمينِ . لقد خلقنا الإنسان في أحسنِ تقويمٍ » . يا أمير المؤمنين ، فالإنسان أحسن الأشياء ، ولا شيء أحسن منه . فقال المنصور لعيسى بن موسى : الأمر كما قال الرجل ، فأقبلْ على زوجتك . وأرسل أبو جعفر المنصور إلى زوجة الرجل : أن أطيعي زوجك ولا تعصيه ، فما طلقك .

فهذا يدلك على أن الإنسـان أحسن خلق الله باطنا وظاهرا ، جمـال هيئة ، وبديع تركيب : الرأس بمـا فيه ، والصدر بمـا جمعه ، والبطن بمـا حواه ، والفرج وما طواه ، واليدان وما بطشتاه ، والرجلان وما احتملتاه . ولذلك قالت الفلاسفة : إنه العالَم الأصغر؛ إذ كل ما في المخلوقات جمع فيه[1] .

---

(١) في بعض نسخ الأصل وابن العربي : « أجمع فيه » .

Marfat.com

الثانية — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ أى إلى أرذل العمر، وهو الهَرَم بعد الشباب، والضعف بعد القوة، حتى يصير كالصبيّ فى الحال الأول؛ قاله الضحاك والكلبيّ وغيرهما . وروى ابن أبى نجيح عن مجاهد: «ثم رددناه أسفل سافلين» إلى النار، يعنى الكافر، وقاله أبو العالية . وقيل: لما وصفه الله بتلك الصفات الجليلة التى رُكِّب الإنسان عليها، طغى وعلا، حتى قال : «أنا ربكم الأعلى»[1] وحين علم الله هذا من عبده، وقضاؤه صادر من عنده، ردّه أسفل سافلين؛ بأن جعله مملوءا قَذَرا، مشحونا نجاسة، وأخرجها على ظاهره إخراجا منكرا، على وجه الاختيار تارة، وعلى وجه الغَلَبة أخرى، حتى إذا شاهد ذلك من أمره، رجع إلى قدره . وقرأ عبد الله «أسفلَ السّافلين» . وقال: «أسفل سافلين» على الجمع؛ لأن الإنسان فى معنى جمع، ولو قال : أسفل سافلٍ جاز؛ لأن لفظ الإنسان واحد . وتقول : هذا أفضل قائم . ولا تقول أفضل قائمين؛ لأنك تضمر لواحد، فإن كان الواحد غير مُضْمَر له، رجع اسمه بالتوحيد والجمع؛ كقوله تعالى: «والّذِى جاءَ بِالصدقِ وصَدَّق بِهِ أولئكَ هُمُ المتّقون»[2] . وقوله تعالى : «وإنّا إذا أذقنا الإنسانَ منّا رحمةً فَرِحَ بِها وإنْ تُصِبْهُمْ سَيّئةٌ»[3] . وقد قيل: إن معنى «رددناه أسفلَ سافلين» أى رددناه إلى الضلال؛ كما قال تعالى : «إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات» أى إلا هؤلاء، فلا يردون إلى ذلك . والاستثناء على قول من قال «أسفلَ سافلين» : النار، متصل . ومن قال : إنه الهَرَم فهو منقطع .

قوله تعالى : إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِلّا الّذِينَ آمنُوا وعَمِلوا الصّالِحاتِ ﴾ فإنّه تكتب لهم حسناتهم، وتُمحَى عنهم سيئاتهم ؛ قاله ابن عباس . قال : وهم الذين أدركهم الكِبَر، لا يؤاخذون بما عملوه فى كِبَرهم .

---

(١) آية ٢٤ سورة النازعات .　(٢) آية ٣٣ سورة الزمر .　(٣) آية ٤٨ سورة الشورى .

Marfat.com

وروى الضحاك عنه قال : إذا كان العبد فى شبابه كثير الصلاة كثير الصيام والصدقة ، ثم ضَعُف عما كان يعمل فى شبابه ؛ أجرى الله عز وجل له ما كان يعمل فى شبابه . وفى حديث قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إذا سافر العبدُ أو مَرِض كتبَ اللهُ له مثلَ ما كان يَعمَلُ مُقيما صحيحا " . وقيل : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » فإنه لا يَخْرَف ولا يهرم[1] ، ولا يذهب عقل من كان عالما عاملا به . وعن عاصم الأحول عن عكرمة قال : من قرأ القرآن لم يردّ إلى أرذل العمر . وروى عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "طُوبَى لمن طال عمره وحسن عمله" . وروى : إن العبد المؤمن إذا مات أمر الله مَلَكيه[2] أن يتعبدا على قبره إلى يوم القيامة ، ويكتب له ذلك .

قوله تعالى : ﴿ فلهمْ أجرٌ غيرُ ممْنُونٍ ﴾ قال الضحاك : أجر بغير عمل . وقيل مقطوع .

قوله تعالى : فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾

قيل : الخطاب للكافر ؛ توبيخا وإلزاما للحجة . أى إذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك فى أحسن تقويم ، وأنه يردك إلى أرذل العمر ، وينقلك من حال إلى حال ؛ فما يحملك على أن تُكَذِّب بالبعث والجزاء ، وقد أخبرك محمد صلى الله عليه وسلم به ؟ وقيل : الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أى استيقنْ مع ما جاءك من الله عز وجل ، أنه أحكم الحاكمين . رُوِى معناه عن قتادة . وقال قتادة أيضا والفراء : المعنى فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا البيان بالدين . واختاره الطبري . كأنه قال : فمن يقدر على ذلك ؛ أى على تكذيبك بالثواب والعقاب ، بعد ما ظهر من قدرتنا على خلق الإنسان والدّين والجزاء . قال الشاعر :

دِنّا تميما كما كانتْ أوائلُنا * دانتْ أوائلَهمْ فى سالف الزمنِ[3]

(١) فى حاشية الجمل نقلا عن القرطبي : « فهم لا يخرفون ولا تذهب عقولهم » .

(٢) فى بعض نسخ الأصل : « ملائكة » وفى بعضها : « ملكين » .

(٣) فى تفسير الشوكانى ، طبعة مصطفى البابى الحلبى (٥ : ٤٠٣) : من سالف .

قوله تعالى : أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾

أى أتقن الحاكمين صنعا فى كل ماخلق . وقيل : « بأحكم الحاكمين » قضاء بالحق، وعدلا بين الخلق . وفيه تقدير لمن اعترف من الكفار بصانع قديم . وألف الاستفهام إذا دخلت على النفى وفى الكلام معنى التوقيف صار إيجابا ؛ كما قال :

* أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا(١) *

وقيل : « فما يُكَذِّبُكَ بعدُ بِالدينِ . أليسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحاكِمِين » : منسوخة بآية السيف . وقيل : هى ثابتة ؛ لأنه لاتنافى بينهما . وكان ابن عباس وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما إذا قرأا « أليس الله بأحكم الحاكمين » قالا : بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين؛ فيختار ذلك . والله أعلم . ورواه الترمذى عن أبى هريرة قال : من قرأ سورة « والتين والزيتون » فقرأ « أليسَ اللهُ بأحكم الحاكِمِينَ » فليقل : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين . والله أعلم .

سورة « العَلَق »

وهى مكية بإجماع ، وهى أول ما نزل من القرآن ، فى قول أبى موسى وعائشة رضى الله عنهما . وهى تسع عشرة آية .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾

هذه السورة أول مانزل من القرآن، فى قول معظم المفسرين . نزل بها جبريل على النبى صلى الله عليه وسلم وهو قائم على حراء، فعلمه خمس آيات من هذه السورة . وقيل : إن أول ما نزل « يأيها المُدَّثِّر » ، قاله جابر بن عبد الله ؛ وقد تقدم(٢) . وقيل : فاتحة الكتاب أول مانزل؛ قاله أبو مَيْسَرة الهَمْدانى . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : أول مانزل من القرآن

(١) من قصيدة لجرير يمدح عبد الملك بن مروان . وتمامه : * وأندى العالمين بطون راح *

(٢) راجع جـ ١٩ ص ٥٨ من الطبعة الأولى وجـ ١٩ ص ٥٩ من الطبعة الثانية .

Marfat.com

« قل تعالوا أتل ماحرّم ربكم عليكم[(١)] » والصحيح الأول . قالت عائشة : أول مابدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصادقة[(٢)] ؛ فجاءه الملك فقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم » . خرجه البخارى .

وفى الصحيحين عنها قالت : أول مابدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم ؛ فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبّب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء ، يتحنث[(٣)] فيه الليالى ذوات العدد ، [قبل أن يرجع إلى أهله[(٤)]] ويتزود لذلك ؛ ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ؛ حتى فجئه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك ، فقال : " اقرأ " : فقال : " ما أنا بقارئ — قال — فأخذنى فغطنى[(٥)] ، حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى "، فقال : " اقرأ " فقلت : « ما أنا بقارئ » . فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى " فقال : " اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم " الحديث بكماله . وقال أبو رجاء العطاردى : وكان أبو موسى الأشعرى يطوف علينا فى هذا المسجد : مسجد البصرة ، فيقعدنا حلقا ، فيقرئنا القرآن ؛ فكأنى أنظر إليه بين ثوبين له أبيضين ، وعنه أخذت هذه السورة : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » . وكانت أول سورة أنزلها الله على محمد صلى الله عليه وسلم . وروت عائشة رضى الله عنها أنها أول سورة أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بعدها « ن والقلم » ، ثم بعدها « يأيها المدثر » ثم بعدها « والضحى » ذكره الماوردى . وعن الزهرى : أول ما نزل سورة : « اقرأ باسم ربك — إلى قوله — مالم يعلم » ، فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعل يعلو شواهق الجبال ، فأتاه جبريل فقال له : " إنك نبىّ الله " فرجع إلى خديجة وقال : " دثرونى وصبوا علىّ ماء باردا " ، فنزل « يأيها المدثر » .

(١) آية ١٥١ سورة الأنعام . (٢) كذا فى الأصول ومسلم . وفى البخارى : « الصالحة » .
(٣) يتحنث : أى يتعبد . يقال : فلان يتحنث ، أى يفعل فعلا يخرج به من الإثم والحرج .
(٤) زيادة من الصحيحين . (٥) الغط : العصر الشديد والكبس .

Marfat.com

ومعنى « آقرأ باسم ربك » أى آقرأ ما أنزل إليك من القرآن مفتتحا باسم ربك ، وهو أن تذكر التسمية فى ابتداء كل سورة . فمحل الباء من « باسم ربك » النصب على الحال . وقيل : الباء بمعنى على ، أى آقرأ على آسم ربك . يقال : فعل كذا باسم الله ، وعلى آسم الله . وعلى هذا فالمقروء محذوف، أى آقرأ القرآن، وافتتحه باسم الله . وقال قوم: آسم ربك هو القرآن ، فهو يقول « آقرأ باسم ربك » أى اسمَ ربك ، والباء زائدة ؛ كقوله تعالى « تَنْبُتُ بِالدُّهنِ » ، وكما قال :

* سُودُ المَحاجِرِ لايَقْرَأْنَ بالسُّوَرِ * (١)

أراد : لا يقرأن السور . وقيل : معنى « اقرأ باسم ربك » أى آذكر آسمه . أمره أن يبتدئ القراءة باسم الله .

قوله تعالى : خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الإنسانَ ﴾ يعنى آبن آدم . ﴿ مِنْ عَلَقٍ ﴾ أى من دمٍ؛ جمع عَلَقة، والعلقة الدّم الجامد ؛ وإذا جرى فهو المسفوح . وقال : « مِنْ عَلَق » فذكره بلفظ الجمع ؛ لأنه أراد بالإنسان الجمع، وكلهمْ خُلِقوا من عَلَق بعد النطفة. والعَلَقة: قطعة من دمٍ رَطْب، سميت بذلك لأنها تعلَق لرطوبتها بما تَمُر عليه ، فإذا جفت لم تكن عَلَقة . قال الشاعر :

تركناه يَخِر على يديه * يمج عليهما عَلَق الوَتِينِ

وخَصّ الإنسانَ بالذكر تشريفا له . وقيل : أراد أن يبين قدرَ نعمته عليه ، بأن خلقه من علقة مَهينة، حتى صار بشرا سَوِيًّا ، وعاقلا مميزا .

قوله تعالى : ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ اقرأْ ﴾ تأكيد، وتم الكلام، ثم استأنف فقال : ﴿ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾ أى الكريم . وقال الكلبيّ : يعنى الحليم عن جهل العباد، فلم يُعَجّل بعقوبتهم . والأول أشبه

(١) هذا عجز بيت للراعى ، وصدره : * هنّ الحرائر لا ربات أخمرة *

Marfat.com

بالمعنى ، لأنه لما ذكر ماتقدّم من نعمه ، دلَّ بها على كرمه . وقيل : « إقرأ وربك » أى اقرأ يا محمد وربك يعينك ويفهمك ، وإن كنت غير القارئ . و « الأكرم » بمعنى المتجاوز عن جهل العباد .

قوله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِى عَـلَّمَ بِٱلْقَـلَمِ ﴿٤﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ الذى علَّم بِالقـلم ﴾ يعنى الخط والكتابة ؛ أى علم الإنسان الخط بالقلم . وروى سعيد عن قتادة قال : القلم نعمة من الله تعالى عظيمة ، لولا ذلك لم يقم دِين ، ولم يصلُح عيش . فدل على كمال كرمه سبحانه ، بأنه عَـلَّمَ عباده مالم يعـلموا ، ونقلهم من ظلمـة الجهل إلى نور العـلم ، ونبّه على فضل علم الكتابة ، لما فيه من المنافع العظيمة ، التى لايحيط بها إلا هو . وما دُوِّنت العلوم ، ولا قُيِّدت الحِكم ، ولاضبطت أخبار الأوّلين ومقالاتهم ، ولا كتبُ اللهِ المُنْزَلة إلا بالكتابة ؛ ولولاهى ما آستقامت أمـور الدين والدنيا . وسُمّى قلما لأنه يُقْلَم ؛ أى يقطع ، ومنه تقليم الظفر . وقال بعض الشعراء المُحْدَثين يصف القلم :

فكأنه والحِـبْرُ يخضِبُ رأسَـهُ * شـيخٌ لوصـل خَرِيدةٍ يَتَصنّعُ
لِمَ لا أُلاحظه بعـين جَـلالة * وبه إلى الله الصحائفُ ترفـعُ [(١)]

وعن عبد الله بن عمـرو قال : يا رسول الله ، أأكتب ما أسمع منـك من الحديث ؟ قال : " نعم فاكتب ، فإن الله عَلَّم بالقلم " . وروى مجاهد عن أبى عمر قال : خلق الله عز وجل أربعة أشياء بيـده ، ثم قال لسائر الحيوان : كن فكان : القـلم ، والعَرْش ، وجنة عَدْن ، وآدم عليه السلام . وفيمن علمه بالقـلم ثلاثة أقاويل : أحدها — أنه آدم عليه السلام ؛ لأنه أوّل من كتب ، قاله كعب الأحْبار . الثـانى — أنه إدريس ، وهو أول من كتب . قاله الضحاك . الثالث : أنه أدخل كل من كتب بالقلم ؛ لأنه ما عَلِم إلا بتعليم الله سبحانه ، وجمع بذلك نعمته عليه فى خَلْقه ، وبين نعمته عليه فى تعليمه ؛ استكمالا للنعمة عليه .

(١) فى الأصول : (الا) فى موضع (لم لا) ، ولعله تحريف .

Marfat.com

الثانيــة — صح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هُريرة، قال : لما خلق الله الخلق كتب في كتابه — فهو عنده فوق العرش — : «إن رحمتي تغلب غضبي». وثبت عنه عليه السلام أنه قال: "أولُ ما خلق الله : القلمُ، فقال له اكتب، فكتب ما يكون إلى يوم القيامة، فهو عنده في الذكر فوق عرشه". وفي الصحيح من حديث ابن مسعود : [أنه][(١)] سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة، بعث الله إليها ملكا فصوّرها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظمها، ثم يقول، يا رب، أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب المَلَك ثم يقول : يارب أَجَلَه ، فيقول ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يقول يارب رزقَه، ليقضي ربك ما شاء، ويكتب المَلَك، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده، فلا يزيد على ما أُمر ولا ينقص، وقال تعالى « إنّ عليكُم لحافظينَ . كراما كاتبين »[(٢)]".

قال علماؤنا : فالأقلام في الأصل ثلاثة : القلم الأول — الذي خلقه الله بيده، وأمره أن يكتب . والقلم الثاني — أقلام الملائكة، جعلها الله بأيديهم يكتبون بها المقادير والكوائن والأعمال . والقلم الثالث — أقلام النـاس ، جعلها الله بأيديهم ، يكتبون بها كلامهم ، ويصلون بها مآربهم . وفي الكتابة فضائل جمة . والكتابة من جملة البيان، والبيان مما اختص به الآدميّ .

الثالثــة — قال علماؤنا : كانت العـرب أقل الخلق معـرفة بالكتاب ، وأقل العرب معرفة به المصطفى صلى الله عليــه وسلم ؛ صُرِف عن علمه ، ليكون ذلك أثبت لمعجزته ، وأقوى في حجته ، وقد مضى هذا مبينا في سورة « العنكبوت »[(٣)] . وروى حمّاد بن سَلَمة عن الزبير بن عبد السلام ، عن أيوب بن عبـد الله الفهري ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تُسْكِنوا نساءكم الغُـرَف، ولا تعلموهن الكتابة". قال علماؤنا : وإنمـا حذرهم النبيّ صلى الله عليـه وسلم ذلك ، لأن في إسكانهن الغُـرَف تطلعا إلى الرجل ؛ وليس في ذلك تحصين لهنّ ولا تستر . وذلك أنهنّ لا يملكن أنفسهنّ حتى يشرفن على الرجل ؛ فتحدثَ الفتنة والبلاء ؛ فحذرهم أن يجعلوا لهن غُرَفا ذريعة إلى الفتنة .

(١) زيادة لتكملة العبارة . (٢) آية ١٠ سورة الانفطار . (٣) راجع جـ ١٣ ص ٣٥١

Marfat.com

وهو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليس للنساء خيرٌ لهنّ من ألا يراهنّ الرجال، ولا يرين الرجال" . وذلك أنها خُلقت من الرجل، فنهمتُها في الرجل، والرجل خلقت فيه الشهوة، وجُعلت سكنا له، فغير مأمون كل واحد منهما في صاحبه . وكذلك تعليم الكتابة ربما كانت سببا للفتنة، وذلك إذا عُلِّمتِ الكتابة كتبت إلى من تهوى . والكتابة عين من العيون، بها يبصر الشاهد الغائب، والخط هو آثار يده . وفي ذلك تعبير عن الضمير بما لا ينطلق به اللسان، فهو أبلغ من اللسان . فأحب رسوله الله صلى الله عليه وسلم أن ينقطع عنهنّ أسباب الفتنة؛ تحصينا لهنّ، وطهارة لقلوبهنّ .

قوله تعالى : عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾

قيل : «الإنسان» هنا آدم عليه السلام . علمه أسماء كل شيء؛ حسب ما جاء به القرآن في قوله تعالى : «وعلم آدم الأسماء كلها»(١) . فلم يبق شيء إلا وعلّم سبحانه آدمَ اسمَه بكل لغة، وذكره آدم للملائكة كما عُلِّمه . وبذلك ظهر فضله، وتبيّن قدره، وثبتت نبوّته، وقامت حجة الله على الملائكة وحجتُه، وامتثلت الملائكة الأمر لما رأت من شرف الحال، ورأت من جلال القدرة، وسمعت من عظيم الأمر . ثم توارثت ذلك ذريته خلفا بعد سلف، وتناقلوه قوما عن قوم . وقد مضى هذا في سورة « البقرة »(٢) مستوفًى والحمد لله . وقيل : « الإنسان » هنا الرسول محمد صلى الله عليه وسلم؛ دليله قوله تعالى : « وعلّمك ما لم تكن تعلم »(٣) . وعلى هذا فالمراد بـ « علّمك »(٤) المستقبل؛ فإن هذا من أوائل ما نزل . وقيل : هو عام لقوله تعالى : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا »(٥) .

قوله تعالى : كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى ﴾ إلى آخر السورة . قيل : إنه نزل

---

(١) آية ٣١ سورة البقرة . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٧٩ طبعة ثانية (٣) آية ١١٣ سورة النساء .
(٤) في نسخة : المشكل . (٥) آية ٧٨ سورة النحل .

Marfat.com

فى أبى جهل . وقيل : نزلت السورة كلها فى أبى جهل ؛ نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الصلاة ؛ فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يصلى فى المسجد ويقرأ باسم الرب . وعلى هذا فليست السورة من أوائل ما نزل . ويجوز أن يكون خمس آيات من أولها أول ما نزلت ، ثم نزلت البقية فى شأن أبى جهل ، وأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بضم ذلك إلى أول السورة؛ لأن تأليف السوَر جرى بأمر من الله. ألا ترى أن قوله تعالى : « وآتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله »[(١)] آخرما نزل ، ثم هو مضموم إلى ما نزل قبله بزمان طويل . و « كَلَّا » بمعنى حَقًّا ؛ إذ ليس قبله شيء . والإنسان هنا أبو جهل . والطغيان : مجاوزة الحد فى العصيان . ﴿ أَنْ رآه ﴾ أى لأن رأى نفسه آستغنى؛ أى صار ذا مال وثروة . وقال آبن عباس فى رواية أبى صالح عنه ، قال : لما نزلت هذه الآية وسمع بها المشركون ، أتاه أبو جهل فقال : يا محمد تزعم أنه من آستغنى طغى؛ فاجعل لنا جبال مكة ذهبا ، لعلنا نأخذ منها ، فنطغى فندع ديننا ونتبع دينك . قال فأتاه جبريل عليه السلام فقال : "يا محمد خيِّرهم فى ذلك فإن شاءوا فعلنا بهم ما أرادوه : فإن لم يسلموا فعلنا بهم كما فعلنا بأصحاب المائدة" . فعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن القوم لا يقبلون ذلك[(٢)] ؛ فكفّ عنهم إبقاء عليهم . وقيل : « أَنْ رَآه آسْتغنَى » بالعشيرة والأنصار والأعوان . وحذف اللام من قوله « أن رآه » كما يقال : إنكم لَتَطْغَون إن رأيتم غِناكم . وقال الفراء : لم يقل رأى نفسه ، كما قيل قتل نفسه ؛ لأن رأى من الأفعال التى تريد آسما وخبرا ، نحو الظن والحسبان ، فلا يقتصر فيه على مفعول واحد . والعرب تطرح النفس من هذا الجنس تقول : رأيتنى وحسبتنى ، ومتى تراك خارجا ، ومتى تظنك خارجا . وقرأ مجاهد وحميد وقنبل عن آبن كثير « أن رأهُ آسْتغنَى» بقصر الهمزة . الباقون « رآه » بمدّها ، وهو الاختيار .

---

(١) آية ٢٨١ سورة البقرة .

(٢) فى نسخة من الأصل : « يقبلون » .

Marfat.com

قوله تعـالى : إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾

أى مرجع مَنْ هـذا وصْفُه، فنجازيه . والرجعى والمرجع والرجوع : مصادر؛ يقال : رجع إليه رجوعا ومَرْجعا ، و رُجْعَى ؛ على وزن فُعلَى .

قوله تعـالى : أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَرأيتَ الذى يَنْهَى ﴾ وهو أبو جهل ﴿ عَبْدًا ﴾ وهو محمد صلى الله عليه وسلم . فإن أبا جهل قال : إنْ رأيت محمدا يصلِّى لأَطأَنّ على عنقه ؛ قاله أبو هُريرة . فأنزل الله هذه الآيات تعجبا منـه (١) . وقيل : فى الكلام حذف ؛ والمعنى : أَمِنَ هـذا الناهى عن الصلاة من العقوبة .

قوله تعـالى : أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾

أى أرأيت يا أبا جهـل إن كان محمد على هذه الصفة، أليس ناهيه عن التقوى والصلاة هالـكا ؟ !

قوله تعـالى : أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾

يعنى أبا جهل كذّب بكتاب الله عز وجل ، وأَعْرض عن الإيمان . وقال الفرّاء: المعنى « أرأيتَ الذى ينهى . عبـدا إذا صلى » وهو على الهدى ، وآمر بالتقوى ، والناهى مكذِّب متولّ عن الذكر ؛ أى فـا أعجب هذا ! ثم يقول : وَيْلَه ! ألم يعلم أبو جهل بأن الله يرى ؛ أى يراه و يعـلم فعله ؛ فهو تقـرير وتوبيخ . وقيـل : كل واحد من « أرأيت » بدل من الأول . و « ألَمْ يعلم بأنّ الله يَرَى » الخبر .

قوله تعـالى : كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾

---

(١) أى تعجيبا منه ، وهو إيقاع المخاطب وحمله على التعجب (عن حاشية الجمل) .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ﴾ أى أبو جهل عن أذاك يا محمد . ﴿ لَنَسْفَعًا ﴾ أى لنأخذن ﴿ بِالنَّاصِيَةِ ﴾ فلنذلنه . وقيل : لنأخذن بناصيته يوم القيامة، وتُطْوَى مع قدميه، ويطرح فى النار، كما قال تعالى : « فيؤخذ بالنواصى والأقدام »(1) . فالآية — وإن كانت فى أبى جهل — فهى عِظة للناس، وتهديد لمن يمتنع أو يمنع غيره عن الطاعة . وأهل اللغة يقولون : سَفَعْتَ بالشيء : إذا قبضت عليه وجذبته جذبا شديدا . ويقال : سَفَعَ بناصية فرسه . قال :

قَومٌ إذا كَثُر الصياح رأيتهم * مِنْ بين مُلْجِم مُهْرِهِ أو سافِع(2)

وقيل : هو مأخوذ من سَفَعَتْه النار والشمس : إذا غيرت وجهه إلى حال تسويد ؛ كما قال :

أثافِيَّ سُفعا فى مُعَرَّس مِرْجَلٍ * ونُؤْىٌ كجِذْم الحوض أَثْلَمَ خاشِعٍ(3)

والناصية : شعر مقدّم الرأس . وقد يعبر بها عن جملة الإنسان ؛ كما يقال : هذه ناصية مباركة؛ إشارة إلى جميع الإنسان . وخص الناصية بالذكر على عادة العرب فيمن أرادوا إذلاله وإهانته أخذوا بناصيته . وقال المبرّد : السَّفْع : الجذب بشدّة؛ أى لَنَجُرَّنَّ بناصيته إلى النار . وقيل : السَّفع الضرب ؛ أى لنلطُمَنّ وجهه . وكله متقارب المعنى . أى يجمع عليه الضرب عند الأخذ ؛ ثم يجرّ إلى جهنم . ثم قال على البدل : ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾

(1) آية ٤١ سورة الرحمن . (2) البيت لحميد بن ثور الهلالى الصحابى . ويروى : « ما بين ملجم ... »

(3) هكذا ورد البيت فى جميع نسخ الأصل وتفسير ابن عادل ، وهو ملفق من قصيدتين . فالشطر الأول من معلقة زهير . والبيت كما فى ديوانه ومعلقته :

أثافى سفعا فى معرس مرجل * ونؤيا كجذم الحوض لم يتثلم

والشطر الثانى من قصيدة للنابغة ؛ والبيت كما فى ديوانه :

رماد ككحل العين لأيا أبينه * ونؤى كجذم الحوض أثلم خاشع

والأثلم : المتثلم . والخاشع : اللاصق بالأرض . والأثافى : الحجارة التى تجعل عليها القدر ؛ الواحدة أثفية . والسفع : السود . والمعرّس : الموضع الذى فيه المرجل . والمرجل : كل قدر يطبخ فيها ، من حجارة أو حديد أو خزف أو نحاس . والنؤى : حاجز يرفع حول البيت من تراب لئلا يدخل البيت الماء من خارج . وجذم الحوض : حرفه وأصله . ولم يتثلم : يعنى النؤى قد ذهب أعلاه ، ولم يتثلم ما بقى منه ، أى يتكسر .

Marfat.com

أى ناصية أبى جهل كاذبة فى قولها ، خاطئة فى فعلها . والخاطئ معاقب مأخوذ . والمخطئ غير مأخوذ[١] . ووصف الناصية بالكاذبة الخاطئة ، كوصف الوجوه بالنظر فى قوله تعالى : « إلى ربها ناظرة[٢] » . وقيل : أى صاحبها كاذب خاطئ ؛ كما يقال : نهاره صائم ، وليله قائم ؛ أى هو صائم فى نهاره ، ثم قائم فى ليله .

قوله تعالى : فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ أى أهل مجلسه وعشيرته ، فليستنصر بهم . ﴿ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ أى الملائكة الغلاظ الشداد — عن ابن عباس وغيره — واحدهم زِبْنِيّ ؛ قاله الكسائى . وقال الأخفش : زابن . أبو عبيدة : زِبْنِية . وقيل : زَبَانِيّ . وقيل : هو اسم للجمع ؛ كالأبابيل والعباديد . وقال قتادة : هم الشُّرَط فى كلام العرب . وهو مأخوذ من الزَّبْن وهو الدفع ؛ ومنه المُزابنة[٣] فى البيع . وقيل : إنما سموا الزبانية لأنهم يعملون بأرجلهم ، كما يعملون بأيديهم ؛ حكاه أبو الليث السَّمَرْقَنْدِيّ — رحمه الله — قال : ورُوِى فى الخبر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه السورة ، و بلغ إلى قوله تعالى : « لنسفعا بالناصية » قال أبو جهل : أنا أدعو قومى حتى يمنعوا عنى ربك . فقال الله تعالى : « فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ، سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ » . فلما سمع ذكر الزبانية رجع فزِعا ؛ فقيل له : خَشِيتَ منه ! قال لا ! ولكن رأيت عنده فارسا يهدّدنى بالزّبانية ، فما أدرى ما الزبانية ، ومال إلىّ الفارس ، فخشيت منه أن يأكلنى . وفى الأخبار أن الزبانية رءوسهم فى السماء وأرجلهم فى الأرض ، فهم يدفعون الكفار فى جهنم . وقيل : إنهم أعظم الملائكة خَلْقا ، وأشدّهم بطشا . والعرب تطلق هذا الاسم على من اشتدّ بطشه . قال الشاعر :

مَطاعيمُ فى القُصْوَى مَطاعِينَ فى الوَغَى * زَبانيـــةٌ غُلْبٌ عِظامٌ حلُومُها[٤]

---

(١) الخاطئ : من تعمد لما لا ينبغى ؛ أى القاصد للذنب . والمخطئ : من أراد الصواب فصار إلى غيره .

(٢) آية ٢٣ سورة القيامة . (٣) هى بيع الرطب فى رءوس النخل بالتمر ، ونهى عنها لما يقع فيها من الغبن والجهالة . (٤) غلب : جمع أغلب ، وهو الغليظ الرقبة . والعرب تصف السادة بغلظ الرقبة وطولها . والحلوم : جمع الحلم وهو العقل .

Marfat.com

وعن عكرمة عن ابن عباس: «سَنَدْعُ الزَّبانية» قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمدا يصلي لأطأن على عنقه. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لو فعل لأخذته الملائكة عيانا". قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب. وروى عكرمة عن ابن عباس قال: مر أبو جهل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي عند المقام، فقال: ألم أنهك عن هذا يا محمد! فأغلظ له رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال أبو جهل: بأي شيء تهددني يا محمد! والله إني لأكثر أهل الوادي هذا ناديا؛ فأنزل الله عز وجل: «فَلْيَدْعُ نادِيَه. سندع الزبانية». قال ابن عباس: والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية العذاب من ساعته. أخرجه الترمذي بمعناه، وقال: حسن غريب صحيح. والنادي في كلام العرب: المجلس الذي ينتدي فيه القوم؛ أي يجتمعون، والمراد أهل النادي؛ كما قال جرير:

* لهم مَجْلِسٌ صُهْبُ السِّبالِ أذِلَّةٌ[1] *

وقال زهير:

* وفيهم مَقاماتٌ حِسانٌ وُجُوهُهم[2] *

وقال آخر:

* واستَبَّ بعدك يا كُلَيْبُ المجلسُ[3] *

وقد ناديت الرجل أناديه إذا جالسته. قال زهير:

وجارُ البيتِ والرجلُ المنادي * أمامَ الحي عَقْدُهما سَواءُ

---

(١) تمامه:

* سواسية أحرارها وعبيدها *

والبيت لذي الرمة لا لجرير. و«صهب»: حمر. و«السبال»: الشعر الذي عن يمين الشفة العليا وشمالها.

(٢) تمام البيت:

* وأندية ينتابها القول والفعل *

المقامات: المجالس؛ وإنما سميت المقامات لأن الرجل كان يقوم في المجلس، فيحض على الخير، ويصلح بين الناس. وأندية: جمع الندي، وهو المجلس أيضا، وفيه الشاهد.

(٣) هذا عجز بيت المهلهل يرثي أخاه كليبا. وصدره:

* نبئت أن النار بعدك أوقدت *

Marfat.com

قوله تعالى : كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴿١٩﴾

(كَلّا) أى ليس الأمر على ما يظنه أبو جهل . (لا تُطعْهُ) أى فيما دعاك إليه من ترك الصلاة . (واسجد) أى صل لله (واقترب) أى تقرب إلى الله جل ثناؤه بالطاعة والعبادة . وقيل : المعنى : إذا سجدت فاقترب من الله بالدعاء . روى عطاء عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أقرب ما يكون العبد من ربه ، وأحبه إليه جَبْهَتُه فى الأرض ساجدا لله " .

قال علماؤنا : وإنما [كان] ذلك لأنها نهاية العبودية والذلة ؛ ولله غاية العِزة ، وله العزة التى لا مقدار لها ؛ فكلما بَعُدْت من صفته ، قربت مِن جنته ، ودِنوت من جواره فى داره . وفى الحديث الصحيح : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " أمّا الركوع فعظموا فيه الرب . وأما السجود فاجتهدوا فى الدعاء، فإنه قَمِن[(1)] أن يُسْتجاب لكُم " . ولقد أحسن من قال :

وإذا تذللتِ الرقاب تواضُعًا * منا إليك فعِزُّها فى ذُلّها

وقال زيد بن أسلم : اسجد أنت يا محمد مصليا ، واقترب أنت يا أبا جهل من النار .

قوله تعالى : (واسجد) هذا من السجود . يحتمل أن يكون بمعنى السجود فى الصلاة، ويحتمل أن يكون سجود التلاوة فى هذه السورة . قال ابن العربىّ : «والظاهر أنه سجود الصلاة» لقوله تعالى : «أرأيتَ الذى ينهى عبدا إذا صلى — إلى قوله — كلا لا تُطعه واسجد واقترب» ، لولا ما ثبت فى الصحيح من رواية مسلم وغيره من الأئمة عن أبى هريرة أنه قال : سجدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى « إذا السماء انشقت » ، وفى « اقرأ باسم ربك الذى خلق » سجدتين ، فكان هذا نصا على أن المراد سجود التلاوة . وقد روى ابن وهب ، عن حماد ابن زيد، عن عاصم بن بَهْدلة ، عن زِرّ بن حُبَيش، عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه، قال: عزائم السجود أربع : « الم » و « حم . تنزيل من الرحمن الرحيم » و « النجم » و « اقرأ

(١) يقال : قمن وقمِن بفتح الميم وكسرها ، والذى بالكسر يثنى ويجمع كقمنين ؛ أى خليق وجدير .

Marfat.com

باسم ربك » . وقال آبن العربي : «وهذا إن صح يلزم عليه السجود الثاني من سورة « الحج » ، وإن كان مقترنا بالركوع ؛ لأنه يكون معناه آركعوا في موضع الركوع ، وآسجدوا في موضع السجود» . وقد قال آبن نافع ومطرِّف : وكان مالك يسجد في خاصة نفسه بخاتمة هذه السورة من « آقرأ باسم ربك » وآبن وهب يراها من العزائم .

قلت : وقد روينا من حديث مالك بن أنس عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن نافع عن آبن عمر قال : لما أنزل الله تعالى « آقرأ باسم ربك الذي خلق » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمُعاذ : " اكتبها يا معاذ " فأخذ معاذ اللوح والقلم والنون — وهي الدواة — فكتبها معاذ ؛ فلما بلغ «كلا لا تطعه وآسجد وآقترب» سجد اللوح ، وسجد القلم ، وسجدت النون ، وهم يقولون : اللهم آرفع به ذِكرا، اللهم آحْطُطْ به وِزرا ، اللهم آغفر به ذنبا . قال معاذ : سجدت ، وأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسجد .

ختمت السورة . والحمد لله على ما فتح ومنح وأعطى . وله الحمد والمنة .

ســورة « القَــدْر »

وهي مَدَنية في قول أكثر المفسرين ؛ ذكره الثعلبي . وحكى الماوردي عكسه .

قلت : وهي مدنية في قول الضحاك، وأحد قولي آبن عباس . وذكر الواقدي أنها أول سورة نزلت بالمدينة . وهي خمس آيات .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿إنا أنزلناه﴾ يعني القرآن وإن لم يجرِ له ذِكر في هذه السورة ؛ لأن المعنى معلوم ، والقرآن كله كالسورة الواحدة . وقد قال : « شهر رمضان الذي أُنزِل فيه القرآنُ »(١) وقال : « حم . والكتابِ المُبِين . إنّا أنزلناه في ليلة مباركة(٢) » ، يريد : في ليلة القدر . وقال

(١) آية ١٨٥ سورة البقرة .　(٢) أول سورة الدخان .

Marfat.com

الشعبي : المعنى إنا ابتدأنا إنزاله فى ليلة القدر . وقيل : بل نزل به جبريل عليه السلام جملة واحدة فى ليلة القدر ، من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا ، إلى بيت العزة ، وأملاه جبريل على السفرة[(١)] ، ثم كان جبريل ينزله على النبي صلى الله عليه وسلم نجوما نجوما[(٢)] . وكان بين أوله وآخره ثلاث وعشرون سنة ؛ قاله ابن عباس ، وقد تقدم فى سورة « البقرة »[(٣)] . وحكى الماوردي عن ابن عباس قال : نزل القرآن فى شهر رمضان ، وفى ليلة القدر ، فى ليلة مباركة ، جملة واحدة من عند الله ، من اللوح المحفوظ إلى السفرة الكرام الكاتبين فى السماء الدنيا ؛ فنجمته السفرة الكرام الكاتبون على جبريل عشرين سنة ، ونجمه جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم عشرين سنة . قال ابن العربي : « وهذا باطل ؛ ليس بين جبريل وبين الله واسطة ، ولا بين جبريل ومحمد عليهما السلام واسطة » .

قوله تعالى : ﴿ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ قال مجاهد : فى ليلة الحكم . ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾ قال : ليلة الحكم . والمعنى ليلة التقدير ؛ سميت بذلك لأن الله تعالى يقدر فيها ما يشاء من أمره[(٤)] ، إلى مثلها من السنة القابلة ؛ من أمر الموت والأجل والرزق وغيره . ويسلمه إلى مدبرات الأمور ، وهم أربعة من الملائكة : إسرافيل ، وميكائيل ، وعزرائيل ، وجبريل ؛ عليهم السلام . وعن ابن عباس قال : يكتب من أم الكتاب ما يكون فى السنة من رزق ومطر وحياة وموت ، حتى الحاج . قال عكرمة : يكتب حاج بيت الله تعالى فى ليلة القدر بأسمائهم وأسماء آبائهم ، ما يغادر منهم أحد ، ولا يزاد فيهم . وقاله سعيد بن جبير . وقد مضى فى أول سورة « الدخان »[(٥)] هذا المعنى . وعن ابن عباس أيضا : أن الله تعالى يقضى الأقضية فى ليلة نصف شعبان ، ويسلمها إلى أربابها فى ليلة القدر . وقيل : إنما سميت بذلك لعظمها وقدرها وشرفها ؛ من قولهم : لفلان قدر ؛ أى شرف ومنزلة . قاله الزهري وغيره . وقيل : سميت بذلك لأن للطاعات فيها قدرا عظيما ، وثوابا جزيلا . وقال أبو بكر الوراق :

(١) السفرة : هم الملائكة ؛ جمع سافر . والسافر فى الأصل : الكاتب ، سمى به لأنه يبين الشىء ويوضحه .

(٢) يعنى جزءا جزءا ، الآية والآيتين .

(٣) راجع ج ٢ ص ٢٩٧ طبعة ثانية .

(٤) يريد أنه يظهر ما قضاه فى الأزل من الأمور ، لا أنه يقدر ابتداء .

(٥) راجع ج ١٦ ص ١٢٥

Marfat.com

سميت بذلك لأن من لم يكن له قدر ولا خطر يصير في هذه الليلة ذا قدر إذا أحياها. وقيل : سميت بذلك لأنه أنزل فيها كتابا ذا قدر ، على رسول ذي قدر ، على أمة ذات قدر . وقيل : لأنه ينزل فيها ملائكة ذوو قدر وخطر . وقيل : لأن الله تعالى ينزل فيها الخير والبركة والمغفرة . وقال سهل : سميت بذلك لأن الله تعالى قدّر فيها الرحمة على المؤمنين . وقال الخليل : لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة ؛ كقوله تعالى : « ومَنْ قُدِرَ عليه رِزْقُه »(١) أي ضُيِّق .

قوله تعالى : وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾

قال الفراء : كل ما في القرآن من قوله تعالى : « وما أَدْراكَ » فقد أدراه . وما كان من قوله : « وما يُدْرِيك » فلم يُدْرِه . وقاله سفيان ، وقد تقدم(٢) . ﴿ لَيْلَةُ القَدْرِ خيرٌ مِن أَلفِ شَهْرٍ ﴾ بيّن فضلها وعظمها . وفضيلة الزمان إنما تكون بكثرة ما يقع فيه من الفضائل . وفي تلك الليلة يقسم الخير الكثير الذي لا يوجد مثله في ألف شهر . والله أعلم . وقال كثير من المفسرين : أي العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر . وقال أبو العالية : ليلة القدر خير من ألف شهر لا تكون فيه ليلة القدر . وقيل : عنى بألف شهر جميع الدهر ؛ لأن العرب تذكر الألف في غاية الأشياء ؛ كما قال تعالى : « يَوَدُّ أَحَدُهم لو يُعَمَّر أَلْفَ سَنَة »(٣) يعني جميع الدهر . وقيل : إن العابد كان فيما مضى لا يسمى عابدا حتى يعبد الله ألف شهر ، ثلاثا وثمانين سنة وأربعة أشهر ؛ فجعل الله تعالى لأمة محمد صلى الله عليه وسلم عبادة ليلة خيرا من ألف شهر كانوا يعبدونها . وقال أبو بكر الوراق : كان ملك سليمان خمسمائة شهر ، وملك ذي القرنين خمسمائة شهر فصار ملكهما ألف شهر ؛ فجعل الله تعالى العمل في هذه الليلة لمن أدركها خيرا من ملكهما . وقال ابن مسعود : إن النبي صلى الله

(١) آية ٧ سورة الطلاق . (٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٥٧ و جـ ١٩ ص ٢٤٧ و ص ٣ من هذا الجزء .

(٣) آية ٩٦ سورة البقرة .

Marfat.com

عليه وسلم ذكر رجلا من بنى إسرائيل لبس السلاح فى سبيل الله ألف شهر؛ فعجب المسلمون من ذلك؛ فنزلت «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ» الآية. «خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ» التى لبس فيها الرجل سلاحه فى سبيل الله. ونحوه عن ٱبن عباس. وهب بن منبه: إن ذلك الرجل كان مسلما، وإن أمه جعلته نذرا لله، وكان من قرية قوم يعبدون الأصنام، وكان سكن قريبا منها؛ فجعل يغزوهم وحده، ويقتل ويسبى ويجاهد، وكان لا يلقاهم إلا بِلَحْيَىْ بعير، وكان إذا قاتلهم وقاتلوه وعطش، ٱنفجر له من اللَّحْيَين(١) ماء عذب، فيشرب منه، وكان قد أُعطى قوة فى البطش، لا يوجعه حديد ولا غيره: وكان ٱسمه شَمْسُون. وقال كعب الأحبار: كان رجلا ملكا فى بنى إسرائيل، فعل خَصْلة واحدة، فأوحى الله إلى نبىّ زمانهم: قل لفلان يتمنى. فقال: يارب أتمنى أن أجاهد بمالى وولدى ونفسى؛ فرزقه الله ألف ولد، فكان يجهز الولد بماله فى عسكر، ويخرجه مجاهدا فى سبيل الله، فيقوم شهرا ويقتل ذلك الولد، ثم يجهز آخر فى عسكر، فكان كل ولد يقتل فى الشهر، والملك مع ذلك قائم الليل، صائم النهار؛ فقتِل الأَلْفُ(٢) وَلد فى ألف شهر، ثم تقدم فقاتل فقتِل. فقال الناس: لا أحد يدرك منزلة هذا الملك؛ فأنزل الله تعالى: «لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ» من شهور ذلك الملك، فى القيام والصيام والجهاد بالمال والنفس والأولاد فى سبيل الله. وقال علىّ وعروة: ذكر النبى صلى الله عليه وسلم أربعة من بنى إسرائيل، فقال "عَبَدوا الله ثمانينَ سنة، لم يَعْصُوه طرفة عين"؛ فذكر أيوب وزكريا، وحِزْقيل بن العجوز ويُوشَع بن نون؛ فعجِب أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم من ذلك. فأتاه جبريل فقال: يا محمد عجبت أمتك من عبادة هؤلاء النفر ثمانين سنة لم يعصوا الله طرفة عين، فقد أنزل الله عليك خيرا من ذلك؛ ثم قرأ: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ». فسُرّ بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال مالك فى الموطّأ من رواية ٱبن القاسم وغيره: سمعت

---

(١) اللحى (بفتح اللام وتشديدها وسكون الحاء): عظم الحنك، وهو الذى عليه الأسنان. وعبارة الطبرى فى تاريخه (طبع أوربا قسم أوّل ص ٧٩٤): «وكان إذا لقيهم لقيهم بلحى بعير، لا يلقاهم بغيره؛ فإذا قاتلوه وقاتلهم. وتعب وعطش انفجر له من الحجر الذى فى اللحى ماء عذب ... الخ». بإفراد «اللحى» فى الموضعين.

(٢) كذا فى الأصل، والمعروف فى العربية أن البصريين قالوا: ما كان من العدد مضافا أدخل الألف واللام فى آخره فقط، وأجاز الكوفيون إدخال الألف واللام على الأوّل والثانى، وعلى ذلك فيقال هنا: ألف الولد أو الألف الولد.

Marfat.com

من أثق به يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُرِى أعمار الأمم قبله ، فكأنه تقاصر أعمار أمّته ألا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم فى طول العمر؛ فأعطاه الله تعالى ليلة القدر، وجعلها خيرا من ألف شهر . وفى الترمذيّ عن الحسن بن علىّ رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُرِى بنى أمية على منبره ، فساءه ذلك؛ فنزلت « إنا أعطيناك الكوثر» ، يعنى نهرا فى الجنة . ونزلت «إِنَّا أَنْزَلْنَاه فِى لَيْلَةِ القَدْرِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القَدْرِ . لَيْلَةُ القَدْرِ خَيرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ» يملكها بعدك بنو أمية . قال القاسم بن الفضل الحُدّانى : فعددْناها ، فإذا هى ألف شهر ، لا تزيد يوما ، ولا تنقص يوما . قال : حديث غريب .

قوله تعالى : تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ المَلَائكَةُ ﴾ أى تهبط من كل سماء، ومن سِدرة المنتهى ؛ ومسكن جبريل على وسطها . فينزلون إلى الأرض و يؤمّنون على دعاء الناس ، إلى وقت طلوع الفجر؛ فذلك قوله تعالى: «تَنَزَّلُ الملائكةُ» . ﴿ والرُّوحُ فيها بإذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ أى جبريل عليه السلام. وحكى القُشَيرِىّ : أن الرُّوح صِنف من الملائكة ، جُعلوا حفَظَة على سائرهم ، وأن الملائكة لا يرونهم، كما لا نرى نحن الملائكة. وقال مقاتل: هم أشرف الملائكة وأقربهم من الله تعالى. وقيـل : إنهم جند من جنـد الله عز وجل من غير الملائكة . رواه مجاهـد عن ابن عباس مرفوعا ؛ ذكره المـاوَرْدِىّ وحكى القشيرىّ : قيـل هم صِنف من خلق الله يأكلون الطعام ، ولهم أيدٍ وأرجل ؛ وليسوا ملائكة . وقيـل : « الرُّوح » خلق عظيم يقوم صفا ، والملائكة كلهم صفا . وقيل : « الرُّوح » الرحمة ينزل بها جبريل عليـه السلام مع الملائكة فى هذه الليلة على أهلها؛ دليله : « يُنَزِّلُ المَلَائِكَةَ بالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ على مَنْ يَشاء مِن عِبادِهِ »(١) ، أى بالرحمة . ﴿ فِيها ﴾ أى فى ليلة القدر . ﴿ بإِذْنِ رَبِّهِم ﴾ أى بأمره . ﴿ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ : أُمِر بكل أمرٍ قدّره الله وقضاه فى تلك السـنة إلى قابل؛ قاله ابن عباس؛ كقوله تعـالى : « يحفظُونه مِنْ أمْرِ اللهِ »(٢) أى بأمر الله . وقراءة العامة « تَنَزَّلُ » بفتح التاء؛ إلّا أن البزى

(١) آية ٢ سورة النحل . (٢) آية ١١ سورة الرعد .

Marfat.com

شدد التاء . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف وابن السَّميقَع ، بضم التاء على الفعل المجهول . وقرأ علىّ وآبن عباس وعِكرمة والكلبي « مِنْ كُلِّ آمْرِئٍ » . وروى عن آبن عبـاس أن معناه : من كل مَلَك ؛ وتأولها الكلبيّ على أن جبريل ينزل فيها مع الملائكة ، فيسلمون على كل آمرئ مسلم . « فمِن » بمعنى على . وعن أنس قال : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إذا كانَ ليلةَ القَدرِ نزلَ جبريلُ فى كَبْكَبة[1] من الملائكة ، يُصَلُّون و يسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله تعالى".

قوله تعـالى : ﴿سَلَـٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾

قيل : إن تمـام الكلام « مِنْ كُلِّ أَمْرٍ » ثم قال « سلام » . روى ذلك عن نافع وغيره ؛ أى ليلة القدر سلامة وخير كلها لا شر فيها . ﴿حَتَّى مَطْلَعِ الفَجْرِ﴾ أى إلى طلوع الفجر. قال الضحاك : لا يقدّر الله فى تلك الليلة إلا السـلامة ، وفى سائر الليـالى يقضى بالبلايا والسلامة . وقيل : أى هى سلام ؛ أى ذات سلامة من أن يؤثر فيها شيطان فى مؤمن ومؤمنة . وكذا قال مجاهد : هى ليلة سالمة ، لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سـوءا ولا أذى . وروى مرفوعا . وقال الشعبي : هو تسليم الملائكة على أهل المساجد ، من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر ؛ يمرون على كل مؤمن ، و يقولون : السلام عليك أيهـا المؤمن . وقيل : يعنى سلام الملائكة بعضهم على بعض فيها . وقال قتادة : « سَلَامٌ هى » : خير هى . « حَتَّى مَطْلَعِ الفَجْرِ » أى إلى مطلع الفجر . وقرأ الكسائى وآبن مُحَيصن « مَطْلِـع » بكسر اللام ، الباقونَ بالفتح . والفتح والكسر : لغتان فى المصدر . والفتح الأصل فى فَعَلَ يَفعُل ؛ نحو المقتل والمخرج . والكسر على أنه مما شذ عن قياسه ؛ نحو المشرق والمغرب والمنبت والمسكن والمنسك والمحشر والمسقط والمجزر . حكى فى ذلك كله الفتح والكسر ؛ على أن يُراد به المصدر لا الآسم .

وهنا ثلاث مسائل :

الأولى — فى تعيين ليلة القدر ؛ وقد اختلف العلماء فى ذلك . والذى عليه المُعْظَم أنها ليلة سبع وعشرين ؛ لحديث زِرّ بن حُبَيْش قال : قلت لأبىّ بن كعب : إن أخاك عبـد الله

(١) الكبكبة (بالفتح) : الجماعة المتضامة من الناس وغيرهم .

Marfat.com

ابن مسعود يقول : من يَقُم الحَول يصب ليلة القدر . فقال : يغفر الله لأبي عبد الرحمن ! لقد عَلِم أنها في العشر الأواخر من رمضان ، وأنها ليلة سبع وعشرين ؛ ولكنه أراد ألا يتكل الناس ؛ ثم حلف لا يستثنى (١) : أنها ليلة سبع وعشرين . قال قلت : بأي شيء تقول ذلك يا أبا المنذر؟ قال : بالآية التي أخبرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو بالعلامة أن الشمس تطلع يؤمئذ لا شعاع لها . قال الترمذي : حديث حسن صحيح . وخرجه مسلم . وقيل : هي في شهر رمضان دون سائر العام ؛ قاله أبو هريرة وغيره . وقيل : هي في ليالي السنة كلها . فمن علق طلاق امرأته أو عِتق عبده بليلة القدر ، لم يقع العِتق والطلاق إلا بعد مضى سنة من يوم حلف . لأنه لا يجوز إيقاع الطلاق بالشك ، ولم يثبت اختصاصها بوقت ؛ فلا ينبغي وقوع الطلاق إلا بمضى حول ، وكذلك العتق ؛ وما كان مثله من يمين أو غيره . وقال ابن مسعود : من يَقُم الحول يصبها ؛ فبلغ ذلك ابن عمر ، فقال : يرحم الله أبا عبد الرحمن ! أما إنه عَلِم أنها في العشر الأواخر من شهر رمضان ، ولكنه أراد ألا يتكل الناس . وإلى هـذا القول ذهب أبو حنيفة أنهـا في جميع السنة . وقيل عنه : إنها رُفعت — يعني ليلة القدر — وأنها إنمـا كانت مرة واحدة ؛ والصحيح أنها باقيـة . وروى عن ابن مسعود أيضا : أنها إذا كانت في يوم من هذه السنة ، كانت في العام المقبل في يوم آخر . والجمهور على أنها في كل عام من رمضان . ثم قيـل : إنها الليـلة الأولى من الشهر ؛ قاله أبو رَزِين العُقَيلي . وقال الحسن وابن إسحاق وعبد الله بن الزُّبير : هي ليـلة سبع عشرة من رمضان ، وهي الليـلة التي كانت صبيحتها وقعة بدر . كأنهم نزعوا بقوله تعالى : « وما أنزلنا على عبدنا يوم الفُرْقان يوم التقى الجمعان » (٢) ، وكان ذلك ليلة سبع عشرة ، وقيل هي ليلة التاسع عشر . والصحيح المشهور : أنها في العشر الأواخر من رمضان ؛ وهو قول مالك والشافعي والأوزاعي وأبي ثور وأحمد . ثم قال قوم : هي ليلة الحادي والعشرين . ومال إليه الشافعي رضي الله عنه ، لحديث الماء والطين

---

(١) أي جزم في حلفه بلا استثناء فيه ، بأن يقول عقب يمينه إن شاء الله .

(٢) آية ٤١ سورة الأنفال .

Marfat.com

ورواه أبوسعيد الخُدْرِيّ، خرجه مالك(1) وغيره . وقيل ليلة الثالث والعشرين؛ لما رواه آبن عمر أن رجلا قال : يا رسول الله إنى رأيت ليـلة القدر فى سابعة تبق . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أرى رؤياكم قد تواطأت على ثلاث وعشرين، فمن أراد أن يقوم من الشهر شيئا فليقم ليلة ثلاث وعشرين" . قال معمر : فكان أيوب يغتسل ليلة ثلاث وعشرين ويمس طِيبا . وفى صحيح مسلم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إنى رأيت أنى أسجد فى صبيحتها فى ماء وطين" . قال عبد الله بن أنيس : فرأيته فى صبيحة ليلة ثلاث وعشرين فى المـاء والطين ، كما أخبر رسـول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : ليلة خمس وعشرين ؛ لحديث أبى سعيد الخدرِيّ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "التمسوها فى العشر الأواخر فى تاسعة تبقى، فى سابعة تبقى، فى خامسة تبقى" . رواه مسلم، قال مالك : يريد بالتاسعة ليلة إحدى وعشرين، والسابعة ليلة ثلاث وعشرين، والخامسة ليلة خمس وعشرين . وقيل : ليلة سبع وعشرين . وقد مضى دليله ، وهو قول علىّ رضى الله عنـه وعائشة ومعاوية وأبىّ بن كعب . وروى آبن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من كان متحريا ليلة القدر ، فليتحرها ليلة سبع وعشرين" . وقال أبىّ بن كعب : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ليلة القدر ليلة سبع وعشرين" . وقال أبو بكر الوراق : إن الله تعالى قسم ليالى هذا الشهر — شهر رمضان — على كلمات هذه السورة، فلما بلغ السابعة والعشرين أشار إليها فقال : هى . وأيضا فإن ليلة القدر كُرر ذكرها ثلاث مرات، وهى تسعة أحرف، فتجىء سبعا وعشرين . وقيل : هى ليـلة تسع وعشرين ؛ لما روِى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "ليلة القدر التاسعة

---

(1) لفظ الحديث كما رواه مالك فى الموطأ : «كان رسـول الله صلى الله عليـه وسلم يعتكف العشر الوسط من رمضان ، فاعتكف عاما ، حتى إذا كان ليلة إحدى وعشرين وهى الليلة التى يخرج فيها من صبحها من اعتكافه ؛ قال "من كان اعتكف معى فليعتكف العشر الأواخر ، وقد رأيت هـذه الليلة ثم أنسيتها ؛ وقد رأيتنى أسجد من صبحها فى ماء وطين : فالتمسوها فى العشر الأواخر والتمسوها فى كل وتر" قال أبو سعيد : فأمطرت السماء تلك الليلة، وكان المسجد على عريش ، فوكف المسجد (قطر) قال أبوسعيد : فأبصرت عيناى رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف وعلى جبينه وأنفه أثر المـاء والطين ، من صبح ليلة إحدى وعشرين» .

Marfat.com

والعشرون — أو السابعة والعشرون — وأن الملائكة فى تلك الليلة بعدد الحصى". وقد قيل: إنها فى الأشفاع[1]. قال الحسن: ارتقبت الشمس ليلة أربع وعشرين عشرين سنة، فرأيتها تطلع بيضاء لا شعاع لها. يعنى من كثرة الأنوار فى تلك الليلة. وقيل إنها مستورة فى جميع السنة؛ ليجتهد المرء فى إحياء جميع الليالى. وقيل: أخفاها فى جميع شهر رمضان، ليجتهدوا فى العمل والعبادة ليالى شهر رمضان، طمعا فى إدراكها؛ كما أخفى الصلاة الوسطى فى الصلوات، واسمه الأعظم فى أسمائه الحسنى، وساعة الإجابة فى ساعات الجمعة وساعات الليل، وغضبه فى المعاصى، ورضاه فى الطاعات، وقيام الساعة فى الأوقات، والعبد الصالح بين العباد؛ رحمة منه وحكمة.

الثانيــة — فى علاماتها: منها أن الشمس تطلع فى صبيحتها بيضاء لا شعاع لها. وقال الحسن قال النبيّ صلى الله عليه وسلم فى ليلة القدر: "إن من أماراتها: أنها ليلة سَمْحة بَلْجَة، لا حارّة ولا باردة، تطلع الشمس صبيحتها ليس لها شعاع". وقال عبيد بن عمير: كنت ليلة السابع والعشرين فى البحر، فأخذت من مائه، فوجدته عذبا سلسا.

الثالثــة — فى فضائلها. وحسبك بقوله تعالى: «لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ». وقوله تعالى: «تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا». وفى الصحيحين: "مَنْ قام ليلةَ القَدْر إيمانا واحتسابًا غَفر اللهُ له ما تقدَّم من ذَنْبه" رواه أبو هريرة. وقال ابن عباس: قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "إذا كان ليلةَ القدر، تَنَزَّلَ الملائكةُ الذين هم سُكان سِدرة المُنْتَهى، منهمْ جبريلُ، ومعهم ألْوِيةٌ يُنْصَبُ منها لواءٌ على قبرى، ولواء على بيت المقدس، ولواء على المسجد الحرام، ولواء على طُور سَيْناء، ولا تَدَعُ فيها مؤمنا ولا مؤمنة إلّا تُسَلِّم عليه، إلا مُدْمِنَ الخمر، وآكِلَ الخنزير، والمتَضَمِّخ بالزعفران". وفى الحديث: "إن الشيطانَ لا يخرجُ فى هذه الليلة حتّى يُضىءَ فجرها، ولا يستطيعُ أن يصيب فيها أحدا بخَبْل ولا شىء من الفساد، ولا ينفذ فيها سحر ساحر". وقال الشعبيّ: وليلُها كيومها، ويومها كليلها. وقال الفرّاء: لا يقدّر اللهُ فى ليلة القدر إلا السعادة والنعم، ويقدّر فى غيرها البلايا والنقم؛ وقد تقدّم عن الضحاك. ومثله لا يقال

(١) جمع شفع، وهو العدد الذى يقبل القسمة على اثنين.

علامات

فضائل

نزول ملائكه اور چار جهنڈے

مقدمہ ٢ مجمع البيان جلد ٦، ص ١٩٦ - تفسير سورة القدر -

Marfat.com

من جهة الرأى ، فهو مرفوع . والله أعلم . وقال سعيد بن المسيب فى الموطا : [مَنْ شهِد العشاءَ من ليلة القدْر ، فقد أخذ بحظّه منها](١) ، ومثله لا يُدْرك بالرأى . وقد رَوَى عُبَيد الله ابن عامر بن ربيعة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من صلى صلاة المغرب والعشاء الآخرة من ليلة القدر فى جماعة(٢) فقـد أخذ بحظه من ليـلة القدر " ذكره الثعلبى فى تفسيره . وقالت عائشة رضى الله عنها : قلت : يارسولَ الله إن وافقتُ ليلةَ القدْرِ فمـا أقول ؟ قال : " قُولِى اللهم إنك عَفُوٌّ تُحِبّ العفوَ فاعفُ عنِّى " .

تفسير سورة « لم يكن »

وهى مكية فى قول يحي بن سلّام . ومدنية ، فى قول ابن عباس والجمهور . وهى تسع آيات(٣) .

وقد جاء فى فضلها حديث لا يصحّ ، رويناه عن محمد بن عبد الله الحضرمِىّ قال : قال لى أبو عبد الرحمن بن نُمَير : اذهب إلى أبى الهيثم الخشاب ، فاكتب عنه فإنه قد كتب ؛ فذهب إليه ، فقال : حدّثنا مالك بن أنس ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيّب ، عن أبى الدرداء ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو يعلم الناس ما فى [لَمْ يَكُنِ] الذين كفروا مِن أهل الكِتَابِ ، لعطّلوا الأهل والمـال ، فتعلموها " فقال رجل من خزاعة : وما فيها من الأجر يا رسول الله ؟ قال : " لا يقرؤها منافق أبدا ، ولا عبد فى قلبه شك فى الله . واللهِ إن الملائكة المقربين يقرءونها مُنـذُ(٤) خَلَق الله السموات والأرضَ ما يَفْتُرُون من قراءتها . وما من عبـد يقرؤها إلا بعث الله إليه ملائكة يحفظونه فى دينه ودنياه ، ويدعون له بالمغفرة والرحمة " . قال الحَضرمىّ : فجئت إلى أبى عبد الرحمن بن نُمير ، فألقيت هذا الحديث عليه ، فقال : هذا

---

(١) ما بين المربعين زيادة من الموطأ . (٢) الذى فى نسخة تفسير الثعلبى التى بين أيدينا : " من صلى المغرب والعشاء الآخرة من ليلة القدر فقد أخذ ..." الحديث . ولم يذكر : « فى جماعة » . (٣) فى مصاحفنا : « ثمان آيات » . وفى تفسير الآلوسى : وآيها تسع فى البصرى ، وثمان فى غيره » . (٤) فى بعض نسخ الأصل : « قبل خلق السموات ... »

Marfat.com

قد كفانا مئونته، فلا تعد إليه . قال آبن العربي : « روى إسحاق بن بشر الكاهلي عن مالك آبن أنس، عن يحيى بن سعيد ، عن آبن المسيّب : عن أبي الدرداء ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : " لو يعلم الناس ما في [لم يكن] الذين كفروا ، لعطلوا الأهل والمال ولتعلموها[1] " . حديث باطل؛ و إنما الحديث الصحيح ما روى عن أنس : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بن كعب : " إن الله أمرني أن أقرأ عليك « لم يكن الذين كفروا » " قال : وسماني لك ! ؟ قال " نعم " فبكى .

قلت : خرّجه البخاري ومسلم . وفيه من الفقه قراءة العالِم على المتعلم . قال بعضهم : إنما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم على أُبي، ليعلم الناس التواضع ؛ لئلا يأنف أحد من التعلم والقراءة على من دونه في المنزلة . وقيل : لأن أُبيا كان أسرع أخذاً لألفاظ رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فأراد بقراءته عليه، أن يأخذ ألفاظه ويقرأ كما سمع منه، ويعلم غيره . وفيه فضيلة عظيمة لأبي؛ إذ أمر الله رسوله أن يقرأ عليه . قال أبو بكر الأنباري : وحدثنا أحمد بن الهيثم بن خالد، قال حدثنا على بن الجعد، قال حدثنا عكرمه عن عاصم عن زِرّ بن حبيش قال : في قراءة أبي بن كعب : آبن آدم لو أُعطي واديا من مال لآلتمس ثانيا ولو أعطي واديين من مال لالتمس ثالثا، ولا يملأ جوف آبن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب . قال عكرمة : قرأ عليّ عاصم « لم يكُن » ثلاثين آية، هذا فيها . قال أبو بكر : هذا باطل عند أهل العلم ؛ لأن قراءتي آبن كثير وأبي عمرو متصلتان بأبي بن كعب ، لا يُقرأ فيهما هذا المذكور في « لم يكن » مما هو معروف في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، على أنه من كلام الرسول عليه السلام، لا يحكيه عن رب العالمين في القرآن . وما رواه اثنان معهما الإجماع : أثبت مما يحكيه واحد مخالف مذهب الجماعة .

---

(١) في الرواية الأولى للحديث ص ١٣٨ : (فتعلموها) .

Marfat.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ الذِينَ كَفَرُوا ﴾ كذا قراءة العامة ، وخطّ المصحف . وقرأ ابن مسعود « لَمْ يَكُنِ المُشْرِكُونَ وأَهْلُ الكِتَابِ مُنْفَكِّينَ » وهذه قراءة على التفسير . قال ابن العربيّ : « وهى جائزة فى مَعرِض البيان، لا فى مَعْرِض التلاوة ؛ فقد قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم فى رواية الصحيح « فَطَلِّقُوهنّ لِقُبُلِ عِدّتِهِنّ » وهو تفسير ؛ فإن التلاوة : هو ما كان فى خطّ المصحف » .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَهلِ الكِتابِ ﴾ يعنى اليهود والنصارى . ﴿ والمُشْرِكِينَ ﴾ فى موضع جرعطفا على «أهل الكتاب» . قال ابن عباس : «أهلُ الكتابِ» : اليهود الذين كانوا بيثرب، وهم قُرَيظة والنَّضِير وبنو قَيْنُقاع . والمشركون : الذين كانوا بمكة وحولها، والمدينة والذين حولها ؛ وهم مشركو قريش . ﴿ مُنفَكِّينَ ﴾ أى منتهين عن كفرهم، مائلين عنه . ﴿ حَتَّى تأْتِيَهُم ﴾ أى أتتهم البينة ؛ أى محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : الانتهاء بلوغ الغاية ؛ أى لم يكونوا ليبلغوا نهاية أعمارهم فيموتوا، حتى تأتيهم البينة . فالانفكاك على هذا بمعنى الانتهاء . وقيل : « مُنفَكِّينَ » زائلين ؛ أى لم تكن مدتهم لتزول حتى يأتيهم رسول . والعرب تقول : ما انفككتُ أفعل كذا : أى ما زلت . وما انفك فلان قائما : أى ما زال قائما . وأصل الفكّ : الفتح ؛ ومنه فك الكتاب، وفَكُّ الخَلخال، وفك السالم[1] . قال طَرَفة :

فآلَيتُ لا ينفَكُّ كَشْحِى بطانةً * لِعَضْبٍ رقيق الشَّفْرتين مُهنّدِ[2]

(١) كذا فى بعض نسخ الأصل . وفى بعضها : « فك السالم وهى قال طرفة » . بياض بعد « وهى » . وفى تفسير الثعلبي : « وفك السالم وهى حروف الفطن قال طرفة » . ولم نهتد لوجه الصواب فيه . (٢) الكشح : الجنب والعضب : السيف القاطع . ومهند : أى مشحذ ؛ والتهنيد : التشحيذ . ويقال : سيف مهند : إذا عمل ببلاد الهند .

Marfat.com

وقال ذو الرمة :

حَرَاجِيجُ ما تَنْفَكُّ إلَّا مُناخةً * على الخَسْفِ أَوْ نَرْمي بِهَا بَلدًا قفرا (١)

يريد : ما تنفك مناخة ؛ فزاد « إلّا » . وقيل : « مُنْفَكِّين » : بارحين؛ أى لم يكونوا ليبرحوا و يفارقوا الدنيا ، حتى تأتيَهُمُ البينةُ . وقال ابن كَيسان : أى لم يكن أهل الكتاب تاركين صفة محمد صلى الله عليه وسلم فى كتابهم ، حتى بُعِث ؛ فلما بُعث حسدوه و جحدوه . وهو كقوله : « فلما جاءهمْ ما عرفُوا كَفروا بِهِ » (٢) . ولهذا قال : « ومَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتوا الكتاب» ... الآية . وعلى هذا فقوله : «والمُشْرِكِينَ» أى ما كانوا يسيئون القول فى محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى بُعِث ؛ فإنهم كانوا يسمونه الأمين ، حتى أتتهم البينة على لسانه ، و بُعث إليهم ، فحينئذ عادَوْه . وقال بعض اللغويين : « مُنْفَكِّينَ » : هالكين ؛ من قولهم : أَنْفَكَ صَلَا (٣) المرأةِ عند الولادة ؛ وهو أن ينفصل ، فلا يلتئم فتهلك . المعنى : لم يكونوا معذبين ولا هالكين إلا بعد قيام الحجة عليهم ، بإرسال الرسل و إنزال الكتب . وقال قوم فى المشركين : إنهم من أهل الكتاب ؛ فمن اليهود من قال : عُزَيْرٌ ابن الله . ومن النصارى من قال : عيسى هو الله . ومنهم من قال : هو ابنه . ومنهم من قال : ثالث ثلاثة . وقيل : أهل الكتاب كانوا مؤمنين ، ثم كفروا بعد أنبيائهم . والمشركون وُلِدوا على الفِطرة ، فكفروا حين بلغوا . فلهذا قال : «والمُشْرِكِينَ» . وقيل : المشركون وصف أهل الكتاب أيضا ، لأنهم لم ينتفعوا بكتابهم ، وتركوا التوحيد . فالنصارى مُثَلِّثة ، وعامة اليهود مُشَبِّهة ؛ والكُل شِرْكٌ . وهو كقولك : جاءنى العقلاء والظرفاء ، وأنت تريد أقواما بأعيانهم ، تصفهم بالأمرين . فالمعنى : من أهل الكتاب المشركين . وقيل : إن الكفر هنا هو الكفر بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أى لم يكن الذين كفروا بمحمد من اليهود والنصارى ، الذين هم أهل الكتاب ، ولم يكن المشركون الذين هم عَبَدَةُ

(١) الحراجيج (جمع حرجوج) : وهى الناقة الطويلة الضامرة . والخسف : أن تبيت على غير علف . يقول : ما تنفصل من بلد إلى بلد الا مناخة على الخسف .   (٢) آية ٨٩ سورة البقرة .

(٣) الصلا : وسط الظهر من الإنسان ومن كل ذى أربع . وقيل : هو ما انحدر من الوركين . وقيل : هو ما عن يمين الذنب وشماله .

Marfat.com

الأوثان من العرب وغيرهم — وهم الذين ليس لهم كتاب — مُنْفَكِّين . قال القشيري : وفيه بعد ؛ لأن الظاهر من قوله : « حتى تأتيهم البينة . رسول من الله » أن هذا الرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم . فيبعد أن يقال : لم يكن الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم منفكين حتى يأتيهم محمد؛ إلا أن يقال : أراد: لم يكن الذين كفروا الآن بمحمد — وإن كانوا من قبل مُعَظِّمين له ، بمنتهين عن هذا الكفر، إلى أن يبعث الله محمدا إليهم، ويبيّن لهم الآيات؛ فحينئذ يؤمن قوم . وقرأ الأعمش وإبراهيم « والمشركُونَ » رفعا ، عطفا على « الذين » . والقراءة الأولى أبين ؛ لأن الرفع يصير فيه الصنفان كأنهم من غير أهل الكتاب . وفي حرف أبيّ : « فما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون منفكين » . وفي مصحف ابن مسعود : « لم يكنِ المشركون وأهلُ الكتابِ منفكِّين » . وقد تقدم . ﴿ حتى تأتيهم البينة ﴾ قيل حتى أتتهم . والبيِّنة : محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ رسولٌ من الله ﴾ أى بعيث من الله جل ثناؤه . قال الزجّاج : « رسول » رفع على البدل من « البينة » . وقال الفراء : أى هى رسول من الله ، أو هو رسول من الله؛ لأن البينة قد تذكر فيقال : بينتى فلان . وفى حرف أُبيّ وابن مسعود « رَسُولًا » بالنصب على القطع . ﴿ يتلو ﴾ أى يقرأ . يقال : تلا يتلو تلاوة . ﴿ صُحُفًا ﴾ جمع صحيفة، وهى ظرف المكتوب . ﴿ مُطَهَّرةً ﴾ قال ابن عباس : من الزور، والشك، والنفاق، والضلالة . وقال قتادة : من الباطل . وقيل : من الكذب، والشُّبهات، والكفر؛ والمعنى واحد . أى يقرأ ما تتضمن الصحف من المكتوب؛ ويدل عليه أنه كان يتلو عن ظهر قلبه ،لا عن كتاب؛ لأنه كان أميا ، لا يكتب ولا يقرأ . و « مُطَهَّرة » : من نعت الصحف ؛ وهو كقوله تعالى : « في صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة »(1) ، فالمطهرة نعت للصحف فى الظاهر ، وهى نعت لما فى الصحف من القرآن . وقيل : « مطهرة » أى ينبغى ألا يمسّها إلا المطهرون ، كما قال فى سورة « الواقعة » حسب ما تقدّم بيانه(2) . وقيل : الصحف المطهرة : هى التى عند الله فى أم الكتاب ، الذى منه نُسخ ما أنزل على الأنبياء

(1) آية ١٣ سورة عبس . (2) راجع جـ ١٧ ص ٢٢٥ فما بعدها .

Marfat.com

من الكتب؛ كما قال تعالى: « بل هو قرآن مجيد . في لوح محفوظ »[(١)] . قال الحسن : يعني الصحف المطهرة في السماء . ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ أي مستقيمة مستوية محكمة ؛ من قول العرب : قام يقوم : إذا آستوى وصح . وقال بعض أهل العلم : الصحف هي الكتب ؛ فكيف قال في صحف فيها كُتب ؟ فالجواب : أن الكتب هنا : بمعنى الأحكام ؛ قال الله عز وجل : « كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ »[(٢)] بمعنى حكم . وقال صلى الله عليه وسلم : " والله لأقضين بينكما بكتاب الله " ثم قضى بالرجم ، وليس ذِكر الرجم مسطورا في الكتاب ؛ فالمعنى لأقضين بينكما بحكم الله تعالى . وقال الشاعر :

وما الولاءُ بالبَـلاءِ فَمِلْتُمُ[(٣)] * وما ذاكَ قال اللهُ إذ هو يَكْتُبُ

وقيل : الكتب القيمة : هي القرآن ؛ فجعله كتبا لأنه يشتمل على أنواع من البيان .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ (٤)

قوله تعالى : ﴿ وما تَفَرَّقَ الذين أُوتُوا الكِتَابَ ﴾ أي من اليهود والنصارى . خصّ أهل الكتاب بالتفريق دون غيرهم ، وإن كانوا مجموعين مع الكافرين ؛ لأنهم مظنون بهم علم ؛ فإذا تفرقوا كان غيرهم ممن لا كتاب له أدخل في هـذا الوصف . ﴿ إلا مِن بعدِ ما جاءتهم البينة ﴾ أي أتتهم البينة الواضحة . والمعنِيّ به محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أي القرآن موافقا لما في أيديهم من الكتاب بنعته وصفته . وذلك أنهم كانوا مجتمعين على نبوّته ؛ فلما بعث جحدوا نبوّته وتفرقوا ، فمنهم من كفر : بغيا وحسدا ، ومنهم من آمن ؛ كقوله تعالى : «وما تفرقوا إلا مِن بعدِ ماجاءهم العِلم بغيا بينهم»[(٤)] . وقيل : « البينة » : البيان الذي في كتبهم أنه نبي مرسل . قال العلماء : مِن أول السورة إلى قوله « قَيِّمَةٌ » : حكمها فيمن آمن من أهل الكتاب والمشركين . وقوله : «وماتفرق» : حكمه فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب بعدقيام الحُجَج .

---

(١) آخر سورة البروج . (٢) آية ٢١ سورة المجادلة . (٣) كذا في الأصل ، ولم نقف على هذا البيت فيا لدينا من المراجع . ولعل صوابه : * ومال الولاة بالبلاء فملتم ... الخ *
(٤) آية ١٤ سورة الشورى .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وما أُمِرُوا ﴾ أى وما أمر هؤلاء الكفار فى التوراة والإنجيل ﴿ إلا لِيَعْبُدُوا الله ﴾ أى ليوحدوه. واللام فى « لِيعبدوا » بمعنى « أن » ؛ كقوله : « يُرِيد الله لِيبين لكمْ »(١) أى أن يبين . و « يرِيدون لِيطفئوا نور الله »(٢) . و « أُمِرْنا لِنُسْلِم لِرب العالمين »(٣) . وفى حرف عبد الله : « وما أُمِروا إلا أنْ يَعبدوا الله » . ﴿ مُخْلِصين له الدين ﴾ أى العبادة ؛ ومنه قوله تعالى : « قُلْ إنى أُمِرْتُ أنْ أعْبُدَ اللهَ مُخْلِصًا له الدِّينَ »(٤) . وفى هذا دليل على وجوب النية فى العبادات ؛ فإن الإخلاص مِن عمل القلب، وهو الذى يراد به وجه الله تعالى لا غيره.

الثانية — قوله تعالى : ﴿ حُنَفَاءَ ﴾ أى مائلين عن الأديان كلها، إلى دين الإسلام ، وكان ابن عباس يقول: حُنفاء : على دِين إبراهيم عليه السلام . وقيل : الحَنيف : من اختتن وحج ؛ قاله سعيد بن جبير . قال أهل اللغة : وأصله أنه تَحنَّفَ إلى الإسلام ؛ أى مال إليه.

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ ويُقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾ أى بحدودها فى أوقاتها . ﴿ ويُؤْتُوا الزَّكاةَ ﴾ أى يُعطوها عند محلها . ﴿ وذلك دِينُ القَيِّمةِ ﴾ أى ذلك الدين الذى أُمِروا به دِين القَيِّمة ؛ أى الدين المستقيم . وقال الزجاج : أى ذلك دِين المِلَّة المستقيمة . و «القَيِّمة» : نعت لموصوف محذوف . أو يقال : دِين الأمة القَيِّمة بالحق ؛ أى القائمة بالحق . وفى حرف عبد الله «وذلك الدين القَيِّم» . قال الخليل : « القَيِّمة » جمع القيم ، والقيم والقائم : واحد. وقال الفراء : أضاف الدين إلى القيمة وهو نعته ، لاختلاف اللفظين . وعنه أيضا : هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه ، ودخلت الهاء للمدح والمبالغة . وقيل : الهاء راجعة إلى الملة أو الشريعة . وقال محمد بن الأشعث الطالقاني : « القَيِّمة » هاهنا : الكتب التى جرى ذكرها ، والدين مضاف إليها .

(١) آية ٢٦ سورة النساء. (٢) آية ٨ سورة الصف. (٣) آية ٧١ سورة الأنعام. (٤) آية ١١ سورة الزمر.

Marfat.com

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ والْمُشْرِكِينَ ﴾ «المشركين» : معطوف على « الَّذين »، أو يكون مجرورا معطوفا على « أهل » . ﴿ فِي نارِ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ قرأ نافع وٱبن ذكوان بالهمز على الأصل فى الموضعين ؛ من قولهم : بَرَأَ الله الخلق ، وهو البارئ الخالق ، وقال : « مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا » (١) . الباقون بغير همز ، وشدّ الياء عِوضا منه . قال الفَرّاء : إن أُخذت البَرِيَّة من البَرَى ، وهو التراب ، فأصله غير الهمز ؛ تقول منه : بَرَاه الله يبرُوه بَرْوًا ؛ أى خلقه . قال القُشَيْرِيّ : ومن قال البَرِية من البَرَى ، وهو التراب ، قال : لا تدخل الملائكة تحت هذه اللفظة . وقيل : البَرِيَّة : من بَرَيْت القلم ، أى قدّرته ؛ فتدخل فيه الملائكة . ولكنه قول ضعيف ؛ لأنه يجب منه تخطئة من هَمَز . وقوله « شَرّ البَرِيَّة » أى شر الخليقة . فقيل يحتمل أن يكون على التعميم . وقال قوم : أى هم شر البرية الذين كانوا فى عصر النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ كما قال تعالى : « وأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ على العالَمِين » (٢) أى على عالَمِي زمانكم . ولا يبعد أن يكون فى كفار الأمم قبل هذا من هُو شر منهم ؛ مثل فرعون وعاقر ناقة صالح . وكذا « خَيْرُ البَرِيَّة » : إمّا على التعميم ، أو خير بَرِيَّة عصرهم . وقد ٱستدل بقراءة الهمز من فضّل بنى آدم على الملائكة ، وقد مضى فى سورة « البقرة » القول فيه (٣) . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : المؤمنُ أكرم على الله عز وجل من بعض الملائكة الذين عنده .

(١) آية ٢٢ سورة الحديد .		(٢) آية ٤٧ سورة البقرة .

(٣) راجع جـ ١ ص ٢٨٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ جَزَاؤُهم ﴾ أي ثوابهم . ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي خالقهم ومالكهم . ﴿ جَنَّاتُ ﴾ أي بساتين . ﴿ عَدْنٍ ﴾ أي إقامة . والمفسرون يقولون : « جَناتُ عَدْنٍ » بُطْنانُ الجنّة ، أي وَسَطُها ؛ تقول : عَدَن بالمكان يَعْدِن [عَدْنا وعُدُونا] : أقام . ومعدِن الشيء : مَرْكَزه ومستقرُّه . قال الأعشى :

وإنْ يُسْتضافوا إلى حُكْمِهِ * يُضَافُوا إلى رَاجِحٍ قَدْ عَدَنْ

﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأنهارُ خالدِينَ فِيها أبدًا ﴾ لا يَظْعَنون ولا يموتون . ﴿ رَضِيَ اللهُ عنهمْ ﴾ أي رضي أعمالهم ؛ كذا قال آبن عباس . ﴿ ورَضُوا عنه ﴾ أي رَضُوا هم بثواب الله عز وجل . ﴿ ذَلِك ﴾ أي الجنة . ﴿ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّه ﴾ أي خاف ربّه ، فتناهى عن المعاصي .

سورة « الزَّلْزَلَة »

مدنِية ، في قول آبن عباس وقتادة . ومكية ؛ في قول آبن مسعود وعطاء وجابر . وهي تسع آيات[1]

قال العلماء : وهذه السورة فضلها كثير ، وتحتوي على عظيم : رَوَى الترمذيّ عن أنس ابن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ « إذَا زُلْزِلَتْ » ، عدلت له بنصف القرآن . ومن قرأ « قل يأيّها الكافرونَ » عدلت له بربع القرآن ، ومن قرأ « قُلْ هو الله أحد » عدلت له بثُلُث القُرْآن " . قال : حديث غريب ، وفي الباب عن آبن عباس . ورُوِي عن عليّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ إذا زلزلت أربع مرات ، كان كمن قرأ القرآن كله " . وروى عبد الله بن عمرو بن العاص قال : لما نزلت « إذَا زُلْزِلت » بكى أبو بكر ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لَوْلَا أَنَّكُمْ تُخطِئُون وتُذْنبون ويغفر اللهُ لكُمْ ، لَخَلَق أمة يُخطئون ويذنبون ويغفر لهم ، إنه هو الغفورُ الرّحيم " .

(١) في حاشية الشهاب : « آيها تسع أو ثمان » .

Marfat.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾

أى حرّكت من أصلها . كذا روى عِكْرِمة عن ٱبن عباس ، وكان يقول : فى النفخة الأولى يزلزلها — وقاله مجاهد — ؛ لقوله تعالى : « يومَ ترجُفُ الراجِفة . تتبعها الرادِفة »(١) ثم تزلزل ثانيــة ، فتُخرج موتاها وهى الأثقال . وذُكِر المصدر للتأكيد ، ثم أضيف إلى الأرض ؛ كقولك : لأُعطينّك عِطيتك ؛ أى عطيتى لك . وحسن ذلك لموافقة رءوس الآى بعدها . وقراءة العامة بكسر الزاى من الزلزال . وقرأ الجحدرِىّ وعيسى بن عمر بفتحها ، وهو مصدر أيضا ، كالوَسواس والقَلقال والجَرْجار(٢) . وقيل : الكسر المصدر . والفتح الاسم .

قوله تعالى : وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾

قال أبو عبيدة والأخفش : إذا كان الميت فى بطن الأرض ، فهو ثِقل لها . وإذا كان فوقها ، فهو ثِقل عليها . وقال ٱبن عباس ومجاهد : « أثقالها » : موتاها ، تُخرجهم فى النفخة الثانية ، ومنه قيل للجن والإنس : الثَّقلان . وقالت الخنساء :

أبعـد ٱبنِ عمرٍو مِنَ آل الشرِ * يـدِ حَلَّتْ به الأرضُ أثقالَهـا

تقول : لمـا دفن عمرو صار حِلية لأهل القبور ، من شرفه وسؤدده . وذكر بعض أهل العلم قال : كانت العرب تقول : إذا كان الرجل سفاكا للدماء : كان ثِقلا على ظهر الأرض ؛ فلما مات حَطّت الأرض عن ظهرها ثِقلها . وقيـل : « أَثْقَالَهَا » كنوزها ؛ ومنـه الحديث : " تقيء الأرض أفلاذَ كبِدها أمثال الأسطوان(٣) من الذهب والفضة ... " .

---

(١) آية ٦ سورة النازعات .

(٢) القلقال : من قلقل الشيء إذا حركه . والجرجار : من جرجر البعير إذا ردّد صوته فى حنجرته .

(٣) الأسطوان : جمع أسطوانة ، وهى السارية والعمود ؛ وشبهه بالأسطوان لعظمه وكثرته .

Marfat.com

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وقال الإنسانُ ﴾ أى ابن آدم الكافر . فروى الضحاك عن ابن عباس قال : هو الأسود بن عبد الأسد . وقيل : أراد كل إنسان يشاهد ذلك عند قيام الساعة فى النفخة الأولى : من مؤمن وكافر . وهذا قول من جعلها فى الدنيا من أشراط الساعة؛ لأنهم لا يعلمون جميعا من أشراط الساعة فى ابتداء أمرها، حتى يتحققوا عمومها ؛ فلذلك سأل بعضهم بعضا عنها . وعلى قول من قال : إن المراد بالإنسان الكفار خاصة، جعلها زلزلة القيامة ؛ لأن المؤمن معترف بها، فهو لا يسأل عنها، والكافر جاحد لها، فلذلك يسأل عنها . ومعنى ﴿ مالَها ﴾ أى مالها زُلزلت . وقيل : مالها أخرجتْ أثقالها ، وهى كلمة تعجيب ؛ أى لأى شىء زلزلت . ويجوز أن يحيى الله الموتى بعد وقوع النفخة الأولى، ثم تتحرك الأرض فتخرج الموتى وقد رأوا الزلزلة وانشقاق الأرض عن الموتى أحياء ؛ فيقولون من الهول : مالها .

قوله تعالى : يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿يومئذٍ تُحدّثُ أخبارَها﴾ «يومئذٍ» منصوب بقوله « إذا زلزلت». وقيل : بقوله « تُحَدّثُ أَخبارها » ؛ أى تخبر الأرض بما عُمل عليها من خير أو شر يومئذ . ثم قيل : هو من قول الله تعالى . وقيل : من قول الإنسان ؛ أى يقول الإنسان مالها تحدّث أخبارها ؛ متعجبا . وفى الترمذىّ عن أبى هريرة قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية « يومئذ تُحَدّثُ أَخبارها » قال : " أتدرون ما أخبارُها — قالوا الله ورسوله أعلم، قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، تقول عمل يوم كذا، كذا وكذا . قال : فهذه أخبارُها " . قال : هذا حديث حسن صحيح . قال الماوردىّ ، قوله « يَومئذ تُحَدّثُ أخبارَها » : فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها — «تُحَدّثُ أخبارَها» بأعمال العباد على ظهرها ؛ قاله أبو هريرة ، ورواه مرفوعا . وهو قول من زعم أنها زلزلة القيامة .

Marfat.com

الثـانى – تُحَدِّث أخبارها بما أخرجت من أثقالها؛ قاله يحيى بن سلام . وهو قول من زعم أنها زَلزلة أشراط الساعة .

قلت : وفى هذا المعنى حديث رواه آبن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه قال : " إذا كان أجلُ العبد بأرض أَوثَبَتْه الحاجة إليها ، حتى إذا بلغ أقصى أثره قبضه الله ، فتقول الأرض يوم القيامة : رَبِّ هذا ما آستودعتنى " . أخرجه آبن ماجه فى سُنَنه (١) . وقد تقدم .

الثالث – أنهـا تُحَدِّث بقيام الساعة إذا قال الإنسان مالَها ؟ قاله آبن مسعود . فتخبر أن أمر الدنيا قد انقضى ، وأمر الآخرة قد أتى . فيكون ذلك منها جوابا لهم عند سؤالهم ، ووعيدا للكافر ، و إنذارا للؤمن . وفى حديثها بأخبارها ثلاثة أقاويل :

أحدها – أن الله تعالى يَقْلِبها حيوانا ناطقا ؛ فتتكلم بذلك .

الثـانى – أن الله تعالى يُحْدِث فيها الكلام .

الثالث – أنه يكون منها بيان يقوم مقام الكلام . قال الطبرى : تُبين أخبارها بالرجّة والزلزلة و إخراج الموتى . ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾ أى إنها تحدّث أخبارها بوحى الله «لها» ، أى إليها . والعربُ تضع لام الصفة موضع « إلى » . قال العجّاج يصف الأرض :

وَحَى لَهَـا القَـرَار فآستقرّتِ * وشَدَّها بالرّاسيات الثُّبَّتِ

وهذا قول أبى عبيدة : « أَحَى لها » أى إليها . وقيل : « أَوْحَى لهَـا » أى أمرها ؛ قاله مجاهد . وقال السدّى : « أَوْحَى لها» أى قال لها . وقيل : سخرها . وقيل : المعنى يوم تكون الزلزلة، و إخراج الأرض أثقالها، تحدث الأرض أخبارها؛ ما كان عليها من الطاعات والمعاصى، وما عمل على ظهرها من خير وشر . ورُوى ذلك عن الثورى وغيره . ﴿يومئذ يَصْدُر النَّاس أشتاتا ﴾ أى فِرقا؛ جمع شَتّ . قيل : عن موقف الحساب؛ فريق يأخذ جهة اليمين إلى الجنة، وفريق آخر يأخذ جهة الشمال إلى النار؛ كما قال تعالى ؛ « يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ » (٢) « يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعون » (٣) . وقيل : يرجعون عن الحساب بعد فراغهم من الحساب . ﴿ أشتاتا ﴾

(١) راجع جـ ١٤ ص ٨٣ . (٢) آية ١٤ سورة الروم (٣) آية ٤٣ سورة الروم .

Marfat.com

يعنى فِرقا فِرقا . ﴿ لِيُرَوا أَعمالهم ﴾ يعنى ثواب أعمالهم . وهذا كما رُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما من أحدٍ يوم القيامة إلّا وَيَلُومُ نفسه ، فإن كان محسِنا فيقول : لم لا آزددت إحسانا ؟ وإن كان غير ذلك يقول : لم لا نَزَعت عن المعاصى " ؟ وهذا عند معاينة الثواب والعقاب . وكان آبن عباس يقول : « أشتاتا » متفرقين على قدر أعمالهم أهل الإيمان على حِدة ، وأهل كل دين على حدة . وقيل : هذا الصدور، إنما هو عند النشور؛ يَصْدُرون أشتاتا من القبور ، فيصار بهم إلى موقف الحساب ، ليُروا أعمالَهم فى كتبهم ، أو ليُروا جزاء أعمالهم ؛ فكأنهم وردوا القبور فدفِنوا فيها ، ثم صدروا عنها . والوارد : الجائى . والصادر : المنصرف . ﴿ أشتاتا ﴾ أى يبعثون من أقطار الأرض . وعلى القول الأول فيه تقديم وتأخير ؛ مجازه : تحدّث أخبارها ، بأن ربك أوحى لها ، ليروا أعمالهم . واعترض قوله « يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا » متفرقين عن موقف الحساب . وقراءة العامة لِيُرَوا » بضم الياء؛ أى لِيريَهم الله أعمالهم . وقرأ الحسن والزهرىّ وقتادة والأعرج ونصر ابن عاصم وطلحة بفتحها ؛ وروى ذلك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثقالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ كان آبن عباس يقول : مَن يعمَل من الكفار مثقال ذرّة خيرا يَرَهُ فى الدنيا، ولا يُثاب عليه فى الآخرة، ومن يعمل مثقال ذرّة من شر عُوقب عليه فى الآخرة ، مع عقاب الشرك ، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من المؤمنين يَرَهُ فى الدنيا ، ولا يعاقَب عليه فى الآخرة إذا مات ، ويُتجاوز عنه ، وإن عمل مثقال ذرّة من خير يُقبل منه ، ويضاعف له فى الآخرة . وفى بعض الحديث : " الذرة لا زِنة لها " وهذا مَثَلٌ ضَرَبه الله تعالى : أنه لا يُغفِل من عمل آبن آدمَ صغيرةً ولا كبيرة . وهو مِثل قوله تعالى :

Marfat.com

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ »(١) . وقد تقدم الكلام هناك في الذرّ ، وأنه لا وزن له . وذكر بعض أهل اللغة أن الذرّ : أن يضرب الرجل بيده على الأرض ، فما علق بها من التراب فهو الذرّ ، وكذا قال ابن عباس : إذا وضعت يدك على الأرض ورفعتها ، فكل واحد مما لزق به من التراب ذرّة . وقال محمد بن كعب القُرَظي : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ من كافر ، يرى(٢) ثوابه في الدنيا ، في نفسه وماله وأهله وولده ، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خير . ومن يعمل مثقال ذرّة من شرّ من مؤمن ، يرى(٢) عقوبته في الدنيا ، في نفسه وماله وولده وأهله ، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله شرّ . دليله ما رواه العلماء الأثبات من حديث أنس : أن هذه الآية نزلت على النبيّ صلى الله عليه وسلم وأبو بكر يأكل ، فأمسك وقال : يا رسول الله ، وإنا لنُرَى ما عَمِلْنا من خير وشرّ ؟ قال : " ما رأيت مما تكره فهو مثاقيل ذرّ الشرّ ، ويُدَّخر لكم مثاقيلُ ذَرّ الخير ، حتى تُعْطَوْه يومَ القيامة " . قال أبو إدريس : إن مِصْداقه في كتاب الله : « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ، وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ »(٣) . وقال مقاتل : نزلت في رجلين ، وذلك أنه لما نزل « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ »(٤) كان أحدهم يأتيه السائل ، فيستقل أن يعطيه التمرة والكِسرة والجوزة(٥) . وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير ، كالكَذبة والغِيبة والنظْرة ، ويقول : إنما أوعد الله النار على الكبائر ؛ فنزلت ترغبهم في القليل من الخير أن يُعْطُوه ؛ فإنه يوشك أن يكثُر ، ويُحذِّرُهُمْ اليسيرَ من الذنب ، فإنه يوشك أن يكثُر ؛ وقاله سعيد بن جبير . والإثم الصغير في عين صاحبه يوم القيامة أعظم من الجبال ، وجميع محاسنه أقل في عينه من كل شيء .

الثانية — قراءة العامة « يَرَهْ » بفتح الياء فيهما . وقرأ الجَحْدَري والسُّلَمِي وعيسى ابن عمر وأبان عن عاصم : « يُرَهْ » بضم الياء ؛ أي يُرِيه الله إياه . والأَوْلَى الاختيار ؛ لقوله تعالى : « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا »(٦) الآية . وسكن الهاء في قوله « يَرَهْ »

(١) آية ٤٠ سورة النساء . راجع جـ ٥ ص ١٩٥ . (٢) كذا في الأصل وبعض كتب التفسير بإثبات الياء . والراجح حذفها . (٣) آية ٣٠ سورة الشورى . (٤) آية ٨ سورة الإنسان . (٥) الجوزة : واحدة الجوز الذي يؤكل ؛ فارسي معرب . (٦) آية ٣٠ سورة آل عمران .

Marfat.com

فى الموضعين هشام. وكذلك رواه الكسائى عن أبى بكر وأبى حَيْوة والمغيرة . واختلس يعقوب والزهرى والجحدرى وشيبة . وأشبع الباقون . وقيل « يَرَه » أى يرى جزاءه ؛ لأن ما عمله قد مضى وعُدم فلا يُرى . وأنشدوا :

إنّ منْ يَعتدى ويَكسِبُ إثما * وزنَ مِثقالِ ذرّة سيَرَاهُ

ويُجازَى بفعله الشرّ شرا * وبفعل الجميل أيضا جزَاهُ

هكذا قوله تبارك ربّى * فى إذا زُلزلت وجلّ ثناه

الثالثة — قال ابن مسعود : هذه أحكم آية فى القرآن ؛ وصَدَق . وقد اتفق العلماء على عموم هذه الآية ؛ القائلون بالعموم ومن لم يقل به . وروى كعب الأحبار أنه قال: لقد أنزل الله على محمد آيتين أحصَتا ما فى التوراة والإنجيل والزَّبور والصُّحُف: « فمن يعمل مِثقال ذرةٍ خيرا يره . ومن يعمل مِثقال ذرةٍ شرا يره » . قال الشيخ أبو مَدْين فى قوله تعالى : « فمن يعمل مِثقال ذرةٍ خيرا يره » قال: فى الحال قبل المآل. وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يسمى هذه الآية الآية الجامعة الفاذة؛ كما فى الصحيح لما سئل عن الحُمُر وسكت عن البغال، والجواب فيهما واحد؛ لأن البغل والحمار لا كَرّ فيهما ولا فرّ؛ فلما ذكر النبيّ صلى الله عليه وسلم ما فى الخيل من الأجر الدائم، والثواب المستمر، سأل السائل عن الحُمُر، لأنهم لم يكن عندهم يومئذ بَغْل، ولا دخل الحجاز منها إلا بغلة النبيّ صلى الله عليه وسلم « الدُّلْدُل »، التى أهداها له المقوقس، فأفتاه فى الحَمِير بعموم الآية، وإن فى الحمار مثاقيل ذرّ كثيرة؛ قاله ابن العربىّ . وفى الموطأ: أن مِسكينا استطعم عائشة أم المؤمنين وبين يديها عِنَب؛ فقالت لإنسان: خذ حبة فأعطه إياها . فجعل ينظر إليها ويعجب؛ فقالت : أتعجب! كم ترى فى هذه الحبة من مثقال ذرّة . وروى عن سعد بن أبى وَقّاص : أنه تصدق بتمرتين ، فقبض السائل يده ، فقال للسائل : ويقبل الله منا مثاقيل الذرّ، وفى التمرتين مثاقيل ذرّ كثيرة. وروى المُطّلب بن حَنْطَب : أن أعرابيا سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يقرؤها فقال : يا رسول الله ، أمثقالُ ذرّة ! قال "نعم" فقال الأعرابىّ : واسَوْأتاه ! مِرارا : ثم قام وهو يقولها ؛ فقال النبيّ صلى الله

Marfat.com

عليه وسلم : " لقد دخل قلب الأعرابي الإيمانُ " . وقال الحسن : قَدِم صعصعة عمّ الفرزدق[1] على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فلما سمع «فمَنْ يعمل مِثقالَ ذرّة» الآيات ، قال : لا أبالي ألا أسمع من القرآن غيرها ، حَسْبي ، فقد انتهت الموعظة ؛ ذكره الثعلبي . ولفظ الماوردي : ورُوِى أن صعصعة ابن ناجية جدّ الفرزدق أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم يستقرئه ، فقرأ عليه هذه الآية ؛ فقال صعصعة : حسبي حسبي ؛ إن عَمِلتُ مثقالَ ذرّةٍ شرًّا رأيتُه . وروى معمر عن زيد ابن أسلم : أن رجلا جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : علّمني مما علمك الله . فدفعه إلى رجل يعلمه ؛ فعلمه « إذا زُلزلت — حتى إذا بلغ — فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » قال : حسبي . فأخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "دَعُوه فإنّه قد فَقُه" . ويحكى أن أعرابيا أخّر « خَيْرًا يَرَهُ » فقيل : قدمت وأخرت . فقال :

خذا بطن هَرْشَى أو قَفاها فإنّه * كلا جانبي هَرْشَى لهنّ طريق[2]

سورة « والعاديات »

وهي مكية ؛ في قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء . ومدنية في قول ابن عباس وأنس ومالك وقتادة . وهي إحدى عشرة اية

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢)

قوله تعالى : ﴿ والعادياتِ ضبحا ﴾ أي الأفراس تعدو . كذا قال عامة المفسرين وأهل اللغة ؛ أي تعدو في سبيل الله فتضبح . قال قتادة : تضبح إذا عدت ؛ أي تحمحم . وقال

---

(١) قال أبو أحمد العسكري : « وقد وهم بعضهم في صعصعة بن معاوية عم الأحنف بن قيس ، فقال : صعصعة عم الفرزدق وهو غلط » . والمعروف أن صعصعة بن ناجية هو جد الفرزدق ، وليس له عم يسمى صعصعة . راجع كتاب الإصابة وأسد الغابة في ترجمة صعصعة .

(٢) هرشى : ثنية في طريق مكة قريبة من الجحفة ، يرى منها البحر ، ولها طريقان ، فكل من سلك واحدا منهما أفضى به إلى موضع واحد . في معجم البلدان لياقوت : خذا أنف هرشى ... وفي اللسان : خذا جنب هرشى ...

Marfat.com

الفراء : الضَّبْح : صوت أنفاس الخيل إذا عَدَوْن . ابن عباس : ليس شيء من الدواب يَضْبَح غير الفرس والكلب والثعلب . وقيل : كانت تُكَعَم[1] لئلا تصهل ، فيعلم العدو بهم ؛ فكانت تتنفس في هذه الحال بقوة . قال ابن العربي : أقسم الله بمحمد صلى الله عليه وسلم فقال : « يس . والقرآن الحكيم » ، وأقسم بحياته فقال : « لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ »[2] ، وأقسم بخيله وصهيلها وغُبارها ، وقدح حوافرها النار من الحجر ، فقال : « والعاديات ضَبْحا » ... الآيات الخمس . وقال أهل اللغة[3] :

وَطَعْنَةٍ ذاتِ رَشاشٍ واهِيَهْ * طَعَنْتها عندَ صُدُورِ العَادِيَهْ

يعني الخيل . وقال آخر :

والعادياتُ أَسابِيُّ الدماءِ بها * كأنّ أعناقَها أنصاب ترجيب[4]

يعني الخيل . وقال عنترة :

والخيل تعلم حين تضـ * ـبَحُ في حِياضِ المَوْتِ ضَبْحَا

وقال آخر :

لَسْتُ بالتُّبَّعِ اليمانِيِّ إنْ لَمْ * تَضْبَحِ الخيلُ في سَوادِ العِراقِ

وقال أهل اللغة : وأصل الضَّبْح والضُّباح للثعالب ؛ فاستعير للخيل . وهو من قول العرب : ضَبَحَتْه النار : إذا غيرت لونه ولم تبالغ فيه . وقال الشاعر :

فَلَمَّا أَنْ تَلَهْوَجْنَا شِواءً * به اللَّهَبانُ مقهورًا ضَبِيحًا[5]

وانضبح لونه : إذا تغير إلى السواد قليلا . وقال :

* عَلِقْتُها قَبْلَ انْضِباحِ لَوْنِي *

---

(١) الكعام : شيء يجعل على فم البعير . (٢) آية ٧٢ سورة الحجر . (٣) قوله : « قال أهل اللغة ... » إلى آخر البيت . هكذا ورد في جميع نسخ الأصل ، وظاهر أن فيه سقطا ؛ يوضحه أبو حيان في البحر بقوله : « قال أهل اللغة : أصله للثعلب ، فاستعير للخيل ... » الخ . على أن المؤلف أورده فيما يأتي .

(٤) البيت لسلامة بن جندل . والأسابي : الطرق من الدم . وأسابي الدماء : طرائقها . والترجيب : أن تدعم الشجرة إذا كثر حملها ، لئلا تتكسر أغصانها . قال ابن منظور : « فإنه شبه أعناق الخيل بالمرجب . وقيل : شبه أعناقها بالحجارة التي تذبح عليها النسائك » .

(٥) البيت لمضرس الأسدي . والملهوج من الشواء : الذي لم يتم نضجه . واللهبان : اتقاد النار واشتعالها .

Marfat.com

وإنما تَضْبَح هذه الحيوانات إذا تغيرت حالها من فَزَع وتعب أو طمع . ونصب « ضَبْحا » على المصدر ؛ أى والعاديات تضبحُ ضَبْحًا[(١)] . والضبح أيضا الرماد . وقال البصريون : « ضَبْحًا » نصب على الحال . وقيل : مصدر فى موضع الحال . قال أبو عبيدة : ضَبَحَتِ الخيل ضَبْحًا مثل ضَبَعَتْ ؛ وهو السير . وقال أبو عبيدة : الضَّبْح والضَّبْع : بمعنى العدو والسير . وكذا قال المبرد : الضبح مدّ أضباعها فى السير . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سَرِيّة إلى أناس من بنى كِنانة ، فأبطأ عليه خبرها ، وكان آستعمل عليهم المنذر بن عمرو الأنصارى ، وكان أحد النقباء ؛ فقال المنافقون : إنهم قُتلوا ؛ فنزلت هذه السورة إخبارا للنبيّ صلى الله عليه وسلم بسلامتها ، و بشارة له بإغارتها على القوم الذين بعث إليهم . وممن قال: إن المراد بالعاديات الخيل ، آبنُ عباس وأنس والحسن ومجاهد . والمراد الخيل التى يغزو عليها المؤمنون . وفى الخبر : " من لم يعرف حُرْمة فرس الغازى ، ففيه شُعبة من النفاق " .

وقول ثان : أنها الإبل ؛ قال مسلم : نازعتُ فيها عكرمة فقال عكرمة : قال آبن عباس هى الخيل . وقلت : قال علىّ هى الإبل فى الحج ، ومولاى أعلم من مولاك . وقال الشعبيّ : تمارى[(٢)] علىّ وآبن عباس فى « العاديات » ، فقال علىّ : هى الإبل تعدو فى الحج . وقال آبن عباس : هى الخيل ؛ ألا تراه يقول «فأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا» فهل تثير إلا بحوافرها ! وهل تَضْبَحُ الإبل ! فقال علىّ : ليس كما قلت ، لقد رأيتنا يوم بدر وما معنا إلا فرس أبلق للمقداد ، وفرس لمَرْثَد بن أبى مَرْثَد ؛ ثم قال له علىّ : أتفتِى الناس بما لا تعلم ! والله إن كانت لأول غزوة فى الإسلام وما معنا إلا فرسان : فرس للمقداد ، وفرس للزُّبير ؛ فكيف تكون العادياتِ ضبحا ! إنما العادياتُ الإبل من عَرَفَة إلى المزدلِفة ، ومن المزدلِفة إلى عرفة . قال ابن عباس : فرجعت إلى قول علىّ ، و به قال ابن مسعود وعبيد بن عمير ومحمد بن كعب والسدّى . ومنه قول صفية بنت عبد المطلب :

فلا والعادياتِ غَداة جَمْع ✱ بأيديها إذا سَطَع الغُبار

---

(١) فى القاموس : « والضبح بالكسر الرماد » .　(٢) التمارى والمماراة : المجادلة .

Marfat.com

يعني الإبل . وسميت العاديات لاشتقاقها من العدو، وهو تباعد الأرجل في سرعة المشي . وقال آخر :

رأى صاحبي في العاديات نَجِيبةً * وأمثالَها في الواضعاتِ القوامِسِ (١)

ومن قال هي الإبل فقوله «ضبحا» بمعنى ضبعا؛ فالحاء عنده مبدلة من العين؛ لأنه يقال : ضبعت الإبل وهو أن تمد أعناقها في السير. وقال المبرد : الضبع مد أضباعها في السير . والضبح أكثر ما يستعمل في الخيل. والضبع في الإبل. وقد تبدل الحاء من العين. أبو صالح: الضبح من الخيل: الحمحمة، ومن الإبل التنفس . وقال عطاء: ليس شيء من الدواب يَضْبَح إلا الفرس والثعلب والكلب؛ وروى عن ابن عباس . وقد تقدّم عن أهل اللغة أن العرب تقول : ضَبَح الثعلب ؛ وضبح في غير ذلك أيضا . قال تَوْبة :

ولو أنّ ليلَى الأخيلِيةَ سَلّمَتْ * عَلَيَّ ودوني تُرْبةٌ وصفائحُ (٢)

لَسَلّمْتُ تسليمَ البشاشةِ أو زَقَا * إليها صَدًى من جانب القبر ضابحُ (٣)

زقا الصدى يزقو زُقاء (٤) : أي صاح . وكل زاقٍ صائح . والزَّقْية: الصيحة . ﴿ فالمورِياتِ قَدْحا ﴾ قال عكرمة وعطاء والضحاك : هي الخيل حين تُورِي النار بحوافرها ، وهي سنابكها ؛ وروى عن ابن عباس . وعنه أيضا : أورت بحوافرها غُبارا . وهذا يخالف سائر ما روى عنه في قدح النار ؛ وإنما هذا في الإبل . وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد « والعادياتِ ضَبْحًا . فالمُورِياتِ قَدْحًا » قال قال ابن عباس : هو في القتال وهو في الحج . ابن مسعود: هي الإبل تطأ الحصى، فتخرج منها النار. وأصل القَدْح الاستخراج؛

(١) في اللسان مادة (عدا) : «وحكى الأزهري عن ابن السكيت (وإبل عادية : ترعى الخلة ولا ترعى الحمض...) وقال : وكذلك العاديات» وساق البيت . وفي اللسان أيضا مادة (وضع) : «وناقة واضع وواضعة ونوق واضعات : ترعى الحمض حول الماء . وأنشد ابن برى قول الشاعر ... » الخ . ولفظ « القوامس » هكذا ورد في اللسان وشرح القاموس. وبعض نسخ الأصل. وفي نسخة : « القرامس » بالراء. ولعل الصواب : «العرامس» جمع عرمس (بكسر العين) : وهي الناقة الصلبة الشديدة .

(٢) في نسخة : « جندل » وهي رواية في البيت . (٣) في رواية صائح . ولا شاهد فيه .

(٤) في اللسان : « زقا يزقو ويزقى زقوا وزقاء وزقوا وزقيا وزقيا » .

Marfat.com

ومنه قَدَحْت العين : إذا أخرجت منها الماء الفاسد. واقتدحْت بالزند. واقتدَحْتُ المرق : غَرفته . ورَكِيّ قَدُوح : تغترف باليد . والقَديح : ما يبقى فى أسفل القِدر، فيغرف بجَهد . والمِقدحة: ما تُقْدَح به النار . والقدّاحة والقدّاح: الحجر الذى يُورِى النار. يقال: وَرَى الزند (بالفتح) يَرِى وَرْياً : إذا خرجت ناره . وفيه لغة أخرى: وَرِى الزند (بالكسر) يَرِى فيهما . وقد مضى هذا فى سورة « الواقعة »(١) . و « قَدْحاً » انتصب بما انتصب به « ضَبْحاً » .

وقيل : هذه الآيات فى الخيل؛ ولكن إيراءها : أن تهيج الحرب بين أصحابها وبين عدوّهم . ومنه يقال للحرب إذا التحمت : حَمِيَ الوَطِيسُ . ومنه قوله تعالى : « كُلَّما أوقَدُوا نارا لِلْحَرْبِ أطْفأها اللهُ »(٢) . وروى معناه عن ابن عباس أيضا ، وقاله قتادة . وعن ابن عباس أيضا ، وقاله قتادة . وعن ابن عباس أيضا : أن المراد بالمُورِيات قَدْحا : مَكْرُ الرجال فى الحرب ؛ وقاله مجاهد وزيد بن أسلم . والعرب تقول إذا أراد الرجل أن يمكر بصاحبه : والله لأمكُرنّ بك ، ثم لأُورِيَنَّ لك . وعن ابن عباس أيضا : هم الذين يغزُون فيُورون نيرانهم بالليل ، لحاجتهم وطعامهم . وعنه أيضا : أنها نيران المجاهدين إذا كثرت نارها إرهابا . وكل من قرب من العدوّ يُوقد نيرانا كثيرة ليظنهم العدوّ كثيرا . فهذا إقسام بذلك . قال محمد بن كعب : هى النار تجمع . وقيل : هى أفكار الرجال تُورِى نار المكر والخديعة . وقال عكرمة : هى ألْسنة الرجال تُورِى النار من عظيم ما تتكلم به ، ويَظْهر بها ، من إقامة الحُجج، وإقامة الدلائل ، وإيضاح الحق، وإبطال الباطل . وروى ابن جُريج عن بعضهم قال : فالمُنجحات أمْرا وعملا ، كنجاح الزند إذا أورى .

قلت : هذه الأقوال مجاز؛ ومنه قولهم : فلان يُورِى زِناد الضلالة. والأول : الحقيقة؛ وأن الخيل من شِدّة عدوها تقدح النار بحوافرها . قال مقاتل : العرب تسمى تلك النار نار أبى حُباحِب، وكان أبو حُباحِب شيخا من مُضَر فى الجاهلية، من أبخل الناس، وكان لا يُوقد نارا لخبز ولا غيره حتى تنام العيون، فيوقِد نُوَيرةً تقِد مرّة وتخمد أخرى؛ فإن استيقظ لها أحد

(١) راجع جـ ١٧ ص ٢٢١

(٢) آية ٦٤ سورة المائدة .

Marfat.com

أطفاها ، كراهية أن ينتفع بها أحد . فشبهت العرب هذه النار بناره؛ لأنه لا يُنتفع بها .
وكذلك إذا وقع السيف على البيضة فاقتدحت نارا ، فكذلك يسمونها . قال النابغة :

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ سُيوفَهم * بهنّ فلولٌ مِن قِراع الكتائبِ
تَقُدّ السَّلوقيَّ المضاعَفَ نَسْجُه * وتُوقِد بالصُّفَّاح نارَ الحُباحِبِ[1]

قوله تعالى : فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾

الخيل تغير على العدو عند الصبح؛ عن ابن عباس وأكثرِ المفسرين . وكانوا إذا أرادوا الغارة سَرَوْا ليلا ، ويأتون العدوّ صبحا ؛ لأن ذلك وقت غفلة الناس. ومنه قوله تعالى : «فساء صَباح المُنْذَرِينَ»[2] . وقيل : لعزهم أغاروا نهارا ، و «صُبْحا» على هذا، أى علانية، تشبيها بظهور الصبح . وقال ابن مسعود وعليّ رضى الله عنهما : هى الإبل تدفع بركبانها يوم النحر من منى إلى جَمْع . والسنة ألا تَدْفع حتى تصبح ؛ وقاله القُرَظيّ . والإغارة : سرعة السير ؛ ومنه قولهم : أشرِقْ ثَبِير[3] ، كيما نُغِير .

قوله تعالى : فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾

أى غبارا؛ يعنى الخيل تثير الغبار بشدّة العدو فى المكان الذى أغارت به . قال عبد الله ابن رواحة :

عدِمتُ بُنَيَّتِي إن لم ترَوْها * تُثِير النَّقْعَ من كَنَفَيْ كَداءِ[4]

والكناية فى «به» ترجع إلى المكان أو إلى الموضع الذى تقع فيه الإغارة. وإذا عُلِم المعنى جاز أن يكنى عما لم يجر له ذكر بالتصريح؛ كما قال «حَتَّى توارتْ بِالحِجابِ»[5] . وقيل: «فأثرن بِهِ»

(١) السلوق : الدرع المنسوبة إلى سلوق ، قرية باليمن . والصفاح : جمع صفاحة ، وهى الحجر العريض .
(٢) آية ١٧٧ سورة الصافات .
(٣) ثبير : جبل بقرب مكة ، وهو على يمين الذاهب إلى عرفة . أى ادخل فى الشروق ، وهو ضوء الشمس .
(٤) كداء (بفتح الكاف ومدّ الدال) : جبل بمكة . والهاء فى تروها : راجعة إلى الخيل المفهومة من السياق .
ورواية صدر البيت فى الشوكانى ٤٦٩/٥ : (عدمنا خيلنا ...) .
(٥) آية ٣٢ سورة ص .

Marfat.com

أى بالعَدْو «نَقْعًا» . وقد تقدّم ذكر العَدْو . وقيل : النقع : ما بين مزدلِفة إلى مِنى ؛ قاله محمد ابن كعب القُرَظِىّ . وقيل : إنه طريق الوادى ؛ ولعله يرجع إلى الغبار المثار من هذا الموضع . وفى الصحاح : النقع : الغبار ، والجمع : نِقاع . والنقع : مَحْبِس الماء ، وكذلك ما اجتمع فى البئر منه . وفى الحديث : أنه نهى أن يمنع نقع البئر . والنقع الأرض الحرّة الطين يستنقع فيها الماء ؛ والجمع : نِقاع وأنقع ؛ مثل بحر وبِحار وأبحر .

قلت : وقد يكون النقع رفع الصوت ، ومنه حديث عمر حين قيل له : إن النساء قد اجتمعن يبكين على خالد بن الوليد ؛ فقال : وما على نساء بنى المغيرة أن يسفِكن من دموعهنّ وهنّ جلوس على أبى سليمان ، ما لَمْ يكن نَقْع ولا لَقْلَقَة . قال أبو عبيد : يعنى بالنقع رفع الصوت ؛ على هذ رأيت قول الأكثرين من أهل العلم ؛ ومنه قول لبيد :

فمتى ينقَعْ صُراخٌ صادِق * يُحْلِبوها ذاتَ جَرْس وزَجَل

ويروى «يَجْلِبوها» أيضا . يقول : متى سمعوا صراخا أحلبوا الحرب ، أى جمعوا لها . وقوله « ينْقَع صُراخ » : يعنى رفع الصوت . وقال الكسائى : قوله « نقع ولا لقلقة » النقع : صنعة الطعام ؛ يعنى فى المأتم . يقال منه : نقعتُ أنقَع نَقْعا . قال أبو عبيد : ذهب بالنقع إلى النَّقيعة ؛ وإنما النقيعة عند غيره من العلماء : صنعة الطعام عند القدوم من سفر ، لا فى المآتم . وقال بعضهم : يريد عمر بالنقع : وضع التراب على الرأس ؛ يذهب إلى أن النقع هو الغبار . ولا أحسب عمر ذهب إلى هذا ، ولا خافه منهنّ ، وكيف يبلغ خوفه ذا وهو يكره لهنّ القيام . فقال : يَسفِكْنَ من دموعهنّ وهُنّ جلوس . قال بعضهم : النقع : شق الجيوب ؛ وهو الذى لا أدرى ما هو من الحديث ولا أعرفه ، وليس النقع عندى فى هذا الحديث إلا الصوت الشديد ، وأمّا اللقلقة : فشِدّة الصوت ، ولم أسمع فيه اختلافا . وقرأ أبو حَيْوة « فأثّرْنَ » بالتشديد ؛ أى أرت آثار ذلك . ومن خفف فهو من أثار : إذا حرّك ؛ ومنه « وأثاروا الأرضَ »(١) .

---

(١) آية ٩ سورة الروم .

قوله تعالى : فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾

«جَمْعًا» مفعول بـ«وَسَطْن» ؛ أى فوسطْن بركبانهن العدوّ؛ أى الجمع الذى أغاروا عليهم. وقال آبن مسعود : « فوسَطْن بِهِ جمعا » : يعنى مُزْدلِفة ؛ وسميت جمعا لأجتماع الناس . ويقال : وسَطْتُ القوم أَسِطُهم وَسْطًا وسِطَةً ؛ أى صِرت وَسْطَهم . وقرأ على رضى الله عنه « فَوَسَّطْن » بالتشديد، وهى قراءة قتادة وآبنِ مسعود وأبى رجاء؛ لغتان بمعنى؛ يقال : وسَّطْتُ القومَ (بالتشديد والتخفيف) وتوَسَّطتُهم : بمعنى واحد . وقيل : معنى التشديد : جعلها الجمع قسمين . والتخفيف : صِرْن فى وسط الجمع ؛ وهما يرجعان إلى معنى الجمع .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾

هذا جواب القسم؛ أى طبع الإنسان على كفران النعمة . قال آبن عباس : « لَكَنُودٌ » لكفور جَحُود لنعم الله . وكذلك قال الحسن . وقال : يذكر المصائب و ينسى النعم . أخذه الشاعر فنظمه :

يأيها الظالمُ فى فِعْلِهِ * والظُّلم مردود على مَنْ ظَلَمْ
إلى متى أَنْتَ وحَتَّى متى * تشكو المُصيباتِ وتنسى النعم!

وروى أبو أُمامة الباهلىّ قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : " الكَنُود ، هو الذى يأكل وَحْدَه، ويمنع رِفْدَه[(١)]، و يضرب عَبْدَه". وروى آبن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألَا أُنَبِّئُكُمْ بشرارِكُمْ " ؟ قالوا بلى يارسول الله . قال : " من نَزَل وحدَه ، ومنع رِفْدَه ، وجَلَد عبدَه ". خرجهما الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول . وقد روى عن آبن عباس أيضا أنه قال : الكَنود بلسان كِندة وحضرموت : العاصى ، و بلسان ربيعة ومضر : الكفور . و بلسان كِنانة : البخيل السَّيِّء المَلَكة ؛ وقاله مقاتل . وقال الشاعر :

كَنود لِنَعْماء الرجالِ ومَنْ يكن * كَنُودًا لنعماء الرجال يُبَعَّدِ

---

(١) الرفد (بكسر الراء) : العطاء والصلة .

Marfat.com

أى كفور . ثم قيل : هو الذى يكفر اليسير، ولا يشكر الكثير . وقيل : الجاحد للحق . وقيل : إنما سميت كِنْدَة كِندة، لأنها جحدتْ أباها . وقال إبراهيم بن هَرْمَةَ الشاعر :

دع البخلاءَ إن شمخُوا وصدُّوا * وذِكْرى بُخْـلِ غانيـةٍ كَنودِ

وقيل : الكَنود : من كَند إذا قطع ؛ كأنه يقطع ما ينبغى أنْ يواصله من الشكر . ويقال : كَنَد الحبلَ : إذا قطعه . قال الأعشى :

أميطِى تُميطى بصُلْبِ الفـؤادِ[(1)] * وَصُـولِ حِبـالٍ وكَنّادِها

فهذا يدل على القطع . ويقال : كَنَدَ يَكْنِد كُنودا : أى كفر النعمة وجحدها، فهو كنود . وآمرأة كنود أيضا ، وكُنُدٌ مِثله . قال الأعشى :

أحدِث لها تحدِث لوصلك إنها * كُنُد لوصـلِ الزائر المعتـادِ[(2)]

أى كفور للواصـلة . وقال آبن عباس : الإنسان هنا الكافر ؛ يقول إنه لكفور ؛ ومنه الأرض الكنود التى لا تنبت شيئا . وقال الضحاك : نزلت فى الوليد بن المغيرة . قال المبرد : الكنود : المـانع لمـا عليه . وأنشد لكثيِّر[(3)] :

أحدِثْ لها تُحدِثْ لوصلك إنها * كُنُدٌ لِوَصل الزائر المعتـاد

وقال أبو بكر الواسطى : الكنود : الذى ينفق نِعم الله فى معاصى الله . وقال أبو بكر الوراق : الكنود : الذى يرى النعمـة من نفسه وأعوانه . وقال الترمذى : الذى يرى النعمـة ولا يرى المنعِم . وقال ذو النـون المصرى : الهـلوع والكنود : هو الذى إذا مسـه الشر جزوع ، و إذا مسه الخـير منوع . وقيـل : هو الحقود الحسود . وقيـل : هو الجهول لقدره . وفى الحكمة : من جهِل قدره : هتك سِتره .

---

(١) ماط الأذى ميطا، وأماطه : نحاه ودفعه . يقول إن تنحيت عنى ، بأنى صلب الفؤاد ، وصول لمن وصل ، كفور لمن كفر . ورواية صدر البيت فى اللسان . فيطى أى تنحى وأذهبى . (٢) المعتاد : الذى يعود مرة بعد أخرى .

(٣) تقدم أن هذا البيت للأعشى ، وهو فى ديوان ، ولم نجده فى ديوان كثير الذى بين أيدينا .

Marfat.com

قلت : هذه الأقوال كلها ترجع إلى معنى الكفران والجحود . وقد فسر النبيّ صلى الله عليه وسلم معنى الكنود بخصال مذمومة ، وأحوال غير محمودة ؛ فإن صح فهو أعلى ما يقال ، ولا يبقى لأحد معه مقال .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ (٧)

أى وإن الله عز وجل ثناؤه على ذلك من ابن آدم لشهيد . كذا روى منصور عن مجاهد ؛ وهو قول أكثر المفسرين ، وهو قول ابن عباس . وقال الحسن وقتادة ومحمد ابن كعب : «وإنه» أى وإن الإنسان لشاهد على نفسه بما يصنع ؛ ورُوِى عن مجاهد أيضا .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ (٨)

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّه ﴾ أى الإنسان من غير خلاف . ﴿ لِحُبِّ الخَيرِ ﴾ أى المال ؛ ومنه قوله تعالى : « إن ترك خيرا » (١) . وقال عدىّ :

ماذا تُرَجِّى النفوسُ من طلبِ الـ * ـخيْرِ وحُبُّ الحياةِ كارِبُها (٢)

﴿ لَشَدِيدٌ ﴾ أى لقوىّ فى حبه للمال . وقيل : « لشديد » لبخيل . ويقال للبخيل : شديد ومتشدّد . قال طَرَفة :

أَرَى الموتَ يعتامُ الكِرامَ ويَصْطَفِى * عَقِيلَةَ مالِ الفاحِشِ المُتَشَدِّدِ

يقال : اعتامه واعتماه ؛ أى اختاره . والفاحِشُ : البخيل أيضا . ومنه قوله تعالى : « ويأمُرُكُم بالفَحشاءِ » (٣) أى البخل . قال ابن زيد : سمى الله المال خيرا ؛ وعسى أن يكون شرا وحراما (٤) ؛ ولكن الناس يَعُدّونه خيرا ، فسمّاه الله خيرا لذلك . وسمى الجهاد سُوءا ، فقال : « فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ » (٥) على ما يسميه الناس . قال الفرّاء : نظم الآية أن يقال : وإنه لَشديد الحبّ للخير ؛ فلما تقدّم الحب قال : شديد ، وحذف من آخره

(١) آية ١٨٠ سورة البقرة .

(٢) كاربها : غامها ؛ من كربه الأمر : اشتدّ عليه .

(٣) آية ٢٦٨ سورة البقرة .

(٤) فى بعض نسخ الأصل : « شرا وخيرا » .

(٥) آية ١٧٤ سورة آل عمران .

Marfat.com

ذكر الحب ؛ لأنه قد جرى ذكره ، ولرءوس الآى ؛ كقوله تعالى : « فِي يومٍ عاصِفٍ »[1] ، والعُصُوف : للريح لا الأيام ، فلما جرى ذكر الريح قبل اليوم ، طرح من آخره ذكر الريح ؛ كأنه قال : فى يوم عاصف الريح .

قوله تعالى : أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ أفلا يَعْلَمُ ﴾ أى ابن آدم ﴿ إذا بُعْثِرَ ﴾ أى أثير وقُلِب وبُحِث ، فأُخرج ما فيها . قال أبو عبيدة : بَعْثَرْتُ المتاع : جعلت أسفلهُ أعلاه . وعن محمد بن كعب قال : ذلك حين يُبْعَثون . الفرّاء : سمعت بعض أعراب بنى أسد يقرأ : « بُحْثِر » بالحاء مكان العين ؛ وحكاه الماوردى عن ابن مسعود ، وهما بمعنى . ﴿ وحُصِّل ما في الصدورِ ﴾ أى مُيِّز ما فيها من خير وشر ؛ كذا قال المفسرون . وقال ابن عباس : أُبرز . وقرأ عبيد بن عمير وسعيد بن جُبير ويحيى بن يعمُر ونصر بن عاصم « وحَصَل » بفتح الحاء وتخفيف الصاد وفتحها ؛ أى ظهر . ﴿ إِنَّ رَبَّهم بِهِم يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ ﴾ أى عالم لا يخفى عليه منهم خافية . وهو عالم بهم فى ذلك اليوم وفى غيره ، ولكن المعنى أنه يجازيهم فى ذلك اليوم . وقوله : « إذا بُعثِر » العامل فى « إذا » : « بُعثِر » ، ولا يعمل فيه « يَعلَمُ » ؛ إذ لا يراد به العلم من الإنسان ذلك الوقت ، إنما يراد فى الدنيا . ولا يعمل فيه « خَبِيرٌ » ؛ لأن ما بعد « إنّ » لا يعمل فيما قبلها . والعامل فى « يَوْمَئِذٍ » : « خَبِيرٌ » ، وإن فصلت اللام بينهما ؛ لأن موضع اللام الابتداء . وإنما دخلت فى الخبر لدخول « إنّ » على المبتدأ . ويروى أن الحجاج قرأ هذه السورة على المنبر يحضهم على الغزو ، فجرى على لسانه : « أَنَّ ربهم » بفتح الألف ، ثم استدركها فقال : « خَبير » بغير لام . ولولا اللام لكانت مفتوحة ، لوقوع العلم عليها . وقرأ أبو السَّمّال « أَنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ خَبِيرٌ » . والله سبحانه وتعالى أعلم .

(١) آية ١٨ سورة إبراهيم .

Marfat.com

تفسير سورة « القارعة »

وهى مكية بإجماع . وهى عشر آيات[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ أى القيامة والساعة ؛ كذا قال عامة المفسرين . وذلك أنها تقرع الخلائق بأهوالها وأفزاعها . وأهل اللغة يقولون : تقول العرب قَرَعَتْهم القارعة ، وفَقَرَتْهم الفاقرة ؛ إذا وقع بهم أمر فظيع . قال ابن أحمر :

وقارعة مِنَ الأيام لَوْلَا * سبيلهم لزاحت[2] عنك حِينا

وقال آخر :

مَتَى تَقْرَعْ بمَرْوتكم[3] نَسُؤْكم * ولم تُوقَدْ لنا فى القِدْرِ نَارُ

وقال تعالى : « وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ[4] » وهى الشديدة من شدائد الدهر .

قوله تعالى : ﴿ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ استفهام؛ أى أىّ شىء هى القارعة ؟ وكذا ﴿ وما أدراك ما القارعة ﴾ كلمة استفهام على جهة التعظيم والتفخيم لشأنها؛ كما قال : « الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة » على ما تقدّم[5] .

---

(١) فى كتاب روح المعانى : وآيها إحدى عشرة آية فى الكوفى ، وعشر فى الحجازى ، وثمان فى البصرى والشامى .

(٢) فى بعض النسخ : « لراحت » بالراء . (٣) المروة : حجر يقدح منه النار .

(٤) آية ٣١ سورة الرعد . (٥) راجع جـ ١٨ ص ٢٥٧ .

Marfat.com

قوله تعالى : يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾

« يوم » منصوب على الظرف ، تقديره : تكون القارعة يوم يكون الناس كالفراش المبثوث . قال قتادة : الفراش الطير الذى يتساقط فى النار والسراج . الواحدة فراشة ، وقاله أبو عبيدة . وقال الفراء : إنه الهَمَج الطائر، من بَعوض وغيره ؛ ومنه الجراد . و يقال : هو أطيش من فراشة . وقال :

طُوَيِّشٌ من نفرٍ أطْياشِ * أطيشُ من طائرة الفَراشِ

وقال آخر :

وقد كانَ أقوامٌ رددتَ قُلُوبَهم (١) * إليهم وكانوا كالفَراشِ من الجَهْلِ

وفى صحيح مسلم عن جابر، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مثلى ومثَلُكُمْ كمثل رجل أوقد نارا ، فجعل الجنادِبُ والفَراشُ يَقَعْن فيها ، وهو يذُبُّهنَّ عنها ، وأنا آخذُ بحُجَزِكُمْ عن النار، وأنتم تَفلِتونَ مِنْ يديِ " . وفى الباب عن أبى هريرة . والمبثوث المتفرق . وقال فى موضع آخر : « كأنَّهمْ جراد منتشِر » (٢) . فأول حالهم كالفَراش لا وجه له ، يَتحيَّرُ فى كل وجه ، ثم يكونون كالجراد، لأن لها وجها تقصده . والمبثوث : المتفرق المنتشر . وإنما ذكر على اللفظ : كقوله تعالى : « أعجازُ نخلٍ مُنْقَعِرٍ » (٣) ولو قال المبثوثة [فهو] (٤) كقوله تعالى : « أعجاز نخلٍ خاوِيةٍ » (٥) . وقال آبن عباس والفراء : « كالفراش المبثوث » كغَوغاء الجراد، يركب بعضها بعضا . كذلك الناس ، يجول بعضهم فى بعض إذا بعثوا .

قوله تعالى : وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾

أى الصوف الذى يُنفش باليد، أى تصير هباء وتزول ؛ كما قال جل ثناؤه فى موضع آخر : « هَبَاءً مُنبثًا » (٦) . وأهل اللغة يقولون : العِهن الصوف المصبوغ . وقد مضى فى سورة « سَألَ سائلٌ » (٧) .

(١) فى بعض النسخ : « عليهم » . (٢) آية ٧ سورة القمر . (٣) آية ٢٠ سورة القمر .
(٤) الزيادة من تفسير ابن عادل يقتضيها السياق . (٥) آية ٧ سورة الحاقة .
(٦) آية ٦ سورة الواقعة . (٧) راجع جـ ١٨ ص ٢٨٤

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ (٦) فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ (٨) فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَاهِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌۢ (١١) ﴾

قد تقدم القول فى الميزان فى « الأعراف والكهف والأنبياء » . وأن له كِفّة ولسانا توزن فيه الصحف المكتوب فيها الحسانات والسيئات . ثم قيل : إنه ميزان واحد بيد جبريل يزن أعمال بنى آدم، فعبّر عنه بلفظ الجمع . وقيل : موازين، كما قال :

* فلكلِّ حادثةٍ لهَا ميزانُ[(٢)] *

وقد ذكرناه فيما تقدم[(٣)] . وذكرناه أيضا فى كتاب « التذكرة » وقيل : إن الموازين الحُجَج والدلائل، قاله عبد العزيز بن يحيى، واستشهد بقول الشاعر :

قَد كُنتُ قبلَ لقائكم ذا مِرَّةٍ * عِنـدِى لكُلِّ مخاصِمٍ مِـيزانُهُ

ومعنى « عِيشةٍ راضِيةٍ » أى عيش مَرْضىّ، يرضاه صاحبه . وقيل : « عيشةٍ راضيةٍ » أى فاعلة للرضا، وهو اللين والانقياد لأهلها . فالفعل للعيشة لأنها أعطت الرضا من نفسها، وهو اللين والانقياد . فالعيشة كلمة تجمع النِّعَم التى فى الجنة، فهى فاعلة للرضا، كالفُرُش المرفوعة، وارتفاعها مقدار مائة عام، فإذا دنا منها ولى الله اتضعت حتى يستوى عليها، ثم ترتفع كهيئتها، ومثل الشجرة فرعها ، كذلك أيضا من الارتفاع ، فإذا اشتهى ولىُّ الله ثمرتها تدلت إليـه، حتى يتناولها ولىّ الله قاعدا وقائما ، وذلك قوله تعالى : « قُطُوفُها دانِيـةٌ[(٤)] » . وحيثما مشى أو ينتقل من مكان إلى مكان، جرى معه نهر حيث شاء، عُلُوًّا وسُفْلا، وذلك قوله تعالى : « يُفَجِّرونها تَفْجِيرًا[(٥)] » . فيروى فى الخبر " إنه يشير بقضيبه فيجرى من غير أخدود حيث شاء من قصوره وفى مجالسه " . فهذه الأشياء كلها عيشة قد أعطت الرضا من نفسها، فهى

(١) راجع جـ ٧ ص ١٦٥ وما بعدها . وجـ ١١ ص ٦٦ وص ٢٩٣
(٢) صدر البيت : * ملك تقوم الحادثات لعدله *
(٣) راجع جـ ١١ ص ٢٩٣
(٤) آية ٢٣ سورة الحاقة .
(٥) آية ٦ سورة الإنسان .

Marfat.com

فاعلة للرضـا، وهى آنذلت وآنقادت بذلا وسماحة . ومعنى ﴿ فأمه هاوِيَة ﴾ يعنى جهـنم . وسماها أُمًّا، لأنه يأوى إليها كما يأوى إلى أمه، قاله آبن زيد. ومنه قول أمية بن أبى الصَّلْت :

فالأرضُ مَعْقِلنا وكانتْ أُمَّنا * فيهـا مَقـابِرُنا وفيهـا نُولَدُ

وسميت النار هاوية ، لأنه يهـوِى فيها مع بعـدِ قعرها . ويروى أن الهاوية آسم البـاب الأسفل من النار . وقال قتادة : معنى « فأمه هاوِيَة » فمصيره إلى النـار . عكرمة : لأنه يهوى فيها على أم رأسه . الأخفش : « أمه » : مستقره، والمعنى متقارب . وقال الشاعر :

ياعمـرُو لو نالتـك أرماحُنا * كنتَ كمن تهـوِى به الهاوِيَهْ

والهاوية : المَهْوَاة . وتقول : هَوَتْ أمّه، فهى هاوية، أى ثاكلة، قال كعب بن سعد الغَنَوِىّ :

هَـوَتْ أُمُّه(١) مايبعثُ الصبحُ غاديا * وماذا يـؤدِّى الليـلُ حين يَئُـوبُ

والمَهْوَى والمَهْوَاة : مابين الجبلين، ونحو ذلك . وتهاوَى القوم فى المَهْوَاة : إذا سقط بعضهم فى اثر بعض . ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ ﴾ الأصل « ماهى » فدخلت الهاء للسكت . وقرأ حمزة والكسائى ويعقوب وآبن مُحَيصن « مَاهِيَ نارٌ » بغير هاء فى الوصل، ووقفوا بها . وقد مضى فى سورة الحاقة »(٢) بيـانه . ﴿ نار حامِيَة ﴾ أى شديدة الحـرارة . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " نارُكم هذه التى يُوقِد آبنُ آدم جزء من سبعين جزءا من حرّ جهنم " قالوا : والله إن كانت لكافية يا رسول الله . قال، " فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءا، كلها مثل حرّها " . وروى عن أبى بكر رضى الله عنه أنه قال : إنمـا ثقل ميزان من ثقل ميزانه ، لأنه وضع فيـه الحق ، وحُقَّ لميزان يكون فيه الحق أن يكون ثقيلا . وإنما خف ميزان من خف ميزانه ، لأنّه وضع فيه الباطل، وحق لميزان يكون فيه الباطل أن يكون خفيفا . وفى الخبر عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسـلم : " أن الموتى يَسألون الرجل يأتيهم عن رجل مات قبـله ، فيقول ذلك مات قبلى ، أما مرَّ بكم ؟ فيقولون لا والله، فيقول إنا لله وإنا إليه راجعون! ذُهِب به إلى أمه الهاوية، فبئست الأمّ، وبئست المُرَبية " . وقد ذكرناه بكماله فى كتاب « التذكرة » ، والحمد لله .

(١) البيت فى اللسان : (أم) .   (٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٦٩

تفسير سورة « التكاثر »

وهى مكية، فى قول جميع المفسرين . وروى البخارى أنها مدنية . وهى ثمانى آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ « ألهاكم » شغلكم . قال :

* فألهيتها عن ذى تمائم مُغيَل (١) *

أى شغلكم المباهاة بكثرة المال والعدد عن طاعة الله ، حتى مِتم ودفنتم فى المقابر . وقيل « أَلْهاكُم » : أنساكم . « التكاثُر » أى من الأموال والأولاد ، قاله ابن عباس والحسن . وقال قتادة : أى التفاخر بالقبائل والعشائر . وقال الضحاك : أى ألهاكم التشاغل بالمعاش والتجارة . يقال : لَهِيت عن كذا (بالكسر) أَلْهَى لَهِيًا ولِهْيانًا : إذا سلوت عنه ، وتركت ذكره ، وأضربت عنه . وألهاه : أى شغله . ولهّاه به تلهية أى علّله . والتكاثر : المكاثرة. قال مقاتل وقتادة وغيرهما : نزلت فى اليهود حين قالوا : نحن أكثر من بنى فلان ، وبنو فلان أكثر من بنى فلان ، ألهاهم ذلك حتى ماتوا ضُلّالا . وقال ابن زيد : نزلت فى فخذ من الأنصار . وقال ابن عباس ومقاتل والكلبي : نزلت فى حيّين من قريش : بنى عبد مَناف ، وبنى سَهْم ، تعادُّوا وتكاثروا بالسادة والأشراف فى الإسلام ، فقال كل حىّ منهم نحن أكثر سيدا ، وأعز عزيزا ، وأعظم نفرا ، وأكثر عائذا ، فكَثَر بنو عبد مناف سهما. ثم تكاثروا بالأموات ، فكَثَرتهم سَهْم ، فنزلت « أَلْهَاكُمُ التكاثُر » بأحيائكم فلم ترضوا

شأن نزول

(١) هذا عجز بيت من معلقة امرىء القيس ، وصدره :

* فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع *

ويروى : « تمائم محول » ، أى قد أتى عليه الحول . و « المغيل » : الذى تؤتى أمه وهى ترضعه .

Marfat.com

﴿حتى زرتم المقابر﴾ مفتخرين بالأموات . وروى سعيد عن قتادة قال : كانوا يقولون نحن أكثر من بنى فلان ، ونحن أعدّ من بنى فلان ؛ وهم كلَّ يوم يتساقطون إلى آخرهم ، والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كُلُّهم . وعن عمرو بن دينار : حلف أن هذه السورة نزلت فى التجار . وعن شيبان عن قتادة قال : نزلتْ فى أهل الكتاب .

قلت : الآية تَعُمّ جميع ما ذكر وغيره . وفى صحيح مسلم عن مُطَرِّف عن أبيه قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ «أَلْهَاكُمُ التكاثُر» قال : " يقولُ ٱبنُ آدم : مالى مالى ! وهل لك يابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيتَ ، أو لبستَ فأبليتَ ، أو تصدّقتَ فأمضيت [وماسوى ذلك فذاهبٌ وتاركُه للناس][(١)] . وروى البخارىّ عن ٱبن شهاب : أخبرنى أَنَس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لو أن لٱبن آدم واديا من ذهب ، لأحب أن يكون له واديان ، ولَنْ يَمْلَأ فاه إلّا التراب ، ويتوبُ اللهُ على من تابَ " . قال ثابت عن أنس عن أُبَىّ : كنّا نرى هذا من القرآن ، حتى نزلت «أَلْهَاكُمُ التَّكاثُر» . قال ٱبن العربىّ : وهذا نصّ صحيح مليح ، غاب عن أهل التفسير فجهِلوا وجَهَّلوا ، والحمد لله على المعرفة . وقال ٱبن عباس : قرأ النبي صلى الله عليه وسلم «أَلْهَاكُمُ التَّكاثُر» قال : " تكاثُرُ الأموال : جمعها من غير حقها ، ومنعها من حقها ، وشدّها فى الأوعية " .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿حتى زُرْتُمُ المَقابِرَ﴾ أى حتى أتاكم الموت ، فصرتم فى المقابر زوّارا ، ترجعون منها كرجوع الزائر إلى منزله من جنة أو نار . يقال لمن مات : قد زار قبره . وقيل : أى ألهاكم التكاثر حتى عددتم الأموات ؛ على ما تقدّم . وقيل : هذا وعيد . أى اشتغلتم بمفاخرة الدنيا ، حتى تزوروا القبور ، فترَوْا ما ينزل بكم من عذاب الله عز وجل .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿المَقَابِر﴾ جمع مَقْبَرة ومَقْبُرة (بفتح الباء وضمها) . والقبور : جمع القبر ؛ قال :

(١) ما بين المربعين من رواية أبى هريرة فى سند آخر ، لا من رواية مطرف (راجع صحيح مسلم) .

Marfat.com

أَرَى أَهْلَ القُصُورِ إذا أُمِيتُوا * بَنَوْا فوق المقابرِ بالصُّخورِ

أَبَوْا إلا مُباهاةً ونَخْرًا * على الفقراءِ حتّى فى القُبورِ

وقد جاء فى الشعر (المَقْبَر) ؛ قال :

لكل أناسٍ مَقْبَرٌ بفِنائهم * فَهُمْ يَنْقُصُونَ والقُبورُ تَزِيدُ (١)

وهو المَقْبُرِىّ والمقْبَرِىّ : لأبى سعيد المقبُرِىّ (٢) ؛ وكان يسكن المقابر . وقَبَرت المَيِّتَ أَقْبِرُه وأقْبُرُه قبرا ، أى دفنته . وأقبرته أى أمرت بأن يقبر . وقد مضى فى سورة « عبس » (٣) القول فيه . والحمد لله .

الرابعة — لم يأت فى التنزيل ذكر المقابر إلا فى هذه السورة . وزيارتها من أعظم الدواء للقلب القاسى ؛ لأنها تذكر الموت والآخرة . وذلك يحمل على قصر الأمل ، والزهد فى الدنيا ، وترك الرغبة فيها . قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروا القبور ، فإنها تزهد فى الدنيا ، وتذكِّر الآخرة " رواه ابن مسعود ؛ أخرجه ابن ماجه . وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة : " فإنها تذكر الموت ". وفى الترمذىّ عن بُرَيْدة : " فإنها تذكِّر الآخرة ". قال : هذا حديث حسن صحيح . وفيه عن أبى هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن زوّارات القبور . قال : وفى الباب عن ابن عباس وحسان بن ثابت . قال أبو عيسى : وهذا حديث حسن صحيح . وقد رأى بعض أهل العلم أن هذا كان قبل أن يرخص النبىّ صلى الله عليه وسلم فى زيارة القبور ؛ فلما رخَّص دخل فى رخصته الرجال والنساء . وقال بعضهم : إنما كره زيارة القبور للنساء لقلة صبرهن ، وكثرة جَزَعِهِنّ .

قلت : زيارة القبور للرجال متفق عليه عند العلماء ، مختلف فيه للنساء . أما الشوابّ فحرام عليهن الخروج ، وأما القواعد فمباح لهنّ ذلك . وجائز لجميعهن . ذلك إذا انفردن بالخروج عن الرجال ؛ ولا يختلف فى هذا إن شاء الله . وعلى هذا المعنى يكون قوله : "زوروا القبور" عاما . وأمّا موضعٌ أو وقتٌ يُخشى فيه الفتنة من اجتماع الرجال والنساء ، فلا يحل ولا يجوز .

(١) ذكر البيت صاحب تاج العروس مع بيت بعده ، (قبر) ونسبهما إلى عبد الله بن ثعلبة الحنفى .

(٢) قال ابن قتيبة فى المعارف : أبو سعيد المقبرى : اسمه كيسان روى عن عمر . وتوفى سنة مئة .

(٣) راجع جـ ١٩ ص ٢١٧

Marfat.com

فبينا الرجل يخرج ليعتبر، فيقع بصره على آمرأة فيفتتن، وبالعكس؛ فيرجع كل واحد من الرجال والنساء مأزورا غير مأجور. والله أعلم.

الخامسة — قال العلماء: ينبغى لمن أراد علاج قلبه وانقياده بسلاسل القهر إلى طاعة ربه، أن يكثر من ذكر هاذم اللذات (١)، ومفرق الجماعات، ومُوتم البنين والبنات، ويواظب على مشاهدة المحتضَرين، وزيارة قبور أموات المسلمين. فهذه ثلاثة أمور، ينبغى لمن قسا قلبه، ولزمه ذنبه، أن يستعين بها على دواء دائه، ويستصرخ بها على فتن الشيطان وأعوانه؛ فإن آنتفع بالإكثار من ذكر الموت، وآنجلت به قساوة قلبه فذاك، وإن عظم عليه ران قلبه، واستحكمت فيه دواعى الذنب؛ فإن مشاهدة المحتضرين، وزيارة قبور أموات المسلمين، تبلغ فى دفع ذلك مالا يبلغه الأول؛ لأن ذكر الموت إخبار للقلب بما إليه المصير، وقائم له مقام التخويف والتحذير. وفى مشاهدة من آحتُضر، وزيارة قبر من مات من المسلمين مُعاينَةٌ ومشاهدة؛ فلذلك كان أبلغ من الأول؛ قال صلى الله عليه وسلم: "ليس الخبر كالمعاينة". رواه آبن عباس. فأما الآعتبار بحال المحتضَرين، فغير ممكن فى كل الأوقات، وقد لا يتفق لمن أراد علاج قلبه فى ساعة من الساعات. وأما زيارة القبور فوجودها أسرع، والانتفاع بها أليق وأجدر. فينبغى لمن عزم على الزيارة، أن يتأدّب بآدابها، ويحضر قلبه فى إتيانها، ولا يكون حظه منها التطواف على الأجداث فقط؛ فإن هذه حالة تشاركه فيها بهيمة. ونعوذ بالله من ذلك. بل يقصد بزيارته وجه الله تعالى، وإصلاح فساد قلبه، أو نفع الميت بما يتلو عنده من القرآن والدعاء، ويتجنب المشى على المقابر، والجلوس عليها ويُسلم إذا دخل المقابر، وإذا وصل إلى قبر ميته الذى يعرفه سلم عليه أيضا، وأتاه من تلقاء وجهه؛ لأنه فى زيارته كمخاطبته حيا، ولو خاطبه حيا لكان الأدب استقباله بوجهه؛ فكذلك ها هنا. ثم يعتبر بمن صار تحت التراب، وآنقطع عن الأهل والأحباب، بعد أن قاد الجيوش والعساكر، ونافس الأصحاب والعشائر، وجمع الأموال والذخائر؛ فجاءه الموت فى وقت لم يحتسبه، وهول لم يرتقبه. فليتأمل الزائر حال من مضى من إخوانه، ودَرَج من

(١) هاذم (بالذال المعجمة) بمعنى قاطع؛ والمراد الموت؛ إما لأن ذكره يزهد فيها، وإما لأنه إذا جاء لا يبق من لذائذ الدنيا شيئا.

Marfat.com

أقرانه الذين بلغوا الآمال، وجمعوا الأموال، كيف انقطعت آمالهم، ولم تغن عنهم أموالهم، ومحا التراب محاسن وجوههم، وافترقت فى القبور أجزاؤهم، وترمل من بعدهم نساؤهم، وشمل ذل اليتم أولادهم، واقتسم غيرهم طريفهم وتلادهم. وليتذكر ترددهم فى المآرب[(١)]، وحرصهم على نيل المطالب، وانخداعهم لمواتاة الأسباب، وركونهم إلى الصحة والشباب. وليعلم أن ميله إلى اللهو واللعب كميلهم، وغفلته عما بين يديه من الموت الفظيع، والهلاك السريع، كغفلتهم، وأنه لا بد صائر إلى مصيرهم، وليحضر بقلبه ذكر من كان مترددا فى أغراضه، وكيف تهدمت رجلاه، وكان يتلذذ بالنظر إلى ما خوله وقد سالت عيناه، ويصول ببلاغة نطقه وقد أكل الدود لسانه، ويضحك لمواتاة دهره وقد أبلى التراب أسنانه، وليتحقق أن حاله كحاله، ومآله كمآله. وعند هذا التذكر والاعتبار تزول عنه جميع الأغيار الدنيوية، ويقبل على الأعمال الأخروية، فيزهد فى دنياه، ويقبل على طاعة مولاه، ويلين قلبه، وتخشع جوارحه.

قوله تعالى: كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿ كَلَّا ﴾ قال الفراء: أى ليس الأمر على ما أنتم عليه من التفاخر والتكاثر والتمام على هذا ﴿ كلا سوف تعلمون ﴾ أى سوف تعلمون عاقبة هذا. ﴿ ثم كلا سوف تعلمون ﴾: وعيد بعد وعيد؛ قاله مجاهد. ويحتمل أن يكون تكراره على وجه التأكيد والتغليظ؛ وهو قول الفراء. وقال ابن عباس: «كلا سوف تعلمون» ما ينزل بكم من العذاب فى القبر. «ثم كلا سوف تعلمون» فى الآخرة إذا حل بكم العذاب. فالأول فى القبر، والثانى فى الآخرة؛ فالتكرار للحالتين. وقيل: «كلا سوف تعلمون» عند المعاينة، أن ما دعوتكم إليه حق. «ثم كلا سوف تعلمون»: عند البعث، أن ما وعدتكم به صدق. وروى زِرّ بن حُبَيْش عن علىّ رضى الله عنه، قاله: كنا نشك فى عذاب القبر، حتى نزلت هذه السورة، فأشار إلى أن قوله: «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ» يعنى فى القبور. وقيل: «كلا سوف

عذاب قبر

(١) فى نسخة: «ترددهم المآب».

Marfat.com

تعلمون» : إذا نزل بكم الموت، وجاءتكم رُسُلٌ لِتنزِع أرواحكم . ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: إذا دخلتم قبوركم ، وجاءكم مُنْكَر ونَكِير ، وحاط بكم هول السؤال ، وانقطع منكم الجواب.

قلت : فتضمنت السورة القول فى عذاب القبر . وقد ذكرنا فى كتاب « التذكرة » أن الإيمان به واجب ، والتصديق به لازم ؛ حَسْبَمَا أخبَر به الصادق ، وأن الله تعالى يحيى العبد المكلَّف فى قبره، بردّ الحياة إليه، ويجعل له من العقل فى مثل الوصف الذى عاش عليه ؛ ليعقل ما يُسأَل عنه ، وما يجيب به، ويفهم ما أتاه من ربه، وما أُعدّ له فى قبره، من كرامة وهوانٍ . وهذا هو مذهب أهل السنة، والذى عليه الجماعة من أهل الملة. وقد ذكرناه هناك مستوفى، والحمد لله. وقيل: «كَلَّا سوف تعلمون» عند النشور أنكم مبعوثون «ثم كلا سوف تعلمون» فى القيامة أنكم معذبون. وعلى هذا تضمنت أحوال القيامة من بعث وحَشْر، وسؤال وعَرْض، إلى غير ذلك من أهوالها وأفزاعها ؛ حسب ما ذكرناه فى كتاب « التذكرة ، بأحوال الموتى وأمور الآخرة » . وقال الضحاك : «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ» يعنى الكفار ، ثم كَلَّا سَوْفَ تعلمون» : قال المؤمنون . وكذلك كان يقرؤها ، الأولى بالتاء والثانية بالياء .

قوله تعالى : كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أعاد «كَلَّا» وهو زجر وتنبيه ، لأنه عَقَّب كل واحد بشىء آخر؛ كأنه قال: لا تفعلوا، فإنكم تندمون، لا تفعلوا، فإنكم تستوجبون العقاب . وإضافة العلم إلى اليقين ، كقوله تعالى : «إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ»[1] . وقيل : اليقين هاهنا: الموت؛ قاله قتادة. وعنه أيضا: البعث؛ لأنه إذا جاء زال الشك، أى لو تعلمون علم البعث. وجواب « لو » محذوف ؛ أى لو تعلمون اليوم من البعث ما تعلمونه إذا جاءتكم نفخة الصور ، وانشقت اللحود عن جُثثكم ، كيف يكون حشركم ؟ لشغلَكُم ذلك عن التكاثر بالدنيا . وقيل : «كَلَّا لو تَعْلَمُون عِلْمَ اليقِين » أى لو قد تطايرت[2] الصحف، فشقِيٌّ وسعيدٌ.

(١) آية ٩٥ سورة الواقعة . (٢) كذا فى نسخ الأصل .

Marfat.com

وقيل : إن « كَلّا » فى هذه المواضع الثلاثة بمعنى « أَلا » قاله آبن أبى حاتم ، وقال الفرّاء : هى بمعنى « حَقًّا » وقد تقدّم الكلام فيها مستوفى[1] .

قوله تعـالى : لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ هذا وعيد آخر . وهو على إضمار القسم ؛ أى لترون الجحيم فى الآخرة . والخطاب للكفار الذين وجبت لهم النار . وقيـل : هو عام ؛ كما قال : « وإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها »[2] ، فهِيَ للكفار دار ، وللمؤمنين ممـر . وفى الصحيح[3] : " فيمرّ أوّلهم كالبرق ، ثم كالريح ، ثم كالطير ... " الحديث . وقد مضى فى سورة « مريم » . وقرأ الكسائىّ وابن عامر « لَتُرَوُنَّ » بضم التاء ، من أريته الشىء ؛ أى تحشرون إليها فترونها . وعلى فتح التاء ، هى قراءة الجماعة ؛ أى لَتَرون الجحيم بأبصاركم على البعد . ﴿ ثم لَتَرونها عين اليقِينِ ﴾ أى مشاهدة . وقيل : هو إخبار عن دوام مُقامهم فى النار ؛ أى هى رؤية دائمة متصلة . والخطاب على هذا للكفار. وقيل : معنى « لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليقِينِ » أى لو تعلمون اليوم فى الدنيا ، علم اليقين فيما أمامكم ، ممـا وصفت : « لَتَرَوُنَّ الجحِيمَ » بعيون قلوبكم ؛ فإن علم اليقين يريك الجحيم بعين فؤادك؛ وهو أن تَتَصوَّر لك تارات القيامة،وقطع مسافاتها. « ثم لَترونها عينَ اليقِينِ » : أى عند المعاينة بعين الرأس، فتراها يقينا، لا تغيب عن عينك. « ثم لَتُسأَلُنَّ يومَئِذٍ عن النَّعيم » : فى موقف السؤال والعرض .

قوله تعـالى : ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ لَتُسأَلُنَّ يومَئِذٍ عنِ النعيم ﴾ روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة ، قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم أو ليلة ، فإذا هو بأبى بكر وعمر، فقال: " ما أَخرجَكما من بُيوتِكما هـذه الساعةَ " ؟ قالا : الجوع يا رسـول الله . قال : " وأنا

(١) راجع جـ ١١ ص ١٤٧ فما بعدها . (٢) آية ٧١ سورة مريم .
(٣) راجع جـ ١١ ص ١٣٧ .

Marfat.com

والذى نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما، قوما» فقاما معه ؛ فأتى رجلا من الأنصار ، فإذا هو ليس فى بيته ، فلما رأته المرأة قالت : مَرْحبًا وأهْلًا . فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أين فلان»؟ قالت : يستعذب لنا من الماء ؛ إذ جاء الأنصارىّ ، فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ، ثم قال : الحمد لله ! ما أحدٌ اليومَ أكرم أضيافا منى . قال : فانطلق ، فجاءهم بِعِذْق فيه بُسْر وتمر ورُطَب ، فقال : كلوا من هذه . وأخذ المدية ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إياكَ والحَلُوبَ» فذبح لهم ، فأكلوا من الشاة » ومن ذلك العِذق ، وشربوا ؛ فلما أن شبعوا وروُوا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر وعمر: «والذى نفسى بيده لَتُسْأَلُنّ عن نعيم هذا اليوم، يومَ القيامة ، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم» . خرجه الترمذىّ، وقال [فيه] : «هذا والذى نفسى بيده من النعيم الذى تُسألون عنه يوم القيامة : ظِلٌّ بارد، ورُطَب طَيِّب، وماء بارد» وكَنَّى الرجل الذى من الأنصار ، فقال : أبو الهيثم بن التَّيهان . وذكر قصته .

قلت : اسم هـذا الرجل الأنصارىّ مالك بن التيهان ، ويكنى أبا الهيثم . وفى هـذه القصة يقول عبد الله بن رواحة ، يمدح بها أبا الهيثم بن التَّيّهان :

فَلَمْ أرَ كالإسـلامِ عِزا لِأمّةٍ * ولا مِثـلَ أضيافِ الإراشيّ(١) مَعْشَرا
نبىّ وصِـدّيقٌ وفاروق أمّـةٍ * وخير بنى(٢) حوّاء فـرعا وعُنْصُـرا
فوافَـوْا لميقاتٍ وقَـدْرِ قَضيـةٍ * وكانَ قضاء الله قَدْرا(٣) مُقَـدَّرا
إلى رجلٍ نَجْـدٍ يُبـارى بجـودِهِ * شُموسَ الضُّحَى جودا ومجدا ومَفخَرا
وفارِسِ خلقِ الله فى كل غارةٍ * إذا لبِس القومُ الحـديدَ المُسَمَّرا
فَفَـدّى وحَيّـا ثم أدْنَى قِراهُـمُ * فـلَمْ يَقْـرِهِمْ إلّا سَمِينا مُتَمَّـرا(٤)

(١) كذا فى جميع نسخ الأصل .
(٢) فى نسخة من الأصل : « وخير نبي جاء » .
(٣) فى نسخة من الأصل : « أمرا » .
(٤) المقطع .

Marfat.com

وقد ذكر أبو نعيم الحافظ ، عن أبي عسيب مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلا ، فخرجت إليه ، ثم مر بأبي بكر فدعاه ، فخرج إليه ، ثم مر بعمر فدعاه ، فخرج إليـه ، فآنطلق حتى دخل حائطًا لبعض الأنصار ، فقال لصاحب الحائط : " أطعمنا بُسْرا " فجاء بعِذْق ، فوضعه فأكلوا ، ثم دعا بمـاء فشرب ، فقال : "لَتُسْأَلُنّ عن هذا يومَ القيامة" قال : وأخذ عمر العِذْق ، فضرب به الأرض حتى تناثر البسر نحو وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال : يا رسول الله ، إنا لمسئولون عن هذا يوم القيامة؟ قال : " نعم إلا من ثلاث : كِسرة يَسُدّ بها جَوْعَته ، أو ثوب يستر به عَوْرته ، أو جُحْر يأوى فيه من الحرّ والقُرّ" .

وآختلف أهل التأويل فى النعيم المسئول عنه على عشرة أقوال :

أحدها : الأمن والصحة ؛ قاله آبن مسعود . الثانى — الصحة والفراغ ؛ قاله سعيد بن جبير . وفى البخارى عنه عليه السلام : "نعمتان مغبونٌ[(١)] فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ". الثالث — الإدراك بحواس السمع والبصر ؛ قاله آبن عباس . وفى التنزيل : « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا »[(٢)] . وفى الصحيح عن أبى هريرة وأبى سعيد قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يؤتى بالعبد يوم القيامة ، فيقول له : ألم أجعل لك سمعا و بصرا ، ومالا وولدا ..." الحديث . خرجه الترمذى وقال فيه : حديث حسن صحيح . الرابع — ملاذ المأكول والمشروب ؛ قاله جابر بن عبدالله الأنصارى . وحديث أبى هريرة يدل عليه . الخامس — أنه الغداء والعشاء ؛ قاله الحسن . السادس — قول مكحول الشامى — : أنه شِبَع البطون ، و بارد الشراب ، وظلال المساكن ، وآعتدال الخُلق ، ولذة النوم . ورواه زيد بن أسلم عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " « لَتُسْأَلُنّ يومئذ عن النعيم » : يعنى عن شبع البطون ... " . فذكره . ذكره المـاوردى ، وقال : وهذا السؤال يعمّ الكافر والمؤمن ، إلا أن سؤال المؤمن

(١) أى ذو خسران فيهما . والنعمة : ما يتنعم به الإنسان و يستلذه . والغبن : أن يشترى بأضعاف الثمن . أو يبيع بدون ثمن المثل . فمن صح بدنه ، وتفرغ من الأشغال العائقة ، ولم يسع لصلاح آخرته ، فهو كالمغبون فى البيع . والمقصود : بيان أن غالب الناس لا ينتفعون بالصحة والفراغ ، بل يصرفونهما فى غير محالهما . (عن شرح سنن ابن ماجه) .

(٢) آية ٣٦ سورة الإسراء .

Marfat.com

تبشير بأن يجمع له بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة . وسؤال الكافر تقريع أن قابل نعيم الدنيا بالكفر والمعصية . وقال قوم : هذا السؤال عن كل نعمة ، إنما يكون فى حق الكفار ، فقد رُوى أن أبا بكر لما نزلت هذه الآية قال : يا رسول الله ، أرأيتَ أكلةً أكلتُها معك فى بيت أبى الهيثم بن التَّيِّهان ، من خبز شعير ولحم وبُسْر قد ذَنَّب(١) ، وماء عذب ، أتخاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذى نُسأل عنه ؟ فقال عليه السلام : "ذلك للكفار ، ثم قرأ : «وهل يُجَازَى إلا الكفور»(٢) " . ذكره القشيرى أبو نصر . وقال الحسن : لا يُسأل عن النعيم إلا أهل النار . وقال القشيرى : والجمع بين الأخبار : أن الكل يُسْألون ، ولكن سؤال الكفار توبيخ ، لأنه قد ترك الشكر . وسؤال المؤمن سؤال تشريف ، لأنه شكر . وهذا النعيم فى كل نعمة .

قلت : هذا القول حسن ، لأن اللفظ يعم . وقد ذكر الفِرْيابى قال : حدثنا ورقاء عن ابن أبى نَجيح عن مجاهد ، فى قوله تعالى : « ثم لَتُسْأَلُنَّ يومَئِذٍ عن النَّعِيم » قال : كل شىء من لذة الدنيا . ورَوَى أبو الأحوص عن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن الله تعالى لَيُعَدِّد نِعمه على العبد يوم القيامة ، حتى يَعُدَّ عليه : سألتنى فلانة أن أزوجكها ، فيسميها باسمها ، فزوجتكها " . وفى الترمذى عن أبى هريرة قال : لما نزلت هذه الآية : « ثم لَتُسْأَلُنَّ يومئذٍ عن النعيم » قال الناس : يارسول الله ، عن أى النعيم نُسْأَل ؟ فإنما هما الأسودان(٣) والعدو حاضر ، وسيوفنا على عواتقنا . قال : " إن ذلك سيكون " . وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أول مايسأل عنه يوم القيامة — يعنى العبد — أن يقال له : ألم نُصِحَّ لك جسمك ، ونُروِيَك من الماء البارد " قال : حديث ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا كان يوم القيامة دعا الله بعبد من عباده ، فيوقفه بين يديه ، فيسأله عن جاهه كما يسأله عن ماله " . والجاه من نعيم الدنيا لامحالة . وقال مالك رحمه الله : إنه صحة البدن ، وطيب النفس . وهو القول السابع . وقيل : النوم مع الأمن والعافية . وقال سفيان بن عيينة : إن ماسدّ الجوع وستر العورة من خشن الطعام واللباس ، لا يُسأل عنه المرء يوم القيامة ، وإنما يُسأل عن النَّعيم . قال : والدليل عليه أن الله تعالى أسكن آدم الجنة . فقال له : إن لك ألَّا تجوع فيها ولا تَعْرَى .

(١) أى بدأ فيه الإرطاب . (٢) آية ١٧ سورة سبأ ، وهذه قراءة نافع . (٣) الأسودان : التمر والماء .

Marfat.com

وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى »[1] . فكانت هذه الأشياء الأربعة — ما يسد به الجوع ، وما يدفع به العطش ، وما يستكن فيه من الحر ، ويستر به عورته — لآدم عليه السلام بالإطلاق ، لا حساب عليه فيها ، لأنه لا بد له منها .

قلت : ونحو هذا ذكره القشيري أبو نصر ، قال : إن مما لا يسأل عنه العبد لباسا يواري سوأته ، وطعاما يقيم صلبه ، ومكانا يكنه من الحر والبرد .

قلت : وهذا منتزع من قوله عليه السلام : "ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال : بيت يسكنه ، وثوب يواري عورته ، وجلف الخبز والماء" خرجه الترمذي . وقال النضر بن شميل : جلف الخبز : ليس معه إدام . وقال محمد بن كعب : النعيم : هو ما أنعم الله علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم . وفي التنزيل : « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم »[2] . وقال الحسن أيضا والمفضل : هو تخفيف الشرائع ، وتيسير القرآن ، قال الله تعالى : « وما جعل عليكم في الدين من حرج »[3] ، وقال تعالى : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر »[4] .

قلت : وكل هذه نعم ، فيسأل العبد عنها : هل شكر ذلك أم كفر . والأقوال المتقدمة أظهر . والله أعلم .

تفسير سورة « والعصر »

وهي مكية . وقال قتادة مدنية ؛ وروى عن ابن عباس . وهي ثلاث آيات .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : وَالْعَصْرِ ﴿١﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ والعصر ﴾ أي الدهر ؛ قاله ابن عباس وغيره . فالعصر مثل الدهر ؛ ومنه قول الشاعر :

سَبيلُ الهَوَى وَعْرٌ وبحرُ الهوَى غَمْرٌ * ويومُ الهوَى شَهْرٌ وشَهْرُ الهوَى دَهْرُ

(١) آية ١١٨ ، ١١٩ سورة طه .
(٢) آية ١٦٤ سورة آل عمران .
(٣) آية ٧٨ سورة الحج .
(٤) آية ١٧ سورة القمر .

Marfat.com

أي عصر أقسم الله به عز وجلّ؛ لما فيه من التنبيه بتصرف الأحوال وتبدّلها، وما فيها من الدلالة على الصانع. وقيل: العصر: الليل والنهار. قال حُميد بن ثور:

ولن يَلْبَثَ العَصْرانِ: يومٌ وليلةٌ * إذا طَلَبا أَنْ يُدرِكا ما تَيَمَّمَا

والعصران أيضا: الغداة والعشيّ. قال:

وأَمْطُلُه العَصْرين حتى يَمَلَّني * ويرضى بِنِصفِ الدَّينِ والأَنْفُ راغِمُ

يقول: إذا جاءني أوّل النهار وعدته آخره. وقيل: إنه العشيّ، وهو ما بين زوال الشمس وغروبها؛ قاله الحسن وقتادة. ومنه قول الشاعر:

تَرَوَّحْ بِنا ياعمرُو قَدْ قَصُرَ العَصْرُ * وفي الرَّوْحَةِ الأُولَى الغنيمة والأَجْرُ

وعن قتادة أيضا: هو آخر ساعة من ساعات النهار. وقيل: هو قسم بصلاة العصر، وهي الوسطى؛ لأنها أفضل الصلوات؛ قاله مقاتل. يقال: أُذِّن للعصر؛ أي لصلاة العصر. وصُلِّيت العصر؛ أي صلاة العصر. وفي الخبر الصحيح "الصلاةُ الوسْطَى: صلاة العصر". وقد مضى في سورة «البقرة» (1) بيانه. وقيل: هو قسم بعصر النبيّ صلى الله عليه وسلم، لفضله بتجديد النبوّة فيه. وقيل: معناه ورب العصر.

الثانية — قال مالك: من حلف ألّا يكلم رجلا عَصْرا: لم يكلمه سنة. قال ابن العربيّ: «إنما حمل مالك يمينَ الحالف ألا يكلم امرأ عصرا على السنة؛ لأنه أكثر ما قيل فيه، وذلك على أصله في تغليظ المعنى في الأيمان. وقال الشافعيّ: يَبَرُّ بساعة، إلا أن تكون له نيـة، وبه أقول؛ إلا أن يكون الحالف عربيا، فيقال له: ما أردت؟ فإذا فسره بما يحتمله قُبِل منه، إلا أن يكون الأقل، ويجيء على مذهب مالك أن يحمل على ما يفسر. والله أعلم».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾

هـذا جواب القسم. والمراد به الكافر؛ قاله ابن عباس في رواية أبي صالح. وروى الضحاك عنه قال: يريد جماعة من المشركين: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود

(1) راجع جـ ٣ ص ٢١٠

Marfat.com

ابن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزّى ، والأسود بن عبد يغوث . وقيل : يعني بالإنسان جنس الناس . ﴿ لَفِي خُسْرٍ ﴾ : لفي غَبْن . وقال الأخفش : هَلَكة . الفراء : عقوبة ؛ ومنه قوله تعالى : « وكانَ عاقِبةُ أَمْرِها خُسْرًا » (١) . ابن زيد : لفي شر . وقيل : لفي نقص ؛ المعنى متقارب . وروى عن سلام « والعصِر » بكسر الصاد . وقرأ الأعرج وطلحة وعيسى الثقفي « خُسُرٍ » بضم السين . وروى ذلك هارون عن أبي بكر عن عاصم . والوجه فيهما الإتباع . ويقال : خُسْر وخُسُر ؛ مثل عُسْر وعُسُر . وكان عليّ يقرؤها « والعَصْرِ ونَوائِبِ الدَّهْر ، إنّ الإنسان لفي خُسْر . وإنه فيه إلى آخر الدهر » . وقال إبراهيم : إن الإنسان إذا عُمِّرَ في الدنيا وهَرِم ، لفي نقص وضعف وتراجع ؛ إلا المؤمنين ، فإنهم تكتب لهم أجورهم التي كانوا يعملونها في حال شبابهم ؛ نظيره قوله تعالى : « لَقَدْ خَلَقْنا الإنسانَ فِي أَحْسَنِ تقوِيم . ثم رَدَدْناه أَسْفَلَ سافِلِين » . قال : وقراءتنا « والعصرِ إنَّ الإنسانَ لَفِي خُسْرٍ ، وإنَّه في آخر الدهر » . والصحيح ما عليه الأمة والمصاحف . وقد مضى الرّد في مقدمة الكتاب على من خالف مصحف عثمان ، وأن ذلك ليس بقرآن يتلى ؛ فتأمله هناك (٢) .

قوله تعالى : إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ استثناء من الإنسان ؛ إذ هو بمعنى الناس على الصحيح . قوله تعالى : ﴿ وعَمِلوا الصالِحاتِ ﴾ أي أدّوا الفرائض المفترضة عليهم ؛ وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال أُبَيّ بن كعب : قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم « والعصر » ثم قلت : ما تفسيرها يا نبي الله ؟ قال : " « والعَصْر » قَسَم من الله ، أقسم ربكم بآخر النهار : « إنّ الإنسانَ لَفِي خُسْرٍ » : أبو جهل « إلا الذين آمنوا » : أبو بكر ، « وعَمِلوا الصّالِحاتِ » عمر ، « وتواصَوْا بالحَقّ » عثمان « وتواصَوْا بِالصَّبْرِ » علىّ " ؛ رضي الله عنهم أجمعين . وهكذا خطب

(١) آية ٩ سورة الطلاق . (٢) راجع جـ ١ ص ٨٠ طبعة ثانية أو ثالثة .

Marfat.com

ابن عباس على المنبر موقوفا عليه . ومعنى ﴿ وَتَوَاصَوْا ﴾ أى تحابّوا ؛ أوصى بعضهم بعضا ، وحث بعضهم بعضا . ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالتوحيد ؛ كذا روى الضحاك عن ابن عباس . قال قتادة : « بِالْحَقِّ » أى القرآن . وقال السدّى : الحق هنا هو الله عز وجل . ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ على طاعة الله عز وجل، والصبر عن معاصيه . وقد تقدم (١) . والله أعلم .

تفسير سورة « الهمزة »

مكية بإجماع . وهى تسع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴿١﴾

قد تقدم القول فى «الويل» فى غير موضع (٢)، ومعناه الخزى والعذاب والهلكة . وقيل : واد فى جهنم . ﴿ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾ قال ابن عباس : هم المشاءون بالنميمة، المفسدون (٣) بين الأحبة ، الباغون للبرآء العيب ؛ فعلى هذا هما بمعنى . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " شرار عباد الله تعالى المشّاءون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبرآء العيب " . وعن ابن عباس أن الهُمَزة : القتّات، واللُّمزة : العياب . وقال أبو العالية والحسن ومجاهد وعطاء بن أبى رباح : الهمزة : الذى يغتاب ويطعن فى وجه الرجل، واللمزة : الذى يغتابه من خلفه إذا غاب ؛ ومنه قول حسان :

همزتك فاختضعت بذُل نفس * بقافية تأجّج كالشواظ (٤)

---

(١) راجع ص ٧١ من هذا الجزء .
(٢) راجع جـ ٢ ص ٧ طبعة ثانية .
(٣) فى بعض نسخ الأصل « المفرقون » .
(٤) رواية البيت كما فى ديوانه :

مجللة تعممه شنارا * مضرمة تأجج كالشواظ
كهمزة ضيغم يحمى عرينا * شديد مغارز الأضلاع خاظى

Marfat.com

واختار هذا القول النحاس، قال : ومنه قوله تعالى «ومِنْهُم مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدقاتِ» (١) .
وقال مقاتل ضدّ هذا الكلام : إن الهُمَزَة : الذى يَغتابُ بالغَيْبة، واللُّمَزة : الذى يغتاب
فى الوجه . وقال قتادة ومجاهد : الهُمَزة : الطَّعَّان فى الناس، واللُّمَزة: الطَّعَّان فى أنسابهم.
وقال آبن زيد : الهامز : الذى يهمز الناس بيده و يضربهم ، واللُّمَزة : الذى يَلْمِزهم بلسانه
ويعيبهم . وقال سفيان الثورىّ : يهمز بلسانه، ويلمز بعينيه . وقال آبن كيسان : الهُمَزة
الذى يؤذى جلساءه بسوء اللفظ، واللمزة : الذى يكسر عينه على جليسه، ويشير بعينه ورأسه
و بحاجبيه . وقال مرة : هما سواء؛ وهو القَتَّات الطَّعَّان للرء إذا غاب . وقال زياد الأعجم :

تُدْلِي بِوُدِّى إذا لاقيتَنِي كَذِبًا * وإِنْ أُغَيَّبْ فأنتَ الهامزُ اللُّمَزَهْ

وقال آخر :

إذا لَقِيتكَ عن سُخْطٍ تُكاشِرُنِي * وإِنْ تَغَيَّبْتُ كنتَ الهامزَ اللُّمَزَهْ

الشحط : البعد . والهُمَزة : آسم وضع للبالغة فى هذا المعنى ؛ كما يقال : سُخَرة وضُحَكة :
للذى يَسخَر و يَضحك بالناس . وقرأ أبو جعفر محمد بن علىّ والأعرج «هُمْزَة لُمْزَة» بسكون
الميم فيهما . فإن صح ذلك عنهما، فهى فى معنى المفعول، وهو الذى يتعرّض للناس حتى يهمزوه
و يضحكوا منه ، و يحملهم على الاغتياب . وقرأ عبد الله بن مسعود وأبو وائل والنخعىّ
والأعمش : « ويلٌ لِلهُمَزَةِ اللُّمَزَةِ » . وأصل الهمز : الكسر، والعَضّ على الشىء بعنف ؛
ومنه همز الحرف . و يقال: همزت رأسه . وهمزت الجوز بكفى كسرته . وقيل لأعرابىّ :
أتهمزون (الفارة) ؟ فقال : إنما تهمزها الهِرّة . الذى فى الصحاح : وقيل لأعرابى أتهمز الفارة؟
فقال السنور يهمزها . والأوّل قاله الثعلبى، وهو يدل على أن الهِرّ يسمى الهمزة . قال العجاج :

* ومَنْ هَمَزْنا رأسَهُ تَهَشَّما *

وقيل : أصل الهمز واللمز : الدفع والضرب . لَمَزَه يَلْمِزه لَمْزًا : إذا ضربه ودفعه .
وكذلك هَمَزَه : أى دفعه وضربه . قال الراجز :

ومَنْ هَمَزْنا عِزَّهُ تَبَرْكَعا * على آستِهِ زَوْبَعَةً أو زَوْبَعا

(١) آية ٥٨ سورة التوبة .

Marfat.com

البركعة : القيام على أربع . و بركعه فتبركع ؛ أي صرعه فوقع على آسته ؛ قاله في الصحاح . والآية نزلت في الأخنس بن شريق ، فيما روى الضحاك عن ابن عباس . وكان يلمز الناس ويعيبهم : مقبلين ومدبرين . وقال ابن جريج : في الوليد بن المغيرة ، وكان يغتاب النبي صلى الله عليه وسلم من ورائه ، و يقدح فيه في وجهه . وقيل : نزلت في أبي بن خلف . وقيـل : في جميـل ابن عامر الثقفي (١) . وقيل : إنها مرسلة على العموم من غير تخصيص ؛ وهو قول الأكثرين . قال مجاهد : ليست بخاصة لأحد ، بل لكل من كانت هذه صفته . وقال الفـراء : يجوز أن يذكر الشيء العام و يقصد به الخاص ، قصد الواحد إذا قال : لا أزورك أبدا . فتقول : من لم يزرني فلست بزائره ؛ يعني ذلك القائل .

قوله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴾ (٢)

أي أعده — زعم — لنوائب الدهر ؛ مثل كرم وأكرم . وقيل : أحصى عدده ؛ قاله السدي . وقال الضحاك : أي أعد ماله لمن يرثه من أولاده . وقيل : أي فاخر بعدده وكثرته . والمقصود الذم على إمساك المـال عن سبيل الطاعة . كما قال : « مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ » (٢) ، وقال : « وَجَمَعَ فَأَوْعَى » (٣) . وقراءة الجماعة « جَمَعَ » مخفف الميم . وشددها ابن عامر وحمـزة والكسائي على التكثير . واختاره أبو عبيد ؛ لقوله : « وعدَّده » . وقرأ الحسن ونصر بن عاصم وأبو العالية « جَمَعَ » مخففا ، « وعَدَدَه » مخففا أيضا ؛ فأظهروا التضعيف ، لأن أصله عدّه وهو بعيد ؛ لأنه وقع في المصحف بدالين . وقد جاء مثله في الشعر ؛ لمـا أبرزوا التضعيف خففوه . قال :

مَهْلًا أُمَامَةُ (٤) قد جَرَّبْتِ مِنْ خُلُقِي * إِنِّي أَجُودُ لِأَقْوَامٍ وإِنْ ضَنِنُوا

(١) كذا في نسخ الأصل . والذي في الطبري : « جميل بن عامر الجمحي » . وفي سيرة ابن هشام (ص ٢٢٩ طبع أوربا) وتاريخ الكامل لابن الأثير (ج٢ ص ٦٦ طبع أوربا) و بعض كتب التفسير : « جميل بن معمر الجمحي » .

(٢) آية ٢٥ سورة ق ، وآية ١٢ سورة ن .

(٣) آية ١٨ سورة المعارج .

(٤) في اللسان وكتاب سيبويه : « مهلا أعاذل » . وقد نسباه لقعنب بن أم صاحب .

Marfat.com

أراد : ضَنُّوا و بخلوا ، فأظهر التضعيف؛ لكن الشعر موضع ضرورة . قال المهدوى : من خفف « وعدده » فهو معطوف على المال ؛ أى وجمع عدده فلا يكون فعلا على إظهار التضعيف ؛ لأن ذلك لا يستعمل إلا فى الشعر .

قوله تعالى : ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ يَحْسَبُ ﴾ أى يظن ﴿ أَنَّ ماله أَخْلَدَه ﴾ أى يبقيه حيا لا يموت؛ قاله السُّدِّى . وقال عكرمة : أى يزيد فى عمره . وقيل : أحياه فيما مضى ، وهو ماض بمعنى المستقبل . يقال : هلك والله فلان ودخل النار ؛ أى يدخل . ﴿ كَلَّا ﴾ رد لما توهمه الكافر ؛ أى لا يخلد ولا يبقى له مال . وقد مضى القول فى « كَلَّا » مستوفى (١) . وقال عمر بن عبد الله مولى غُفْرة : إذا سمعت الله عز وجل يقول « كَلَّا » فإنه يقول كذبت . ﴿ لَيُنْبَذَنَّ ﴾ أى ليطرحن وليلقين . وقرأ الحسن ومحمد بن كعب ونصر بن عاصم ومجاهد وحُمَيد وابن محيصن : لَيُنْبَذَانِّ بالتثنية ، أى هو وماله . وعن الحسن أيضا « لَيُنْبَذُنَّهُ » على معنى لَيُنْبَذَنَّ ماله . وعنه أيضا بالنون « لَنَنْبِذَنَّهُ » على إخبار الله تعالى عن نفسه ، وأنه يَنْبِذ صاحب المال . وعنه أيضا « لَيُنْبَذُنَّ » بضم الذال ؛ على أن المراد الهمزة واللزة والمال وجامعه . ﴿ فِى الْحُطَمَةِ ﴾ وهى نار الله ؛ سُمِّيت بذلك لأنها تكسر كل ما يُلقى فيها وتحطمه وتهشمه . قال الراجز :

إنا حَطَمْنا بالقضيبِ مُصْعَبا * يَوْمَ كَسَرْنا أَنْفَـه لِيَغْضَبا

وهى الطبقة السادسة من طبقات جهنم . حكاه الماوردى عن الكلبى . وحكى القشيرى عنه : « الحُطَمة » الدَّرْكة الثانية من درك النار . وقال الضحاك : وهى الدرك الرابع . ابن زيد : اسم من أسماء جهنم . ﴿ وما أَدْراكَ مَا الحُطَمَةُ ﴾ على التعظيم لشأنها ، والتفخيم لأمرها .

(١) راجع جـ ١١ ص ١٤٧ .

Marfat.com

ثم فسرها ماهى فقال : ﴿ نَارُ اللهِ المُوقَدَةُ ﴾ أى التى أُوقد عليها ألف عام، وألف عام، وألف عام؛ فهى غير خامدة، أعدّها الله للعصاة . ﴿ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ ﴾ قال محمد بن كعب : تأكل النار جميع ما فى أجسادهم، حتى إذا بلغت إلى الفؤاد، خُلِقوا خلقا جديدا، فرجعت تأكلهم . وكذا روى خالد بن أبى عمران عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أن النار تأكل أهلها، حتى إذا اطلعت على أفئدتهم ٱنتهت، ثم إذا صَدَروا تعود، فذلك قوله تعالى : « نَارُ اللهِ المُوقَدَةُ . الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ » " . وخص الأفئدة لأن الألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبه . أى إنه فى حال من يموت وهم لا يموتون ؛ كما قال الله تعالى : « لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا »(١) فهم إذًا أحياء فى معنى الأموات . وقيل : معنى « تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ » أى تعلم مقدار ما يستحقّه كل واحد منهم من العذاب؛ وذلك بما ٱستبقاه الله تعالى من الأمارة الدالة عليه . ويقال : ٱطّلع فلان على كذا : أى علمه . وقد قال الله تعالى : « تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى »(٢) . وقال تعالى : « إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا »(٣) . فوصفها بهذا، فلا يبعد أن توصف بالعلم .

قوله تعالى : إِنَّهَا عَلَيْهِم مُؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾

أى مُطْبَقة؛ قاله الحسن والضحاك . وقد تقدّم فى سورة « البَلَد »(٤) القول فيه . وقيل : مُغلقة؛ بلغة قريش . يقولون : آصَدْتُ الباب : إذا أغلقته؛ قاله مجاهد . ومنه قول عُبيد الله ٱبن قيس الرقيات :

إنَّ فى القَصْرِ لَوْ دَخَلْنَا غَزَالًا * مُصْفَقًا مُوصَدًا(٥) عليه الحِجَابُ

﴿ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ الفاء بمعنى الباء؛ أى موصدة بعمد ممدّدة؛ قاله ٱبن مسعود؛ وهى فى قراءته « بِعَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ » وفى حديث أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم " ثُمَّ إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ إِلَيهِمْ

(١) آية ٧٤ سورة طه . (٢) آية ١٧ سورة المعارج . (٣) آية ١٢ سورة الفرقان .
(٤) راجع ص ٧٢ من هذا الجزء . (٥) صفق الباب وأصفقه : أغلقه .

Marfat.com

ملائكة بأطباق من نار، ومسامير من نار وعَمَد من نار، فتطبق عليهم بتلك الأطباق، وتشد عليهم بتلك المسامير، وتمد بتلك العَمَد، فلا يبقى فيها خَلَل يدخل فيه روْح، ولا يخرج منه غم، و ينساهم الرحمن على عرشه، و يتشاغل أهل الجنة بنعيمهم، ولا يستغيثون بعدها أبدا، و ينقطع الكلام، فيكون كلامهم زَفِيرا وشهيقا؛ فذلك قوله تعالى « إِنها عليهم مُؤْصَدة . فِي عَمَدٍ ممددة » ".
وقال قتادة : « عَمَد » يعذبون بها . واختاره الطبري . وقال ابن عباس : إن العَمَد الممدة أغلال فى أعناقهم . وقيـل : قيود فى أرجلهم ؛ قاله أبو صالح . وقال القشيري : والمعظم على أن العمد أوتاد الأطباق التى تطبق على أهل النار . وتشـد تلك الأطباق بالأوتاد ، حتى يرجع عليهم غمها وحرها، فلا يدخل عليهم روْح . وقيـل : أبواب النـار مطبقة عليهم وهم فى عَمَد؛ أى فى سلاسل وأغلالٍ مطوّلة، وهى أحكم وأرسخ من القصيرة. وقيل : هم فى عمد ممدة ؛ أى فى عذابها وآلامها يُضربونَ بها . وقيل : المعنى فى دهر ممدود ؛ أى لا انقطاع له . وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم « فِي عُمُدٍ » بضم العين والميم : جمع عمود. وكذلك « عَمَد » أيضا . قال الفرّاء : والعَمَد والعُمُد : جمعان صحيحان لعمود؛ مثل أَدِيم وأَدَم وأُدُم، وأَفِيق وأَفَق وأُفُق[(١)] . أبو عُبيدة : عَمَد : جمع عِماد؛ مثل إهاب . واختار أبو عُبيد « عَمَد » بفتحتين . وكذلك أبو حاتم؛ اعتبارا بقوله تعالى : « رفع السموات بِغيرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها»[(٢)] وأجمعوا على فتحها . قال الجوهري : العمود : عمود البيت ، و جمع القلة : أعمدة، و جمع الكثرة عُمُد، وعَمَد؛ وقرئ بهما قوله تعالى : « فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَة » . وقال أبو عبيدة : العمود، كل مستطيل من خشب أو حديد ، وهو أصل للبناء مثـل العِماد . عَمَدْت الشيء فانعمد؛ أى أقمته بِعِماد يعتمِد عليه . وأعمدته جعلت تحته عَمَدًا . والله أعلم .

---

(١) الأديم . الجلد المدبوغ . والأفيق : الجلد الذي لم يدبغ . وقيل : هو الذي لم تتم دباغته .

(٢) آية ٢ سورة الرعد .

Marfat.com

تفسير ســـورة « الفيل »

وهى مكية باجماع . وهى خمس آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ أى ألم تُخبَر . وقيل : أَلَمْ تَعلَمْ . وقال ابن عباس : أَلَمْ تسمع ؟ واللفظ استفهام، والمعنى تقرير. والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم، ولكنه عام؛ أى ألم تَرَوْا ما فعلتُ بأَصحابِ الفيل ؛ أى قد رأيتم ذلك ، وعرفتم موضع مِنَّتِي عليكم ، فما لكم لا تؤمنون ؟ و﴿ كَيْفَ ﴾ فى موضع نصب بـ « فَعَلَ رَبُّك » لا بـ « ألم تر كيف » من معنى الاستفهام .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ بِأَصْحَابِ الفِيلِ ﴾ الفيل معروف، والجمع أفيال : وفُيول، وفِيَلَة . قال ابن السكيت : ولا تقل أفيلة . [والأنثى فِيلة](١) وصاحبه فَيَّال(٢) . قال سيبويه : يجوز أن يكون أصل فِيل فُعْلا، فكُسِر من أجل اليـاء ؛ كما قالوا : أبيض وبِيض . وقال الأخفش : هذا لا يكون فى الواحد، إنما يكون فى الجمع . ورجل فِيل الرأى ، أى ضعيف الرأى . والجمع أفيال. ورجل فال؛ أى ضعيف الرأى، مخطئ الفِراسة . وقد فال الرأى يَفِيل فُيولة ، وفَيَّل رأيه تفييلا : أى ضعفه، فهو فَيِّل الرأى .

الثالثـــة — فى قصة أصحاب الفيل؛ وذلك أن (أَبرهة) بنى القُلَّيس بصنعاء، وهى كنيسة لم يُرَ مثلها فى زمانها بشيء من الأرض، وكان نصرانيا، ثم كتب إلى النجاشيّ : إنى قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يُبن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنتهٍ حتى أصرف إليها حج العرب

(١) من تمة قول ابن السكيت .　(٢) فى اللسان : « وصاحبها » .

Marfat.com

فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشي، غضب رجل من النَّسأة[(١)]، فخرج حتى أتى الكنيسة، فقعد فيها — أى أحدث — ثم خرج فلحق بأرضه؛ فأُخبر بذلك أبرهة، فقال: من صنع هذا ؟ فقيل : صنعه رجل من أهل هذا البيت، الذى تحج إليه العرب بمكة، لما سمع قولك : « أصرف إليها حَجَّ العرب » غضب، فجاء فقعد فيها. أى أنها ليست لذلك بأهل. فغضب عند ذلك أبرهة، وحلف ليسيرنّ إلى البيت حتى يهدمه، و بعث رجلا كان عنده إلى بنى كنانة[(٢)] يدعوهم إلى حج تلك الكنيسة، فقتلت بنو كنانة ذلك الرجل؛ فزاد أبرهةَ ذلك غضبا وحَنَقا، ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت، ثم سار وخرج معه بالفيل؛ وسمعت بذلك العرب، فأعظموه وفظعوا به، ورأوا جهاده حقا عليهم، حين سمعوا أنه يريد هدم الكعبة بيتِ الله الحرام. فخرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم، يقال له ذو نفر، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة، وجهاده عن بيت الله الحرام، وما يريد من هدمه وإخرابه؛ فأجابه من أجابه إلى ذلك، ثم عرض له فقاتله، فهزم ذو نفر وأصحابه، وأخذ له ذو نفر فأُتى به أسيرا؛ فلما أراد قتله قال له ذو نَفر: أيها الملك لا تقتلنى، فإنه عسى أن يكون بقائى معك خيرا لك من قتلى؛ فتركه من القتل، وحبسه عنده فى وَثاق، وكان أبرهة رجلا حليما. ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك، يريد ما خرج له، حتى إذا كان بأرض خَثْعَم عرض له نُفَيل ابن حبيب الخَثْعَمى فى قبيلتى خثعم : شَهران وناهِس، ومن تبعه من قبائل العرب؛ فقاتله فهزمه أبرهة، وأُخذ له نُفيل أسيرا؛ فأُتى به، فلما همّ بقتله قال له نُفَيل: أيها الملك لا تقتلنى، فإنى دليلك بأرض العرب، وهاتان يداى لك على قبيلتى خثعم : شهران وناهِس، بالسمع والطاعة؛ فخلى سبيله. وخرج به معه يدله، حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن مُعَتِّب فى رجال من ثقيف، فقالوا له : أيها الملك، إنما نحن عبيدك؛ سامعون لك مطيعون، ليس عندنا لك خلاف، وليس بيتنا هذا البيت الذى تريد — يعنون اللات[(٣)] — إنما تريد البيت الذى بمكة،

(١) فى سيرة ابن هشام : « من النسأة أحد بنى فقيم بن عدى ... ... والنسأة : الذين كانوا ينسئون الشهور على العرب فى الجاهلية، فيحلون الشهر من أشهر الحرم ويحرمون مكانه الشهر من أشهر الحل، ويؤخرون ذلك الشهر؛ ففيه أنزل الله تبارك وتعالى : « إنما النسىء زيادة فى الكفر » . (راجع سيرة ابن هشام طبع أوربا ص ٢٩).

(٢) بنو كنانة : قبيلة ذلك الرجل الذى أحدث فى الكنيسة .

(٣) فى سيرة ابن هشام : « واللات : بيت لهم بالطائف، كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة » .

Marfat.com

نحن نبعث معك من يَدُلُّك عليه ؛ فتجاوز عنهم . وبعثوا معه أبا رِغال ، حتى أنزله المغمِّس (١) فلما أنزله به مات أبو رِغال هناك ، فَرجَمت قبره العرب ؛ فهو القبر الذي يرجُم الناسُ بالمغمس ، وفيه يقول الشاعر :

وأرجُمُ قـبرَه في كل عامٍ * كرَجْم النـاس قبر أبي رِغالِ

فلما نزل أبرهة بالمغمس ، بعث رجلا من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود (٢) على خيل له ، حتى انتهى إلى مكة فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم ، وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ؛ فهمَّت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحـرم بقتاله ؛ ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به ، فتركوا ذلك . وبعث أبرهة حُناطة الحِميَري إلى مكة ، وقال له : سل عن سيد هـذا البلد (٣) وشريفهم ، ثم قل له : إن الملك يقول : إني لم آت لحربكم ، إنمـا جئت لهدم هذا البيت ، فإن لم تَعرضوا لي بحرب ، فلا حاجة لي بدمائكم ؛ فإن هو لم يُرِد حربي فأتني به . فلما دخل حُناطة مكة ، سأل عن سيد قريش وشريفها ؛ فقيل له : عبـد المطلب بن هاشم ؛ فجاءه فقال له ما أمره به أبرهـة ؛ فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربه ، وما لنا بذلك منه طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ، أو كما قال ، فإن يمنعه منه فهو حرمه وبيته ، وإن يخل بينه وبينه ، فوالله ما عندنا دفع عنه . فقال له حُناطة : فانطلق إليه ، فإنه قد أمرني أن آتيه بك ؛ فانطلق معه عبد المطلب ، ومعه بعض بنيه ، حتى أتى العسكر ، فسأل عن ذي نَفْر ، وكان صديقا له ، حتى دخل عليه وهو في محْبِسه ، فقال له : ياذا نفر ، هل عندك من غَناء فيما نزل بنا ؟ فقال له ذو نفر ؛ وما غَناء رجل أسـير بيدي ملك ، ينتظر أن يقتله غُدُوًّا وعَشيا ! ما عندي غَناء في شيء مما نزل بك ، إلا أن أُنيْسا سائس الفيل صديق لي ، فسأرسل إليه ، وأوصيه بك ، وأُعْظِم عليـه حقك ، وأسأله أن يستـأذن لك على الملك ، فتكلِّمه بمـا بدا لك ، ويشـفع لك عنده بخير إن قَدَر على ذلك ؛ فقال حسبي . فبعث ذو نفر إلى أُنَيس ، فقال له :

---

(١) المغمس : موضع قرب مكة في طريق الطائف . (٢) كذا في بعض نسخ الأصل وتفسير الثعلبي وتاريخ الطبري (قسم أول ص ٩٣٧ طبع أوربا) وتاريخ ابن الأثير (جـ ١ ص ٣٢١ طبع أوربا) . وفي بعض الأصول : تفسير الطبري وسيرة ابن هشام (ص ٣٣ طبع أوربا) : «مفصود» بالفاء ، بدل القاف .

(٣) في هامش نسخة : «عن سيد هذا البيت» .

Marfat.com

إن عبد المطلب سيد قريش ، وصاحب عَيْن مكة ، ويطعم الناس بالسهل ، والوحوش في رءوس الجبال ، وقد أصاب له الملك مائتي بعير ، فاسْتَأْذِنْ له عليه ، وانفعه عنده بما استطعت ؛ فقال : أَفعَلُ . فكلم أُنيس أبرهة ، فقال له : أيها الملك ، هذا سيد قريش ببابك ، يستأذن عليك ، وهو صاحب عَيْن مكة ، يطعم الناس بالسهل ، والوحوش في رءوس الجبال ، فأْذَنْ له عليك ، فيكلمَك في حاجته . قال : فأذن له أبرهة .

وكان عبد المطلب أَوسم الناس ، وأعظمهم وأجملهم ، فلما رآه أبرهة أَجَلَّه ، وأعظمه عن أن يجلسه تحته ، فنزل أبرهة عن سريره ، فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه . ثم قال لتَرجمانه : قل له : حاجَتك؟ فقال له ذلك الترجمان ، فقال : حاجتي أن يردّ علىّ الملك مائتي بعير أصابها لى . فلما قال له ذلك ، قال أبرهة لتَرجمانه : قل له لقد كنتَ أعجبتنى حين رأيتك ، ثم قد زهِدْتُ فيك حين كلمتنى ، أتكلمنى في مائتي بعير أصبتُها لك ، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك ، قد جئتُ لهدمه؟ لا تكلمنى فيه ! . قال له عبد المطلب : إنى أنا رب الإبل ، وإن للبيت ربا سيمنعه . قال : ما كان ليمتنع منى ! قال أنت وذاك . فردّ عليه إبله . وانصرف عبد المطلب إلى قريش ، فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في شَعَف(١) الجبال والشِّعاب ، تخوفا عليهم معرّة(٢) الجيش . ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش ، يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لا هُمَّ إنَّ العَبْـدَ يَمْـ * ـنَعُ رَحْلَهُ فامنعْ حِلالَكْ(٣)

لا يَغْلِبَنْ صَلِيبُهُـمْ * ومِحالُهُمْ عَدْوًا(٤) مِحالَكْ

إنْ يَدْخلوا البلد الحرا * مَ فأمْرٌ ما بَـدَا لَكْ

(١) شعف الجبال : رءوسها . (٢) المعرة الأذى . ومعرّة الجيش : أن ينزلوا بقوم فيأكلوا من زروعهم بغير علم . وقيل : وطأتهم من مرّوا به من مسلم أو معاهد ، وإصابتهم إياهم في حريمهم وأموالهم وزروعهم بما لم يؤذن لهم فيه . (٣) الحلال (بالكسر) : القوم المقيمون المتجاورون . يريد بهم سكان الحرم .

(٤) « عدوا » بالعين المهملة ؛ ومعناه الاعتداء وفي اللسان مادة « غدا » : « غدوا » بالغين المعجمة . قال : « الغدو أصل الغد ، وهو اليوم الذي يأتي بعد يومك ، فحذفت لامه ولم يستعمل تاما إلا في الشعر . ولم يرد عبد المطلب الغد بعينه ؛ وإنما أراد القريب من الزمان » .

Marfat.com

يقول : أى : شيء ما بدالك، لم تكن تفعله بنا. والِحلال : جمع حِلّ . والمِحال : القوّة . وقيل : إن عبد المطلب لما أخذ بحلقة باب الكعبة قال :

يا رَبِّ لا أرجُو لَهُمْ سِواكا * يا ربِّ فَآمنعْ منهمُ حِماكا
إنّ عدوَّ البيت مَنْ عاداكا * إنهمُ لن يقهروا قُواكا

وقال عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي :

لا هُمَّ أخزِ الأسودَ بن مقصود * الآخِذَ الهَجْمَةَ فيها التَّقْليدْ (١)
بين حِراءٍ وثَبِيرٍ فالبِيدْ * يحبسها وهى أولات التطريدْ (٢)
فضمها إلى طَماطِمٍ سُودْ * [قَدْ أَجْمَعُوا أَلَّا يكونَ مَعْبُودْ (٣)
ويهدموا البيتَ الحرامَ المَعْمُودْ * والمرْوَتَينِ والمَشَاعِرَ السُّودْ (٤)]
* أخفِره (٥) يارب وأنت محمود *

قال آبن إسحاق : ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة ، ثم آنطلق هو ومن معه من قريش إلى شَعَف الجبال، فتحرّزوا فيها، ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها . فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة، وهيأ فيله ، وعبأ جيشه، وكان اسم الفيل محمودا ، وأبرهة مجمع لهدم البيت ، ثم الانصراف إلى اليمن . فلما وجهوا الفيل إلى مكة، أقبل نُفَيْل بن حبيب، حتى قام إلى جنب الفيل، ثم أخذ بأُذنه فقال له : آبرك محمود، وآرجع راشدا من حيث جئت، فإنك فى بلد الله الحرام . ثم أرسل أذنه، فبرك الفيل . وخرج نُفيل بن حبيب يشتدّ، حتى أصعد فى الجبل . وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا فى رأسه بالطبرزين (٦) ليقوم فأبى ؛ فأدخلوا

(١) الهجمة : القطعة الضخمة من الإبل . قيل هى ما بين الثلاثين والمائة . وقيل أولها الأربعون . وقيل ما بين السبعين إلى المائة . (انظر كتب اللغة) . وتقليدها أنه يجعل فى عنقها شعارا ليعلم أنه هدى . (٢) حراء وثبير : جبلان بمكة . والبيد : جمع البيداء ، وهى الفلاة . وتطريد الإبل : تتابعها . (٣) السهيلى : « طماطم سود » يعنى العلوج .
(٤) ما بين المربعين لم يذكره ابن إسحاق فى روايته . (٥) أخفره : أى أنقض عهده وعزمه فلا تؤمنه .
(٦) الطبر (محركة) : الفأس من السلاح (معربة) . والطبرزين آلة من السلاح تشبه الطبر . وقيل هو الطبر بعينه .

Marfat.com

محاجن[1] لهم فى مراقه، فبزغوه[2] بها ليقوم، فأبى، فوجهوه راجعا إلى اليمن، فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام، ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق، ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى مكة فبرك. وأرسل الله عليهم طيرا من البحر، أمثال الخطاطيف والبلسان[3]، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار: حجر فى منقاره، وحجران فى رجليه، أمثال الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحدا إلا هلك، وليس كلهم أصابت. وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق التى جاءوا منها، ويسألون عن نفيل ابن حبيب، ليدلهم على الطريق إلى اليمن. فقال نفيل بن حبيب حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمته:

أينَ المفـــرُّ والإلهُ الطَّالبْ * والأشرمُ[4] المغلوبُ ليسَ الغالبْ

وقال أيضا:

حمِـــدتُ الله إذ أبصرتُ طَيْرا * وخفت حِجارَة تُلْقَى علينـا
فكلُّ القومِ يسأل عن نُفَيـــلِ * كأنَّ علىَّ للحُبْشان دَيْنـا

فخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكون [بكل مَهْلِك][5] على كل سَهْل[6]، وأصيب أبرهة فى جسده، وخرجوا به معهم يسقط أُنْمُلَةً أنملة[7]، كلما سقطت منه أنملة أتبعتها منه مِدَّة[8] تمث قيحا ودما، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه، فيما يزعمون.

وقال الكلبي ومقاتل بن سليمان — يزيد أحدهما وينقص — : سبب الفيل ما روى أن فتية من قريش خرجوا تجارا إلى أرض النجاشى، فنزلوا على ساحل البحر إلى بيعة للنصارى، تسميها النصارى الهَيْكل، فأوقدوا نارا لطعامهم وتركوها وارتحلوا؛ فهبت ريح عاصف على النار فأضرمت البيعة نارا، فاحترقت؛ فأتى الصريخ إلى النجاشى فأخبره،

(١) المحجن: العصا المنعطفة الرأس كالصولجان. (٢) بزغوه: شرطوه. (٣) فى اللسان والنهاية مادة (بلس): «قال عباد بن موسى أظنها الزرازير». (٤) الأشرم: أبرهة؛ سمى بذلك لأنه جاءه حجر فشرم أنفه فسمى الأشرم. (٥) زيادة عن سيرة ابن هشام. (٦) فى سيرة ابن هشام: «منهل» (٧) أى ينتثر جسمه، والأنملة طرف الأصبع، ويعبر بها عن الصغير من الأشياء. (٨) مث السقاء: رشح.

Marfat.com

فاستشاط غضبا. فأتاه أبرهة بن الصَّبَّاح وحُجْر بن شُرَحْبيل وأبو يَكْسوم الكِنْديون، وضمنوا له إحراق الكعبة وسَبْي مكة. وكان النجاشيّ هو الملك، وأبرهةُ صاحب الجيش، وأبو يكسوم نديم الملك، وقيل وزير، وحُجْر بن شُرَحبيل من قوّاده. وقال مجاهد: أبو يكسوم هو أبرهة ابن الصباح. فساروا ومعهم الفيل. قال الأكثرون: هو فيل واحد. وقال الضحاك: هي ثمانية فِيَلَة. ونزلوا بذى المَجاز، وآستاقوا سَرْح مكة، وفيها إبل عبد المطلب. وأتى الراعى نذيرا، فصعد الصفا، فصاح: واصباحاه! ثم أخبر الناس بمجىء الجيش والفيل. فخرج عبد المطلب، وتوجه إلى أبرهة، وسأله فى إبله. وآختُلِف فى النجاشيّ، هل كان معهم؛ فقال قوم كان معهم. وقال الأكثرون: لم يكن معهم. ونظر أهل مكة بالطير قد أقبلت من ناحية البحر؛ فقال عبد المطلب: إن هذه الطير غريبة بأرضنا، وما هى بنَجدية ولا تِهامية ولا حجازية» وإنها أشباه اليعاسيب[١]. وكان فى مناقيرها وأرجلها حجارة؛ فلما أطلّت[٢] على القوم ألقتها عليهم، حتى هلكوا. قال عطاء بن أبى رباح: جاءت الطير عشية، فباتت، ثم صبحتهم بالغداة فرمتهم. وقال الكلبيّ: فى مناقيرها حصىً كحصى الخَذْف[٣]، أمام كل فرقة طائر يقودها، أحمر المِنقار، أسود الرأس، طويل العنق. فلما جاءت عسكر القوم وتوافت، أهالت ما فى مناقيرها على من تحتها، مكتوب على كل حجر آسم صاحبه المقتول به. وقيل: كان على كل حجر مكتوب: من أطاع الله نجا، ومن عصاه غَوَى. ثم انصاعت[٤] راجعة من حيث جاءت. وقال العَوفيّ: سألت عنها أبا سعيد الخدرِى، فقال: حمام مكة منها. وقيل: كان يقع الحجر على بيضة[٥] أحدهم فيخرقها، ويقع فى دِماغه، ويخرق الفيلَ والدابة. ويغيب الحجر فى الأرض من شدّة وقعه. وكان أصحاب الفيل ستين ألفا، لم يرجع منهم أحد إلا أميرهم، رجع ومعه شِرذمة لطيفة. فلما أخبروا بما رأوا هلكوا. وقال الواقدىّ: أبرهة جد النجاشى الذى كان فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبرهة هو الأشرم، سمى بذلك لأنه تفاتن[٦] مع أرياط، حتى تزاحفا،

(١) اليعسوب: أمير النحل. (٢) فى نسخة: «أقبلت». (٣) الخذف: الرمى بالحصى الصغار بأطراف الأصابع. (٤) انصاع الرجل: انفتل راجعا ومر مسرعا. (٥) هى بيضة الحديد.
(٦) المفاتنة: اختلاف الناس فى الآراء وما يقع بينهم من القتال.

Marfat.com

ثم آتفقا على أن يلتقيا بشخصيهما ، فمن غَلَب فله الأمر . فتبارزا — وكان أَرْياطُ جسيما عظيما ، في يده حربة ، وأبرهة قصيرا حادِرا[1] ، حليما ذا دين في النصرانية ، ومع أبرهة وزير له يقال له عِتْوَدَة — فلما دنوا ضرب أرياط بحربته رأس أبرهة ، فوقعت على جبينه ، فشرمت عينه وأنفه وجبينه وشفته ؛ فلذلك سُمّى الأشرم . وحمل عِتْودة على أرياط فقتله . فاجتمعت الحبشة لأبرهة ؛ فغضب النجاشيّ ، وحلف ليَجُزَّنّ ناصية أبرهة ، ويطأن بلاده . فجز أبرهة ناصيته » وملأ مِزودا من تراب أرضه ، وبعث بهما إلى النجاشيّ ، وقال : إنما كان عبدَك ، وأنا عبدُك ، وأنا أقوم بأمر الحبشة ، وقد جززت ناصيتي ، وبعثت إليك بتراب أرضي ، لتطأه وتبرّ في يمينك ؛ فرضى عنه النجاشيّ . ثم بنى أبرهة كنيسة بصنعاء ، ليصرف إليها حج العرب ؛ على ما تقدّم .

الرابعـــة — قال مقاتل : كان عام الفيل قبل مولد النبيّ صلى الله عليه وسلم بأربعين سنة . وقال الكلبي وعُبيد بن عمير : كان قبل مولد النبيّ صلى الله عليه وسلم بثلاث وعشرين سنة . والصحيح ما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ولدت عام الفِيل" . وروى عنه أنه قال : "يومَ الفِيـل" . حكاه المـاورديّ في التفسـير له . وقال في كتاب أعلام النبوّة : وُلد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأوّل ، وكان بعد الفيل بخمسين يوما . ووافق من شهور الروم العشرين من أسباط[2] ، في السنة الثانية عشرة من ملك هُرْمُز بن أنوشِروان . قال : وحكى أبو جعفر الطبريّ أن مولد النبيّ صلى الله عليه وسلم كان لاثنتين وأربعين سنة من ملك أنوشروان . وقد قيل : إنه عليه السلام حملت به أمه آمنة في يوم عاشوراء من المحرّم ، وولد يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان ؛ فكانت مدّة حمله ثمـانية أشهر كَمَلًا ويومين من التاسع . وقيل : إنه ولد يوم عاشوراء من شهر المحرم ؛ حكاه ابن شاهين أبو حفص[3] ، في فضائل يوم عاشوراء له . ابن العربيّ : « قال ابن وهب عن مالك : ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفيل ، وقال قيس بن مَخْرَمة : ولدت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفيل . وقد روى الناس عن مالك أنه قال :

(١) الحادر : المجتمع الخلق . (٢) في نسخة : « شباط » (بالشين المعجمة كغراب) ، وورد بالسين المهملة .
(٣) في بعض نسخ الأصل : « أبو شاهين حفص » .

Marfat.com

من مروءة الرجل ألّا يُخبِر بسنه ؛ لأنه إن كان صغيرا آستحقروه و إن كان كبيرا آستهرموه . وهذا قول ضعيف؛ لأن مالكا لا يخبر بسنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم و يكتم سِنه؛ وهو من أعظم العلماء قدوةً به. فلا بأس بأن يخبر الرجل بسنه كان كبيرا أو صغيرا » . وقال عبد الملك ابن مروان لعتاب بن أَسِيد : أنت أكبر أم النبيّ صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : النبيّ صلى الله عليه وسلم أكبر منى ، وأنا أسنّ منه؛ ولد النبيّ صلى الله عليه وسلم عام الفيل ، وأنا أدركت سائسه وقائده أعميين مُقْعدين يستطعمان الناس ، وقيــل لبعض القضاة : كم سنك ؟ قال : سنّ عَتّاب آبن أَسِيد حين ولاه النبيّ صلى الله عليه وسلم مكة؛وكان سنه يومئذ دون العشرين.

الخامســـة — قال علماؤنا: كانت قصة الفيل فيما بعدُ من معجزات النبيّ صلى الله عليه وسلم، و إن كانت قبله وقبل التحدّى؛ لأنها كانت توكيدا لأمره، وتمهيدا لشأنه . ولما تلا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه السورة، كان بمكة عدد كثير ممن شهد تلك الوقعة ؛ ولهذا قال: « ألم تر». ولم يكن بمكة أحد إلا وقد رأى قائد الفيل وسائقه أعميين يتكففان الناس . وقالت عائشة رضى الله عنها مع حداثة سنها : لقد رأيت قائد الفيل وسائقه أعميين يستطعمان الناس . وقال أبو صالح : رأيت فى بيت أمّ هانئ بنت أبى طالب نحوا من قفيزين من تلك الحجارة، سودا مخططة بحمرة .

قوله تعـالى : أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴾ أى فى إبطال وتضييع ؛ لأنهم أرادوا أن يكيدوا قُريشا بالقتل والسبى، والبيت بالتخريب والهدم . فحُكِى عن عبد المطلب أنه بعث آبنه عبد الله على فرس له ، ينظر ما لَقُوا من تلك الطير ، فإذا القوم مُشَدَّخين جميعا، فرجع يركض فرسه ، كاشفا عن فخذه ، فلما رأى ذلك أبوه قال : إن آبنى هذا أفرس العرب . وما كشف عن فخذه إلا بشيرا أو نذيرا . فلما دنا من ناديهم بحيث يُسْمِعهم الصوت، قالوا: ما وراءك ؟ قال : هلكوا جميعا . فخرج عبـد المطلب وأصحابه ، فأخذوا أموالهم . وكانت

Marfat.com

أموال بنى عبد المطلب منها ، وبها تكاملت رياسة عبد المطلب ؛ لأنه احتمل ما شاء من صفراء وبيضاء ، ثم خرج أهل مكة بعده ونهبوا . وقيل : إن عبد المطلب حفر حفرتين فملأهما من الذهب والجوهر ، ثم قال لأبى مسعود الثقفى — وكان خليلا لعبد المطلب — : اختر أيهما شئت . ثم أصاب الناس من أموالهم حتى ضاقوا ذرعا ، فقال عبد المطلب عند ذلك :

أنتَ منعتَ الحُبْشَ(1) والأفيالا * وقد رَعَوْا بمكة الأجبالا(2)
وقد خشينا منهمُ القتالا * وكلّ أمر لهم(3) مِعضالا
* شكرا وحمدا لك ذا الجلالا(4) *

قال ابن إسحاق : ولما ردّ الله الحَبَشة عن مكة عَظَّمت العرب قريشا ، وقالوا : [هم](5) أهل الله ، قاتل الله عنهم ، وكفاهم مئونة عدوّهم . وقال عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، فى قصة أصحاب الفيل :

أنتَ الجليلُ ربَّنا لم تدنس * أنتَ حبستَ الفيل بالمُغَمَّس
من بعد ما هَمَّ بشرٍّ مُبْلِس * حبسته فى هيئة المُكَرْكَس
* وما لهم من فرج ومنفس *

والمكركس : المنكوس المطروح .

قوله تعالى : وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾

قال سعيد بن جبير : كانت طيرا من السماء لم يُرَ قبلها ولا بعدها مثلها . وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إنها طير بين السماء والأرض تُعَشِّش وتُفَرِّخ" . وعن ابن عباس : كانت لها خراطيم كخراطيم الطير ، وأكف كأكف الكلاب . وقال عِكرمة : كانت طيرا خُضْرًا ، خرجت من البحر ، لها رءوس كرءوس السباع . ولم تُرَ قبل ذلك ولا بعده . وقالت عائشة رضى الله عنها : هى أشبه شىء بالخطاطيف . وقيل : بل كانت أشباه الوطاويط ، حمراء وسوداء . وعن

(1) الظاهر أنه جمع (أحبش) بوزن أحمر ، وإن لم ينطقوا به . قال فى تاج العروس : كأنه جمع أحبش (بوزن أحمر) . (2) فى روح المعانى ، «الأحبالا» بالحاء . (3) فى روح المعانى «منهم» بدل «لهم» . (4) كذا فى نسخ الأصل وغيرها من المصادر . (5) زيادة عن سيرة ابن هشام .

Marfat.com

سعيد بن جبير أيضا : هى طير خُضْر لها مناقير صُفْر . وقيـل : كانت بِيضًا . وقال محمد آبن كعب : هى طير سود بحرية ، فى مناقيرها وأظفارها الحجارة . وقيل : إنها العنقاء المُغْرِب [1] التى تضرب بها الأمثال ؛ قال عِكرمة : « أبابيـل » أى مجتمعة . وقيـل : متابعة ، بعضها فى إثر بعض ؛ قاله آبن عباس ومجاهد . وقيـل مختلفة متفرقة ، تجىء من كل ناحية ، من ها هنا وها هنا ؛ قاله آبن مسـعود وآبن زيد والأخفش . قال النحاس : وهـذه الأقوال متفقة ، وحقيقة المعنى : أنها جماعات عظام . يقال : فلان يؤبّل على فلان ؛ أى يعظم عليه ويكثر ؛ وهو مشتق من الإبل . وآختلف فى واحد (أبابيل) ؛ فقال الجوهرى : قال الأخفش يقال : جاءت إبلك أبابيل ؛ أى فِرقا ، وطير أبابيل . قال : وهذا يجىء فى معنى التكثير ، وهو من الجمع الذى لا واحد له . وقال بعضهم : واحده إبَّوْل ، مثل عِجَّوْل . وقال بعضهم — وهو المبرّد — : إِبِّيل مثـل سِكِّين . قال : ولم أجد العرب تعرِف له واحدا فى غير الصحاح . وقيل فى واحده إِبَّال . وقال رؤبة بن العجاج فى الجمع :

ولعبتْ طـيرٌ بِهِـمْ أَبابيــلْ　＊　فصُيِّرُوا مِثْـلَ كَعَصْفٍ مَأْكُولْ

وقال الأعشى :

طَـرِيقٌ وجَبّـارٌ [2] رِواءٌ أُصــولُهُ　＊　عليـهِ أبابيـلٌ مِن الطَّـيْرِ تَنْعَبُ

وقال آخـــر :

كادت تُهَدُّ من الأصواتِ راحلَتِي　＊　إذْ سالتِ الأَرْضُ بالجُـرْدِ [3] الأَبابيلِ

وقال آخـــر :

تَراهُمْ إلى الداعى سِـراعا كأنّهـمْ　＊　أبابيـلُ طَـيْرٌ تحتَ دَجْنٍ مُسَخَّنِ [4]

(١) هى التى أغربت فى البلاد ، فنأت ولم تحس ولم تر .　(٢) الجبار من النخل : ماطال وفات اليد .

(٣) الجـرد (بالضم كالجريدة) : خيل لا رجالة فيها . والجرد — أيضا — : قصر شعر الجلد فى الفرس ، وهو من الأوصاف المحمودة فى الخيل .　(٤) كذا فى نسخ الأصل ، (بالخاء المعجمة والنون) . وفى تفسير الثعلبى : ... تحت دجن مسحر . (بالحاء المهملة والراء) . وقد نسبه إلى آمرئ القيس ؛ ولم نجده فى ديوانه . ولعل صوابه : ... تحت دجن مسخر . (بالخاء المعجمة والراء) .

Marfat.com

قال الفراء : لا واحد له من لفظه . وزعم الرؤاسيّ — وكان ثقة — أنه سمع في واحدها « إبّالة » مشدّدة . وحكى الفرّاء « إبالة » مخففا . قال : سمعت بعض العرب يقول : ضِغْث على إبَّالَة(١) . يريد : خِصبا على خِصب . قال : ولو قال قائل إيبال كان صوابا ؛ مثل دينار ودنانير . وقال إسحاق بن عبد الله بن الحارث بن نوفل : الأبابيل : مأخوذ من الإبل المؤبلة ؛ وهي الأقاطيع .

قوله تعالى : تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾

في الصحاح : « حجارة من سِجِّيل » قالوا : حجارة من طين ، طبخت بنار جهنم ، مكتوب فيها أسماء القوم ؛ لقوله تعالى : « لِنُرسِلَ عَلَيهِم حِجارةً مِن طِينٍ . مُسَوَّمَةً(٢) » . وقال عبد الرحمن آبن أبزى : « مِن سِجِّيلٍ » : من السماء ، وهي الحجارة التي نزلت على قوم لوط . وقيل من الجحيم . وهي « سِجِّين » ثم أبدلت اللام نونا ؛ كما قالوا في أُصَيْلان أُصيلال . قال آبن مقبل :

* ضَرْبًا تَواصَتْ به الأبطالُ سِجِّينا(٣) *

وإنما هو : سجيلا . وقال الزجاج : « مِن سِجِّيلٍ » أي مما كُتب عليهم أن يُعذّبوا به ؛ مشتق من السجل . وقد مضى القول في سِجِّيل في « هود(٤) » مستوفى . قال عِكرمة : كانت ترميهم بحجارة معها ، فإذا أصاب أحدهم حجر منها خرج به الجُدَرِيّ لم يُرَ قبلَ ذلك اليوم . وكان الحجر كالحِمِّصة وفوق العدسة . وقال آبن عباس : كان الحجر إذا وقع على أحدهم نَفِط جلده ، فكان ذلك أوّل الجُدَرِيّ . وقراءة العامة « تَرْمِيهِمْ » بالتاء ، لتأنيث جماعة الطير . وقرأ الأعرج وطلحة « يَرْمِيهم » بالياء ؛ أي يرميهم الله ؛ دليله قوله تعالى : « ولكنَّ اللهَ رَمَى(٥) » ويجوز أن يكون راجعا إلى الطير ، لخلوها من علامات التأنيث ، ولأن تأنيثها غير حقيقيّ .

(١) الضغث : قبضة من حشيش مختلطة الرطب باليابس . والإبالة : الحزمة من الحطب . في فرائد اللآل : يضرب لمن حالك مكروها ثم زادك عليه .

(٢) آية ٣٣ سورة الذاريات .

(٣) صدر البيت كما في اللسان : * ورجلة يضربون البيض عن عرض *

(٤) راجع جـ ٩ ص ٨١ .

(٥) آية ١٧ سورة الأنفال .

Marfat.com

قوله تعـالى : فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

أى جعل الله أصحاب الفيل كورق الزرع إذا أكلته الدواب، فرمت به من أسـفل . شـبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزائه . رُوى معنـاه عن ابن زيد وغيره . وقـد مضى القول فى العَصْف فى سورة « الرحمن »[1] . وممـا يدل على أنه ورق الزرع قول علقمة :

تَسْـقِى مَذانِبَ قَدْ مالَتْ عَصِيفَتُها * حَدُورُها من أَتِىِّ المـاءِ مَطْمُـوم[2]

وقال رؤبة بن العجاج :

ومَسَّهُمْ ما مَسَّ أَصْحابَ الفِيـلْ * تَرْمِيهِـمُ حِجارَةٌ مِنْ سِجِّيـلْ

ولَعِبتْ طَـيرٌ بهـمْ أَبابيـلْ * فَصُـيِّروا مِثْـلَ كَعَصْفٍ مَأْكُولْ

العَصْف : جمع، واحدته عَصْفة، وعُصافة، وعَصِيفة . وأدخل الكاف فى « كَعَصْف » للتشبيه مع مثل، نحو قوله تعـالى : « ليس كمثله شىء»[3] . ومعنى «مأكول» مأكول حبه . كما يقال : فلان حسن؛ أى حسن وجهه . وقال آبن عباس : « فجعلهم كعصف مأكول » أن المـراد به قشر البر؛ يعنى الغِلاف الذى تكون فيه حبة القمح . ويروى أن الحجـر كان يقع على أحدهم فيخرج كل ما فى جوفه، فيبقى كقشر الحنطة إذا خرجت منه الحبة . وقال آبن مسعود : لمـا رمت الطير بالحجارة، بعث الله ريحا فضربت الحجارة فزادتها شدّة، فكانت لا تقع على أحد إلا هلك، ولم يسلم منهم إلا رجل من كندة[4]؛ فقال :

فإنـكِ لَـوْ رأيتِ ولم تَرَيهِ[5] * لدى جنب المُغَمَّس ما لَقِينا

(١) راجع جـ ١٧ ص ١٥٦ . (٢) المذانب : مسايل المـاء . والعصيفة : الورق المجتمع الذى يكون فيه السنبل . وحدورها : ما انحدر منها وآطمأن . والأتى (كغنى) : الجدول . والمطموم : المملوء بالمـاء .
(٣) آية ١١ سورة الشورى . (٤) هو نفيل بن حبيب؛ كما فى تاريخ الطبرى، وآبن الأثير .
(٥) فى نسخ الأصـل : « ولو ترانا » وهو تحريف؛ لأنه يخاطب امرأة . والأبيات كما أوردها الطبرى (ص ٩٤٢ قسم أوّل طبع أوروبا) وآبن الأثير (جـ ١ ص ٢٢٢ طبع أوروبا) :

ألا حييت عنـا يا ردينـا * نعمنا كم مع الإصباح عينا
أتانا قابس منـكم عشـاء * فلم يقـدر لقابسكم لدينـا
ردينـة لو رأيت ولم تريه * لدى جنب المحصب ما رأينـا
إذن لعذرتنى وحمدت رأيى * ولم تأسى على ما فات بينا
حمدت الله إذ عاينت طيرا * وخفت حجارة تلـقى علينـا
لكل القوم يسأل عن نفيل * كأن علىّ للحبشـان دينـا

Marfat.com

خَشِيتُ اللهَ إذْ قد بَتْ طَيْرًا * وظِلَّ سحابةٍ مَرت علينا
وباتتْ كلُّها تدعو بحَقٍّ * كأن لها على الحُبْشان دَيْنا

ويروى أنها لم تصبهم كلهم، لكنها أصابت من شاء الله منهم . وقد تقدّم أن أميرهم رجع وشِرْذمة لطيفة معه، فلما أخبروا بما رأوا هلكوا . فالله أعلم . وقال ابن إسحاق : لما ردّ الله الحبشة عن مكة، عَظَّمت العرب قريشا وقالوا : أَهلُ اللهِ، قاتل عنهم، وكفاهم مئونة عدوّهم ؛ فكان ذلك نعمة من الله عليهم .

تفسير سـورة « قريش »

مكية ؛ في قول الجمهور . ومدنية ؛ في قول الضحاك والكلبي

وهي أربع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ (١)

قيل : إن هذه السورة متصلة بالتي قبلها في المعنى . يقول : أهلكت أصحاب الفيل لإيلاف قريش؛ أي لتأتلف، أو لتتفق قريش، أو لكي تأمن قريش فتُؤَلِف رحلتيها . وممن عدّ السورتين واحدة أُبَيّ بن كعب، ولا فصل بينهما في مصحفه . وقال سفيان بن عيينة : كان لنا إمام لا يفصل بينهما، ويقرؤهما معا . وقال عمرو بن ميمون الأَوْدِيّ : صلينا المغرب خلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ فقرأ في الأولى : « والتينِ والزَّيتُونِ » وفي الثانية « أَلَمْ تَرَ كيف » و « لِإيلافِ قُرَيش » . وقال الفراء[(١)] : هذه السورة متصلة بالسورة الأولى؛ لأنه ذكّر أهل مكة عظيم نعمته عليهم فيما فعل بالحبشة، ثم قال : « لإيلاف قُريش » أي فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نِعْمَةً منا على قريش . وذلك أن قريشا كانت تخرج في تجارتها، فلا يُغار عليها ولا تُقرب في الجاهلية . يقولون : هم أهل بيت الله جلّ وعزّ؛ حتى جاء صاحب الفيل

(١) الذي في كتاب الفراء : « قال بعضهم كانت موصولة بـ « ألم تر كيف فعل ربك » الخ .

Marfat.com

ليهدم الكعبة، ويأخذ حجارتها، فيبني بها بيتا في اليمن يَحُج الناس إليه، فأهلكهم الله عز وجل، فذكَّرهم نِعْمته. أى يجعل الله ذلك لإيلاف قريش، أى ليألفوا الخروج ولا يُجْتَرَأ عليهم؛ وهو معنى قول مجاهد وابن عباس في رواية سعيد بن جبير عنه. ذكره النحاس: حدثنا أحمد ابن شُعيب قال أخبرني عمرو بن علي قال: حدثني عامر بن إبراهيم — وكان ثقة من خيار الناس — قال حدثني خطاب بن جعفر بن أبي المغيرة، قال: حدثني أبي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، في قوله تعالى: «لإيلافِ قريشٍ» قال: نعمتي على قريش إيلافُهُم رحلة الشتاء والصيف. قال: كانوا يَشْتون بمكة، ويَصيفون بالطائف. وعلى هذا القول يجوز الوقف على رءوس الآى وإن لم يكن الكلام تاما؛ على ما نبينه أثناء السورة. وقيل: ليست بمتصلة؛ لأن بين السورتين «بسم الله الرحمن الرحيم» وذلك دليل على انقضاء السورة وافتتاح الأخرى، وأن اللام متعلقة بقوله تعالى: «فلْيعبدوا» أى فليعبدوا هؤلاء ربَّ هذا البيت، لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف للامتيار[1]. وكذا قال الخليل: ليست متصلة؛ كأنه قال: ألَّف الله قريشا إيلافا فليعبدوا ربَّ هذا البيت. وعمِل ما بعد الفاء فيما قبلها لأنها زائدة غير عاطفة؛ كقولك: زيدا فاضرب. وقيل: اللام في قوله تعالى: «لإيلافِ قريشٍ» لام التعجب؛ أى اعجبوا لإيلاف قريش؛ قاله الكسائي والأخفش. وقيل: بمعنى إلى. وقرأ ابن عامر: «لإئلافِ قريش» مهموزا مختلسا بلا ياء. وقرأ أبو جعفر والأعرج «لِيلَافِ» بلا همز طلبا للخفة. الباقون «لإيلاف» بالياء مهموزا مشبعا؛ من آلفتُ أُولِفُ إيلافا. قال الشاعر:

المُنْعِمين إذا النجوم تغيرتْ * والظاعنينَ لرحلةِ الإيلافِ

ويقال: أَلِفْتُه إِلْفا وإلافا. وقرأ أبو جعفر أيضا: «لإِلْفِ قُرَيْش» وقد جمعهما من قال:

زَعَمْتُمْ أن إخوتكُمْ قُرَيشٌ[2] * لهم إلف وليس لكم إلاف

قال الجوهري: وفلان قد أَلِف هذا الموضعَ (بالكسر) يألفُه إلفًا، وآلفه إياه غيره. ويقال أيضا: آلفت الموضع أُولِفه إيلافًا. وكذلك: آلفت الموضع أُولِفُه مُؤالفة وإلافا؛

(١) أى لجلب الطعام.
(٢) كذا في نسخ الأصل بالرفع على الخبر. وفي اللسان وشرح القاموس: «قريشا» بالنصب على البدل.

Marfat.com

فصار صورة أفعل وفاعل فى الماضى واحدة . وقرأ عكرمة « لِيَأْلَفْ » بفتح اللام على الأمر . وكذلك هو فى مصحف آبن مسعود . وفتح لام الأمر لغة حكاها آبن مجاهد وغيره . وكان عكرمة يعيب على من يقرأ « لإِيلاف » . وقرأ بعض أهل مكة « إلاف قريش » وآستشهد بقول أبى طالب يوصى أخاه أبا لهب برسول الله صلى الله عليه وسلم :

فَلا تَتْرُكَنْه ما حييتَ لِمُعْظِمٍ * وكُنْ رجلا ذا نَجْدةٍ وعَفافِ
تذود العدا عن عُصْبة هاشمية * إلافُهم فى الناس خيرُ إلافِ

وأما قريش فهم بنو النضر بن كِنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر . فكل من كان من ولد النضر فهو قرشىّ دون بنى كِنانة ومن فوقه . وربما قالوا : قُرَيْشِىّ ، وهو القياس ؛ قال الشاعر :

* بكل قُرَيْشِىّ عليه مهابة (١) *

فإن أردت بقريش الحىّ صرفته ، وإن أردت به القبيلة لم تصرفه ؛ قال الشاعر :

* وكَفَى قُرَيْشَ المُعْضِلاتِ وسادَها (٢) *

والتقريش : الاكتساب، وتقرّشوا أى تجمعوا . وقد كانوا متفرقين فى غير الحرم ، فجمعهم قُصَىّ بن كلاب فى الحرم ، حتى اتخذوه مَسْكنا . قال الشاعر :

أبونا قُصَىّ كان يُدْعَى مُجَمِّعاً * به جمع الله القبائلَ مِنْ فِهرِ

وقد قيل : إن قريشا بنو فِهر بن مالك بن النضر . فكل من لم يلده فِهر فليس بقرشىّ . والأول أصح وأثبت . وقد روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إنا ولد النضر آبن كنانة لا نقفو أُمنا (٣) ، ولا نتتفى من أبينا " . وقال واثلة بن الأسْقَع : قال النبىّ صلى الله

(١) تمامه : * سريع إلى داعى الندى والتكرم *

(٢) هذا عجز بيت لعدى بن الرقاع يمدح الوليد بن عبد الملك . وصدره كما فى اللسان :

* غلب المساميح الوليد سماحة *

(٣) قفا فلان فلانا : إذا قذفه بما ليس فيه ، أى لا نتهمها ولا نقذفها ، وقيل : معناه لا نترك النسب إلى الآباء، وننتسب إلى الأمهات .

Marfat.com

عليه وسلم : " إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى من بنى كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم " . صحيح ثابت ، خرّجه البخارىّ ومسلم وغيرهما . واختلف فى تسميتهم قريشا على أقوال : أحدها — لتجمّعهم بعد التفرق ، والتقرش : التجمع والالتئام . قال أبو جِلْدَة اليَشْكُرى (١) :

إخوة قَرَّشُوا الذنوبَ علينا * فى حديثٍ من دهرِهم وقديم

الثانى — لأنهم كانوا تجارا يأكلون من مكاسبهم . والتَّقَرُّش : التكسُّب . وقد قَرَش يَقْرُشُ قَرْشا : إذا كسب وجمع . قال الفراء : وبه سميت قُرَيش . الثالث — لأنهم كانوا يفتشون الحاج من ذى الخَلَّة (٢) ، فيسدّون خَلّته . والقَرْش : التفتيش . قال الشاعر :

أَيُّها الشامتُ المقرش عنا * عند عمرو فهل له إبقاء (٣)

الرابع — ما روى أن معاوية سأل ابن عباس لم سميت قريش قريشا ؟ فقال : لدابة فى البحر من أقوى دوابه يقال لها القِرْش ؛ تأكل ولا تؤكل ، وتعلو ولا تُعْلَى . وأنشد قول تُبَّع :

وقريش هى التى تسكن البحـ * ـر بها سميت قريش قريشا
تأكل الرث والسمين ولا تتـ * ـرك فيها لذى جناحين ريشا
هكذا فى البلاد حىّ قُرَيش * يأكلون البلاد أكلا كميشا (٤)
ولهم آخرَ الزمان نبيٌّ * يكثر القتل فيهم والخموشا (٥)

قوله تعالى : إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾

قرأ مجاهد وحميد « إلْفِهم » ساكنة اللام بغير ياء . وروى نحوه عن ابن كثير . وكذلك روت أسماء أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ « إلفِهم » . وروى عن ابن عباس

(١) ضبطه فى التاج بكسر الجيم . (٢) الحاج : جماعة الحجاج . والخلة (بالفتح) : الحاجة والفقر .
(٣) البيت للحارث بن حلزة اليشكرى فى معلقته . وروايته كما فى شرح المعلقات :

أيها الناطق المرقش عنا * عند عمرو وهل لذاك بقاء

قال التبريزى : « المرقش : المزين القول بالباطل ، ليقبل منه الملك باطله . ويقال إنه يخاطب بها عمرو بن كلثوم . ومعنى « وهل لذاك بقاء » : « إن الباطل لا يبق » . وعلى هذه الرواية لا شاهد فيه .
(٤) أى سريعا . (٥) الخموش : (جمع الخمش) ، وهو مثل الخدش ، يكون فى البدن والوجه .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ رِحلةَ الشتاءِ والصيفِ ﴾ « رِحلَةَ » نصب بالمصدر؛ أى آرتحالهم رِحلة ، أو بوقوع « إيلافهم » عليه، أو على الظرف . ولو جعلتها فى محل الرفع، على معنى هما رِحلة الشتاء والصيف ، لجاز . والأول أولى . والرحلة الآرتحال . وكانت إحدى الرحلتين الى اليمن فى الشتاء، لأنها بلاد حامية، والرحلة الأخرى فى الصيف إلى الشام ، لأنها بلاد باردة. وعن آبن عباس أيضا قال : كانوا يَشْتون بمكة لدِفئها ، ويَصيفون بالطائف لهوائها . وهذه من أجلّ النعم أن يكون للقوم ناحيـة حَرّ تدفع عنهم برد الشتاء ، وناحية بردٍ تدفع عنهم حر الصيف ؛ فذكرهم الله تعالى هذه النعمة . وقال الشاعر :

تَشْـتي بمـكة نَعْمَـةً * ومَصيفُها بالطّائِف

وهنا أربع مسـائل :

الأولى ـــ اختـار القاضى أبو بكر بن العـربى وغيره من العلمـاء : أن قوله تعـالى : « لإيلافِ » متعلق بمـا قبله . ولا يجـوز أن يكون متعلقا بمـا بعده، وهو قوله تعـالى : « فَلْيعبدُوا ربّ هـذَا البَيْتِ » قال : وإذا ثبت أنه متعلق بالسورة الأخرى ـــ وقد قطع عنه بكلام مبتدإ، واستئناف بيان وسطر (بسم الله الرحمن الرحيم) ، فقد تبين جواز الوقف فى القراءة[1] للقرّاء قبل تمـام الكلام ، وليست المواقف التى ينتزع[2] بهـا القُرّاء شرعا عن النبى صلى الله عليه وسـلم مرويا ، وإنمـا أرادوا به تعليم الطلبة المعـانى ، فإذا علموها وقفـوا حيث شاءوا . فأما الوقف عند انقطاع النفس فلا خلاف فيه ، ولا تُعِد ماقبله إذا اعتراك ذلك، ولكن آبدأ من حيث وقف بك نَفَسك . هذا رأيى فيه ، ولا دليل على ما قالوه بحال، ولكنى أعتمد الوقف على التمـام، كراهية الخروج عنهم .

قلت : ومن الدليل على صحه هذا، قراءة النبى صلى الله عليه وسلم «الحمد لِلّهِ رب العالَمين» ثم يقف . « الرحْمَنِ الرَّحِيم » ثم يقف . وقد مضى فى مُقَدِّمة الكتَاب[3] . وأجمع المسلمون أن

(١) فى ابن العربى : « فى القرآن » . (٢) فى ابن العربى : « تنزع » .

(٣) راجع جـ ١ ص ١٠ فيا بعد .

Marfat.com

الوقف عند قوله : « كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ » ليس بقبيح . وكيف يقال إنه قبيح وهذه السورة تُقرأ فى الركعة الأولى والتى بعدها فى الركعة الثانية، فيتخللها مع قطع القراءة أركان ؟ وليس أحد من العلماء يكره ذلك ، وما كانت العلة فيه إلا أنَّ قوله تعالى : « فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ » انتهاء آية . فالقياس على ذلك : ألا يمتنع الوقف عند أعجاز الآيات سواء كان الكلامُ يتم ، والغرض ينتهى ، أولا يتم ، ولا ينتهى . وأيضا فإن الفواصل حلية وزينة للكلام المنظوم ، ولولاها لم يتبين المنظوم من المنثور . ولا خفاء أن الكلام المنظوم أحسن ؛ فثبت بذلك أن الفواصل من محاسن الكلام المنظوم ، فمن أظهرَ فواصله بالوقوف عليها فقد أبدى محاسنه ، وترك الوقوف يُخفى تلك المحاسن ، ويُشَبِّه المنثور بالمنظوم ، وذلك إخلال بحق المقروء .

الثانيــة ـ قال مالك : الشتاء نصف السنة، والصيف نصفها، ولم أزل أرى ربيعة ابن أبى عبد الرحمن[(١)] ومن معه، لايخلعون عمائمهم حتى تطلع الثُّريا، وهو يوم التاسع عَشَرَ من بشنس ، وهو يوم خمسة وعشرين من عدد[(٢)] الروم أو الفرس . وأراد[(٣)] بطلوع الثريا أن يخرج السُّعاة ، ويسير الناس بمواشيهم إلى مياههم ، وأن طلوع الثريا أول[(٤)] الصيف ودُبُرُ الشتاء . وهذا مما لاخلاف فيه بين أصحابه عنه . وقال عنه أشهب وحده : إذا سقطت الهَقْعَة[(٥)] نقص الليل، فلما جُعل طلوع الثريا أول الصيف ، وجب أن يكون له فى مطلق السنة ستة أشهر، ثم يستقبل الشتاء من بعد ذهاب الصيف ستة أشهر . وقد سئل محمد بن عبد الحكم عمن حلف ألا يكلم آمرأ حتى يدخل الشتاء ؟ فقال : لايكلمه حتى يمضى سبعة عشر من هاتور . ولو قال حتى يدخل الصيف ؛ لم يكلمه حتى يمضى سبعة عشر من بشنس . قال القُرَظِىّ : أما ذكر هذا عن محمد فى بشنس ، فهو سهو، إنما هو تسعة عشر من بشنس، لأنك إذ حسبت المنازل

---

(١) هو ربيعة الرأى، أدرك بعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم والأكابر من التابعين، وكان صاحب الفتوى بالمدينة ؛ وعنه أخذ مالك بن أنس وغيره . توفى سنة ١٣٦ هـ .　(٢) كذا فى الأصول وابن العربى . أى من عدد شهورهم　(٣) كذا فى ابن العربى . وفى نسخ الأصل : « وأرى » .

(٤) فى ابن العربى : « قبل الصيف » .

(٥) الهقعة : ثلاثة كواكب نيرة قريب بعضها من بعض، فوق منكب الجوزاء ، وهى منزل من منازل القمر .

Marfat.com

على ما هى عليه ، من ثلاث عشرة ليـلة كل منزلة ، علمت أن ما بين تسع عشرة من هاتور لاتنقضى منازله إلا بدخول تسع عشرة من بشنس . والله أعلم .

الثالثـة — قال قوم : الزمان أربعة أقسام : شتاء ، وربيع ، وصيف ، وخريف . وقال قـوم : هو شتاء ، وصيف ، وقيظ ، وخريف . والذى قاله مالك أصح ؛ لأن الله قسم الزمان قسمين (١) ولم يجعل لها ثالثا .

الرابعـة — لما آمتن الله تعالى على قريش برحلتين ، شتاء وصيفا ، على ما تقدم ، كان فيه دليـل على جـواز تصرف الرجل فى الزمانين بين محلّين ، يكون حالها فى كل زمان أنعم من الآخر ؛ كالجلوس فى المجلس البحْرى فى الصيف ، وفى القبلى فى الشتاء ، وفى اتخاذ البادَهنَجات (٢) والخَيْش للتبريد ، واللبد واليانوسة (٣) للدفء .

قوله تعالى : ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣﴾

أمرهم الله تعالى بعبادته وتوحيده ، لأجل إيلافهم رحلتين . ودخلت الفاء لأجل ما فى الكلام من معنى الشرط ؛ لأن المعنى : إمّا لا فليعبدوه لإيلافهم ؛ على معنى أن نعم الله تعالى عليهم لا تُحصَى ، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه ، فليعبدوه لشأن هذه الواحدة ، التى هى نعمة ظاهرة . والبيت : الكعبة . وفى تعريف نفسه لهم بأنه رب هذا البيت وجهان : أحدهما : لأنه كانت لهم أوثان فميز نفسه عنها . الثانى : لأنهم بالبيت شُرِّفوا على سائر العرب ؛ فذكر لهم ذلك ، تذكيرا لنعمته . وقيل : « فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هـذا البيتِ » أى ليألفوا عبادة رب الكعبة ، كما كانوا يألفون الرحلتين . قال عكرمة : كانت قريش قد ألفوا رحلة إلى بُصْرَى

---

(١) فى الأصول : « لأن قسمة الله للزمان قسمين ، ولم يجعل لها ثالثا » وهى غير مستقيمة . وفى ابن العربى « لأجل قسمة الله الزمان قسمين ... الخ » .

(٢) فى كتاب شفاء الغليل للشهاب الخفاجى : « الباد هنج » معرب باد خون او باد كير ، منفذ للهواء فى سقف البيت .

(٣) فى ابن العربى : « اليانوس » . ولم نجد فى المعاجم العربية هذه المادة .

Marfat.com

ورحلة إلى اليمن، فقيل لهم : «فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ» أى يقيموا بمكة[1]. رحلة الشتاء، إلى اليمن، والصيف : إلى الشام.

قوله تعالى : ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِن جُوعٍ ﴾ أى بعدَ جوع. ﴿ وآمنهم مِن خوف ﴾ قال ابن عباس : وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام حيث قال : «رَبِّ اجعلْ هذا بَلَدًا آمِنا وارزق أَهْلَهُ مِن الثَّمراتِ»[2]. وقال ابن زيد : كانت العرب يُغير بعضها على بعض، ويَسْبِي بعضها من بعض، فأَمنتْ قُريش من ذلك لمكان الحرم — وقرأ — «أَوَلَمْ نُمَكِّن لهم حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِليـه ثَمَراتُ كل شيء»[3]. وقيل : شق عليهم السفر فى الشتاء والصيف، فألقى الله فى قلوب الحَبَشة أن يحملوا إليهم طعاما فى السفن، فحملوه ؛ فخافت قريش منهمْ، وظنوا أنهم قدموا لحربهم، فخرجوا إليهم مُتَحَرِّزين، فإذا هم قد جلبوا إليهم الطعام، وأغاثوهم بالأقوات ؛ فكان أهل مكة يخرجون إلى جُدَّة بالإبل والحُمُر، فيشترون الطعام، على مسيرة ليلتين. وقيل : هـذا الإطعام هو أنهم لما كذبوا النبيّ صلى الله عليه وسلم دعا عليهم، فقال : "اللَّهُمَّ اجعلْها عليهمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ" فاشتد القَحْط، فقالوا : يا محمدُ ادعُ الله لنا فإنا مؤمنون. فدعا فأخصبتْ تَبَالَة وجُرَش من بلاد اليمن ؛ فحملوا الطعام إلى مكة، وأخصب أهلها. وقال الضحاك والربيع وشريك وسفيان : «وآمنهم مِنْ خَوْف» أى من خوف الجُذام، لا يصيبهم ببلدهم الجُذام. وقال الأعمش : «وآمنهم مِن خوف» أى من خوف الحَبَشة مع الفيل. وقال علىّ رضى الله عنه : وآمنهم مِن [خـوف][4] : أن تكون الخلافة إلا فيهم. وقيل : أى كفاهم أخذ الإيلاف من الملوك. فالله أعلم، واللفظ يعم.

(١) يريد : يقيموا بمكة : و يتركوا الرحلة ... الخ.
(٢) آية ١٢٦ سورة البقرة.
(٣) آية ٥٧ سورة القصص.
(٤) التكملة من تفسير الخطيب.

Marfat.com

تفسير سورة « الماعون »

وهى مكية ؛ فى قول عطاء وجابر وأحد قولى آبن عباس . ومدنية ؛ فى قول له آخر، وهو قول قتادة وغيره . وهى سبع آيات .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴾ أى بالجزاء والحساب فى الآخرة؛ وقد تقدّم فى «الفاتحة» . و «أَرَأَيْت» بإثبات الهمزة الثانية؛ إذ لا يُقال[1] فى أرأيت : رَيْت، ولكن ألف الاستفهام سهلت الهمزة ألفا ؛ ذكره الزّجاج . وفى الكلام حذف ؛ والمعنى : أرأيت الذى يكذب بالدين : أَمُصيب هو أم مُخطئ . واختلف فيمن نزل هذا فيه ؛ فذكر أبو صالح عن آبن عباس قال : نزلت فى العاص بن وائل السَّهْمِىّ ؛ وقاله الكلبىّ ومقاتل . وروى الضحاك عنه قال : نزلت فى رجل من المنافقين . وقال السُّدّىّ : نزلت فى الوليد ابن المغيرة . وقيل فى أبى جهل . الضحاك : فى عمرو بن عائذ . قال آبن جريج : نزلت فى أبى سفيان ، وكان ينحر فى كل أسبوع جَزُورا ، فطلب منه يتيم شيئا ، فقرعه بعصاه ؛ فأنزل الله هذه السورة . و﴿ يَدُعُّ ﴾ أى يدفع، كما قال : « يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا[2] » وقد

(١) راجع جـ ١ ص ١٤٣ (٢) آية ١٣ سورة الطور . راجع جـ ١٧ ص ٦٤

Marfat.com

تقدّم . وقال الضحاك عن ابن عباس . « فَذَلِكَ الَّذِى يَدُعُّ اليَتِيمَ » أى يدفعه عن حقه . قتادة : يقهره و يظلمه . والمعنى متقارب . وقد تقدّم فى سورة « النساء »(١) أنهم كانوا لا يُوَرِّثون النساء ولا الصغار ، و يقولون : إنما يحوز المال من يَطْعُن بالسنان ، و يضرب بالحُسام . ورُوِى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَنْ ضَمَّ يتيما من المسلمين حتى يَسْتَغْنِى ، فقد وجبتْ له الجنة "(٢) . وقد مضى هذا المعنى فى غير موضع .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ المِسْكِينِ ﴾ أى لا يأمر به ، من أجل بخله وتكذيبه بالجزاء . وهو مثل قوله تعالى فى سورة الحاقة : « ولا يَحُضُّ على طَعامِ المِسكِينِ »(٣) وقد تقدّم . وليس الذم عاما حتى يتناول من تركه عجزا ، ولكنهم كانوا يَبْخَلُون ويعتذرون لأنفسهم ، و يقولون : «أنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاء الله أطْعَمَه»(٤) ، فنزلت هذه الآية فيهم ، وتوجه الذم إليهم . فيكون معنى الكلام : لا يفعلونه إن قَدَرُوا ، ولا يحثّون عليه إن عسِروا .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ أى عذاب لهم . وقد تقدّم فى غير موضع(٥) . ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ، فروى الضحاك عن ابن عباس قال : هو المصلّى الذى إن صلى لم يَرْجُ لها ثوابا ، و إن تركها لم يخشَ عليها عقابا . وعنه أيضا : الذين يؤخرونها عن أوقاتها . وكذا رَوى المغيرة عن إبراهيم ، قال : ساهونَ بإضاعة الوقت . وعن أبى العالية : لا يصلونها لِمَوَاقِيتِها ، ولا يُتِمُّون ركوعها ولا سجودها .

قلت : و يدل على هذا قوله تعالى : «فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعوا الصلاةَ» حَسْبَ ما تقدّم بيانه فى سورة « مريم »(٦) عليها السلام . وروى عن إبراهيم أيضا : أنه الذى إذا سجد قام برأسه هكذا ملتفتا . وقال قطرب : هو الا يقرأ ولا يذكر الله . وفى قراءة عبد الله « الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِم لَاهُونَ » . وقال سعد بن أبى وقّاص : قال النبى صلى الله عليه وسلم [فى قوله] :

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٤٦ (٢) راجع جـ ٢ ص ١٤ طبعة ثانية .
(٣) آية ٣٤ راجع جـ ١٨ ص ٢٧٢ (٤) آية ٤٧ سورة يس .
(٥) راجع جـ ٢ ص ٧ طبعة ثانية . (٦) راجع جـ ١١ ص ١٢١

Marfat.com

« فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عن صلاتِهِم ساهون » — قال — " الذين يؤخِّرون الصلاة عن وقتها، تهاونا بها ". وعن ابن عباس أيضا : هم المنافقون يتركون الصلاة سرًّا، يصلونها علانية « وإذا قاموا إلى الصلاةِ قاموا كُسالى »(١) ... الآية . ويدل على أنها فى المنافقين قوله : « الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ » ، وقاله ابن وهب عن مالك . قال ابن عباس : ولو قال فى صلاتهم ساهون لكانت فى المؤمنين . وقال عطاء : الحمد لله الذى قال « عَنْ صلاتِهِم » ولم يقل فى صلاتهم . قال الزمخشرىّ : فإن قلت : أىّ فرق بين قوله : « عن صلاتِهِم » ، وبين قولك : فى صلاتهم ؟ قلتُ : معنى « عن » أنهم ساهون عنها سهو تركٍ لها ، وقلةِ التفات إليها ، وذلك فعل المنافقين، أو الفَسَقة الشُّطَّار(٢) من المسلمين . ومعنى « فى » أن السهو يعتريهم فيها ، بوسوسة شيطان ، أو حديث نفس ، وذلك لا يكاد يخلو منه مسلم . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقع له السهو فى صلاته ، فضلا عن غيره ؛ ومن ثمّ أثبت الفقهاء باب سجود السهو فى كتبهم . قال ابن العربىّ : لأن السلامة من السهو محال ، وقد سها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صلاته والصحابة . وكل من لا يسهو فى صلاته ، فذلك رجل لا يتدبّرها ، ولا يعقِل قراءتها، وإنما همه فى أعدادها ؛ وهذا رجل يأكل القشور، ويرمِى اللب . وما كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يسهو فى صلاته إلا لفكرته فى أعظم منها ؛ اللهم إلا أنه قد يسهو فى صلاته من يقبل على وسواس الشيطان إذا قال له : اذكر كذا ، اذكر كذا ؛ لِما لم يكن يذكر ، حتى يضِلّ الرجل أن يدرى كم صلى .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ الذين هم يراءون ﴾ أى يُرِى الناس أنه يصلى طاعة وهو يصلى تَقِيَّة؛ كالفاسق، يرى أنه يصلى عبادة وهو يصلى ليقال : إنه يصلى . وحقيقة الرياء طلب ما فى الدنيا بالعبادة، وأصله طلب المنزلة فى قلوب الناس . وأولها تحسين السَّمْت(٣)؛ وهو من أجزاء النبوة، ويريد بذلك الجاهَ والثناء . وثانيها — الرياء بالثياب القصار والخشنة؛ ليأخذ بذلك هيئة

(١) آية ١٤٢ سورة النساء . (٢) فى نسخة من الأصل : « الشياطين » . والشطار : جمع شاطر، وهو الذى ترك موافقة أهله ، وأعياهم لؤما وخبثا . (٣) فى اللسان : السمت : حسن القصد والمذهب فى الدين والدنيا .

Marfat.com

الزهد فى الدنيا . وثالثها — الرياء بالقول ، بإظهار التسخط على أهل الدنيا ، وإظهار الوعظ والتأسف على ما يفوت من الخير والطاعة . ورابعها — الرياء بإظهار الصلاة والصدقة ، أو بتحسين الصلاة لأجل رؤية الناس ، وذلك يطول ، وهذا دليله ، قاله آبن العربى .

قلت : قد تقدم فى سورة « النساء وهود وآخر الكهف »(١) القول فى الرياء وأحكامه وحقيقته بما فيه كفاية . والحمد لله .

الخامسة — ولا يكون الرجل مرائيا بإظهار العمل الصالح إن كان فريضة ؛ فمن حق الفرائض الإعلان بها وتشهيرها ، لقوله عليه السلام : " ولا غُمة(٢) فى فرائض الله " لأنها أعلام الإسلام ، وشعائر الدين ، ولأن تاركها يستحق الذم والمقت ؛ فوجب إماطة التهمة بالإظهار ، وإن كان تطوعا فحقه أن يُخفَى ؛ لأنه لا يلام بتركه ولا تهمة فيه ، فإن أظهره قاصدا للاقتداء به كان جميلا . وإنما الرياء أن يقصد بالإظهار أن تراه الأعين ، فتثنى عليه بالصلاح . وعن بعضهم أنه رأى رجلا فى المسجد قد سجد سجدة الشكر فأطالها ، فقال : ما أحسن هذا لو كان فى بيتك . وإنما قال هذا لأنه توسم فيه الرياء والسمعة . وقد مضى هذا المعنى فى سورة « البقرة »(٣) عند قوله تعالى : « إن تبدو الصدقات » ، وفى غير موضع . والحمد لله على ذلك .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ويمنعون الماعون﴾ فيه آثنا عشر قولا : الأول — أنه زكاة أموالهم . كذا روى الضحاك عن آبن عباس . وروى عن علىّ رضى الله عنه مثل ذلك ، وقاله مالك . والمراد به المنافق يمنعها . وقد روى أبو(٤) [illegible] عبد العزيز عن مالك قال : بلغنى أن قول الله تعالى : « فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراءون . ويمنعون الماعون » قال : إن المنافق إذا صلى صلى رياء ، وإن فاتته لم يندم عليها ، « ويمنعون الماعون » الزكاة التى فرض الله عليهم . قال زيد بن أسلم : لو خفيت لهم الصلاة كما خفيت لهم الزكاة ما صلوا . القول الثانى — أن « الماعون » المال ، بلسان

(١) راجع جـ ٥ ص ١٨١ وجـ ٩ ص ١٣ وجـ ١١ ص ٧٠

(٢) أى لا تستر ولا تخفى فرائضه ، وإنما تظهر وتعلن ويجهر بها .

(٣) راجع جـ ٣ ص ٣٣٢

(٤) فى بعض نسخ الأصل : « أبو عمر » وفى بعضها : « أبو عبد » . وفى آبن العربى : « أبو بكر بن عبد العزيز » .

Marfat.com

قريش ؛ قاله ٱبن شهاب وسعيد بن المسيب . وقول ثالث — أنه ٱسم جامع لمنافع البيت كالفأس والقدر والنار وما أشبه ذلك ؛ قاله ٱبن مسعود ، وروى عن ٱبن عباس أيضا . قال الأعشى :

بِأَجْوَدَ مِنْهُ بِمَاعُونِهِ * إذا ما سَمَاؤُهُمُ لَمْ تَغِمِ

الرابع — ذكر الزجاج وأبو عُبيد والمبرّد أن الماعون فى الجاهلية كل ما فيه منفعة ، حتى الفأس والقدر والدلو والقدّاحة ، وكل ما فيه منفعة من قليل وكثير ؛ وأنشدوا بيت الأعشى . قالوا : والماعون فى الإسلام : الطاعة والزكاة ؛ وأنشدوا قول الراعى :

أَخَلِيفَةَ الرَّحْمٰنِ إنَّا مَعْشَرٌ * حُنَفَاءُ نَسْجُدُ بُكْرَةً وأَصِيلَا

عَرَبٌ نَرَى لِلّهِ مِنْ أَمْوالِنَا * حَقَّ الزَّكَاةِ مُنَزَّلًا تَنْزِيلَا

قَوْمٌ على الإسلامِ لَمَّا يَمْنَعُوا * مَاعُونَهُمْ وَيُضَيِّعُوا التَّهْلِيلَا (١)

يعنى الزكاة . الخامس — أنه العارِيّة ؛ روى عن ٱبن عباس أيضا . السادس — أنه المعروف كله الذى يتعاطاه الناس فيما بينهم ؛ قاله محمد بن كعب والكلبيّ . السابع — أنه الماء والكلأ . الثامن — الماء وحده . قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول : الماعون : الماء ؛ وأنشدنى فيه :

* يَمُجّ صَبِيرُه الماعونَ صَبًّا *

الصَّبير : السحاب . التاسع — أنه منع الحق ؛ قاله عبد الله بن عمر . العاشر — أنه (٢) المستغل من منافع الأموال ؛ مأخوذ من المَعْن وهو القليل ؛ حكاه الطبريّ وٱبن عباس . (٣) قال قطرب : أصل الماعون من القلة . والمعن : الشيء القليل ؛ تقول العرب : ماله سعنة ولا معنة ؛ أى شيء قليل . فسمى الله تعالى الزكاة والصدقة ونحوهما من المعروف ماعونا ؛ لأنه قليل من كثير . ومن الناس من قال : الماعون : أصله مَعُونة ، والألف عوض من الهاء ؛ حكاه الجوهريّ . ٱبن العربيّ : الماعون : مفعول من أعان يعين ، والعَوْن : هو الإمداد (٤)

(١) فى اللسان :

قوم على التنزيل لما يمنعوا * ماعونهم و يبدلوا التنزيلا

(٢) كذا فى بعض نسخ الأصل . وفى بعضها الآخر : « حكاه الطبرى وابن عيسى » .

(٣) هذا مثل يضرب لمن لا مال له . والسعن : الكثير . (٤) هذا القول يأباه القياس اللغوى .

بالقوة والآلات والأسـباب الميسرة للأمر . الحادى عشر — أنه الطاعة والانقياد . حكى الأخفش عن أعرابى فصيح : لو قـد نزلنـا لصنعت بنـاقتك صنيعا تعطيك المـاعون ؛ أى تنقاد لك وتطيعك . قال الراجز :

مَتَى تصادِفْهُنّ(١) فى البُرِينِ(٢) * يَخضعن أو يُعطِين بالمـاعونِ

وقيل : هو ما لا يحل منعه، كالمـاء والملح والنار ؛ لأن عائشة رضوان الله عليها قالت : قلت يارسول الله، ما الشيء الذى لا يحل منعه؟ قال : "المـاء والنار والملح" قلت : يا رسول الله هذا المـاء، فما بال النار والملح؟ فقال : "ياعائشة من أعطى نارا فكأنما تصدّق بجميع ما طبخ بتلك النار، ومن أعطى ملحا فكأنما تصدق بجميع ماطيب به ذلك الملح، ومن سَقَى شَربةً من المـاء حيث يوجد المـاء، فكأنما أعتق ستين نسمة . ومن سَقَى شربة من المـاء حيث لا يوجد، فكأنما أحيا نَفسا، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا". ذكره الثعلبيّ فى تفسيره، وخرّجه ابن ماجه فى سننه . وفى إسناده لِين ؛ وهو القول الثانى عشر . المـاورديّ : ويحتمل أنه المعونة بمـا خف فعله وقـد ثقله الله . والله أعلم . وقيل لعكرمة مولى ابن عباس : من منع شيئا من المتاع كان له الويل ؟ فقال : لا ، ولكن من جمع ثلاثهن فله الويل ؛ يعنى : ترك الصلاة ، والرياء ، والبُخل بالمـاعون .

قلت : كونها فى المنافقين أشـبه ، وبهم أَخْلَق ؛ لأنهم جمعوا الأوصاف الثلاثة : ترك الصلاة ، والرياء ، والبخل بالمـال ؛ قال الله تعالى : « وإِذَا قَامُوا إلى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ ولا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قلِيـلا »(٣) ، وقال : « ولا يُنفِقون إلا وهم كارِهون »(٤) . [ه]ذه أحوالهم ، ويبعد أن توجد من مسـلم محقق ، و إن وجد بعضها فيلحقـه جزء من التوبيخ، وذلك فى منع المـاعون إذا تعين؛ كالصلاة إذا تركها . والله أعلم . إنما يكون منعا قبيحا فى المروءة فى غير حال الضرورة . والله أعلم .

---

(١) فى تفسير الثعلبي : * متى تجاهدهن * وهى الأوجه . (٢) البرين (بضم الباء وكسرها) : جمع برة، وهى هنا الحلقة فى أنف البعير . وهى أيضا : كل حلقة من سوار وقرط وخلخال .
(٣) آية ١٤٢ سورة النساء . (٤) آية ٥٤ سورة التوبة .

Marfat.com

تفسير سورة «الكوثر»

وهى مكية ؛ فى قول ابن عباس والكلبي ومقاتل . ومدنية ؛ فى قول الحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة . وهى ثلاث آيات .

قوله تعالى : إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ (١)

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ قراءة العامة . «إنا أَعْطيناك» بالعين . وقرأ الحسن وطلحة بن مصرف : «أَنْطَيْنَاك» بالنون ؛ وروته أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وهى لغة فى العطاء ؛ أنطيته : أعطيته . و «الكوثر» : فوعل من الكثرة ؛ مثل النوفل من النفل ، والجوهر من الجهر . والعرب تسمى كل شيء كثير فى العدد والقدر والخطر كوثرا . قال سفيان : قيل لعجوز رجع ابنها من السفر : بم آب ابنك ؟ قالت بكوثر ؛ أى بمال كثير . والكوثر من الرجال : السيد الكثير الخير . قال الكميت :

وأنت كثيرٌ يابن مروانَ طَيِّبٌ * وكان أبوك ابنُ العقائِلِ كَوْثَرا

والكوثر : العددُ الكثير من الأصحاب والأشياع . والكوثر من الغبار : الكثير . وقد تكوثر [إذا كثر] ؛ قال الشاعر :

* وقد ثارَ نقع الموتِ حتى تَكَوْثَرا (١) *

الثانيــة — واختلف أهل التأويل فى الكوثر الذى أعطيه النبي صلى الله عليه وسلم على ستة عشر قولا : الأول — أنه نهر فى الجنة ؛ رواه البخاري عن أنس والترمذي أيضا

---

(١) هذا عجز بيت حسان بن نشبة . وصدره كما فى اللسان :

* أبوا أن يبيحوا جارهم لعدوهم *

Marfat.com

وقد ذكرناه فى كتاب التذكرة. وروى الترمذى أيضا عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الكَوْثر : نهر فى الجنة ، حافتاه من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت ، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج". هذا حديث حسن صحيح. الثانى — أنه حوض النبيّ صلى الله عليه وسلم فى الموقف ؛ قاله عطاء . وفى صحيح مسلم عن أنس قال : بينما نحن[1] عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أغفى إغفاءه ، ثم رفع رأسه متبسما فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال "نزلت علىّ آنفا سورة — فقرأ — بسم الله الرحمن الرحيم : «إنا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ . فصَلِّ لِربّكَ وانْحَرْ . إنَّ شانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ» — ثم قال — أتدرون ما الكوثر". ؟ قلنا الله ورسوله أعلم . قال : "فإنّه نَهرٌ وعَدَنِيه رَبّى عزّ وجلّ ، عليه خَيرٌ كثيرٌ هُوَ حَوْضٌ تَرِد عليه أمتى يومَ القيامة آنيتُه عَدَدُ النُّجُوم ، فيُخْتَلَجُ[2] العبدُ منهم فأقولُ إنَّهُ من أمتى ، فيقال إنك لا تَدْرِى ما أَحْدَثَ بعْدَكَ".

والأخبار فى حوضه فى الموقف كثيرة، ذكرناها فى كتاب «التذكرة». وأن على أركانه الأربعة خُلَفاءَه الأربعة ؛ رضوان الله عليهم . وأنَّ من أبغض واحدا منهم لم يسقِه الآخر، وذكرنا هُناكَ من يُطْرَد عنه . فمن أراد الوقوف على ذلك تأمله هناك . ثم يجوز أن يسمى ذلك النهر أو الحوض كوثرا ، لكثرة الواردة والشاربة من أمة محمد عليه السلام هناك. ويسمى به لما فيه من الخير الكثير والماء الكثير . الثالث — أن الكوثر النبوّةُ والكتابُ ؛ قاله عكرمة . الرابع — القرآن ؛ قاله الحسن . الخامس — الإسلام ؛ حكاه المغيرة . السادس — تيسير[3] القرآن وتخفيف الشرائع ؛ قاله الحسين بن الفضل . السابع — هو كثرة الأصحاب والأمة والأشياع ؛ قاله أبو بكر بن عياش ويمان بن رِئاب . الثامن — أنه الإيثار ؛ قاله ابن كَيْسان . التاسع — أنه رِفعة الذكر . حكاه الماوردىّ . العاشر — أنه نور فى قلبك دلك علىّ ، وقطعك عما سواىَ . وعنه : هو الشفاعة ؛ وهو الحادى عشر . وقيل : معجزات الربّ هُدِىَ بها أهلُ الإجابة لدعوتك ؛ حكاه

(١) فى صحيح مسلم طبع الآستانة و بولاق : «بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى ...» الحديث .
(٢) أى ينتزع و يقتطع .
(٣) فى بعض نسخ الأصل : «تسهيل».

Marfat.com

الثعلبي ، وهو الثاني عشر . الثالث عشر — قال هلال بن يساف : هو لا إله إلا الله محمد رسول الله . وقيل : الفقه في الدين . وقيل : الصلوات الخمس ؛ وهما الرابع عشر والخامس عشر . وقال ابن إسحاق : هو العظيم من الأمر ؛ وذكر بيت لبيد :

وصاحب مَلْحوبٍ فُجِعْنا بفقدِهِ * وعندَ الرِّداعِ بيت آخرَ كَوْثَرُ

أي عظيم.(1)

قلت : أصح هذه الأقوال الأول والثاني ؛ لأنه ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم نص في الكوثر . وسمع أنس قوما يتذاكرون الحوض فقال : ما كنت أرى أن أعيش حتى أرى أمثالكم يَتَمارَوْن في الحوض ، لقد تركت عجائز خلفي ، ما تصلي امرأة منهن إلا سألت الله أن يسقيها من حوض النبي صلى الله عليه وسلم . وفي حوضه يقول الشاعر :

يا صاحبَ الحوضِ مَنْ يُدانيكا * وأنتَ حقًّا حبيب باريكا

وجميع ما قيل بعد ذلك في تفسيره قد أُعطيه رسول الله صلى الله عليه وسلم زيادة على حوضه، صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا .

قوله تعالى : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ (٢)

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَصَلِّ ﴾ أي أقم الصلاة المفروضة عليك؛ كذا رواه الضحاك عن ابن عباس . وقال قتادة وعطاء وعكرمة : « فصل لربك » صلاة العيد يوم النحر . « وَانْحَرْ » نُسُكك . وقال أنس : كان النبي صلى الله عليه وسلم ينحر ثم يصلي ، فأُمر أن يُصَلِّي ثم يَنْحَر . وقال سعيد بن جبير أيضا : صَلِّ لربك صلاة الصبح المفروضة بجَمْع،(2) وانحرِ البُدْنِ بمِنًى . وقال سعيد بن جبير أيضا : نزلت في الحُدَيْبِيَة حين حُصِر النبي صلى الله عليه وسلم عن البيت ، فأمره الله تعالى أن يُصَلِّيَ ويَنْحَرَ البُدْن وينصرف ؛ ففعل ذلك . قال ابن العربي : « أما من

(١) ملحوب : ماء لبني أسد بن خزيمة . وصاحبه : عوف بن الأحوص . والرداع (بالكسر) : اسم ماء أيضا . والكوثر أيضا : السيد الكثير الخير . (٢) جمع : المزدلفة.

قال : إن المراد بقوله تعالى : « فَصَلِّ » : الصلوات الخمس؛ فلأنها ركن العبادات، وقاعدة الإسلام، وأعظم دعائم الدين . وأما من قال : إنها صلاة الصبح بالمزدلفة ؛ فلأنها مقرونة بالنحر، وهو في ذلك اليوم ، ولا صلاة فيه قبل النحر غيرها ؛ فخصها بالذكر من جملة الصلوات لاقترانها بالنحر » .

قلت : وأما من قال إنها صلاة العيد؛ فذلك بغير مكة؛ إذ ليس بمكة صلاة عيد بإجماع، فيما حكاه ابن عمر . قال ابن العربي : « فأما مالك فقال : ما سمعت فيه شيئا ، والذى يقع في نفسى أن المراد بذلك صلاة يوم النحر ، والنحر بعدها » . وقال على رضى الله عنه ومحمد ابن كعب : المعنى ضع اليُمنَى على اليسرى حِذاء النحر في الصلاة . ورُوِى عن ابن عباس أيضا . وروى عن على أيضا : أن يرفع يديه في التكبير إلى نحره . وكذا قال جعفر بن على : « فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانْحَرْ » قال : يرفع يديه أوّل ما يُكبِّر للإحرام إلى النحر . وعن على رضى الله عنه قال : لما نزلت « فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانْحَرْ » قال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل : " ما هذه النحيرة التى أمرنى الله بها " ؟ قال : " ليست بنحيرة، ولكنه يأمرك إذا تحرمت للصلاة ، أن ترفع يديك إذا كبّرت ، وإذا رفعت رأسك من الركوع ، وإذا سجدت ، فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين هم في السموات السبع، وإن لكل شيء زينة ، وإن زينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة " . وعن أبى صالح عن ابن عباس قال : ٱستقبِل القبلة بنحرك؛ وقاله الفراء والكلبي وأبو الأحوص . ومنه قول الشاعر :

أبا حكمٍ ما أنتَ عمُّ مُجالِدٍ * وسيِّدُ أهلِ الأبطَحِ المُتَناحِرِ (١)

أى المتقابل . قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول : منازلنا (٢) تتناحر؛ أى تتقابل، نحر هذا بنحر هذا ؛ أى قُبالته . وقال ابن الأعرابي : هو انتصاب الرجل في الصلاة بإزاء المحراب؛ من قولهم : منازلهم تتناحر؛ أى تتقابل. ورُوِى عن عطاء قال : أمره أن يستوى بين السجدتين

(١) في اللسان : نحر : (هل) في موضع (ما) .

(٢) الذى في كتاب الفراء : « منازلنا تتناحر : نحر هذا ... أى قبالته » . وفيه تحريف . والذى في اللسان : وقال الفراء : « سمعت بعض العرب يقول : منازلهم تتناحر : هذا بنحر هذا ؛ أى قبالته » .

Marfat.com

جالسا حتى يبدو نحره . وقال سليمان التيمى : يعنى وارفع يدك بالدعاء إلى نحرك . وقيل : « فصلّ » معناه : واعبد . وقال محمد بن كعب القُرَظى : « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ » يقول : إن ناسا يصلون لغير الله ، و ينحرون لغير الله ؛ وقد أعطيناك الكوثر ، فلا تكن صلاتك ولا نحرك إلا لله . قال ابن العربى : « والذى عندى أنه أراد : اعبد ربك ، وانحر له ، فلا يكن عملك إلا لمن خصك بالكوثر ، و بالحَرِى[1] أن يكون جميع العمل يوازى هذه الخصوصية من الكوثر ، وهو الخير الكثير ، الذى أعطاكه الله ، أو النهر الذى طينه مسك ، وعدد آنيته نجوم السماء ؛ أما أن يوازِىَ هذا صلاة يوم النحر ، وذبح كبش أو بقرة أو بدنة ، فذلك يبعد فى التقدير والتدبير ، وموازنة الثواب للعبادة » . والله أعلم .

الثانيــة — قد مضى القول فى سورة « الصّافّات[2] » فى الأُضحِية وفضلها ، ووقت ذبحها ؛ فلا معنى لإعادة ذلك . وذكرنا أيضا فى سورة « الحج[3] » جملة من أحكامها . قال ابن العربى : « ومن عجيب الأمر : أن الشافعى قال : إن من ضحّى قبل الصلاة أجزأه ، والله تعالى يقول فى كتابه : « فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ » ، فبدأ بالصلاة قبل النحر ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم (فى البخارى وغيره ، عن البراء بن عازب ، قال) : "أول ما نَبْدَأ به فى يومنا هذا : أن نُصلِّىَ ، ثم نرجع فننحر ، من فعل فقد أصاب نُسُكنا ، ومن ذَبَح قبل ، فإنما هو لحم قدّمه لأهله ، ليس من النُّسك فى شىء" . وأصحابه ينكرونه ، وحبذا الموافقة » .

الثالثــة — وأما ما روى عن علىّ عليه السلام « فصل لربك وانحر » قال : وضع اليمين على الشمال فى الصلاة (خرّجه الدارَقُطْنِىّ) ، فقد اختلف علماؤنا فى ذلك على ثلاثة أقوال : الأول — لا توضع فريضة ولا نافلة ؛ لأن ذلك من باب الاعتماد . ولا يجوز فى الفرض ، ولا يستحب فى النفل . الثانى — لا يفعلها فى الفريضة ، و يفعلها فى النافلة استعانة ؛ لأنه موضع ترخص . الثالث — يفعلها فى الفريضة والنافلة . وهو الصحيح ؛ لأنه ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع يده اليمنى على اليسرى من حديث وائل

(١) فى (اللسان : حرى) : والحرى : الخليق ، كقولك : بالحرى أن يكون ذلك . و إنه لحرى بكذا ، وحر ، وحرىّ . (٢) راجع جـ ١٥ ص ١٠٧ وما بعدها . (٣) راجع جـ ١٢ ص ٤٢ وما بعدها .

Marfat.com

آبن حجر وغيره . قال آبن المنذر : وبه قال مالك وأحمد وإسحاق، وحكى ذلك عن الشافعي. وآستحب ذلك أصحاب الرأى . ورأت جماعة إرسال اليد . وممن روينا ذلك عنه آبن المنذر[1] والحسن البصرى وإبراهيم النخعي .

قلت : وهو مروى أيضا عن مالك . قال آبن عبد البر : إرسال اليدين، ووضع اليمنى على الشمال، كل ذلك من سنة الصلاة .

الرابعــة — وآختلفوا فى الموضع الذى توضع عليه اليد؛ فروى عن على بن أبى طالب : أنه وضعهما على صــدره . وقال ســعيد بن جُبير وأحمد بن حنبل : فوق السرة . وقال : لا بأس إن كانت تحت السرة . وقالت طائفــة : توضع تحت السرة . وروى ذلك عن على وأبى هُريرة والنخعى وأبى مجلز . وبه قال سفيان الثورى وإسحاق .

الخامســـة — وأما رفع اليــدين فى التكبير عند الآفتتاح والركوع والرفع من الركوع والسجود ، فآختلف فى ذلك ؛ فروى الدّارقطنيّ من حديث حميــد عن أنس قال : كان رســول الله صلى الله عليه وسلم يرفع يديه إذا دخل فى الصلاة ، وإذا ركع ، وإذا رفع رأسه من الركوع، وإذا سجد . لم يروه عن حميد مرفوعا إلا عبد الوهاب الثقفى . والصواب : من فعل أنس . وفى الصحيحين من حديث آبن عمر ، قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة رفع يديه ، حتى تكونا حذو منكبيه ، ثم يكبر، وكان يفعل ذلك حين يكبّر للركوع، ويفعل ذلك حين يرفع رأسه من الركوع ، ويقول سمـع الله لمن حمده . ولا يفعل ذلك حين يرفع رأسه من السجود . قال آبن المنذر : وهذا قول الليث بن سعد ، والشافعى وأحمد وإسحاق وأبى ثور . وحكى آبن وهب عن مالك هذا القول . وبه أقول ؛ لأنه الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقالت طائفة : يرفع المصلى يديه حين يفتتح الصلاة، ولا يرفع فيما سوى ذلك . هذا قول سفيان الثورى وأصحاب الرأى .

(١) فى بعض الأصول : « ابن الزبير » .

Marfat.com

قلت : وهو المشهور من مذهب مالك؛ لحديث آبن مسعود، (خرّجه الدّارقطنيّ من حديث إسحاق بن أبي إسرائيل) ، قال : حدّثنا محمد بن جابر عن حماد عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : صليت مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ومع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ؛ فلم يرفعوا أيديهم إلا أوّلا عند التكبيرة الأولى في آفتتاح الصلاة . قال إسحاق : به نأخذ في الصلاة كلها . قال الدّارقطنيّ : تفرّد به محمد بن جابر (وكان ضعيفا) عن حماد عن إبراهيم . وغير حماد يرويه عن إبراهيم مرسلا عن عبد الله، من فعله ، غير مرفوع إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم، وهو الصواب . وقد روى يزيد بن أبي زياد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن البَرَاء : أنه رأى النبيّ صلى الله عليه وسلم حين آفتتح الصلاة رفع يديه حتى يحاذِيَ بهما أُذنيه ، ثم لم يعد إلى شيء من ذلك حتى فرغ من الصلاة . قال الدّارقطنيّ : [وإنما][1] لقن يزيد في آخر عمره : « ثُمّ لَمْ يَعُدْ » ؛ فتلقنه وكان قد آختلط . وفي (مختصر ماليس في المختصر) عن مالك : لا يرفع اليدين في شيء من الصلاة . قال آبن القاسم : ولم أر مالكا يرفع يديه عند الإحرام . قال : وأحبُّ إليّ ترك رفع اليدين عند الإحرام .

قوله تعالى : إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

أى مبغضك؛ وهو العاص بن وائل . وكانت العرب تسمى من كان له بنون وبنات ، ثم مات البنون وبقي البنات : أبتر . فيقال : إن العاص وقف مع النبيّ صلى الله عليه وسلم يكلمه، فقال له جمع من صناديد قريش : مع من كنت واقفا ؟ فقال : مع ذلك الأبتر . وكان قد تُوُفِّي قبل ذلك عبد الله بن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان من خديجة؛ فأنزل الله جل شأنه : « إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الأَبْتَر » ، أى المقطوع ذِكره من خير الدنيا والآخرة . وذكر عكرمة عن آبن عباس قال : كان أهل الجاهلية إذا مات آبن الرجل قالوا : بُتِر فلان . فلما مات إبراهيم آبن النبيّ صلى الله عليه وسلم خرج أبو جهل إلى أصحابه فقال : بتِر محمد؛ فأنزل الله جل ثناؤه :

---

(١) الزيادة من الدارقطنى .

Marfat.com

« إنّ شانِئك هو الأَبْتَر » يعني بذلك أبا جهل . وقال شِمر بن عطية : هو عقبة بن أبي مُعَيط . وقيل : إن قريشا كانوا يقولون لمن مات ذكور ولده : قد بُتِر فلان . فلما مات لرسول الله صلى الله عليه وسلم ٱبنـه القاسم بمكة ، وإبراهيم بالمدينة ، قالوا : بُتِر محمد ، فليس له من يقوم بأمره من بعده ؛ فنزلت هذه الآية ؛ قاله السدّي وٱبن زيد . وقيل : إنه جواب لقريش حين قالوا لكعب بن الأشرف لما قدم مكة : نحن أصحاب السقاية والسَّدانة والحِجابة واللّواء ، وأنت سيد أهل المدينة ، فنحن خير أم هذا الصُّنَيْبِيرُ[1] الأُبَيْتِرُ من قومه ؟ قال كعب : بل أنتم خير ؛ فنزلت في كعب : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ[2] وَالطَّاغُوتِ » ... الآية . ونزلت في قريش : « إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » ؛ قاله ٱبن عباس أيضا وعكرمة . وقيل : إن الله عز وجل لما أوحى إلى رسوله ، ودعا قريشا إلى الإيمان ، قالوا : ٱنبتر منا محمد ؛ أي خالفنا وٱنقطع عنا . فأخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أنهم هم المبتورون ؛ قاله أيضا عِكرمة وشَهر بن حَوْشَب . قال أهل اللغة : الأبتر من الرجال : الذي لا ولد له ، ومن الدوابّ الذي لا ذنب له . وكل أمرٍ انقطع من الخير أثره ، فهو أبتر . والبَتْر : القطع . بَتَرْت الشيء بَتْرا : قطعته قبل الإتمام . والانبتار : الانقطاع . والباتر : السيف القاطع . والأَبْتَر : المقطوع الذَّنَب . تقول منه : بُتِر (بالكسر) يُبْتَرُ بَتْرا . وفي الحديث "ماهذه البُتَيْراء" . وخطب زياد خُطبته البتراء ؛ لأنه لم يحمد الله فيها ، ولم يصل على النبيّ صلى الله عليه وسلم . ٱبن السكيت : الأبتران : العَيْر والعَبْد ؛ قال سميا أبترين لقلة خيرهما . وقد أبتره الله : أي صيره أبتر . ويقال : رجل أُباتِرُ (بضم الهمزة) : الذي يقطع رحمه . قال الشاعر :

لَئِيمٌ نَزَتْ في أَنْفِـه خُنْزُوانَةٌ * على قَطْعِ ذي القُرْبَى أَحَذُّ أُباتِرُ

والبُتْرية : فِرقة من الزيدية ؛ نُسبوا إلى المغيرة بن سعد ، ولقبه الأبتر . وأمّا الصُّنبور فلفظ مشترك . قيل : هو النخلة تبقى منفردة ، ويدِق أسفلها وينقشر ؛ يقال : صَنْبَرَ أسفلُ النخلة .

(١) في نسخة الصنبور . وسيأتي للصنف بيان معناه .

(٢) آية ٥١ سورة النساء .

Marfat.com

وقيل : هو الرجل الفرد الذى لا ولد له ولا أخ . وقيل : هو مَثْعَب(١) الحوضِ خاصّة؛ حكاه أبو عبيد . وأنشد :

* مابين صُنبورٍ إلَى الإزاءِ(٢) *

والصُّنبور : قَصَبة تكون فى الإداوة(٣) من حديد أو رصاص يشرب منها . حكى جميعه الجوهرىّ رحمه الله . والله سبحانه وتعالى أعلم .

سورة « الكافرون »

وهى مكية؛ فى قول ابن مسعود والحسن وعِكرمة . ومدنية؛ فى أحد قولَى ابن عباس وقتادة والضحاك . وهى ست آيات .

وفى الترمذىّ من حديث أنس : أنها تعدِل ثلث القرآن . وفى كتاب (الرد لأبى بكر الأنبارىّ) : أخبرنا عبد الله بن ناجية قال : حدّثنا يوسف قال حدّثنا القعنبىّ وأبو نعيم عن موسى ابن وردان عن أنس، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " « قُلْ يَأَيُّهَا الكافِرونَ » تعدِل ربع القرآن " . ورواه موقوفا عن أنس . وخرّج الحافظ أبو محمد عبد الغنى بن سعيد عن ابن عمر قال : صلى النبىّ صلى الله عليه وسلم بأصحابه صلاة الفجر فى سفر، فقرأ « قُلْ يَأَيُّها الكافِرونَ » ، و « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » ، ثم قال : " قرأت بكم ثلث القرآن وربعه " . وروى جُبير بن مطعِم أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " أتحب ياجبير إذا خرجتَ سفَرًا أن تكون من أمثل أصحابك هيئة وأكثرِهم زادا " ؟ قلت : نعم . قال : " فاقرأ هذه السور الخمس من أول « قل يأيها الكافرون — إلى — قل أعوذ برب الناس » وافتتح قراءتك ببسم الله الرحمن الرحيم " . قال : فوالله لقد كنت غير كثيرِ المال، إذا سافرت أكون أبَذَّهم(٤) هيئة، وأقلهم زادا، فمذ قرأتهنّ صرت من أحسنهم هيئة، وأكثرِهم زادا، حتى أرجع من سفرى ذلك .

(١) مثعب الحوض : مسيله . (٢) الإزاء : مصب الماء فى الحوض .
(٣) الإداوة : إناء صغير من جلد يتخذ للماء . (٤) بذ الهيئة : رثها .

Marfat.com

وقال فَرْوة بن نَوْفل الأشجعيّ : قال رجل للنبيّ صلى الله عليه وسلم : أوصني . قال : "اقرأ عند منامك « قُلْ يَأَيُّها الْكَافِرونَ » فإنها براءة من الشرك" . خرجه أبو بكر الأنباريّ وغيره . وقال ابن عباس : ليس في القرآن أشدّ غيظا لإبليس منها؛ لأنها توحيد وبراءة من الشرك . وقال الأصمعيّ : كان يقال لـ « قُلْ يَأَيُّها الكافِرُونَ » ، و « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » المُقَشْقِشتان؛ أي أنهما تُبرِئان من النفاق . وقال أبو عبيدة : كما يُقَشْقِشُ الهِناء(١) الجربَ فيبرئُه . وقال ابن السكيت : يقال للقرح والجُدَرِيّ إذا يبِس وتقرّف، وللجرب في الإبل إذا قفل(٢) : قد تَوَسَّفَ جلدُه، وتقشّر جلده، وتَقَشْقَش جلده .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ ﴾

ذكر ابن إسحاق وغيره عن ابن عباس : أن سبب نزولها أن الوليد بن المغيرة، والعاص ابن وائل، والأسود بن عبد المطلب، وأمية بن خَلَف؛ لقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد، هَلُمَّ فلنعبدْ ما تعبد، وتَعْبدْ ما نَعْبد، ونشترك نحن وأنت في أمرنا كله؛ فإن كان الذي جئت به خيرا مما بأيدينا، كنا قد شاركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه . وإن كان الذي بأيدينا خيرا مما بيدك، كنت قد شركتنا في أمرنا، وأخذت بحظك منه؛ فأنزل الله عز وجل « قُلْ يَأَيُّها الكافِرُونَ » . وقال أبو صالح عن ابن عباس : إنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو استلمت(٣) بعض هذه الآلهة لصدقناك؛ فنزل جبريل على النبيّ صلى الله عليه وسلم بهذه السورة، فيئسوا منه، وآذوه، وآذوا أصحابه . والألف واللام ترجع إلى معنى المعهود

(١) الهناء (بالكسر): القطران . (٢) قفل الجلد : يبس . (٣) استلم الحجر: لمسه بالقبلة أو باليد .

Marfat.com

وإن كانت للجنس من حيث إنها كانت صفة لأىّ؛ لأنها مخاطبة لمن سبق فى علم الله تعالى أنه سيموت على كفره، فهى من الخصوص الذى جاء بلفظ العموم . ونحوه عن الماوردىّ: نزلت جوابا ، وعَنَى بالكافرين قوماً معيّنين ، لا جميع الكافرين؛ لأن منهم من آمن، فعبد الله ، ومنهم من مات أو قُتِل على كفره ، وهم المخاطبون بهذا القول، وهم المذكورون . قال أبو بكر بن الأنبارىّ : وقرأ من طعن فى القرآن : قُلْ لِلّذِينَ كَفَروا « لا أَعْبُد ما تَعْبُدون » وزعم أن ذلك هو الصواب ، وذلك افتراء على رب العالمين، وتضعيف لمعنى هذه السورة، وإبطال ماقصده الله من أن يُذِلّ نبيه للمشركين بخطابه إياهم بهذا الخطاب الزرِىّ، وإلزامهم ما يأنف منه كل ذى لب وحِجًا . وذلك أن الذى يدعيه من اللفظ الباطل، قراءتنا تشتمل عليه فى المعنى ، وتزيد تأويلا ليس عندهم فى باطلهم وتحريفهم . فمعنى قراءتنا : قل للذين كفروا : يأيها الكافرون؛ دليل صحة هذا : أن العربىّ إذا قال لمخاطبه قل لزيد أقبل إلينا، فمعناه قل لزيد يازيد أقبل إلينا . فقد وقعت قراءتنا على كل ما عندهم ، وسقط من باطلهم أحسن لفظ وأبلغ معنى؛ إذ كان الرسول عليه السلام يعتمدهم فى ناديهم ، فيقول لهم : « يأيها الكافرون » . وهو يعلم أنهم يغضبون من أن يُنْسبوا إلى الكفر، ويدخلوا فى جملة أهله إلّا وهو محروس ممنوع من أن تنبسط عليه منهم يد، أو تقع به من جهتهم أذية . فمن لم يقرأ « قُلْ يأَيُّها الكافِرونَ » كما أنزلها الله، أسقط آية لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وسبيل أهل الإسلام ألا يسارعوا إلى مثلها ، ولا يعتمدوا نبيهم باختزال الفضائل عنه، التى منحه الله إياها، وشرّفه بها . وأما وجه التكرار فقد قيل إنه للتأكيد فى قطع أطماعهم؛ كما تقول : والله لا أفعل كذا، ثم والله لا أفعله . قال أكثر أهل المعانى : نزل القرآن بلسان العرب، ومن مذاهبهم التكرار إرادة التأكيد والإفهام ، كما أن من مذاهبهم الاختصار إرادة التخفيف والإيجاز؛ لأن خروج الخطيب والمتكلم من شىء إلى شىء، أولى من اقتصاره فى المقام على شىء واحد؛ قال الله تعالى : « فبأىّ آلاءِ ربكما تكذبانِ » . « ويل يومئذٍ للمكذبين » . « كلا سيعلمون، ثم كلا سيعلمون » . و « فإن مع العسر يسرا . إن مع العسر يسرا » . كل هذا على التأكيد .

Marfat.com

وقد يقول القائل : إِرْمِ إِرْمِ ، آعْجَلْ آعْجَلْ ؛ ومنه قوله عليه السلام فى الحديث الصحيح : " فلا آذن ، ثم لا آذن ، إنما فاطمة بضعة منى " . خرّجه مسلم[1] . وقال الشاعر :

هلا سالتِ جموعَ كِندة * يومَ ولَّوْا أَيْنَ أَيْنَا

وقال آخر :

يا لَبَكْرٍ أَنْشِروا لِي كُلَيْبًا * يا لَبَكْرٍ أَيْنَ أَيْنَ الفِرارُ[2]

وقال آخر :

يا علقمهْ يا علقمهْ يا علقمهْ * خيرَ تميمٍ كُلِّها وأَكْرَمَهْ

وقال آخر :

يا أَقرعُ بنَ حابِسٍ يا أَقْرَعُ * إنكَ إنْ يُصْرَعْ أَخوكَ تُصْرَعُ[3]

وقال آخر :

ألَا يا آسلَمِى ثم آسلَمِى ثُمَّتَ آسْلَمِى * ثلاثَ تَحِيَّاتٍ وإنْ لَمْ تَكَلَّمِ

ومثله كثير . وقيل : هذا على مطابقة قولهم : تَعبُدُ آلهتنا ونعبدُ إلهَكَ ، ثم تعبد آلهتنا ونعبد إلهك ، ثم تعبد آلهتنا ونعبد إلهك ، فنجرِى على هذا أبدا سَنَةً وسنة . فأجيبوا عن كل ما قالوه بضده ؛ أى إن هذا لا يكون أبدا . قال آبن عباس : قالت قريش للنبىّ صلى الله عليه وسلم : نحن نعطيك من المال ما تكون به أغنى رجلٍ بمكة، ونزوّجك مَنْ شئت ، ونطأ عقِبَك ؛ أى نمشى خلفَك ، وتَكُفُّ عن شتم آلهتنا ، فإن لم تفعل فنحن نَعْرِض عليك خَصْلة واحدة هى لنا ولك صلاح ؛ تعبدُ آلهتنا (اللات والعُزّى) سنة ،

(١) لفظ الحديث كما فى صحيح مسلم (باب الفضائل) : " ... أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر وهو يقول : إن بنى هشام بن المغيرة استأذنونى أن ينكحوا آبنتهم علىّ بن أبى طالب ، فلا آذن لهم ، ثم لا آذن لهم ، ثم لا آذن لهم إلا أن يحب ابن أبى طالب أن يطلق آبنتى ، وينكح آبنتهم ، فإنما آبنتى بضعة منى ، يريبنى ما رابها ، و يؤذينى ما آذاها " والبضعة (بالفتح وقد تكسر) : القطعة من اللحم . (٢) البيت من أبيات المهلهل بن ربيعة قالها بعد أن أخذ بثأر أخيه كليب (راجع الشاهد العاشر بعد المائة فى خزانة الأدب) . (٣) البيت لجرير بن عبد الله البجلى . وقيل لعمرو بن خثارم البجلى . (راجع خزانة الأدب فى الشاهد الحادى والثمانين بعد الخمسمائة) .

Marfat.com

ونحن نعبد إلهك سنة[1]؛ فنزلت السورة . فكان التكرار فى « لا أعبد ما تعبدون » ؛ لأن القوم كرّروا عليه مقالهم مرة بعد مرة . والله أعلم . وقيل : إنما كرّر بمعنى التغليظ . وقيل : أى « لا أعبد » الساعة « ما تعبدون . ولا انتم عابدون » الساعة « ما أعبد » . ثم قال : « ولا أنا عابد » فى المستقبل « ما عبدتم . ولا أنتم » فى المستقبل « عابدون ما أعبد » . قاله الأخفش والمبرّد . وقيل : إنهم كانوا يعبدون الأوثان، فإذا ملوا وثناً، وسئموا العبادة له، رفضوه، ثم أخذوا وثنا غيره بشهوة نفوسهم، فإذا مروا بحجارة تعجبهم ألقوا هذه، ورفعوا تلك ، فعظموها ونصبوها آلهة يعبدونها؛ فأُمر عليه السلام أن يقول لهم : « لا أعبد ما تعبدون » اليوم من هذه الآلهة التى بين أيديكم . ثم قال : « ولا أنتم عابدون ما أعبد » وإنما تعبدون الوثن الذى اتخذتموه ، وهو عندكم الآن . « ولا أنا عابد ما عبدتم » أى بالأمس من الآلهة التى رفضتموها، وأقبلتم على هذه . ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ فإنى أعبد إلهى . وقيل : إن قوله تعالى : « لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد » فى الاستقبال . وقوله : « ولا أنا عابد ما عبدتم » على نفى العبادة منه لما عبدوا فى الماضى . ثم قال : « ولا أنتم عابدون ما أعبد » على التكرير فى اللفظ دون المعنى، من قبل أن التقابل يوجب أن يكون : ولا أنتم عابدون ما عبدت ، فعدل عن لفظ عبدت إلى أعبد، إشعارا بأن ما عبد فى الماضى هو الذى يعبد فى المستقبل ، مع أن الماضى والمستقبل قد يقع أحدهما موقع الآخر . وأكثر ما يأتى ذلك فى أخبار الله عز وجل . وقال : « ما أعبدُ » ، ولم يقل : مَن أعبد؛ ليقابل به « ولا أنا عابد ما عبدتم » وهى أصنام وأوثان، ولا يصلح فيها إلا « ما » دون « مَن » فحُمل الأول على الثانى ، ليتقابل الكلام ولا يتنافى . وقد جاءت « ما » لمن يعقل . ومنه قولهم : سبحان ما سخركن لنا . وقيل : إن معنى الآيات وتقديرها : قل يأيها الكافرون لا أعبد الأصنام التى تعبدونها، ولا أنتم عابدون الله عز وجل الذى أعبده ؛ لإشراككم به، واتخاذكم الأصنام، فإن زعمتم أنكم تعبدونه، فأنتم كاذبون؛ لأنكم تعبدونه مشركين . فأنا لا أعبد ما عبدتم ، أى مثل عبادتكم ؛ فـ « ما » مصدرية . وكذلك

---

(١) فى حاشية الجمل نقلا عن القرطبى : ثم تعبد آلهتنا ، ونعبد إلهك ، فنجرى على هذا أبدا : سنة وسنة ، فنزلت ... الخ .

Marfat.com

« ولا أنتم عابدون ما أعبد » مصدرية أيضا ؛ معناه ولا أنتم عابدون مثل عبادتى ، التى هى توحيد .

قوله تعالى : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (٦)

فيه معنى التهديد؛ وهو كقوله تعالى : « لنا أعمالنا ولكم أعمالكم »(١) أى إن رضيتم بدينكم ، فقد رضينا بديننا . وكان هذا قبل الأمر بالقتال، فنسخ بآية السيف . وقيل : السورة كلها منسوخة. وقيل: ما نسخ منها شيء لأنها خبر. ومعنى « لكم دينكم » أى جزاء دينكم، ولى جزاء دينى . وسمى دينهم دينا ، لأنهم آعتقدوه وتولّوه . وقيل : المعنى لكم جزاؤكم ولى جزائى ؛ لأن الدِّين الجزاء . وفتح الياء من « وليَ دينِ » نافع ، والبزى عن آبن كثير باختلاف عنه ، وهشام عن آبن عامر ، وحفص عن عاصم . وأثبت الياء فى « دينى » فى الحالين نصر ابن عاصم وسلام و يعقوب ؛ قالوا : لأنها آسم مثل الكاف فى دينكم ، والتاء فى قمت . الباقون بغير ياء ، مثل قوله تعالى : « فَهُو يَهدِينِ »(٢) . « فاتقوا الله وأَطِيعونِ »(٣) ونحوه ، اكتفاء بالكسرة ، وآتباعا لخط المصحف ؛ فإنه وقع فيه بغير ياء .

تفسير سورة « النصر »

وهى مدنية بإجماع . وتسمى سورة « التوديع » . وهى ثلاث آيات . وهى آخر سورة نزلت جميعا ؛ قاله آبن عباس فى صحيح مسلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ (١)

النصر : العَوْن ؛ مأخوذ من قولهم : قد نَصَر الغيثُ الأرض : إذا أعان على نباتها ، من قَحْطها(٤) . قال الشاعر :

(١) آية ٥٥ سورة القصص . (٢) آية ٧٨ سورة الشعراء .
(٣) آية ٥٠ سورة آل عمران . (٤) هو الراعى يخاطب خيلا . (من اللسان مادة نصر) .

Marfat.com

إذا انسلخ الشهر الحرام فودِّعى * بلادَ تميمٍ وآنْصُرى أرضَ عامرِ

ويروى :

إذا دخلَ الشهرُ الحرامُ فجاوِزى * بلادَ تميمٍ وآنصرى أرضَ عامرِ

يقال : نصره على عدوّه ينصره نصرا ؛ أى أعانه . والآسم النُّصْرة . وآستنصره على عدوّه : أى سأله أن ينصره عليه . وتناصروا : نصر بعضهم بعضا . ثم قيل : المراد بهذا النصر نصر الرسول على قريش ؛ الطبرىّ . وقيل : نصره على من قاتله من الكفار ؛ فإن عاقبة النصر كانت له . وأما الفتح فهو فتح مكة ؛ عن الحسن ومجاهد وغيرهما . وقال آبن عباس وسعيد بن جبير : هو فتح المدائن والقصور . وقيل : فتح سائر البلاد . وقيل : ما فتحه عليه من العلوم . و « إذا » بمعنى قد ؛ أى قد جاء نصر الله ؛ لأن نزولها بعد الفتح . ويمكن أن يكون معناه : إذا يجيئك .

قوله تعالى : وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجاً ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ ورأيت الناس ﴾ أى العرب وغيرهم . ﴿ يدْخُلُون فِى دِينِ الله أفواجاً ﴾ أى جماعات : فوجا بعد فوج . وذلك لما فتحت مكة قالت العرب : أمّا إذا ظفر محمد بأهل الحرم، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان (١) . فكانوا يُسْلِمون أفواجا : أمّةً أمّةً . قال الضحاك : والأمّة : أربعون رجلا . وقال عكرمة ومقاتل : أراد بالناس أهل اليمن . وذلك أنه ورد من اليمن سبعمائة إنسان مؤمنين طائعين . بعضهم يؤذنون ، وبعضهم يقرءون القرآن، وبعضهم يهلِّلون ؛ فسُرّ النبىّ صلى الله عليه وسلم بذلك، وبكى عمر وآبن عباس . وروى عكرمة عن آبن عباس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قرأ : « إذا جاءَ نصرُ الله والفتحُ » وجاء أهل اليَمَنِ رَقيقةً أَفْئِدَتُهم ، لَيِّنـةً طِباعهم ، سَخِيـةً قُلوبهم ، عظيمةً خشيتُهم ، فدخلوا فى دين الله أفواجا » . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أتاكم أهل اليمن، هم أضعف قلوبا، وأرق أفئدة. الفقه يَمانٍ، والحكمة يمانِيَة" . وروى أنه

(١) أى طاقة .

Marfat.com

صلى الله عليه وسـلم قال : " إنى لأجدُ نَفَسَ(١) ربكم مِن قِبَـلِ اليَمَنْ " وفيـه تأويلان : أحدهـا — أنه الفرج ؛ لتتابع إسلامهم أفواجا . والثـانى — معناه أن الله تعـالى نَفَّس الكرب عن نبيه صلى الله عليه وسلم بأهل اليمن ، وهم الأنصار . وروى جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الناس دخلوا فى دين الله أفواجا ، وسيخرجون منه أفواجا " ذكره المـاوردىّ ، ولفظ الثعلبىّ : وقال أبو عمار حدّثنى جابر لجـابر ، قال : سألنى جابر عن حال الناس ، فأخبرته عن حال اختلافهم وفُرْقتهم ؛ فجعـل يبكى ويقول : سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسـلم يقول : " إن النـاس دخلوا فى دين الله أفواجا ، وسَيَخْرُجونَ من دينِ اللهِ أفْواجًا " .

قوله تعـالى : فَسَبِّحْ بِحَمْـدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْـدِ ربكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ أى إذا صليت فأكثر من ذلك . وقيل : معنى سبح : صَلِّ ؛ عن ابن عباس . « بِحَمْـدِ ربك » أى حامدا له على ما آتاك من الظفر والفتح . « وَاسْتَغْفِرْهُ » أى سلِ الله الغفران . وقيـل : « فسبح » المـراد به : التنزيه ؛ أى نزهه عما لا يجوز عليه مع شكرك له . « وَاسْتَغْفِرْهُ » أى سَلِ الله الغفران مع مداومة الذكر. والأول أظهر . روى الأئمـة (واللفظ للبخارىّ) عن عائشة رضى الله عنها قالت : ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة بعـد أن نزلت عليـه سورة « إِذَا جاءَ نَصْرُ اللهِ والفَتْحُ » إلا يقول : "سُبْحانَكَ رَبَّنا وبِحَمْدِك ، اللَّهُمَّ اغفِرْ لى " . وعنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُكْثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : " سُبحانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنا وبِحَمدِك ، اللَّهُمَّ اغفِرْ لى". يتأوّل القرآن . وفى غير الصحيح : وقالت أمّ سَلَمة : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يجىء ولا يذهب إلا قال : " سُبْحانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ وأَتُوبُ

(١) قال ابن الأثير : « هو مستعار من نفس الهواء الذى يردّه التنفس إلى الجوف ، فيبرّد من حرارته ويعدّلها . أو من نفس الريح الذى يتنسمه ، فيستروح إليه . أو من نفس الروضة وهو طيب روائحها ، فيتفرج به عنه . يقال : أنت فى نفس من أمرك ، واعمل وأنت فى نفس من عمرك ؛ أى فى سعة وفسحة ، قبل المرض والهرم ونحوهما .

Marfat.com

إليه — قال — فإنّى أُمرت بها — ثم قرأ — « إِذَا جَاءَ نصرُ اللهِ والفَتْحُ » إلى آخرها . وقال أبوهريرة : آجتهد النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد نزولها، حتى تَوَرَّمت قدماه . ونَحَل جسمه، وقل تبسمه ، وكثر بكاؤه . وقال عكرمة : لم يكن النبيّ صلى الله عليه وسلم قطُّ أشد آجتهادا فى أمور الآخرة ما كان منه عند نزولها . وقال مقاتل : لما نزلت قرأها النبيّ صلى الله عليه وسلم على أصحابه ، ومنهم أبو بكر وعمر وسعد بن أبى وقاص، ففرحوا وآستبشروا، وبكى العباس؛ فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما يُبْكِيكَ يا عَمِّ ؟ " قال : نُعِيَتْ إليكَ نَفْسُك . قال : " إنه لكما تقول "؛ فعاش بعدها ستين يوما[1]، ما رُئِى فيها ضاحكا مستبشرا . وقيل : نزلت فى مِنًى بعد أيام التشريق، فى حجة الوداع، فبكى عُمر والعباس ، فقيل لهما : إن هذا يوم فرح، فقالا : بل فيه نَعْى النبيّ صلى الله عليه وسلم . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " صَدَقتما ، نُعيت إلىّ نفسى " . وفى البخاريّ وغيره عن ابن عباس قال : كان عمر بن الخطاب يأذن لأهل بدر ، ويأذن لى معهم . قال : فوجد[2] بعضهم من ذلك ، فقالوا : يأذن لهذا الفتى معنا ومن أبنائنا من هو مثله ! فقال لهم عمر: إنه من قد علمتم[3] . قال : فأذن لهم ذات يوم، وأذن لى معهم فسألهم عن هذه السورة « إذا جاء نصر اللهِ والفتح » فقالوا : أمر الله جل وعز نبيه صلى الله عليه وسلم إذا فتح عليه أن يستغفره، وأن يتوب إليه . فقال : ما تقول يا بن عباس ؟ قلت : ليس كذلك ، ولكن أخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم حضورَ أجله ، فقال: « إذا جاءَ نصرُ اللهِ والفتحُ » ، فذلك علامة موتك . « فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وآستغفِرهُ إنَّهُ كانَ تَوَّاباً » . فقال عمر رضى الله عنه : تلومونني عليه ؟ وفى البخاريّ فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تقول . ورواه الترمذيّ ، قال : كان عمر يسألنى مع أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال له عبد الرحمن آبن عوف: أتسأله ولنا بنون مثله ؟ فقال له عمر: إنه من حيث نعلم. فسأله عن هذه الآية: « إذا جاء نصر اللهِ والفتح » . فقلت : إنما هو أجل رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، أعلمه إياه ؛ وقرأ السورة إلى آخرها . فقال له عمر : والله ما أعلم منها إلا ما تعلم . قال : هذا

(١) الذى فى الطبرى والكشاف : « سنتين » . (٢) أى غضب .
(٣) أى من جهة ذكائه وزيادة معرفته . أو من جهة قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

Marfat.com

حديث حسن صحيح . فإن قيل : فماذا يغفر للنبيّ صلى الله عليه وسلم حتى يؤمر بالاستغفار ؟ قيــل له : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه : " رَبِّ ٱغفِرْ لى خَطيئتى وجَهْلِى ، وإسْرافِى فى أَمْرِى كُلِّه ، وما أنت أعلم به منى . اللهم ٱغفرلى خَطَئى وعَمْدِى ، وجهلِى وهَزْلى ، وكل ذلك عندى . اللهم ٱغفرلى ماقدّمت وما أخرتُ ، وما أعلَنْت وما أسْرَرْت ، أنت المقدِّم وأنت المُؤَخِّر ، إنكَ على كلِّ شيء قَدِير " . فكان صلى الله عليه وسلم يستقصر نفسه لعظم ما أنعم الله به عليه ، ويرى قصوره عن القيام بحق ذلك ذُنُوبا . ويحتمل أن يكون بمعنى : كُنْ متعلقا به ، سائلا راغبا ، متضرعا على رؤية التقصير فى أداء الحقوق ؛ لئلا ينقطع إلى رؤية الأعمال . وقيل : الاستغفار تَعَبُّد يجب إتيانه ، لا للغفرة ، بل تعبدا . وقيل : ذلك تنبيه لأمتــه ، لكيلا يأمنوا ويتركوا الاستغفار . وقيــل : « وٱستغفره » أى استغفر لأمتــك . ﴿إنه كان توّابا﴾ : أى على المسبحين والمستغفرين ، يتوب عليهم ويرحمهم ، ويقبل توبتهم . وإذا كان عليه السلام وهو معصوم يؤمر بالاستغفار ، فما الظن بغيره ؟ رَوَى مسلم عن عائشة قالت : كان رســول الله صلى الله عليه وسلم يُكْثِر من قول " سُبحانَ اللهِ وبِحَمْـدِهِ ، أَسْتغفِرُ اللهَ وأَتُوبُ إليه " . قالت : فقلت يارسول الله ، أراك تكثر من قول " سُبْحانَ الله وبِحَمْده ، أستغفر الله وأتوب إليه " ؟ فقال : " خَبَّرَنِى رَبِّى أنى سأرى علامة فى أمتى ، فإذا رأيتهــا أكثرت من قول سُبْحان اللهِ وبِحَمْدِه ، أستغفر الله وأتوب إليه ، فقد رأيتها : « إذا جاءَ نصْرُ اللهِ والفتحُ » — فتــح مكة — « ورأيتَ النــاسَ يَدْخُلُون فِى دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً . فَسَبِّحْ بِحَمدِ ربك واسْتَغْفِرْه إنهُ كانَ تَوَّابًا » " . وقال ٱبن عمر : نزلت هـــذه السورة بِمِنًى فى حِجّة الوَداع ، ثم نزلت « اليومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعمتِى »(١) فعاش بعدهما النبى صلى الله عليــه وسلم ثمانين يوما . ثم نزلت آية الكَلالة(٢) ، فعاش بعدها خمسين يوما . ثم نزل « لَقَدْ جاءَكُمْ رسول مِن أنفسِكم »(٣) فعاش بعدها خمسه وثلاثين يوما . ثم نزل « واتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعون فِيهِ إلَى اللهِ »(٤) فعاش بعــدها أحدا وعشرين يوما . وقال مقاتل سبعة أيام . وقيل غير هذا مما تقدّم فى « البقرة » بيانه(٥) ، والحمد لله .

(١) آية ٣ سورة المائدة .	(٢) آخر سورة النساء .	(٣) آية ١٢٨ سورة التوبة .
(٤) آية ٢٨١ سورة البقرة .	(٥) راجع جـ ٣ ص ٣٧٥

Marfat.com

ســورة « تبت »

وهى مكية بإجماع . وهى خمس آيات

قوله تعالى : تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ (١)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ ﴾ فى الصحيحين وغيرهما (واللفظ لمسلم) عن ابن عباس قال : لما نزلت « وانذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ[1] . ورَهْطَكَ مِنْهُمُ المخلصين[2] » خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صَعِد الصَّفا ، فهتَف : ياصَباحاه ! فقالوا : من هذا الذى يهتف ؟ قالوا محمد . فاجتمعوا إليه . فقال : " يابَنى فُلان ، يابنى فلان ، يابنى فُلان ، يابنى عبد مناف ، يابنى عبدِ المطلب ! " فاجتمعوا إليه . فقال : " أَرَأَيْتَكُمْ لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مُصَدِّقِىَّ " ؟ قالوا : ماجربنا عليك كذبا . قال : " فإنِّى نذيرٌ لَكُمْ بين يَدَىْ عَذاب شَدِيد " . فقال أبو لهب : تَبًّا لَكَ ! ، أما جمعتنا إلَّا لهذا ! ثم قام ، فنزلت هذه السورة « تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وقَدْ تب » كذا قرأ الأعمش الى آخر السورة . زاد الحميدى وغيره : فلما سمعت آمرأته ما نزل فى زوجها وفيها من القرآن ، أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد عند الكعبة ، ومعه أبو بكر رضى الله عنه ، وفى يدها فِهر[3] من حجارة ، فلما وقفتْ عليه أخذ الله بصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا ترى إلا أبا بكر . فقالت : يا أبا بكر ، إن صاحبك قد بلغنى أنه يهجونى ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفِهر فاه ، والله إنى لشاعرة :

مُــذَمَّمـا عَصَيْنَــا * وأَمْــرَهُ أَبَيْنَــا * ودِينَــهُ قَلَيْنَــا

(١) آية ٢١٤ سورة الشعراء . (٢) قال النووى فى شرح مسلم : « وظاهر هذه العبارة أن قوله ورهطك منهم المخلصين كان قرآنا أنزل ثم نسخت تلاوته » . (٣) الفهر (بالكسر) : الحجر ملء الكف وقيل الحجارة مطلقا .

Marfat.com

ثم آنصرفت . فقال أبو بكر : يارسول الله ، أما تراها رأتك ؟ قال : " ما رأتني ، لقد أخذ الله بصرها عني " . وكانت قريش إنما تسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم مُذَمَّماً ؛ يسبونه ، وكان يقول : " ألا تعجبون لما صرف الله عني من أذى قريش ، يَسُبُّون ويهجون مذمما وأنا محمد " . وقيل : إن سبب نزولها ماحكاه عبد الرحمن بن زيد أن أبا لهب أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : ماذا أُعْطَى إن آمنتُ بك يامحمد ؟ فقال : " كما يُعْطَى المسلمون " قال مالي عليهم فضل ؟ ! . قال : "وأيّ شيء تبغي" ؟ قال : تَبًّا لهذا من دين ، أن أكون أنا وهؤلاء سواء ؛ فأنزل الله تعالى فيه : « تَبَّتْ يدا أبي لهبٍ وتَبَّ » . وقول ثالث حكاه عبد الرحمن بن كيسان قال : كان إذا وفد على النبيّ صلى الله عليه وسلم وفد آنطلق إليهم أبو لهب ، فيسألونه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون له : أنت أعلم به منا . فيقول لهم أبو لهب : إنه كَذَّاب ساحر . فيرجعون عنه ولا يَلْقونه . فأتى وفد ، ففعل معهم مثل ذلك ، فقالوا : لا ننصرف حتى نراه ، ونسمع كلامه . فقال لهم أبو لهب : إنا لم نزل نعالجه فتبًّا له وتعسًا . فأُخبِر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فا كتأب لذلك ؛ فأنزل الله تعالى « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ »... السورة . وقيل : إن أبا لهب أراد أن يرمى النبي صلى الله عليه وسلم بحجر ، فمنعه الله من ذلك ، وأنزل الله تعالى : « تبت يدا أبي لهبٍ وتبَّ » للمنع الذى وقع به . ومعنى « تَبَّتْ » : خَسِرت ؛ قاله قتادة . وقيل : خابت ؛ قال ابن عباس . وقيل ضلّت ؛ قاله عطاء . وقيل : هلكت ؛ قاله ابن جبير . وقال يمان بن رِئاب : صَفِرت من كل خير . حكى الأصمعيّ عن أبي عمرو بن العلاء أنه لما قتل عثمان رحمه الله سمع الناس هاتفا يقول :

لَقَـدْ خَلَّوْكَ وانْصَرَفُـوا　*　فمـا آبُـوا ولا رَجَعُـوا
ولم يُـوفُـوا بنَـذْرِهِم　*　فَيَـاتَبًّـا لِمَـا صَـنَعُوا (١)

وخص اليـدين بالتباب ، لأن العمل أكثر ما يكون بهما ؛ أى خسرتا وخسر هو . وقيل : المراد باليـدين نفسه . وقد يعبَّر عن النفس باليد ، كما قال الله تعالى : « بما قَدَّمتْ يداك » (٢)

(١) فى بعض نسخ الأصل :　* فتبا للذى صنعوا *
(٢) آية ١٠ سورة الحج .

Marfat.com

أى نفسك . وهذا مَهْيَع(١) كلامِ العرب ؛ تعـبِّر ببعض الشيء عن كله ؛ تقول : أصابته يد الدهر ، و يد الرزايا والمنايا ؛ أى أصابه كل ذلك . قال الشاعر :

لَمَّا أَكَبَّتْ يَدُ الرَّزَايا * عَلَيْــهِ نادى ألاَ مُجِيرُ

﴿ وَتَبَّ ﴾ قال الفرّاء : التبُّ الأول : دعاء والثـانى خبر؛ كما يقال : أهلكه الله وقد هلك . وفى قراءة عبد الله وأُبَىّ « وَقَدْ تَبَّ » . وأبو لهب آسمه عبد العُزَّى ، وهو آبن عبد المطلب عمّ النبيّ صلى الله عليـه وسلم . وآمرأته العوراء أم جميل ، أخت أبى سفيان بن حرب ، وكلاهما ، كان شديد العداوة للنبيّ صلى الله عليـه وسلم . قال طارق بن عبد الله المحاربىّ : إنى بسوق ذى المجـاز ، إذ أنا بإنسان يقول: "يأيها الناس، قولُوا لا إلهَ إلّا اللهُ تُفْلِحُوا"، و إذا رجل خلفه يرميه ، قد أدمى ساقيه وعرقوبيه و يقول : يأيها الناس ، إنه كذاب فلا تصدقوه . فقلت مَنْ هذا ؟ فقالوا : محمد، زعم أنه نبى . وهذا عمه أبو لهب يزعم أنه كذاب . وروى عطاء عن ابن عباس قال قال أبو لهب : سَحَرَكم محمد ! إن أحدنا ليأكل الجَذَعة(٢) ، ويشرب العُسّ(٣) من اللبن فلا يشبع ، و إن محمدا قدا أشبعكم من فخِذ شاة ، وأرواكم من عُسّ لبن .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ أَبِي لَهَبٍ ﴾ قيل : سمى باللَّهب لحسنه ، و إشراق وجهه . وقد ظن قوم أن فى هذا دليلا على تكنية المشرك ؛ وهو باطل ، و إنما كناه الله بأبى لهب — عند العلماء — لمعان أربعة : الأول — أنه كان اسمه عبد العزى ، والعُزّى : صنم ؛ ولم يضف الله فى كتابه العبودية إلى صنم . الثـانى — أنه كان بكنيته أشهر منـه باسمه ؛ فصرح بها . الثـالث — أن الآسم أشرف من الكنية ، فحطه الله عز وجل عن الأشرف الى الأنقص ؛ إذا لم يكن بدٌّ من الإخبار عنه ، ولذلك دعا الله تعـالى الأنبياء بأسمائهم ، ولم يَكْنِ عن أحد منهم . و يدلك على شرف الآسم على الكنية : أن الله تعالى يُسَمَّى ولَا يُكَنَّى ، و إن كان ذلك لظهوره و بيانه ؛ واستحالة نسبة الكنية إليه ، لتقدسه عنها . الرابع — أن

(١) يقال طريق مهيع : أى واضح واسع بين .
(٢) الجذعة : ولد الشاة فى السنة الثانية .
(٣) العس (بالضم) : القدح الكبير .

Marfat.com

الله تعالى أراد أن يحقق نسبته، بأن يدخله النار، فيكون أبا لها، تحقيقا للنسب، وإمضاء للفأل والطيرة التي اختارها لنفسه. وقد قيل: اسمه كنيته. فكان أهله يسمونه (أبا لهب)، لتلهب وجهه وحسنه؛ فصرفهم الله عن أن يقولوا: أبو النُّور، وأبو الضياء، الذى هو المشترك بين المحبوب والمكروه، وأجرى على ألسنتهم أن يضيفوه إلى (لَهَب) الذى هو مخصوص بالمكروه المذموم، وهو النار. ثم حقق ذلك بأن يجعلها مقره. وقرأ مجاهد وحميد وابن كثير وابن مُحَيصن. «أَبِى لَهْبٍ» بإسكان الهاء. ولم يختلفوا فى «ذَاتَ لَهَبٍ» أنها مفتوحة؛ لأنهم راعَوْا فيها رءوس الآى.

الثالثة — قال ابن عباس: لما خلق الله عز وجل القلم قال له: اكتب ما هو كائن، وكان فيما كتب «تَبَّتْ يد أبى لَهَبٍ». وقال منصور: سُئِلَ الحسن عن قوله تعالى: «تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ» هل كان فى أم الكتاب؟ وهل كان أبو لهب يستطيع ألا يَصْلَى النار؟ فقال: والله ما كان يستطيع ألّا يصلاها، وإنها لفى كتاب الله من قبل أن يُخْلَق أبو لهب وأبواه. ويؤيده قول موسى لآدم: أنت الذى خلقَكَ اللهُ بيده، ونفخ فيك من رُوحه، وأسكنك جَنّته، وأسجد لك ملائكته، خَيَّبْتَ(١) الناس، وأخرجتهم من الجنة. قال آدم: وأنت موسى الذى اصطفاك بكلامه، وأعطاك التوراة، تلومنى على أمر كتبه الله علىّ قبل أن يخلق الله السموات والأرض. قال النبىّ صلى الله عليه وسلم: "فحجّ آدمُ موسى(٢)"، وقد تقدّم هذا(٣). وفى حديث همّام عن أبى هريرة أن آدم قال لموسى: "بِكَمْ وجدتَ الله كَتَبَ التوراةَ قبلَ أَنْ يَخْلُقَنِي"؟ قال: "بألفى عام" قال: "فهل وجدت فيها: «وعَصَى آدمُ رَبَّهُ فَغَوَى»" قال: "نعم" قال: "أفتلومنى على أمر وكتب الله علىّ أن أفعله من قبل أن أخلق بألفى عام". فَحَجَّ(٤) آدمُ موسى. وفى حديث طاوُوس وابن هُرْمُز والأعرج عن أبى هريرة: "بأربعين عاما".

(١) فى الأصول: «أغويت». (٢) أى غلبه بالحجة. (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٥٦
(٤) أى غلبه بقوة حجته.

Marfat.com

قوله تعالى : مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾

أى ما دفع عنه عذاب الله ما جمع من المال، ولا ما كسب من جاه . وقال مجاهد: من الولد؛ وولد الرجل من كَسْبه . وقرأ الأعمش « وَمَا ٱكْتَسَبَ » ورواه عن ٱبن مسعود . وقال أبو الطُّفَيل: جاء بنو أبى لهب يختصمون عند ٱبن عباس، فاقتتلوا، فقام ليحْجُز بينهم، فدفعه بعضهم، فوقع على الفِراش، فغضب ٱبن عباس وقال: أخرجوا عنى الكسبَ الخبيثَ؛ يعنى ولده . وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولدى من كسبه" . خرّجه أبو داود. وقال ٱبن عباس: لما أنذر رسول الله صلى الله عليه وسلم عشيرته بالنار، قال أبو لهب : إن كان ما يقول ٱبن أخى حقا فإنى أفدى نفسى بمالى وولدى، فنزل : « ما أَغْنَى عَنْـهُ مالُهُ وما كَسَبَ » . و « ما » فى قوله : « مَا أَغْنَى»: يجوز أن تكون نفيا، ويجوز أن تكون ٱستفهاما؛ أى أىّ شىء أغنى [عنه] ؟ و «ما» الثانية: يجوز أن تكون بمعنى الذى، ويجوز أن تكون مع الفعل مصدرا؛ أى ما أغنى عنه ماله وكسبه .

قوله تعالى : سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾

أى ذات اشتعال وتلهُّب . وقد مضى فى سورة « المرسلات »(١) القول فيه . وقراءة العامة : « سَيَصْلَى » بفتح الياء . وقرأ أبو رجاء والأعمش : بضم الياء . ورواها محبوب عن إسماعيل عن ٱبن كثير، وحسين عن أبى بكر عن عاصم، ورويت عن الحسن . وقرأ أشهب العُقَيلى وأبو سَمّال العَدَوى ومحمد بن السَّمَيْقع «سَيُصَلَّى» بضم اليـاء، وفتح الصاد، وتشديد اللام؛ ومعناها سَيُصْلِيه الله؛ من قوله : «وتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ»(٢) . والثانية من الإصلاء؛ أى يصليه الله ؛ من قوله : « فسوف نُصْلِيه نارا »(٣) . والأُولَى هى الاختيار؛ لإجماع الناس عليها ؛ وهى من قوله : « إلّا من هو صالِ الجَحِيمِ »(٤) .

---

(١) راجع جـ ١٩ ص ١٦٠ .
(٢) آية ٩٤ سورة الواقعة .
(٣) آية ٣٠ سورة النساء .
(٤) آية ١٦٣ سورة الصافات .

Marfat.com

قوله تعالى : وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وامْرَأَتُه ﴾ أم جميل . وقال ابن العربي : العوراء أم قبيح ، وكانت عَوْراء . ﴿ حَمَّالَةَ(١) الحَطَب ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسُّدِّي : كانت تمشى بالنميمة بين الناس ؛ تقول العرب : فلان يَحْطِب على فلان : إذا وَرَّش(٢) عليه . قال الشاعر :

إنّ بنى الأَدْرَمِ حَمَّالو الحَطَبْ * هُمُ الوُشاةُ فى الرِّضا وفى الغَضَبْ

* عَلَيهِمُ اللَّعنةُ تَتْرَى والحَرَبْ(٣) *

وقال آخر :

مِنَ البِيضِ لَمْ تُصْطَدْ عَلَى ظَهْرِ لأْمَةٍ * ولَمْ تَمْشِ بينَ الحَىِّ بالحَطَبِ الرَّطْبِ

يعنى : لم تمش بالنمائم، وجعل الحطب رَطْبا ليدل على التدخين، الذى هو زيادة فى الشرّ. وقال أكثم بن صَيْفِيّ لبنيه : إياكُمْ والنَّمِيمةَ ! فإنها نارٌ مُحْرِقَة ، وإنّ النَّمّام ليَعْمل فى ساعة مالا يَعْمَل الساحر فى شهر . أخذه بعض الشعراء فقال :

إنّ النميمةَ نارٌ وَيْك مُحْرِقَةٌ * فَفِرَّ عَنها وجانِبْ مَنْ تَعاطَاها

ولذلك قيل : نار الحقد لا تخبو . وثَبَت عن النبيّ صلّى الله عليه وسلم : " لا يَدْخُلُ الجنةَ نَمّام " . وقال : " ذُو الوَجْهَين لا يكون عند الله وجيها " . وقال عليه الصلاة والسلام : " مِنْ شَرّ الناسِ ذُو الوَجْهَيْنِ : الّذى يَأْتِى هَؤُلَاءِ بوَجْهٍ ، وهَؤُلَاءِ بوَجْهٍ " . وقال كعب الأحبار : أصاب بنى إسرائيل قحط ، فخرج بهم موسى عليه السلام ثلاث مرات يَسْتَسْقُون فلم يُسْقَوا . فقال موسى : " إلهى عبادُك " . فأوحى الله إليه : " إنى لا أستجيب لك ولا لمن معك ، لأن فيهم رجلا نماما ، قد أَصَرّ على النميمة " . فقال موسى : " يا رَبّ مَنْ هُوَ حتى نخرجه من بيننا " ؟ فقال : " يا موسى ، أنهاك عن النميمة وأكونَ نماما " قال : فتابوا بأجمعهم ، فسُقوا . والنميمة من الكبائر، لا خلاف فى ذلك ؛ حتى قال الفُضَيل بن عياض : ثلاث تهدّ العمل الصالح ويُفَطِّرن الصائم ، ويَنقُضْن الوضوء : الغيبة ، والنميمة ، والكذب .

(١) « حمالة » بالرفع قراءة نافع ، وبها يقرأ المؤلف .	(٢) التوريش : التحريش ؛ يقال : ورّشت بين القوم ، وأرّشت . ا	(٣) الحرب (بالتحريك) : نهب مال الانسان وتركه لا شيء .

Marfat.com

وقال عطاء بن السائب : ذكرت للشعبي قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل الجنة سافك دم، ولا مشاء بنميمة، ولا تاجر يربي" فقلت : يا أبا عمرو، قرن النمام بالقاتل وآكل الربا ؟ فقال : وهل تسفك الدماء، وتنتهب الأموال، وتهيج الأمور العظام، إلا من أجل النميمة .

وقال قتادة وغيره : كانت تعيّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفقر . ثم كانت مع كثرة مالها تحمل الحطب على ظهرها؛ لشدة بخلها، فعيّرت بالبخل . وقال ابن زيد والضحاك : كانت تحمل العضاه والشوك، فتطرحه بالليل على طريق النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه؛ وقاله ابن عباس . قال الربيع : فكان النبي صلى الله عليه وسلم يطؤه كما يطأ الحرير . وقال مرة الهمداني : كانت أم جميل تأتي كل يوم بإبالة (1) من الحسك (2)، فتطرحها على طريق المسلمين، فبينما هي حاملة ذات يوم حزمة أعيت، فقعدت على حجر لتستريح، فجذبها الملك من خلفها فأهلكها . وقال سعيد بن جبير : حمالة الخطايا والذنوب؛ من قولهم : فلان يحتطب على ظهره؛ دليله قوله تعالى : « وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم (3) » . وقيل : المعنى حمالة الحطب في النار؛ وفيه بعد . وقراءة العامة « حمالةُ » بالرفع، على أن يكون خبرا « وامرأته » مبتدأ . ويكون « في جيدها حبلٌ من مسد » جملة في موضع الحال من المضمر في « حمالة » . أو خبرا ثانيا . أو يكون « حمالة الحطب » نعتا لامرأته . والخبر « في جيدها حبلٌ من مسد »؛ فيوقف (على هذا) على « ذات لهب » . ويجوز أن يكون « وامرأته » معطوفة على المضمر في « سيصلى » فلا يوقف على « ذات لهب » ويوقف على « وامرأته » وتكون « حمالة الحطب » خبر ابتداء محذوف . وقرأ عاصم « حمالةَ الحطب » بالنصب على الذم، كأنها اشتهرت بذلك، فجاءت الصفة للذم لا للتخصيص، كقوله تعالى : « ملعونين أينما ثقفوا (4) » . وقرأ أبو قلابة « حاملةَ الحطب » .

---

(1) الإبالة : الحزمة الكبيرة .

(2) الحسك : نبات له ثمرة ذات شوك تعلق بأصواف الغنم، والسعدان .

(3) آية ٣١ سورة الأنعام . (4) آية ٦١ سورة الأحزاب .

Marfat.com

قوله تعالى : فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فِي جِيدِهَا ﴾ أى عنقها . وقال آمرؤ القيس :

وجِيدٍ كَجِيدِ الرِّيمِ لَيْسَ بفاحِشٍ * إذَا هِيَ نَصَّتْهُ ولاَ بِمُعَطَّلِ [(١)]

﴿ حَبْلٌ مِن مَسَدٍ ﴾ أى من لِيف ؛ قال النابغة :

مَقْذُوفةٍ بِدَخِيسِ النَّحْضِ بازِلُها * له صَرِيفٌ صَرِيفُ القَعْوِ بالمَسَدِ [(٢)]

وقال آخر :

يا مَسَدَ الخُوصِ تَعَوَّذْ مِنِّي * إنْ كُنْتُ لَدْناً لَيِّناً فإنِّي

* ما شِئْتَ مِنْ أَشْمَطَ مُقْسَئِنِّ * [(٣)]

وقد يكون من جلود الإبل ، أو من أوبارها ؛ قال الشاعر :

ومَسَدٍ أُمِرَّ مِنْ أَيَانِقِ * لَسْنَ بِأَنْيَابٍ ولاَ حَقَائِقِ [(٤)]

وجمع الجيد أجياد، والمسد أمساد . أبو عبيدة : هو حَبْل يكون من صوف . قال الحسن : هى حبال من شجر تَنبتُ باليمن تسمى المَسَد ، وكانت تُفْتَل . قال الضحاك وغيره : هذا فى الدنيا ؛ فكانت تُعيِّر النبيّ صلى الله عليه وسلم بالفقر وهى تحتطب فى حبل تجعله فى جيدها من ليف ، فخنقها الله جل وعزّ به فأهلكها ؛ وهو فى الآخرة حَبْل من نار . وقال آبن عباس

(١) الجيد : العنق . والريم : الظبي الأبيض الخالص البياض . و « نصته » رفعته . والمعطل : الذى لا حلى عليه . وقوله « بفاحش » ؛ أى ليس بكريه المنظر .

(٢) قال التبريزى « مقذوفة : أى مرمية باللحم . والدخيس : الذى قد دخل بعضه فى بعض من كثرته . والنحض : اللحم ، وهو جمع نحضة . والبازل : الكبير . والصريف : الصياح . والقعو : ما يضم البكرة إذا كان خشبا ؛ فاذا كان حديدا فهو خطاف . ويروى : له صريف صريف القعو (بالضم) على البدل ، والنصب أجود » .

(٣) الأشمط : من خالط بياض رأسه سواد . والمقسئن : الذى قد انتهى فى سنه ، فليس به ضعف كبر ولا قوة شباب . وقيل : هو الذى فى آخر شبابه وأول كبره . والرجز ثلاثة أبيات فى (اللسان : مسد) ولم ينسبه إلى قائله .

(٤) أمر الحبل : فتله فتلا شديدا . وأيانق : جمع أينق ، وأينق جمع ناقة . والأنياب : جمع ناب ، وهى الناقة المرمة . والحقائق : جمع حقة ، وهى التى دخلت فى السنة الرابعة ، وليس جلدها بالقوى . والرجز ثلاثة أبيات فى اللسان . ونسبه الأصمعى لعمارة بن طارق . وقال أبو عبيدة : هو لعقبة الهجيمى . وقوله (ليس) : كذا فى (اللسان : مسد) ، وأعاده فى (حقق) : (لسن) بالنون . وهو الصواب .

Marfat.com

فى رواية أبى صالح : « فِى جِيدِها حَبْلٌ مِن مَسَدٍ » قال : سلسلة ذَرْعُها سبعون ذراعا — وقاله مجاهد وعروة بن الزبير : تَدْخُل مِنْ فيها، وتَخْرُج من أسفلها، ويُلْوَى سائِرها على عنقها. وقال قتادة . « حَبْل مِن مسَدٍ » قال : قِلادة من وَدَع . الوَدَع : خرز بيض تخرج من البحر، تتفاوت فى الصغر والكبر . قال الشاعر :

* والحِلم حِلْمُ صبيّ يَمْرُث الودعهْ[(١)] *

والجمع : وَدَعات . الحسن : إنما كان خَرَزا فى عنقها . سعيد بن المسيب : كانت لها قِلادة فاخرة من جوهر، فقالت : واللاتِ والعُـزَّى لأُنفِقنها فى عداوة محمد . ويكون ذلك عذابا فى جيدها يوم القيامة. وقيل : إن ذلك إشارة إلى الخذلان؛ يعنى أنها مربوطة عن الإيمان بما سبق لها من الشقاء، كالمربوط فى جيده بحبل من مسد . والمَسَد : الفتل . يقال : مَسَد حَبْلَه يَمْسِده مَسْدًا ؛ أى أجاد فتله . قال[(٢)] :

* يَمْسِد أَعْلَى لحمِه ويأرِمُهْ *

يقول : إن البقل يقوّى ظهر هذا الحمار ويشدّه . ودابة مَمْسودة الخَلْق : إذا كانت شديدة الأَسْر[(٣)] . قال الشاعر :

وَمَسَـدٍ أُمِرَّ مِنْ أَيَانِقِ * صُهْبٍ عِتَـاقٍ ذاتِ مُخٍّ زاهِقِ
* لَسْنَ بأنيابٍ ولاَ حقَائِقِ[(٤)] *

ويروى :

* ولا ضعافٍ مُخُهُنَّ زاهِقِ *

قال الفراء : هو مرفوع والشعر مُكْفأ[(٥)] . يقول: بل مخهن مكتنِز؛ رفعه على الابتداء. قال : ولا يجوز أن يريد ولاضعافٍ زاهقٍ مخهنّ . كما لا يجوز أن تقول : مررت برجل أبوه قائم؛

(١) مرث الودع يمرثه مرثا : مصه . (٢) هو رؤبة . (٣) الأسر : الخلق .
(٤) أمرّ الحبل : فتله فتلا شديدا . والأيانق : جمع ناقة . والصهب : جمع الأصهب ، هو بعير ليس بشديد البياض . وعتاق : جمع عتيق وهو الكريم . وزهق المخ : إذا اكتنز (اجتمع) لحمه ؛ فهو زاهق . (٥) الإكفاء فى الشعر : المخالفة بين ضروب إعراب قوافيه . ومن الإكفاء أيضا المخالفة بين هجاء قوافيه إذا تقاربت مخارج الحروف أو تباعدت .

Marfat.com

بالخفض . وقال غيره : الزاهق هنا : بمعنى الذاهب ؛ كأنه قال : ولاضعافٌ مُخُّهنّ ، ثم ردّ الزاهق . على الضعاف . ورجل ممسود : أى مجدول الخلق . وجارية حسنة المَسْد والعَصْب والجَدْل والأَرْم ؛(١) وهى ممسودة ومعصوبة ومجدولة ومأرومة . والمِساد ، على فِعال : لغة فى المِسَاب(٢) ، وهى نِحى السمن ، وسِقاء العسل . قال جميعه الجوهرىّ . وقد اعتُرِض فقيل : إن كان ذلك حبلها الذى تحتطب به ، فكيفَ يبقى فى النـار ؟ وأجيب عنـه بأن الله عزّ وجلّ قادر على تجديده كلما احترق . والحكم ببقاء أبى لهب وامرأته فى النـار مشروط ببقائهما على الكفر إلى الموافاة(٣) ؛ فلمـا ماتا على الكفر صدق الإخبار عنهما . ففيه معجزة للنبىّ صلى الله عليه وسلم . فامرأته خنقها الله بحبلها ، وأبو لهب رماه الله بالعَدَسة(٤) بعد وقعـة بدر بسبع ليـال ، بعد أن شَجّتـه أمّ الفضل(٥) . وذلك أنه لمـا قدم الحَيْسُمانُ مكةَ يخبر خبر بدر ، قال له أبو لهب : أَخْبرنى خبر الناس . قال : نعم ، والله ما هو إلا أن لقينا القوم ، فمنحناهم أكتافنا ، يضعون السلاح منا حيث شاءوا ، ومع ذلك ما لَمَسْتُ الناس . لقينا رجالا بِيضًا على خيل بُلْق ، لا والله ماتُبْقِى منـا ؛ يقول : ما تُبْقِى شيئا . قال أبو رافع : وكنت غلاما للعباس أَنحت الأَقداح فى صُفّة زمزم ، وعندى أمّ الفضل جالسة ، وقد سرنا ماجاءنا من الخبر ، فرفعت طُنُبَ الحجرة ، فقلت : تلك والله الملائكة . قال : فرفع أبو لهب يده ، فضرب وجهى ضَرْبة مُنْكرة ، وثاوَرتُه(٦) ، وكنت رجلا ضعيفا ، فاحتملنى ، فضرب بى الأرض ، وبَرَك على صدرى يضربنى . وتقدّمت أمّ الفضل إلى عمود من عُمُد الحُجْرة ، فتأخذه وتقول : استضعفتَه أن غاب عنه سيده ! وتضربه بالعمود على رأسه فتفلقُه شَجّةً مُنْكَرة . فقام يجر رجليه ذليلا ، ورماه الله بالعَدَسة ، فمـات ، وأقام ثلاثة أيام لم يُدْفن حتى أنتن ؛ ثم إن ولده غسّلوه بالمـاء ، قَذْفا من بعيد ، مخافة عَدْوَى العَدَسة . وكانت قريشٌ تتّقيها كما يُتّـقَى الطاعون . ثم احتملوه إلى أعلى مكة ، فأسندوه إلى جدار ، ثم رَضَموا(٧) عليه الحجـارة .

---

(١) أى مجدولة الخلق . (٢) وقد يهمز فيقال مسأب ، كمنبر . (٣) كذا فى الأصول والظاهر أن اللفظ محرف عن (الوفاة) . (٤) العدسة : بثرة تخرج بالبدن فتقتل . (٥) هى لبـابة الكبرى بنت الحارث بن حزن الهلالية ، أخت ميمونة أم المؤمنين . (٦) المثاورة : المواثبة . (اللسان : ثور) . (٧) رضموا : أى جعلوا الحجارة بعضها على بعض .

Marfat.com

سورة « الإخلاص »

مكّية ؛ في قول ابن مسعود والحسن وعطاء وعكرمة وجابر . ومدنية ؛ في أحد قولي ابن عباس وقتادة والضحاك والسّدّى . وهي أربع آيات .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ أى الواحد الوِتر، الذى لا شبيه له ، ولا نظير ولا صاحبة ، ولا ولد ولا شريك . وأصل « أَحَدٌ » : وَحَدٌ ؛ قُلبت الواو همزة . ومنه قول النابغة [(١)] :

* بذى الجَلِيل على مُسْتأنِسٍ وَحَدِ *

وقد تقدّم في سورة « البقرة » الفرق بين واحد وأَحَد ، وفي كتاب « الأَسْنَى في شرح أسماء الله الحسنى » أيضا مُسْتوفًى . والحمدُ لله . و « أَحَدٌ » مرفوع، على معنى : هو أَحَدٌ . وقيل : المعنى : قل : الأمرُ والشأن : اللهُ أَحَد . وقيل : « أَحَد » بدل من قوله : « الله » . وقرأ جماعة « أَحَدُ اللهُ » بلا تنوين، طلبا للخفة، وفرارا من التقاء الساكنين؛ ومنه قول الشاعر :

* ولا ذاكرَ اللهَ إلّا قليلا [(٢)] *

---

(١) صدر البيت كما في معلقته :

* كأن رحلي وقد زال النهار بنا *

و « ذو الجليل » مكان ينبت الجليل ، وهو الثمام . والثمام : نبت ضعيف قصير لا يطول .

(٢) هذا عجز بيت لأبي الأسود الدؤلي . وصدره :

* فألفيته غير مستعتب *

Marfat.com

﴿ اللهُ الصَّمَدُ ﴾ أى الذى يُصْمَد إليه فى الحاجات . كذا رَوَى الضحاك عن ٱبن عباس، قال : الذى يُصْمَد إليه فى الحاجات؛ كما قال عز وجل : « ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ »(١) . قال أهل اللغة : الصمد : السيد الذى يُصْمد إليه فى النوازل والحوائج . قال :

أَلَا بَكَّر النَّاعِي بِخَيْرِ(٢) بَنِي أَسَـدْ * بعمرِو بن مَسْعُودٍ وبالسيدِ الصَّمَد

وقال قوم : الصَّمَدُ : الدائم الباقى، الذى لم يزل ولا يزال . وقيل : تفسيره ما بعده « لَمْ يَلِدْ ولَمْ يُولَدْ » . قال أُبَىُّ بن كَعْب : الصَّمَدُ : الذى لا يلِدُ ولا يُولَد؛ لأنه ليس شىء إلا سيموت، وليس شىء يموت إلا يُورث . وقال علىّ وٱبن عباس أيضا وأبو وائل شقيق بن سلمة وسفيان : الصَّمَد : هو السيد الذى قد ٱنتهى سُودَدُه فى أنواع الشرف والسُّودَد؛ ومنه قول الشاعر :

عَلَوْتُهُ بِحُسَـامٍ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ * خُذْهَا حُذَيفَ فأنتَ السَّيِّدُ الصَّمَدُ

وقال أبو هريرة : إنه المستغنِى عن كل أحد، والمحتاج إليه كل أحد . وقال السدّىّ : إنه : المقصود فى الرغائب، والمستعان به فى المصائب . وقال الحسين بن الفضل : إنه : الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . وقال مقاتل : إنه : الكامل الذى لا عيب فيه؛ ومنه قول الزبرِقان :

سِيرُوا جميعًا بِنِصْفِ الليلِ واعتمِدُوا * ولا رَهِينَــةَ إلا سَـيِّدٌ صَمَــدُ

وقال الحسن وعِكرمة والضحاك وٱبن جُبير : الصَّمَد : المُصْمَتُ الذى لا جَوْف له(٣)؛ قال الشاعر :

شِهابُ حُرُوبٍ لا تَزالُ جِيادُه * عَوَابِسَ يَعْلُكْنَ الشَّكِيمَ المُصَمَّدَا(٤)

قلت : قد أتينا على هذه الأقوال مبيَّنة فى الصَّمَد، فى (كتاب الأَسْنَى) وأن الصحيح منها ما شهد له الٱشتقاق؛ وهو القول الأوّل، ذكره الخَطَّابى . وقد أسقط من هذه السورة من أبعده الله وأخزاه، وجعل النار مقامه ومثواه، وقرأ «اللهُ الواحدُ الصَّمَدُ» فى الصلاة، والناس يستمعون، فأسْقَط : « قُلْ هو » ، وزعم أنه ليس من القرآن . وغيَّر لفظ « أَحَد » ، وٱدعى أن هذا

---

(١) آية ٥٣ سورة النحل . (٢) ويروى : بخيرى . وهو الصواب ، لأنه ذكر بعده اثنين .
(٣) وهذا لا يجوز على الله تعالى . (٤) علكت الدابة اللجام تعلكه (من باب قتل) علكا : لاكته وحركته . والشكيم والشكيمة : الحديدة المعترضة فى فم الفرس .

Marfat.com

هو الصواب، والذى عليه الناس هو الباطل والمحال؛ فأبطل معنى الآية؛ لأن أهل التفسير قالوا: نزلت الآية جوابا لأهل الشرك لما قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: صِفْ لنا رَبَّك، أمِن ذهب هو أم مِن نحاس أم مِن صُفْر؟ فقال الله عز وجل ردا عليهم: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ». ففى «هُوَ» دلالة على موضع الردّ، ومكان الجواب، فإذا سقط بطل معنى الآية، وصح الافتراء (١) على الله عز وجل، والتكذيب لرسوله صلى الله عليه وسلم. ورَوى الترمذى عن أُبَىّ بن كعب: أن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: انْسُبْ لنا ربك؛ فأنزل الله عز وجل: «قل هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ». والصَّمَد: الذى لم يلد ولم يُولَد؛ لأنه ليس شىء يولد إلا سيموت، وليس شىء يموت إلا سيورَث، وأن الله تعالى لا يموت ولا يورث. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا (٢) أَحَدٌ﴾: قال: لم يكن له شبيه ولا عدل، وليس كمثله شىء. ورُوِى عن أبى العالية: إن النبىّ صلى الله عليه وسلم ذكر آلهتهم فقالوا: انْسُب لنا رَبّك. قال: فأتاه جبريل بهذه السورة «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ»، فذكر نحوه، ولم يذكر فيه عن أُبَىّ بن كعب، وهذا أصح؛ قاله الترمذىّ.

قلت: ففى هذا الحديث إثبات لفظ «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» وتفسير الصَّمَد، وقد تقدّم. وعن عكرمة نحوه. وقال ابن عبـاس: «لَمْ يَلِدْ» كما وَلَدَتْ مَرْيَمُ، ولم يولد كما وُلِدَ عيسى وعُزَيْرٌ. وهو رد على النصارى، وعلى من قال: عُزَيْرٌ ابن الله. «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ» أى لم يكن له مِثلا أحد. وفيه تقديم وتأخير؛ تقديره: ولم يكن له كفوا أحد؛ فقدّم خبر كان على اسمها، لينساق أواخرُ الآى على نظم واحد. وقرِئ «كُفُوا» بضم الفاء وسكونها. وقد تقدّم فى «البقرة» أن كل اسم على ثلاث أحرف أوّله مضموم، فإنه يجوز فى عينه الضم والإسكان (٣)؛ إلا قوله تعـالى: «وجعلوا له من عبادِه جُزْءًا (٤)» لِعلة تقدمت. وقرأ حفص «كفوا» مضموم الفاء غير مهموز. وكلها لغات فصيحة.

---

(١) فى نسخة من الأصل: «فأسقط آية وأبطل المعنى وصحف، افتراء على الله عز وجل ...» الخ.

(٢) بالهمزة قراءة نافع، وهى قراءة المؤلف. (٣) راجع جـ ١ ص ٤٤٧ طبعة ثانية أو ثالثة.

(٤) آية ١٥ سورة الزخرف، راجع جـ ١٦ ص ٦٩

Marfat.com

القول فى الأحاديث الواردة فى فضل هذه السورة ؛ وفيه ثلاث مسائل :

الأولى — ثبت فى صحيح البخارىّ عن أبى سعيد الخُدْرىّ : أن رجلا سمع رجلا يقرأ « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » يردّدها ؛ فلما أصبح جاء إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم، فذكر ذلك له، وكان الرجل يَتَقَالُّها(١)؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "والذى نفسى بيده إنها لتعدل ثُلُثَ القُرْآن" . وعنه قال قال النبىّ صلى الله عليه وسلم لأصحابه : "أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة" فشَقّ ذلك عليهم، وقالوا : أينا يطيق ذلك يا رسول الله ؟ فقال : "اللهُ الواحدُ الصَّمد(٢) ثُلُثُ القرآن" خرجه مسلم من حديث أبى الدرداء بمعناه . وخرج عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "احْشِدوا(٣) فإنى سأقرأ عليكم ثلثَ القُرْآن"، فحَشَدَ(٤) مَنْ حَشَد ؛ ثم خرج نبىّ الله صلى الله عليه وسلم فقرأ « قُلْ هُوَ اللهُ أحد » ثم دخل، فقال بعضنا لبعض : إنى أرى هذا خبرا جاءه من السماء ، فذاك الذى أدخله . ثم خرج فقال : "إنى قلت لكم سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، أَلَا إنها تَعدِل ثلثَ القرآن" قال بعض العلماء : إنها عَدَلَت ثلث القرآن لأجل هذا الاسم ، الذى هو « الصَّمَد »، فإنه لا يوجد فى غيرها من السُّور . وكذلك « أَحَدٌ » . وقيل : إن القرآن أنزل أثلاثا ، ثلثا منه أحكام، وثلثا منه وعد ووعيد ، وثلثا منه أسماء وصفات؛ وقد جمعت « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » [أحَدَ(٥)] الأثلاث ، وهو الأسماء والصِّفات . ودل على هذا التأويل ما فى صحيح مسلم ، من حديث أبى الدرداء عن النبىّ صلى الله عليه وسلم، قال : "إن اللهَ جلّ وعز جزأ القرآن ثلاثة أجزاء، فجعل « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » جزءا من أجزاء القرآن" . وهذا نَصٌّ ؛ وبهذا المعنى سميت سورة الإخلاص، والله أعلم .

الثانية — روى مسلم عن عائشة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلا على سَرِيّة، وكان يقرأ لأصحابه فى صلاتهم، فيختم بـ« قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » ؛ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبىّ صلى

(١) أى يعتقد أنها قليلة فى العمل لا فى التنقيص . (٢) فى شرح العينى على البخارى فى فضائل القرآن : «قوله الله الواحد الصمد : كناية عن قل هو الله أحد» . (٣) من باب قتل وضرب ؛ ويستعمل متعديا ولازما .
(٤) أى اجتمع من اجتمع . (٥) زيادة عن الخطيب .

Marfat.com

الله عليه وسلم فقال : " سَلُوهُ لأيِّ شَيء يصْنع ذلك " ؟ فسألوه فقال : لأنها صفة الرحمن، وأنا أحبُّ أن أقرأ بها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أخبروه أن الله عز وجل يحبه" . وروى الترمذيّ عن أنس بن مالك قال : كان رجل من الأنصار يؤمّهم فى مسجد قُباء، وكان كلما آفتتح سورة يقرؤها لهم فى الصلاة فقرأ بها، آفتتح بـ« قُلْ هو الله أحد » ؛ حتى يفرغ منها ، ثم يقرأ بسورة أخرى معها ، وكان يصنع ذلك فى كل ركعة ؛ فكلمه أصحابه، فقالوا : إنك تقرأ بهذه السورة، ثم لا ترى أنها تجزيك حتى تقرأ بسُورة أخرى ، فإما أن تقرأ بها ، و إما أن تدعها وتقرأ بسورة أخرى ؟ قال : ما أنا بتاركها وإن أحببتم أن أؤمكم بها فعلت، و إن كرهتم تركتكم ؛ وكانوا يرونه أفضلهم ، وكرهوا أن يؤمهم غيره ؛ فلما أتاهم النبيّ صلى الله عليه وسلم أخبروه الخبر، فقال : " يافلان ما يمنعك مما يأمر بة أصحابك ؟ وما يحملك أن تقرأ هذه السورة فى كل ركعة " ؟ فقال : يارسول الله ، إنى أحبها ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ حُبَّها أدخَلَكَ الجنَّة " قال : حديث حسن غريب صحيح . قال آبن العربيّ : « فكان هذا دليلا على أنه يجوز تكرار سورة فى كل ركعة . وقد رأيت على باب الأسباط فيما يقرب منه، إماما من جملة الثمانية والعشرين إماما ، كان يصلى فيه التراويح فى رمضان بالأتراك ؛ فيقرأ فى كل ركعة «الحمد لله» و « قل هو الله أحد » حتى يتم التراويح ؛ تخفيفا عليه، ورغبة فى فضلها وليس من السنة ختم القرآن فى رمضان » .

قلت : هذا نص قولِ مالك ، قال مالك : وليس ختم القرآن فى المساجد بسنة .

الثالثة — روى الترمذيّ عن أنس بن مالك (١) قال : أقبلت مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فسمع رجلا يقرأ « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وجبت " . قلت : وما وجبت ؟ قال : " الجنة " . قال : هذا حديث حسن صحيح (٢) . قال الترمذى :

---

(١) الرواية فى الترمذى عن أبى هريرة .

(٢) فى الترمذى : « حسن غريب » .

Marfat.com

حدّثنا محمد بن مرزوق البصري قال حدّثنا حاتم بن ميمون أبو سهل عن ثابت البُنَانِي عن أنس ابن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " من قرأ كل يوم مائتي مرة قل هو الله أحد، مُحِيَ عنه ذنوب خمسين سنة ، إلا أن يكون عليه دين " . وبهذا الإسناد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " من أراد أن ينام على فراشه، فنام على يمينه، ثم قرأ (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) مائة مرة، فإذا كان يومَ القيامة يقول الرب: يا عبدى، ادخل على يمينك الجنة ". قال: هذا حديث غريب من حديث ثابت عن أنس. وفي مسند أبي محمد الدارمي، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قرأ (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) خمسين مرة، غفرت له ذنوب خمسين سنة" قال: وحدّثنا عبد الله بن يزيد قال حدّثنا حَيْوة قال: أخبرني أبو عَقيل: أنه سمع سعيد بن المسيب يقول : إن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : " من قرأ (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَد) عشر مرات بُنِي له قصر في الجنـة . ومن قرأها عشرين مرة بُنِي له بهـا قصران في الجنة . ومن قرأها ثلاثين مرة بُنِي له بهـا ثلاثة قصور في الجنة " . فقال عمر بن الخطاب : والله يا رسول الله إذًا لَنُكْثِرَنّ قصورنا؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله أوسع من ذلك " قال أبو محمـد : أبو عقيل زُهْرة بن معبد ، وزعموا أنه كان من الأبدال . وذكر أبو نعيم الحافظ من حديث أبي العلاء يزيد بن عبدالله بن الشِّخِّير عن أبيه؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَنْ قَرَأَ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ في مرضه الذى يموت فيه، لم يُفْتَن في قَبره. وأمِن من ضغطةِ القبر. وحملته الملائكة يوم القيامة بأكفها، حتى تجيزه من الصراط إلى الجنة". قال: هذا حديث غريب من حديث يزيد، تفرد به نصر بن حماد البَجَلي. وذكر أبو بكر أحمد بن على ابن ثابت الحافظ عن عيسى بن أبي فاطمة الرازي قال سمعت مالك بن أنس يقول : إذا نُقِس بالناقوس اشتدّ غضب الرحمن، فتنزل الملائكة، فيأخذون بأقطار الأرض، فلا يزالون يقرءون « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » حتى يسكُن غضبُه جل وعز . وخَرّج من حديث محمد بن خالد الجَنَدي عن مالك عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من دخل يوم الجمعة

Marfat.com

المسجد، فصلى أربع ركعات يقرأ فى كل ركعة بفاتحة الكتاب و (قل هو الله أحد) خمسين مرة فذلك مائتا مرة فى أربع ركعات ، لم يَمُتْ حتى يرى منزله فى الجنة أو يُرَى له " » . وقال أبو عُمر مولى جرير بن عبد الله البجليّ، عن جرير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قرأ (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) حين يدخل منزله، نفت الفقر عن أهل ذلك المنزلِ وعن الجيران". وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ قل هو الله أحد مرة بورك عليه، ومن قرأها مرتين بورك عليه وعلى أهله ، ومن قرأها ثلاث مرات بورك عليه وعلى جميع جيرانه ، ومن قرأها اثنتى عشرة بنى الله له اثنى عشر قصرا فى الجنة ، وتقول الحفظة انطلقوا بنا ننظر إلى قصر أخينا، فإن قرأها مائة مرة كفّر الله عنه ذنوب خمسين سنة، ماخلا الدماء والأموال، فإن قرأها أربعمائة مرة كفر الله عنه ذنوب مائة سنة، فإن قرأها ألف مرة لم يمت حتى يرى مكانه فى الجنة أو يرى له " . وعن سهل بن سعد الساعدى قال : شكا رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الفقر وضيق المعيشة ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا دخلتَ البيت فسلِّمْ إن كان فيه أحد، و إن لم يكن فيه أحد فسلم علىّ، واقرأ (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) مرة واحدة " ففعل الرجل فأدرّ الله عليه الرزق، حتى أفاض عليه جيرانه . وقال أنس: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بتَبُوكَ ، فطلعت الشمس بيضاء لها شعاع ونور ، لم أرها فيما مضى طلعت قط كذلك ، فأتى جبريل، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ياجبريلُ، مالى أرى الشمس طلعت بيضاء بشعاع لم أرها طلعت كذلك فيما مضى قط " ؟ فقال : " ذلك لأن معاوية بن معاوية الليثى توفى بالمدينة اليوم، فبعث الله سبعين ألف ملك يُصَلُّون عليه " . قال: " ومِمّ ذلك " ؟ قال: " كان يكثر قراءة (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) آناء الليل وآناء النهار، وفى ممشاه وقيامه وقعوده، فهل لك يارسول الله أن أقبض لك الأرض، فتصلى عليه " ؟ قال " نعم " فصلى عليه ، ثم رجع . ذكره الثعلبى ، والله أعلم .

Marfat.com

تفسير سورة « الفلق »

وهى مكية ؛ فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . ومدنية ؛ فى أحد قولى ابن عباس وقتادة . وهى خمس آيات .

وهذه السورة وسورة «الناس» و«الإخلاص» : تعوّذ بهنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سحرته اليهود ؛ على ما يأتى . وقيل : إن المعوّذتين كان يقال لها المقشقشتان ؛ أى تبرئان من النفاق . وقد تقدم . وزعم ابن مسعود أنهما دعاء تعوّذ به ، وليستا من القرآن ؛ خالف به الإجماع من الصحابة وأهل البيت . قال ابن قتيبة : لم يكتب عبد الله بن مسعود فى مصحفه المعوذتين ؛ لأنه كان يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوّذ الحسن والحسين ـ رضى الله عنهما ـ بهما ، فقدّر أنهما بمنزلة : أعيذ كما بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة . قال أبو بكر الأنبارى : وهذا مردود على ابن قتيبة ؛ لأن المعوذتين من كلام رب العالمين ، المعجز لجميع المخلوقين ؛ و«أعيذ كما بكلمات الله التامة» من قول البشر بيّن . وكلام الخالق الذى هو آية لمحمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، وحجة له باقية على جميع الكافرين ، لا يلتبس بكلام الآدميين ، على مثل عبد الله بن مسعود الفصيح اللسان ، العالم باللغة ، العارف بأجناس الكلام ، وأفانين القول . وقال بعض الناس : لم يكتب عبد الله المعوّذتين لأنه أمن عليهما من النسيان ، فأسقطهما وهو يحفظهما ؛ كما أسقط فاتحة الكتاب من مصحفه ، وما يُشَكّ فى حفظه وإتقانه لها . فردّ هذا القول على قائله ، واحتج عليه بأنه قد كتب : « إذا جاء نصر الله والفتح » ، و « إنا أعطيناك الكوثر » ، و « قل هو الله أحد » وهن يجرين مجرى المعوذتين فى أنهن غير طوال ، والحفظ إليهن أسرع ، ونسيانُهن مأمون ، وكلهن يخالف فاتحة الكتاب ؛ إذ الصلاة لا تتم إلا بقراءتها . وسبيل كل ركعة أن تكون المقدّمة فيها قبل ما يُقرأ من بعدها ، فإسقاط فاتحة الكتاب من المصحف ، على معنى الثقة ببقاء حفظها ، والأمن من نسيانها ، صحيح ، وليس من السور ما يجرى فى هذا المعنى مجراها ، ولا يُسلك به طريقها . وقد مضى هذا المعنى فى سورة « الفاتحة »(1) . والحمد لله .

(1) راجع جـ ١ ص ١١٤ طبعة أو ثالثة .

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) ﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى — روى النسائي عن عقبة بن عامر، قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو راكب، فوضعت يدي على قدمه، فقلت : أقرئني سورة [هود](١) أقرئني سورة يوسف. فقال لي : "ولن تقرأ شيئا أبلغ عند الله من «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ»". وعنه قال: بينا أنا أسير مع النبي صلى الله عليه وسلم بين الجحفة والأبواء، إذ غشتنا ريح مظلمة شديدة، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ بـ«أعوذ برب الفلق»، و «أعوذ برب الناس»، ويقول: "يا عقبة، تعوذ بهما، فما تعوذ متعوذ بمثلهما". قال : وسمعته يقرأ بهما في الصلاة. وروى النسائي عن عبد الله قال : أصابنا طَشٌّ(٢) وظُلْمة، فانتظرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج(٣). ثم ذكر كلاما معناه : فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم [ليصلي بنا](٤)، فقال : "قُلْ". فقلت : ما أقول ؟ قال : "قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ والمعوذتين حين تمسى، وحين تصبح ثلاثا، يكفك كل شيء" وعن عقبة بن عامر الجهني قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قُلْ". قلت : ما أقول ؟ قال قل : "قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ. قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفلق. قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ — فقرأهن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال — لم يتعوذ الناس بمثلهن، أو لا يتعوذ الناس بمثلهن". وفي حديث ابن عباس «قل أعوذ برب

(١) زيادة عن سنن النسائي. (٢) الطش (بفتح الطاء وتشديد الشين) : المطر الضعيف.

(٣) الذي في سنن النسائي : « فانتظرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي بنا، ثم ذكر... الخ ».

(٤) زيادة عن سنن النسائي.

Marfat.com

الفلق وقُلْ أعوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ، هاتين السورتين » . وفى صحيح البخارى ومسلم عن عائشة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى قرأ على نفسه بالمُعَوِّذَتَيْن و يَنْفِثُ ، فلما اشتدّ وجعه كنت أقرأ عليه، وأمسح عنه بيده، رجاءَ بركتها . النَّفْث : النفخ ليس معه ريق .

الثانيــة — ثبت فى الصحيحين من حديث عائشة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سحره يهودىّ من يهود بنى زُرَيْق، يقال له لَبِيدُ بن الأَعْصم ، حتى يخيلُ إليه أنه كان يفعل الشيء ولا يفعله ، فمكث كذلك ما شاء الله أن يمكث — فى غير الصحيح : سنة — ثم قال : "يا عائشة، أُشْعِرت أن الله أفتانى فيما استفتيته فيه . أتانى ملكان، فجلس أحدهما عند رأسى، والآخر عند رِجلى ، فقال [الذى عند رأسى للذى عند رجلى][(1)] : ما شأن الرجل ؟ قال : مَطْبوب[(2)] . قال ومَنْ طَبَّهُ ؟ قال لَبِيد بن الأَعصم . قال فى ماذا ؟ قال فى مُشْطٍ ومُشاطة[(3)] وجُفّ[(4)] طلعةِ ذَكَرٍ، تحت راعوفة[(5)] فى بئر ذى أَرْوان[(6)] " . فجاء البئر واستخرجه . انتهى الصحيح . وقال ابن عباس : " أما شَعَرْتِ[(7)] يا عائشة أن الله تعالى أخبرنى بدائى ". ثم بعث عليا والزبير وعمار ابن ياسر، فنزحوا ماء تلك البئر كأنه نقاعة الحناء ، ثم رفعوا الصخرة وهى الراعوفة — صخرة تترك أسفل البئر يقوم عليها المائح[(8)] ، وأخرجوا الجُفّ ، فإذا مُشاطة رأس إنسان ، وأسنان من مُشْط ، و إذا وتر معقود فيه إحدى عشرة عقدة مغرزة بالإبر، فأنزل الله تعالى هاتين السورتين، وهما إحدى عشرة آية على عدد تلك العُقَد ، وأمر أن يُتَعَوَّذ بهما ؛ فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة، ووجد النبيّ صلى الله عليه وسلم خِفَّة ، حتى انحلت العقدة الأخيرة ، فكأنما أُنشط من عِقال ، وقال : ليس به بأس . وجعل جبريل يَرْقِى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : "باسم الله

(١) زيادة عن الصحيحين . (٢) المطبوب : المسحور . (٣) فى بعض نسخ الأصل و بعض كتب الحديث : « ومشاقة » بالقاف بدل الطاء ، وهو ما يستخرج من الكتان . والمشط : الآلة التى يمشط بها الشعر .

(٤) الجف (بضم الجيم وتشديد الفاء) : الغشاء الذى يكون على الطلع و يطلق على الذكر والأنثى ؛ فلذا قيده بقوله « ذكر » . (٦) ويقال : « بئر ذروان » ، وهى بئر بالمدينة ، فى بستان بنى زريق .

(٧) أى فى روايته . (٨) فى بعض نسخ الأصل : « الماتح » بالتاء المثناة من فوق ، وهو المستقى من البئر بالدلو ، من أعلى البئر . أما المائح بالهمز فهو : الذى يكون فى أسفل البئر يملأ الدلو .

Marfat.com

أَرْقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر حاسدٍ وعَيْن، والله يَشْفيك". فقالوا : يارسول الله، ألا نقتل الخبيث . فقال : "أمّا أنا فقد شفاني الله، وأكره أن أثير على الناس شرًّا". وذكر القشيرى فى تفسيره أنه ورد فى الصِّحاح : أن غلاما من اليهود كان يخدُم النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فدسَّت(١) إليه اليهود ، ولم يزالوا به حتى أَخَذ مُشاطة رأس النبيّ صلى الله عليه وسلم . والمُشاطة (بضم الميم) : ما يسقُط من الشعر عند المشط . وأخذ عدّة من أسنان مُشْطه ، فأعطاها اليهود، فسحروه فيها ، وكان الذى تولى ذلك لَبِيدُ بن الأَعْصم اليهوديّ . وذكر نحو ما تقدّم عن آبن عباس .

الثالثــة — تقدّم فى البقـرة القول فى السـحر وحقيقته ، وما ينشأ عنـه من الآلام والمفاسد، وحكم الساحر ؛ فلا معنى لإعادته(٢) .

الرابعــة — قوله تعـالى : ﴿ الفَلَق ﴾ آختُلف فيـه ؛ فقيل : سِجن فى جَهنم ؛ قاله آبن عباس . وقال أُبَيّ بن كعب : بيت فى جهنم إذا فُتح صاح أهـل النار من حره . وقال الحُبُلِيّ أبو عبد(٣) الرحمن : هو اسم من أسماء جهنم . وقال الكلبي : واد فى جهنم . وقال عبد الله ابن عمر : شجرة فى النار . سعيد بن جبير : جُبٌّ فى النار . النحاس : يقال لمـا أطمأنّ من الأرض فَلَق ؛ فعلى هذا يصح هـذا القول . وقال جابر بن عبد الله والحسن وسعيد بن جبير أيضا ومجاهد وقتادة والقُرَظيّ وآبن زيد : الفَلَق، الصُّبْح . وقاله آبن عباس . تقول العرب : هو أبين من فَلَقِ الصُّبْح وفَرَق الصبح . وقال الشاعر :

يا ليـلةً لم أَنَمْهـا بِتُّ مُرْتَفِقا(٤) * أَرْعَى النجومَ إلى أَنْ نَوّرَ الفَلَقُ

وقيل : الفلق : الجبال والصخور تنفلق بالمياه؛ أى تتشقق . وقيل : هو التفليق بين الجبال والصخور ؛ لأنها تتشقق من خوف الله عز وجل . قال زهير :

ما زِلْتَ أَرْمُقُهم حتّى إذا هَبَطَتْ * أيدى الرِّكابِ بِهِمْ مِن راكِسٍ فَلَقَا

(١) فى نسخة : فدنت .
(٢) راجع ج ٢ ص ٤٣ فما بعدها طبعة ثانية .
(٣) هو عبد الله بن يزيد المعافرى .
(٤) المرتفق : المتكىء على مرفق يده .

Marfat.com

الراكس : بطن الوادى . وكذلك هو فى قول النابغة :

* أَتانِي ودُونِي راكِسٌ فالضَّواجِعُ (١) *

والراكس أيضا : الهادى، وهو الثور وسط البَيْدَر (٢)، تدور عليه الثيران فى الدِّياسة . وقيل : الرحم تنفلق بالحيوان . وقيل : إنه كل ما انفلق عن جميع ما خَلَق من الحيوان والصبح والحبّ والنَّوَى ، وكل شيء من نبات وغيره ؛ قاله الحسن وغيره . قال الضحاك : الفَلَقُ الخَلْق كُلُّه ؛ قال :

وَسْوَسَ يَدْعُو مُخْلِصًا رَبَّ الفَلَقْ * سِرًّا وقد أَوَّنَ تَأْوِينَ العُقُقْ (٣)

قلت : هذا القول يشهد له الاشتقاق ؛ فإن الفَلْق الشق . فَلَقْتُ الشيء فلقا أى شققته . والتفليق مثله . يقال : فَلَقته فانفلق وتَفَلَّق . فكل ما انفلق عن شيء من حيوان وصبح وحب ونَوًى وماء فهو فَلَق ؛ قال الله تعالى : « فالِقُ الإصباح (٤) » قال : « فالِقُ الحَبِّ والنَّوَى (٥) » . وقال ذو الرمة يصف الثور الوحشىّ :

حَتَّى إذا ما انْجَلَى (٦) عن وجهه فَلَقٌ * هادِيه فى أُخْرَيَاتِ اللَّيلِ مُنْتَصِبُ

يعنى بالفلق هنا : الصبح بعينه . والفلق أيضا : المطمئن من الأرض بين الرَّبْوتين ، وجمعه : فُلْقان ؛ مثل خَلَق وخُلْقان . وربما قالوا : كان ذلك بفالق كذا وكذا ؛ يريدون المكان المنحدر

---

(١) صدر البيت : * وعيد أبى قابوس فى غير كنهه *
والضواجع : جمع ضاجعة ، وهى منحنى الوادى .

(٢) البيدر : الموضع الذى يداس فيه الحبوب . (٣) ورد هذا البيت فى الأصول محرفا . وهو من أرجوزة رؤبة بن العجاج التى مطلعها : * وقاتم الأعماق خاوى المخترق *
وقوله : « أون » أى أكل وشرب حتى امتلأ بطنه . والعقق : جمع عقوق كرسول ورسل وهى التى تكامل حملها، وقرب ولادها . وصف صائدا لما أحس بالصيد — وهى الأتن التى وردت الماء فشربت حتى امتلأت خواصرها — وأراد رؤبة : وسوس نفسه بالدعاء حذر الخيبة . (٤) آية ٩٦ سورة الأنعام . (٥) آية ٩٥ سورة الأنعام .

(٦) كذا فى الأصول واللسان . والذى فى الديوان : « ماجلا » . وقال ابن برى : الرواية الصحيحة :
* حتى إذا ما جلا عن وجهه شفق *
وقوله تعالى « هاديه » أى أوله ؛ مأخوذ من الهادى ، وهو مقدم العنق .

Marfat.com

بين الربوتين. والفَلَق أيضا مِقطرة السَّجان[1]. فأما الفِلْق (بالكسر): فالداهية والأمر العجب؛ تقول منه: أفلق الرجل وٱفتلق. وشاعر مُفْلِق، وقد جاء بالفِلْق [أى بالداهية]. والفِلْق أيضا: القضيب يُشَقّ باثنين، فيعمل منه قَوْسان، يقال لكل واحدة منهما فِلْق. وقولهم: جاء بعُلَق فُلَق؛ وهى الداهية؛ لا يُجرى [مُجرى عُمَر][2]. يقال منه: أعلقت وأفلقت؛ أى جئت بعُلَق فُلَق. ومرّ يفتلق فى عدوه؛ أى يأتى بالعجب من شدّته.

وقوله تعالى: ﴿مِن شرِ ما خَلَق﴾ قيل: هو إبليس وذرّيته. وقيل جهنم. وقيل: هو عام؛ أى من شر كل ذى شر خلقه الله عز وجل.

الخامسة — قوله تعالى: ﴿ومِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ ٱختُلف فيه؛ فقيل: هو الليل. والغَسَق: أوّل ظلمة الليل؛ يقال منه: غَسَقَ الليلُ يغْسِق أى أظلم. قال [ٱبن] قيس الرقيات:

إنَّ هَـذَا الليلَ قد غَسَقا * واشتكَيْتُ الهَمَّ والأَرَقا

وقال آخر:

ياطيفَ هِندٍ لقَدْ أَبقَيت لِى أَرَقًا * إذْ جِئتنا طارِقًا والليلُ قَدْ غَسَقَا

هذا قول ٱبن عباس والضحاك وقتادة والسُّدّى وغيرهم. و «وَقَبَ» على هذا التفسير: أظلم؛ قاله ٱبن عباس. والضحاك: دَخَلَ. قتادة: ذَهَبَ. يَمانُ بن رِئاب: سَكَن. وقيل: نزل؛ يقال: وَقَبَ العذاب على الكافرين؛ نَزَلَ. قال الشاعر:

وَقَبَ العَذابُ عليهِمُ فكأنَّهُمْ * لَحِقَتْهُمُ نارُ السَّمُومِ فأُحْصِدُوا

وقال الزجاج: قيل الليل غاسق لأنه أبرد من النهار. والغاسق: البارد. والغَسَق: البرد؛ ولأن فى الليل تخرج السِّباع من آجامها، والهوامُّ من أماكنها، وينبعث أهل الشر على العيث

(١) المقطرة (بكسر الميم): خشبة فيها خروق كل خرق على قدر سعة الساق يدخل فيها أرجل المحبوسين؛ مشتق من قطار الإبل.

(٢) زيادة من اللسان مادة (علق) يقتضيها السياق. وفى الأساس مادة (فلق): «وجاء بعلق» على التركيب كخمسة عشر.

Marfat.com

والفساد . وقيل : الغاسق : الثُّريَّا ؛ وذلك أنها إذا سقطت كثرت الأسقام والطواعين ، وإذا طلعت ارتفع ذلك ؛ قاله عبد الرحمن بن زيد . وقيل : هو الشمس إذا غربت ؛ قاله ابن شهاب . وقيل : هو القمر . قال القُتَبِيّ : « إذا وَقَبَ » القمر : إذا دخل في ساهوره ، وهو كالغلاف له ، وذلك إذا خُسِفَ به . وكل شيء أسود فهو غَسَق . وقال قتادة : « إذا وَقَبَ » إذا غابَ . وهو أصح ؛ لأن في الترمذيّ عن عائشة : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم نظر إلى القمر ، فقال : "يا عائشة ، استعيذي بالله من شر هذا ، فإن هذا هو الغاسق إذا وَقَبَ". قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وقال أحمد بن يحيي ثعلب عن ابن الأعرابي في تأويل هذا الحديث : وذلك أن أهل الرِّيَب يَتَحينون وَجبة القمر . وأنشد :

أراحني اللهُ مِن أشياءَ أَكرهُها * منها العجوزُ ومنها الكلبُ والقمرُ
هذا يبوحُ وهذا يُستضاءُ بِهِ * وهذه ضِمْرِزٌ قَوّامَةُ السَّحَرِ (١)

وقيل : الغاسق : الحية إذا لدغت . وكأن الغاسق نابُها ؛ لأن السم يغسق منه ؛ أي يسيل . ووقب نابها : إذا دخل في اللديغ . وقيل : الغاسق : كل هاجم يضر، كائنا ما كان ؛ من قولهم : غسقتِ القرحة : إذا جرى صديدُها .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ ومِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي العُقَدِ ﴾ يعني الساحرات اللائي ينفُثْن في عُقَد الخيط حين يَرْقِينَ عليها . شبه النفخ كما يعمل من يرقي . قال الشاعر :

أَعوذُ بِرَبِّي مِنَ النَّافِثا * تِ في عِضَهِ العاضِهِ المُعْضِهِ (٢)

وقال مُتَمِّم بن نُوَيْرة :

نَفَثَتَ في الخيطِ شَبِيهَ الرُّقَى * مِن خشيةِ الجِنَّةِ والحاسِدِ

وقال عنترة :

فإنْ يَبرأْ فَلَمْ أَنْفُثْ عَلَيهِ * وإنْ يُفْقَدْ فَحُقَّ لَهُ الفُقُودُ

(١) الضمرز (كزبرج) : الناقة المسنة . ومن النساء الغليظة . وقد وردت هذه الكلمة في نسخ الأصل محرفة ، ففي بعضها « صمود » وفي بعضها الآخر : « ضمور » وهو تحريف . وفي البيت إقواء ؛ وهو اختلاف حركات الروى .
(٢) العضه (كعنب) : الكذب والسحر والبهتان . والعاضه : الساحر .

Marfat.com

السابعة — روى النسائى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من عَقَد عُقدة ثم نَفَث فيها، فقد سَحَر، ومن سحر فقد أَشْرَك، ومَنْ تَعَلَّق شيئا وُكِل إليه"(١). واختلف فى النفْث عند الرُّقَى، فمنعه قوم، وأجازه آخرون . قال عكرمة : لا ينبغى للراقى أن ينفُث، ولا يمسح ولا يعقِد . قال إبراهيم : كانوا يكرهون النفث فى الرُّقَى . وقال بعضهم : دخلت على الضحاك وهو وجِع، فقلت : ألا أُعَوِّذك يا أبا محمد؟ قال : بلى، ولكن لا تنفث؛ فعوّذته بالمعوذتين . وقال ابن جريج قلت لعطاء : القرآن يُنفَخ به أو يُنْفَثُ ؟ قال : لا شىء من ذلك ولكن تقرؤه هكذا . ثم قال بعد : انفِث إن شئت . وسئل محمد بن سيرين عن الرُّقية يُنْفث فيها، فقال : لا أعلم بها بأسا، وإذا اختلفوا فالحاكم بينهم السنة . روت عائشة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان ينفِث فى الرُّقية؛ رواه الأئمة، وقد ذكرناه أوّل السورة وفى (سُبْحان)(٢) . وعن محمد بن حاطب أن يده احترقت فأتت به أمه النبىّ صلى الله عليه وسلم، فجعل ينفُث عليها ويتكلم بكلام؛ زعم أنه لم يحفظه . وقال محمد بن الأشعث : ذُهِب بى إلى عائشة رضى الله عنها وفى عينىّ سوء، فرقَتْنِى ونَفَثَت .

وأما ما رُوى عن عكرمة من قوله : لا ينبغى للراقى أن ينفُث؛ فكأنه ذهب فيه إلى أن الله تعالى جعل النفْث فى العُقَد مما يستعاذ به، فلا يكون بنفسه عُوذة . وليس هذا هكذا؛ لأن النفث فى العُقَد إذا كان مذموما لم يجب أن يكون النفث بلا عُقَد مذموما . ولأن النفث فى العُقَد إنما أريد به السحر المضرّ بالأرواح، وهذا النفث لاستصلاح الأبدان، فلا يقاس ما ينفع بما يضر . وأما كراهة عكرمة المسح فخلاف السنة . قال على رضى الله عنه : اشتكيت، فدخل علىّ النبىّ صلى الله عليه وسلم وأنا أقول : اللهمّ إنْ كان أجلى قد حَضَر فأرِحنِى، وإن كان متأخرا فآشفنى وعافنى، وإن كان بلاء فصبّرنى . فقال النبىّ صلى الله عليه

(١) أى من علق شيئا من التعاويذ والتمائم معتقدا أنها تجلب إليه نفعا أو تدفع عنه ضررا . وقيل : المراد تمائم الجاهلية مثل الخرزات وأظفار السباع . أما ما يكون من القرآن والأسماء الإلهية فهو خارج عن هذا الحكم . (شرح سنن النسائى) .

(٢) راجع جـ ١٠ ص ٣١٥ فما بعدها .

Marfat.com

وسلم : "كيف قلت" ؟ فقلت له . فمسحني بيده، ثم قال : "اللهم اشفه" فما عاد ذلك الوجع بعد . وقرأ عبد الله بن عمرو وعبد الرحمن بن سابط وعيسى بن عمر ورويس عن يعقوب « ومن شر النافثات » في وزن (فاعلات) . ورُويت عن عبد الله بن القاسم مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنهما . وروى أن نساء سحرن النبيّ صلى الله عليه وسلم في إحدى عشرة عقدة ، فأنزل الله المعوذتين إحدى عشرة آية . قال ابن زيد : كنّ من اليهود ؛ يعني السواحر المذكورات . وقيل : هنّ بنات لَبِيد بن الأعصم .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ ومِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ قد تقدم في سورة « النساء » معنى الحسد[1]، وأنه تمني زوالِ نعمة المحسود وإن لم يصر للحاسد مثلها . والمنافسة هي تمني مثلها وإن لم تزل . فالحسدُ شرٌّ مذموم . والمنافسة مباحة وهي الغِبطة . وقد روى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "المؤمن يَغْبِطُ ، والمنافق يَحْسُدُ" . وفي الصحيحين : "لا حَسَد إلا في اثنتين" يريد لاغِبْطَةَ[2] . وقد مضى في سورة « النساء » والحمد لله .

قلت : قال العلماء : الحاسد لا يضر إلا إذا ظهر حسده بفعل أو قول ، وذلك بأن يحمله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود، فيَتْبَع مساوئه ويطلب عَثَراته . قال صلى الله عليه وسلم : "إذا حَسَدت فلا تَبْغ ..." الحديث . وقد تقدم . والحسد أول ذنب عُصِي الله به في السماء، وأول ذنب عُصِي به في الأرض، فحَسَدَ إبليس آدمَ ، وحسد قابيلُ هابيلَ . والحاسد ممقوت مبغوض مطرود ملعون . ولقد أحسن من قال :

قل للحسود إذا تَنَفَّس طَعْنَةً * يا ظالمًا وكأنهُ مَظْلُومُ

التاسعة — هذه سورة دالة على أن الله سبحانه خالق كل شر، وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتعوّذ من جميع الشرور . فقال : « مِنْ شرِّ ما خلَقَ » . وجعل خاتمة ذلك الحسد،

---

(١) معنى الحسد تقدم في سورة البقرة جـ ٢ ص ٧١ طبعة ثانية . وراجع أيضا سورة النساء جـ ٥ ص ٢٥١

(٢) هذا مذكور في سورة النساء . فليراجع .

Marfat.com

تنبيها على عِظمه، وكثرة ضرره . والحاسد عدوّ نعمة الله . قال بعض الحكماء: بارزَ الحاسد ربه من خمسة أوجه : أحدها — أنه أبغض كل نعمة ظهرت على غيره . وثانيها — أنه ساخط لقسمة ربه ، كأنه يقول : لم قسمت هـذه القسمة ؟ وثالثهـا — أنه ضادّ فعـل الله ، أى إن فضل الله يؤتيه من يشاء، وهو يبخل بفضل الله . ورابعها — أنه خذل أولياء الله، أو يريد خذلانهم وزوال النعمة عنهم . وخامسها — أنه أعان عدوّه إبليس . وقيل : الحاسد لا ينال في المجالس إلا ندامة ، ولا ينال عند الملائكة إلا لعنة و بغضاء ، ولا ينال في الخلوة إلا جزعا وغما، ولا ينال في الآخرة إلا حُزنا واحتراقا، ولا ينال من الله إلا بعدا ومقتا . ورُوى أن النبيّ صلى الله عليـه وسلم قال : " ثلاثة لا يُستجاب دعاؤهم : آكل الحـرام ، ومُكثِر الغيبة ، ومن كان في قلبه غِلّ أو حسد للسلمين " . والله سبحانه وتعالى أعلم .

ســـورة « النـاس »

مِثل « الفلق » لأنها إحدى المعوذتين . وروى الترمذيّ عن عقبة بن عامر الجهنيّ عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم قال : " لقـد أنزل الله علىّ آيات لم يُرَ مِثْلُهنّ : « قل أعوذُ بربّ النـاس » إلى آخر السُّـورة و « قُلْ أعوذُ بِرب الفلق » إلى آخِر الســورة " . قال : هذا حديث حسن صحيح . ورواه مسلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعـالى : قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أعوذُ بِرَبِّ النَّاس ﴾ أى مالكهم ومُصْلِح أمورهم . وإنما ذكر أنه رب الناس ، وإن كان ربا لجميع الخلق لأمرين : أحدهما — لأن الناس مُعَظَّمون ؛ فأَعْلَمَ بذكرهم أنه ربٌّ لهم وإن عظموا . الثاني — لأنه أمر بالاستعاذة من شرهم ؛ فأعلم بذكرهم

أنه هو الذى يُعيذ منهم . وإنما قال : ﴿ مَلِكِ النَّاسِ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴾ لأن فى الناس ملوكا يذكر أنه مَلِكُهم ، وفى الناس من يعبد غيره ، فذكر أنه إلههم ومعبودهم ، وأنه الذى يجب أن يُستعاذ به ، ويُلْجأ إليه ، دون الملوك والعظماء .

قوله تعالى : مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾

يعنى : مِن شر الشيطان . والمعنى : من شر ذى الوسواس ؛ فحذف المضاف ؛ قاله الفرّاء : وهو (بفتح الواو) بمعنى الأسم ؛ أى المُوسوِس . و (بكسر الواو) المصدر ؛ يعنى الوسوسة . وكذا الزِّلزال والزَّلزال . والوسوسة : حديث النفس . يقال : وسوست إليه نفسه وَسْوسة ووِسوَسَة (بكسر الواو) . ويقال لهمس الصائد والكلاب وأصوات الحُلِىّ : وَسْواس . قال ذو الرمة :

فبـاتَ يُشْـئِزه ثَأدٌ ويُسْهِـرُهُ * تَذَؤُّبُ الرِيحِ والوَسْواسُ والهِضَبُ [(١)]

وقال الأعشى :

تسمعُ للحَلْى وَسْواسا إذا انصرفت * كما استعانَ بريحٍ عِشْرِقٌ زَجِـلُ [(٢)]

وقيل : إن الوسواس الخناس ابن لإبليس ، جاء به إلى حواء ، ووضعه بين يديها وقال : اكْفُليه . فجاء آدم [عليه السلام] [(٣)] فقال : ما هـذا [يا حواء] [(٣)] ! قالت : جاء عدونا بهذا وقال لى : اكْفُليه . فقال : ألم أقل لكِ لا تطيعيه فى شىء ، هو الذى غرنا حتى وقعنا فى المعصية ؟ وعمد إلى الولد فقطعه أربعة أرباع ، وعلق كل ربع على شجرة ، غيظا له ؛ فجاء إبليس فقال : يا حـواء ، أين ابنى ؟ فأخبرته بما صنع به آدم [عليه السلام] فقال : يا خَنَّاس ، فحيى فأجابه . فجاء به إلى حواء وقال : اكفليه ؛ فجاء آدم [عليه السلام] فحرّقه بالنار ، وذرّ رماده فى البحر ؛ فجاء إبليس [عليه اللعنة] فقال : ياحوّاء ، أين ابنى ؟ فأخبرته بفعل آدم إياه ؛ فذهب

(١) شئز الرجل : قلق من مرض أو هم . والثأد : الندى والقـر والأمر القبيح . وتذؤب الريح : هبوبها من كل وجه ، وهو مأخوذ من خداع الذئب . والهضب (بكسر الهاء) : الأمطار .
(٢) العشرق (كزبرج) : نبت له ورق فإذا يبس طار . ونبت زجل : صوّت فيه الريح .
(٣) زيادة عن نوادر الأصول للترمذى الحكيم .

Marfat.com

إلى البحر، فقال : يا خنّاس، فجيء فأجابه. فجاء به إلى حواء الثالثة، وقال : اكفليه. فنظر؛ إليه آدم، فذبحه وشواه، وأكلاه جميعا. فجاء إبليس فسألها فأخبرته [حوّاء][1]. فقال : يا خنّاس، فجيء فأجابه [فجاء به] من جوف آدم وحوّاء. فقال إبليس : هذا الذى أردت، وهذا مسكنك فى صدر ولد آدم؛ فهو ملتقم قلب ابن آدم ما دام غافلا يوسوس، فإذا ذكر الله لفظ قلبه وانخنس. ذكر هذا الخبر الترمذيّ الحكيم فى نوادر الأصول بإسناد عن وهب ابن منبه. وما أظنه يصح، والله تعالى أعلم. ووُصف بالخناس لأنه كثير الاختفاء؛ ومنه قوله تعالى : « فلا أقسم بالخُنَّس »[2] يعنى النجوم، لاختفائها بعد ظهورها. وقيل : لأنه يخنِس إذا ذكر العبدُ اللهَ؛ أى يتأخر. وفى الخبر " إن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا غفل وسْوس، وإذا ذكر اللهَ خنَس " أى تأخر وأقصر. وقال قتادة : « الخنّاس » الشيطان له خرطوم كخرطوم الكلب فى صدر الإنسان، فإذا غفل الإنسان[3] وسوس له، وإذا ذكر العبد ربه خنَس. يقال : خنَسْتُه فخنَس؛ أى أخرته فتأخر. وأخنسته أيضا. ومنه قول أبى العلاء الحضرميّ — أنشد رسول الله صلى الله عليه وسلم — :

وإنْ دَحَسُوا بالشّر فاعْفُ تكرما * وإنْ خنَسُوا عندَ[4] الحديث فلا تَسَلْ

الدَّحس : الإفساد. وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الشيطان واضع خَطْمه على قلب ابن آدم، فإذا ذكر الله خنَس، وإذا نسِي الله التقم قلْبه فوسوس ". وقال ابن عباس : إذا ذكر اللهَ العبدُ خنَس من قلبه فذهب، وإذا غفل التقم قلبه فحدّثه ومنّاه. وقال إبراهيم التيميّ : أوّل ما يبدو الوسواس من قِبل الوضوء. وقيل : سمى خنّاسا لأنه يرجع إذا غفَل العبدُ عن ذكر الله. والخَنَس : الرجوعُ. وقال الراجز :

وصاحب يمْتعِس[5] امتعاسا * يزدادُ إن حيّيْته[6] خِناسا

---

(١) زيادة عن الترمذى الحكيم. (٢) آية ١٥ سورة التكوير.

(٣) فى نسخة من الأصل : « ابن آدم ». (٤) فى اللسان : « عنك ».

(٥) يمتعس : يتحرك. (٦) فى بعض الأصول « جئته » وبعضها « جئته » وفى بعضها بدون إعجام.

Marfat.com

وقد روى ابن جُبير عن ابن عباس فى قوله تعالى : « الوَسواسِ الخنــاسِ » وجهين : أحدهما — أنه الراجع بالوسوسة عن الهدى — الثانى — أنه الخارج بالوسوسة من اليقين .

قوله تعــالى : ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّـاسِ ﴿٥﴾

قال مقــاتل : إن الشيطان فى صورة خنزير، يجرى مِن ابن آدم مجرى الدم فى العروق، سلَّطه الله على ذلك؛ فذلك قوله تعــالى : « الذى يُوَسْوِس فِى صدورِ الناسِ » . وفى الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: " إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم " . وهذا يصحح ما قاله مقاتل . وروى شَهْر بن حَوْشَب عن أبى ثعلبــة الخُشَنيّ قال : سألت الله أن يرينى الشيطان ومكانه من ابن آدم فرأيته، يداه فى يديه، ورجلاه فى رجليه، ومشاعبه فى جسده؛ غير أن له خَطْمًا كخطم الكلب ، فإذا ذَكَر الله خنس ونكس ، وإذا سكت عن ذكر الله أخذ بقلبه . فعلى ما وصف أبو ثعلبة أنه متشعب فى الجسد؛ أى فى كل عضو منه شعبة . وروى عن عبد الرحمن بن الأســود أو غيره من التابعين أنه قال — وقد كبِر ســنه — : ما أمِنت الزنى وما يؤمننى أن يدخل الشيطان ذكره فيوتده! فهذا القول ينبئك أنه متشعب فى الجسد، وهذا معنى قول مقاتل . ووسوسته : هو الدعاء لطاعته بكلام خفيّ، يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع صوت .

قوله تعــالى : مِنَ ٱلْجِنَّـةِ وَٱلنَّـاسِ ﴿٦﴾

أخبر أن الموسوِس قد يكون من الناس . قال الحسن : هما شيطانان؛ أمّا شيطان الجنّ فيوسوس فى صدور الناس، وأما شيطان الإنس فيأتى علانية . وقال قتــادة : إن من الجنّ شياطينَ، وإن من الإنس شياطين؛ فتعوّذ بالله من شياطين الإنس والجنّ . وروى عن أبى ذر أنه قال لرجل : هل تعوّذت بالله من شياطين الإنس؟ فقال : أوَمِن الإنس شياطين؟ قال : نعم؛ لقوله تعالى: « وكذلِك جعلنا لِكل نبى عدوا شياطِين الإنسِ والجِن » ... الآية[1] . وذهب قوم إلى أن الناس هنا يراد به الجن . سموا ناسا كما سموا رجالا فى قوله : « وأنه كان رِجال مِن

(١) آية ١١٢ من سورة الأنعام .

Marfat.com

الإنس يعوذون برِجالٍ مِن الجن»[1] — وقوما ونفرا[2] . فعلى هذا يكون « والناسِ » عطفا على « الجنة » ، ويكون التكرير لاختلاف اللفظين . وذكر عن بعض العرب أنه قال وهو يحدّث : جاء قوم من الجن فوقفوا . فقيل : مَنْ أنتم ؟ فقالوا : ناس من الجن . وهو معنى قول الفرّاء . وقيل : الوسواس هو الشيطان . وقوله : « مِن الجِنـةِ » بيان أنه من الجن « والناسِ » معطوف على الوسواس . والمعنى : قل أعوذ برب الناس من شر الوسواس ، الذى هو من الجنة ، ومن شر الناس . فعلى هذا أمِر بأن يستعيذ من شر الإنس والجن . والجِنّة : جمع جِنّى ؛ كما يقال : إنس و إنسىّ . والهاء لتأنيث الجماعة . وقيل : إن إبليس يوسوس فى صدور الجن ، كما يوسوس فى صدور الناس . فعلى هذا يكون « فى صدور الناس » عاما فى الجميع . و « من الجنة والناس » بيان لما يوسوس فى صدره . وقيل : معنى « مِن شر الوسواسِ » أى الوسوسة التى تكون من الجنـة والناس ، وهو حديث النفس . وقد ثبت عن النبىّ صـلى الله عليه وسـلم أنه قال : " إن الله عز وجل تجاوز لأمتى عما حدّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به " . رواه أبو هريرة ، أخرجه مسلم . فالله تعـالى أعلم بالمراد من ذلك .

(١) آية ٦ سورة الجن .

(٢) وذلك فى قوله تعالى : « و إذ صرفنا إليك نفرا من الجن ... » آية ٢٩ سورة الأحقاف .

Marfat.com

خاتمة المطبع

بحمد الله وتوفيقه ، تمت هذه الطبعة الثانية لتفسير الإمام القرطبي ، بمطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ، فى غرة شهر ذى الحجة من سنة ١٣٨٦ هـ — الموافق ١٢ من مارس سنة ١٩٦٧ م ، وذلك فى عهد الثورة الاشتراكية المباركة ، رغبة من رئيسها العظيم السيد / جمال عبد الناصر ، ورجال حكومته المخلصين لدينهم وعروبتهم ، وثقافتهم الإسلامية ، فى إذاعة الثقافة الدينية العالية والثقافة العربية ، فى جميع الآفاق العربية والإسلامية .

وقد زادت الدار من عنايتها فى هذه الطبعة من تفسير القرطبي ، فحرصت على أن تراجع المطبوعة الحديثة على جميع الأصول المخطوطة القديمة ، وعلى ما عثر عليه حديثا منها ، ولذلك جاءت هذه الطبعة أوفى تدقيقا وتحقيقا ، وأكثر ضبطا وتيسيرا ، من الطبعات التى سبقتها .

والله تعالى يوفق الدار إلى المزيد من إخراج الأصول المهمة فى الدين واللغة والأدب فى عهد هذه الثورة المباركة التى يقودها الرئيس المفدى السيد / جمال عبد الناصر ، إنه مجيب الدعاء .

مصطفى السقا
الأستاذ بجامعة القاهرة

Marfat.com

بحمـد الله وعونه ، تم طبع الجـزء العشرين وهو الأخير ، من كتاب
"الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن فرج الأنصـاري القرطبي"

Marfat.com